عالم الغيب

بين الوحي والعقل

دراسة مقارنة في ضوء القرآن والسُّنَّة

إعداد
الدكتور يحيى مراد

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السُّنَّة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3844-8
9 782745 138446 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الغيب هو: العقبة التي يجتازها الإنسان فيعلو درجات في الرقي، وينفرد عن من لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، وهذه نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله.

والغيب هو: المقابل للشهادة، وهو: العتبة التي يقف عندها البشر من حيث المعرفة، والغيب هو: الفيصل بين العبودية القاصرة والألوهية الكاملة، وعليه فعلم الغيب على وجه الإحاطة به من خصائص الله سبحانه وتعالى، أما البشر فليسوا مؤهلين بتكوينهم هذا للاطلاع على الغيب إلا القليل منه، وهو الذي يطلعهم عليه ربهم عز وجل لا بقدرتهم الخاصة، ولهذا قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[١].

وانقسم الناس إزاء قضايا الغيب قسمين: مؤيد ومعارض، فهناك من أيد هذه العقيدة واعتبرها الجزء الهام، وأن الحياة بدونها عبث ولهو، بينما نجد القسم الثاني قد اعتبر الاعتقاد ميلا للخرافة وهروبًا من الواقع، ولكل فريق حجته.

وقد مثل القرآن الكريم -عند المسلمين- همزة الوصل بين السماء والأرض، وقد بين الله -سبحانه وتعالى- فيه كل مسائل العقيدة أوضح بيان، مقربًا المعاني الغيبية تقريبًا يبين فحواها، ويجعلها في متناول الإدراكات البشرية، من غير أن يكون فيها ما يمكن أن يرفضه العقل السليم، أو يستحيله.

فقد تحدث القرآن الكريم عن الله -عز وجل- ذاتًا وصفاتًا وأفعالا، وبين ذلك كله وصوره تصويرًا مناسبًا لمقدار تعقل الإنسان لها وتصوره لكمالها[٢]، كما تحدث القرآن عن أمور الغيب الأخرى، كالملائكة، والجن، والموت، والبرزخ، وأشراط

---

(١) الأعراف ١٨٨.

(٢) د.محمد السيد الجليند: قضية الألوهية بين الدين والفلسفة، دار قباء، القاهرة، د. ط، ٢٠٠١م.

الساعة، والبعث، والحشر، والحساب، والثواب، والعقاب، والجنة، والنار..إلخ.

كما جاءت السنة النبوية الشريفة ففصلت القول في هذه المسائل، وزادها بيانًا وإيضاحًا، كما ذكرت أشياء لم يذكرها القرآن الكريم.

ومثلت هذه المسائل وغيرها جوهر العقيدة الإسلامية وصلبها، وقد تلقاها الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- والسلف الصالح من بعدهم بالإيمان والتسليم، وفهموها فهمًا سليمًا دون إشكال، وخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ثم دار الزمان دورته وبعد الناس عن المعين الصافي الذي كانوا يردونه ويستقون منه، فدخل في عقائد الكثيرين منهم الدخل، وصار أهل البدع يجهرون ببدعهم، وتأثروا بمقولات الفلاسفة وأهل الشبهات كما نعلم من تاريخ الفكر الإسلامي، حتى وصلنا إلى العصر الحديث، فورثنا ذلك الميراث الذي اختلط فيه الحق بالباطل، والسنة بالبدعة، وبزغت فئة من المفكرين تنكر من عقائد الإسلام ما هو معلوم من الدين، بزعم عدم ملاءمتها للعصر، أو منافاتها للاكتشافات العلمية الحديثة، أو لاصطدامها ببدائه العقول -بزعمهم- أو صريح القرآن.

فوجدنا مثلا من ينكر الشفاعة(١)، ومن ينكر الجنة والنار(٢)، ومن ينكر الملائكة، ومن ينكر الجن(٣)، ومن ينكر الكثير من أشراط الساعة، والأكثر من هذا كله من ينكر وجود الله -عز وجل- أو ينكر شيئًا من صفاته وأفعاله.

وقد تعددت الأسباب التي تعلل بها هؤلاء المنكرون أو المؤولون لهذه العقائد الثابتة بالوحي، كما تعددت مناهجهم وطرقهم في تناول وعرض هذه القضايا العقيدية، بين منهج المتكلمين التوفيقي، الذي يحاول التوفيق بين النصوص الشرعية والدلائل العقلية، ومنهج الفلاسفة العقلي الصرف، الذي لا يهتدي بنور الوحي في

---

(١) آخر هؤلاء الدكتور مصطفى محمود، لمزيد من التفصيل انظر كتابه (الشفاعة) دار أخبار اليوم، ط.١٩٩٩م.

(٢) من هؤلاء الحافظ محمد أسلم والسيد مقبول أحمد، انظر القرآنيون وشبهاتهم، ص٣٥٣، مكتبة الصديق، المملكة السعودية، ط١، ١٩٨٩م.

(٣) من هؤلاء د.محمد البهي، انظر تفسيره لسورة الجن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢.

مسائل الاعتقاد. كما نلاحظ على المفكرين المحدثين تأثرهم الشديد بشبهات المستشرقين ومقولاتهم، فيما يتعلق بمسائل العقيدة، كما أنهم وقعوا أسرى لمنجزات العلم الحديث واكتشافاته، فحاولوا الهروب مما قد يبدوا مناقضًا لها من مسائل الاعتقاد، تارة بالتأويل، وتارة برفض النص الشرعي -الحديث النبوي- بزعم عدم صحته.

وقد انتشر في الآونة الأخيرة وصار من المألوف أن يخرج علينا كاتب أو صحفي بكتاب أو مقال ينكر فيه عقيدة من عقائد الإسلام، بحيث يحدث ذلك بلبلة وإثارة للرأي العام، ويشكك الكثير من الناس في عقائدهم، لذا رأيت من الضروري إلقاء الضوء على بعض قضايا الغيب، وتوضيح الأصول الصحيحة لهذه القضايا كما جاءت في القرآن والسنة، وكما فهمها السلف الصالح، ومقارنًا بين آراء المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، وناقدًا لهذه الآراء، مبينًا الحق فيها من الباطل بميزان الشرع والعقل معًا، حتى تتضح الأمور، ولا يرتاب أحد فيما يعتقد.

القسم الأول

الباب الأول

مفهوم الغيب وموقف الإنسانية منه

الفصل الأول

مفهوم الغيب وأقسامه

مفهوم الغيب في اللغة والاصطلاح:

الغيب لغة(١): كل ماغاب عنك، أو هو كل ما غاب عن العيون وإن كان محصلا في القلوب، وغاب الأمر عني غيبًا وغيوبًا ومغابًا ومغيبًا. وسمعت صوتًا من وراء الغيب، أي: من موضع لا أراه. والغيب خلاف الشهادة والحضور، والمغايبة هي: المخاطبة، وغيبه غيابه، أي: دفن في قبره، وغاب الرجل غيبًا ومغيبًا، وتغيب فسافر، وامرأة مغيب غاب بعلها أو أحد من أهلها، ويقال: هي مغيبة، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل، فقال: (**امهلوا حتى ندخل ليلا (أي عشاء) كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة**)(٢). وفي حديث آخر عن ابن عباس أن امرأة مغيبًا أتت رجلا تشتري منه شيئًا، فقال: ادخلي الدولج(*) حتى أعطيك، فدخلت، فقبلها وغمزها، فقالت: ويحك إني مغيب، فتركها وندم على ما كان منه..(٣) الحديث.

ويقال: يتغايبون ويغيبون، ولا يقال: يتغيبون، وغابت الشمس: غربت، وغاب القوم: دخلوا في المغيب، والغيبان هي: الشجرة عروقها غائبة في الأرض فحفرت عنها حتى ظهرت، والغيب من الأرض: ما غيبك، وجمعه: غيوب، ووقعوا في غيابة من الأرض، أي: مهبط منها، أنشد ابن الأعرابي.

إذا كرهوا الجميع وحل منهم أراهـــط بالغيوب وبالتلاع

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ٦٥٤/١ دار صادر لطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ط عام ١٣٨٨هـــ.

(٢) رواه مسلم ١٥٢٧/٣ الطبعة الأولى عيسى البابي الحلبي عام ١٣٧٥هـــ.

(*) قال: في لسان العرب ٢٧٤/٢ (الدولج: المخدع وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير).

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢٦٩/١ طبع المكتب الإسلامي ط ١ عام ١٣٨٩هـــ وقال: الساعاتي في الفتح الرباني ١٨٠/١٨ (تخريجه: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن جرير عن أبي اليسر صاحب القصة ورجاله ثقات وله شواهد كثيرة تعضده).

وغيابة كل شيء: قعره، وفي قصة يوسف قال الله عز وجل: ﴿**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ**﴾(١).

والغيبة من الاغتياب، قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ (٢) إذا وقع المرء في غيره من الكلام وكان الكلام صدقًا، فإن كان كذبًا فهو البهتان كما ورد في الحديث(٣). وشاة ذات غيب، أي: ذات شحم لتغيبه عن العين، والغابة: الأجمة التي طالت ولها أطرف مرتفعة باسقة. وفي الحديث.. حدثنا أبو حازم(٤)، قال: سألوا سهل ابن سعد: من أي شيء المنبر.. فقال: ما بقي في الناس أعلم مني، هو من أثل(*) الغابة عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ﷺ وقام عليه ﷺ.. الحديث(٥).

والغابة الأجمة ذات الشجر المتكاثف؛ لأنها تغيب ما فيها، والجمع: غابات وغاب.

أما الغيب في الاصطلاح، فقد وردت مادة الغيب في الكتاب والسنة(٦). لقد جاءت مادة الغيب في القرآن الكريم في ستة وخمسين موضعًا، وأهم المجالات التي ذكر فيها الغيب هي:

أولا: ما غاب عن الحواس كقوله تعالى: ﴿**الَّذينَ يُؤْمنُونَ بالْغَيْب**﴾ (٧)، وقوله تعالى: ﴿**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ (٨)، وقوله تعالى: ﴿**أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**﴾ (٩).

---

(١) يوسف ١٠.

(٢) الحجرات ١٢.

(٣) انظر مسلم ٤/٢٠٠١، دار إحياء التراث العربي الطبعة الثانية.

(٤) قال: ابن حجر في الفتح هو ابن دنار.

(*) قال الزمخشري في أساس البلاغة ص١٢: الأثلة شجرة من العضاة طويلة مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح.

(٥) انظر البخاري مع شرحه الفتح ١/٤٨٦ الطبعة السلفية.

(٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف للفيف من المستشرقين.

(٧) البقرة ٣.

(٨) مريم ٧٨.

(٩) الطور ٤١.

ثانيًا: أن الله عالم الغيب كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿**لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (٢).

ثالثًا: القصص الماضية من الغيب الذي لا يعلمه الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٤).

رابعًا: عدم إطلاع الله الناس على الغيب قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ (٥).

خامسًا: وصف المؤمنات خشية الله بالغيب قال تعالى: ﴿**حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ**﴾ (٦).

سادسًا: من صفات المؤمنين خشية الله تعالى:﴿**لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ (٧) وقال: ﴿**يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**﴾ (٨).

سابعًا: نفي علم الرسول ﷺ للغيب على لسان نبيه ﷺ: ﴿**وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾(٩) وقال: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ (١٠).

---

(١) البقرة ٣٣.
(٢) الكهف ٢٦.
(٣) آل عمران ٤٤.
(٤) هود ٤٩.
(٥) آل عمران ١٧٩.
(٦) النساء ٣٤.
(٧) المائدة ٩٤.
(٨) الأنبياء ٤٩
(٩) الأنعام ٥٠.
(١٠) الأعراف ١٨٨.

ثامنًا: إن للغيب مفاتح قال تعالى:﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾(١) ومفاتح الغيب هي المذكورة في سورة لقمان، وهي خمسة وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل.

يتلخص مما سبق أن الغيب في القرآن هو: ما غاب عن الحواس، وهو الأمر الذي لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه الرسول ﷺ فضلا عن بقية الناس إلا من أطلعه الله على شيء منه.

أما الغيب في السنة، فقد وردت كلمة الغيب في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي:

الحديث الأول: عن عبد الله قال: رسول الله ﷺ: (**ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجًا**)، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها فقال: (**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**)(٢).

الحديث الثاني: عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿ **لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ (٣)، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: ﴿**لا يعلم الغيب إلا الله**﴾(٤).

الحديث الثالث: عن أبي مجلز قال: صلى بنا عمار صلاة فأوجر فيها فأنكروا

---

(١) الأنعام ٥٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٣٩١/١ قال: في مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبزار.. ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان).

(٣) الأنعام ١٠٣ .

(٤) انظر البخاري بشرحه، الفتح ٣٦١/١٣، وقوله (لا يعلم الغيب إلا الله) وورد في مسلم ذكر الآية انظر ٩/٣ .

ذلك، فقال: ألم أتم الركوع والسجود؟ قالوا: بلى، قال: أما إني قد دعوت فيهما بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كان الوفاة خيرًا لي. أسألك خشيتك في الغيب والشهادة.. الحديث[١].

وفي هذه الأحاديث نجد أن الرسول ﷺ يعتبر الغيب علمًا، ويقرن بين الكلمتين (العلم، الغيب) على اعتبار أن الغيب لا يتناقض مع العلم، وعلى اعتبار آخر، هو أن الإيمان بالغيب يجب أن يكون عميقًا إلى درجة اعتباره علمًا، ثم الإشارة إلى أن العلم الحقيقي هو علم الغيب.

فالغيب في السنة علم مستقل استأثر الله بعلمه، وهذا الغيب هو ميزان الخشية، إذ الخشية في الغيب أفضل بكثير من الخشية بالشهادة، والغيب لا يعلمه الرسول ﷺ. وقد تكلم علماء الإسلام عن الغيب وأوضحوه، فقد عرّفه الراغب الأصفهاني[*] بأنه: ما غاب من الحاسة، وعلم الإنسان (أي وعن علم الإنسان)[٢].

وعرّفه الرازي بأنه: ما غاب عن الحواس، وقال: رأي جمهور المفسرين[٣]. وعرّفه الباجي بأنه: المعدوم، وما غاب عن الناس[٤]. ويؤخذ على هذا التعريف قوله: (المعدوم)؛ لأن الله من الغيب، وليس معدومًا، ثم إن المعدوم لا وجود له أصلا، فليس من الغيب، حيث إن الغيب موجود ولكنه مخبأ؛ لأننا لم نعرف أنه معدوم إلا بعد

---

(١) رواه أحمد ٢٦٤/٤ وأورده ابن تيمية في (الاحتجاج بالقدر) وقال: المحقق (زهير الشاويش) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(*) قال: في الأعلام ٢٧٩/٢ (هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني أو الاصبهاني المعروف بالراغب أديب من العلماء له مؤلفات كثيرة، جامع التفسير، المفردات، محاضرات الأدباء وغيرها) توفي ٥٠٢هـ.

(٢) انظر مفردات غريب القرآن للراغب ص ١٠٩٠ تحقيق محمد كيلاني طبع مصطفى البابي الحلبي مصر.

(٣) انظر تفسيره ٢٧/٢، ط ٢، دار الكتب العلمية، بطهران.

(٤) انظر المنتقى ٣٣٤/١ ط ١ سنة ١٣٣١هـ مطبعة السعادة بمصر. قال: في الأعلام ١٨٦/٣ (سليمان بن خلف الباجي فقيه مالكي قرطبي من رجال الحديث توفي عام ٤٧٤هـ).

اطلاعنا على عدم وجوده.

وعرفه ابن عربي بأنه: ما غاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر(١).

وقال النيسابوري على هامش الطبري: (وقال بعض الشيعة: المراد بالغيب: المهدي المنتظر)(٢). وهذا تخصيص لا داعي له حتى لو فهمت كلمة المهدي بمفهوم أهل السنة، لكنهم خصصوا -والله أعلم- لأن عقيدتهم تقوم على اعتبار المهدي المنتظر هو: محمد العسكري المختفي في سرداب سامراء رأيهم.

وقال التهانوي(*) في كشافه: (إنه الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس، ولا تقتضيه بديهة العقل)(٣). ويؤخذ على هذا التعريف أن ليس كل المغيبات لا تقتضيها بداهة العقل، فمثلا: الله سبحانه وتعالى من الغيب، ولكن بداهة العقل تقول بوجوده وتقتضيه.

أما من المحدثين فقد عرفه محمد فريد وجدي بقوله: (الغيب: المقابل للواقع، أو خلاف الواقع)(٤)، وهذا تعريف مرفوض؛ لأنه يصرح بأن الغيب ضد الواقع، وكأن الغيب شيء خيالي لا حقيقة له.

وقال الدكتور أحمد الشنتناوي: الغيب هو ما لا نعتمد في إدراكه على إحدى الحواس(٥). ويؤخذ عليه أن الإنسان يستعمل حواسه فيدرك آثار الغيب، فيعرف أن هناك غيبًا. وقال عبد الكريم عثمان: إن الغيب هو: ما غاب عن الحس وأدركه الإنسان بتحليله الفكري، أو بالخبر اليقين عند الله ورسوله، أو يبقى سرًا مكتومًا

---

(١) انظر أحكام القرآن ١/٨ ط ٢ الحلبية تحقيق محمد علي البجاوي.

(٢) تفسير الطبري ١/١٣٤ ط ٢ ١٣٩٢ دار المعرفة بيروت.

(*) قال في الأعلام ٧/١٨٨ (محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد الفاروقي الحنفي التهانوي توفي ١١٥٨هـ).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون. المجلد الثاني ص ١٠٩ طبعة الهند كلكته.

(٤) نقل عنه ذلك مصطفى صبري في كتابه (موقف العقل) ١/٣٢.

(٥) انظر (التنبؤ بالغيب قديمًا وحديثًا)ص ٥ دار المعارف بمصر.

يعجز الإنسان عن إدراكه، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير[١].

وإذا رجعنا إلى تعريف ابن عربي وجدناه يصطدم مع تعريف عبد الكريم عثمان؛ لأن الأول قال: (بالخبر دون النظر)، بينما قال الثاني: (وأدركه الإنسان بتحليله الفكري).

وأرى أن الثاني أصح، لأن بعض الأمور الغيبية تدرك بالنظر، وهو التحليل العقلي والفكري كوجود الله سبحانه وتعالى.

يتبين مما سبق، أن أفضل التعاريف هو تعريف الراغب، والرازي، وعبد الكريم عثمان، وأميل إلى اختيار الأخير كتعريف نموذجي متكامل.

ووجه تفضيل هذا التعريف على غيره أنه شامل حيث إنه جاء على الغيوب كلها. فالغيب الذي لا يقع تحت الحواس يدخل فيه لقوله: (ما غاب عن الحواس)، ويدخل فيه الغيب الذي يمكن أن يدركه الإنسان عقلا (كوجود الله) لقوله: (وأدركه الإنسان بتحليله الفكري)، ويدخل فيه الغيوب التي وردت في الكتاب والسنة لقوله: (أو بالخبر اليقيني عن الله ورسوله)، ويدخل فيه الغيب الذي استأثر الله بعلمه لقوله: (أو يبقى سرًا مكتومًا يعجز الإنسان عن إدراكه ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير).

أما التعاريف الأخرى فغير شاملة، إذ فيها مدخل أو مداخل للانتقاد، وليست جامعة مانعة، فتعريف التهانوي نقدناه لقوله: (ولا يقتضيه بداهة العقل)، ولم يذكر أنه تقتضيه النصوص أو يبقى سرًا. وتعريف الباجي رفضناه لقوله: (المعدوم). والرازي أيضًا لم يذكر إلا أنه ما غاب عن الحواس، وكذلك الشنتناوي. رفضت تعريف محمد فريد وجدي لقوله: (خلاف الواقع)، بينما عارضت تعريف ابن عربي لقوله: (بالخبر دون النظر)؛ لأن بعض الغيبيات يدرك بالنظر. ومع هذا فإنني أرى استبدال كلمة (أدركه) عند عبد الكريم عثمان بكلمة (علمه)، وذلك حتى لا نصطدم مع قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [٢].

---

(١) انظر (رحلة عبر الغيب) ص ٢٣ ط ١ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع حلب.

(٢) الأنعام ١٠٣.

سمات الغيب وخصائصه:

الغيب هو: العقبة التي يجتازها الإنسان فيعلو درجات في الرقي، وينفرد عن من لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، وهذه نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله. والغيب :هو المقابل للشهادة، وهو: العتبة التي يقف عندها البشر من حيث المعرفة، فهو الله عز وجل بل هو الفيصل بين العبودية القاصرة والألوهية الكاملة، وعليه فعلم الغيب على وجه الإحاطة به من خصائص الله سبحانه وتعالى، أما البشر فليسوا مهيئين بتكوينهم هذا للاطلاع على الغيب إلا قليل منه، وهو الذي يطلعهم عليه ربهم عز وجل لا بقدرهم الخاصة، ولهذا قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**﴾ (١)، ويقول تعالى على لسان رسوله الكريم: ﴿**وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾(٢)، فحصر الله علم الغيب المطلق فيه وحده، قال تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ (٣)، وقال: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ (٤). وليس البشر وحدهم هم الممنوعون عن علم الغيب المطلق، بل حتى الجن والملائكة فممنوعون عن هذا رغم أنهم يعرفون بعض ما لا نعرفه؛ لأن الأمر نسبي. وقد أوضح الله عز وجل عدم علم الجن للغيب المطلق في قصة سليمان عليه السلام بقوله: ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾ (٥).

قال: محمد الغزالي: (وللجن قدرة أبعد مدى من قدرة البشر، إنهم يغزون الفضاء بطاقاتهم العادية من زمان قديم، ولكنهم لا يعلمون الغيب، وما يكون غيبًا أحيانًا بالنسبة لنا قد يكون عيانًا بالنسبة لهم، والحدأة(٦) لا تعلم الغيب إذا كانت ترى من الجو ما لا نراه نحن تحت أقدامنا، فإذا استطاع شيطان أن يعرف بعض ما نجهل عن

(١) الأعراف ١٨٨.
(٢) الأنعام ٥٠.
(٣) الانعام ٥٩.
(٤) النمل ٦٥.
(٥) سبأ ١٤.
(٦) الحدأة: طائر يصيد الجرذان.

الأشخاص أو الأشياء -وهي معرفة محددة وقد تكون مغلوطة- فليس هذا علمًا بالغيب، وبالتالي فإن ما يثرثر به في مجالس التحضير لا يدل على شيء ذي بال)[١].

فمعرفة الغيب المطلق والإحاطة به من خصائص الله سبحانه وتعالى، ومع هذا فالأنام يعلمون (من الغيب) ولا يعلمون (الغيب)، وهذا القليل من الغيب تحصل لهم بتعريف الله تعالى لهم إياه، فليس بذكاء ولا بجهد، وإنما اصطفاه الله عز وجل لأناس من خلقه وتخصيص منه لهم بذلك، قال رشيد رضا في تفسيره: (إن الوحي ضرب من العلم الضروري لا الكسبي، ولذلك كان فتور الوحي شاقًا على الرسول ﷺ، وهذا لا يمنع أن يكون عنده استعداد فطري للخير، لكن هذا لا يقتضي النبوة)[٢].

فهو اصطفاء واختيار وتخصيص بمعرفة جزء من عمله، قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾[٣]. يقول محمد البهي: (أي ومع كون غيب الله لا يطلع إطلاقًا عليه أحدًا إلا الرسول المختار فقط، فإن الله جل شأنه يقيم رقابة مشددة حول هذا الرسول تمنع تسرب الغيب لأحد سواه)[٤]، وقوله: (تمنع تسرب الغيب منه لأحد سواه) ليست دقيقة بل متعارضة مع تبليغ الرسول ﷺ للناس، والأولى أن يقال: (يقيم رقابة مشددة ليعلم صدق الرسول في تبليغ ما علم من الغيب)، كما قال تعالى في نفس الآية: ﴿ **لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ . وبهذا ندرك تفسير الأخبار التي وردت عن الرسول ﷺ عن بعض الغيبيات التي سيأتي ذكرها.

إن علم البشر للغيب ليس من ضرورات الخلافة في الأرض[٥]، ولو كان ذلك

---

(١) انظر ركائز الإيمان ص ٣٥٩ مكتبة الأمل العالمية الكويت عام ١٣٨٧هـ.

(٢) تفسير المنار ٤٥٦/٧ ط ٢ بتصرف.

(٣) الجن ٢٦ - ٢٨.

(٤) انظر (من مفاهيم القرآن) لمحمد البهي. ص ٩٠ ط ١ مطبعة الاستقلال الكبرى بمصر.

(٥) تصرف عن كتاب (في ظلال القرآن) لسيد قطب ط.١٧ ج١ ص٧٠ دار المعرفة.

لأطلعهم الله عليه حيث إنه كلفهم بالخلافة، وهيأ لهم كل ما يلزم من أجل هذه الخلافة، ولو كان علم الغيب من ضرورات الخلافة، ولم يعطهم إياه لكان تكليفاً بما لا يطاق وحاش لله.

والجزء البسيط الذي أطلع عليه بعض مخلوقاته هو من ضرورات الحياة ليتحقق الابتلاء الذي خلق الله عز وجل الخلق من أجله، ومن هذا الغيب ما أخبر به الرسول ﷺ من أخبار كدلائل على صدق النبوة. يقول رشيد رضا: (وهو كقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ **وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ (١)، وقول الله على لسان يوسف: ﴿ **لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا**﴾ (٢)(٣).

- **إخباره ﷺ بمغيبات هي من أعلام النبوة:**

ينقسم إخبار الرسول ﷺ بالمغيبات إلى قسمين:

الأول: وهو الذي ورد في القرآن الكريم.

الثاني: وهو الذي ورد في السنة الثابتة.

وكلاهما من علم الله تعالى الذي أعطاه لرسوله ﷺ ليكون دليلا على صدق نبوته، ونذكر نماذج مما ورد في القرآن الكريم:

(أ) قوله تعالى: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾(٤)، فالسين للاستقبال والسورة مكية، وهزموا يوم بدر، فقد رماهم رسول الله ﷺ بقبضة من الحصباء. فعن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا)(٥).

(ب) قوله تعالى: ﴿**الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ**

---

(١) آل عمران ٤٩.

(٢) يوسف ٣٧.

(٣) تفسير المنار جـ ٧ ص.

(٤) القمر ٤٥.

(٥) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٤٣ دار المعارف بمصر تحقيق محمود شاكر.

سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (١)، وهكذا كان بعد بضع سنين كما أخبر الله تعالى.

(ج) وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (٢)، وقد تحصل لهم هذا الاستخلاف.

(د) قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣)، وكان كما أخبر فلم يتمنوا الموت من قديم الزمان إلى يومنا هذا.

(هـ) قوله تعالى:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَب وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَد﴾ (٤)، وقد تنـــزلت هذه السورة وأبو لهب حي يرزق ولم يستطع إبطال الآية بأن يدخل الإسلام؛ لأن الله أخبر أنه من أهل النار، وهكذا مات على الكفر هو زوجته ليكونا من أهل النار.

(و) قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِه﴾ (٥).

(ع) قوله: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾ (٦). وغير هذه الآيات كثير جدًا.

أما الأحاديث فكثيرة، تبين علم الرسول ﷺ لبعض الغيب كما أخبره الله فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد

---

(١) الروم ١ – ٤.
(٢) النور ٥٥.
(٣) الجمعة ٦.
(٤) المسد كلها.
(٥) الإسراء ٨٨.
(٦) الفتح ٢٧.

النبي ﷺ هيبة أن ينــزل فينا شيء، فلما توفي النبي ﷺ تكلمنا وانبسطنا)[١].

وعن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فما ترك شيئًا يكون بين يدي الساعة إلا ذكره في مقامه ذلك، فحفظه ونسيه ومن نسيه. قال حذيفة: (فإني لأرى أشياء كنت نسيتها فأعرفها كما يعرف الرجل الرجل قد كان غائبًا عنه فيراه فيعرفه)[٢].

والأحاديث التي أخبرت بالغيبيات نوعان:

١- النوع الذي تحقق وقوعه مثل قوله:

- عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: (**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**)[٣]، وقد وقع ذلك في أيام الخلفاء الثلاثة: أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وفي الحديث بشارة بانقطاع ملك فارس والروم.

- وعن عائشة أم المؤمنين قالت: قال: رسول الله ﷺ: (**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**). قالت: (فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب[٤]، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق)[٥]. قال النووي: (معنى الحديث أنهن ظنن أن المراد بطول اليد الحقيقية، وهي: الجارحة، فكن يذرعن أيديهن بقصبة، فكانت سودة أطولهن جارحة، وكانت زينب أطولهن يدًا في الصدقة وفعل الخير، فماتت زينب أولهن، فعلموا أن المراد طول اليد في الصدقة والجود)[٦].

---

(١) انظر البخاري بشرح الفتح ٢٥٣/٩ الطبعة السلفية.

(٢) رواه أحمد ٣٨٥/٥.

(٣) رواه الشيخان البخاري مع الفتح ٦٢٥/٦. مسلم ٢٢٣٧/٤ ط ١ واللفظ للبخاري.

(٤) قال في الإصابة ٣٠٧/٤ (زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، نزلت بسببها الحجاب وكانت تفخر بأن الله زوجها للرسول ﷺ ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ توفيت سنة ٢٠هـ.

(٥) رواه مسلم ١٩٠٧/٤ فضائل زينب.

(٦) انظر مسلم بشرح النووي الجزء ١٦، ص٨، المجلد ٨.

- وعن عدي بن حاتم[1] قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: (**يا عدي هل رأيت الحيرة؟**)، قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: (**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة**[2] **ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله**). قلت: فيما بيني وبين نفسي فأين دعّار[3] طيء الذين سعروا البلاد؟ (**ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى**) قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: (**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحدا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟، فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم**). قال عدي سمعت النبي ﷺ يقول: (**اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة**). قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه[4]، وقد وقع في زمن عمر بن عبد العزيز البحث عمن يأخذ الصدقة فلم يجدوا، فردت الصدقة إلى بيت المال.

- وعن قيس بن أبي شهم قال: مرت بي جارية بالمدينة فأخذت بكشحها[5]،

---

(١) قال في الأعلام ٥/٨ (عدي بن حاتم الطائي. صحابي، رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، أسلم عام ٩هـ، وشهد الفتنة مع علي وتوفي ٦٨هـ بالكوفة).

(٢) قال الزمخشري في أساس البلاغة ص ٤٠٢ (الظعن والإظعان والظعائن هي الجمال عليها الهوادج).

(٣) قال في لسان العرب ٢٨٦/٤ (رجل داعر خبيث مفسد ويجمع على دعار وأراد بهم عدي قطاع الطرق) بتصرف.

(٤) البخاري مع الفتح ٦١/٦ السلفية.

(٥) الكشح: ما بين الخاصرة وإلى الضلع الخلفي، وهو من لدن السرة إلى المتن، وقيل الكشح هو: الخصر.

قال: وأصبح الرسول يبايع الناس يعني النبي ﷺ قال: فأتيته فلم يبايعني، فقال: (**صاحب الجبيذة الآن**)، قال: قلت: والله لا أعود قال: (**فبايعني**)(١).

– عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي رفقين في غزوة ذات العشيرة، فلما نـــزلها رسول الله ﷺ، وأقام بها رأينا ناسًا من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي علي: يا أبا اليقظان، هل لك أن نأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون؟ فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعلي، فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب، فنمنا فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي: (**يا أبا تراب**) لما يرى عليه من التراب، قال: (**ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين**) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (**أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه يعني قرنه حتى تبل منه هذه -يعني لحيته-**)(٢).

– وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنـــزل على أمية بمكة، فقال: لأمية انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان من هذا الذي معك؟ فقال: هذا سعد، فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعن ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة. فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إنهم قاتلوك**). قال: بمكة؟ قلت: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما

---

(١) رواه أحمد ٥/٢٩٤.

(٢) رواه أحمد ٤/٢٦٣.

قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد الوادي تخلفوا معك، فلم يـــزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ فقال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منـــزلا إلا عقل بعيره، فلم يـــزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر)[1].

- وعن عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأيت رسول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر: (**أوسع من قبل رجليه، أوسع من قبل رأسه**)، فلما رجع استقبله داعي امرأة، فجاء، وجئ الطعام فوضع يده ثم وضع القوم، أكلوا فنظر آباؤنا رسول الله ﷺ يلوك لقمة في فيه، ثم قال: (**أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها**)، فأرسلت المرأة قالت: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع يشتري لي شاة فلم أجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن أرسل إلي بها بثمنها فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت إلي بها، فقال: رسول الله ﷺ: (**أطعميه الأسارى**)[2].

- وعن الحسن سمعت أبا بكرة[3]، سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه

---

(١) البخاري مع الفتح ٢٨٢/٧. قال: الشارح: قال: الواقدي قتله خبيب وقال: ابن إسحاق في سيرته (جـ ٢ ص ٢٥٥ دار الجيل): قتله رجل من بني مازن وقال ابن هشام اشترك فيه معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وخبيب. وذكر الحاكم في المستدرك أن رفاعة بن رافع طعنه بالسيف ويقال: قتله بلال. وفي سيرة ابن هشام (٢٨٣/٢ الطبعة الحلبية) أن قاتل أمية هو بلال. ويخلط بعضهم أمية بن خلف بأبي بن خلف. أما أبي فقد قتل في أحد قتله رسول الله بنفسه كما في سيرة ابن هشام. (٣١/٣ دار الجيل).

(٢) رواه ابو داود ٦٢٣/٣ باب البيوع. قال ابن حجر في الفتح ٦٣٣/٩ (أخرجه أحمد وأبو داود بسند قوي).

(٣) قال في الإصابة ٥٤٢/٣ (نفيع بن الحرث ويقال: ابن مسروح وبه جزم ابن سعد، مشهور بكنيته من فضلاء الصحابة، سكن البصرة وروى عن النبي ﷺ).

ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: (**ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**)[١].

- وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال: (**ائذن له وبشره بالجنة**) فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن، فقال: (**ائذن له وبشره بالجنة**) فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن فسكت هنيهة ثم قال: (**ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه**) فإذا عثمان بن عفان[٢].

- وعن قتادة[٣] أن أنسًا رضي الله عنه حدثهم قال: صعد النبي ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف، فقال: (**اسكن أحد - أظنه ضربه برجله- فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان**)[٤].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي فإنه عمر**)[٥].

- وأخبر الرسول ﷺ عن أويس القرني، وأنه خير التابعين، وأنه كان به برص فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضعًا قدر الدرهم من جسده، وأنه بار بأمه، وأمر عمر بن الخطاب أن يستغفر[٦] له، وقد وجد هذا الرجل في زمن عمر على الصفة المذكورة[٧].

---

(١) البخاري مع الفتح ٧/٩٤.

(٢) البخاري مع الفتح ٧/٥٣.

(٣) قال في الأعلام ٦/٢٧ (قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري، مفسر ضرير قال عنه الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة ولد عام ٦١هـ وتوفي عام ١١٧هـ بواسط بالطاعون).

(٤) البخاري مع الفتح ٧/٥٣.

(٥) البخاري مع الفتح ٧/٤٢.

(٦) أي أن يطلب عمر من أويس أن يستغفر له.

(٧) رواه مسلم ٤/١٩٦٨.

- وأخبر ﷺ عن الفتنة بعد عمر كما في الصحيح[١].

- وروى أبو داوود.. عن أم ورقة بن نوفل[٢]: أن النبي ﷺ لما غزا بدرًا قالت: قلت: يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أمرِّض مرضاكم لعل الله أن يرزقني شهادة. قال: **(قري في بيتك فإن الله تعالى يرزقك الشهادة)**. قال: فكانت تسمى الشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنًا يؤذن لها قال: وكانت قد دبرت[٣] غلامًا لها وجارية فقاما إليها بالليل فَغمَّياها بقطيفة لها حتى ماتت وذهبا، فأصبح عمر فقام في الناس فقال: من كان عنده من هذين علم أو من رآهما فليجئ بهما فصلبا فكانا أول مصلوب بالمدينة)[٤].

- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ فليعذ به)**[٥].

- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل)**[٦].

- وعن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا ربه طويلا، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: **(سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنين ومنعني واحدًا، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها،**

---

(١) رواه البخاري مع الفتح ٤٨/١٣.

(٢) هي بنت عبد الله بن الحارث بن عويمر بن نوفل كان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة (انظر بذل المجهود في حل أبو داود).

(٣) العبد المدبر هو الذي يكون بعد موت السيد حرًا (انظر هامش سند أبي داود).

(٤) أي غطيا وجهها (انظر هامش السنن).

(٥) بذل المجهود في حل أبي داود للمحدث الهندي السهارنفوري طبعة الهند ١٣٩٢هـ ٢٠٥/٤ وبعدها.

(٦) رواه مسلم ١٢/٤ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي نشر دار الإفتاء.

وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)[١].

- وعن أم سلمة[٢] أن رسول الله ﷺ قال لعمار: (**تقتلك الفئة الباغية**)[٣].

ومثل هذه الأحاديث كثير وكلها دليل واضح على نبوة محمد ﷺ، إذ لا يمكن أن يخبر بكل هذه الأخبار ثم تتحقق إلا نبي أطلعه الله على المستقبل.

وأختم هذا النوع من الأحاديث بحديث ذكره أبو بكر الجزائري قال: قال ﷺ: (**سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال، ينـــزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن البخت العجاف، العنوهن، فإنهن ملعونات**)[٤]. ولقد أوّل الجزائري بأنها السيارات، ويؤيده حديث آخر ذكره الألباني في الأحاديث الصحيحة قال: (تنبؤة ﷺ عن السيارات: تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين، فأما إبل الشياطين فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنبات معه قد أسمنها، فلا يعلو بعيرًا منها ولا يمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله وأما بيوت الشياطين فلم أرها)[٥].

وفي رأيي أن هذا التأويل صحيح حيث إنه لم يكن في زمن أهل السروج الحقيقية من يحمل نساءه عليها وينـــزل بها على أبواب المساجد، فاقتضى هذا حمل السروج على المعنى المجازي، فالسروج ليست حقيقية وإنما هي مثلها وهي السيارات. وفي أيامنا هذه نرى في كثير من بلاد المسلمين من يركب نساءه وقريباته في سيارته وهن كاسيات عاريات -أي: يلبسن شيئًا من الثياب، لكنه كأنه لا شيء، فهن عاريات؛ لأنه لباس غير إسلامي- وينـــزلون على أبواب المساجد وهذه هي الطامة الكبرى حين نجد أن من أهل المساجد من يفعل هذا.

---

(١) رواه مسلم ٤/٢٢١٦.

(٢) قال: في الإصابة ٤/٤٣٩ (هند بنت أبي أمية بن النغيرة المخزومية القرشية أم المؤمنين هاجرت إلى الحبشة وتزوجها النبي ﷺ بعد أم سلمة. توفيت عام ٥٩هـــ وقيل ٦١هـــ.

(٣) رواه مسلم ٤/٢٢٣٦.

(٤) انظر: عقيدة المؤمن ص(٣٠٤) وقال: رواه أحمد ورواه الطبراني، انظر: الفتح الرباني ١/٣٠١، ٣٠٢.

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٤٨ وقال رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٦٨.

٢- أما الأحاديث التي لم يتحقق وقوعها فمنها:

أولا: عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان[(١)] يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (**نعم**) قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: (**نعم وفيه دخن**)، قلت: وما دخنه؟ قال: (**قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**)، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (**نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**)، قلت: يارسول الله صفهم لنا، قال: (**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**)، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**)[(٢)].

وهذا الحديث قد تحقق إلا الشطر الأخير وهو قوله: (**فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام**).

ثانيًا: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**يوشك الفرات أن يحسر عن كنـــز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا**)[(٣)].

ثالثًا: عن ابن عمر عن النبي ﷺ: (**قال: لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله**)[(٤)]، وفي رواية أبي هريرة: (**فيقول الحجر: والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود**)[(٥)].

رابعًا: وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما من نبي إلا وقد أنذر**

---

(١) قال في الأعلام ٢/١٨٠ (حذيفة بن حسل بن جاسر العبسي أبو عبد الله صحابي شارك في الفتوحات وهو صاحب سر الرسول ﷺ في المنافقين. توفي عام ٣٦هـ.

(٢) البخاري مع الفتح ١٣/٣٥.

(٣) رواه مسلم ٤/٢٢٢٠.

(٤) رواه مسلم ٤/٢٢٣٨.

(٥) رواه مسلم ٤/٢٢٣٩.

أمته الأعور الكذاب ألا إنه أعور، وأن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه كفر)[١].

خامسًا: وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: **(قال: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه)**[٢].

سادسًا: وهناك أحاديث تخبر عن نـــزول المسيح عليه السلام[٣].

يتلخص مما سبق أن الرسول ﷺ أخبر عن غيبيات، وأن منها ما تحقق ومنها ما لم يتحقق بعد، وكلاهما دليل على النبوة، إذ الأول قد تحقق وقوعه كما أخبر، والثاني فيه من قوة التحدي ما يدل على النبوة، إذ لا يتحدى بوقوع هذا إلا من هو على ثقة واطمئنان إلى ربه فيما أطلعه عليه من الأمور المستقبلة. فالرسول ﷺ أخبر عن غيبيات ورأى من الغيبيات كرؤيته لجبريل عليه السلام[٤]، ورؤيته الجن[٥] والشياطين[٦].

هل يعلم غير الرسل شيئًا من الغيب؟:

إن من ضرورات الرسالة أن يطلع المرسل على شيء من الغيب، ويختلف هذا الإطلاع من مرسل إلى آخر حسب الزمان والمكان، لكن الله عز وجل لم يحصر إطلاعه الغيب على الرسل، فقد اطلع غيرهم على شيء من الغيب، وهذا من باب الكرامات. فقد رأى كثير من الصحابة الجن والملائكة برفقة الرسول ﷺ ووقع هذا في الأحوال العادية وفي كثير من المعارك، قال تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[٧]، وقال أيضًا: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ**

---

(١) انظر صحيح مسلم ٤/٢٢٤٨.
(٢) رواه مسلم ٤/٢٢٣١.
(٣) رواه مسلم ٤/٢٢٢١.
(٤) البخاري مع الفتح ٧/٢٠١.
(٥) البخاري مع الفتح ٧/١٧١.
(٦) انظر النسائي ٢/٧١ ط ١ الحلبية ١٣٨٣هـ.
(٧) الأنفال ١٢.

لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائكَة مُرْدفينَ﴾[١]. وروى القاضي عياض[٢] عن ابن عباس أن رجلا من غفار قال: قدمت أنا وابن عم لي ونحن مشركان وصعدنا على جبل مشرف على بدر ننظر الوقعة، وننظر على من تكون الدبرة، فبينما نحن كذلك إذ دنت سحابة فيها حمحمة خيل فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم[٣]، فمات ابن عمي من خوفه وكدت أهلك[٤].

وقال أبو داود المازني على مافي رواية ابن إسحاق: إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه بيدي، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قتله غيري[٥].

وعن عمار بن أبي عمار أن حمزة بن عبد المطلب سأل النبي ﷺ أن يريه جبريل في صورته، فقال: (**إنك لا تستطيع أن تراه**)، قال: بلى، قال: (**فاقعد مكانك**)، فنــزل جبريل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت، فقال: (**ارفع طرفك فانظر فنظر**)، فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر فخر مغشيًا عليه[٦].

وقد كان يسلم على عمران بن حصين، قال في الإصابة: قال الدارمي:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال، حدثنا قتادة عن مطرف قال عمران ابن حصين: إني محدثك بحديث: إنه كان يسلم عليّ[٧]. وقال ابن سعد في الطبقات:

---

(١) الأنفال ٩.

(٢) عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل، عالم المغرب، محدث كبير وعالم باللغة، ولي قضاء سبتة وولد فيها ٤٧٩هـ، وتوفي بمراكش عام ٥٤٤هـ). الأعلام ٣١٩/٥.

(٣) حيزوم اسم فرس الملك وروى حيزون والصحيح الأول.

(٤) انظر الشفا جـ ١ ص ١٦٣ وقال: رواه أبو نعيم والبيهقي. وانظر سيرة ابن هشام ٢٠٠/٢ دار الجيل.

(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٠/٢ دار الجيل.

(٦) انظر طبقات ابن سعد طبعة بيروت ١٣٧٧هـ ١٢/٣.

(٧) الإصابة لابن حجر الطبعة المصرية تحقيق محمد علي البجاوي ٧٠٦/٤.

قال أخبرنا الخليل بن عمر العبدي البصري، قال: حدثني أبي قال: حدثنا قتادة أن الملائكة كانت تصافح عمران بن حصين اكتوى فتنحت[١].

وقال الطبري: حدثنا بشر قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن**﴾، قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى، قال: فأين نبي الله ﷺ، قال: (**إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجن فأيكم يتبعني؟**)، فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فقال رجل: يا رسول الله إنك لذو بدئة فاتبعه عبد الله بن مسعود فدخل رسول الله ﷺ شعبا يقال له: شعب الحجون قال: وخط نبي الله ﷺ، على عبد الله خطًا ليثبته به، قال: فجعلت تهوي بي، وأرى كأمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على نبي الله ﷺ، ثم تلا القرآن فلما رجع النبي الله قلت: يا نبي الله ما اللغط الذي سمعته؟ قال: (**اجتمعوا إلي في قتيل كان بينهم فقضي بينهم بالحق**). وذكر لنا أن ابن مسعود لما قدم الكوفة رأى شيوخًا شمطًا من الزّط فراعوه، قال: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نفر من الأعاجم، قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبي ﷺ الإسلام من الجن شبهًا أدنى من هؤلاء[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. والحديث طويل وفيه قول الرسول ﷺ لأبي هريرة: (**تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**) قال: لا، قال: (**ذاك شيطان**)[٣].

هذا بالنسبة للأشياء التي حدثت برفقته ﷺ، أما الحوادث المنفردة فهي أقل، لكنها تثبت الكرامة بإطلاع الله لبعض عباده الصالحين غير المرسلين على شيء من

---

(١) الطبقات طبعة بيروت ٢٨٨/٤. وانظر مدارج السالكين لابن القيم ٤٥/١.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري ٣١/٢٦ ط٢ الحلبية.
(٣) انظر البخاري مع الفتح ٤٨٧/٤.

الغيب، ومن ذلك قصة عمر مع سارية[١] القائد المسلم، فعن ابن عمر عن أبيه أنه كان يخطب يوم الجمعة على منبر رسول الله ﷺ، فعرض له في خطبته أن قال: يا سارية بن حصن، الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم، فتلفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال علي: صدق والله ليخرجن مما قال، فلما فرغ من صلاته قال له علي: ما شيء سنح لك في خطبتك؟ قال: وما هو؟ قال: قولك يا سارية الجبل الجبل من استرعى الذئب ظلم. قال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم وجميع أهل المسجد سمعوه، قال: إنه وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وإنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوزوا أهلكوا فخرج مني ما تزعم أنك سمعته، قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر فذكر أنه سمع في ذلك اليوم في تلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن الجبل الجبل، قال: فعدلنا إليه ففتح الله علينا[٢].

إلا أن هذه الكرامات لا يتوسع في التصديق بها، فإن لها شرطًا ذكره العلماء، ألا وهو: مطابقة حال صاحب الكرامة للكتاب والسنة. يقول ابن تيمية في مناظرته لدجلة البطحائية: ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء ومشيتم على الماء، ولو فعلتم، ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء: أمطري، فتمطر وللأرض: أنبتي فتنبت[٣].

يقول في نفس الصفحة: وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأوامر والنواهي.

وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا

---

(١) قال في الأعلام ١١٢/٣ : سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدئلي صحابي من الشعراء القادة الفاتحين، كان في الجاهلية لصًا يسبق الفرس عدوًا على رجليه توفي عام ٣٠هـ.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٦٥/٤. وأورد القصة ابن القيم في كتابه الروح ط٢ ص٢٣٩، وذكر القصة ابن الجوزي في كتابه سيرة عمر بن الخطاب الطبعة المصرية ص١٤٩.

(٣) الفتاوى ٤٦٦/١١. التصوف.

-يعني الليث بن سعد[1]-؟ قال: (لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به فقال: الشافعي لقد قصر الليث. لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به).

وهذا القيد الذي اشترطه العلماء أخرج كثيرًا من مشايخ الصوفية الذين ادعوا علم الغيب عن طريق أنهم أولياء وأصحاب كرامات، ومن هذا ما ورد في كتاب "الجواهر" لمؤلفه المغربي حين قال في فضائل التيجاني[2]: (ومن كماله رضي الله عنه نفوذ بصريته الربانية، وفراسته النورانية التي ظهر مقتضاها في معرفة أحوال الأصحاب، وفي غيرها من إظهار مضمرات، وإخبار بمغيبات، وعلم بعواقب الحاجات، وما يترتب عليها من المصالح والآفات، وغير ذلك من الأمور الواقعات[3])، ويقول في موضع آخر: (سألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ [4] الآية، فأجاب رضي الله عنه بقوله: نفى الله العلم بالغيب عن الخلق بهذه الآية فلا يعلمها أحد سواه، لكن العلم المنفي ما كان للخلق إليه طريق، وطرق العلم إلى الخلق أحد ثلاثة: إما بحاسة من الحواس، وإما بطريق السمع وتبليغ الخبر، وإما بطريق الفكر، وهو: النظر في أمور معلومة يتوصل بالنظر فيها إلى العلم لأمور مجهولة، فهذه الطرق هي المنفية عن الخلق، وبقيت الطريق الرابعة وهي: ما يقذفه الله في قلب العبد بغير حاسة ولا واسطة ولا فكر، ويسمى هذا بالعلم اللدني، فإن هذا العلم غير منفي عن الرسول ولا عن غيره من النبيين والمرسلين، يشهد بهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ**

---

(١) قال في الأعلام ١١٥/٦ الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث إمام أهل مصر في عصره حديثًا و فقهًا ولد في قلقشنده ٩٤هـ وتوفي بالقاهرة ١٧٥هـ.

(٢) قال في الأعلام ٢٣٢/١ (هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التيجاني أبو العباس شيخ الطائفة التيجانية كان فقيهًا مالكيًا تصوف ووعظ ولد عام ١١٥٠هـ وتوفي بفاس عام ١١٨٦هـ).

(٣) انظر جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني لمؤلفه علي حازم بن العربي برادة المغربي الفاسي ٤٧/١ طبعة دار الكتاب العربي ط٢.

(٤) الأنعام ٥٩ .

أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾[١] الآية.

قال المرسي: أو صديق أو ولي، يشهد بهذا قوله ﷺ: (**إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لا ينكره عليهم إلا أهل الغرة بالله**)[٢]، ثم قال بعد ذلك: (أما من وهبه الله العلم اللدني فإنه يعلم بعض الغيب كهذه المذكورات وغيرها كما في قصة الخضر)[٣]. وفي كتاب آخر للتيجانية يقول المؤلف: (وينبغي للمريد أن يعتقد في شيخه أنه يرى أحواله كلها كما يرى الأشياء في الزجاجة)[٤].

وفي مخطوطة لعبد القادر الجيلاني[٥] بعنوان فتوح الغيب قال: (قال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه لكل حالة من المحب وليمة، فوليمة عشقه تمزيق قلبه، ووليمة حبه ذهاب رسمه، ووليمة صبره نحول جسمه وضعف بدنه، فإذا تآلف تلافي الحب اشتاقت الروح إلى القرب، فعللها نسيم اللقاء وشوقها إلى الملتقى، فمدت أيدي الطلب، فهطلت عواطف المنن، فإذا امحت ظلمة التكليف بذهاب التسويق وقعت على باب رجا الغيب، فشاهدت مشاهد الغيب فهي تنطق عن الغيب بالغيب)[٦]. وقال في موضع آخر: (قال رضي الله تعالى عنه: إذا وقعت أنوار المحبة في قلب المحب

---

(١) الجن ٢٦ - ٢٧.

(٢) أورده في الإحياء ١/٣٥ ونصه (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى، فلا تحقروا عالمًا آتاه الله تعالى علمًا منه فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه) قال العراقي: أبو عبد الرحمن الأسلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٣) جواهر المعاني ١/١٨٤.

(٤) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم بهامش الجواهر. المؤلف عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي ١/٢٨.

(٥) الأعلام ٤/١٧١ عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسني أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية ولد في جيلان وراء طبرستان عام ٤٧١هـ وتوفي في بغداد ٥٦١هـ له الغنية لطالب طريق الحق، فتوح الغيب، وغيرها.

(٦) فتوح الغيب ص٤ لعبد القادر الجيلاني مخطوطات جامعة الإمام/المكتبة المركزية. تصوف / ٦٧٤/ نسخ واضح ١١٩٤هـ / ٥٥ق / ٣٣ س/ ٣٠×٢٠ سم.

أضاءت جوهرة قطب القلب على جوارح رسم جسم المحب، فيتجوهر بهجة المحبة من نور جمال كمال المحبوب فتجسر على الكشف من الغيب بالغيب[١]).

وكلامهم هذا فيه مبالغات مرفوضة، إذ هو متضمن لمعرفة الغيب من قبل الإنسان عن طريق التدرج في الناحية الروحية، ولهذا شدد العلماء على هذه النواحي حتى لا يتسنى لكل واحد أن يدعي علم الغيب. وقد نقل ابن حجر الهيثمي كفر من قال: أعلم الغيب[٢]، وقال القرطبي: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينـــزل الغيث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا، وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينـــزل الله به الماء عادة، وإنه سبب الماء عادة، وإنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له أن لا يتكلم به فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته لأنه ينـــزل متى شاء مرة بنوء كذا ومرة دون النوء، قال تعالى: (**أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب**)[٣] قال ابن عربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة: فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم يكفر و لم يفسق، وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضًا. فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن، أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب، وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**﴾ [٤]، وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على

---

(١) فتوح الغيب ص ١٠.

(٢) انظر رسالة الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر المكي الهيثمي بهامش كتابه: الزواجر عن اقتراف الكبائر ٦٧/٢ الطبعة المصرية عام ١٣٥٦هـــ.

(٣) انظر البخاري مع الفتح ٣٣٣/٢. وهو في صحيح مسلم أيضًا.

(٤) يس: ٣٩.

العامة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم، ويتركون قواعدهم في اليقين، فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به)[1]، وهذا النص الفقهي الذي نقله القرطبي فيه نظر وسيأتي التفصيل في فصل: (العلم والغيب).

الأمور التي تدخل في دائرة الغيب:

الأمور التي تدخل في الغيب كثيرة جدًا يصعب حصرها، فحقيقة الألوهية والصفات، والذات، ونشأة الكون، وحركته وطبيعته، وما هو الزمان والمكان، الحياة، ومصدرها، ونشأتها، وخط سيرها، والمؤثرات فيها، وكيف يتصرف الإنسان، وما هو عقل الإنسان، وأين يوجد؟ وما مصير الإنسان بعد الموت؟ وما هي الروح؟ وماذا يجري داخل الكيان الإنساني، وكيف يتم ذلك؟ وما هي حقيقة الملائكة، والجن، والموت، والآخرة، وكيف جاء الإنسان إلى هذه الأرض ومتى؟ ومتى سيغادرها؟ ومتى سينفخ في الصور؟ وما علاقة الحياة بالوجود المادي؟ ومن هو الإنسان؟ وما الذي يميزه عن المادة وعن بقية الأحياء؟ وماذا عن الأرحام والصدور؟ ماذا عن الظلام الدامس؟ وماذا عن الساعة؟ وما حقيقة الجزاء والعقاب؟ ماذا عن الماضي والحاضر والمستقبل؟ أسئلة كثيرة تطرح وكلها لا يمكن الإجابة عليها إجابة شافية إلا عن طريق الإيمان بالغيب. لابد من تصديق الخبر الذي ينقله إلينا الأمين، وإلا فبدون هذا ستبقى الأشياء غامضة يتخبط فيها الناس، ويرجمون بالغيب، ويقولون مالا يعرفون.

إن الإنسان يجهل اللحظة التالية في حياته، فكيف يعرف الغيب؟ إن الغيب أمر واقع، والإيمان به واجب وإلا فالخراب والضياع.

إن الغيوب كثيرة جدًا مرجعها إلى أركان الإيمان الستة كما يقول سعيد حوي[2]، فالإيمان بمعجزات الرسل السابقين فرع الإيمان بالقرآن، والإيمان بالجن فرع الإيمان بالقرآن، والإيمان بالسموات السبع التي فيها الملائكة، والجنة، والبيت المعمور، والنار وغير ذلك، فرع الإيمان بالقرآن وهكذا..

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص ٢، دار الكتاب العربي للطباعة، والنشر.

(٢) انظر كتاب الإسلام ٢٨/١ ط١٣٩١ هـ لسعيد حوي.

- **أقسام الغيب:**

إذا كانت الأمور التي تدخل في إطار الغيب كثيرة يصعب حصرها، فلابد من وضع هيكل يقسم هذه الأمور باعتبار معين حتى تأخذ مكانها الطبيعي بين هذه الأشياء الكثيرة التي تدخل في الغيب، وعليه فيمكن تقسيم الغيب إلى عدة أقسام على اعتبارات مختلفة.

التقسيم الأول: باعتبار علمه ومعرفته:

ينقسم الغيب إلى ثلاثة أقسام:

أولا: نوع يعلمه بعض المخلوقات دون غيرهم، أو يمكن أن نسميه: الغيب النسبي، فالجن مثلا يعرفون أشياء لا نعرفها نحن، والإنسان بالنسبة لأخيه عرف بعض ما يجهله أخوه، وهكذا الأنبياء يختلفون عن غيرهم من حيث العلم، والعلماء في كافة المجالات يختلفون عن غيرهم فيما يعلمون.

ثانيًا: نوع يمكن أن يعلمه بعض الخلق بالبحث والاكتشاف، كالمجهول من العلوم، والقوانين الكونية، والمناطق البعيدة، والكواكب السماوية(١).. إلخ. وإن كان رشيد رضا يقول: (وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب، أو عجزهم عن استعمالها فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله(٢)، فليس هناك دليل على هذا القول، وليس هناك مانع في دخول هذا المعنى في معنى الغيب؛ لأن الأصل العموم، ولا تخصيص دون مخصص، ثم إنه ليس هناك أي خطورة من اعتبار هذا الغيب من جهة الاعتقاد السليم).

ثالثًا: نوع لا يمكن أن يعلمه أحد من المخلوقات، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، كعلم الساعة. وهذا النوع خاص لله عز وجل، وهو النوع الذي ركز القرآن

---

(١) تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها الشخصية الإسلامية ص ١٥٧ ط١ دار العلم للملايين (... أما ما أخرجه العلم من مجهول الغيبيات فسقط عنه الحظر فالإسلام يبارك أن تتحقق الله فيما سخر لنا..).

(٢) تفسير المنار ٤٢٢/٧ ط٢ مطبعة المنار بمصر.

عليه من حيث نفي علم المخلوقات له، قال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (١).

التقسيم الثاني: باعتبار الزمان:

ينقسم الغيب إلى ثلاثة أقسام:

أولا: غيب الماضي كالأحداث التاريخية الماضية التي لم نشهدها، والماضي هو كل لحظة تخرج من إطار الحاضر، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ** ﴾ (٢) وقصة يوسف عليه السلام وغيرها من قصص الأمم الماضية. وعلم الناس بالنسبة لغيب الماضي أمر نسبي، فما يجهله بعض الناس يعرفه آخرون، كقصة يوسف عليه السلام سماها القرآن غيبًا بالنسبة لمحمد ﷺ، ولكنها واضحة بالنسبة لإخوة يوسف عليه السلام.. وشخص الرسول ﷺ من غيب الماضي، حيث إننا لم نره؛ ولهذا ورد في الحديث، فقد روى أحمد قال: (... حدثني أبو جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح قال: فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: (**نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني**)(٣).

وهذا النوع يمكن أن يعلم بالقراءة والسماع ومشاهدة الصور والأفلام.

ثانيًا: غيب الحاضر، كتسجيل الملائكة للأعمال حيث إن كل مالا يقع تحت حواسي فهو من غيب الحاضر. فما يجري الآن في أفغانستان، أو أمريكا، أو الفلبين

---

(١) النمل ٦٥.

(٢) الروم ٢.

(٣) قال الساعاتي في الفتح الرباني ١/١٠٣ ط١، مطبعة الإخوان المسلمين: تخرجه لم أقف عليه في غير الكتاب وقد ورد في هذا المعنى أيضًا سعيد بن منصور في سننه قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله ابن مسعود جلوسًا فذكرنا أصحاب النبي ﷺ كان بيننا لمن رآه. والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانًا بغيب ثم قرأ (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) إلى قوله (مفلحون) قال الحافظ ابن كثير: وهكذا رواه بن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق عن الأعمش به وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. اهــ.

أو إيران أو بيت جاري أو الشارع، كل هذا من غيب الحاضر وهذا يمكن معرفته بوسائل الإعلام التي تنقل مباشرة.

ثالثًا: غيب المستقبل، كالساعة، وهذا لا يعلمه حقًا إلا الله، وأما ما أخبر به الأنبياء فهو كما سبق بإطلاع الله تعالى لهم عليه وليس استقلالا منهم، وأما غيرهم من البشر فعلمهم في هذا مجرد توقعات، أو نتائج منطقية لمقدمات معقولة.

وأما الجن فلا علم لهم بهذا النوع ولا ببعض الذي سبقه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾[١]. ومعلوم أن سليمان عليه السلام كان واقفًا أمامهم يرونه مع أنه ميت لكنهم لم يعرفوا أنه مات.

ويروي الذين يتعاملون بتحضير الأرواح أنه إذا سأل عن شيء يتعلق بالمستقبل لا تخبره وتسكت، أو تأخذ في ترديد أصوات غير مفهومة.

فعلم الغيب وبخاصة غيب المستقبل لله وحده وهذا هو مفهوم ومنطوق الآية: ﴿**إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ**﴾ [٢]، ويؤكد هذا المعنى استعمال كلمة ﴿**إنما**﴾ المفيدة للحصر.

التقسيم الثالث: من حيث الورود:

ينقسم الغيب إلى قسمين:

أولا: غيب جاء في القرآن، وهو ركن الإيمان، ويكفر منكره ويخرج من ملة الإسلام.

ثانيًا: غيب جاء في السنة الصحيحة، فإن كانت متواترة كفر منكرها، وإن كانت أحادية فسق منكرها ولم يكفر[٣].

مما سبق علمنا أن للغيب خصائص وصفات، فهو العتبة التي يجتازها الإنسان ليقطع شوطًا أبعد من حيث علمه، وتصوره للحياة، واتساعها، وخروجه من الضيق الذي يفرضه الماديون. إذ إن هذه الدنيا على اتساعها فهناك أشياء لا يعلمها، هي من الغيب. فالإيمان بالغيب يؤثر على تصور الإنسان، ويجعل هذا التصور للكون واسعًا. ثم إن هذا الإيمان يعبر عن مدى ارتقاء الأمة؛ لأن الرقي هو نتيجة للسلوك السوي

---

(١) سبأ ١٤.

(٢) يونس ٢٠.

(٣) بتصرف وزيادة عن (تعريف عام بدين الإسلام) لعلي الطنطاوي ص ١٤٢ ط٧ دار الرائد.

للأفراد، وهذا السلوك لا يكون إلا في مجتمع يؤمن بالغيب الحق، والغيب هو أقوى مؤثر على السلوك، ولهذا كان الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين الصادقين. وسمي أبو بكر بالصديق؛ لأنه كان أول من قال كلمته المشهورة في تصديق محمد ﷺ عندما أخبروه أنه يدعي الإسراء والمعراج: إني أصدقه بأكثر من ذلك، أصدقه بخبر السماء، إن كان قال ذلك فقد صدق(١).

ثم إن هذا الغيب لا يعلمه إلا الله، وفي هذا رحمة للبشر. وتتمثل هذه الرحمة في منع عبادة البشر بعضهم لبعض، إذ لو علم أحد من البشر الغيب حقًا لعبده آخرون. ولو علم البشر الغيب لتعطلت مقاصد الحياة، وركن المذنب إلى ذنبه، وركن المحسن إلى إحسانه؛ وذلك لأن كلا منهما علم نتيجته في دخوله الجنة أو النار إلى غير ذلك من مظاهر تعطل الحياة والخلق.

والإيمان بالغيب يقتضي الإيمان بالأركان الستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره.

والإيمان بالغيب هو الفاصل بين حياة الشرك وحياة التوحيد كما قال الشاعر:

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا   يصلون للأوثان قبل محمد

مفاتح الغيب:

قال تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾(٢)، وفي قراءة شاذة(٣) (مفاتيح الغيب). والمفاتح: جمع مفتح بفتح الميم أو كسرها، قال القرطبي: (ومفاتح: جمع مفتح، هذه اللغة الفصيحة)(٤) بكسر الميم الآلة، مثل: منجل، ومناجل وهي لغة قليلة. والمشهور: مفتاح بالألف، وجمعه مفاتيح إثبات الياء، وقيل: إنه جمع مفتح، بفتح الميم المكان. ويؤيده السدي فيما رواه الطبراني، قال: (مفاتح الغيب: خزائن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣٤ دار الجيل.

(٢) الأنعام ٥٩.

(٣) قال ابن حجر في الفتح ٨/٢٩١. قرأ ابن السميقع (وعنده مفاتيح الغيب) وكذا قال القرطبي في تفسيره ٧/١ وكذا في كتاب (مختصر في شواذ القرآن) ص٣٧ من كتاب البديع لابن خالويه. المطبعة الرحمانية.

(٤) في تفسيره ٧/١.

الغيب)(١)، فالمفاتح بمعنى الخزائن أو المفاتيح. وفي الحديث (**إن من الناس مفاتيح للخير**)(٢). قال القرطبي: وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان. وقال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس: (افتح علي كذا، أي: اعطني أو علمني ما أتوصل إليه به)(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله**، ثم قرأ ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(٤)).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (**مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**(٥)).

وفي حديث ابن مسعود: (**أعطي نبيكم ﷺ علم كل شيء إلا مفاتح الغيب**)(٦).

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: (عبر بالمفتاح لتقريب الأمر على السامع؛ لأن كل شيء جعل بينك وبينه حجاب فقد غيب عنك، والتوصل إلى معرفته في العادة من الباب، فإذا أغلق احتيج إلى المفتاح)(٧). إن علم الله سبحانه وتعالى بجميع الموجودات علم شهادة، وعلمه بما لم يوجد علم غيب، وما لم يوجد له خزائن أو مفاتح لا يعلمها إلا الله عز وجل، وعدد هذه المفاتح خمسة - إن أخذنا بظاهر النص- أو أكثر من ذلك دون تحديد إن لم نعتبر للعدد هنا مفهومًا حيث إنه لم يأت

---

(١) انظر الفتح لابن حجر ٨/٢٩١. بتصرف.

(٢) انظر الفتح وقال ابن حجر: صححه ابن حبان من حديث أنس.

(٣) انظر تفسيره ٧/١.

(٤) رواه مسلم ١/٤٠.

(٥) البخاري مع الفتح ١٣/٣٦١.

(٦) البخاري مع الفتح ٨/٢٩١.

(٧) نقله عنه ابن حجر في الفتح ٨/٥١٤.

النص بصيغة الحصر، وبخاصة إذا دعمنا هذا الموقف بأن كلمة خمس جاءت لمطابقة الواقع، وبالتالي فلا مفهوم على الراجح والله أعلم[(١)].

ثم إن الغيب ما غاب عن الوجود أو الشهود، وهو: عالم البرزخ، وعالم الآخرة وبعض عالم الدنيا، وهو النبات الذي لم يوجد، والحيوان الذي لم يولد، وكسب النفس الذي يحصل في المستقبل. وفي هذه إشارة إلى جميع ذلك، فالساعة مفتاح الآخرة، والغيث مفتاح عالم النبات، وما في الأرحام مفتاح عالم الحيوان، وقوله: ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ**﴾ ظاهر في مفتح الكسب والأعمال، وقوله: ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾ ، أي: كما لا تدري بأي وقت إشارة بالموت إلى عالم البرزخ.

رسالات الرسل و الغيب:

حقيقة لا تحتاج إلى برهان ودليل، وهي كون رسالات الرسل تؤمن بالغيب، إذ مقتضى كلمة رسل أن يكون هناك رسالة من رب العالمين، وهو من الغيب، بل كل غيب تبع له، فالرسالات من حيث الأصل كلها تؤمن بالغيب. ولا يوجد مصدر موثق للاعتماد عليه في إثبات هذا سوى القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ. وقد حدثنا القرآن عن الأمم السابقة وكيف أن الرسل جاءها فدعتها إلى الإيمان بالغيب، كما قال تعالى على لسان أنبيائه: نوح، وهود، وصالح، وشعيب: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُه**﴾ [(٢)]، فالأنبياء جميعًا دعوتهم واحدة ودينهم واحد وإن اختلفت الشرائع بينهم، ولهذا ورد عن الرسول ﷺ: (**أنا دعوة أبي إبراهيم**)[(٣)]، وقال: (**فذكرت دعوة أخي سليمان**)[(٤)]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ**﴾ [(٥)]. فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، وهذا لا يتعارض مع اختلاف شرائعهم. وهاهو موسى عليه السلام يدعو فرعون إلى الإيمان بالله: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ**

---

(١) بتصرف وزيادة عن تفسير المنار جـ ٧ عند تفسيره الآية.

(٢) الأعراف ٥٩.

(٣) رواه أحمد ٤/١٣٧.

(٤) البخاري مع الفتح ٦/٤٥٧.

(٥) آل عمران ١٩.

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١)، وهاهو عيسى عليه السلام يقول في المهد: **﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾** (٢).

إذن فرسالات الرسل كلها دون استثناء تؤمن الغيب، أما الرسالات في الوقت الحاضر فلا مصدر يحدثنا عنها إلا القرآن الكريم والسنة المطهرة إذ لا يوجد بين أيدينا مصادر موثوقة ليرجع إليها، فالتوراة والإنجيل اللذان أنزلهما الله عز وجل قد حرفهما الأحبار والرهبان، كما قال تعالى: **﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾**(٣).

وذلك طبقًا لمصالحهم الشخصية وأهوائهم الذاتية؛ ولهذا نجد في هذين الكتابين أشياء غريبة تجعلنا نجزم بتحريم الكتاب الذي أنزله الله، ومن هذه الأشياء: اتهام الأنبياء بالزنى والأنانية، وغير ذلك من الأشياء القبيحة، ثم الأسلوب الغريب الذي يبعد كل البعد عن أسلوب القرآن، وهو كلام الله كله، وكلام الله كله معجز.

ومع التحريف لهذه الكتب نجد أن النصارى واليهود يؤمنون بالغيب طبقًا لما في العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) بغض النظر عن الاختلاف فيما بيننا وبينهم في مضمون هذا الغيب.

ففي إنجيل متى: (أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس يعطون عنها جوابًا يوم الدين)(٤). وفي إنجيل مرقص: (وإن شككتك عينك فاقلعها، فخير لك أن تدخل ملكوت الله وأنت أعور من أن يكون لك عينان وتلقى النار حيث لا يموت دودها، ولا تطفأ النار)(٥).

ورد في التلمود ذكر الجنة والنار بصورة أسطورية: (إن الجنة تأوي إليها الأرواح الزكية وإنه لا يدخلها إلا اليهود، وإن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت ملك الأسماك الذي يتسع حلقه لسمكة طولها ثلاثمائة فرسخ، والله تعالى يقضي الساعات

---

(١) طه ٥٠.

(٢) مريم ٣٣.

(٣) المائدة ١٣.

(٤) انظر الكتاب المقدس المجلد الثالث العهد الجديد فصل ١٢ ص ٧٦ ط٢ مطبعة المرسلين اليسوعيين بيروت ١٨٨٣.

(٥) المرجع السابق ص ٧٦ الفصل ٩.

الثلاث الأخيرة في اللعب مع هذا الحوت)[١].

وفي العهد القديم بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة: (سمعنا صوت الرب الإله وهو متمش في الجنة عند نسيم النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فيما بين شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟)[٢] فهم يؤمنون بالغيب، ولكن هذا الغيب ليس على الصورة التي هي عندنا نحن المسلمين؛ لأننا نعتقد أنهم كذبوا على الله كما قال المعري:

فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود[٣]

---

(١) انظر الملل والنحل لابن حزم ١/١٦٤.

(٢) الكتاب المقدس العهد العتيق المجلد الأول ص ٧، ٨ الفصل الثالث من سفر التكوين.

(٣) لزوم مالا يلزم ١/٢٤٧.

الفصل الثاني

الإنسان وموقفه من الغيب

الإنسان وموقفه من الغيب:

الإنسان مدني بالطبع، فهو يعيش في جماعة يؤثر ويتأثر بها ويتخذ مواقفه تجاه غيره من الناس، وتجاه أفكارهم واتجاهاتهم، فلابد لكل إنسان من موقف تجاه قضية ما. وعقيدة الغيب أوجدت مواقف للناس في مختلف العصور منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، ولا توجد أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب إلا وحدد موقفه من العقيدة الغيبية بغض النظر عن مضمون هذه العقيدة. ونحن في هذا الفصل نستعرض هذه المواقف من العقيدة الغيبية، ونؤجل مناقشة هذه المواقف والآراء لفصل مستقل في الباب الثاني لأهمية الموضوع.

وإن الناظر في مواقف الناس من معظم القضايا التي تمس حياة البشر يجد أن الناس في الغالب[1] ينقسمون قسمين: مؤيد ومعارض، وهكذا كان موقف الناس من

(١) وهناك من ناقش المسألة مناقشة حسابية ورياضية كأبي العلا المعري، والفيلسوف الرياضي بسكال ووليم جيمس يقول المعري في كتابه لزوم مالا يلزم (تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي جـ٢ ص ٣٠٠ مكتبة الهلال بيروت.

قال: المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت: إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

وقال بسكال: (إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك، فماذا تختار؟ إن عقلك لعاجز كل العجز أن يختار، ولابد أن يربح أحد المسهمين، فوازن بين كل ما يمكن أن تربح وما يمكن أن تخسر، إذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول، أي: على وجود الله فإذا كسبت الرهان فقد حصلت على سعادة أبدية فإذا أخفقت فسوف لا تفقد شيئًا فلست تخاطر إلا بشيء فان، وكل غرم فان ولو كان محقق الوقوع محتمل معقول) ذكره القرضاوي في الإيمان والحياة ط٥ ص٣. ويقول وليم جيمس (إن لنا الحق في اعتقاد أن العالم المادي ليس إلا عالمًا ناقصًا، وإن لنا أن نكمله بنظام آخر روحي خفي ما دام افتراضه يحبب إلينا هذه الحياة ويجعلها تبدو مستحقة لأن يظل المرء منغمسًا فيها) ذكره عبد الكريم الخطيب في كتاب الله والإنسان ص ٨٧ وما بعدها.

الغيب، فهناك من أيد هذه العقيدة واعتبرها الجزء الهام، وأن الحياة بدونها عبث ولهو. بينما نجد القسم الثاني قد اعتبر الاعتقاد ميلا للخرافات، وهروبًا من الواقع، ولكل حجته.

الفريق المؤيد لعقيدة الغيب:

كثيرون هم المؤيدون لعقيدة الغيب -وإن اختلفت طرقهم في الإيمان بهذه العقيدة- فبعضهم آمن بها بصوت الفطرة في نفسه، ومنهم من اعتمد على مبدأ السببية، ومنهم من ناقش القضية مناقشة حسابية رياضية كما سبقت الإشارة إليه[١].

إن التاريخ البشري القديم يحدثنا عن بحث الإنسان عن العبادة، وكيف أن عقول البشر اختلفت في معبودها وإن اتفقت على ضرورة العبادة، فمنهم من عبد الكواكب، ومنهم من عبد الحيوان، ومنهم من عبد الشجر، ومنهم من عبد البقر إلى غير ذلك مما توجه الناس إليه بالعبادة على أنه الله.

المهم أنهم توجهوا إلى العبادة ليعبروا عن شعورهم الفطري تجاه قوة غيبية لا يعرفون حقيقتها بالضبط.

الإنسان الأول:

والمعروف أن الإنسان الأول -وهو في نظر أهل الدين آدم عليه السلام- كان نبيًا، وهو أول من سكن الأرض من البشر. فأصل الإنسان التدين، ثم تأثرت ذرية آدم بالظروف المحيطة بها وبإغواء الشيطان، فانحرفت تدريجيًا عن الجادة ومع هذا بقي التدين أصيلا في الإنسان.

الفراعنة:

وهاهم قدماء المصريين يؤمنون بالغيب[٢]، حيث كانوا يعتقدون بالبعث جسدًا

---

(١) أقصد كلام المعري، وبسكال، ووليم جيمس، وكلامهم هذا لا يعتبر في ميزان الإسلام إيمانًا صحيحًا؛ لأنه يحمل في طياته الشك، بل يميل صاحبه أحيانًا إلى الإنكار كما ورد عن المعري في اللزوميات جـ٣ ص٢٣١ قال:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(٢) انظر كتاب (الله والإنسان) لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي ص ١٢٨.

وروحًا ولهذا كانوا يحافظون على الجسد بعد الموت، فبنوا الأهرامات وكانوا يعتقدون بعودة الروح للجسد، ولهذا كانوا يضعون تمثالا بحجم الإنسان وشكله على القبر لتتعرف الروح على جسدها، واعتقدوا أن الخلود لا يكتب إلا لأولئك الأخيار الذين لم يرتكبوا الآثام ولم يفعلوا الشر، أما الأشرار فيتركون حيث هم في قبورهم، ويجوعون، ويظمأون، ويطعمون التماسيح البشعة، ولا يخرجون من قبورهم أبدًا[(١)].

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: (وعقيدة البعث عند المصريين القدماء كانت سببًا في حضارة وادي النيل والأهرامات)[(٢)]. ويؤكد عبد القادر حمزة باشا على هذا فيقول: (وفي هذا الوقت كانت عبادة أوزريس قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية.. وعبادة أوزريس أساسها الأول أن كل إنسان ملكًا أو فردًا عاديًا مسئول بعد الموت عن أعماله في الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزريس نفسه يساعده فيها توت إله الحكمة والعلم، وأنوبيس مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة وحوريس ابن أوزريس وإيزيس، ومعات آلهة الحقيقة والعدل، واثنان وأربعون قاضيًا، فإذا حكمت المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد وصار مثل (أوزريس). أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش، أو أن يلقى في النار، أو أن يضرب عليه نوع آخر من العذاب.. وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى[(٣)] وعلى التوابيت رسم محكمة ومحاكمة وميزان، وفي هذه المحكمة يجلس أوزريس على عرشه حاملا عصاه وكرباجه، ومعه اثنان وأربعون قاضيًا من الآلهة. يلاحظ أن مصر كانت مقسمة إلى اثنين وأربعين إقليمًا، فكأن كلاً من القضاة يمثل إقليمًا من هذه الأقاليم، فإذا جيء

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥.

(٢) القرآن وقضايا الإنسان لعائشة عبد الرحمن، دار العلم للملايين ط٢، ص ١٥٢.

(٣) بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما يسمى (بكتاب الموتى) حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت، وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها في خلق الكون وبعضها في بيان الأخطار التي يستهدف لها الميت بعد موته وبعضها تعاويذ سحرية، وبعضها في محاسبة الميت. انظر كتاب على هامش التاريخ المصري القديم وانظر قصة الحضارة لول ديورانت ١٦٣/٢.

بالميت تسلمه أنوبيس، وأخذ قلبه فوضعه في إحدى كفتي ميزان ووضع في الكفة الأخرى تمثال الآلهة معات أو ريشتها، ثم وقف الإله توت بجانب الميزان وفي يده اليمنى قلم، وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان، ثم يرفعها إلى أوزريس، ويقف بالقرب من توت الوحش (أماييت)، وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد متأهبًا لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بالتهامه. وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها ليلقى فيها المذنبون. والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته، وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر)(١).

يتبين مما سبق أن الفراعنة كانوا يؤمنون بالعقيدة الغيبية، ورأينا مضمون هذه العقيدة. ورغم أننا نرفض المضمون إلا أن هذا الإيمان يعبر عن الفطرة الإنسانية في نفوسهم تجاه الغيب المجهول.

اليونان:

أما اليونان فقد عبدوا الأسلاف والطواطم، ومظاهر الطبيعة، وأعضاء التناسل، ومزجوا هذه العبادات جميعًا بالطلاسم والشعوذة، واستمدوا من جزيرة كريت عبادة النيازك(٢)، وجعلوا إلهًا للحرب، وإلهًا للموسيقى، وإلهًا للنور، وألهوا السماء والأرض، والبحر، والشمس، والزمن(٣).

أما فلاسفتهم فيغلب عليهم الإيمان، فمثلا فيثاغورس يقول: (إن البارئ سبحانه وتعالى واحد لا يدرك من جهة العقل ومن جهة النفس، وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله)(٤).

ويقول الشهرستاني: (ومن تلاميذ فيثاغورس: فلنكس، وقلانوس، وهما يؤمنان بالله، وكان إيراقليطس، وأباسيس من الفيثاغورسيين، وكذلك خرسبوس)(٥).

---

(١) بتصرف عن كتاب (على هامش التاريخ المصري القديم) لعبد القادر حمزة باشا ص ١٠١ مطبعة دار الكتب المصرية.

(٢) كتاب (الله) لعباس محمود العقاد ط ٥ ص ١٠٩.

(٣) انظر (الديانات القديمة) لأبي زهرة.

(٤) بتصرف انظر (الملل والنحل) للشهرستاني ٢/٢٦٨ مطبعة حجازي بمصر ١٣٦٧هـ.

(٥) بتصرف انظر (الملل والنحل) ٢/٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٧.

أما هرقل الحكيم فكان يقول بأن أول الأوائل: النور الحق لا يدرك من جهة عقولنا؛ لأنها أبدعت من ذلك النور الأول الحق وهو الله حقًا[١]. ويؤمن إنبذقلس بالبارئ تعالى[٢] ويرى أن النفوس جميعًا ستنجو بعد البعث[٣]، وكان زينون الأكبر يؤمن بالله كذلك[٤].

ومن المؤمنين سقراط قال في الملل والنحل: (أما سقراط الأثيني فقد كان يؤمن بالله، وكان زاهدًا داعيًا إلى التوحيد، ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فثوروا عليه الغاغة وألجأوا الملك إلى قتله، فحبسه الملك ثم سقاه السم[٥]. ويؤمن أفلاطون بالله تعالى)[٦].

ويؤمن الفلاسفة الفيضيون (أصحاب نظرية الفيض) بالله تعالى، ومن هؤلاء أفلوطين[٧]. ويقول الأفغاني في أرسطو: (ويعتبر أرسطو من المؤمنين بالله تعالى)[٨]. أما طاليس أو تاليس فقد قال: (إن للعالم مبدعًا لا تدرك صفته العقول من جهة جوهريته، وإنما يدرك من جهة آثاره)[٩]. وقال انكساغورس بالوحدانية، وهو أول من قال بالكمون والظهور، حيث قدر الأشياء كلها كامنة في الجسم الأول وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم، وهي تظهر كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة، والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة، والإنسان الكامل من النطفة المهينة، والطير من البيض[١٠].

أما أوميروس الشاعر فكان يقول: (لا خير في كثرة الرؤساء) ويستدل بها على التوحيد، وقال: (إني لأعجب من الناس إذا كان يمكنهم الاقتداء بالله فيدعون ذلك

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢/٣٣١.
(٢) المرجع السابق ٢/٢٣٨٣.
(٣) انظر (الله والإنسان) للخطيب ص ٢٢٥.
(٤) الملل والنحل للشهرستاني ٢/٣٢٠.
(٥) الملل والنحل للشهرستاني ٢/٢٨٩.
(٦) انظر (الرد على الدهريين) للأفغاني ص ٣٧.
(٧) كتاب (الله) للعقاد ط ٥ ص ١٩٠.
(٨) الرد على الدهريين ص ٣٧.
(٩) الملل للشهرستاني ٢/٣٤٢.
(١٠) المرجع السابق ٢/٢٤٨.

إلى الاقتداء بالبهائم)[١].

ومن المؤمنين بالله انكسيمانس الملطي، وفلوطرخيس، وسولون الشاعر وزينون الشاعر[٢]. هذه هي أقوال عمالقة اليونان وقادتها في الفكر والفلسفة تنطق بالإيمان رغم عدم وصولهم إلى الإيمان الحق. ولكن - كما قلنا - هذه الأقوال تعبر عما يكنه الإنسان في فطرته تجاه قضية الإيمان. وبسبب عدم وصولهم للمبدأ الحق ألا وهو طريق الأنبياء نرى بعضهم يجعل موضوع الإيمان معقدًا، وبالتالي يحتاج إلى أدلة بعيدًا عن الفطرة كفيثاغورس حين يقول بوجوب البحث عن صفة تشمل جميع صفات الأشياء، واختار هو صفة العدد بحجة أن العدد هو الصفة الوحيدة المشتركة التي يتصف بها كل ما في الكون، وهو وحده الذي يصلح أن يكون أصلا له. ولما كان ما في الكون عبارة عن عدد متكرر، والأعداد عبارة عن تكرار الواحد إذن هو أصل الكون وعلته وحقيقته[٣]، وهذه طريقة معقدة في الوصول إلى الله الذي يدركه الإنسان فطرته ونظره في الكون.

ويقول اكزنوفنس: (ما من إنسان يستطيع أن يعرف الله معرفة دقيقة حتى لو شاءت المصادفة لإنسان أن يقول في وصف الله الحق، فهو نفسه لن يعرف أنه يقول الحق[٤]). وهذه مغالاة أخرى في تعقيد الموضوع وإن كانت تصلح للاستدلال على الأول لا يدرك بالمنطق ولا العقل؛ لأن العقل مبدع، والمبدع مسبوق بالمبدع، والمسبوق لا يدرك السابق أبدًا، فلا يجوز أن يصف المسبوق السابق[٥].

-الهند:

أما الهند ففيها ديانات كثيرة يغلب عليها الطابع الروحي، فها هي (اليوجا) تقول بأن الروح شيء إلهي اتصل بالجسد، وهدف اليوجي أن يحرر الروح من

---

(١) المرجع السابق ٢/٣٠٤.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٥٣، ٢٨١، ٣١٧، ٣٣٨.

(٣) انظر قصة الإيمان ص ٢٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الملل والنحل ٢/٣١٨.

الجسد لتتصل ببراهما. فهم يؤمنون بالحلول والاتحاد[1]، ويؤمنون كذلك التناسخ فرارًا من الفناء، وعليه فهم ينكرون البعث الشخصي المعروف عندنا، لكن هذا لا يجعلنا نقول: إن الهنود من الماديين لاشتراكهم معهم في إنكار البعث؛ لأن الفارق بين الماديين والهنود فارق كبير، حيث إن الفريق الثاني موغل في الروحانيات على طريقته الخاصة.

ونتيجة لإنكارهم البعث فهم يحرقون أجساد موتاهم. وعندما ظهر بوذا في الهند وجدها موزعة بين عبادة إله الخير (فشنو)، وإله الشر (سيفا) هذا عدا أسرة من الأرباب الصغار. رفض بوذا التعدد وكذلك رفض التوحيد، وقال بالمطلق أو الكل الذي لا يبعث من موت، ولا يحاسب، ولا يعاقب، وإنما التناسخ حتى يصل ذروته في الإنسان الكامل (البوذا)، ثم بعد ذلك في المطلق أو الكل. وهذا الفناء في المطلق تسميه البوذية (يالنيرفانا)، وتصفه بأنه ذروة السعادة الأبدية؛ لأنه التحرر من القوالب والأشكال، والخروج من القيد إلى الإطلاق. وبلوغ هذه الرتبة عندهم يكون بالتخلص من الشهوات والرغبات، وإخضاع النفس للعقل والحكمة.

- **السومريون:**

نشر (أور - أنجور) في البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم (شمش)، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما في الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية، فلما أصبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مرارًا حتى أصبح لكل مدينة، ولكل ولاية، ولكل نوع من النشاط البشري إله موح مدبر. وكانت عبادة الشمس عند تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر.. وكان هناك إله الشمس، وإله الري، وإله القمر، وإله الزرع. وكان الهواء كله في زعمهم مملوءاً بالأرواح منها ملائكة خيرون، لكل سومري ملك منهم يحميه، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخير الواقي. وكان مسكن الآلهة في المعابد حيث تقرب لها القرابين.. ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة؛ لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى في القبور، وكانوا يقومون بالعبادة طمعًا في

---

(١) انظر مشاهد القيامة في القرآن-سيد قطب-دار الشروق-ص٢٤، بتصرف.

النعم الملموسة في الدنيا. ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين، الدعاء الذي تضرع به الملك جوديا للآلهة (بو) راعية (لكش)[١] ونصيرها: (أي ملكتي، أيتها الأم التي شيدت لكش، إن الذين تلحظينهم بعينك ينالون العزة والسلطان، والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته، أنا ليس لي أم فأنت أمي، وليس لي أب فأنت أبي، أي آلهتي (بو) إن عندك علم الخير، وأنت التي وهبتني أنفاس الحياة، وسأقيم في كنفك أعظمك وأمجدك وأحتمي بحماك يا أماه)[٢].

- البابليون:

أما البابليون فقد ظلت دولتهم دولة دينية يقيد فيها الملك بأمر الكهنة، وتفرض ضرائب الدولة باسم الإله، ولا يخرج على الملك؛ لأن الخروج هو خروج عن الدين. ويلبس الملك لباس الكهنة في حفل تتويجه، وكان الكهنة أعظم تجار بابل لوارداتهم المستثمرة التي تأتي من طالبي الغفران ومن غنائم الحروب. لقد كان عند البابليين إله لكل مدينة يحميها، ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل، يأكلون الطعام بشهية قوية، ويزورون الصالحات من النساء في أثناء الليل فيستولدونهن أطفالا.

فإله الشمس، وإله السماء، وإله القمر، ولكل أسرة آلهتها المترلية، وتصب إليها الخمور صباح مساء، ولكل فرد رب يحميه، فلم يكن عندهم توحيد. أما عقيدة الخلود فلم تكن عندهم، حيث إنهم يعتقدون أن الجنة لا تكون إلا للآلهة ومن تختارهم؛ ولهذا كانت صلواتهم من أجل إطالة مدة الحياة في الدنيا[٣]، فالبابليون يؤمنون بالغيب، يؤمنون بالآلهة المتعددة، يؤمنون بعقوبة الآلهة لكل مخطئ أو مقصر. والخلود عندهم لا يكون إلا للآلهة ومن تصطفيهم[٤]، والمتصفح للملحمة البابلية

---

(١) اسم مدينتهم.

(٢) بتصرف عن قصة الحضارة لول ديورانت، ترجمة محمد بدران، المجلد الأول، الجزء الثاني، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

(٣) انظر قصة الحضارة لول ديورانت، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص٢١١. وما بعدها ترجمة محمد بدران. طبع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. مطابع الدجوي، القاهرة.

(٤) انظر كتاب (الله) للعقاد ص ١٠٧ وكتاب القرآن وقضايا الإنسان لعائشة عبد الرحمن ص ١٥٢ ط٢.

جليجامش يلاحظ فكرة الخلود للآلهة دون غيرهم.

- **الآشوريون:**

والآشوريون كانوا متدينين مثل البابليين، لكن الصبغة العسكرية طغت عليهم، ولم يكن للدين سلطان على الحكومة مثل الذي عند بابل. وكان إلههم القومي من آلهة الشمس، له روح حربية لا يشفق على أعدائه، وكان عباده يعتقدون أنه يغتبط لرؤية الأسرى. وكان دور الديانة الآشورية تدريب مواطن المستقبل على الطاعة الوطنية، ومعظم النصوص الآشورية في الفأل والطيرة والرقى حيث كانوا يؤمنون بالشياطين التي تملأ العالم(١).

- **فارس:**

وبالنسبة لبلاد فارس ففيها ديانات عديدة، فالمجوس(*) هم عبدة النيران القائلون: إن للعالم أصلين نورًا وظلمة، وهم أقدم الطوائف في بلاد فارس. أما الصابئة فهم الذين فارقوا التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام إلى دين عبادة النجوم، وهم يقرون بوجود الله والمعاد. والثنوية هم أصحاب الاثنين الأزليين: النور والظلام. والكيومرتية أصحاب كيومرت وأثبتوا أصلين كذلك. والرزوانية يقولون بالنور أصلا، وعنه نتج الظلام. والزرادشتية أصحاب زرادشت وهم يؤمنون بالله، ويقولون بنبوة زرادشت، وقالوا: بالأصلين النور والظلمة، وأن الخالق الذي لا شريك له هو الذي أبدع النور والظلمة كأصلين وهما أزليان. أما المزدكية أصحاب مزدك الإباحي فهم كالمانوية في الأصلين، وأثبت الأصلين أيضًا الديصانية، والمرقبونية(٢).

- **الصين واليابان:**

أما أهل الصين فنجد أن أكثرهم يعبد ثلاثة أشياء: السماء، والملائكة، وأرواح

---

(١) بتصرف عن قصة الحضارة ص٢٨٢ جزء ٢، المجلد الاول.

(*) ويقال المجوس في الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات وفيه نظر حيث لم ينقل لنا استعمالهم للنجاسات.

(٢) بتصرف عن الملل والنحل للشهرستاني جـ٢ ص٥٤ - ٩١ مطبعة حجازي بالقاهرة.

الآباء. وهم يؤمنون بالقضاء والقدر، وحكيمهم كونفوشيوس يعتقد بعقيدتهم، لكنه اهتم بالدعوة إلى السلوك المستقيم أكثر من الاهتمام بهذه العقيدة(١). ويحدثنا العقاد عن أهل الصين فيقول: (إنهم لا يخوضون كثيرًا في مباحث ما وراء الطبيعة، ويوشك أن يكون بينهم ضرب من أصول المعاملة، وأدب البيت، والحضارة. وقد أخذوا قديمًا عقائد البوذية، والمجوسية، والمسيحية، والإسلام، وأشيع بينهم عبادة الأسلاف. وأهل اليابان كأهل الصين إجمالا)(٢).

- القبائل الإفريقية الهمجية:

وها هم قبائل الهوتنتون الأفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم، ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر، يعرفون إلهًا واحدًا فوق جميع الآلهة يسمى: (أبا الآباء)(٣). بينما نجد قبائل البانتو الأفريقية يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع: نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة، وهو الذي يسمونه (ميزيمو) Mizimo، ونوع هو أرواح لم تكن قط في أجساد البشر، وهو الذي يسمونه (بيبو) Pepo، ويزعمونه قابلا للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء، ونوع مفرد لا جمع له، ليس من الأطياف، ولا من الأرواح المتعددة، ويسمونه (مولنجو) Molingo(٤).

- العرب:

أما العرب قبل الإسلام فكان منهم قليل من الموحدين أو الحنفاء، والغالبية العظمى على الشرك، فقد كانت الوثنية منتشرة بينهم، وكانت الأصنام موزعة على أجزاء الجزيرة. وهذه الأصنام أحضرت من خارج الجزيرة، حيث إن التوحيد، وهو دين إبراهيم عليه السلام كان مسيطرًا على الجزيرة، ودخل الشرك على العرب عن طريق عمرو بن لحي(٥)، فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله

---

(١) الديانات القديمة - أبو زهرة - دار الفكر العربي.

(٢) كتاب (الله) للعقاد ص٨٠، ٨٨.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) انظر كتاب (الله) للعقاد ط ٥.

(٥) قال في الأعلام جـ ٥ ص ٢٥٧ (عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من

ﷺ يقول لأكثم بن الجون[(١)]: (**يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك**)، فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (**لا إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غير دين إسماعيل، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامي**)[(٢)].

ويروي ابن الكلبي[(*)] في كتابه (الأصنام)[(٣)] الكيفية التي جاءت بالأصنام إلى العرب عن طريق عمرو بن لحي، فيذكر أن عمرًا أصيب بمرض شديد، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برئتْ، فأتاها، فاستحم بها، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ قالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

=

قحطان، أول من غير دين العرب من دين إسماعيل إلى الوثنية كنيته أبو ثمامة وفي نسبه خلاف شديد).

(١) قال في الإصابة جـ١ ص ٧٤ (أكثم بن الجون أو ابن أبي الجون واسمه عبد العزى بن منقذ ابن ربيعة، بن أصرم بن ضبيس بن حزام بن حشة بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي وذكر الحديث بروايات كثيرة).

(٢) ذكره الطبري جـ ١١ ص ١١٨ تحقيق محمود محمد شاكر وتخريج أحمد محمد شاكر دار المعارف بمصر.

البحيرة: كانت الناقة إذا ولدت بطنًا خمسًا أو سبعًا شقوا أذنها.

السائبة: كان الرجل يأخذ بعض ماله فيقول هذه سائبة (المسيبة المخلاة).

الوصيلة: إذا ولدت الناقة الذكر أكلوا الذكور دون الإناث وإذا ولدت ذكرًا وأنثى في بطن قالوا: وصلت أخاها فلا يأكلونهما.

الحامي: البعير إذا ولد، وولد ولده قالوا: قد قضى هذا الذي عليه، فلم ينتفعوا بظهره، قالوا: هذا حمي.

(*) قال في الأعلام جـ٩ ص٨٧ ابن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي مؤرخ نسابة، راوية للأخبار توفي ٢٠٤هـ في الكوفة وله مصنفات منها كتاب الأصنام وجمهرة الأنساب وغيرها.

(٣) المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢هـ تحقيق أحمد زكي باشا، ص٩، وما بعدها الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.

وهكذا انتشرت عبادة الأصنام بين العرب وفشا الشرك بين الناس، فاتخذت كل قبيلة لها صنمًا، وكل بيت وضع فيه صنم خاص. وكانت نزار تقول إذا أهلت: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وعبدت خزاعة وقريش أسافا ونائلة وهما زانيان مسخا بعد زنيهما بالبيت. وعبدت هذيل سواعًا، ومن أصنامهم ذو الخلصة، وكان بين مكة واليمن (بتيالة)، وكان سدنتها بنو أمامة. وعبدت كلب (ودًا)، وعبدت مدحج وأهل جُرَش (يغوث)، وعبدت خيوان (يعوق)، وعبدت حمير (نسرًا). واشتركت خزاعة وهذيل في (مناة) وهي قديمة، وكانت جميع العرب تعظم (مناة)، حيث كانت على الساحل من ناحية المشلل بقديد. وكان لطيء (الفَلْس)، واتخذ أهل الطائف (اللات)، وكان (العزى) أكبر أصنامهم. وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها عندهم (هبل). وكان لبني كنانة صنم بجدة يقال له: (سعد)، ولدوس صنم يقال له: (ذو الكفين)، ولبني الحارث صنم يقال له: (ذو الشرى)، وكانت لهم كعبة يعظمونها بنجران. وكان لقضاعة، ولخم، وجذام، وعاملة وغطفان صنم يقال له: (الأُقَيْصر) على مشارف الشام، وكان لمزينة صنم يقال له (نهم)، وكان لأزد السراة صنم يقال له (عائم)، ولعترة صنم يقال له (سعير)، ولخولان صنم يقال له (عميانس).

وانتشرت بينهم وبخاصة القبائل البعيدة فكرة بناء بيوت على مثال الكعبة، فكان لإياد كعبة بسنداه، وهي أرض بين الكوفة والبصرة، وكان أبرهة الأشرم قد بنى كنيسة سماها القليس وزخرفها وزينها ليصد الناس عن الكعبة المشرفة. هذه حال العرب وأصنامهم، وإلى جانب هذا كانوا ينحرون ويحجون ويعتمرون.

وكان من العرب يهود ونصارى، ولعل الموحدين أو الأحناف قوم تأثروا باليهودية أو النصرانية، أو هم بقايا سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن هؤلاء الأحناف: ورقة بن نوفل. وكان العرب يذكرون الله على ألسنتهم، ويسمون أبناءهم بعبد الله، وتيم الله، ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى. فهم يؤمنون بالغيب؛ لأن المشرك لا يمكن أن يسمى ملحدًا. وإذا كان من العرب من ينكر البعث فهذا لا يعني أنه ينكر وجود الله، أو ينكر الإيمان بالغيب مطلقًا.

أما الفلاسفة المحدثون فقد انقسموا قسمين: قسم آمن وهو الأكثر، وقسم ألحد

وهو قليل نسبيًا سيأتي ذكره تحت عنوان: الفريق المنكر لعقيدة الغيب، فمن الفلاسفة المؤمنين الفيلسوف سانتيانا الذي يسمي الإيمان بالغيب بالإيمان الحيواني؛ لأنه غريزة[١].

أما ديكارت فيبدأ من الشك في كل شيء لينتهي إلى اليقين بوجوده هو نفسه، ومن خلال إيمانه بوجود ذاته يصل إلى الإيمان بوجود الله[٢]. وذهب عمانوئيل كانت الألماني إلى وجود الله مستدلا على ذلك بالضمير، والرغبة الباطنة، والدليل الأخلاقي، ورفض أن يكون العقل هو الدليل؛ لأن العقل محدود لا يدرك إلا المسائل الجزئية والحقائق الجزئية، أما الحقيقة الكلية فهي فوق مستوى قدراته[٣]. ويقول تولستوي الفيلسوف الروسي: (ما الحياة وما الموت؟ إنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله، ولولا أنني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله لقتلت نفسي منذ زمان بعيد)[٤]. ويقول دافيدهيوم البريطاني: (إن إثبات وجود الله لم يكن رغبة من رغبات[٥] العقل، ولكنه رغبة كبرى من رغبات الضمير والشعور)[٦]. ويقول ريد: (إن وجود الله حقيقة من حقائق الإدارك السليم)[٧].

ويقول لوك: (إن لنا من المعرفة اليقينية بوجود الله ما يزيد على كل معرفة لم تكشفها لنا الحواس، لا بل يسعني أن أقول إن يقيننا بوجود إله أقوى من اليقين بوجود أي شيء خارج عنا)[٨]. ويؤمن كل من نيوتن، وجورج باركلي بوجود

---

(١) الله ذاتا وموضوعا ص ١٣٨ للخطيب.

(٢) انظر ص ١١٥ كتاب التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ترجمة د. عثمان أمين مكتبة الأنجلو المصرية.

(٣) انظر ص ٦٤٤ وما بعدها كتاب (نقد العقل المجرد) لكانت ترجمة أحمد الشيباني دار اليقظة العربية بيروت.

(٤) الإسلام والمبادئ المستوردة لعبد المنعم النمر ط١ ص ١٧ دار القلم بالقاهرة.

(٥) لو قال: (فقط) لكان أولى.

(٦) ١٩٨/١٩٧ (كتاب الله) للعقاد بتصرف ط ٥ دار المعارف.

(٧) المرجع السابق.

(٨) الله / العقاد بتصرف ص١٩٩، ط٥.

الله[١].

أما علماء الفنون من فلك وطب وتشريح وذرة.....إلخ فكثيرون، بل الغالب فيهم مؤمنون كذلك، فروبرت بروم عضو الجمعية الملكية الإنجليزية يقول في فصل مجموعة (الروح العصري نحو فلسفة الإيمان)، نشرت هذه المجموعة عام ١٩٥١م: (ولقد كانت مباحثي في الخمسين سنة الأخيرة مفرغة على الأكثر لدراسة الحفريات الفقارية، ولم تقنعني كذلك بأن هذا التطور[٢] لم يحدث جزافًا ولا عرضًا، ولكن حدث بهداية أو هدايات روحانية)[٣].

ويقول وليام براون أستاذ علم النفس بجامعة أكسفورد وصاحب التجارب المشهورة في العلاج النفسي، إذ يقول في المجموعة السالفة الذكر: (إن الله محيط بكل شيء...)[٤]. ويقول آرثر تومسون أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة ابردين في فصل من مجموعة العلم والدين: (.. فالذي نحن على يقين منه أنه بحاجة إلى مزيد من العلم ومزيد من الدين).

ويقول جوردون عضو جماعة الأطباء الملكية بأدنبرة في كتابه (فلسفة العالم): (ويومئذ نحب الله حيث نحب الله في كماله نرى أن الكمال هو المهم)[٥]. ومن العلماء الذين يمكن أن نعتبرهم من المؤمنين الدكتور ألكس كاريل[٦] الذي هاجم الحضارة المادية؛ لأنها لم تأخذ في حسابها طبيعة الإنسان، وأسند إليها السبب في

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ بتصرف.

(٢) سيأتي الحديث عن موضوع التطور.

(٣) عقائد المفكرين للعقاد ص ٨٧.

(٤) المرجع السابق.

(٥) عقائد المفكرين، العقاد.

(٦) ولد بفرنسا عام ١٨٧٣م وحصل على الإجازة في الطب من بلده وكذلك إجازة في العلوم، درس عدة سنوات ثم رحل إلى أمريكا عام ١٩٠٥م وعمل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك مدة ثلاثين عام ثم عاد إلى فرنسا عام ١٩٣٩م واشتغل مع وزارة الصحة الفرنسية لأمور تتعلق بالحرب وحصل على جائزة نوبل عام ١٩١٢م وتوفي في باريس عام ١٩٤٤م. انظر مقدمة كتابه: الإنسان ذلك المجهول.

شقاء البشرية، وأنه لابد من اعتبار الإنسان جسدًا وروحًا. وهذا الكلام له وزنه وبخاصة من شخص له قيمة في مجاله وتخصصه إذ يقول: (لست فيلسوفًا ولكنني رجل علم فقط، قضيت الشطر الأكبر من حياتي في المعمل أدرس الكائنات الحية، وأمضيت الشطر الآخر في العالم الفسيح أراقب بني الإنسان، وأحاول أن أفهمهم.. إنني عليم بكل ما اكتنف الفقير والغني، الصحيح والسقيم، المتعلم والجاهل، ضعيف العقل والمجنون، الذكي والمجرم، كما أنني أعرف الفلاحين والعمال والكتبة وأصحاب المتاجر الماليين وأصحاب المصانع، الساسة ورجال الحكم، الجنود وأساتذة الجامعات، المدرسين ورجال الدين، البورجوازيين والأرستقراطيين، وقد ألقت بي الظروف في طريق الفلاسفة، والفنانين، والشعراء، والعلماء، والعباقرة، والقديسين)[١]. ومن الأدباء المؤمنين برناردشو، إذ إنه يؤمن بقوة غير مادية يسميها الحيوية[٢].

وكذلك الأديب فرانز ويرفل إذ يقول: (إن الله أعظم جدًا من أن يحتوي كلام الإنسان برهانًا على وجوده). ومن الأدباء أيضًا الدوس هكسلي صاحب النـزعة الصوفية[٣].

هذه هي آراء بعض المؤمنين بالغيب، وهي قليل من كثير[٤] لا يحصى، وإنما اخترتها كنماذج على الموضوع ضاربًا بها المثل على الإيمان.

ويلاحظ أنني أكثرت الإتيان بأقوال الفلاسفة والأوروبيين وذلك مقصود؛ لأن الإلحاد أكثر ما يكمن في الذين يدعون الفلسفة والذين يدعون الحضارة والتقدم، بينما رأينا أساطين الفلسفة ورؤوس العلماء المعتبرين من أصحاب الحضارة يؤمنون بالغيب كما سبق في أقوالهم.

الفريق المنكر لعقيدة الغيب:

الإلحاد مرض قديم وجد في الشعوب على مر التاريخ ولكن أصحابه قليلون؛ لأن

---

(١) ص ٥ الإنسان ذلك المجهول ترجمة عادل شفيق.

(٢) عقائد المفكرين للعقاد ص ١٠١.

(٣) انظر عقائد المفكرين للعقاد ص ١٠١.

(٤) لتوسع انظر كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

مبدأهم لا يرضي الغالبية العظمى، وإنما هؤلاء القلة دفعتهم ظروف معينة إلى الإلحاد، وكثير من هؤلاء القليل ليسوا ملحدين عقيدة، ولكنهم إما مستكبرون أو أصحاب ظروف خاصة. علمًا بأن الكثير من الملحدين يتراجعون عن هذا الإلحاد بعد فترة معينة، وبخاصة عند الشيخوخة، يقول أفلاطون: (ولا أدري بأي يمين أقسم لك بأني قد شاهدت كثيرًا ممن أصيبوا بهذه العلة في شبوبتهم، وظنوا لا آلهة في الوجود، فلم تلبث معهم تلك العلة في سن الشيخوخة)[١] ولعل فترة الشباب غير المستقرة التي يكثر فيها الإلحاد، وذلك للميزات التي يمتاز بها الشباب من قوة، وحمية، وغرور، واندفاع، وتفلت من القيود.

وقد وجد الملحدون في كل عصر وفي كل مجتمع نسبيًا، والذي نقل إلينا بالطبع هو أقوال بعض الملحدين من الفلاسفة وكبار المذاهب، وإن كان هذا لا يعني أنه لا يوجد غيرهم، لكن شهرة هؤلاء بهذه الصفة لكونهم رجال مذاهب وفلاسفة لهم أتباع.

ومن المفكرين القدماء الفيلسوفان اليونانيان ديمقريطس، وأبيقورس. فديمقريطس من أقدم الفلاسفة الماديين بل هو رأسهم، يقول الشهرستاني: (وأما أبيقورس فكان يرى أن مبادئ الموجودات أجسام تدرك عقلا، وكانت تتحرك من الخلا[٢] في الخلا لا نهاية له، إلا أن لها ثلاثة أشياء: الشكل، والعظم، والثقل. بينما ديمقريطس كان يرى أن لها شيئين: العظم، والشكل، وأن هذه

الأجسام لا تتجزأ ولا تنكسر، وهي معقولة غير محسوسة، فاصطكت تلك الأجزاء في حركاتها اضطرادًا واتفاقًا فحصل من اصطكاكها صور هذا العالم، فقالوا بالاتفاق فلم يثبتوا الصانع)[٣]. ويقول: (وأما أبيقورس فقد خالف الأوائل في الأوائل وأنكر البعث، وقال: إن السعادة والشقاء صنع إنساني)[٤].

---

(١) انظر ص ٧٧ الله والإنسان / الخطيب. دار الفكر العربي ط٢، ١٣٩١هـ مطبعة السنة المحمدية / القاهرة.

(٢) أي الفراغ المطلق.

(٣) الملل والنحل ٢/١٨٣.

(٤) المرجع السابق ٣/١٧،١٦.

وتنسب نظرية الجوهر الفرد[١] إلى ديمقريطس، فقال: (إن المادة تتركب من جزئيات صغيرة لا نهاية لها، هي جواهر فردة تتجمع وتتفرق، فتتكون منها الأجسام، والاختلاف الذي وقع أو يقع بين الأجسام هو نتيجة لاختلاف عمليات التجمع والتفرق كمًا وكيفًا، وأن هذه الجزئيات قادرة على الحركة في كل اتجاه، وعلى أي وضع، وأنها لم تستمد حركتها من أي قوة أخرى أو أصل آخر، وإنما ذلك من طبيعتها، أو تحركها الضرورة العمياء)[٢].

ويقول الشهرستاني: (كان ديمقريطس يقول: إن المبدع الأول ليس هو العنصر فقط، ولا العقل فقط، بل الأخلاط الأربعة.. وإنما شنع عليه الحكماء من جهة قوله: إن أول مبدع هو العناصر، وما بعدها أبدعت البسائط الروحانية، فهو يرتقي من الأسفل إلى الأعلى، ومن الأكدر إلى الأصفى)[٣].

وذهب ديمقريطس إلى إلحاده، وعلل القول بالآلهة بالخوف من الظواهر الطبيعية كالزلازل، والبراكين، وما شابهها. وفي العهد الروماني حاول لوقريطس إحياء مذهب ديمقريطس[٤]. وقد وجد الدهريون في العصر العباسي، ومنهم: ابن أبي العوجاء[٥]، وأبو شاكر الديصاني[٦]، وعبد الملك البصري، وابن المقفع[٧] وغيرهم، وكان هؤلاء الأربعة يقصدون مكة في الموسم لبث سمومهم، وقد وقع نقاش بين ابن أبي العوجاء وبين الإمام جعفر الصادق في مكة، وكان من كلامه: (إلى متى تدوسون

(١) انظر هامش ص ٣٢٧ الملل والنحل وانظر قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب محمود.
(٢) انظر قصة الإيمان لنديم الجسر. ما بعد ص ٣١.
(٣) الملل والنحل جـ ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٧.
(٤) انظر (كيف نحارب الإلحاد) لمحمد أحمد باشميل ص ٨.
(٥) اسمه عبد الكريم وأغلب الظن أنه من العرب لأنه كان خالا لمعن بن زائدة الشيباني القائد المعروف في الدولتين الأموية والعباسية. كان تلميذًا للحسن البصري واختلف معه فاعتزل الإسلام فألحد، ثم تدهر وقد قتل بالبصرة بأمر واليها بأمر الخليفة المنصور.
(٦) قيل إنه تراجع وحسن إسلامه.
(٧) من الكتاب اللامعين والأدباء المشهورين جمع بين العربية والفارسية وبرع في اليونانية ترجم إلى العربية (كليلة ودمنة) من الفارسية قيل إنه قتل لإلحاده وقيل تاب.

هذا البيدر وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المعمور بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر)[١].

ومن الملحدين أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الراوندي، أو ابن الراوندي وقيل: الصحيح ابن الريوندي.

أما الفلاسفة المحدثون فكما قلنا منهم منكرين للغيب كنيتشة، وهيدجر، وسارتر.

فنيتشة هذا أعلن أن الله قد مات، وهذا يعبر عن الصراع النفسي الذي كان يعيشه نيتشة؛ لأن حياته كانت مليئة بالحزن والألم. وهيدجر، وسارتر أقطاب الوجودية يتنكرون لله، وإن كان بعض الكتاب يحاول أن يفلسف كلامهم ليدخلهم في دائرة الإيمان، فيدعي أن هناك وجودية مؤمنة، وأن سارتر رغم أنه فقد إيمانه بالله فلم يفقد نزوعه نحو الله[٢]. وكل ما آمن به الوجوديون هو هذا الوجود، فالإنسان هو الموجود الأول، وعليه أن يهتم بوجوده ويشبع رغباته لا غير.

وأكثر ما كان الإلحاد واضحًا في الفلسفة الماركسية، يقول هوبز أستاذ كارل ماركس: (إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئًا عن وجود الله، فوجودي هو المؤكد وما عداه خرافة وخيال لا أصدقه). وإذا كان هذا هو كلام الأستاذ فلا غرابة إذا قال التلميذ: (لا إله، والحياة مادة)، ويقول: (ما الدين والأخلاق والقانون في نظر البروليتاريا إلا آراء برجوازية، ورسالة البروليتاريا هي القضاء على الدين والداعين إليه)، ويقول: (إن الدين هو أفيون الفقراء).

وها هو صديق ماركس فريدريك إنجلز يقول: (لا محل مطلقًا لوجود خالق فيه، هذا الزمان الذي ظهرت فيه نظرية التطور التي يقوم عليها الكون، وإن الحديث عن كائن أعلى خارج هذا العالم الموجود يتضمن تناقضًا في التعبير)، ويقول: (الماركسية هي المادة ومن ثم فهي معادية للدين). وقد كتب الصديقان ماركس وإنجلز أفكارهما

---

(١) انظر كتاب (الحياة بعد الموت) لرضا المطوف السماوي ط١ ص ٩٧ دار الزهراء.

(٢) انظر في هذا الصدد (الفلسفة الوجودية) لزكريا إبراهيم. دار المعارف بمصر ص ١٢٦.

في البيان الشيوعي الذي أصداره عام ١٨٤٨م[1].

ويقول مكسيم جوركي الأديب الروسي: (إن البحث عن الله لا فائدة منه، ومن العبث البحث عن شيء لم يخبأ، وبدون أن نزرع لا يمكن أن نحصد، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد، فالآلهة لا يبحث عنها، ولكنها تصنع).

ويقول لينين رئيس أول دولة شيوعية في روسيا: (نضالنا ضد الدين وضد جميع الرأسماليين حقيقة لا مراء فيها، وهذا ألف باء الماركسية).

ويقول أيضًا: (وإذا ناضلنا الدين فيجب علينا هدم الأسس الاجتماعية التي تقوم عليها، ويجب ربط ذلك بمحاربة أنواع الطبقات).

ومن المتنكرين للدين والعقائد الغيبية أصحاب الفلسفة الوضعية، وزعيمهم هو: أوجست مونت الفرنسي (١٨٥٧)، وهذا المذهب يقسم المراحل التي مر بها العقل إلى ثلاث:

١- الدور اللاهوتي.

٢- الدور الميتافيزيقي.

٣- الدور العلمي أو الوضعي.

ويقرر كونت أن العقائد ستختفي بسبب عدم صلاحيتها، وأن العقائد الميتافيزيقية ستنهار؛ لأنها لا يمكن لها أن تستمر بسبب تقدم المعرفة الوضعية. وهو يطلق اسم اللاهوت، ويعني به: الخرافة، وسمى التفسير اللاهوتي بالخيالي، أو الأسطوري[2]، ويستبدل هذا المذهب نظرية الخلود الدينية بالخلود الذاتي، أو الخلود في شعور الآخرين.

ومن الملحدين العرب المعاصرين الدكتور السوري صادق جلال العظم صاحب كتاب (نقد الفكر الديني)، إذ يقول: (لنقارن بين هذه النظرية العلمية الباردة القاسية

---

(١) انظر هذه الأقوال في كتاب الإسلام والمبادئ المستوردة لعبد المنعم النمر ط١ ص ١٧.

(٢) انظر في هذا الصدد (كتاب فلسفة أوجست كونت) ليفي بريل وهو من أنصار هذا المذهب ترجمة د. محمود قاسم و د. السيد محمد بدوي مكتبة الأنجلو المصرية.

وبين القصة الدينية الإسلامية الجميلة المريحة الدافئة التي تعودنا عليها. نجد أن الملائكة، والغيبيات، والصلوات، والمعجزات، والجن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته، كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره، أما النظرة العلمية فقد عبر عنها أحسن تعبير فيلسوف وعالم رياضي (لابلاس) عندما قدم كتابه (نظام الكون) هدية لنابليون، فسأله الإمبراطور: وما المكان الذي يحتله الله في نظامك؟ فأجاب لابلاس: الله فرضية لا حاجة بها في نظامي. فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشة يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات، وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوروبا بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تأثير المعرفة العلمية والتقدم الصناعي..)(١).

ومن الملحدين كذلك المدعو: عبد الله بن علي القصيمي(٢)، وبث أفكاره في كتابه (هذه هي الأغلال)، ودافع عن اليهود، وحرف الآيات القرآنية، ومدح الملحدين وذم المؤمنين، ورد عليه صاحب كتاب "الرد القويم على ملحد القصيم" وغيره.

---

(١) انظر ص٦١ كتاب البرهان اليقيني للرد على كتاب نقد الفكر الديني. جابر حمزة فراج ط.١ المكتب التجاري بيروت ١٣٩٠هـ.

(٢) من أهل القصيم ويقال: أصله من صعيد مصر. كان في بادئ الأمر يدعو إلى الإصلاح ثم أخذ يدعو إلى الإلحاد وتوفي في مصر.

الفصل الثالث

الرد على منكري الغيب

تَسَمَّى منكرو الغيب بأسماءَ عديدة، فمرةً: الملحدين، وأخرى: الطبيعيين، وثالثة: الدهريين، ورابعة: الماديين -كلها أسماء متعددة لمسمى واحد- وهذه الأسماء تعبر عن أفكارهم وسبب رفضهم الإيمان، وإذا كان المشهور أن كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى كما هو الحال بالنسبة لأسماء الله تعالى، فها هنا الأمر على العكس إذ كثرة الأسماء تعبير عن جرائم متعددة لهذه الفئة، فهي منكرة للغيب لضيق أفقها وكونها محصورة في إطار المرئي، وهم ملحدون لأنهم تجنبوا الحق وابتعدوا عن الصواب، وهم طبيعيون لقولهم بالطبيعة وأنها فاعلة، وهم دهريون كما قال تعالى على لسانهم: ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾[1]، (وقالوا إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر)[2].

وهم ماديون لأنهم أهمتهم أنفسهم في شهواتها من أكل وشرب وجنس ومال. وقولهم بالحركة الديالكتيكية[3]، والحتمية المادية التاريخية، وقول ماركس: "لا إله والحياة مادة".

وهذه الفئة رغم قلة عددها إلا أنها وجدت عبر مر العصور بصورة الدخيل على طبيعة الإنسان. وهم في جميع عصورهم قولهم واحد وفكرهم واحدة مهما اختلفت الأسماء وتعددت العبارات، إذ القاعدة أن الإيمان هو نصيب القسم الأكبر من الناس. وقد كان الإلحاد في بعض أدواره ردة فعل لتعصب ديني وتزمت متطرف، أو أنه ظهر في فترات القلق النفسي، والترف الحضاري، والغرور العلمي.

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين شهد العالم أعنف حملة إلحاد

(١) الجاثية ٢٤.

(٢) عقيدة المسلم. لمحمد الغزالي ص ٢٧٨.

(٣) الديالكتيك كلمة يونانية ولعل اشتقاقها الأصلي من "ديالوج" بمعنى محادثة.. مجادلة.. مجاذبة أطراف الكلام انظر "نقض أوهام المادية الجدلية" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر. ط١ ١٣٩٨ هـ ص ١٧.

ظهرت في التاريخ، حيث تجمعت ظروف إنباته من تزمت كنسي، ورفاهية حضارية، وغرور علمي بسبب الاكتشافات العلمية، ودعم هذا ثأر قديم ضد اضطهادات الكنيسة للعلم والعلماء.

قال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه[١] (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين):

(ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن، واشتهر بين الناس، وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف، وسموا هذا الجغرافية -التي ما أنزل الله بها من سلطان-: الجغرافية المسيحية، وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها).

اضطهاد الكنيسة للعلم:

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني، فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب، وانتقدوها في صرامة وصراحة واعتذروا عن عدم اعتقادها والإتيان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا، وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش.. ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وأربعون ألف أحياء، كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، وهكذا عوقب العالم الشهير غاليلو Galilo بالقتل؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

وقد أعلن كوبرنيكس أن الشمس مركز الكون لا الأرض كما تقول الكنيسة، وأعلن باستور[٢] أن الميكروبات هي المسببة للأمراض، وليس غضب الإله، وأن

---

(١) ص ١٧٥ ط٦ ١٣٨٥ هـ دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) قال في دائرة معارف القرن العشرين ص٢١ جـ٢ (هولويز باستور كيماوي فرنسي ولد عام ١٨٢٢م وتوفي عام ١٨٩٥م.

مانعات الصواعق ليست محرمة ولا تحارب السماء[١]، فدب العداء في وجه الدين بسبب تصرف رجال الكنيسة، فقامت ردة فعل منحرفة لانحراف الكنيسة. ونحن إذ لا نلومهم على عدائهم للكنيسة - بل هو أمر مطلوب - نلومهم على عدائهم للدين، وكان الأولى بهم أن يأخذوا بموقف الدكتور فيكتور هيجو المفكر والأديب الفرنسي إذ قال: (نحن مع الدين على رجاله)[٢]، وهي عبارة دقيقة، إذ الدين غير الرجال، وإن كانت القدوة مطلوبة لكن العبرة بالنصوص لا بالتصرفات، وهنا تتجلى عظمة الإسلام في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**[٣]. فلا قدوة إلا هو حقيقة، وما أحلى قول الإمام مالك رضي الله عنه: (كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك إلا صاحب هذه الروضة)[٤].

إضافة إلى ما سبق فقد فتح المجال (مع حرية الرأي) أمام وسائل الإعلام داعية للتفلت والعربدة، وظهرت الأقلام المأجورة، والدعاة المرتزقة للإلحاد، وكان أبرزهم في هذه المنطقة الدكتور شبلي شميل[٥]. وظهرت طبقة تنادي بتقليد أوروبا في كل شيء لنصل إلى ما وصلوا إليه من تقدم وحضارة، وطالبوا بالثورة على الدين لنتقدم، حيث إن أوروبا ثارت على دينها فتقدمت، وما علموا أن أوروبا غير بلادنا نحن المسلمين، وأن دينها غير ديننا. ثم إنهم لم يفرقوا بين الدين أصلا وبين الذين ادعوا تمثيله. إن اضطهاد رجال الكنيسة للعلماء أمر غريب في ديننا إذ لم يثبت في التاريخ أن عالمًا اضطهد لقوله بنظرية علمية أو اكتشاف عقلي، بل الإكرام والاحترام للعلم والعلماء، ولم تخل مجالس الحكام من جلسات العلماء، بل لم يكن عندنا فصل بين الدين والدولة. وليس هناك تضارب بين أحكام كتابنا وما جاء به العلم كما سيأتي

---

(١) بين الإلحاد والتوحيد. لعبد العزيز حسين ص ٢٢ ط١ ١٣٨٩هـ.

(٢) المرجع السابق ص٢١.

(٣) الأحزاب ٢١.

(٤) انظر كتاب "الأئمة الأربعة" للدكتور أحمد الشرباصي دار الجيل بيروت.

(٥) طبيب لبناني ولد في كفر شيما عام ١٢٦٩ هـ وتوفي في القاهرة عام ١٣٣٥هـ درس في الجامعة الأمريكية في بيروت وله مؤلفات ضمنها إلحاده. انظر الأعلام للزركلي جـ٣ ص ٢٢٧.

بيانه، لكنه التقليد الأعمى والحقد الدفين، وبخاصة إذا علمنا أن زعماء الإلحاد في البلاد العربية معظمهم من النصارى(١). والملحدون لم يكتفوا بإلحادهم في أنفسهم -هذا أمر طبيعي ومنطقي والأولى بأصحاب الدعوة الحقة أن يفعلوا ذلك- بل أخذوا ينشرونه واتبعوا في ذلك أساليب شتى من التضليل والتزييف (فعمموا الخاص وخصصوا العام وزادوا ووضعوا على ما ليس في الأصل، كالزيادة على أصل ما قاله بعض الناس، وحذفوا قيودًا وشروطًا لازمة في الأصل، وطرحوا أفكارهم مختلفة للتضليل بها، وتصيدوا الاجتهادات الضعيفة لبعض العلماء وجعلوها هي الإسلام مع أنها اجتهادات مردودة، وأخذوا بعض ما عند الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ونسبوه إلى الإسلام وهو منه براء، وزوروا على بعض الناس أقوالا ما قالوها، وكتموا ما صح من الأقوال ولم يتعرضوا له، وأوهموا أن العلوم المادية ملحدة وهي على العكس)(٢)، وأساليب أخرى كلها يقصد منها التضليل والتزوير وهي أساليب كاذبة، والكذب ينكشف ولو بعد حين. وهذه الأساليب تعبر عن نفسية أصحابها، فهم غير باحثين عن الحقيقة، بل هم معاندون مستكبرون دفعهم التعصب المذهبي والسياسة الحزبية إلى الإلحاد، حتى إنهم ينشطون في نشر إلحادهم خوفًا من انتشار الأفكار التي تدعو للإيمان، والتي لا تبقى لهم مجالا(٣).

وبعد هذه الفكرة الموجزة نبدأ باستعراض أهم الحجج التي تمسكوا بها ونناقشها واحدة تلو الأخرى، حيث سيتضح لنا أن كل من يتمسك بالإلحاد ما هو إلا معاند مكابر؛ لأن الحق واضح لمن يريده ويبحث عنه، وأن الإلحاد قام على غير أساس ولا منطق. ومع هذا فإننا لا نستغرب وجود أناس يدعون الإلحاد والإنكار؛ لأنه قد وجد في البشر من هو أشد منهم إنكارًا، فبعض الفلاسفة السوفسطائيين مثل: بروتا جوراس، وجورجياس قد أنكر الوجود الحقيقي للعالم المادي؛ فليس غريبًا أن ينكر

---

(١) والمصيبة أن يدعي هؤلاء أنهم سيحررون فلسطين ويصدقهم الناس.

(٢) بتصرف عن "صراع مع الملاحدة حتى العظم" لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١٥ ط١ ١٣٩٤هـ دار دار القلم بيروت دمشق.

(٣) بتصرف عن "حوار بين الإلهيين". للدكتور محمد الصادقي ص ٢٤ دار التراث الإسلامي بيروت.

الملحدون العالم غير المادي[١].

وإليك أهم الشبه التي يتمسكون بها:

- إنكار وجود الله:

هذه هي الحجة الرئيسة، إذ إن أساس الغيبيات هو الله تعالى بل حقيقة وجوده كبرى اليقينيات، فمن أنكره فقد أنكرها. وهم قد قطعوا الطريق على بقية الغيبيات، فهم من باب أولى ينكرون الجنة والنار، والبعث والجن والملائكة.. إلخ. يقول جوليان هيكسلي: (والإله، والآلهة، والجن، والأرواح وغيرها من الأشياء الصغيرة الروحية من عمل الإنسان، وناشئة حتمًا عن نوع من الجهل، ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية)[٢]. وفي نقاش لابن أبي العوجاء مع الإمام جعفر الصادق قال: (يا أبا عبد الله لقد قلت فأحلت على غائب)[٣]. وسأل الديصاني جعفر الصادق فقال: (تزعمون أن لنا خالقًا فدلني عليه)[٤]. ويقول ماركس: (لا إله والحياة مادة). وحجتهم في إنكار الإله أنهم لم يروه، ولهذا طالب أجدادهم برؤية الله تعالى كي يؤمنوا، قال تعالى: **﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾** [٥]، وقال تعالى: **﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾** [٦]، وقال أيضًا: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ**

---

(١) بتصرف عن "الله ذاتًا وموضوعًا" لعبد الكريم الخطيب ص ١٢٦ ط٢ ١٣٩١ هـ دار الفكر العربي.

(٢) الإنسان في العلم الحديث. لجوليان هكسلي. ترجمة حسن خطاب مكتبة النهضة المصرية. ص ٢٢٣.

(٣) انظر "الحياة بعد الموت" لرضا المطوف السماوي ص ٩٩، ط١، دار الزهراء، بيروت ١٣٩٣هـ.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الفرقان ٢١.

(٦) البقرة ٥٥.

﴿مُوسَى﴾[١].

وهذه حجة باطلة بطلانًا بينًا لكل منصف، إذ متى كان للإنسان أن ينكر شيئًا لمجرد عدم رؤيته له، وهذه أرواحنا السارية في أجسامنا لا نسمعها، ولا نراها، ولا نلمسها، ولا نشمها، ولا نذوقها، ومع ذلك فهي موجودة فينا حقًا، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص، بل بها نحس، وبها نتألم، وبها نسر، وفيها بقاؤنا. ونحن وإن لم نحس بأرواحنا إحساسًا ظاهرًا فقد آمنا بها استدلالا من آثارها فينا، بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل. وهناك أشياء كثيرة ندركها بآثارها: قطعتان من حديد إحداهما مشحونة بقوة مغناطيسية والأخرى غير مشحونة، لا نستطيع أن نفرق بينهما إلا إذا عرضناهما لبرادة الحديد، فإذا انجذبت البرادة نحو القطعة فإننا بالاستدلال العقلي ندرك أنها مشحونة والأخرى غير مشحونة[٢]، والطيور المهاجرة تعرف طريقها بدون حواس[٣].

(أنا لا أرى نملة تمشي على بعد ثلاثة أميال مع أنها موجودة، ولاأرى الجراثيم والحيوانات في كأس ماء صاف مع أن الحيوانات تملؤه بالملايين، ولا أشم رائحة السكر مع أن النمل والذباب يشمه)[٤]. ويقول الطنطاوي: (تعجز عيوننا عن رؤية الملائكة والجن، كما تعجز عن رؤية الأشعة البنفسجية وتحت الحمراء، ورؤية الموجات الصوتية ورؤية التيار الكهربائي)[٥].

إن عدم الإدراك لا يعني عدم الوجود، وقد تقدم الحديث عن الحواس، وأنها محدودة عاجزة عن إدراك كل شيء، بل هي تدرك شيئًا لا يذكر مما هو في الوجود حقًا.

وإذا بقي الملحدون متمسكين بما تدركه الحواس فقط فعليهم أن يمحوا من

---

(١) غافر ٣٦-٣٧ .

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها . لعبد الرحمن حنبكة الميداني، ص ٢٣، ط٢، دار القلم، ١٣٩٩هـ.

(٣) "الله" مصطفى محمود ص ١١٠ وبعدها.

(٤) المرجع السابق ص ١٥٣.

(٥) بتصرف عن "بين الإلحاد والتوحيد" ص٣٥.

قاموس العلم الطبيعي أشياء كثيرة لا يروها، وإنما يفترضون وجودها بحكم الضرورة إليها، مثل: الأثير، والأشعة الكونية، والجاذبية العامة والنسبية، وأشعة إكس وجاما، وفوق البنفسجية، وتحت الحمراء، والأمواج الصوتية للراديو والتلفزيون[(١)]. إن حواسنا محدودة، ولو كانت أكثر مما هي الآن، أو لو منحنا حواس أخرى لاكتشفنا من حولنا أشياء كثيرة هي الآن مغيبة عنا؛ لأننا لا نحس بها إذ لا توجد لدينا الحاسة الخاصة التي تمكننا من اكتشافها، أليس في هذه الأجهزة التي تدل على درجات الحرارة والضغوط الجوية ومقادير الكثافة - إلى غير ذلك من الأجهزة المختلفة - ما يشير إلى نقص كبير في حواسنا؟ وقد كان من الممكن عقلا أن نؤتى الحواس التي ندرك بها ما تتحسسه هذه الأجهزة وتدل عليه، كيف بنا لو أوتينا قوة الإحساس به دون أن نراه كما يحس به المغناطيس؟.

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال أنها وقعت في مدرسة ابتدائية، حيث وقف المعلم يقول للطلاب: أترونني؟ قالوا: نعم، قال: فإذن أنا موجود، أترون اللوح؟ قالوا: نعم، قال: فاللوح إذن موجود، أترون الطاولة؟ قالوا: نعم، قال: فالطاولة إذن موجودة، قال أترون الله؟ قالوا: لا. قال: فالله إذن غير موجود، فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال: أوترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا، قال: فعقل الأستاذ إذن غير موجود[(٢)]. ويقول العقاد عن هؤلاء الحسيين: (ويجيء الماديون في الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول، وتقويم لمبادئ التفكير، والواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق العصور في القدم ليقولوا للناس مرة أخرى: إن الموجود هو المحسوس، وإن المعدوم في الأنظار والأسماع معدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه. وكل ما بينهم وبين همج البداءة من الفرق في هذا الخطأ أن حسهم الحديث يلبس النظارة على عينيه، ويضع المسماع على أذنيه، ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود

(١) بتصرف عن العقيدة "العقيدة الإسلامية وأسسها". عبد الرحمن حنبكة الميداني. ص١٥.
(٢) بتصرف عن "الله" سعيد حوى ص٧. مكتبة وهبة القاهرة.

النفي)[١]. ولابن حزم الأندلسي كلام طيب في الرد على هؤلاء إذ يقول: (هل تدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة، تركوا استدلالهم وأفسدوه إذ قد أوجبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة، وقد نفوا ذلك قبل هذا، فإذا صاروا إلى الاستدلال نوظروا في ذلك، إلا أن دليلهم هذا على كل حال قد بطل بحمد الله تعالى، فإن قالوا: لا يدرك شيء إلا من طريق المشاهدة، قيل لهم: فهل شاهدتم شيئًا قط لم يزل؟ فلابد من نعم أو لا، فإن قالوا: لا، صدقوا وأبطلوا استدلالهم، وإن قالوا: نعم، كابروا وادعوا مالا سبيل إلىمشاهدته، إذ مشاهدة قائل هذا القول للأشياء هي ذات أول بلا شك، وذو الأول هو غير الذي لم يزل؛ لأن الذي لم يزل هو الذي لا أول له، ولا سبيل إلى أن يشاهد ماله أول مالا أول له مشاهدة متصلة، فبطل هذا الاستدلال على كل وجه)[٢].

وهذا الرد من أفضل الردود على الحسيين، إذ لم يبق لهم مجالا يطرقونه أو يلجأون إليه ويتمسكون به، فسار معهم في كل ما يخطر على بالهم، وأبطل كل الاحتمالات إلا الاحتمال الذي ينقض نظريتهم ويلزمهم بالحق، وهو الإيمان بما وراء الحواس وأنها محدودة قليلة ضعيفة.

ومما يرد به على الحسيين والمنكرين لوجود الله تعالى أن امتياز الإنسان بالعقل يحتم عليه أن يستعمل عقله في الحكم على الأشياء، وأهمها وجود الله تعالى.

وكل العاقلين المنصفين الذين بحثوا بدقة وإخلاص توصلوا إلى وجود الله الحق تعالى. وقد جمع كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) أقوالا كثيرة لعلماء في شتى المجالات تحدثوا عن إيمانهم، وتوصل عقولهم إلى الله تعالى. وليس نقصًا في العقل أن يؤمن بالله تعالى، إذ هو يؤمن بأشياء أخرى لا يراها صاحبه (الإنسان)[٣]. يقول الدكتور الصادقي: (وللعقل دور، إذ إنه يدرك المعضلات والعويصات غير المادية في الحساب، والجبر، واللوغاريثم، وما إليها من أحكام، وتصدقات كلية خارجية عن

---

(١) "الله" عباس محمود العقاد. دار المعارف بمصر. ط٥ ص ٥٦.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم ص ١٠، ١١ جـ١.

(٣) حوار بين الإلهيين والماديين ص ٣٧. الدكتور محمد الصادقي دار التراث الإسلامي بيروت.

ظروف المادة وملابستها). ولهذا فقد احترم الإسلام -وهو دين يؤمن بالغيب- العقل، ورفض علماء العقيدة إيمان المقلد، لقوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾[١] وذم القرآن تقليد المشركين بقوله: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾[٢].

يقول عبد الكريم الخطيب: (إن وجود العالم غير المادي يدلل عليه بالعقل، حيث أن من مألوف العقل أن يقابل بين الأشياء، وبما أن العقل يقرر وجود العالم المادي فلابد من وجود العالم غير المادي)[٣].

هذا ورغم كل الأدلة الدامغة على وجود الله عز وجل -وهو رأس الغيب- إلا أن الملحدين استمروا في إلحادهم واتبعوا أساليب شتى يعللون إلحادهم بها، ومنها: أنهم جعلوا صفات الله عز وجل مدخلا للإلحاد، وقد هددهم الله تعالى بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾[٤]. وقد تولى أبو محمد بن حزم الرد عليهم فقال: (وقالوا أيضًا إن كان للأجسام محدث[*] لم يخل من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون مثلها من جميع الوجوه، وإما أن يكون خلافها من جميع الوجوه، وإما أن يكون مثلها من بعض الوجوه وخلافها من بعض الوجوه. قالوا: فإن كان مثلها من جميع الوجوه لزم أن يكون محدثًا مثلها، وهكذا في محدثة أيضًا أبدًا، وإن كان مثلها في بعض الوجوه لزمه أيضًا من مماثلتها في ذلك البعض ما يلزمه من مماثلته لها في جميع الوجوه من الحدوث، إذ الحدوث اللازم للبعض كلزومه للكل ولا فرق. وإن كان خلافها من جميع الوجوه فمحال أن يفعلها؛ لأن هذا هو حقيقة الضد والمناقض، إذ لا سبيل إلى أن يفعل الشيء خلافه من جميع الوجوه كما لا تفعل النار التبريد)[٥].

قال أبو محمد: (يقال لمن قال: لو كان للأجسام محدث لم يخل من أحد ثلاثة

---

(١) محمد ١٩.
(٢) الزخرف ٢٣.
(٣) الله ذاتًا وموضوعًا. دار الفكر العربي ص ١٢٧ ط٢، ١٣٩١هـ.
(٤) فصلت ٤٠.
(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ص١٠ جـ١.
(*) أي أنهم يفترضون جدلا وجود الخالق وأنهم في الحقيقة ينكرون ذلك.

أوجه: إما أن يكون مثلها من جميع الوجوه، أو من بعض الوجوه لا من كلها، أو خلافها من جميع الوجوه إلى انقضاء كلامهم، بل هو تعالى خلافها من جميع الوجوه. وإدخالكم على هذا الوجه أنه حقيقة الضد والنقيض، والضد لا يفعل ضده كما لا تفعل النار التبريد إدخال فاسد؛ لأن الباري تعالى لا يوصف بأنه ضد لخلقه[١]؛ لأن الضد هو ما يحمل حمل التضاد، والتضاد هو اقتسام طرفي البعد تحت جنس واحد[٢]. فإذا وقع أحد الضدين ارتفع الآخر، وهذا الوصف بعيد عن الباري تعالى. وإنما التضاد كالخضرة والبياض اللذين يجمعهما اللون، أو الفضيلة والرذيلة اللتين يجمعهما الكيفية والخلق، ولا يكون الضدان إلا عرضين تحت جنس واحد. ولابد وكل هذا منفي عن الخالق عز وجل، فبطل بالضرورة أن يكون عز وجل ضدًا لخلقه؛ وأيضًا فإن قولهم: لو كان خلافًا لخلقه من جميع الوجوه لكان ضدًا لهم قول فاسد؛ إذ ليس كل خلاف ضدًا[٣]، فالجوهر خلاف العرض من كل وجه حاشا الحدوث فقط وليس ضدًا له. ويقال أيضًا لمن قال هذا القول: هل تثبت فاعلا وفعلا على وجه من الوجوه، أو تنفي أن يوجد فاعل وفعل البتة؟ فإن نفى الفاعل والفعل البتة كابر العيان؛ لإنكاره الماشي والقائم والقاعد والمتحرك والساكن، ومن دفع بهذا كان في نصاب من لا يكلم[٤]. وإن أثبت الفعل والفاعل فيما بيننا قيل له: هل يفعل الجسم إلا الحركة والسكون؟ فلابد من نعم، والحركة والسكون خلاف الجسم وليسا ضدين له، إذ ليس معه تحت جنس واحد أصلا، وإنما يجمعهما وإياه الحدوث فقط. فلو كان كل خلاف ضدًا كان الجسم فاعلا لضده وهو الحركة أو السكون، وهذا هو نفس ما أبطلوا، فصح بالضرورة أنه ليس كل خلاف ضدًا، وصرح أن

---

(١) الله ليس ضدًا لخلقه لا بمعنى أنه يكرههم ويعاديهم ولا بمعنى أنه يماثلهم ويوازنهم ويقابلهم.

(٢) مثال ذلك أننا نصف المسلم بأنه ضد الكافر حيث يشتركان في جنس واحد (الإنسان) وهما متعارضان من حيث الاعتقاد.

(٣) الأئمة العلماء اختلفوا فيما بينهم لكن هذا الاختلاف لا يعني أنهم ضد بعضهم البعض وقد كتب الإمام الشافعي كتابًا سماه "خلاف مالك" ومعلوم أن الشافعي تلميذ مالك.

(٤) أي قيمته كالحيوان والمجنون لا يعاتب على فعل ولا يعاقب على جريمة.

الفاعل خلافه، ولابد من ذلك، فبطل اعتراضهم والحمد لله رب العالمين)[١].

وفي شبهة أخرى لهم من خلال الصفات أيضًا قال: (وقالوا أيضًا: لا يخلو إن كان للعالم فاعل من أن يكون فعله لإحراز منفعة، أو لدفع مضرة، أو طباعًا، أو لا شيء من ذلك. قالوا: فإن كان فعله لإحراز منفعة أو لدفع مضرة فهو محل للمنافع والمضار، وهذه صفة المحدثات عندكم فهو محدث مثلها. قالوا: وإن كان فعله طباعًا فالطباع موجبة لما حدث بها ففعله لم يزل معه. قالوا: وإن كان فعله لشيء من ذلك فهذا لا يعقل وما خرج من المعقول فمحال)[٢].

قال أبو محمد: (ويقال لمن قال: لا يخلو من أن يكون محدث الأجسام أحدثها لإحراز منفعة أو لدفع مضرة أو طباعًا أو لا شيء من ذلك إلى انقضاء كلامهم. أما الفعل لإحراز منفعة أو لدفع مضرة فإنما يوصف به المخلوقون المختارون[٣]، وأما فعل الطباع فإنما يوصف به المخلوقون غير المختارين[٤]. وكل صفات المخلوقين فهي منفية[٥] عن الله تعالى الذي هو الخالق لكل ما دونه. وأما القسم الثاني وهو أنه فعل لا لشيء من ذلك فهذا هو قولنا، ثم نقول لمن قال إن الفعل لا لشيء من ذلك: أمر غير معقول[٦]، ماذا تعني بقولك: غير معقول؟ أتريد أنه لا يعقل حسًا ومشاهدة؟ قلنا لك: صدقت، كما أن أزلية الأشياء لا تعقل حسًا ومشاهدة.

---

(١) الفصل ص١٢ جـ١.

(٢) الفصل ص١٠ جـ١.

(٣) كالجن والإنس.

(٤) كالحيوانات.

(٥) قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[الشمس: ١٤]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٧] وقال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٨].

(٦) كأن المعارض يريد التتريه لله تعالى عن أن يفعل شيئًا هكذا دون حكمة نعرفها وهذا حق ورحم الله أبا محمد إذا لم يفصل القول في هذه النقطة. وكان الأولى أن يقال (الله أعلم) بل فعل ذلك لحكمة وهذا كاف في إثبات التتريه لله تعالى. ومع هذا فالحكمة ليست كما ظن المعارض أنها لجلب منفعة أو لدفع مضرة. فهناك خمسة وجوه: ١-لجلب المنفعة. ٢-دفع المضرة. ٣-لجلب المنفعة ودفع المضرة. ٤-لا لشئ أي عبثًا. ٥-لحكمة لا نعلمها.

وإن قلت: إنه لا يعقل استدلالا كان دعوى منك مفتقرة إلى دليل، والدعوى إذا كانت هذه فهي ساقطة، فالاستدلال بها ساقط، فكيف والفعل لا لشيء من ذلك متوهم ممكن غير داخل في الممتنع، وما كان هكذا فالمانع منه مبطل، والقول به يعقل، فسقط هذا الاعتراض. ثم نقول: لما كان الباري تعالى البراهين الضرورية خلافًا لجميع خلقه من جميع الوجوه، وجميع خلقه لا تفعل إلا طباعًا، أو لاجتلاب منفعة أو لدفع مضرة، فوجب أن يكون فعله تعالى بخلاف ذلك وبالله التوفيق)[1].

وهكذا، لم يبق منفذ إلا سلكوه لكنهم يصطدمون بكلمة الحق تدمغهم وتردهم على أعقابهم، لكنهم يراوغون كالثعالب، فإذا ما سدت أمامهم طريق لجأوا إلى آخر وهكذا.

- الصدفة:

ومما احتج به الملحدون على إنكار الإله والغيبيات أن هذا الكون لا يحتاج إلى موجد يوجده، بل وجد هذا الكون صدفة دون تقدير ولا تدبير، بل محض اتفاق فلا خالق وراءه. وهذه من أوهى الحجج، وأكتفي بالقليل في الرد عليهم مبتدئًا بقول سقراط لأرستوديم: (وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة، عين ترى، وأذن تسمع، وأنف يشم، ولسان يذوق، والعين تحاط بحراسة لحمايتها وضعفها، فتقفل عند النوم، أو عند الحاجة، وتحرس بالرموش والحواجب، ويجعل للأذن جهاز خارجي يجمع لها الصوت، وهل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق؟ والطفل الذي يلهم الرضاعة بمجرد ولادته، هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق؟)[2]. وقصة أحد الملاحدة مع أحد[3] علماء

---

(١) الفصل ص ١٣ جـ ١.

(٢) عقيدة المسلم وما يتصل بها. لعبد الحميد السائح ط١ مطابع وزارة الأوقاف الأردنية / عمان. ص٩٩.

(٣) يقول الدكتور أحمد الشرباصي في كتابه "الأئمة الاربعة" ص ٥٨ إن هذا العالم هو أبو حنيفة.

الإسلام مشهورة، ففي مجلس من مجالس بغداد تواعد الملحد والعالم في ساعة محددة، فحضر الملحد ولم يحضر العالم، وبقي الجميع في الانتظار ساعات حتى كادوا ينفضوا، وإذا العالم يدخل محييًا ويعتذر عن تأخيره بسبب عجيب، فلما سألوه عن السبب، قال: لما انتهيت إلى ضفاف دجلة وأنا في طريقي إليكم رأيت شجرة ضخمة تهوي إلى النهر من تلقاء نفسها، ثم شاهدتها تتقطع قطعًا متشابهة منظمة، ثم أبصرت هذه القطع تتلاقى وتتلاحم على شكل زورق، ثم سال عليها القار ودخلت فيها المسامير، فأصبحت زورقًا جميلا رائعًا، ثم رأيت هذا الزورق يقف عند الضفاف من تلقاء نفسه، فإذا ركب به الناس سار بلا مجداف ولا سائق حتى يصل بهم إلى الجانب الآخر، فإذا ركب الناس من ذلك الجانب سار بهم إلى الجانب الأول وهكذا، وكان هذا هو العجب الذي رأيته وسبب لي التأخير. وما أن أتم كلامه حتى ضحك الملحد بسخرية واستهزاء قائلا: إني لآسف من تضييع الوقت في انتظار هذا الرجل الأحمق السخيف، فالتفت إليه العالم، وقال: إذا كان هذا غير ممكن عقلا ومعتقده أحمق سخيف فكيف بوجود الأرضين والسموات والكواكب والكائنات[1]. وقد كتب الملحد جوليان هكسلي كتابًا سماه: (Man Stands Alone) أي: الإنسان يقوم وحده فلا يحتاج إلى الإله الذي يلجأ إليه المحرومون. وكان هذا الملحد مروجًا لفكرة الصدفة، فوقف ضده العالم الأمريكي (كريس موريسون) ورد عليه في كتاب سماه (Mandoes not Stand Alone) أي الإنسان لا يقوم لوحده، وترجم لكتاب باسم "العلم يدعو للإيمان" ورد فيه على فكرة الصدفة قائلا: (خذ عشر بنسات كلاً منها على حدة وضع عليها أرقامًا مسلسلة من "١ إلى ١٠"، ثم ضعها في جيبك وهزها هزًا شديدًا، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من "١ إلى ١٠"، ففرصة سحب البنس رقم ١ هي بنسبة ١ إلى ١٠، وفرصة سحب رقم ١ ورقم ٢ متتابعين هي بنسبة ١ إلى ١٠٠، وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام ١ و ٢ و ٣

=

أبو حنيفة.

(١) بتصرف عن (الله بين الفطرة والدليل) بقلم الشيخ محمد حسين آل ياسين مطبعة الجبلاوي بمصر / شبرا ط٥ ١٣٩٨هـ ص٩.

متتالية بنسبة إلى ١٠٠٠، وفرصة سحب ١ و ٢ و ٣ و٤ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠٠، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من ١ إلى ١٠ هي بنسبة واحد إلى ١٠ بلايين"(١).

وهذا مثل بسيط يبين كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد الصدفة أو المصادفة. ولابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة، ولابد من ترابط وتقابل على صورة مستحيلة حسابية، ولابد لتوافرها من توجيه سديد وعقل لا نهائي وليس بمجرد صدفة عمياء. ففكرة الصدفة ساقطة في ميزان العقل والعلم أحببت أن أرد عليها بقول فيلسوف من الفلاسفة حيث يتذرع أهل الإلحاد بأنهم فلاسفة ورددت على الصدفة كذلك بقول عالم من علماء الغرب حيث يدعي الملحدون التقدم الحضاري، وأن العلم يرفض الإيمان، ورددت عليهم بقول عالم من علماء الإسلام لأبين أن المسلمين غير عاجزين في الرد بل لديهم الردود السهلة الواضحة.

- **الطبيعة:**

فقد احتج الملحدون على إلحادهم وإنكارهم لذات الله بالطبيعة، حيث قالوا: إن الكون لا يحتاج إلى خالق بل الطبيعة، ولا شيء غير ذلك. يقول سعيد حوى: (حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول: من خلق الإنسان؟ يقول لك: الطبيعة.. فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما حقيقة تأثيرها؟. الطبيعة في اللغة: السجية والخلق، غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس حسب تفاوتهم مفهومين، الأول: عبارة عن الأشياء بذاتها، فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الكائنات هي الطبيعة، وهو مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد كما سيتبين لك. الثاني: أنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها، فهذه الصفات من حرارة، وبرودة، ورطوبة، ويبوسة، وملاسة، وخشونة، وهذه القابليات من حركة، وسكون، ونمو، واغتذاء، وتزاوج، وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة.

أما الأول: فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء،

---

(١) ص ٥١ العلم يدعو للإيمان ١٠ كريسي موريسون. ترجمة محمود صالح الفلكي ط٦، ١٣٩١هـ مكتبة النهضة بمصر.

فالأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء.. وبطلان هذا القول بيِّن، وهذا قول يرفضه قانون السببية.

وأما الثاني: فالحقيقة أن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر لا يعرفون كنهها.

ونضرب المثال التالي: نضع حبة في التراب ونسقيها بالماء، فتنتفخ، وتنفلق، فيظهر منها الرشيم، ويندفع منه الجذر إلى أسفل والساق إلى أعلى، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا، فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم.. ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية، ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها:

لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء. فمن الذي نفخها وخلقها؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا: إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وخلقها لأمكن للماء أن ينفخ الحديد ويغلقه إذن، فلابد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر.

خلاصة القول في الطبيعة أنها إما القول بأن الأشياء حدثت ذاتها، وهو قول ساقط من كل اعتبار، وإما القول بأن الصفات تخلق الذات، وهذا أشد تداعيًا من القول الأول؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه فكيف تستطيعه الصفات؟[1].

فالاحتجاج بالطبيعة أمر منقوض باطل، بل إن أصحابها المرددين لها لا يعرفون معناها، وهذه مشكلة المشاكل بل هي كافية في الرد عليهم، قال في قصة الإيمان: (زعم بعضهم أن أصل الحياة كرية بسيطة ذات خلية واحدة، وزعم آخرون أن الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هي أدنى من ذات الخلية الواحدة وأبسط؛ لذلك سموها (مونيرا)، أي: الوحدة البسيطة في اليونانية، وزعموا أنها تتكون من الجماد بالتولد الذاتي، ومن أشهر القائلين بذلك العالم البيولوجي الألماني آرنست

---

(١) "الله" سعيد حوى ص٩٠ بتصرف.

هيكل، يقول هيكل: إن الكون مؤلف من المادة، والمادة مؤلفة من الذرات، ومن هذه المادة ظهر كل ما في الكون.. وحركة العالم هي حركة تطور دائم يبتدئ من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات، فهذه الكائنات كلها حيها وجمادها تتألف من عناصر واحدة لا فرق في ذلك بين حي وغير حي؛ لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية، وإن بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية. وعلى هذا الأساس يقول هيكل: إن أبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة "غير حية" بطريق "التولد الذاتي". إن أصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصة من العناصر المادية، لكن هذا التوازن دقيق جدًا إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد أو زيادة جزء واحد من أحد العناصر سببًا في نشوء الحياة أو تعطل نشوئها، لكن هيكل وغيره من الماديين يقفون عاجزين عن معرفة سر نشأة الحياة الأولى من الجماد. يقول بخنر(١): (إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر؛ لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولدًا ذاتيًا غير معروفة، والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورهما من الجماد مباشرة، بل أن ظهورهما من الجماد ليعد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعدًا عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأسًا)(٢) ومما ينقض نظرية التولد الذاتي:

(أ) اعتمادها على الصدفة، والصدفة منقوضة.

(ب) كيف عرف هيكل هذا؟ هل كان حاضرًا ورأى ذلك قبل ملايين السنين؟

(ت) هل فعل ذلك علميًا؟

(ث) المواد غير العضوية التي ادعوا أن منها الحياة موجودة فلم لا يحاولون.

---

(١) قال في الإسلام ونظرية دارون هامش ص ٣٧ (بخنر عالم ألماني كبير، من قادة الداروينيين وكبار الملحدين كان أستاذًا بجامعة ليبز. ولد عام ١٨٠١م وتوفي عام ١٨٨٧م).

(٢) بتصرف عن قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص ١٨٨.

(ج) من الذي أوجد المواد الأولية وقدر لها مقادير معلومة[١].

ويفسر بعض الطبيعيين الحياة بأنها جاءت من كواكب أخرى على شكل جرثومة، أو يقولون: إنها وصلت الأرض عن طريق نيزك أصاب الأرض. وهذا كلام خرافي من حيث إنه غير حقيقي، فإن أحدًا منهم لا يملك دليلا على هذا، بل مجرد ادعاء، والدعوى بدون بينة تبطل. ثم كيف استطاعت الجرثومة أن تبقى على قيد الحياة في درجة الصفر المطلق في الفضاء؟ وكيف نجت من الإشعاع الذي يقتل أمثالها؟ وإذا بقيت حية فكيف وجدت لها المكان المناسب؟ وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش؟ وكيف سلمت رغم الاشتعال الذي يحصل عندما يصطدم النيزك في جو الهواء؟ وإذا سلمنا بكل ما سبق فكيف بدأت الحياة على الكوكب الأول[٢]؟

وهذا السؤال الأخير هو الذي حير الملاحدة، فقد ظنوا أنهم وصلوا إلى الحل الذهني للقضية، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام مشكلة لا تحل إلا بالإقرار بالخالق العظيم.

- الكيمياء قادرة على خلق الحياة:

وزعم بعض الملحدين أن الكيمياء العضوية قادرة على خلق الحياة إذا توافرت الأسباب والمدة الزمنية[٣].

ويكفي في الرد على هؤلاء أنهم لم يفعلوا شيئًا حتى الآن، والتحدي قائم بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾[٤]. (وقد حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويًا وذلك في زعمها كدليل تثبت به مذهبها الإلحادي، وكان أن كلفت بهذا الموضوع (أوبارين) رئيس المعهد الكيميائي في الاتحاد السوفيتي، وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد، وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل

---

(١) بتصرف عن الإسلام ونظرية دارون ص ٣٢.
(٢) بتصرف عن "الله" سعيد حوي ص٤٠.
(٣) بين الإلحاد والتوحيد ص٣٢.
(٤) الحج / ٧٣.

الكيميائي، وبعد عمل متواصل قارب عشرين عامًا أعلن حوالي سنة (١٩٦٢م) عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك، وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المخبر، والعلم لا شأن له بالمادة المحسة)[١].

- **قدم المادة والعالم:**

فالعالم قديم لا يحتاج إلى موجد ولا خالق. والقديم لا أول له ولا نهاية، فقالوا بقدم المادة وأزليتها[٢]. (قالوا: لا يخلو محدث الأجسام والجواهر والأعراض، وهي كل ما في السماء إن كان العالم محدثًا من أن يكون أحدثه[٣] لأنه، أو أحدثه لعلة، فإن كان لأنه فالعامل لم يزل؛ لأن محدثه لم يزل، وإذ هو علة خلق فالعلة لا تفارق المعلول، وما لم يفارق من لم يزل، فهو أيضًا لم يزل، إذ هو مثله بلا شك، فالعالم لم يزل. وإن كان أحدثه لعلة فتلك العلة لا تخلو من أحد وجهين: إما أن تكون محدثة، فإن كانت لم تزل فمعلولها لم يزل، فالعالم لم يزل. وإن كانت تلك العلة محدثة لزم في حدوثها سائر الأشياء من أنه أحدثها لأنه أو لعلة، فإن كان لعلة لزم ذلك أيضًا في علة العلة وهكذا أبدًا، وهذا يوجب محدثات لا أوائل لها قالوا وهذا قولنا. قالوا: وإن كان أحدثها لأنه فهذا يوجب أن العلة لم تزل كما بينا آنفًا)[٤].

قال أبو محمد: ويقال لمن قال لا يخلو من أن يفعل لأنه أو لعلة: هذه قسمة ناقصة، وينقص منها القسم الثالث وهو لأنه فعل لأنه، ولا لعلة أصلا لكن كما شاء لأن كلا القسمين المذكورين أولاً وهما أنه فعل لأنه أو لعلة بطلا بما قدمنا هنالك، إذ العلة توجب إما الفعل أو الترك، وهو تعالى يفعل ولا يفعل فصح بذلك أنه لا علة لفعله أصلا ولا لتركه البتة، فبطل هذا الشغب والحمد لله رب العالمين. فإن قالوا: إن

---

(١) بتصرف عن "الله" سعيد حوى ص ٣٩.

(٢) ليس هناك تلازم بين القول بالقدم والإنكار فبعض القائلين بالقدم لا ينكر وجود الله ولكن بعض الملحدين يقول بالقدم.

(٣) لأنه أي لأن الباري علة العالم "انظر هامش الفصل ص ١٠ جـ١ دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت ط٢.

(٤) الفصل لابن حزم ص١٠ جـ١.

ترك الباري تعالى في الأزل فعل منه للترك، ففعله الذي هو الترك لم يزل، قلنا وبالله تعالى التوفيق: إن ترك الباري تعالى الفعل ليس فعلا أصلا كما سيأتي بعد قليل)[١].

(وقالوا أيضًا: لو كانت الأجسام محدثة لكان محدثها قبل أن يحدثها فاعلا لتركها، وقالوا: وتركها لا يخلو من أن يكون جسمًا أو عرضًا، وهذا يوجب أن الأجسام والأعراض لم تزل موجودة[٢]) وقال أبو محمد: (ويقال إن ترك الفاعل أن يفعل الأجسام لا يخلو من أن يكون جسمًا أو عرضًا إلى منتهى كلامهم. إن هذه قسمة فاسدة بينة العوار، وذلك أن الجسم هو الطويل العريض العميق، وترك الفعل ليس طويلا وعريضًا ولا عميقًا، فترك الفعل من الله تعالى للجسم والعرض ليس جسمًا، والعرض هو المحمول في الجسم، وترك فعل الله تعالى للجسم والعرض ليس محمولا فليس عرضًا، فترك الله تعالى للجسم والعرض ليس جسمًا ولا عرضًا، وإنما هو عدم، والعدم ليس معنى ولا هو شيئًا، وترك الله تعالى للفعل ليس فعلا البتة بخلاف صفة خلقه؛ لأن الترك من المخلوق للفعل برهان ذلك أن ترك صفة خلقه لأن الترك من المخلوق لا يكون إلا بفعل آخر منه ضرورة، كتارك الحركة لا يكون إلا بفعل السكون، وتارك الأكل لا يكون إلا باستعمال آلات الأكل في مقاربة بعضها بعضًا، أو في مباعدة بعضها بعضًا وبتعريض الهواء وغيره من الشيء المأكول، وكتارك القيام لا يكون إلا باشتغاله بفعل آخر من قعود أو غيره، فصح أن فعل الباري تعالى بخلاف فعل خلقه، وأن تركه للفعل ليس فعلا أصلا فبطل استدلالهم وبالله التوفيق)[٣]. (وحديثهم في قدم المادة طويل وشطحاهم بعيدة، فبعد أن قالوا بقدم المادة، وأنه لا موجد ولا محرك لها، قالوا: إن هذه المادة متطورة باستمرار، وإن الكائنات الحية نتيجة لهذا التطور، وأبرز مظاهر هذا التطور هو الإنسان[٤]. ويقول الماديون: إن هذا الكون والموجودات لا خالق لها ولا مدبر وإنما أجزاء الكون بما فيها

---

(١) الفصل لابن حزم ص١١ بتصرف قليل. جـ١.

(٢) الفصل لابن حزم ص١١ جـ١.

(٣) الفصل لابن حزم ص١٤ جـ١.

(٤) بتصرف عن "الإسلام والمبادئ المستوردة" لعبد المنعم النمر. دار القلم القاهرة ط١، ١٣٨٠هـ.

الإنسان كآلة تتحرك بذاتها، وفي اليوم الذي ينتهي فيه التعاون بين المادة والطاقة يختل فيه هذا النظام فالعين ليست للنظر وإنما نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد في العين، وما المخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة، وإنما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد، ويفرز البول من الكلية. ولا مبرر للشعور بالحاجة إلى الآخرة، لأن الكون ونظامه يجري بلا هدف ولا غاية، بل طبيعة عمياء لا علم لها ولا شعور)[(١)].

وقضية التطور سيأتي تفصيلها عند مناقشة "نظرية التطور" وإن كان الملحدون أنفسهم تعلقوا بـــ (التطور) لتبرير إلحادهم، وإلا فهم ملحدون قبل أن تطلق كلمة تطور لكنهم يمسكون بكل ما يجعلهم في نظر الناس البسطاء أنهم القمة والمتقدمون وأن مخالفيهم عكس ذلك. مع العلم أنهم لا يملكون الأدلة على كلامهم في التطور بل هو رجم بالغيب. وهم إذ يعيبون على المؤمنين قولهم بأفكار غيبية نراهم يغرقون في غيبيات لا تعتمد إلا على الخيال، بينما غيبيات المؤمنين تعتمد على عالم الغيب خالق الأكوان. أما كلامهم في أن الإنسان آلة وأنه يتحرك طبقًا للعلاقة بين المادة فهذا أيضًا غيب لم يطلعوا عليه، بل هو مهرب آخر لتفسير قولة الكون بلا محرك، ولكن من أوجد هذه الآلة وهذه المادة وهذه الطاقة؟ ومن الذي وضع ورتب العلاقة بينهما؟.

وقد زلت ألسنتهم فأشاروا إلى حياة بتفسيرهم الذي يسمونه علميًا بقولهم: إن النظام يختل إذا بطل التعاون بين المادة والطاقة.

وها هم يؤلهون المادة فيرجعون كل شيء إليها، وما أقبح كلامهم حول الفكر إذ اعتبروه كالبول يفرز كما يفرز البول من الكلية، وهذا الكلام قد نقبل به إذا تحدثنا عن فكرهم إذ هو كالبول أو أدنى. أما الفكر السليم الصافي فهذا مالاتدركه أفكارهم وعقولهم. ثم من الذي قال لهم: إن الكون يسير بطبيعة عمياء؟ أو من يشاركهم في هذا؟ لابد أنهم ينظرون بعيون غير عيون البشر. والحق أن الناظر

---

(١) بتصرف عن "الإسلام" سعيد حوى جـــ٤ ط١، ١٣٨٩هــ تحقيق سليمان الغاوجي ص ١٣٤ وبعدها.

المنصف لأول وهلة وفي أي شيء وأبسط شيء يجد الدقة في الكون والنظام العجيب الدقيق الذي يدل على حكمة الباري عز وجل. وللشهيد سيد قطب كلام جميل حول هذا الموضوع، إذ يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[١]: (وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود، يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود من الكبير إلى الصغير، ومن الجليل إلى الحقير. كل شيء سوي في صنعته، كامل في خلقته، معد لأداء وظيفته، مقدر له غاية وجوده، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق.. الذرة بمفردها كاملة التناسق في كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها، شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها، والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة)[٢].

ونستشهد على دقة الصنع في الكون بكلام (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك إذ يقول: (إن الطيور لها غريزة العودة للوطن، فالعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبًا في الخريف، ولكنه يعود إلى عشه القديم في الربيع التالي. وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب، وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار، ولكنها لا تضل طريقها. والحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص، يحوم برهة يقصد قدمًا إلى موطنه دون أن يضل. والنحلة تجد خليتها مهما طمست الرياح في هبوبها على الأعشاب والأشجار)[٣].

ونضيف إلى ذلك عملية التمثيل الكلورفيلي وعملية التنفس، فالإنسان يخرج ثاني

---

(١) الأعلى ٣.

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب. ص٣٨٨٤ جـ٦ الطبعة الشرعية السابعة ١٣٩٨ هـ دار الشروق بيروت.

(٣) العلم يدعو للإيمان أ. كريسي موريسون. ترجمة محمود صالح الفلكي. مكتبة النهضة المصرية. ط٦ ١٣٩١هـ ص ١١٣.

أكسيد الكربون ويأخذ الأكسجين خلال تنفسه بالشهيق والزفير، بينما النبات يأخذ ثاني أكسيد الكربون ويخرج الأكسجين خلال عملية التمثيل الكلورفيلي، ولابد لنا لنتصور حكمة الله كيف لو أن الإنسان والنبات قاما بعملية واحدة للتنفس مثلا أو التمثيل الكلورفيلي. إذن لامتلأ الكون بغاز واحد. فلو أخذ الإنسان وأخرج ثاني أكسيد الكربون وكذلك فعل النبات لامتلأ الكون بثاني أكسيد الكربون، وهنا يحدث اختناق للكائنات الحية، لكنها حكمة الله التي تصفع كل مجادل مكابر. ومع الدلائل الكثيرة والآيات العجيبة إلا أن الملحدين يصرون على أن المادة هي كل شيء وأنها قديمة، وأنها تطورت بالقوانين الجدلية الباطنة في المادة دونما عوامل خارجية. فبدأوا بافتراض أزلية المادة (وهو خطأ) تسلسلا من الزمن الماضي إلى آجال سحيقة إلى أن يصلوا إلى الأزل أو اللانهاية. ويرد عليهم واحد كان منهم إذ يقول: (وهو خطأ فالزمن كمية محدودة ولا نصل مهما استرسلنا في الجمع والإضافة إلى اللانهاية، وبالتالي الأزل فالمادة ليست قديمة ولا أزلية)[1].

ومن الغريب في هؤلاء الماديين أنهم حكموا بالخطأ على غير المادة مع أنهم ماديون، والأولى بهم أن لا يتعرضوا لغير المادة بالخطأ أو الصواب لأنها ليست من اختصاصهم. إن المذهب المادي يحمل ما ينقضه إذ إنه بني على الفروض مثل اعتمادهم نظرية الأثير وهي نظرية لا واقعية ولا ملموسة، وكذلك بقاء المادة وزيادة نقص الإلكترونات والجاذبية العامة والخاصة. كل هذه فروض لا تخضع لتجربة وغير مؤكدة[2].

- الوحي فيض نفسي:

ومما دعم به الملحدون إلحادهم قولهم: إن الوحي إلهام يفيض من نفس الشخص المدعي لا من الخارج، ذلك أن نفسه العالية، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته، وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد

(١) "الله" الدكتور مصطفى محمود دار العودة بيروت ط١ - ١٣٩٢هـ ص١٠٥.

(٢) بتصرف عن "بين الإلحاد والتوحيد" ص ٣٨.

وجوبه إرشادًا إلهيًا نازلا عليه من السماء بدون واسطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك. ويضربون مثلا لذلك قصة الفتاة الفرنسية جان دارك -عاشت في القرن الخامس الميلادي- التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، إذ اعتقدت هذه الفتاة أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة إلى القتال، وترأست جيشًا صغيرًا وغلبت العدو فعلا، ثم ماتت بعد أن خذلها قومها، فوقعت في أسر عدوها فألقوها في النار حية[١].

والرد على الشبهة كما يلي: إن هذا الذي قالوه هو مجرد تخيل منهم، وتحليل لقضية النبوة ليتخلصوا من المأزق الذي توقعهم فيه النبوة، فتجعلهم يقرون بوجود الإله. ثم إن الشيء الذي جاء به الأنبياء لمعجز عجز الناس، فمثلا: النبي محمد ﷺ جاء بالقرآن فكان معجزته الأولى والكبرى. ووجه الإعجاز فيه أنه تحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، والتحدي لا يزال قائمًا إلى يوم القيامة. فإذا كانت النبوة مجرد إلهام نفسي فلماذا لم يأت الملهمون نفسيًا من غير الأنبياء بمثل ما جاء به محمد ﷺ؟ لكننا لا نجد أحدًا من الذين ألهموا نفسيًا ادعى النبوة، وإن ادعاها فإنه يظهر كذبه بين الناس، إذ من مقتضيات النبوة المعجزة التي تميز الصادق من غيره. إننا لا ننكر الإلهام النفسي وحديث النفس، لكننا ننكر قول الملحدين إن الأنبياء لا وحي حقيقي وصل إليهم، بل هي أشياء نفسية لأنهم كما سبق أن قلنا يقصدون من هذا الفرار من وجود الله.

أما هذه الفتاة التي ذكروها فهي لم تدع النبوة، ولو ادعتها فهي لا تملك المعجزة، ويكفينا دليلا على كذب كل من سيدعي النبوة قول الرسول ﷺ: **(لا نبي بعدي)**[٢]. ثم إن الفتاة - إن صحت القصة - لم يصبها في حالتها هذه إلا توتر

---

(١) بتصرف عن "بين الإلحاد والتوحيد" ص٣٨.

(٢) في جمع الزوائد ص ٢١٣ جـ٨ - عن أبي أمامة الباهلي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته تمام حجة الوداع أيها الناس إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم فذكر الحديث. رواه الطبراني ورجال أحد الطريقين ثقات وفي بعضهم ضعف.

وتهيج عصبي مع حماس وطني، أما تقديس الكنيسة لها فهذا أمر مستغرب، إذ الكنيسة نفسها قامت على خرافات واعتقادات باطلة لا نقرها عليها من أساسها.

- وجود الشر:

ومما احتج به الملحدون في إنكارهم وجود الشر في العالم، فقالوا: كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم عليم رحيم كريم وهي في حالة من الشر والظلم والنقص وسفك الدماء؟.

إذ لو كان الخالق موجودًا فعلا لمنع كل هذه الأشياء ولأبدلها خيرًا وسعادة.

والرد على شبهات الملحدين من وجوه:

أولا: لا يمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد منها، والدنيا في اعتقادنا ليست هي النهاية بل هي مرحلة من مراحل كثيرة يمر بها الإنسان.

أما المرحلة النهائية فهي الآخرة حيث لا ظلم كما قال تعالى: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ**﴾(١).

ثانيًا: كثير من المجرمين والظلمة يلقون عقابهم في هذه الدنيا ويشاهدهم الناس أمامهم كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ (٢).

ثالثا: الابن يبكي حينما يأخذه أبوه ليجري له جراحة ويعتبر هذا جريمة وشرًا فإذا امتد به العمر علم أن هذا الشر العارض كان وراءه خير كثير يستحق التحمل من أجله وكذلك هذه الدنيا. كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقس أحيانًا على من يرحم

رابعًا: بناء وتكوين شخصية الإنسان مرتبط بالمشقات، فلولا المشقة لما كان لكثير من الناس معنى "من صلابة وحزم وعزم" كما قال المتنبي(٣):

---

(١) غافر ١٧.

(٢) طه ١٢٤.

(٣) ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي بالكوفة في محلة يقال لها: كندة عام ٣٠٣هـ وسمي بالمتنبي لأنه ادعى النبوة فأسره أمير حمص نائب الإخشيد ولم يتركه حتى استتابه. قتل المتنبي وهو في الطريق إلى بغداد هو وولده محسد قتلهما فاتك بن أبي جهل الأسدي، وسبب قتله هجاؤه ابنة أخت فاتك.

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

خامسًا: ما يبدو لنا – في النظرة الجزئية – عيبًا ونقصًا نراه في النظرة الشاملة وفي المنظور التاريخي نعمة وخيرًا، كما لو اقتربنا من جزئية صغيرة في لوحة فنلاحظ أنها لطعة قذرة، فإذا ابتعدنا رأينا تلك اللطعة مساحة من الظلال تؤدي وظيفة ضرورية في الجمال الكلي.

سادسًا: الحرية ملازمة للإنسان ويقترن بالحرية الخطأ، فهو ضريبتها، ومن نتائج الخطأ الشر، ولو ولد الإنسان مجبرًا على الخير لفقد حريته.

سابعًا: الخير والشر وجهان لعملة واحدة فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه آخر، والحروب دمار من جهة وحياة من جهة أخرى وهكذا. والبحوث المركزة في أوقات الحرب أخرجت للناس البنسلين، ونقل الدم، ونقل الأعضاء والطاقة الذرية، والصواريخ، والنفاثات، والغواصات، وصناعة الصلب، والبارود وأجهزة الرادار.

ثامنًا: إن الله عز وجل ﴿ **لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون**﴾ (١) فمن صفات الإله الكامل أنه لا يقيده شيء ولا يحكم عليه شيء. وقد أراد الإله الحكيم أن يكون في دار الدنيا خير وشر، فوجود الشر ليس دليلا على عدم وجود الخالق تعالى، بل إن وجود الشر –بالنظرة البعيدة– دليل على الخالق سبحانه وتعالى، إذ إننا نحن البشر نعجز في كثير من الأحيان عن تقدير عقوبة ظالم من الظالمين لكثرة الشرور التي فعلها حتى ولو قدرنا له عقوبة الموت، فإنه لا شيء بالنظر إلى مئات أو آلاف الأرواح التي أزهقها وغير ذلك من الفساد، فشر هذا الظالم وعدم مقدرتنا على تقدير عقوبة له دليل على أن هناك ذاتًا أقوى وأحكم منا قادرة على تلقين هذا الظالم عقوبة تتناسب مع جرائمه فلا تنقص ولا تزيد، بينما لو وكل الأمر للبشر فإنه لابد مائل إلى جهة من الجهتين.

وعليه فلا مجال لادعاء عدم وجود الخالق بسبب وجود الشر، بل الشر والخير من دلائل وجود الله. ومما احتج به الملحدون في إنكار الغيب أن العلم يرفض الغيب،

---

(١) الأنبياء ٢٣.

فالعلم مطلوب ولا يقول عاقل بتركه، وحيث لا مجال بين الأخذ بالعلم والإيمان بالغيب وجب طرح الغيب وعدم الإيمان به. ولأهمية هذه النقطة سنؤجل مناقشتها منفردة في فصل قادم بإذن الله.

- خيال لا واقع:

واحتج الملحدون أيضًا بأن الإيمان بالغيب عملية خيالية ترفضها الواقعية، ويقولون: إن علينا أن نفكر في واقعنا ونترك ما هو بعيد إلى حينه، وأن الحديث عن حياة أخرى غير الحياة الدنيا حديث لهو لا غناء فيه ولا نفع، والنفع والخير في استغلال الموجود من علم وصناعة وفن وزراعة وطب.. إلخ. ويقولون: إن الناس بحاجة إلى من يطرق لهم أبواب الحياة في هذه الآفاق لا إلى من يثير في وجوههم غبار القبور، ويسوق إليهم ريح الموتى، ويحمل لهم الأكفان قبل أن يموتوا(١). وردًا على كلامهم هذا نقول: إنكم خلطتم الحق بالباطل وكلامكم مليء بالمغالطات، فمن قال لكم: إن الإيمان يمنعكم من التفكير في واقعكم وتحسينه وترقيته في كافة المجالات؟ ومن قال لكم: إن الحديث عن الآخرة يكون على حساب مصلحة الناس في معاشهم؟ ومن قال: إن هناك -أصلا- فصلا بين الدنيا والآخرة؟؟ ومن منعكم من استغلال العلوم والصناعات والتبحر فيها وجني ثمرها؟ من قال لكم: إن الحديث عن الآخرة يجعل الناس يموتون وهم أحياء؟ إن هذه كلها تصورات خاطئة عندكم لجهلكم بطبيعة الإيمان الذي طلبه الله من خلقه. إن المسلم يفكر في آخرته دون أن ينسى واقعه ودنياه **﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**(٢)، **"إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"**(٣).

إن الإسلام يفرض على أتباعه أن يكون فيهم من يغنيهم عن غيرهم في كافة المجالات، وهو ما يسمى عند العلماء بفرض الكفاية. فيجب أن يكون بين المسلمين أطباء ومهندسون وفلكيون ومخترعون ومتخصصون في كافة المجالات. ثم إن التفكير

---

(١) بتصرف عن "الله والإنسان" لعبد الكريم الخطيب ص ١، ٣.

(٢) القصص / ٧٧.

(٣) سبق تخريجه.

في الموت والقبر لا يثني المسلم عن العمل للدنيا، بل يجعله يهتم بآخرته أكثر. وهذا هو منطق العقلاء، إذ العاقل يفضل الباقي على الفاني. إن الزهد الذي يحض عليه الدين ليس معناه ترك الدنيا وخيراتها، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾(١).

هذه ردود عليهم إن كانوا يجهلون طبيعة الإسلام خاصة والإيمان عامة. أما إن كان إنكارهم ينطلق من خلفية مسبقة - وهذا هو الأغلب - وحقد دفين وإصرار على العصيان، فهذا له كلام آخر حيث لا تنفع معه حجة، ولا يستقيم لديه دليل كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

- الفكر نتاج المجتمع:

ومما تذرع به الملحدون في إنكارهم قولهم: إن الأفكار الدينية كغيرها من الأفكار من حيث إنها نتاج المجتمع، تقول الكراسة الرمادية التي نشرها الفوضويون الماديون في العراق: (إن الإسلام ككل دين آخر هو ظاهرة تاريخية معرضة إلى تغييرات وتبديلات بحسب الظروف، ويمكن القول إنه نشأ نتيجة لعوامل تاريخية محضة...)(٢). فالدين عندهم ولد في مجتمع معين، وبما أن هذا المجتمع قد مضى وانتهى فكذلك الدين؛ لأنه ثمرة لذلك المجتمع الفاني، يقول ماركس: (ليس شعور الناس هو الذي يحدد واقعهم بل الواقع هو الذي يحدد الشعور)، ويقصد بهذا أن الأفكار -أية افكار- هي من المجتمع تنبع لا من جهة أخرى ويقصد السماء والوحي، فلا وحي ولا خالق بل هي أفكار أنتجها المجتمع وعبر عنها الناس. وهم يرمون بهذا الرأي إلى شيئين:

أولا: نفي كون الدين من عند الله؛ لأنهم أصلا ينكرون الإله.

---

(١) الأعراف / ٣٢.

(٢) ذكرها محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه "الرد على الملحدين" ص ١٥ دار الكرنك. القاهرة ١٣٨١هـ قال ص ١٦ في "الرد على الملحدين" وهي كراسة مأخوذة من بحث أعده الباحث السوفيتي ل. ي. كليموفيتش وعنوان بحثه "الإسلام نشأته ومستقبله".

ثانيًا: تقرير أن الدين والأفكار مرتبطة بالمجتمع، فإذا تغير المجتمع تغيرت الأفكار، وبناء عليه فلا مجال للدين في هذه الأيام لأنه ثمرة مجتمعات قديمة. وهذه الفكرة من أخطر الأفكار التي نشرتها الماركسية على صعيد الثقافة الهدامة ونرد عليها من وجوه:

أولا: إذا كانت الأفكار نتاج المجتمع فكيف نفسر استمرار هذه الأفكار في جميع المجتمعات قديمًا وحديثًا؟

ثانيًا: عدم مقدرة المنكرين على إدخال أفكار جديدة تستطيع العيش عبر العصور.

ثالثًا: المعجزات التي اقترنت بالدين تنفي كونه من إخراج المجتمع، إذ المجتمع والناس -كل الناس- عاجزون ومقرون بعدم مقدرتهم على الإتيان بمعجزات مثلها.

رابعًا: المعارضة القوية ومن أكثرية أفراد المجتمع للدين عند ظهوره تنفي أن يكون هذا الدين إفرازًا من المجتمع، إذ لو كان كذلك لما عارضه أحد لأنه استمرار وثمرة لما أرادوا.

خامسًا: عدم التناسب بين فترة ما قبل ظهور الدين والأفكار التي نادى بها عند ظهوره. فالإسلام مثلا ظهر في بلاد العرب ونادى بأشياء كثيرة أبعد ما يكون واقع العرب يتطلبها. فنادى بالتوحيد والجزيرة مليئة بالأصنام، ونادى بنظام الدولة وبلاد العرب تعيش في ظل النظام القبلي، ونادى بمكانة المرأة وهي عندهم مهينة محتقرة، وحرم أشياء كالخمر والزنا وهم غارقون إلى أذقانهم فيها. فكيف يكون الإسلام من نتاج المجتمع العربي، ومع هذه الدلائل الواضحة إلا أن الملحدين في البلاد الإسلامية[1] ما يزالون ينادون بهذه الفكرة.

- **الضمير والأخلاق:**

واحتج المنكرون بأن الدين يمكن الاستغناء عنه بالضمير، ثم إن الأخلاق -والدين يعطيها أهمية كبرى- يمكن أن توجد دون دين، فكثيرون يتصفون بالأخلاق الطيبة وهم غير متدينين. والرد عليهم في هذه النقطة هو أننا لا ننكر وجود الأخلاق عند بعض الناس من غير المتدينين، لكن الدين ليس أخلاقًا فحسب،

---

(١) الملحد المغربي المدعو عبد الله العروي له كتاب "العرب والفكر التاريخي" ينادي فيه بهذه الفكرة.

بل هناك اعتقاد قبل هذا، فالذي لا يعتقد[١] العقيدة السليمة يكون قد أساء الخلق حتى ولو كان من أفضل الناس أخلاقًا مع الناس؛ لأنه أساء خلقه مع ربه عز وجل. ثم إن الإسلام يريد للأخلاق بناء قويًا لا يتضعضع، فجعل بناء الأخلاق يقوم على أساس العقيدة حتى يكون أكثر دقة وأعظم أثرًا، وحتى لا تعتريه عوامل التغيير والتبديل بين حين وآخر، كما هو خلق بعض الناس الذين قال عنهم الشاعر:

ولا خير في وُدِّ امرئٍ مُتَلَوِّنٍ إذا الريحُ مَالَتْ مَالَ حيثُ تَمِيلُ

ثم إن هذه القلة القليلة التي يحتج بها وأنها على أخلاق حميدة دون دين، هذه القلة ليست هي المقياس للمجموع العام، والدين جاء ليخاطب كل الناس، الضعيف والقوي، الفقير والغني، الرجل والمرأة، الأسود والأبيض.. إلخ. وكي ينضبط هذا المجموع أو غالبه في سلك الأخلاق المؤسسة على العقيدة، كان لابد من الدين وكان لابد من الأساس وهو العقيدة. ثم إن تلك القلة التي حدثونا عنها يرجع بعضهم إلى خلفية دينية في أخلاقه سواء تأثر بأهله أو بمحيطه أو تمسك بمقتضيات العقل والمنطق، حيث يهدي العقل الإنسان إلى الخير، يقول أحد العلماء الغربيين (تادر): (إنني أعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحدين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية)[٢]. ثم إنه لابد من مقياس للأخلاق الحسنة من القبيحة يقول القرضاوي: (روى الترمذي: أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)، فالدين وحده الذي يحدد السلوك المستقيم من غيره، فلا القانون ولا الفلسفة الأخلاقية تحدد ذلك. فالقانون يحكم على الظاهر ويعاقب المسيء ولا يجزي المحسن، والفلسفات الأخلاقية كثيرة. وما الذي يعود إليّ نتيجة تمسكي بفلسفة الواجب التي نادى بها كانت، أو فلسفة اللذة التي قال بها أريستيب وأبيقور، أو فلسفة المنفعة وهي فلسفة وليم جيمس، أم ماذا؟.

قال فيخته الفيلسوف الألماني: (الأخلاق من غير دين عبث)، وقال غاندي: (إن

---

(١) ولهذا قرر القرآن بطلان أعمالهم: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾[التوبة: ١٨].

(٢) بتصرف عن "الإيمان والحياة" للقرضاوي ص ٢٣٤.

الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال...)(١).

ثم إن الملحد صاحب الخلق لا يلبث أن تنجلي حقيقته وماديته لو تعمقت معه في الصلة والعلاقة، فهو طيب الأخلاق ما لم تتعرض مصالحه للخطر، فإن خاف عليها وشعر أنها في خطر، فإنه ينسى الأخلاق والسلوك ويكون جل همه مصلحته ولو على حساب الآخرين.

إن لدينا ملايين من الأمثلة على خلق ذوي الدين بينما لم يشتهر بين الناس، أو ضعف اشتهار ملحد صاحب خلق. ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بهذه النقطة يغلب على ظني أنهم فهموا الأخلاق بحدود أصغر مما يفهمها المؤمنون، أو مما هي عليه حقيقة، فكأنهم ظنوا الأخلاق هي الصدق والأمانة فحسب، والحقيقة أن الأخلاق تظهر في كل تصرف يقوم به الإنسان مع ربه أولا، ومع نفسه وسائر الخلق ثانيًا، فإذا قصر في ناحية منها اعتبر مقصرًا في أخلاقه. إن ما يشتهر عن الغربيين والبرطانيين بالذات من أنهم أهل الصدق إنما اشتهر هذا لأنه كان من صلب سياسة بريطانيا في المنطقة العربية الإسلامية؛ ليسهل تثبيت أقدامها هنا، بينما نملك أمثلة كثيرة على سوء خلقهم من عُهْر، وزنا، ولواط، وتفكك أسرة، ومادية واضحة، ومكر بالشعوب.. إلخ.

وبالمقابل نملك آلافًا بل ملايين الأمثلة على خلق المسلم وتكامله من جميع الجوانب. أما قضية الضمير فأكتفي في الرد عليها بمحاولة أمريكا تحريم الخمر وفشلها في ذلك، بينما استطاع الإسلام ذلك بسهولة. فعن أبي برزة عن أبيه قال: (بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم، وقد نزل تحريم الخمر ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾ إلى قوله: ﴿ **فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ**﴾ (٢) فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿ **فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ**﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضًا وبقي بعض في الإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا

(١) بتصرف عن "الإيمان والحياة" للقرضاوي ص ١٨٩.
(٢) المائدة / ٩٠.

في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا انتهينا)[١].

والسبب في هذه الاستجابة العجيبة العقيدة، والإيمان بالله عز وجل أنه يراهم أينما كانوا، وسيحاسبهم على أعمالهم. فالأخلاق والتصرفات إذا بنيت على العقيدة كانت من أبدع ما يكون، أما إذا كانت بدون عقيدة فإنها تكون معرضة للتغير والتبدل كما هو واقع عند الغرب، فهو على استعداد أن يحترم الإشارة الضوئية المرورية، لكنه لن يستجيب لقانون يمنع الخمر أو الزنا أو غيره مما يسيء إلى الأخلاق. فما تذرعوا به من أن الضمير والأخلاق لا تحتاج إلى دين أمر مرفوض عقلا وشرعًا وواقعًا.

- قيام الساعة:

ويتبع الماديون الملحدون أسلوب الاستهزاء بالإيمان، فيثيروا غبارًا حول الساعة والجزاء والجنة والنار ومما قالوه: إن القرآن يقول: ﴿**لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً**﴾[٢] وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ولم تقم الساعة بعد، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية، وأن الألف عام أو أكثر ليس إلا زمنًا يسيرًا وعهدًا قريبًا بالنسبة لعمر الدنيا، وخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولوجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من السنين والقرون، ونضيف إلى هذا أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، وأن رسالته هي الكلمة الأخيرة من الله للناس. وبذلك يكون معنى القرب واضحًا فلا نبي بعده ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة[٣].

- التقدم ينفي الدين:

وقالوا إن التطور الحضاري الذي بلغه الإنسان ينفي الدين إذ الحقيقة في نظرهم ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته عمليًا، بينما حقائق الدين قامت على ما لا يمكن

---

(١) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ المائدة / ٩٠.

(٢) الأحزاب /٦٣.

(٣) بتصرف عن "الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين" للقرضاوي والعسال. مكتبة المنار الكويت ط٢ ص ٢٩ ١٣٩٥هـ.

فحصه ومشاهدته[(١)].

ويقول ملحد القصيم: (وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم عبدوا الطبيعة.. وهوت جميع الأمم التي انصرفت إلى مالا تحس ولا ترى. حتى إن فيلسوفًا عظيمًا هو الدكتور جوستاف لوبون لما لاحظ هذا قال في كتابه (الآراء والمعتقدات): (إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر؛ لأنه وقف بالحضارة عن التقدم ولم تستطيع الحضارة البشرية أن تخطو خطوتها الصحيحة إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام)[(٢)]. ويقول الماديون: (إنهم قد تعاملوا مع الواقع المحسوس، وضربوا صفحًا من التطور عن التصورات والخيالات، فحصلوا على كل الثمار المادية من مال، وثراء، وترف، وقصور، وسيارات، وطائرات، وغواصات، ورحلات فضاء، وقوة، وسيادة، وسيطرة. أما الأمم التي تؤمن بالروحانيات فهي فقيرة مستضعفة: مرض، حرمان، جوع، فقدان للتكنولوجيا، هزائم، لا علماء ولا رجال فضاء)[(٣)].

وقولهم هذا أكثر تهافتًا مما سبقه. فمن الذي قال لكم إن الحقيقة ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته عمليًا، بل أثبت علمكم الذي تتبجحون به -وهو علم نسبتموه إلى أنفسكم وأنتم أبعد الناس عنه- أن كثيرًا من الحقائق القطعية لا يمكن مشاهدتها ولا فحصها تجريبيًا، وقد سبق الكلام على هذا عند ذكر الحواس. أما إن الإغريق والرومان والمصريين القدماء وغيرهم من الشعوب قد أبدعوا فهذا نقبله من نواح ونرفضه من أخرى، نقبله من حيث فن العمارة والصناعات وبعض العلوم اليدوية، أما النواحي الأخلاقية، والوثنيات، والبطش، والاستبداد، والظلم فهذا أمر لا ينكر في سوء حضارتهم.

ومع هذا فالتقدم الذي حصلوا عليه ووصلوا إليه ليس لأنهم عبدوا الطبيعة، فكثير من الشعوب الأفريقية وبعض شعوب جنوب شرق آسيا لا يزال حتى الآن

---

(١) انظر "العقيدة الإسلامية في القرآن والسنة" ص٣.

(٢) انظر "الرد القويم على ملحد القصيم" ص ٤٣٠.

(٣) انظر "الله والإنسان" للخطيب ص ١٠٦ دار الفكر العربي.

يعيش تحت جهله بالإله، ويعبد أشياء شتى منها الطبيعة، لكننا نراهم في سلم التقدم الحضاري غير متقدمين. ثم إن الله عز وجل يعطي الدنيا ومنها التقدم الحضاري لكل من يبذل فيه جهدًا بغض النظر عن اعتقاده، فإذا قصر المسلمون في هذا المجال فليس لأن دينهم أمرهم بهذا، بل يحضهم عليه وهذا أمر معروف.

وإذا تقدم عباد الطبيعة فليس لأنهم عبدوا الطبيعة، بل لأنهم بذلوا جهدًا في هذا المجال.

ولا أدري ماذا يقصد بقوله: (هوت جميع الأمم التي انصرفت إلى ما لا تحس ولا ترى) هل يقصد أنها انقرضت أم زال سلطانها؟؟ إن كانت الأولى فهذا باطل بالمشاهدة إذ لا يزال المسلمون موجودين على سبيل المثال، وبالمقابل لا نرى من الرومان ولا الفراعنة أحدًا، ولا أثر لحضارتهم ومن ينادي بأفكارهم، وإذا كانت الثانية، أي: زوال السلطان فهذا صحيح على جميع الدول المتدينة، وغير المتدينة وهكذا كما قال الشاعر:

ما طار طير وارتفع   إلا كما طـــار وقع

فذهب الرومان واليونان والفراعنة وغيرهم، إلا أنه يبقى جديرًا بالذكر أن الإسلام يختلف عنها في كونه سيرجع ويقوم سلطانه بإذن الله تعالى.

إن الدين وقف في وجه الحضارة والتقدم فهذا لا يستطيع أحد إثباته على الدين الصحيح، أما دين الكنيسة فهذا دين ليس من عند الله بل هو من اختراع من الرهبان وقد سبق الحديث عنه.

ثم أضيف نقطة أخيرة في الرد عليهم، وهي أن كثيرًا من الشعوب التي يصفونها بأنها ضعيفة، أقول: إن ضعفها ناتج عن استغلال الدول الاستعمارية لها، وسيطرة أذناب الدعوة من أبناء ذلك البلد على مقدرات الشعوب. ومن مظاهر الاستعمار هذه الدعوة لترك الدين؛ لأن الدين هو الذي يملك التفسير الصحيح لكل الأشياء، ومنها موقف الدين من الاستعمار إذ لا يقبله في أية حالة من الحالات.

- التفسير الجنسي:

ومن تفسيرات الملحدين -الغربية- للدين التفسير الجنسي، إذا اعتبر فرويد الدين أنه نوع من التسامي بالغريزة الجنسية، فبحب الطفل لأمه وغيرته من أبيه وكراهيته

الدفينة له "عقدة أوديب"[١]، اتخذت شكلا ظاهريًا من التفكير اللاشعوري عن هذه الكراهية بحب مبالغ فيه للأب، ثم عبادته، ثم عمل تمثال للأب. وهكذا وجدت الأصنام، ثم في النهاية الاتجاه بالعاطفة والعبادة نحو أب سماوي مجرد. ويقول الملحدون: (إن فكرة الإله انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون)[٢] (ويعتبرون الدين نتاج اللاشعور الإنساني، وليس انكشافًا لواقع خارجي)[٣]. ونسي فرويد أن فكرة وجود الله وجدت في المجتمع البدائي الهمجي المشاعي، حيث لا كبت ولا كبح ولا تحريم للأم على الابن ولا البنت على الأب، وفي تاريخ الفراعنة ما يثبت أنهم كانوا يتزوجون بناهم وأخواهم. وكان واجبًا على فرويد أن يعلل لماذا لم يعبد الإنسان أبًا سماويًا وأمًا سماوية إذ كذلك بناء على نظريته، كانت البنت تفكر في أبيها فلم تقتل أمها وتعبدها؟[٤]، وبالتالي نصل إلى تعدد الآلهة وهذا يبطله واقع الموحدين.

- الخوف شذوذ:

ويقول الملحدون: إن الدين يؤمن بالخوارق وقام عليها، وهي شيء شاذ عن نظام العالم ودقة تركيبه، فلا مجال للخوارق، وعليه فلا مجال للدين لأنه قام عليها[٥]. ونقول: حقًا إن الدين قام على المعجزات والخوارق وهذا أمر ضروري لإثبات كونه دينًا من عند الله لابد من قدرة البشر، فإذا عجز البشر على الإتيان بمثله كان ذلك لزامًا عليهم أن يقرروا أنه لابد أن يكون من عند من هو أقدر وأعلم وهو الله تبارك وتعالى. أما إن الخوارق تشذ عن نظام العالم فهذا لابد من توضيحه: إن كان يقصد

---

(١) كان أوديب يحب أمه ويغار من أبيه لانفراده بأمه فقتل أباه ثم ندم وأخذ يقدس قبر الأب ثم بنى له صنمًا ثم عبده وهكذا إلى أن وصل إلى الأب السماوي. هكذا يروي فرويد وجماعته وهي بالطبع قصة باطلة. فلماذا لم تقتل البنت أمها لتنفرد بأبيها ومن ثم تجعل لأمها صنمًا تعبده.

(٢) انظر "العقيدة الإسلامية في القرآن والسنة" ص ٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر "الله" لمصطفى محمود. دار العودة بيروت ط١ - ٩٢.

(٥) بتصرف عن "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون" لمصطفى صبري ص ٣٩. طبع عيسى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٦١هـ.

أنها لا تسير وفقًا لما اعتاده الناس كعصا موسى حيث انقلبت أفعى فهذا أمر حق، وإن كان يقصد أنها لا تنسجم مع النظام الكوني ولا يمكن أن تقع فيه فهذا باطل، بل هي منسجمة معه كل الانسجام إذ الذي وضع نظام الكون هو الذي قدر الخوارق. ثم إن كثيرا من الناس لا يرشدهم نظام العالم ودقة صنعه إلى البارئ عز وجل، فكان لابد من شيء يخالف هذا النظام ليلفت نظر الذين لم يلتفتوا، فكانت الخوارق فهي للدلالة على البارئ عز وجل، لا لتنقض نظام العالم، بل لتجعل الإنسان ينسجم مع هذا النظام، فيعبد الله حق عبادته، فكان ورودها لإتمام النظام وانسجام كل عناصر الكون ومنها الإنسان.

- **إنكار البعث:**

استند الملحدون في إنكارهم الغيبيات على إنكار البعث، فجعلوا الحياة بعد الموت مستحيلة، فالفناء والزوال والانتهاء والانعدام فلا حياة ولا شعور بعد الموت، كما قال تعالى على لسانهم: **﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** (١)، **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾** (٢).

وسبب إنكارهم هو عدم شعورهم بما بعد الموت، ومعلوم أن عدم الشعور ليس لازمًا له الإنكار، وأن وجود الشيء لا يتوقف على إقرار شعورنا به، ولو كان هذا صحيحًا لجاز للشخص أن يقول: إن النهر الذي كنت رأيته ما كان خرج إلى عالم الوجود إلا حينما رأيته يجري، ودخل الفناء لما توارى عن نظري، وهذا باطل بإجماع العقلاء(٣). وقد ناقش القرآن هؤلاء القوم ورد عليهم أحسن رد، قال تعالى: **﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾**(٤) **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي**

---

(١) الجاثية ٣٤.

(٢) الدخان ٣٥.

(٣) انظر "الإيمان" للمودودي دار الخلافة للطباعة والنشر ص ٢٢٣ بتصرف.

(٤) الإسراء ٤٩-٥١ .

أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]، **﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾**[٢]، وآيات كثيرة كلها ترد على المنكرين. يقول المودودي: (هل للإنسان حياة بعد موته؟.. سؤال إنما يتعلق بما وراء حدود حواسنا وتجاربنا الحسية.. لا نستطيع الجواب على هذا السؤال بالنفي ولا بالإثبات معتمدين على حواسنا أو علومنا التجريبية؛ لأن ذلك الشيء بالذات ما كنا أحسسناه من قبل ولا نحسه الآن.. والوسيلة الأخرى للعلم بعد الحواس هي الفكر، إذ الإنسان يأبى تقييد نفسه بالمحسوسات.. والتفكر له طريقان:

١- طريق الفلسفة القياسية المجردة التي تعتمد المقدمات العقلية، وتغمض العين عما في الكون من آثار. وهذا أصل كل فساد في الأرض، ومنه نبعت كل المذاهب الفلسفية.

٢- الفلسفة التي تقترن بالعلوم التجريبية فلا تنكر الآثار الموجودة في الكون. وهذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة فيما يملك الناس من وسائل -بصرف النظر عن الهداية السماوية- وهذا الطريق لا يصلح لعامة الناس، بل للحكماء فقط[٣]. وإذا كان هذا لا يصلح إلا للحكماء فكان الطريق الأنسب لجميع الناس هو هداية السماء المتمثلة برسل الله عليهم الصلاة والسلام.

- نظرية دارون:

ومما أقام الملحدون عليه إلحادهم دعواهم وتمسكهم بنظرية التطور أو نظرية دارون، وخلاصة مذهب دارون ما يلي:

١- الأنواع الموجودة على سطح الأرض من الكائنات الحية تتزايد طبقًا لمتوالية

---

(١) يس ٧٨ - ٨٢ .

(٢) مريم ٦٦-٦٧ .

(٣) "الإيمان" للمودودي ص ٣٧، وبعدها دار الخلافة للطباعة والنشر.

هندسية.. كما أن معظم الكائنات الحية تنتج ذرية كثيرة تقدر بالملايين على مر الأجيال.. ولو فرض أن نسل تلك الكائنات قد عاش كله، بل لو أن ذرية النوع الواحد قد عاشت كلها لما كان هناك متسع على ظهر كوكبنا الأرضي للحياة.

٢- عدد أفراد النوع الواحد من الكائنات يظل كما هو ثابتًا تقريبًا لمدة طويلة.

٣- استنتج أن هناك تنافسًا بين أفراد النوع الواحد من أجل البقاء[١].

ويوضح لنا الأستاذ باشميل في كتابه (الإسلام ونظرية دارون) النظرية، فيقول: إنها قامت على أربع قواعد هي:

(أ) تنازع البقاء.

(ب) الانتخاب الطبيعي.

(ت) ناموس المطابقة.

(ث) ناموس الوراثة[٢].

ويقصد بتنازع البقاء الصراع الذي يقع بين الكائنات للتنافس على البقاء، فالأقوى والأصلح منها يبقى ويستمر، بينما الآخر يزول وينقرض.

أما الانتخاب الطبيعي فمعناه أن الطبيعة لا تقبل إلا الصالح القوي الذي يتناسب مع طبيعتها لبقائها وتنتخبه.

ويقصدون بالمطابقة: أن نوع الغذاء وطريق الوصول إليه له أثر كبير في إحداث الاختلافات في طبيعة الكائن الحي وسلوكه، فالأسد مثلا لو لم يجد اللحم ليفترسه مدة طويلة لاضطر لأكل النبات.

أما ناموس الوراثة فمعناه: أن الصفات العريضة التي تحدث في الآباء تنتقل إلى الأبناء، ومع مرور الزمن الطويل تتحول الصفات العريضة إلى صفات جوهرية تجعل الكائن الحي يختلف عن أصله تمامًا كما في الحمار والحصان. ويضرب الداروينيون الأمثلة لتوضيح مذهبهم وإليك بعضها:

(أ) في المناطق الباردة لا تستطيع الحياة هناك إلا الحيوانات ذات الفراء

---

(١) انظر "نظرية التطور بين العلم والدين" لعلي أحمد الشحات ص ٤٢.

(٢) الإسلام ونظرية دارون لمحمد أحمد باشميل ص٤٣.

السميك أما الأخرى فتموت وتنقرض.

(ب) في الغابات تبقى الحيوانات سريعة الجري والهرب، أما الأخرى فتموت وتنقرض.

(ت) الزراف ذات العنق الطويل استمر في العيش لقدرته على الوصول للأشجار العالية، أما النوع ذو العنق القصير فمات وانقرض.

فالصفات تتغير حسب الطبيعة المحيطة والذي لا يتناسب مع الطبيعة ينقرض، والذي يتطور معها يبقى، فالبقاء للأصلح.

وقد لاحظ دارون خلال أبحاثه أن الإنسان والقرد يشتركان في أصل واحد لا يدري ما هو هذا الأصل، وقد كانت هذه النقطة هي نقطة الخلاف مع الدين.

فالدين يرى أن الإنسان وجد على الأرض بنفس شكله الحالي قال تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ**﴾[(١)].

أما دارون فيقول في مقدمة كتابه (أصل الأنواع): (ما يقال بأن كل نوع -من الأنواع خلق مستقلا بذاته خطأ محض، وإني لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول). ويوضح الأستاذ باشميل فكرهم فيقول: (.. وعلى هذا فإن الإنسان عندهم بدأت حياته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة، ثم تحولت إلى حيوان صغير، ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى إلى حياة حيوانية بدائية، فإلى حيوانات أكبر فأكبر ريشية ومجنحة، ثم إنسانًا أول، ثم إنساناً كاملا)[(٢)].

وقد استقبل الناس النظرية استقبالات مختلفة، فبعضهم رحب بها من باب التجديد وحب الجديد، وآخر من باب اعتبارها سندًا لإلحاده، وفريق رفضها باسم العلم، وآخر باسم الدين. أحب من البداية أن أذكر أن الداروينيين أقسام، فهم -وإن كانوا متفقين على أصول نظريتهم- لكنهم يختلفون من حيث النتاج الفلسفي للنظرية إزاء العقيدة الدينية وهم فريقان:

الأول: فريق جعل النظرية أساسًا للإلحاد مثل: لامارك الفيلسوف الفرنسي،

---

(١) آل عمران ٥٩.

(٢) بتصرف عن "الإسلام ونظرية دارون" ط٢ ١٣٨٨ه لمحمد أحمد باشميل. ص ١٣٨.

وأرنست هيكل العالم الألماني، والبروفسير الشيوعي أوبارين.

الثاني: فريق همه البحث فقط مثل دارون(١). ولهذا روي أن دارون قال: (إني أرى الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعًا من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة)(٢). أعود فأقول: إنّ بعض الناس جعل الإسلام معارضًا للنظرية، والبعض الآخر جعله موافقًا للنظرية، حتى إن الموافق روى أقوالاً لعلماء قدماء قالوا بالنظرية قبل دارون.

فقد روى الرازي في تفسيره: (قال الحسن البصري عند قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ (٣): خلق الله تعالى كل الأشياء -ما يرى ومالا يرى- من دواب البحر في الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، وآخر ما خلق الله آدم عليه السلام)(٤). ويقول ابـــن خلدون: (.. واتسع عالم الحيوان، وتعددت أنواعه، وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل)(٥).. ويروي نديم الجسر عن ابن مسكويه أنه قال: (إن الموجودات مراتب وكلها مسلسلة متصلة، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة، ثم لا يزال يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق النوع الذي يليه، فالنبات في أفق الجماد، ثم يترقى حتى يصل إلى مرتبة قريبة من الإنسان)(٦). ويقول إخوان الصفا: (فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة.. وهكذا أكثر الديدان التي تكون في الطين، وفي قعر البحار، وفي أعماق الأنهار، فهذا النوع حيوان نباتي إذ يشارك النبات في الحس فقط.. وإن النبات متقدم الكون والوجود على الحيوان بالزمان،

---

(١) انظر هذا التقسيم ص ٢٤ من كتاب الإسلام ونظرية دارون.

(٢) انظر "الإسلام والمبادئ المستوردة" ص ٤٦.

(٣) الإنسان ١.

(٤) جـــ ٣٠ ص ٢٣٥ تفسير الرازي.

(٥) مقدمة ابن خلدون / ٩٦.

(٦) انظر قصة الإيمان / ص ٦٤.

والحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على الحيوانات التامة الخلقة التي تتكون في زمان طويل لأسباب يطول شرحها. وإن حيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان، والحيوانات كلها متقدمة الوجود على الإنسان)[١]. ويقول العلامة البلخي[٢] في كتاب (البدء والتاريخ): (وأما العسمد[٣] فيرى أن الحيوان قد تولد مع الرطوبة، وأنه كان يغشاه قشر مثل قشور السمك)[٤]، ثم قال: (فعند بعضهم أن آدم تولد من رطوبة الأرض كما يتولد سائر الهوام..)[٥]. وقد سئل الأفغاني عن قول المعري:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

هل يقصد المعري نظرية الارتقاء الداروينية؟ فقال الأفغاني: (ليس فيه خفاء فهو يقصد النشوء والارتقاء أخذًا بما قاله علماء العرب قبل بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر ابن شيرون في رسالته لأبي السمح عرضًا في بحث الكيمياء: (إن التراب يستحيل نباتًا، والنبات يستحيل حيوانًا، وإن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان)، وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها، فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس فالسابق فيه علماء العرب وليس دارون)[٦].

وقد انتقدت النظرية وعارضها علماء أوربيون منهم العلامة دوفري، صاحب نظرية الطفرة التي تتناقض مع نظرية التطور، ومنهم الدكتور جوستاف جولييه المؤيد لنظرية الطفرة، ويؤيد كلامه بضرب مثال عن دودة القز، إذ تولد دودة تحيا أيامًا، ثم تنسج حول نفسها شرنقة، وهناك لا تموت فقط، بل يسيل جسمها ويستحيل إلى مادة أولية لا شكل لها، ثم تتركب هذه المادة فتكون جسمًا لا نسبة بين شكله

---

(١) رسائل إخوان الصفا / جـ٢ ص١٥٤، ١٥٥.

(٢) قال في الأعلام ١/١٣١ (أحمد بن سهل أبو زيد البلخي ولد في بلخ ٢٣٥هـ وتوفي ٣٢٢هـ له مصنفات كثيرة).

(٣) لعله اسم لأحد الفلاسفة اليونان كما يبدو - الكلام الذي قبله والذي بعده.

(٤) البدء والتاريخ ص ٤٧٤ جـ٢ طبع في مدينة شالون (لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي وهو المطهر بن طاهر المقدسي) وطبع الكتاب بمطبعة برترند (فرنسا) مكتبة المثنى بغداد.

(٥) البدء والتاريخ جـ٢ ص ٧٥.

(٦) ص ٤٦ الإسلام والمبادئ المستوردة لعبد المنعم النمر. دار القلم القاهرة، ١٣٨٠هـ.

وشكل الدودة، ويكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخرى غير غرائز الدودة. وغير هذين العالمين علماء كثيرون، مثل: والاس، وفرخو، وأغاسيز، وتندل هكسلي - صديق دارون الحميم- وروزا[١].

ويقول محمد فريد وجدي: (إن أكبر الاعتراضات على نظرية دارون ثلاثة هي:

١- عدم مشاهة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد ألوف السنين.

٢- عدم وجود الصورة المتوسطة كأن يوجد حيوان أرقى من القرد وأدنى من الإنسان.

٣- عمر الأرض لا يكفي لإحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة)[٢].

وفي قصة الإيمان: (أما الردود العلمية على نظرية دارون فهي كثيرة أهمها: إن الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية حتى اليوم على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم، ولم نجد أنها تأثرت بناموس الارتقاء. وإن طوائف الأحياء الكبرى -الدنيا منها والعليا- وجدت منها آثار في أسفل طبقات الأرض، فلو كان ناموس الارتقاء أكيدًا لوجب أن يكون الأعلى منها كذرات الفقرات في أعلى الطبقات. وإننا نجد كثيرًا من الأجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة أكمل منها اليوم، ونجد في الطبقات بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدًا..)[٣].

وخلاصة القول في النظرية الداروينية أنها لا تعدو كونها نظرية لا حقيقة علمية، وهذا الكلام يقال لمؤيدها والنظرية في أول انتشارها، أما وقد تعرضت النظرية لانتقادات المختصين من العلماء، وأيدوا أقوالهم بحقائق وإثباتات، فلا مجال لهم أن يفرضوها أو يتشدقوا بها. إننا إذا أحسنا الظن بدارون ونظرية التطور فإننا لا نصفهم إلا لأنهم وصفوا بعض ما شاهدوه، لكن مشاهدتهم كانت ناقصة، واستقراءهم لم يكمل. فكما أنهم شاهدوا ما يدعم النظرية فقد شاهد غيرهم ما يبطلها. إنهم لم

---

(١) انظر الإسلام ونظرية دارون ص٥٠.

(٢) دائرة المعارف فريد وجدي جـ٤ ص٣١.

(٣) بتصرف قليل انظر قصة الإيمان لنديم الجسر ص ١٨٧.

يكتفوا بالاستقراء الناقص، بل عللوا ما شاهدوا تعليلا ذهنيًا لا واقعيًا، فمن الذي قال إن طول عنق الزرافة جاء نتيجة لبحثها عن الطعام، فكانت الأشجار عالية فالقوي والصالح من الزراف استطاع أن يمد عنقه ووصل إلى طعامه، والضعيف لم يستطيع فانقرض؟؟. ومن أخبرنا أن الزراف في الأصل كان عنقه قصيرًا؟ ومن قال إن الزراف لا يأكل إلا من الشجر العالي؟. إنهم يبنون هذا على قانون الاستعمال والإهمال، فالعضو الذي يستعمل ينمو ويكبر، والعضو الذي لا يستعمل يصغر وينقرض. ثم تنتقل الصفات المكتسبة وراثيًا في النوع الواحد فتتطور الكائنات. وأقرب مثال لنقض هذا أن الحداد -مثلاً- يستعمل يده في الطرق فيكون صاحب عضلات مفتولة، لكن لا أحد يقول: إن ابن الحداد يكون حدادًا، أو ابن النجار يكون نجارًا.

يقول الأستاذ باشميل في تقديره للموضوع: (لم يبن دارون هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة لا يمكن الرجوع عنها، وإنما بناها على افتراضات، وتقديرات، وتخمينات تحتمل الخطأ والصواب)[1]. ونحن إذ نوافقه على الشطر الأول من كلامه نرفض قوله: (تحتمل الخطأ والصواب). إذ بعد انتقاد العلماء لها لم يبق مجال بل الأصح أن يقال (فيها خطأ وصواب). فالصواب أن بعض الملاحظات التي سجلوها من مشاهداتهم لا مجال لإنكارها لأنها أمام الجميع، أما الخطأ فهو تعليل هذه الملاحظات وجعل الأمر قانونًا ينطبق على الكون كله؛ لأنه قد ثبت أيضًا -بالمشاهدات- ما يضادها ويعاكسها. وعلى افتراض صحة النظرية جدلا فلا مجال لأهل الإلحاد أن يتمسكوا بها. إذ يمكن التوفيق بين مضمونها وكون آدم خلق على هيئتنا نحن، والتوفيق يكون إذا اعتبرنا أن التطور قد وقع على المخلوق الأول الذي قبل[2] آدم -على رأي بعض العلماء القائلين بوجود خلق قبل[3] آدم- وبهذا نسلم

---

(١) ص ٤٨ الإسلام ونظرية دارون.

(٢) ص ١٢٢ الإسلام ونظرية دارون بتصرف.

(٣) حيث استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠].

من المعارضة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[١]. أما أقوال العلماء المسلمين فهي أقوال ينقصها البرهان والدليل الحسي. ولا نقول إن نظرية التطور صحيحة لمجرد أن علماء مسلمين قالوا بها، إذ العلم ليس حكرًا على المسلمين، فإذا ثبت علميًا أن شيئًا ما حقيقة فلابد من الإيمان به، ولو كان قائله غير مسلم، ولو كان شيء خطأ فلا نقول به ولو كان قائله من خيرة المؤمنين، إذ الحق هو الذي يتمسك به لا الرجال، كما سبق في قول الإمام مالك رحمه الله تعالى.

- الدين أفيون الشعوب:

ومما احتج به الملحدون في إنكارهم للدين قولهم: إن الدين أفيون الشعوب وهي عبارة قالها كارل ماركس اليهودي. ويقول الملحد القصيمي: (إن القوانين تعاقب من تناول المخدر مرة في خفية، ولكنها تبيح تخدير الآلاف، بل مئات الملايين في المساجد والجمعيات كل أسبوع بل كل يوم، ثم تحثهم على أن يخدروا وتجازيهم بالأموال)[٢]. إن الشيوعيين في بلادنا يرددون قولة ماركس دون أن يمحصوها. فإذا كنا قد نعذر ماركس وغيره في الثورة وإطلاق العبارات، فإننا لا نعفي من لم يعش مثل ظروفهم ليقول قولهم. كان الأولى بماركس وهو يصف الاشتراكية بالعلمية[٣] أن يقول: الكنيسة أفيون الشعوب، وليس الدين أفيون الشعوب. إذ الدين غير الكنيسة، ثم إن كلمة الدين عامة فلا يصح التعميم في مجال لا يصلح فيه إلا التخصيص، وهذه من مغالطاتهم وتزويراتهم كما سبقت الإشارة. إن الغرب عاش ملابساته الخاصة، فقد كان الإقطاع يمثل أبشع أدواره في أوروبا وفي روسيا بوجه خاص حيث يموت الألوف جوعًا كل عام، ويموت الملايين بالسل وغيره من الأمراض، والصقيع يقضي على عدد مماثل كل ذلك والإقطاعيون يلغون في دماء أولئك الكادحين ويعيشون في ترف فاجر يستمتعون فيه بكل ما يخطر على القلب من ألوان المتاع، فإذا خطر للكادحين أن يرفعوا رؤوسهم، بل إذا خطر لهم أن يحسوا مجرد إحساس بالظلم الذي

---

(١) آل عمران ٥٩.

(٢) ص ٣٢٧ الرد القويم على ملحد القصيم. لعبد الله بن علي بن يابس مطبعة الإمام بمصر.

(٣) هذه تسمية مرفوضة في قاموس الإسلام.

يعيشون فيه، أسرع رجال الدين يقولون لهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ومن أخذ رداءك فاترك له الثوب أيضًا). وقالوا لهم: (من عصى سيده فهو عاص لله، وللكنيسة، ولرجال الدين). علمًا بأن الكنيسة كانت من ذوات الإقطاع وكان لها ملايين من رقيق الأرض، وإذا حاول بعضهم القيام بالثورة عوقب باسم تأديب الخارجين على الدين والملحدين بآيات الله. ومن هنا كان دين الكنيسة عدوًا للشعب، وكانت قولتهم على وضعهم أنفسهم. لكن الشيوعيين في بلادنا يجعلونها تنطبق على الإسلام لمجرد أن بعض المتسمِّين بالعلماء يداهنون الظالمين(١)، ويؤلون النصوص لصالحهم، وكثيرًا ما سمعنا من بعضهم تشدقهم بقوله تعالى: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٢). إن تسمية هؤلاء بالعلماء من أعظم الافتراءات، بل الأولى أن يسموا بالببغاوات التي تردد ما لا تعرف، ولو عرفوا الله حق قدره ما باعوا دينهم بدنياهم، حيث إن العلماء هم الذين علموا فلا فائدة في قول دون عمل.

فلا يقبل في ديننا قول شخص إذا كان هذا القول من هواه حتى ولو كان نبيًا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(٣)، فلو كان النبي ينطق عن الهوى لما قبل منه ولكن الله عصمه. أما غيره من الرجال فغير معصومين، فإذا قالوا قولا ينافي الإسلام ضرب به عرض الحائط، ولا قداسة لقوله ولو كان متقلدًا لأكبر المناصب من قاضٍ للقضاة، ومفت للبلاد. إن المسلمين يختلفون عن النصارى، إن كل مسلم يجب عليه أن يفهم دينه ولا يترك دينه يفهمه الناس إياه خبط عشواء، بل هو مسئول أمام الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(٤)، والخطاب عام يشمل كل المكلفين. وطلب

---

(١) كما في عهد فاروق كانوا يسمونه الملك الصالح وكما في بعض الدول حيث يسمون حكامهم بأمير المؤمنين.

(٢) بتصرف عن شبهات حول الإسلام لمحمد قطب ص ١٨٤. "وقال يوسف العظم في كتابه الإيمان وأثره في نهضة الشعوب ص ٣٣: لقد استغل الاستعمار البريطاني في الهند وجود القاديانية ليبث عبرها تفسيرًا مزورًا لقوله تعالى: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ليثبت الإنجليز أقدامهم ولهذا ألغت القاديانية الجهاد وكذلك البهائية في إيران.

(٣) النجم ٣.

(٤) محمد ١٩.

العلم فريضة على مسلم[١]، وتدخل المرأة تحت كلمة (مسلم)، وعليه فلا يمكن أن يحدث عندنا ما حدث عندهم. والملاحظ أن أي انحراف من أي عالم يغير النظرة إليه مباشرة، وبالمثال الحاضر فإن بعض العلماء كانت لهم مكانة كبرى في نفوس المسلمين كعلماء أفذاذ يدافعون عن الإسلام، ويوضحونه للناس متنقلين بين البلاد من مسجد إلى آخر، ولما جاءت ساعة انحرافهم انحرفت القلوب عن تقديرهم ونظرت إليهم باشمئزاز، ولو عادوا إلى الحق لعادت القلوب لمحبتهم. وهذا هو الإيمان الذي علمنا إياه محمد ﷺ بقوله: (**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر، كما يكره أن يقذف في النار**)[٢].

ومما يتشدق به الملحدون في تقرير أن الإسلام مخدر قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[٣]، وقوله: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[٤].

أما الآية الأولى فقد ذكر ابن كثير أنها نزلت بشأن أم سلمة حين قالت: (يا رسول الله يغزو الرجال[٥] ولا نغزو)، وقد تكون نهيًا عن التمني الفارغ مع القعود عن العمل؛ لأنه يؤدي إلى الحسد.

أما الآية الثانية فهي دعوة إلى الاستعلاء على القيم المادية، ثم هي ظاهرة التوازن في التوجيهات، فأمر للفقير بالاحتفاظ بالكرامة، وأمر للغني بالإنفاق وعدم الاستئثار بالمال.

ومما يدفع قول الملحدين من أن الإسلام مخدر، أن جميع حركات التحرر في العالم الإسلامي حركات دينية، فالحركة التي وقفت ضد الاستبداد في عهد الملكية في مصر حركة دينية اغتيل زعيمها رحمه الله وسجن أفرادها، والثورة التي قامت ضد

---

(١) ذكره في مجمع الزوائد بروايات كثيرة لا تخلو من نقد. وابن ماجه في المقدمة.

(٢) انظر البخاري مع الفتح ١/ ٦٠.

(٣) النساء ٣٢.

(٤) طه ١٣١.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص ٢٦٩ جـ ٢ دار الأندلس.

محمد علي المهدي(١) الكبير، وكذا الثورة في ليبيا والمغرب وأندونيسيا...

وهذا كله نتيجة لتربية الإسلام، إذ هدد الراضين بالظلم القاعدين عن الكفاح، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾(٢). ولو قعد الناس عن مكافحة الظلم لانتشر المنكر، وفسق المترفون نتيجة لتكدس الأموال معهم، قال تعالى: ﴿**كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾(٣) فإذا أصبح المال دولة فإن الفساد سينتشر، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾(٤)، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾(٥)، والله تعالى يقول: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾(٦) ويقول ﷺ: (**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**)(٧)، وقال: (**أفضل الجهاد أن يكلم بالحق عند سلطان، أو قال عند سلطان جائر**"(٨). والمنكرات لا تحدث إلا عند السلطان الجائر. ثم إن النفس الإنسانية إذا لم تكن راضية كانت ساخطة، والساخط لا يجد الهناء والسعادة في عيشه. وحتى ينقذ الإسلام المسلم من هذه التعاسة وجهه نحو

---

(١) قال في الأعلام ٢٤٥/٦: محمد بن أحمد بن عبد الله المهدي السوداني قاد السودانيين للثورة ودانت له السودان، ولد عام ١٢٥٩هـ وتوفي بالجدري عام ١٣٠٢هـ.

(٢) النساء ٩٧.

(٣) الحشر ٧.

(٤) الإسراء ١٦.

(٥) سبأ ٣٤.

(٦) المائدة ٧٨.

(٧) رواه مسلم ٦٩.

(٨) قال في مجمع الزوائد ٢٧٢/٧ (رواه البزار وفيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف. وهو عند أبي داود ٤٣٤٤ والترمذي ٢٢٦٥م وأحمد ١٩/٣ و ٣١٤/٤.

الرضى بما قسم الله له، وذلك بعد أن يبذل كل ما في وسعه في العمل. إن الإسلام لا ينكر عليه إذًا كثرة الدنيا في يده بحيث لا يضيع دينه، ولكنه يحفظه في الجانب الآخر، وهو إذا ما قلت الدنيا عنده فليرض ولا يسخط حتى لا يقع تحت وطأة الفقر والتعاسة معًا.

ثم إن النواحي الاقتصادية لا تستطيع تحقيق السعادة للإنسان إذا لم يكن راضيًا، فمثلا: إنسان شهير وآخر يحب الشهرة، فتاة جميلة وأخرى بشعة لكنها تحب الجمال، زوج وزوجته في سعادة من العيش، وآخر وزوجته في تعاسة ونكد، ماذا تستطيع كل قوى الأرض أن تصنع لهؤلاء؟ لا شئ(١)؛ ولهذا كانت الدعوة إلى الرضى لها دورها لا من الناحية المادية فحسب، بل من الناحية الاجتماعية والتكوين الخلقي.

ثم إن المساواة الاقتصادية أمر مستحيل فلابد من التفاوت بين الناس لاختلاف نشاطهم ومقدرتهم، وهكذا سنة الحياة. يجب أن نحاول أن نقرب بين الناس ولكن هذه المحاولة لن تصل إلى المساواة المطلقة.

إننا كما نرفض الشيوعية نرفض الرأسمالية، والإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية بل هو الإسلام الذي أنزله الله رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى. ويقول مصطفى محمود: (وقالوا إن الدين أفيون يوزعه الأغنياء على الفقراء، وصكوك بجنة وهمية بعد الموت في مقابل سرقتهم لحياة الناس، وهو بذلك سلاح لطبقة على طبقة..)، وقال في الرد عليهم: (ونسوا أن فطرة الله بدأت في المجتمع الهمجي البدائي والمشاعي قبل أن يظهر الإقطاع والرأسمالية بما فيهما من صراعات وطبقات، ولقد خرجت الرأسمالية مهزومة بعد التحول الاجتماعي، وانتصار الفكر المادي، وظل الدين ثابتًا في معاقله يؤدي دوره)(٢).

ويزعم الملحدون أن في تعاليم الدين ما يؤخر عجلة الإنتاج، فالصوم والصلاة

---

(١) شبهات حول الإسلام لمحمد قطب ص ١٨٤ وبعدها.

(٢) "الله" لمصطفى محمود ص ١٥٠ ط١ دار العودة.

والحج كل هذه تؤخر الاقتصاد، فالصوم يفرض الكسل[1] والخمول والنوم، والصلاة تأخذ وقتًا متفرقًا من اليوم، والحج يأخذ أيامًا وتنفق فيه الأموال الطائلة، وهؤلاء الملحدون لو جربوا الإسلام وعاشوه حقيقة لما تلفظوا بهذا، فمن قال: إن الصوم يفرض الكسل؟ وها هو تاريخ الإسلام الناصع يقول: إن معركة بدر، وحطين، وعين جالوت كلها وقعت في رمضان. أما الصلاة فلا تأخذ وقتًا يذكر، ولا يقابل ما يصرفه الماديون في تدخين سيجارة، أو قراءة التافه والمُنْحَلِّ من الصحف، بل الصلاة بأوقاتها المنتظمة من أهم العوامل -لمن جربها- على إعطاء دفعة نشاط إلى العمل. أما وقت الحج فهو عشرة أيام وما أظن واحدًا من هؤلاء الملحدين إلا ويذهب رحلة واحدة على الأقل -ولمدة شهر أو أكثر- متنـــزهًا، ويصرف أموالا طائلة في النوم والأكل والشرب والفساد، ولا فارق بين رحلة الحج ورحلة السياحة إلا أن الأول عابد لله وقاصد وجهه وله الأجر، بينما الآخر قد يكون على الوزر والمعصية. ألا فليبحث الملحدون عن حجة تكون أقرب إلى العقول مما يتذرعون به مما لا يقف لحظة أمام البحث والنقاش. ولعل الملحدين لم يذكروا الزكاة والشهادتين لأنهما يتضمنان – بوضوح – الدفع الاقتصادي، فالزكاة أخذ من مال الأغنياء وإعطاء للفقراء، والشهادتان تدفعان المسلم إلى التحرر من كل خوف إلا من الله، ولذلك يتحرر من كل قيد وينطلق يعمل ويجد. ومع هذا يقول ل. ى كيموفيتش: (وكانت المبالغ الكبيرة التي تجمع من ضريبة الزكاة توضع بكاملها تحت تصرف الخليفة ورجال الدين بدلا من إنفاقها على الأعمال الخيرية، كذلك أحاط الخلفاء أنفسهم بوسائل الترف والرفاهية على حساب الكادحين.. فالخلافة كانت حكومة دينية، إقطاعية، منظمة بشكل يساعد على استغلال الأقلية الحاكمة للأغلبية المغلوبة.. فالقرآن والسنة والشريعة إنما هي كتب تم تأليفها في القرون الوسطى في زمن سيادة الإقطاع)[2].

(١) وقبل سنوات طلع علينا – وكأنه مفت – بفتوى لعمال المصانع يسمح لهم فيها بالإفطار في رمضان بحجة التعب، وهذا تعليل سخيف لكنه تعبير عن الحقد على الإسلام إذ هو نفسه الذي قال إن في القرآن خرافات كأهل الكهف وعصا موسى فلعنة الله على الكافرين.

(٢) الرد على الملحدين ص ١٩.

وكلام هذا المجرم من مغالطات الملحدين. فحقًا إن أموال الزكاة تحت تصرف الخليفة، لكن كلمة "تحت التصرف" لا تعني في قاموسنا الإسلامي أن للخليفة حق النهب من هذا المال كما يحدث عندهم، ولم يحدث في تاريخ الإسلام شيء من هذا، وقصة عمر بن العزيز[١] حين أطفأ سراج الدولة وأضاء سراجه معروفة، وقصة عمر ابن الخطاب لما وزع البرد اليمانية، فأخذ كما يأخذ بقية الناس كذلك معروفة، وقصص كثيرة تراجع في تاريخ الخلفاء. أما أن الخلفاء أحاطوا أنفسهم بوسائل الترف، فهذا كذب على الخلافة الراشدة وهي التي تمثل الإسلام حق التمثيل، فكلامه كله كذب ودعاية ضارة بالإسلام يصدقها من لا يعرف الإسلام، ولا أدري أين يذهب الملحدون بآيات الجهاد وتاريخ الإسلام كله معارك وغزوات، وها هو خالد ابن الوليد حين كان على فراش الموت يصف جسده من كثرة ما خاض من الحروب فيقول: (وما في جسدي شبر إلا فيه طعنة من رمح أو ضربة من سيف). هذا الدين لا يمكن أن يكون مخدرًا وهو يقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[٢] هذا الإسلام سيعرفه المجرمون يوم تأتيهم جيوش الرحمن تدك عليهم بيوتهم التي أشبه ما تكون ببيت العنكبوت، سيعرفون هل الدين مخدر أم لا؟ سيعرفون كما عرف العالم في ثورة إيران الإسلامية التي اقتلعت بذور البلاء في إيران، وطردت الصهاينة، وهددت الأمريكيين وهزت العالم، سيعرفون كما يعرف الآن زعماؤهم في الكرملين حيث يلقنهم الأفغان دروسًا في الثورة المنطلقة من الدين، ويعرفونهم بأن الدين شعلة لا مخدر ولا أفيون، وهكذا في كل بقاع الأرض بدأت الثورات الإسلامية تشعل فتيلها لتعلم الملحدين أن الدين ليس مخدرًا بل هو قوة ما بعدها قوة، وثورة عارمة في النفس والمجتمع والعالم.

وبعد هذا العرض لشبهاتهم ودحضها أحب أن أستكمل الموضوع في ذكر بعض دلائل وجود الخالق.

---

(١) قال في الأعلام ٥/٢٠٩ عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح ولد بالمدينة عام ٦١هـ ونشأ فيها بويع في دمشق ومنع سب علي على المنابر وقد قتل بالسم عام ١٠١هـ.

(٢) الأنفال / ٦٠.

- دلائل لوجود الله:

فمن الدلائل على وجود الخالق قانون النسبية كما قال الأعرابي: (البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا تدلان على العليم الخبير)(١). قال الباقلاني: (... وأن يعلم أن للعالم محدثًا أحدثه، والدليل على ذلك وجود الحوادث متقدمة ومتأخرة مع صحة تأخر المتقدم وتقدم المتأخر، ولا يجوز أن يكون ما تقدم منها وتأخر متقدمًا ومتأخرًا لنفسه؛ لأنه ليس التقدم لصحة تقدمه أولى من التأخر بصحة تأخره، فوجب أن يدل على فاعل فعله وصرفه في الوجود على إرادته، وجعله مقصورًا على مشيئته، يقدم منها ما يشاء الله تعالى: ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾(٢)، وقال: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾(٣). ويدل على علمنا بتعلق الفعل بالفاعل في كونه فاعلا بالفعل، فإن تعلق الكتابة والصناعة بالكاتب والصانع كما تعلق الكاتب في كونه كاتبًا بالكتابة، فلو جاز وجود فعل لا من فاعل، وكتابة لا من كاتب، وصورة وبنية محدثة لا من مصور، لجاز وجود كاتب لا كتابة له، وصانع لا صنعة له، فلما استحال ذلك وجب أن يكون اقتضاء الفعل للفاعل ودلالته عليه كاقتضاء الفاعل في كونه فاعلا لوجود الفعل وحصوله منه..)(٤). فالأثر يدل على المؤثر كالكهرباء عرفت بآثارها، والمغنطة عرفت بالتجاذب الملحوظ وهكذا.

إن الإلحاد لا سند له، وهو يدحض نفسه إذ ينكر الإنسان، ولهذا قال بعض الفلاسفة: (إن إنكار السبب الأول للأشياء بمنـــزلة عدم الأسباب بالكلية، فليس بمعقول أن الحلقة من السلسلة تحتاج إلى من يمسكها من الحلقات الأخرى، والسلسلة كلها لا تحتاج إلى ممسك)(٥). ولم يستطع الماديون الملحدون أن يعيشوا من غير إله،

---

(١) رحلة عبر الغيب ص ١٤.

(٢) البروج ١٦.

(٣) النحل ٤٠.

(٤) الإنصاف ص ١٨.

(٥) مجلة الأزهر "نور الإسلام" المجلد الأول العدد الأول ص ٩٧ ط٢ صفر ١٣٤٩هـ تصدرها مشيخة الأزهر.

فقالوا إن الإله هو الإنسان السامي (السوبر مان) كما يقول نيتشه[١]. إن القلق والحيرة اللذين يعيشهما الملحدون كافيان عبرة أن تدعواهم للإيمان. وإن العجز عن إدراك حقيقة الإله لهي من دلائل الخالق إذ عقولنا تقصر عن الإحاطة به.

ومن دلائل الخالق هذا الخلق، كما قال تعالى: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾[٢] ولهذا أمر الإسلام بالتفكر، وما أجمل جواب الإمام جعفر الصادق على سؤال الديصاني السابق إذ قال وقد تناول بيضة: (ياديصاني، هذا حصن مكنون عليه جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق فضة مائعة وذهبة سائلة، فلا الفضة المائعة تختلط بالذهبة السائلة، ولا الذهبة السائلة تختلط بالفضة المائعة لا يدخل إليها داخل فيصلها، ولا يخرج منها خارج فيخبر عن صلاحها أو فسادها، لا يدري خلقت للذكر أم، للأنثى تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى هذا بغير مدبر؟) فآمن الديصاني[٣].

وفي حوار بين سقراط وأورستوديم قال سقراط: (ألا ترى معنا أن الذي خلق الإنسان وسواه قد أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة وفائدة بينة، ومنحه من الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته، فمتعه بعين ليرى بها المحسوسات، وبأذنين ليسمع بهما الأصوات. وبماذا كانت تفيد ذكيات الروائح لو لم يكن لنا أنوف تدركها وتحس بها؟ أترى أننا نتمتع بإدراك الحلو والمر من الطعام والالتذاذ بمحبوبات الفم لو لم يكن لنا اللسان الذي وضع لتمييزها والحس بها؟ ألا ترى أن من دلائل التدبير والحكمة أن تتمتع العين -وهي ضعيفة- بجفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة، وتنطبق عند النوم؟ وأن توهب تلك العين غربالا من أهداب لتقيها فعل الرياح السائرة؟ وأن تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها عوالق العرق المتساقط من الرأس؟ وأن تصنع الأذن على صورة لا تكل من سماع، ولا تعيا من

---

(١) الله ذاتًا وموضوعًا لعبد الكريم الخطيب ص ١١٤.

(٢) الذاريات ٢١.

(٣) الحياة بعد الموت لرضي المطوف السماوي ص ٩٩. الله أعلم بصحة هذه القصة من حيث التاريخ وإن كان معناها صحيحًا.

الحس بها؟...)[١].

وقال سعيد حوي تحت عنوان ظاهرة الهداية: (ثعبان الماء متى اكتمل نموه هاجر من مختلف البرك والأنهار قاطعًا آلاف الأميال في المحيط قاصدًا إلى الأعماق السحيقة جنوب برمودا، حيث ملتقى ثعابين الماء في كل أنحاء العالم، وهناك يبيض ويموت، أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء سوى أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جزء من الماء مليئًا بثعابين البحار، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية أو العكس..)[٢]، وقال: (في عملية الرضاع تنمو الغدد التي تصنع اللبن مدة الحمل، ويدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان، وفي نهاية الحمل وبدء الوضع تتلقى هذه الغدد من الغدة النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة أمرًا بالبدء في صنع اللبن، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهداية لا حد لها. وعملية الرضاعة عملية شاقة إذ إنها تقتضي انقباضات متوالية في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه، وحركات متواصلة في فكه الأسفل، ونفسًا من أنفه. ويقوم الطفل بهذا كله بهداية تامة من أول رضعة لساعة فطامه)[٣]، وقال عبد الرحمن الميداني حول دليل الإتقان في الكون: (فمثلا الأرض فيها البحر واليابس، والجبال والأغوار، والسهول والصخور، والرمال والتراب، والمعادن، والينابيع، والأنهار، والألوان، والطرق، والصيف، والشتاء، والليل، والنهار، وسيرها حركتها... كل هذا يدل على إتقان في الصنع يدل على الصانع)[٤]. ومن الدلائل على وجود الله الفطرة البشرية، فهو الشعور عند كل إنسان غني أو فقير، قوي أو ضعيف بوجوب اللجوء إلى قوة عليا.

---

(١) "الله والإنسان" لعبد الكريم الخطيب ص ٧١.

(٢) "الله" لسعيد حوي ص ٥٤.

(٣) المرجع السابق ص ٥٦.

(٤) العقيدة الإسلامية وأسسها بتصرف ص ١٤٦.

يقول الدكتور عبد الله عزام[١]: (وهذه الجوعة الفطرية للجوء إلى قوة عليا تبرز بادية للعيان أمام الأعاصير والكوارث والمحن، فهذا ستالين الذي كان يقول: لا إله والحياة مادة، والدين علقة تمتص دم الشعوب، يضعف أمام هول الحرب العالمية الثانية، فإذا به يخرج القساوسة من السجن حتى يدعوا له بالنصر. ومرة ثانية وأمام شدة المرض يرسل وراء القسيس حتى يصلي له ويستغفر)، ويقول القرضاوي: (...ولم يملك الشيوعيون -على تعصبهم- في الحرب العالمية الثانية إلا أن يطلقوا سراح الدين وقتًا ما ليؤدي دوره في تثبيت النفوس وإمساكها أن تنخلع وتنهار..)[٢].إن الإنسان إذ ألمت به ملمة ولم يجد لها حلاً لجأ إلى قوة لا يراها، لكنه يشعر بروحه ونفسه بوجودها، وأنها قادرة على كل شيء. الطلاب أيام الامتحان، والإنسان أثناء المرض يلجأ كل منهما إلى القوي القادر المنجي وهو الله تعالى[٣]. ويقول سعيد حوي في معرض كلامه عن ظاهرة الإجابة مستدلاً بها على وجود الله قال: (أذاع راديو دمشق في ١٩٦٥/١/١٠ م الساعة الثالثة إلا ربعًا بعد الظهر نقلاً عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في إنجلترا حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذي جرت معه الحادثة.والقصة أن شابًا بقي مريضًا بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عامًا وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة، وقد دخل كآخر طبيب الطبيب الذي يروي القصة، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل منه، وهناك سأله المريض بلهجة اليأس: لا أمل يا دكتور؟فقال الدكتور: هناك أمل واحد في السماء فجرب أن تدعو، ألا تعرف أن تصلي؟ وأول مرة يدعو شاب الذي دام مرضه ثلاثة عشر عامًا، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع وجد المريض معافى، وقد شفي من مرضه الذي لم يستطيع الأطباء أن يعالجوه منه..وحدثنا شاب مصري مجد شارك في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس من (١٩٥١-١٩٥٤م) عن ثلاثة من المقاومين خرجوا لينسفوا سكة الحديد في منطقة مكشوفة، وكانت الليلة مقمرة، والسماء

---

(١) مدرس في كلية الشريعة الأردنية وهو خريج أزهري.

(٢) الإيمان والحياة ص ١٨٤.

(٣) بتصرف عن "تعريف عام بدين الإسلام" للطنطاوي ص ٤٥ ط٧.

صافية، والأرض صحراوية، تري تحركات من فيها عن بعد، ويعرضهم هذا لنيران العدو ومطاردته، فقال أحد الثلاثة وهم ماضون: يا رب ولا غيمة، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر، فانتشر الظلام مما ساعدهم على القيام بمَهَمَّتهم ورجعوا بسلام.وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي، إذ اشتعلت النيران في مدينة بورسعيد وضاق الأمر بالناس ودعوا ربهم مخلصين، فكان المطر الذي أطفأ الحريق يوم ذاك)[١].

ومع هذا فإن الملحدين يصرون على إنكارهم هذه الحجة التي يشعر بها الجميع حتى الملحدون أنفسهم، لكنهم يصرون ويستكبرون، فيفسرون التدين بأنه ميراث ضعف وخوف من قسوة الطبيعة، ويعتبرون سبب وجود الدين سببًا تاريخيًا يتعلق بخوف الإنسان وضعفه أمام الأحداث والكوارث والشعور بالخوف. إنهم يرفضون الدليل النفسي، ولا مجال لإثبات بطلانه عندهم إلا بهذا التفسير حيث سلموا بشعور الإنسان به. ومن الدلائل على وجود الخالق أن هذه الشهوات الدنيوية لا تروي النفس الإنسانية، يقول علي الطنطاوي: (إن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء، وأن وراءه عالمًا روحيًا مجهولا يدرك من لمحات تدل عليه، ذلك أن اللذات المادية محدودة إذا هي بلغت غايتها ووصلت إلى حدها لم تعد اللذة لذة، ولكن صارت عادة فذهب طعمها، وبطل سحرها، وصارت كالنكتة المحفوظة والحديث المعاد. يبصر الفقير سيارة الغني تمر به وعمارة الغني يمر بها فيحسب أنه يحوز الدنيا إن حاز مثلها، فإن صارت له لم يعد يشعر بالمتعة بها، ويمرض المريض ويتألم فيتصور اللذة كلها في ذهاب الألم والشفاء من المرض، فإذا عاودته الصحة ونسي أيام المرض لم يعد يرى في الصحة شيئًا من تلك اللذات.. إن هذه الحياة المادية ليست كل شيء، وإن العالم المجهول المختبئ وراء عالم المادة حقيقة قائمة تحن إليها الأرواح وتحاول أن تطير إليها، ولكن هذا الجسد الكثيف يحجبها عنها ويمسكها عن أن تنطلق وراءها، وهذا هو الدليل النفسي على وجود العالم الآخر)[٢].

---

(١) "الله" لسعيد حوي ص ٥٢.

(٢) بتصرف عن "تعريف عام" ص٤٩.

ومن الدلائل الأخرى ظاهرة التلباثي[(١)]، وظاهرة الجلاء البصري[(٢)]، ووجد أنهما مظهران لشيء واحد يخضع لنفس القوانين التي تحكم هاتين الظاهرتين وسميتا بالإدراك خارج الحواس، ووجد أنها -أي القوانين- ليست قوانين مادية. ومعنى هذا أن للشخصية الإنسانية جانبًا يستطيع الإدراك بدون استعمال الحواس، فما هو هذا الجانب؟ إنه لا يمكن أن يكون المخ؛ لأنه مادة تخضع لقوانين المادة، ولكن هذا الجانب لا يخضع لقوانين المادة. وبهاتين الظاهرتين تفسر جميع الحوداث التي وقعت مع الكثيرين بخصوص رؤيتهم لشيء يقع في مكان آخر، ومن هذا القبيل تشعر الأم بأن ابنها مريض وهو بعيد عنها، فيكون مريضًا بالفعل، أو ميتًا إن شعرت أنه ميت[(٣)].

وأخيرًا هذا الإجماع البشري على وجود الخالق العظيم يجب أن يعطى أهمية كبرى، فالموحدون، والوثنيون، والأنبياء، والفلاسفة -إلا قليلا- لا يقام لهم وزن، ولا يحسب لهم حساب، حتى هذه القلة الملحدة تجد منها من يؤوب إلى الإيمان، يقول أحدهم: (لو أردت من نفسي وعقلي أن يشكا لما استطاعا، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت، ولو أني نسيت إيماني بالقول لما صدقت أقوالي. فشعوري أقوى من كل أقوالي، ماذا لو أن إنسانًا قال: إنه لا يحب نفسه، أو لا يحب الحياة فهل تصدقه، أو هل يصدق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفي إحساسنا بها بالكلام؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ، وكذلك الإيمان)[(٤)].

وختامًا فإن من أراد الحق يكفيه دليل واحد: نفسه التي بين جنبيه.

---

(١) ومعناها إدراك الشخص لأفكار في ذهن شخص آخر دون تدخل الحواس.

(٢) أي: إدراك الأشياء والحوداث بغير طريق الحواس.

(٣) بتصرف عن "العقل وسطوته" للدكتور (ح. ب. راين) ترجمة الدكتور محمد الحلوجي ص ٢٦.

(٤) بتصرف عن "الإيمان والحياة" للقرضاوي ص ٨٩.

الباب الثاني

الغيب: مصادره، وضرورة الإيمان به

الفصل الأول
مصادر معرفة الغيب عند الإنسان

- مصادر معرفة الغيب عند الإنسان:

إن لكل غاية وسيلة، والإيمان بالغيب وسيلة من الوسائل الموصلة لغاية، وهي: رضى الله عز وجل، ولكن هذه الوسيلة هي غاية قريبة تحتاج إلى وسيلة للوصول إليها، فما الوسيلة للوصول إلى الإيمان بالغيب؟

إن الإنسان يملك وسائل كثيرة للتعامل مع ما حوله من أشياء ومفاهيم، فلديه الحس والتجربة والعقل والفطرة، وهذه وسائل يشترك فيها كل الناس تقريبًا، وهناك وسائل ينفرد بها ناس دون غيرهم كتحضير الأرواح والكشف والوحي.

وإننا إذ نناقش هذه الوسائل ونبين الحق فيها بإذن الله تعالى فلن ننسى أن نتعرض لكل من نظرية الاستذكار ونظرية الانتزاع، متوصلين في النهاية إلى الطريق الموصل إلى الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به.

إن موضوع "مصادر معرفة الغيب" هو ما يسمى عند الفلاسفة بنظرية المعرفة، حيث دار حوله نقاش حاد بين الفلاسفة وخاصة المحدثين. (ونظرية المعرفة هي نقطة الانطلاق الفلسفي لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم، فما لم تحدد مصادر الفكر البشري ومقاييسه وقيمه لا يمكن القيام بأية دراسة مهما كان لونها)[(١)]. وهذا صحيح كل الصحة إذ إن اختلاف البشر مبني على اختلافهم في تحديد مصادر معرفتهم، فإذا اتفقوا على المصادر فمن الممكن جدًا أن يتفقوا على قواعد الأشياء، ومن هنا تأتي أهمية هذا الفصل. ونحن إذ نستعرض الوسائل السالفة الذكر نبدأ بها على النحو التالي:

١- الحواس:

لعل مكانة الحواس لم تدع مجالا لأحدٍ لينكر أهميتها، بل إن هذه الأهمية

---

(١) فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ط٤ دار الفكر ١٣٩٣هـ، ص ٥٥.

ازدادت، حتى إن بعض الناس جعل الحواس[١] كل شيء، وبنيت على هذا الأساس النظرية الحسية ونشأت لها مدرسة كثر روادها، ورفع لواءها في الفلسفة الحديثة البريطاني (جون لوك) في كتابه (مقالة في التفكير الإنساني).

وتقوم النظرية الحسية على اعتبار الحواس هي المصدر الوحيد للذهن البشري المزودة له بالتصورات والمعاني، والقوة الذهنية هي القوة العاكسة للإحساسات المختلفة في الذهن[٢]. وقد تأثرت بهذه النظرية فلسفات خطرة، مثل: فلسفة باركلي، ودافيد هيوم، وماركس، وبهذه الفلسفة الحسية قال السوفسطائيون[٣].

فالحسيون لا يؤمنون إلا بما تقع عليه حواسهم، ومالا يدخل في دائرة الحواس فغير مصدق ولا موجود.

ونحن لا ننكر أهمية الحواس، ولكننا نرفض أن تعطى الحواس هذا السلطان، وذلك لأنها لا تستطيع أن تصل إلى كل شيء فهي محدودة، محدودة من حيث عددها، ومحدودة من حيث قوتها.

فإذا اعتبرنا الحواس هي الأصل في المعرفة، فإننا حينئذ سنسقط من حسابنا أشياء

---

(١) قال في لسان العرب ٧/٣٤٩ فصل الحاء حرف السين (حس: الحس والحس الصوت الخفي قال تعالى (لا يسمعون حسيسها) والحس بكسر الحاء من أحسست بالشيء. حسّ بالشيء حس حسًا وأحس به وأحسه شعر به).

(٢) بتصرف عن (فلسفتنا) لمحمد باقر الصدر ص ٥٩.

(٣) انظر ص ١٥٣ قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب طبع القاهرة ١٣٦٨هـ قال في قصة الإيمان ص ٣٦ (من كلمة السوفسطائية جاءت السفسطة فالسوفسطائية هي طريق الجماعة الذين برعوا في تعليم الناس قلب الحقائق بالجدل الكاذب، واسمهم هذا من كلمة سوفيست، وهي تدل في اليونانية على المعلم من أي فرع من الصناعات والعلوم، ثم صارت تطلق على هؤلاء المعلمين. وليس للسوفسطائين مذهب فلسفي معلوم ولا آراء تربطها روح الفلسفة التي تبحث عن الحق ولكنهم جماعة من المعلمين ظهروا في بلاد اليونان في ظروف اجتماعية كانت تطغى فيها على البلاد موجة من الشك والكفر بآلهة الأساطير، وموجة من الديمقراطية. فمهر هؤلاء في تعليم الناس الخطابة والجدل، وكانوا يفخرون بأنهم يستطيعون أن يؤيدوا الرأي ونقيضه، وأشهرهم: بروتا غوراس وغورجياس).

كثيرة جدًا بالنسبة لما قد نقره لإقرار الحواس له.

فمن حيث العدد هي خمس أو ست، وهذا غير كاف لإدراك كل شيء، ومن حيث القوة لا تمتاز بذلك وضعفها ظاهر، فالإنسان يرى على مسافة معينة، ويسمع بعض اهتزازات الأصوات ذات الموجات المناسبة للجهاز السمعي، وكذلك بقية الحواس.

والواقع يقول: إن وراء النقطة التي تقف عندها الحواس توجد أشياء كثيرة، بل أكثر مما دخل في دائرة هذه الحواس ومجالها. فلو فرضنا شخصًا جالسًا في غرفته وعنده مذياع مغلق، فإنه لن يسمع أي صوت؛ لأن قوة الحاسة السمعية لا تستطيع أن تجمع الأصوات المنتشرة في الغرفة، فإذا قام الشخص وفتح المذياع فإنه سيجد الأصوات الكثيرة بلغات شتى فكيف حصل هذا؟ كل ما في الأمر هو أن المذياع قد جمع هذه الأصوات لامتلاكه القوة الكافية وأعطاها اهتزازات مناسبة لسمع الإنسان فسمعها.

والبصر يخدع، فإننا نرى القلم الموضوع في كأس من الماء مكسورًا مع العلم أنه غير مكسور، ونرى عن بعد الماء في الصحراء، فإذا اقتربنا لم نجد شيئًا وإنما هو سراب، ويتعطل الإبصار في الظلام. وإذا اقتربت من شجرة تجدها كبيرة فإذا ابتعدت عنها صغرت في عينك. والكتاب وزنه خفيف بالمقارنة مع وزن المواد، وثقيل بالمقارنة مع وزن القلم.

والورقة مربعة إذا نظرت إليها من أعلى، بينما غير ذلك إذا نظرتها من جانبها. فإذا كانت المعرفة الحقة هي ما تنقله الحواس فقد نقلت الحواس متناقضين عن شيء واحد، فإما أن يكون الاثنان حقًا أو باطلا، وهذا لا يمكن أن يقول به عاقل.

وإذا أخذنا بالنظرية الحسية فإننا سنجعل الصغير والراشد في إدراكهما للأشياء مثل بعضهما، لأن كليهما يملك الحواس، وهذا باطل، إذ يبطل التعليم والتفوق العقلي والذهني.

ثم إن النظرية الحسية تجعلنا مساوين للحيوانات، إذ هي تملك الحواس أيضًا[1].

---

(١) بتصرف عن قصة الفلسفة اليونانية ص ١٥٤.

فالحواس قليلة ومحدودة كمًا وكيفًا، وإذا كانت هذه طبيعتها في الماديات فالأولى أن لا تعتمد في إدراك المغيبات، فالحواس لا نستطيع الاعتماد عليها.

وأقرب ما يقال للحسيين: إنكم لم تروا عقولكم فكيف تقولون بوجودها؟ فإن قالوا هي موجودة فقد أبطلوا نظريتهم، وإن قالوا غير موجودة فلا نتعب في نقاش من لا عقل له.

ومما يرد به على النظرية الحسية أن هناك معاني جديدة بسيطة لم تدرك بالحس، وهي متولدة من المعاني المحسوسة يولدها الذهن على عكس كلام النظرية[1].

وقد فشلت هذه النظرية أيضًا في إرجاع جميع المفاهيم التصورية إلى الحس، ويتضح فشلها عند دراسة بعض المفاهيم (العلة والمعلول، والجوهر والعرض، والإمكان والوجوب، والوحدة والكثرة، والوجود والعدم) حيث إن الإحساس لا يدرك الصلة بين العلة والمعلول، وهو ما يسمى: العلية، وقد اعترف بهذا دافيد هيوم[2].

والخلاصة: أننا نستفيد من الحواس في المجال الذي تصل إليه، أما غير ذلك فله وسائل أخرى.

والله سبحانه وتعالى هو الذي أعطانا الحواس، وبنفس الوقت كلفنا بالإيمان بالغيب، فدلنا هذا على أن هناك وسائل أخرى للمجالات التي لا تصل إليها الحواس، ولو أردنا أن نعتمد على الحواس لبقينا على جهلنا بما وراء المادة. ثم إن تكليف الله لنا بالإيمان يدل على أن لا تعارض بين استعمال الحواس والإيمان بالغيب، إذ لكل مجاله ومصدره.

٢- قوة التخيل:

أما "قوة التخيل" فهي تعتمد على ما تدركه الحواس، ولا يمكن للإنسان أن يتخيل شيئًا إلا إذا كان قد سبق له رؤيته أو رؤية أجزائه، فأنا أستطيع أن أتخيل حيوانًا له خمس عيون، أربع تتجه إلى الجهات الأربع وواحدة إلى السماء، وأستطيع

(١) بتصرف فلسفتنا ص ٥٩.

(٢) نفس المرجع.

أن أتخيل أن له خمسة أجنحة، وعشرة أرجل، وثلاثة ذيول، كل هذه مجتمعة، أستطيع أن أتخيل هذا الحيوان، لكنني -وإن لم أره في هذه الحياة- فقد رأيت أجزاءه، فأنا أعرف العين والرجل والذيل والجناح، وعليه فالخيال لا يتصور إلا ما يقع تحت الحواس جزئيًا أو كليًا. ثم إن هذه القوة تختلف من شخص إلى آخر، فإذا اعتمدت على أنها مصدر معرفة فإن الحتمية هي الاختلاف لاختلاف القوة التخيلية التي يمتلكها أفراد الجنس البشري.

٣- العقل:

أما العقل فلا يشك عاقل أن العقل محدود بين الزمان والمكان، وهو محدود إذ يعجز في بعض الأحيان أن يرجح أحد الاحتمالين، ولهذا يقول الإمام الشافعي -رحمه الله-: (إن للعقل حدًّا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه)(١). ومن دلائل محدودية العقل اختلاف عقول الناس، لو ترك الناس لعقولهم لاختلفت آراؤهم وأحكامهم وهنا تكون الفوضى. وإذا كانت عقول الناس تختلف في عالم الشهادة فهي في عالم الغيب أشد اختلافًا، ولهذا فالعقل لا يصلح مصدرًا وحيدًا لإدراك الغيبيات، ولا يفهم من هذا تقليل قيمة العقل، بل إن الأساس الأول للغيبيات -وهو وجود الله- يدرك بالعقل بسهولة، ولكن هذا الإدراك للوجود لا يعني الإدراك للذات؛ لأن العقل المحدود لا يحيط بالله تعالى، ولهذا نرى سخافات في كلام بعض الفلاسفة الذين بحثوا بعقولهم في الغيب فقدموا لنا تخيلات لا يقبلها العقل.

ثم لا ننسى ارتباط العقل بالحس، فالعقل يعتمد في كثير من الحالات على الحواس، وقد تقدم الكلام عليها وأنها محدودة كمًّا وكيفًا.

وقد عرف عن كبار فلاسفة أوروبا رفضهم لإعطاء العقل مجالات واسعة. ها هو كانت شبه العبارات الغيبية (المتافيزيقية) بورق نقد بدون ضمان، حيث يهدف إلى بيان أن صنعة العقل فيما عدا الطبيعة لا تأتي بيقين واقعي إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحسية إلى دائرة أعلى منها فوقها؛ ولأن ما يأتي به هو الظن والتخمين، إذ العقل بحكم أنه محدود بالبيئة، والمكان، والزمان، والثقافة الخاصة،

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص ١٩ ط ١٣٨٥هـ.

والجو الطبيعي، والاجتماعي، والسياسي لا يستطيع أن يأتي بيقين عن الله؛ لأن الله مطلق في وجوده لا تحدده شهوة ولا رغبة، ولا يحدده زمان ولا مكان، ولا شيء مما يحدد به الإنسان؛ ولذلك لا يستطيع المحدود أن يتصور غير المحدود تصورًا تامًا، وكل ما يفعله أن يستدل على وجوده بوجود نفسه، وذلك ظن وليس يقين، ومن ثم طالب كانت في فلسفته بإفساح مجال القلب للإيمان، وإبعاد العقل البشري عن الظن والتخمين. وعلى هذا النحو طالب الغزالي، ومن قبله الباقلاني، والجويني[١] بإبعاد الصنعة العقلية من مجال الألوهية، ووضع الإيمان وتركيزه في القلب بدلا من تركه في مركز المناقشة العقلية[٢]. ومع هذا فالمسلمون لا يتنكرون للعقل؛ لأن عقيدتهم مبنية عليه، وقالوا بالمعارف الأولية وهي التي لم تنشأ عن معارف سابقة، فهذه المعارف الأولية، هي العلل الأولى للمعرفة، وقسموا هذه العلل إلى نوعين:

(أ) ما كان شرطًا أساسيًا لكل معرفة إنسانية بصورة عامة، كمبدأ عدم التناقض.

(ب) ما كان سببًا لقسم من المعلومات[٣].

فالعقل وإن كان لا يصل إلى الغيب كله، يدعو إلى الإيمان به كما سبق في الفصل الأول من هذا الباب (ضرورة الإيمان بالغيب - الضرورة العقلية). ولأن العقل لا يصل إلى الغيب أخرج العلماء الغيب من دائرة الاجتهاد، وأطلقوا عليه اسم (السمعيات)، أي: التي تؤخذ بالسماع من الوحي. ورغم هذا فإن بعض العصريين حاولوا إثبات أن لا تعارض بين الإسلام والعقل، وهذا نؤمن به، لكنهم لإثبات عدم

---

(١) انظر كتاب الجويني إمام الحرمين للدكتورة فوقية حسين محمود ط ٢، ١٣٩٠هـ المطبعة الثقافية. تقول الدكتورة نقلا عن مخطوطة للجويني بعنوان (البرهان في أصول الفقه) (يحدثنا إمام الحرمين عن الأصول فيقول (إن السمعي منها يحصل عن طريق المرشد والأدلة السمعية).

(٢) بتصرف انظر (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) لمحمد البهي ص ٢٦٦ ط ٨.

(٣) انظر فلسفتنا ص ٦٦/٦٧ بتصرف.

التعارض تجنوا على النقل وأخرجوا النصوص عن معناها[١].

ومن كان دقيق الملاحظة أدرك أنه لا يمكن أن يتعارض العقل والنقل، وبخاصة أننا نجد الإسلام -وهو دين بني على الاعتقاد بالغيب- يأمر أتباعه باستعمال العقل والنظر والفكر، قال تعالى: ﴿ **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾[٢]، وقال: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...**﴾[٣]. ولم يقيد الإسلام أتباعه في استعمالهم للعقل إلا حيث لا جدوى ولا فائدة إلا التشويش والزيغ قال ﷺ: (**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**)[٤]. قد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا في هذا الموضوع سماه: (درء تعارض العقل والنقل)، أو (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

٤- التجربة:

تعتبر التجربة مصدرًا من مصادر المعرفة، ولكن أية معرفة؟ إن لكل علم مصدرًا، والعلوم المادية كمعرفة من المعارف تتبع الدقة في التجربة، ولهذا يمكن الاستفادة من التجربة في هذا المجال، أي: في علوم الكون والحياة فيما يتصل بأحوال المادة وشئون الناس، أما ما يتعلق بما وراء المادة فلا سبيل للاستفادة من التجربة؛ لأن المنطق

---

(١) انظر كتاب القرآن محاولة لفهم عصري.

ومن أمثلة زلاته قوله إن حديث رؤية النبي ﷺ جبريل في صورته الحقيقية مرتين يمكن أن يشك في صحته وقوله إن يأجوج ومأجوج وذا القرنين وصهر الحديد والنحاس كلها رموز للعلم والصناعة التي كانت تحجزهم وراء حاجز الجهل والتخلف. وقوله إن جنة آدم الطاعة والناموس الإلهي وإن الأكل من الشجرة يعني مخالطة زوجته بالجسد. وقوله إن غض البصر في عصر الميني جوب والديكولتيه والجاونيز والباركوات أمر صعب في مثل شارع سليمان باشا ولا ضرر منه إلا أن تكون النظرات خبيثة. وبالمثل حكاية الفستان الطويل الأكمام والقصير حيث لا يمكن أن تكون الفضيلة أمتارًا من القماش. (هذه الأمثلة عن كتاب شطحات مصطفى محمود. لعبد المتعال الجبري. دار الاعتصام ص ١٢١، ١٤٧، ١٦١، ٢٢٦.

(٢) يونس ١٠١.

(٣) سبأ ٤٦.

(٤) انظر مجمع الزوائد ١/٨١ قال رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوازع بن نافع وهو متروك.

التجريبـــي يقصر عن نيل المعرفة في هذا المجال، وسبب قصوره أنه لا يستطيع إحضار عناصر التجربة ليقيم تجربته. والتجربة يستعمل فيها المادة المجرب عليه وحس المجرب وعقله، وقد أبطلنا كون الحس والعقل من الوسائل المستعملة في إدراك الغيب،ونفس الغيب لا يتجمع كمادة أمام المجرب ليقيم تجربته، فبطلت التجربة لبطلان عناصرها الثلاثة. فالتجربة قامت على العقل، وما قام على غير معتمد أصبح غير معتمد. وتتبجح أوروبا بالمذهب التجريبـــي الذي يقرر أن التجربة هي المصدر الأول لجميع المعارف البشرية، ولا يعترف بمعارف ضرورية سابقة على التجربة(١).

وهذا المنهج إنما يصلح معتمدًا للعلوم الطبيعية، إذ إنها لا تدرك إدراكًا يقينيًا إلا بهذا الطريق، فتبدأ بموضوعات في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل والتفكير وتفرض نفسها، وعلى العقل بعد ذلك أن يفسرها. ويظن بعض الحمقى أن المنهج التجريبـــي يطبق في كل شيء حتى في وجود الله تعالى(٢).. حتى إنهم كتبوا المؤلفات في هذا المجال، فللأستاذ روبيرهار كتاب سماه: (الأبحاث التجريبية على الظواهر الروحية) وهذا المذهب يبطل نفسه بنفسه، فمن أين عرفوا هذا المبدأ؟.

فإن قالوا: بدون تجربة، فقد أبطلوا مذهبهم؛ لأنهم لا يؤمنون بما يسبق التجربة، وإن قالوا: بالتجربة، فهذا يعني أننا لا ندرك في بداية الأمر أن التجربة مقياس منطقي مضمون الصدق، فلسنا متأكدين منه كمبدأ(٣).

ويعجز المذهب التجريبـــي عن إثبات المادة، حيث إن الحواس لا تدرك إلا ظواهر المادة، فالوردة نلمسها ونشمها ونذوقها، ولكن لا نحس بالجوهر الذي تلتقي عنده هذه الظواهر، ولهذا أنكر بعض الفلاسفة الحسيين التجريبيين وجود المادة، ومن هنا يمكننا أن نعترض عليهم بأن ليس الغيب وحده الذي يحتاج إلى إثبات، الماديات نفسها تحتاج إلى ذلك.

ثم إنه ليس للتجربة سلطان في الحكم على المستحيل -بمعنى عدم إمكان

---

(١) فلسفتنا ص ٧١ بتصرف.

(٢) بتصرف. كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. ص ٥٥ الحاشية.

(٣) فلسفتنا ص ٣٧ بتصرف.

الوجود- لأنه لا يدخل تحتها، وكل ما يمكن أن يقال: عدم وجود -وعدم الوجود لا يدل على الاستحالة- وهذا المذهب يجعلنا لا نفرق بين قولنا: (اصطدم القمر بالأرض) وهي قضية غير موجودة لكنها ممكنة، وقولنا: (مثلث له أربعة أضلاع) وهي قضية غير موجودة ومستحيلة، مع أن الفرق واضح. وعليه فلا بد أن يعترف التجريبيون باستحالة أشياء معينة (كمثلث له أربعة أضلاع)، أو أن ينكروا الاستحالة من جميع الأشياء. فإن اعترفوا باستحالة أشياء كان هذا استنادًا إلى معرفة عقلية مستقلة لا إلى تجربة. وإن أنكروا الاستحالة لم يبق فرق بين قولنا: (اصطدم القمر بالأرض)، وقولنا: (مثلث له أربعة أضلاع)، وعليه لا يكون التناقض مستحيلا، وهذا يؤدي إلى عدم قدرة التجربة على إزالة الشك.

والمذهب التجريبي لا يتمكن من إثبات مبدأ العلية كما تقدم اعتراضنا على الحسيين، وإذا انهار مبدأ العلية انهارت جميع العلوم.

ومع كل ما سبق فإن النظرية التجريبية ترتكز على معارف لا تخضع للتجربة مثل:

(أ) مبدأ العلية، بمعنى: امتناع الصدفة.

(ب) مبدأ الانسجام بين العلة والمعلول.

(ج) مبدأ عدم التناقض.

وهذا الاعتماد على هذه المعارف يبطل مبدأ التجربة كمصدر كلي للمعرفة.

٥- نظرية الفطرة:

سبق أن تحدثنا عن الفطرة وكون الإنسان مفطورًا على الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿ **فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾[١]، وقال ﷺ: (**وكل إنسان تلده أمه على الفطرة**)[٢]. فالفطرة هي الطبع السليم، والسلوك القويم الذي لم تشبه شائبة، ولم يتعكر صفو صاحبها. إن الفطرة تتقبل كل ما هو صحيح وسليم وحق، لكن هذه الفطرة ليست مصدرًا لمعرفة الغيب، وهذا من حكمة الله

(١) الروم ٣٠.

(٢) وفي رواية لمسلم ٢٠٤٧/٤ (ما من مولود يولد إلا على الفطرة).

تعالى، إذ لو كان الأمر كذلك لادعى الكثيرون علم الغيب باسم الفطرة، وعندها تقع الفوضى، ولهذا فأخبار الغيب لا تأتي من داخل النفس بل من خارجها، ولا يتدخل في هذا الحدس النفسي، ولا الإلهام الروحي، ولا الوميض الذهني[(١)].

نعم يمكن أن نفهم الفطرة على أنها الوضع النفسي السليم لاستقبال الحق ويكون هذا أمرًا مقبولا لا يعني بالضرورة علم الغيب لصاحب هذه الفطرة لكن قد يعلم من الغيب بإطلاع الله له كما سبقت الإشارة إليه.

إننا نرفض كلام بعض الفلاسفة الذين جعلوا النبوة مجرد فطرة سليمة انبعث منها الخير ذاتيًا عن طريق الوحي، وهذا فرق دقيق، فنحن نقول كما يقولون من أن النبي ﷺ له فطرة سليمة، لكننا نختلف معهم في أننا نقول: إن الفطرة لم تكن هي مصدر ما أخبر به الرسول عليه السلام، بل الوحي هو الذي أخبر الفطرة السليمة بذلك، بينما هم يقولون إن الفطرة السليمة عندما تشف تصل إلى الغيوب فتخبر عنها وبهذه النقطة يشبه المتصوفة الفلاسفة.

وقد تقدم الكلام حول الضرورة الفطرية للإيمان بالغيب، ولم نقل هناك: إن الفطرة وسيلة لمعرفة الغيب، بل قلنا: إن الفطرة تقتضي الإيمان بالغيب.

٦- الكشف:

ذكرت فيما تقدم قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع سارية القائد المسلم، وذلك حين قلت: إن بعض الغيب قد يعلمه بعض الناس، وقصة عمر هذه هي من قبيل ما يسمى بالكشف. فالكشف حالة من الشفاف الروحي يصل إليها الإنسان الصالح التقي، فينكشف له بها بعض الغيب كما حدث لسيدنا عمر رضي الله عنه. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**هل ترون قبلتي هاهنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري**)[(٢)]. قال ابن

---

(١) انظر تعريف عام بدين الإسلام، للشيخ على الطنطاوي، ص ١٦٦، ط٦، مؤسسة الرسالة ١٣٩٤هـ.

(٢) البخاري مع فتح الباري جـ ١ص ٥١٤ الطبعة السلفية.

حجر[١] في شرحه لهذا الحديث: (والصواب المختار أنه محمول على ظاهره، وأن هذا الإبصار إدراك حقيقي خاص به ﷺ انخرقت له فيه العادة. قال الشاطبي[٢] في الموافقات: (فهذا حكم بين على الكشف)[٣].

وقال الشاطبي: (فلكل من كان من أهل الكشف والاطلاع أن يحكم بمقتضى اطلاعه وكشفه، ألا ترى إلى قضية أبي بكر الصديق مع بنته عائشة فيما نحلها إياه ثم مرض قبل أن تقبضه قال فيه: وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله، قالت: فقلت يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء فمن الأخرى، قال ذو بطن بنت خارجة أراها جارية)[٤]. فالكشف من الكرامات التي يقر بها أهل السنة والجماعة، وهي دليل ولاية الله عز وجل إن حدثت مع إنسان صالح، ومعلوم أن الولي لا يدعي الولاية، وبالتالي فصاحب الكشف لا يدعي الكشف، إذ الكشف ليس صفة مستمرة مع الإنسان، لكنها صفة تعرض وقدْ تتكرر.

إذاً فالكشف حالة من الصفاء يصل إليها القلب فيقذف الله فيه شيئًا من غيبه. وقد وضح الغزالي هذه الفكرة بقوله: (اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي

(١) قال في الأعلام ١٧٣/١ (أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين ولد بالقاهرة ٧٧٣ هـ وتوفي فيها ٨٥٢هـ من الحفاظ المحدثين وهو صاحب الفتح).

(٢) قال في الأعلام ٧١/١ (ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي القرطبي الشهير بالشاطبي. أصولي حافظ من أئمة المالكية. توفى ٧٩٠هـ).

(٣) جـ ٤ ص ٤٤ المطبعة السلفية بمصر. بتصرف.

(٤) الموافقات. المطبعة السلفية بمصر جـ٤ ص ٤٤.

وفي الموطأ ص ٣٦٨ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت إن أبا بكر نحلها جاد عشرين وسقًا من ماله بالغابة فلما حضرته الوفاة قال: والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إليَّ غنى بعدي منك ولا أعز علي فقرًا بعدي منك وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقًا فلو كنت جددتيه واحتزتيه كان لك وإنما هو اليوم مال وارث وإنما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله قالت عائشة فقلت يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته إنما هي أسماء فمن الأخرى فقال أبو بكر ذو بطن بنت خارجة أراها جارية) وكان كما ظن وسميت أم كلثوم.

فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب، وحيلة الدليل يسمى: إلهامًا، والذي يحصل بالاستدلال يسمى: اعتبارًا واستبصارًا. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى: مالا يدري العبد أنه كيف حصل له، ومن أين حصل، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب.

والأول يسمى: إلهامًا ونفثًا في الروع، والثاني يسمى: وحيًا ويختص به الأنبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء، والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء.

وحقيقة القول فيه: إن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب(١) الخمسة التي سبق ذكرها، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة، وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب أيضًا هي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها.

والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد، وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه. وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل. وتمام ارتفاع الحجاب بالموت، فيه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضًا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفيّ من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم.. ولهذا مال أهل التصوف إلى العلوم الإلهية

(١) الأسباب الخمسة هي التي ذكرها ص٢٣، جـ ٨ قال: (كما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

الأولى: نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور، ويشكل، ويصقل.

والثاني: لخبثه، وصدئه، وكدورته وإن كان تام الشكل.

والثالث: لكونه معدولا به عن جهة لصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة. فكذلك القلب).

دون التعليمية، فلم يحرصوا على العلم وقدموا المجاهدة)[١].

ورغم أننا نؤمن بالكشف إلا أن هذا لا يدفعنا إلى الإعرض عن العلم كما فعل المتصوفة؛ لأنه لا تناقض بين العلم والوصول إلى الكشف.

والكشف الذي نؤمن به هو الذي لا ينفرد عن الدين ولا يسقطه من حسابه.

٧- تحضير الأرواح:

ينتشر بين الكثيرين ما يسمى بتحضير الأرواح، وبخاصة عند المنتسبين إلى التصوف، وعند أدعياء الروحية[٢] الحديثة، وبعض السذج من المسلمين الذين أرادوا بدافع الذبّ عن الإسلام ضد المادية، وبيان أن الإسلام فيه كل شيء. يقول طنطاوي جوهري -وهو من المؤيدين للفكرة-: (إن هذه الحركة بدأت مع ظهور الإنسان على الأرض، وعاشت مع الأمم دهورًا وأحقابًا، فلما كانت هذه القرون الحاضرة، وأظلمت الدنيا، واسود وجه الحقيقة، وأخذ الناس يجهرون بالإلحاد أرسل ربك لهم عجائب، وأشرقت الأرض بنور ربها في ١٨٤٦م)[٣]. ويحدثنا المؤمنون بهذه الفكرة وكيف بدأ انتشارها عند الغربيين، وذلك أن رجلا يدعى فيكمان كان يسكن في قرية هيدسفيل، في نواحي ولاية نيويورك سمع طرقات متكررة في منــزله، فدب الرعب في أفراد الأسرة مما دفعهم للهجرة من ذلك البيت، فسكنت البيت أسرة أخرى تدعى أسرة جون فوكس، فعادت الطرقات في البيت، وهرع الجيران يبحثون عن السبب فلم يصلوا إلى شيء، وتجاسرت ربة البيت مرة وقالت للطارق: إن كنت

---

(١) إحياء علوم الدين، تحقيق العراقي، طبع لجنة الثقافة الإسلامية، جـ٨، ص٣٢.

(٢) قال التهامي نقرأ في (عقيدة البعث في الإسلام) ص ٨٨ وبعدها: (الروحية الحديثة تأسست بلندن عام ١٨٨٢م جمعية المباحث الروحية، وامتد عملها في انجلترا وأمريكا، ومن أعضائها أعلام في الفلسفة والعلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء والرياضيات، ولا تزال هذه الجمعية في بريطانيا وأمريكا. وتقبل في عضويتها المؤمنين بوجود الأرواح والمناهضين لها، وكل ما تشترطه الإلمام بالروح كظاهرة طبيعية، هدفها القيام ببحوث ودراسات عن الروح، وعن عالم ما وراء الطبيعة في النطاق العلمي بواسطة التجربة، وأقامت المؤتمرات، وألفت المجلدات، وتأسست كراسي للأستاذية في المباحث الروحية).

(٣) (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) جـ١، ط٢، ص ٨٦.

روحًا فأحدث طرقتين، ففعل، فسألته عن سن ابنتها، فطرق طرقات مساوية لعدد سنيّ ابنتها، وسألته: إن كنت أوذيت من شيء فأحدث طرقتين فأحدثهما، ولم تزل به حتى علمت أنها روح رجل كان ساكنًا في ذلك البيت، فقتله جاره ليسرق ماله، ودفنه فيه، فكررت العملية أمام الجيران، وضبطت الحكومة الجريمة[(١)].

هذا عن تاريخ الروحية الحديثة التي تؤمن بتحضير الأرواح. أما نفس الفكرة فيقول أصحابها: إن للروح جسمًا ماديًا شفافًا لطيفًا ألطف من هذه المادة بكثير، ولذلك لا تسري عليها قوانينها، وإن الموتى بعد الموت مباشرة يموتون في عالمنا هذا بين أيدينا، وعن أيماننا وشمائلنا، ولا يزالون كذلك مدة تختلف باختلاف درجتهم الروحية، ثم ينتقلون إلى حال أرقى من هذا -وإن كانوا لا يبرحون هذا العالم- فإن العوالم في نظرهم اختلاف حالات ومقامات لا اختلاف جهات ومكانات. ويمكن مكالمة الروح[(٢)] بعد خروجها من الجسم، ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن يقع في خدر عام عند إرادته تحضير الروح، فتستفيد الروح من استعداده، فتكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجهل، وتنبئ عن أمور الحاضرين من أقاربها، وتكشف عن أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة[(٣)].

وتقول الروحية الحديثة: إن الأرواح تستأنف عملها بعد الموت، فبعضها يعظ ويرشد، ويعضها يطبب، وبعضها يتسكع بدون عمل، وبعضها يدخن. وعمل الأرواح بعد الموت هدفه طلب المزيد من الدرجات، وتكفير الذنوب[(٤)]. ويستدل

---

(١) انظر (دائرة تعارف القرن العشرين) لمحمد فريد وجدي، ط٣، جـ١، ص ٣٤٩ بتصرف.

(٢) ويتبع محضرو الأرواح عدة طرق في تجارهم، فيستعملون القفة، والدلو، والسلة، والفنجان، والقلم، ويقولون كلامًا ينادون فيه الروح التي يريدون تحضيرها، فإذا أحضر القرين بدأ القلم بالكتابة بين الوسيط، أو يكتب من غير أن يمسكه الوسيط. وأحيانًا يكتبون الأحرف الأبجدية على أطراف لوحة رخامية مربعة، ويوضع في وسطها فنجان سهل الانزلاق، ويجلس أمامها وسيطان يضع كل منهما أصبعه في الفنجان، ويطلبون الروح، فإذا جاء وتكلم تحرك الفنجان على الأحرف بحيث يتكون الجواب من مجموع الأحرف. (انظر العقائد لإسلامية) لنديم الملاح ص ٤٣ مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس.

(٣) بتصرف عن دائرة (معارف القرن العشرين) ص٢٤٥، جـ١.

(٤) (ركائز الإيمان) ص ٣٤٥، لمحمد الغزالي.

المسلمون الذين يؤمنون بتحضير الأرواح ببعض الآيات القرآنية، يقول طنطاوي جوهري[١]: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

قال: وأما علم الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [٣]، وقد فعل إبراهيم ذلك وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمأن. وإذا كان الأنبياء أمرهم أن يتعلموه كما هو مع إبراهيم فكيف نحن الذين نحتاج إلى دلائل أكثر لتطمئن قلوبنا[٤].

ومما يدل على تحضير الأرواح قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[٥]، وقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[٦][٧] وعضد إيمانه بتحضير الأرواح بقوله: (إنه ورد في الحديث، وفي التوارة (سفر صموئيل الأول)، وحوادث الأوربيين وقصصهم)[٨]، وقد وضع كتابًا في هذا المجال سماه: كتاب الأرواح[٩].

---

(١) قال في (الأعلام) جـ٢، ص ٣٣٣ : (طنطاوي بن جوهري المصري، ولد في قرية من قرى الشرقية بمصر، درس في الأزهر، وفي المدارس الحكومية، ودرس الإنجليزية، وفي دار العلوم له مؤلفات كثيرة أشهرها: تفسير القرآن، توفي بالقاهرة عام ١٣٥٨هـ).

(٢) البقرة/٧٢ - ٧٣.

(٣) البقرة/٢٦٠.

(٤) (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) ص٨٤، جـ١، ط٢ مصطفى البابي الحلبي بمصر، بتصرف.

(٥) البقرة/٢٤٣.

(٦) البقرة /٢٥٩.

(٧) (الجواهر) ص ٨٨، ٨٩.

(٨) (الجواهر) جـ ٩، ص ١١٤/٤٨، جـ ١٠، ص ١٠.

(٩) (الجواهر) جـ١، ص ٨٤.

ومن الآيات التي استند إليها قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ...﴾ [١][٢].
ويعلق بعد إيراد هذه الأدلة بقوله: (والأولى بأمة الإسلام أن تكون السابقة في مضماره، المجدة في تعلمه)[٣].

ومن المؤيدين لتحضير الأرواح محمد فريد وجدي، إذ يقول تحت مادة اسبرتزم: (هو فن استحضار الأرواح)[٤]. فاعتبره فنًا من الفنون، ويعلق على حادثة مترل فيكمان بقوله: (وتألفت في أوروبا لجنة عام ١٨٦٩م للحكم الفصل في هذه القضية، وتألفت اللجنة من كبار رجال الفكر والعلم، واستمرت دراستهم للموضوع ثمانية عشر شهرًا، وكانت النتيجة تأكيدها على صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة)[٥].

ويؤكد على أن عدد المؤيدين للفكرة بلغ الملايين، وأن أكثر من ٢٠٠ مجلة تدافع عنها[٦]. ولا يقف عند هذا الحد بل يعتبر فكرة تحضير الأرواح خنجرًا طعن المادية طعنة لا برء لها منها إلى يوم الدين على حد تعبيره[٧].

ومن المؤيدين كذلك الدكتور رؤوف عبيد[٨]، الذي عمل أستاذًا بكلية الحقوق بجامعة عين شمس، وقد دافع عن الفكرة في كتابه: (الإنسان روح لا جسد) الذي يقع في ثلاثة مجلدات ضخام، وبدأ كتابه بقصيدة قال: إنها من روح أمير الشعراء

---

(١) الأنعام/١١١.
(٢) (الجواهر) جــ ٤، ص ١٠٥.
(٣) (الجواهر) جــ ١، ص ٨٤.
(٤) (دائرة معارف القرن العشرين) جــ١، ص ٢٤٥ .
(٥) المرجع نفسه بتصرف.
(٦) (دائرة معارفه) ص ٢٤٩، جــ١.
(٧) المرجع نفسه.
(٨) دكتور مصري له عدة مؤلفات، وبخاصة في القضايا التشريعية والجنائية، وله في الفلسفة (التسيير والتخيير)، وله في الروح (الإنسان روح لا جسد) و (عروس فرعون)، و(شوقيات جديدة من عالم الغيب) وغيرها، وله بالفرنسية بعض المؤلفات.

أحمد شوقي تحيي فيها الأبيات كتاب (الإنسان روح لا جسد).

ومن معتنقي فكرة التحضير الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، المراقب بوزارة المعارف المصرية. وكان قد فتح مترله للجلسات والوسطاء كما يقول عنه الدكتور رؤوف عبيد[١]، وكان قد ألف عدة كتب في الموضوع منها: (ظواهر الطرح الروحي) و(السيكولوجيا والروح) و(العجيبة الثامنة). ومن المعاصرين الذين ذكرهم الدكتور عبيد في كتابه، الدكتور علي عبد الجليل راضي الأستاذ بكلية العلوم بعين شمس، وقد أنشأ دائرة الأهرام الروحية، وألف: (حياة محمد الروحية) و(العالم غير المنظور) و(أرواح مرسلة) و(سفير الأرواح العليا) و(أضواء على الروحية)[٢].

وممن يؤيد تحضير الأرواح الشيخ محمد حسنين مخلوف في كتابه: (المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية) إذ يقول: (ما أظن ذا فهم مستقيم يرتاب في كرامات الأنبياء، وتصرفات أرواحهم حال الحياة وبعد الممات، أو يستغرب حوادث التنويم والتحضير)[٣]. وكذلك الأستاذ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر سابقًا في مقدمة كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل، إذ يقول: (.. وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئًا كثيرًا مما كانوا فيه يختلفون...)[٤]. ويوجد كثير غير ما ذكرت ممن آمن بالفكرة ودافع عنها.

أما أهل الغرب فمن زعماء الروحية الحديثة عندهم سلفربرش، وهوايت هوك. إذ بث الأول أفكاره في كتابيه (التوحيد والتعديد) و (الحكمة العالية).

مما تقدم علمنا أن تحضير الأرواح مبدأ له أتباعه في الشرق والغرب من المسلمين والنصارى، وأهم دعموا مذهبهم بالتجارب العلمية لتحضير الأرواح، ثم دعم المسلمون منهم الفكرة بآيات من القرآن الكريم. وبعد أن عرفنا فكرهم نود أن نحكم عليها بالحجة والبرهان لا العاطفة والجهل. وأهم ما يمكن أن يقال عن الفكرة ما

---

(١) (الإنسان روح لا جسد) ص ٤٤٣-٤٤٤، ط١.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص ٤٤٦ .

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص ٤٤٧.

(٤) مقدمة (حياة محمد) الورقة الثالثة (ن) السطر الخامس، (حياة محمد) ط٩، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٥هـ.

يلي:

أولا: أن الافكار التي تنتج كرد فعل على وضع معين هي أفكار غير أصلية ولا ثابتة، فلا يمكن لأحد أن يدعي تحضير الأرواح لمجرد طغيان الفكر المادي، وكون هذا الفكر خطأ؛ لأن ردود الفعل لا تلبث أن تزول بزوال ما أثارها. إذ الإيمان بعداوته للفكر المادي لا يقتضي من المسلم أن يخلط الحق بالباطل، ولا أن يرد على أهل الباطل إلا بما هو حق، فلا يخلط الدليل الصحيح بالدليل الباطل لمجرد أن هذا الدليل يساند فكرته. إذ الإخلاص للحقيقة أمر أصيل لابد منه للإنسان -وخاصة المسلم- قال تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ من رَبِّكُمْ**﴾(١).

ثانيًا: أننا نقول ببقاء الأرواح بعد الممات، إذ إن هذا أمر لاشك فيه فالأرواح لا تموت، وإنما يقع الموت على الجسد فقط أما الروح فتبقى، وهذا أمر نتفق فيه مع أدعياء تحضير الأرواح، لكن نقطة خلافنا معهم هي قولهم: إن الأرواح تستأنف عملها بعد الموت وهذا لا نقول به؛ لأن الإسلام يقرر أن مجال العمل والكسب هو ما قبل الموت، أي: الحياة الدنيا، أما بعد الموت فقد انتهى كل شيء. إن الموت هو باب ينهي العمل ويفتح باب الجزاء، ولهذا قال ﷺ: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**)(٢). فلا مجال لتكليف، ولا تعرض لامتحان(٣)، ولا فرصة جديدة، وهذه شواهد من القرآن الكريم على ذلك، قال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾(٤).

وقال تعالى أيضًا على لسان الكافر: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا**

---

(١) الكهف /٢٩.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم، جـ٣، ص ١٢٥٥، ط١ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٣) بتصرف عن (ركائز الإيمان) لمحمد الغزالي، ص ٣٤٥.

(٤) فاطر/٣٧.

تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١). وقال علي بن أبي طالب: (ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الدار المقبلة، ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل)(٢).

يتبين من النصوص السابقة أن الروح بعد الموت إما أن تكون في نعيم المؤمن، إذ إن روحه ترقب مجيء الأقارب وهي تسبح كالتنفس، لا تكلفًا، أو في السجن الموحش القاسي مما يدفع قول الروحية الحديثة وأهل تحضير الأرواح(٣).

ومما يدل على هذا ما أورده ابن القيم في كتابه (الروح)، وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيلي على هذا فقال: ذكر ما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء، ويعرفون أقوالهم وأعمالهم، ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: (**ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام**). قال: ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ (**ما من رجل يزور قبر أخيه، فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم**)، وقال: وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به أن النبي ﷺ وآله حضر جنازة رجل، فلما دفن قال: (**سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل**).. وقد صح عن النبي ﷺ أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين(٤).

ثالثًا: أما بالنسبة للتجارب العلمية التي أيدوا فيها مذهبهم، وشهد بها الكثير من الناس، فهذا أمر لا يستطيع أحد أن ينكره، لكننا نختلف معهم في تفسير الروح التي تكلمنا، فهم يقولون: إنها روح الميت نفسه، ونحن نقول: إنها قد تكون روح القرين الجني الذي كان مرافقًا لذلك الميت الذين ادعوا تحضير روحه، قال تعال على لسان

---

(١) المؤمنون/٩٨ - ١٠٠.

(٢) انظر (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، ط، ١٣٨٧ هـ.

(٣) بتصرف عن (ركائز الإيمان) ص ٣٥٠.

(٤) (الروح) لابن القيم، ص ١٢، ط ٢، ١٣٧٦هـ مطبعة محمد علي صبيح.

القرين الجني: ﴿ **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ [(١)]، وقال تعالى:﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ [(٢)]، وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ [(٣)]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[(٤)]، وقال: ﴿**وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ [(٥)].

فكل إنسان على وجه الأرض له شيطان[(٦)] من الجن يسمى قرينًا؛ لأنه لا ينفك عن الإنسان إلا بالموت.. فيكون خلال هذه المدة الطويلة قد عرف كل ما يتعلق بهذا الإنسان، فإذا جاء محضرو الأرواح وحضروا روح زيد من الناس، فإنهم قد يكونون يتكلمون مع القرين الجني لزيد، لا مع زيد نفسه، فيخبرهم عما يسألونه مما كان يعرفه عن زيد في هذه الدنيا. وإن سألوه عن أمور تتعلق بما بعد الموت فلا مجال للحكم عليها بالصدق أو الكذب إلا إذا كانت تخالف النصوص الشرعية. وهذا هو تفسيرنا للحوادث الكثيرة التي جعلها محضرو الأرواح سندًا لفكرهم، أما الصور[(٧)] التي التقطوها للأرواح أثناء عملية التحضير فلا مانع أن تكون صورة الجني الذي يكلمهم، إذ الجن كالملائكة في قدرهم على التشكل.

رابعًا: المتتبع لكلام الروحانية الجديدة يجد أنها قامت على وحدة الوجود، يقول سلفر برش: (فالله والعالم شيء واحد)، وتناسخ الأرواح، وخلود الحياة فلا فناء ولا يوم بعث ولا حساب، ويقول سلفر برش في التوحيد والتعديد: (تذكروا أنكم دائمًا

---

(١) ق/٢٧.

(٢) فصلت/٢٥.

(٣) ق/٢٣.

(٤) الزخرف/٣٦.

(٥) النساء/٣٧.

(٦) (مسند أحمد) ٢٥٧/١ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : (ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين) قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: (نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم).

(٧) نشرها الدكتور رؤوف عبيد في كتابه (الإنسان روح لا جسد).

في الله، وأن الله فيكم)[١]، ويتضمن كلامه التكذيب برسالة محمد ﷺ: إذ يقول: (لا زال المسيح في عالمنا هو أعظم من نعرف، ولم يحدث قبل يومه أو بعده أن تنـزل الإلهام الإلهي إلى الأرض بالقدر الذي نزل عليه، وهو آخر الانبياء والمعلمين). ولهذا نجد الروحية الحديثة تحمل طابعًا مسيحيًا[٢] كالصلاة من أجل الخطايا، ومع هذا نجده يقول بصلب المسيح ويعتبره من أبوين يهوديين، ويؤكد على أن الروحية هي الدين المناسب وأن مناسك الأديان يجب تركها لأنها تفرق.

خامسًا: ومن أحسن ما يرد على أهل تحضير الأرواح ما تحداهم به الشيخ محمد عبده حين طلب منهم أن يحضروا روح المصطفى ﷺ فعجزوا، وقالوا: إن هذه روح عالية لا يمكن إحضارها[٣]. وهذا يثبت أن الروح التي تكلمهم هي روح القرين الجني وهو من الشياطين، إذ الشيطان لا يتمثل بالرسول محمد ﷺ كما ورد في الحديث[٤].

سادسًا: إن تحضير الأرواح لم يثبت أن فعله الأنبياء أو الصحابة[٥]. والخير كل الخير في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع. ولو كان التحضير حقًا لأمر به الشرع وحث عليه. وكثير من المشاكل الاجتماعية التي تقع وضع لها الشرع حلولا عدة، ولو كان التحضير جائزًا وحقًا لكان أفضل حل في هذا المجال.

ثم لو كان التحضير يوافق الشرع لما وجدت المراوغة، وإخلاف الموعد، والرضى بالمنكرات[٦] في مجالس التحضير، مما يدل على أن الأرواح المحضرة هي أرواح

---

(١) (ركائز الإيمان) للغزالي ص ٣٤٣، بتصرف.

(٢) (عقيدة البعث الإسلامي) التهاني نفرة، ص ٩٤، طبع الشركة التونسية للفنون الرقم ٥١٣٩٥.

(٣) (التصوف الإسلامي والإمام الشعراني) طه عبد الباقي سرور، ص ١٥٨، مطبعة نهضة مصر.

(٤) (البخاري مع الفتح) ٣٨٣/١٢ (عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي).

(٥) انظر (تبسيط العقائد الإسلامية) لحسن أيوب بتصرف ط٣، ١٣٩٨، ص ٢٠٢.

(٦) المرجع نفسه.

شياطين الجن. ومما يجعلنا نقول: إن الشرع يرفض تحضير الأرواح أنهم حضروا أرواح الكافرين فوجدوها في نعيم مقيم..

سابعًا: ومما يجعلنا نرفض تحضير الأرواح أن الكثيرين ممن حاولوا الاتصال قد أصيبوا بالجنون والهوس.

ثامنًا: أنه لا سند لهم في الآيات التي ذكروها كأدلة على شرعية التحضير، وإنما هي تأويلات بما يتفق مع مذهبهم.

٨- نظرية الاستذكار الأفلاطونية:

وتقوم هذه النظرية على اعتبار أن الإدراك هو عملية استذكار للمعلومات السابقة(١). وبنيت هذه النظرية على نظرية المثل التي قال أفلاطون بها أيضًا. فهو يعتبر أن العلم الصحيح هو الإدراكات الكلية التي يصل إليها العقل، وأن هذه المعرفة لا بد أن يكون لها مدلول في الخارج، أو لها حقيقة خارجة مستقلة. فنحن ندرك عددًا عظيمًا من الجياد بواسطة الحواس، لكن العقل يقدم لنا صورة واحدة للحصان هي الإدراك الكلي للنوع بصفة عامة. وهذه الصورة هي المقياس لكل الجياد. ففي الذهن تكون الفكرة التي يقيس بها الإنسان الأشياء الخارجية. فكل شيء يحيط بالإنسان له في الذهن صورة مثالية تعتبر مقياسًا لهذا الشيء بل لكل نوعه، فهذه الصورة الموجودة في الذهن تعتبر حقائق، وهي ما يسميها أفلاطون: بالمثل(٢).

ويقول أفلاطون إن نفس الإنسان قبل ولادته كانت مجردة عن الأجساد، وكانت تعيش في عالم المثل تتأمل وتفكر، فلما حلت بالجسم وانغمست في عالم الحس نسيت عالم المثل، فإذا وقع النظر على شيء جميل مثلا تذكرت مثال الجمال الذي كانت تعيش فيه وهكذا. ويرجع أفلاطون الوله، والهيام، والفرح، والعواطف الحادة ونحوها إلى نظرية المثل، حيث إن هذه الأشياء تظهر عند النظر إلى الشيء الجميل(٣).

---

(١) (فلسفتنا) لمحمد باقر الصدر، ط٤، دار الفكر ١٣٩٣هـ، ص٥٥.

(٢) (قصة الفلسفة اليونانية) أحمد أمين، وزكي نجيب محمود ص ١٥٨ - ١٧١، بتصرف.

(٣) (قصة الفلسفة اليونانية) ص ١٥٨ - ١٧١، بتصرف.

يتبين مما سبق أن أفلاطون كان يعتقد أن النفس الإنسانية موجودة بصورة مستقلة عن البدن قبل وجوده، ولما كان وجودها متحررًا من المادة، فقد اتصلت بالمثل العليا (الحقائق المجردة) وعلمتها، ولما هبطت إلى البدن فقدت ما كانت علمته وذهلت عنه، ولكنها تستطيع استذكاره بمجرد الإحساس به، فالتصورات سابقة على الإحساس ولا يقوم الإحساس إلا بعملية استرجاع واستذكار لها(١).

وهذه النظرية منقوضة لقيامها على أساس أن النفس موجودة قبل البدن وهذا لا دليل عليه، بل هو مجرد تخيل ورجم بالغيب.

ومما ينقض النظرية كذلك أن الواقع يقول: إن الإنسان لا يستذكر كل ما تحسه الحواس على عكس كلام النظرية(٢).

وأخيرًا فإنه يمكن إيضاح الإدراك العقلي دون اللجوء إلى نظرية المثل هذه(٣).

٩- نظرية الانتزاع:

وهي النظرية التي قال بها الفلاسفة المسلمون، وهي تقسم التصورات الذهنية إلى قسمين:

(أ) تصورات أولية: وهي الأساس التصوري للذهن البشري، وتتولد هذه التصورات من الإحساس بمحتوياتها.

(ب) تصورات ثانوية: وهي ما يتشكل من التصورات الأولية، وهنا يبدأ دور الابتكار، وهو ما تسميه النظرية بالانتزاع(٤).

١٠- النظرية الإسلامية:

لا نقصد بالنظرية الإسلامية أنها مجرد خيالات ليس لها بالواقع صلة، ولا نقصد بفصل هذا العنوان كعنوان مستقل أنه يتضارب مع العقل والتجربة والحس، بل نعني أن الإسلام له موقفه المستقل، وأن فكرته لا تختلط بغيرها، بل هي متكاملة لا تحتاج

---

(١) (فلسفتنا) ص ٥٧/٥٨، بتصرف.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٨، بتصرف.

(٣) (فلسفتنا) ص ٥٨، بتصرف.

(٤) باختصار عن (فلسفتنا) لمحمد باقر الصدر، ص ٦٦.

إلا ما يكملها. ثم إن تضارب الإسلام ليس مع العقل والتجربة والحس، بل مع النظريات الفكرية التي حجرت على الحقيقة، وأرادت إنقاصها حقها.

إن الحقيقة علم فيجب أن يكون المنهج لإدراكها علمًا، ولا مجال للظن ولا الوهم ولا الحدس(١).

لابد من التفريق بين الدعاوى المتعلقة بالماديات، والدعاوى المتعلقة بالمجردات، والدعاوى المتعلقة بالحقوق والأحوال المدنية. فالدعاوى المتعلقة بالماديات لا تنهض بغير البراهين العلمية التجريبية المحسوسة، أما الدعاوى المتعلقة بالمجردات كالأرقام، والنفس، والمنطق لا تنهض إلا بالبراهين القانونية المسلمة، بينما الدعاوى المتعلقة بالحقوق والأحوال المدنية فهي لا تنهض إلا بالبينات والحجاج(٢).

والغيب يدخل في المجردات، فلابد لإثباته من البراهين المسلمة. والغيب نوعان:

(أ) نوع يصل إليه العقل كوجود الله.

(ب) نوع لا يصل إليه العقل.

أما الأول فلا غبار ولا حرج أمام العقل في أن يصل إلى هذه المغيبات، بل أمره الإسلام بذلك.

وأما النوع الثاني وهو ما يسمى عند العلماء بالسمعيات حيث لا يصل إليها العقل، ولكنها تدرك بالنقل المسموع، وإليك بيانه:

١- **القرآن الكريم**: وهو المصدر الأول لهذه المغيبات حيث أنه قطعي الثبوت، إذ نقل إلينا بالتواتر بطريق لم يعرف له مثيل بين الأمم من جهة المحافظة على السنة والحرص على التحقق، ولم ينقل عن السلف أي اختلاف حول ثبوت النصوص القرآنية، ومن شك في هذا فقد خرج من الإسلام. فلابد من اعتقاد أن القرآن الذي بيننا هو نفسه الذي نزل على محمد رسول الله ﷺ. وعليه فلا مجال لمن آمن بالله إلا أن يؤمن بالقرآن، وكلاهما -أي: الإيمان بالله، والإيمان بالقرآن- مبني على العقل. فإذا تفكر الإنسان في خلق السموات والأرض والمخلوقات، ودقة الصنع وصل إلى

---

(١) (كبرى اليقينيات الكونية) ص ٣٣، بتصرف.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٦، بتصرف.

وجود الله تعالى، وعلم ذلك علم اليقين، ثم أيقن أنه لابد أن تكون ثمة علاقة بين الله وبين الناس[(١)]، وهذه العلاقة تتمثل فيما أنزل الله من كتب، وحتى لا يكون أي كتاب من عند الله فلابد من البحث في سيرة[(٢)] الرسل وصدقهم، وصحة الكتب السماوية من جهة السند ومن جهة المضمون. وكل قارئ للكتب السماوية بإنصاف يجد أن غير القرآن لا يتفق مع العقل، ويستحيل أن يكون قد قاله الله تعالى لما تضمنته تلك الكتب من شرك وخرافات خلطوها مع بقية من الحق لم تحرف عن أصلها. والمحرفون لهذه الكتب هم الأحبار والرهبان الذين فعلوا ذلك لمصالحهم الخاصة. هذا من حيث المضمون، أما السند فلا أحد يقول: إن السند الذي وجد عند المسلمين قد وجد عند غيرهم، بل لا سند[(٣)] عند الأمم الأخرى غير المسلمين إذ، هو فن إسلامي[(٤)] في التحقق من الأخبار، نابع من عقيدة المسلمين وحرصهم على قول الحق، وعدم اتباع الظن، وحبهم لنبيهم ﷺ وكلام ربهم في القرآن أو السنة الصحيحة. ثم إن الإسلام أمر أتباعه بقول الحق، قال تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن**

---

(١) من المعاصرين الذين كتبوا كتبًا متسلسلة في البحث المتدرج لوجود الله، وصدق الرسول وصحة القرآن، والإسلام: الشيخ سعيد حوي في كتبه (الله جل جلاله) (الرسول ﷺ جزءان) (الإسلام ٤ أجزاء).

(٢) قال عبد الحليم خفاجي في كتابه (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون) ط٢، ص٤٥، دار الانتصار ١٣٩٧هـ: (ومن هنا اتجه البحث لدى الأقوام قديمًا اتجاهًا منطقيًا حول التحقق من صدق الرسول المبعوث).

(٣) شاع عند الغربيين ما يسمى بالمنهج الاستردادي أو منهج التوسم، حيث استعملوه في تحقيق الأخبار. ويقوم هذا المنهج على جهد الباحث في تجميع المعلومات، ثم دراستها باستعمال الملاحظة والوجدان والخيال، ثم يستنتج الباحث ما يطمئن إليه. وهذا المنهج منهج استنتاج فكري بل غيبي مجرد، ولا يصلح لأن يوصف بالمنهج العلمي. انظر ص ٥١ (كبرى اليقينيات الكونية). بتصرف.

(٤) وقد فصل علماء الإسلام الطريقة العلمية في تحقيق الأخبار، فكان خلقهم أولا الصدق، وطلبهم في البحث هو رضى الله، فكانت هذه ضوابط وضع الطريقة العلمية. لقد صنفوا المؤلفات الكبيرة في تراجم الرجال حتى إنك تستطيع معرفة دقائق الأمور المتعلقة براوي الحديث.

رَبِّكُمْ﴾ [١]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[٢]، فنهى عن الأخذ من الفاسقين، ومن هنا تشدد أهل الإسلام في موضوع السند حتى إن بعضهم لم يأخذ عمن أكل في الشارع أو كذب على دابته. هذا في مجال الأحاديث فكيف بنصوص القرآن. ومما يدعم الإيمان بالقرآن دراسة سيرة النبي محمد ﷺ، وسلوكه وأخلاقه مع أهله والناس جميعًا، مما يدل على استحالة كون القرآن من كلامه الخاص ﷺ.

وإذا آمن الإنسان بالقرآن فلابد أن يعتبره المصدر الأول في كل شيء، وبخاصة في الأمور الغيبية؛ لأن القرآن كلام من لا يغيب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء وما كان وما سيكون. وإذا آمن العقل بالقرآن فلا حرج عليه أن يمارس نشاطه في المجال الذي حدده الله له إياه، ولا يوصف عندئذ بأنه قصر في البحث؛ لأنه يكون قد اعتمد على اليقين[٣]، ولأن ربه يعلم ما يصلح له العقل ومالا يصلح له.

وإن الذين خالفوا هذه القاعدة وبحثوا فيما وراء الطبيعة أو الغيب لم يصلوا إلى شيء يذكر، بل خيالات وأوهام. وكل إنسان قادر على التخيل، لكن الحق لا يؤخذ في هذا المجال إلا من الحق تبارك وتعالى.

ومن العجيب أن الوحي يخبر[٤] عن كل ما ليس في طاقة البشر معرفته بوسائلهم العلمية[٥]. ولنأخذ قوله تعالى مثالا على ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[٦]، فأنى لوسائل البشر أن تصل إلى هذا المشهد العظيم حين أخذ الله ذرية آدم من ظهره وهم

---

(١) الكهف /٢٩.

(٢) الحجرات/٦.

(٣) (عقيدة المسلم) مطبعة حسان، ص ٢١٦ لمحمد الغزالي.

(٤) قال البوطي في (كبرى اليقينيات) ص ٤٠ : (إنه يفصل القول في الأمور الغيبية ويقطع فيها بحكم مبرم، إذ لا مجال لاجتهاد البشر أن يكمل ويوضح) بتصرف.

(٥) (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون) ص ٤٥.

(٦) الأعراف/١٧٢، انظر (سنن أبي داود) ٤٦٠٤، و(مسند أحمد) ٤/١٣١.

في عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم بسؤاله لهم: ألست بربكم؟ فشهدت الذرية أنه ربها؟

٢- **السنة المتواترة:** وهي ما روي عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير بطريق قطعي، حيث رواها جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب إلى أن دونت السنة حيث لم يبق مجال للشك والتحريف. وهذا النوع من السنة كالقرآن من حيث إنه قطعي الثبوت، وهي من الله أيضًا ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [(١)]، وقال ﷺ: (**أوتيت القرآن ومثله معه**)[(٢)]، أي: السنة. وهذا النوع من السنة يؤخذ به في الأمور الاعتقادية كالقرآن؛ لأنه يفيد القطع واليقين، وتجدر الإشارة إلى أن الأحاديث المتواترة قليلة العدد.

أما السنة التي رواها العدل الضابط عن مثله إلى عصر التدوين فهي ما تسمى بخبر الواحد، ومعظم السنة التي نقلت إلينا هي من هذا القبيل.

والمشهور أن هذا النوع لا يؤخذ به في المسائل الاعتقادية؛ لأنها تبنى على اليقين، بينما خبر الواحد يفيد الظن، وقد نهانا الله عن اتباع الظن قال تعالى: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[(٣)]. قال الشوكاني: (الآحاد، وهو: خبر لا يفيد بنفسه العلم سواء كان لا يفيده أصلا أو يفيده بالقرائن الخارجة عنه، فلا واسطة بين المتواتر والآحاد، وهذا قول الجمهور)[(٤)]. ولا تعارض بين الصحة والظن، فخبر الواحد صحيح ظني يؤخذ به في الأحكام العلمية دون الاعتقادية. يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (الخبر الصحيح الظني لا يعتد

---

(١) النجم/٤.

(٢) في كتاب (سنن الترمذي بشرح ابن العربي) ١٣٣/١٠، (عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله) قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه).

(٣) يونس ٣٦.

(٤) انظر (إرشاد الفحول) ص ٤٨، ط١، طبعة الحلبي ١٣٥٦هـ.

به في بناء العقيدة لأنه يفيد الظن، ونهى القرآن عن اتباع الظن. فالعقيدة لا تبنى إلا على المتواتر)[١].

لكننا نذكر خلافًا للعلماء في هذا الصدد، إذ قال أهل الظاهر وفي إحدى الروايتين عن أحمد: إنه يفيد العلم اليقيني من غير قرينة، وقال النظام[٢]: (لابد من القرينة). قال المدي: (ومنهم من قال: إن خبر الواحد يفيد العلم اليقيني من غير قرينة، وذلك مطرد في كل خبر كما قال أهل الظاهر، وهو مذهب أحمد في إحدى الروايتين عنه، ومنهم من قال: إنه يفيد العلم إذا اقترنت به قرينة كالنظام ومن تبعه، وذهب الباقون إلى أنه لا يفيد العلم اليقيني مطلقًا لا بقرينة ولا بغير قرينة. والمختار حصول العلم بخبرة إذا احتفظت به القرائن)[٣].

وأرى أن خبر الواحد المتعلق بالاعتقاد يؤخذ به إذا كان له قرائن وشواهد، وبخاصة إذا تلقته الأمة بالقبول، وأصبح مشهورًا عندها، كعذاب القبر مثلا لا يصح إنكاره لمجرد أن أحاديثه أحادية، حيث إن عذاب القبر أصبح من الأمور المسلمة عند جماهير المسلمين، ثم إن أحاديثه لها قرائن في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[٤]، ولا يصح الإنكار خوفًا من انتقادات أعداء الإسلام.

وقد وضع علماء الإسلام منهجًا لمعرفة الحق، إذ قالوا في الأمور التي لم يرد فيها نص بدلالة الالتزام والقياس[٥].

أما دلالة الالتزام فهي أن يطرد ترابط بين شيئين بحيث إذا تأملت أحدهما تصورت الآخر، كالنحول يدل على المرض، والعربدة تدل على السكر، وصفير سيارة الإسعاف يدل على أن بداخلها مريضًا، وكرؤيتك لمدينة تعلوها المآذن

---

(١) (كبرى اليقينيات الكونية) ص ٣٨، بتصرف .

(٢) قال في (الأعلام) ٣٦/١ : (إبراهيم بن يسار بن هانئ البصري، أو إسحاق النّظام من أئمة المعتزلة، توفي ٢٣١هـ).

(٣) (الأحكام) للآمدي، بتصرف، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده جـ١ ص ١٣٨.

(٤) إبراهيم ٢٧.

(٥) انظر كبرى اليقينيات الكونية. ص ٤٣ وما بعدها. بتصرف.

فتستنتج أنهم مسلمون، أو تعلوها الصلبان فتستنتج أنهم نصارى. ويؤخذ بدلالة الالتزام بعد الاستقراء. وتنقسم دلالة الالتزام إلى ثلاثة أقسام:

الأول: اللزوم غير البين، وهو ما يتوقف الجزم به على إقامة برهان آخر كالتزام زوايا المثلث لقائمتين.

الثاني: اللزوم البين بالمعنى الأعم، وهو ما يتوقف إدراك اللزوم بين شيئين على تصور كل منهما، كقولك: (الممكن حادث) إذ يتطلب منك هذا أن تكون متصورًا للممكن وللحادث.

الثالث: اللزوم البين بالمعنى الأخص ما يكون تصور اللزوم وحده كافيًا في الجزم، كدلالة السيارة الإسعافية على المريض.

وأقوى هذه الأنواع الثلاثة هو النوع الثالث (اللزوم البين بالمعنى الأخص)، ثم الثاني (اللزوم البين بالمعنى الأعم) أما غير البين فلا يعتبر إلا إذا جاءه برهان آخر.

أما القياس، وهو المعروف عند الأصوليين: حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما، أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما من حكم أو صفة، أو (هو: استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما)[1]. وتقوم فكرة القياس على أساسين، الأساس الأول: قانون العلية، الأساس الثاني: قانون التناسق والنظام في العالم. وينقدح القياس بين هذين المبدأين بواسطة الاستقراء التام.

وبالنسبة لقانون العلية فيجب أن يكون بين العلة والمعلول علاقة مطردة، كلما فقدت العلة فقد المعلول، ويجب أن يكون تأثير العلة يقينًا لا لمحض الصدفة، أو لعامل آخر.

وإذا تدانت العلة عن هذا المستوى فهو قياس ظني لا يقبل في الأحكام الاعتقادية والعقلية، ويقبل في الفقه. فالقياس في الفقه يختلف عن القياس في العقيدة. وكمثال على القياس القطعي قولك: (وجود الناس يدل على الماء)، بينما مثال الظني العكس، أي: قولك: (وجود الماء يدل على وجود الناس).

---

(١) التعريف الأول لأبي بكر الباقلاني والثاني للشوكاني. انظر التعريفين ص ١٩٨ إرشاد الفحول.

إن هذا المنهج في الالتزام والقياس يختلف عن منهج اليونانيين في الاستنتاجات الغيبية والتأملات المجردة.

إن علماء الإسلام لم يقيموا أي حكم عقلي أو عقدي إلا على أساس الحقيقة واليقين، أما الدراسات التاريخية والآثار المكتشفة فلم يبنوا عليها شيئًا، وتركوا الباب فيها مفتوحًا للبحث.

والغيب الذي لم تذكره النصوص في الكتاب والسنة، ولا مجال للعقل للوصول إليه عن طريق دلالة الالتزام والقياس فيبقى مستورًا في علم الله، وهو مما استأثر بعلمه، والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني
خَلْقُ الإنسانِ، وتكوينُه، وصِلَتُه بالغيب

- خَلْقُ الإنسانِ وتكوينه وصلته بالغيب:

الإنسان في نظر الإسلام جسد وروح، وقد ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام، ونبه على أنه جعله إنسانًا في سبع درجات، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة، فقال في موضع: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ (١) إشارة إلى المبدأ الأول، وفي آخر: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ (٢)، إشارة إلى الجمع بين التراب والماء، وفي آخر: ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣) إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير، وفي آخر: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (٤) إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة، وفي آخر ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٥) إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي آخر: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٦) وهو الذي أصلح بأثر من النار فصار كالخزف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة. وعلى هذا المعنى دل بقوله: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار، وأن الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له، ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧)(٨)، إن قبضة الطين هذه تشير إلى مادية الإنسان،

---

(١) آل عمران: ٥٩.
(٢) الأعراف: ١٢.
(٣) الحجر: ٢٨.
(٤) الصافات: ١١.
(٥) الحجر: ٢٨.
(٦) الرحمن: ١٤.
(٧) ص: ٧٢.
(٨) بتصرف عن الراغب الأصفهاني في كتابه (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) تحقيق أحمد حسين كعكو، ص٧ المطبعة العربية، حلب.

بينما النفخة تشير إلى روحانية. وقد فصل رسول الله ﷺ مراحل خلق الإنسان في الحديث عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع: برزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم - أو الرجل - ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**)(١).

وفي الحديث أن الإنسان جسد وروح، وأنه لم يعتبر إنسانًا يكتب له الرزق والأجل والشقاء والسعادة إلا بعد نفخ الروح فيه مما يدل على أن الروح جزء لا يتجزأ من الإنسان، وبدونها لا يطلق عليه لفظ الإنسان، يقول الراغب الأصفهاني:

(ولما كان الإنسان جزأين: بدن محسوس، وروح معقول كان له بحسب كل واحد من الجزأين صورة، فصورته المحسوسة البدنية: انتصاب القامة، وعرض الظفر، وتعري البشرة عن الشعر، والضحك، وصورته المعقولة الروحانية: العقل، والفكر، والروية، والنطق.. والإنسانية هي تعاطي الفعل المختص بالإنسان)(٢).

ويقول محمد قطب: (أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج، وهو بهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة . فالحيوان من جانب والملك ومن جانب - وهما المخلوقان اللذان تجمعهما بالإنسان صلات- كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة .. الإنسان وحده فيما نعلم من الكائنات هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من

---

(١) رواه الشيخان. البخاري مع الفتح ٤٧٧/٧. مسلم مع النووي ٢٠٣٦/٤، نشر إدارات البحوث.

(٢) تفصيل النشأتين ص ٢٥.

اتجاه)[(١)]. ويقول سيد سابق: (الإنسان مركب من جسد وروح فبالجسد يتحرك ويحس، وبالروح يدرك، ويعي، ويفكر، ويعلم، ويريد، ويختار، ويحب، ويكره..)[(٢)].

حقًا إن الإنسان كائن متفرد لازدواج طبيعته. وإن تفرد الإنسان بين بقية المخلوقات أمر يدركه كل من بحث بإنصاف في هذه المخلوقات، وهاهو جوليان هكسي من ألد أعداء الدين، ومن الملحدين يقر بتفرد الإنسان، ويقول في فصل له بعنوان (تفرد الإنسان): (لقد تفرد الإنسان بقدرته على التفكير التصوري واستخدامه للكلام الواضح، وهذه الميزة تؤدي إلى نمو التقاليد. وإن هذا الإنسان قابل للتغيير، ولا مثيل له في طريق تطوره وحتى تاريخ تطوره فريد، ومما جعل الإنسان كائنًا متفردًا نموه البطيء غير المألوف ليصل إلى البلوغ، وقدرته على التفكير المعنوي، ثم استعداده لأداء العملية الجنسية في أي وقت خلافًا لغيره من الكائنات التي لها موسم خاص للإخصاب. وينفرد الإنسان بتباينه نتيجة التكاثر، ثم طول المدة بين البلوغ وتوقف النسل، ثم هذا الذكاء العجيب الذي جعل الفارق كبيرًا بينه وبين الحيوان عقلا. وينفرد الإنسان أيضًا بتعرضه للصراع النفسي وميله للضحك)[(٣)].

ويستفاد مما سبق أن الإنسان جسد وروح، وهذا ينبني عليه إثبات الغيب، فالروح أولا أمر غيبي؛ لأن أحدًا منا لم يرها ولا يعرف كنهها، وكم من الأبحاث الفلسفية التي كتبت حول الروح لبيان حقيقتها ولكن دون جدوى. فإذا كانت الروح ملازمة للإنسان، والروح أمر غيبي، فالغيب أمر واقع لأن الإنسان موجود، وفي وجود الإنسان وجود الروح.

ثم إن هذا التكوين للإنسان يقتضي أن يكون للإنسان أعمال جسدية وأعمال روحانية، وهذه نقطة ثانية في إثبات الغيب، فالإنسان يأكل، ويشرب، ويمارس شهوته الجسدية، وله أعمال روحانية كالحب، والبغض، والعزة، والكرامة،

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية ص ٤١ ٣٩.

(٢) العقائد الإسلامية ص ٢٢٤ دار الكتاب العربي - بيروت.

(٣) بتصرف عن: (الإنسان في العالم الحديث) ترجمة حسن خطاب مكتبة النهضة المصرية، ص ١ - ٣٩.

والضعف، والاستسلام، وقبل ذلك كله العبادة، وإذا أقررنا هذا فالعبادة لا تكون إلا الإيمان بالغيب.

ثم جسدية الإنسان وروحانيته تقتضي وحيًا يخبره عن النظام الجسدي والنظام الروحاني، وبخاصة أنه قد تبين عجز الإنسان في مجال الحق في الروحانيات، فبعضهم يغالي في الروحانية والتمسك بها، وبعضهم يهضمها حقها، والوسط هو النظام الرباني الموحى به من العليم الخبير ﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [(١)] يقول أبو بكر الجزائري: (وضرورة الوحي وحاجة الإنسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الإنسان مكون من روح وجسد، وأن العالم عالمان علوي وسفلي، وأن الحياة حياتان أولى تنقص، وثانية تدوم ولا تنتهي وتبقى أبدًا ولا تنقص.. إن كون الإنسان روحًا يقتضي وحيًا إلهيًا يخبره عن الروح وصفاتها..).

وإن كون الإنسان جسمًا يقتضي كذلك وحيًا يبين له طرق المحافظة على جسمه[(٢)]، ويقول وحيد الدين خان: (إن بحوث علماء النفس قررت الجانب الروحي في الإنسان وسمته بـــ (اللاشعور)، وأن هذا الجانب لا يفنى، وأن الموت لا يأتيه بل يقع على مجرد الجسم المادي، فلابد أن لذلك الجزء الآخر استمرارًا في الحياة وهي الآخرة[(٣)]. وإذا كان الإنسان كائنًا مزدوج الطبيعة وهذا الازدواج جعله كائنًا متفردًا كما سبق، فإن هذا الازدواج في الطبيعة يظهر واضحًا في الإنسان، بل هو متغلغل في كل أعماقه؛ فلا يوجد عمل، ولا شعور، ولا فكر، ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذة المتميزة)[(٤)]. إن جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان نستشعر منها الطبيعة المزدوجة للإنسان المادة والروحية، فإذا أكل الإنسان أو شرب نجد المادية واضحة في هذا، ويستطيع -إن أراد- أن يجعل هذا العمل المادي عملا ماديًا وروحانيًا وذلك بإيمانه بالغيب، فالمسلم مثلا -وهو أول المؤمنين بالغيب- يمارس هذا

---

(١) الملك /١٤.

(٢) عقيدة المؤمن ص ٢٥٧ وما بعدها ط١ بتصرف.

(٣) انظر (الإسلام يتحدى) ط٦ ص ٨٢ دار المختار ١٣٩٦هـــ القاهرة.

(٤) دراسات في علم النفس الإنسانية محمد قطب ص ٤١.

العمل المادي عملا ماديًا وروحانيًا وذلك بإيمانه بالغيب، فالمسلم مثلا -وهو أول المؤمنين بالغيب- يمارس هذا العمل المادي وهو الأكل لكنه يحسب له عملا روحانيًا أيضًا، فنراه يبتدئ طعامه بذكر الله عليه، ويتمسك بآداب الإسلام(١) في الطعام فيأكل مما يليه، ويمضغ الطعام جيدًا، ويمص الماء مصًا ولا يعبه عبًا، ويأكل ولا يملأ بطنه، ويتجنب الشراهة فيحسب له هذا العمل عبادة روحانية، وخاصة أنه ينوي بهذا الطعام أن يتقوى على طاعة الله، ولهذا ورد في الحديث أن الله يكتب للمسلم الصدقة حين يضع اللقمة في في زوجته(٢). وأبعد من هذا، القضية الجنسية (الجماع) عمل شهواني محض، لكنه عند المسلمين عبادة. وقد استغرب الصحابة من هذا فاستفسروا: أيأتي أحدنا شهواته ثم يكون له الأجر، فيجيبهم الرسول ﷺ ما معناه: **(أرأيتم لو وضعها في الحرام أعليه وزر)** قالوا: نعم، قال: **(كذلك لأنه وضعها في الحلال)**(٣).

نعم إن الإنسان قبضة من طين الأرض(٤)، ونفخة من روح الله، قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد (عضلاته، ووشائجه، وأعضائه، وأحشائه)، وتتمثل في مطالب الجسد ونشاطاته وشهواته ودوافعه. وهو كذلك نفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان من وعي، وإدراك، وإرادة، وقيم كالخير، والبر، والرحمة، والتعاون، والإخاء، والمثل العليا، والعمل بها، وهذان اللونان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة.

الحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد فهي ظاهرة أمامنا.. وإن كانت العلوم التي تبحث فيها تقر بعجزها عن استكناه كنهها الحقيقي وتكتفي بوصف مظاهرها.. وإلا فأي سر يمنح الخلية الحياة، فتتحول من مادة ميتة إلى خلية حية؟ ومئات الأسرار وألوف كلها مغلف بستار الغيب.

أما الحقيقة الروحية فهي الخفية. نعم، ولكن أي شيء في الإنسان ليس بخفي؟

---

(١) كالتسمية والأكل مما يليه بثلاثة أصابع وعدم ملء المعدة وغيرها.

(٢) البخاري مع الفتح ٣٦٣/٥.

(٣) رواه مسلم ٦٩٧/٢.

(٤) والعلم يقول إن جسم الإنسان مكون من ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض أكسجين، هيدروجين، كربون، حديد، نحاس، كالسيوم، زرنيخ، صوديوم، بوتاسيوم، مغنسيوم.. إلخ.

إننا لا نستطيع تحديدها ولا قياس أبعادها، ولكننا نرى آثارها، نراها متمثلة في الرغبات والأشواق وغير ذلك. وليس من الضروري أن يمارس الإنسان كل المعاني الروحية ليثبت الروح، وليس ضروريًا أن يمارس كل الناس هذه المعاني لنثبت الروح أيضًا، بل يكفي أن يمارسها بعضهم في أية لحظة، وأي زمان ومكان، بل يكفي أن تكون موجودة في لغة البشر. ومعلوم أن كل اللغات تتضمن الاصطلاحات الدالة على الناحية الروحية(١).

إن كون الإنسان جسدًا وروحًا أمر يدركه كل عاقل منصف؛ لأن الأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وإن أول دليل هو أن ينظر الإنسان إلى نفسه ويتفكر فيها كما قال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (٢). إن الإنسان مخلوق عجيب كما يقول سيد قطب (رحمه الله)(٣)، لكنه يغفل عن قيمته.

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم...﴾(٤)، فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحي بأن هذا الوجود قائم على الحق، ثابت على الناموس(٥).. (إن الإنسان كالمعادن من حيث ما هو جسم، وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى، وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذذ ويتألم، وكالسبع من حيث ما يغضب وكالشيطان من حيث ما يغوي ويضل، وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده، وكاللوح المحفوظ من حيث ما قد جعله الله مجمع الحكم، وكالقلم من حيث ما ثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس(٦)).

فالإنسان ليس هو هذه الأشياء لأن فيه من صفاتها فهو مزيج من الصفات

---

(١) بتصرف عن (دراسة في النفس الإنسانية لمحمد قطب) ص ٤١.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) في ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٣٧٩ دار الشروق ط٧.

(٤) الروم: ٨.

(٥) الظلال جـ٥ ص ٢٧٥٩.

(٦) انظر (تفصيل النشأتين) للراغب ص ١٨.

أخرجت كائنًا جديدًا فريدًا كما سبق في ذكر تفرده.

ومن تفرد الإنسان أن هاتين الطبيعتين -المادية والروحية- ليستا طبيعتين منفصلتين عن بعضهما البعض، بل اختلطتا فكونتا طبيعة جديدة متفردة، فالإنسان ليس روحًا فقط، وليس مادة فقط، ولكنه روح ومادة.

إن النفخة الروحانية سرت في الطين ولم تتحيز في جانب معين منه، سرت فيه من أوله إلى آخره، فأصبح كيانًا جسميًا روحيًا، إنه لم يعد طينًا بحتًا، ولا روحانيًا بحتًا وإنما هما معًا ممتزجين، وهذه حقيقة كبرى لها أثرها في أعمال الناس وتصرفاتهم. فالإنسان يؤدي نشاطه الروحي على طريقته لا على طريقة الملائكة، وهذا يتضح من المثال المتقدم وهو حديث رسول الله ﷺ في الأجر الذي يحوزه المسلم وهو يمارس شهوته الجنسية. إن الإنسان الذي يعرف نفسه لا يمارس الطعام لذات الطعام، بل يستطيع أن يمتنع عن الطعام إذا أراد وهو يمارس نشاطه الروحي، ولكنه لا يتحول إلى ملك لأن طبيعته تأبى ذلك، فالملائكة ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ** ﴾ ، بينما الإنسان يمل ويكسل ساعة وساعة، وفي الحديث نهي عن الاستمرار في قراءة القرآن إذا استعجم فهمه. إن الإنسان ليس كما رأته الحضارة الروحانية الهندوكية، ولا كما رأته الحضارة المادية الأوربية، بل هو كما في الإسلام، وكما خلقه الله، وكما هو مشاهد في واقع الناس(١).

إن خلقة الإنسان وتركيب جسده يدل على الغيب، فها هي الروح قد أرشدتنا إلى أن الغيب حق لا بد منه، ولابد لكل من يسلم بروحانية الإنسان أن يسلم بالغيب. لكن الروح ليست وحدها في تركيب الإنسان الدالة على الغيب، فها هي الحواس تدلنا على ذلك. الإنسان العاقل يقرر الحقيقة القائلة: ليس كل مالا تدركه الحواس غير موجود. فالحواس أولا محدودة، فأنا أرى على مسافة معينة، وأسمع أصواتًا ذات اهتزازات معينة، وهكذا بقية الحواس، وبعد ذلك لا أرى ولا أسمع، فهل يعني هذا أن الشيء الذي لا يصل إليه بصري أنه غير موجود؟!.

إن الإيمان بما وراء الحواس إيمان عن وعي لا عن خرافة، وهذا الإيمان يسميه

---

(١) مع اقتباسات من (دراسات في النفس الإنسانية) ص ٤١.

الإسلام الإيمان بالغيب. إن العلوم تقرر محدودية الحواس، وتقرر وجود الروح، فهاهم يستعملون العلاج النفسي، وهاهي الاختراعات العلمية بل العسكرية تستفيد من محدودية الحواس، فاخترعوا نوعًا من الدبابات يلقي أشعة[1] لا يراها الخصم في الليل وترى هي كل ما حولها. إن كثيرًا من الناس يظن أنه مصاب بمرض معين، ولا يكون إلا حالة نفسية تحل بعلاج نفسي، وحتى إن بعضهم يكون مصابًا فعلا مرض فلا يشفى من العلاج المادي ويعالج بطريقة نفسانية. وأضرب مثالا على ذلك من أوروبا مركز المادية: هناك امرأة في أوروبا تسمى كاترين كولمان تدعي أنها وسيطة أولية تعلم الغيب، هذه المرأة لها قاعة يزورها فيها المرضى والمصابون، وتبدأ بعلاج حالات مما أمامها، وكان في جملة الحاضرين يومًا ما شابة مصابة بمرض جلدي (حب الشباب) ولقد تركت الدمامل الصغيرة في وجهها آثارًا منفرة، وعندما أعيتها الحيلة وطال العلاج لجأت إلى كاترين كولمان التي أشارت بدورها إلى الناحية التي تجلس فيها الفتاة وقالت: هناك في الركن السادس توجد حالة مصابة بمرض جلدي، وسوف يذهب هذا المرض بعد أيام ثلاثة، وعندئذ نظرت الفتاة حولها لترى إن كان أحد غيرها سوف يعلن عن نفسه، وعندما لم تجد أحدًا شعرت بأنها لابد أن تكون هي المقصودة وأن الشفاء لا محالة، وبالفعل تحسنت حالتها بعد أيام ثلاثة[2]، لكن ذلك لم يكن بسبب معجزات كاترين كولمان، بل لأن الفتاة كانت لديها الرغبة الشديدة في الشفاء، واستجابتها القوية للتماثل للشفاء، وهذا يعرفه الأطباء النفسانيون بأنه نوع من الإيحاء النفسي قد يستجيب وقد لا يستجيب، وكل ذلك يتوقف على درجة المريض النفسية. المهم في هذه القضية ليس مناقشة كاترين والرد عليها، ولكن الاستفادة من كون الإنسان يعالج نفسيًا، وهذا يدل على وجود الجانب الروحي في الإنسان. ومما يدعم وجود الروحانية عند الإنسان إصرار الشعوب عبر التاريخ على وجودها، فالفراعنة، والهندوس، والإغريق، والرومان،

---

(١) الأشعة تحت الحمراء.

(٢) انظر (الإنسان الحائر بين العلم والخرافة) د. عبد المحسن صالح.

والفلاسفة القدماء والمحدثون كلهم يؤمن بالروح إلا قلة قليلة اتبعت الشهوة والهوى، ولم تملك الدليل على قناعتها.

إن تقريرنا لتكوين الإنسان، وإنه جسد وروح يجعلنا نؤكد على سيادة الإنسان على المخلوقات وأفضليته. إن الإنسان لم يفضل المخلوقات الأخرى بقوة جسمية، فالفيل والبعير أقوى منه جسمًا، ولا بطول العمر، فالنسر والحية أطول منه عمرًا، ولا بشدة البطش، فالأسد والنمر أشد منه بطشًا، ولا بحسن اللباس، فالطاووس والدراج أحسن منه لباسًا، ولا بالقوة على النكاح، فالحمار والعصفور أكثر منه نكاحًا، ولا بكثرة الذهب والفضة، فالمعادن والجبال أكثر منه ذهبًا وفضة[١]. وما أحسن قول الشاعر:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ... أيدي الكماة عوالي الـــمران

وإنما فضل الإنسان بهذا العقل الذي منحه الله إياه، وبهذه الطبيعة المزدوجة الممتزجة. ومع هذا الوضوح في طبيعة الإنسان وتكوينه إلا أن هناك من انحرف في تصوره للإنسان، فهاهم الدارونيون يرجعون الإنسان إلى قيمة الحيوان، وأنه كأي قط أو فأر. بينما جعله فرويد مخلوقًا شهوانيًا لا يعمل عملا إلا انطلاقًا من شهوته الجنسية، فالجنس أساس العمل حتى إن الولد يرضع من أمه بشهوة جنسية.

وجاء ماركس فاعتبر الإنسان مادة فقط، فالتاريخ هو تاريخ البحث عن الطعام والشراب، وإن أي عمل يقوم به الإنسان لا يكون الدافع وراءه إلا المادة. وها هم الماديون يعرفون الإنسان بأنه كتلة مادية ويزنون الإنسان بميزانهم المادي، فقد رد أحدهم جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه فخرج بالنتائج الآتية:

إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلا وجدنا بدنه يحتوي على المواد الآتية:

قدر من الدهن يكفي لصنع (٧) قطع من الصابون.

قدر من الكربون يكفي لصنع (٧) أقلام رصاص.

قدر من الفوسفور يكفي لصنع رؤوس (١٢٠) عود ثقاب.

---

(١) انظر تفصيل النشأتين للراغب ص ٣٤ بتصرف.

قدر من الملح الماغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات.

قدر من الحديد يكفي عمل مسمار متوسط الحجم منه.

قدر من الجير يكفي لتبييض بيت للدجاج.

قدر من الماء يملأ برميلا سعته عشرة جالونات.

قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره.

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستين قرشًا مصريًا. إن هذه التصورات المنحرفة لا تستند إلى علم، ولا معرفة، ولا واقع، وإنما قام أصحابها بوضع فروض أولية وقناعات مسبقة، ثم صبوا الإنسان في نظرياتهم وفروضهم فخرجت الصورة المشوهة التي ألصقوها بالإنسان.

أما المؤمنون والمنصفون من غيرهم فهم يرون الطبيعة المزدوجة للإنسان مادية وروحية، وقد عرفوا هذا من النظر في أنفسهم، وما حولهم. وبمعرفة الإنسان لنفسه فإنه يستفيد أمورًا كثيرة، إنه يستطيع أن يعرف غيرها من المعارف، والذي يجهل نفسه فسيتخبط في غيرها.

وإن نفس الإنسان مجمع المخلوقات، إذ فيها صفات المخلوقات جميعًا، فمن عرف نفسه فقد عرف المخلوقات. إن من عرف نفسه عرف العالم، ومن عرف العالم صار كالمشاهد لله تعالى، إذ الكون يعكس وجود الله تعالى.

وإذا عرف الإنسان أن جسده يفنى وروحه تبقى، عرف فضل الباقيات ودناءة الفانيات، فيستمسك بالباقيات الصالحات.

ويستطيع الإنسان بمعرفته لنفسه أن يعرف عدوه، إذ أعدى أعدائه نفسه التي بين جنبيه، وبمعرفة النفس تعرف طريقة سوسها، فيستقيم السلوك ويصبح خليفة حقًا.

ومن الناحية الاجتماعية فالذي يعرف نفسه يترك عيوب الناس وذكرها؛ لأنه يرى عيوبهم في نفسه(١).

إن الإنسان لا يصير إنسانًا إلا بالعقل، ولا يكمل العقل إلا بعد الاهتداء بالشرع، ولهذا نفى الله العقل عن الكفار، فالإنسان في الحقيقة هو الذي يعبد الله،

---

(١) بتصرف عن (تفصيل النشأتين) للراغب ص ٧.

قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون**﴾(١)، فكل ما أوجد لفعل فلم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم، ولذلك كثيرًا ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصًا، كقولهم للفرس الرديء: ليس بفرس، وللإنسان: ليس هذا بإنسان، ويقال: فلان لا عين له، ولا أذن له إذا بطل فعل عينه وأذنه، وإن كان شبحهما باقيًا، قال تعالى: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْي**﴾(٢)، فمن رفض العبادة فهو كالحيوان أو دونه، قال تعالى: ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا**﴾ (٣) وقال: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (٤). وأخرج كلامهم عن جملة البيان قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْت إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ (٥) تنبيهًا على أنهم كالطيور التي تمكو وتصدي (التصفير والتصفيق). والكافر لا يمسي إنسانًا إلا مجازًا وعلى سبيل تعارف العامة، كلفظ الغنى في كثرة المال (ليس الغنى بكثرة المال وإنما الغنى غنى النفس)(٦). والله تعالى أعلم(٧).

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) البقرة ١٨.

(٣) الفرقان ٤٤.

(٤) الأنفال ٥٥.

(٥) الأنفال ٣٥.

(٦) البخارى مع الفتح ٢٧١/١١.

(٧) انظر تفصيل النشأتين للراغب ص ٦٨.

الفصل الثالث

الإيمان بالغيب وضرورته

- **الإيمان بالغيب وضرورته:**

الإيمان بالغيب ضرورة من جميع النواحي التي تمس الإنسان، فهو ضرورة من عدة جهات نعرض لأهمها وهي:

١- الضرورة الإنسانية.

٢- الضرورة الاجتماعية.

٣- الضرورة الأخلاقية.

٤- الضرورة السياسية.

٥- الضرورة الاقتصادية.

٦- الضرورة القانونية.

٧- الضرورة العقلية.

٨- الضرورة الفطرية.

ونختم هذه النواحي بما يشملها، ألا وهو: الضرورة الإسلامية.

- **الضرورة الإنسانية:**

ينتشر بين بعض الناس أن الإنسان حيوان ناطق[١]، وهذا غير صحيح؛ لأن بقية الحيوانات ناطقة بطريقتها الخاصة. وعرفه العقاد بأنه الكائن المكلف بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة[٢]، وهذا يعترض عليه بأن الجن مكلفون، فالإنسان ليس هو الكائن الوحيد المكلف، حيث إن خطاب التكليف في الشرع يخاطب الإنس والجن ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ...**﴾[٣]، ومن الجن مؤمنون وكفار، وقد قرأ عليهم الرسول ﷺ القرآن كما سبق.

---

(١) انظر كتاب (الإنسان في القرآن الكريم) للعقاد ص ١٩ دار الهلال.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الأنعام: ١٣٠.

فالتكليف ليس للإنسان وحده. ويمكن تعريفه بأنه: كائن معتقد أو متدين، عنده قابلية للخير والشر، ومكلف بالخلافة في الأرض، حيث قبل حمل الأمانة، حيث إن إسقاط "أل" التعريف تنفي تخصيص الإنسان بهذا، وبذا نرفع الاعتراض الذي وجه للعقاد.

وهذا التعريف لا يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [١]، وقوله: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ**﴾ [٣]، وقوله ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ**﴾ [٤]؛ لأن الإنسان يتدين باختياره، أما تدين وتسبيح الكائنات الأخرى فهو تسخيري، حيث إنها غير مكلفة شرعًا.

وبناء على أن الإنسان كائن متدين، كان الإيمان بالغيب ضرورة بكون الإنسان لا يستقيم وضعه البشري كإنسان إلا بما يلزم الإنسان وهو التدين؛ لأنه العنصر الرئيسي في هذا النوع من المخلوقات. وبدون الإيمان بالغيب تفقد البشرية عنصرًا رئيسيًا من تكوينها يجعلها تقع في التيه، وتتخبط في الضلال.

وقد ادعى بعضهم[٥] استغناء الإنسان عن العقيدة لما وصل إليه من علم وتقدم وفكر. وهذا الادعاء لا يملك حجة واحدة على ذلك، بل هي دعوى باطلة يكذبها الواقع ويبطلها تاريخ البشرية الطويل. فواقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان، وفي أي ظروف، وعلى اختلاف أحواله وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبدًا سواء كانت تلك العقيدة حقًا أو باطلا، صحيحة أو فاسدة. يقول بازماك الإغريقي: (قد وجدت في التاريخ مدنًا بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر، ولكن لم توجد مدن بلا معابد)[٦]. واحتج الذين ادعوا الاستغناء عن العقيدة بأن العقيدة

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) الحديد: ١.

(٣) ص: ١٨.

(٤) سبأ: ١٠.

(٥) كالماديين والعلمانيين.

(٦) انظر عقيدة المؤمن لأبي بكر جابر الجزائري ص ٢٢ ما بعدها ط١.

نشأت لظروف معينة من خوف الإنسان من الطبيعة أما وقد سيطر عليها فلا داعي للعقيدة، لكن المعروف أن هذا الخوف لا يزال مرافقًا للإنسان، وأنه لم يسيطر على الطبيعة حقيقة، ودعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى يبطلها الواقع المرير للشعوب التي تركت الدين.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل عن أمراض مجتمعه: (إن شخصًا من كل ٢٢ شخصًا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين حين وحين.. ففي عام ١٩٣٢م كان عدد المجانين المودعين المستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠، وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠. ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة.. ويوجد في البلاد ٥٠٠,٠٠٠ شخص من ضعاف العقول.. وعدد الأطفال الذين لا يسمح لهم ذكاؤهم بالاستمرار في الدراسة ٤٠٠,٠٠٠ طفل. ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية)[1]. وهذا قليل من كثير[2] مما كتب عن واقع هذه الشعوب مما سببه الغرق في الماديات والبعد عن الدين.

وقد اتضح من الفصل السابق (موقف الناس من الغيب) كيف أن البشرية تصر على الإيمان بالغيب، وإن اختلفت في مضمون هذا الغيب، وهذا الإصرار من الناس عبر الزمان والمكان يؤكد كلامنا حول الضرورة البشرية للإيمان بالغيب.

ويرى الراغب الأصفهاني وجهًا آخر للضرورة البشرية، وهو أن أحكام بنية الإنسان مع كثرة بدائعها وعجائبها، ثم نقصها وهدمها يدل على أن هناك حياة

---

(١) بتصرف عن كتاب (الإنسان ذلك المجهول) ص ١٢٣ - ١٢٤ ترجمة: عادل شفيق.

(٢) قال المودودي (رحمة الله) في (الحجاب) ص ١٠٧ : (بأن البغاء في الغرب هو بمثابة الشغل التجاري الدولي المنظم.. وقد قدروا أن تسعين في المائة من أهالي القطر الأمريكي مبتلون بالأمراض السرية وأن ٢٠٠ ألف مصابون بالزهري، ١٦٠ ألف بالسيلان في كل سنة وأنه يوجد ٦٥٠ مستشفى مختصًا بهذه الامراض وأن (٣٠ - ٤٠) طفلا يموتون بمرض الزهري الموروث، وأن الطلاق والانتحار منتشران) بتصرف.

أخرى، وخاصية النظر في العواقب التي امتاز بها الإنسان لم يجعلها الله فيه إلا لأمر جعله له في العقبى[١].

وإن استمرار الحياة عبر العصور يدل على أن الخالق العظيم يرعى هذه الحياة بما فيها من مخلوقات كثيرة ونظام محكم عجيب، قال تعالى: ﴿ **اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [٢]. فالقيوم هو: القائم بنفسه، القائم على مصالح خلقه، فلولا أنه قيوم السموات والأرض لما استمرت هذه الحياة، فاستمرارها يدل على الغيب، ويجعله ضرورة؛ لأن المشاهد يرى استمرار الحياة ونظامها.

ومن مظاهر الضرورة البشرية تهافت الناس جميعاً ورغبتهم في معرفة المستقبل الذي هو من الغيب، فهذه الرغبة تعبر عما في النفس الإنسانية البشرية من نزوعٍ إلى شيء ضروري لها تحاول معرفته. وما المظاهر المنتشرة بين الشعوب قديمًا وحديثًا إلا دلائل على هذا. وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط مقالا في هذا المجال تحت عنوان (الأوربيون يركضون وراء العرافين والمنجمين، ويبحثون عن المشعوذين والضاربين بالرمل)، وذكرت أن سبب هذا هو رغبتهم في التمسك بكل ما يمكن أن يساعدهم في معرفة المستقبل رغم العلم والحضارة والكمبيوتر، والسبب في ذلك أن التشاؤم لا يزال منتشرًا بينهم، فهم يتخوفون من رؤية هرة سوداء تمر أمامهم من اليسار إلى اليمين؛ لأن هذا -إن وقع- فإنهم يعودون إلى بيوتهم، وبعضهم الآخر ينتظر عودة الهرة من اليمين إلى اليسار ليخرج. أما يوم النحس فهو يوم الجمعة[٣] إن صادف الثالث عشر من الشهر، فكثيرون لا يخرجون، فهم يراقبون اليومية (الروزنامة) من بداية العام. وبعضهم لا يوقع أي عقد تجاري، أو صناعي، أو لا يفتحون الشركات والمؤسسات إلا إذا كان القمر في النصف الأول من عمره لمدة أسبوعين، ولما كان الأمر كذلك، فإن كثيرين لا يزالون يذهبون إلى العرافين الذين يخلطون لهم الورق،

---

(١) بتصرف عن كتاب (تفصيل النشأتين) ص١٠٤ تحقيق أحمد حسين كعكو، المطبعة العربية، حلب.

(٢) البقرة ٢٥٥.

(٣) أفضل الأيام عند المسلمين هو يوم الجمعة.

أو يطلعون لهم في الكرة الزجاجية، أو في فنجان الزيت في محاولة لاستنتاج شيء عن المستقبل. ويقوم بهذه المهمة الغجر الأوربيون منذ مئات السنين، وقد تطور لدى الغجر علم الفراسة وصاروا يتطلعون في الوجوه ويستنتجون الأفكار بحسب ما هو شبه معقول، أو ما يخطر لهم. وصار الآن أحفاد الغجر في المنازل والدارات[١] الواسعة بدلا من عربات الخيل التي كانوا يعيشون وينتقلون فيها. بعضهم أصبح الآن من أصحاب الملايين، وبعضهم صار يخفي ثروته عن دوائر الضريبة تحسبًا من خسارة جزء من الثروة التي يجنيها[٢]...

وهذه الظاهرة موجودة في كل العالم، ففي أوروبا لعب الورق والكرة الزجاجية، وفي آسيا الضرب بالمكعب والرمل، وفي أفريقيا استشارة الأرواح، وفي القدم كانت استشارة النجوم في كل العالم.

ومن المظاهر التي نراها في اندفاع الناس لمعرفة المستقبل تهافتهم على قراءة زاوية الأبراج المنتشرة في الصحف اليومية، وينتشر في بعض البلدان الفتح في الفنجان والكف، وهذه كلها خرافات يرفضها الإسلام، ولكني ذكرتها لأبيّن أن الناس في نفوسهم حب معرفة المستقبل وإن كانوا وقعوا فيما هو خرافة وباطل. فهذا النـــزوع إلى معرفة المستقبل شيء بشري، والمستقبل من الغيب فالبشر يتطلعون إلى الغيب، فهو شيء ضروري لهم، ولولا كونه ضروريًا لما بحثوا عنه.

وحول الضرورة البشرية يقول وحيد الدين: (هناك حاجة إلى الآخرة من عدة جوانب: الجانب النفسي: فإن كان الملحدون يعللون فكرة الآخرة بأن الناس اخترعوها ليعزوا أنفسهم من القهر الدنيوي والموت، فمع هذا فإن هذه الفكرة تدل على شيء، فكما أن الظمأ يدل على الماء، فكذلك التفكير في الآخرة يدل عليها، وهذا المطلب النفسي منذ أقدم العصور لا يمكن رفضه واعتباره باطلا بكل سهولة)[٣].

فهذه النواحي كلها تدل على أن الإيمان بالغيب ضرورة إنسانية.

---

(١) الدارة: كل أرض واسعة بين الجبال، وجمعها دارات ودور، انظر (لسان العرب) جـ ٤ ص ٢٩٦.

(٢) (الشرق الأوسط) عدد ١٦٨، السنة الأولى.

(٣) (الإسلام يتحدى، بتصرف. ص ٨٢، المختار الإسلامي ط٦، وحيد الدين خان.

- **الضرورة الاجتماعية:**

أما ضرورة الإيمان بالغيب من الناحية الاجتماعية فلها صلة بما سبقها، أي: بالضرورة البشرية، حيث أن المجتمع هو مجموعة من البشر.

وتتضح هذه الضرورة حين نعلم أنه منذ فجر التاريخ، وقبل أن يعرف الإنسان كيف يطهو طعامه، وكيف بنى لنفسه بيتًا أحس أنه لابد أن يعبد شيئًا، فكانت العبادة ضرورية أكثر من الطعام و الشراب، وكما يقول ابن القيم: (إن الإنسان جسد وروح، وإن أهمية الروح أكثر من الجسد؛ لأن الجسد لا يعيش بدون روح، فضرورة المحافظة على الروحانيات أولى من المحافظة على الحاجات الجسدية من الطعام والشراب).

من باب الضرورة الاجتماعية كانت العبادة منتشرة في كل المجتمعات، فعبد الإنسان آلهة شتى كما سبق بيانه في (موقف الناس).

وإذا كان المجتمع يريد أن يحافظ على تركيبه ونظامه فلابد له من الإيمان بالغيب، إذ إن الأسرة كشكل من أشكال المجتمع لا تتم الصلة المعقولة بين أفرادها بشكل سليم إلا إذا كان أفرادها يؤمنون بالغيب، وها نحن أمام حقائق وواقع الأسر التي ابتعدت عن الدين واقتربت من المادة، بل عاشت فيها. نجد أن هذه الأسر قد انحلت وفقدت الرباط بين أفرادها، والسبب هو: طغيان التفكير المادي على الأفراد.

ومما يحسدنا عليه الأوروبيون وبعض الشعوب تماسك الأسرة في البلاد الإسلامية، ويرجع هذا بالطبع إلى الدين المغروس في نفوس الناس مما يجعلهم يتماسكون في أسرهم وعائلاهم.

إن الإنسان إذا فقد الإيمان بالغيب فإنه سيصاب بأمراض عديدة. إنه سيصاب بالخوف، وتنـــزل به الآلام النفسية، فلا يجد للحياة طعمًا، ولا يستطيع مع هذا القلق أن يقوم بدوره الرئيسي في إسعاد نفسه ونفع غيره، فتتعطل قواه المادية والأدبية ويصبح شيئًا تافهًا لا قيمة له ولا غناء فيه. إن المؤمن يثق بالله ويتوكل عليه، ولا يستغني عن التوكل الغالم والعامل، ولا الرجل والمرأة، ولا المحكوم ولا الحاكم، ولا الصغير ولا الكبير، لحاجتهم إلى يد قوية حانية تعينهم إذا أقدموا من جانب، وتمسح آلامهم إذا أخفقوا من جانب آخر.

ويتساءل سيد سابق: هل الدين ظاهرة اجتماعية؟ ويقول: (من الظّواهر التي تشاهد في المجتمعات على اختلاف درجاتها في سلم التطور ظاهرة التدين. فالمجتمع البدوي الذي لم يعرف شيئًا عن الحضارة، له معتقداته وعباداته، والمجتمع الحضري الذي بلغ شأوًا في العلم والمدنية له كذلك إيمانه بالغيب وطقوسه الخاصة)(١). ولظهور هذه الظواهر وبروزها رأى العلماء أنه كلما وجد المجتمع وجد معه دين، أيًا كان هذا الدين، وأيًا كان مصدره. ولا يعترض على هذا بأن المجتمع الشيوعي قد أسقط الدين من حسابه؛ لأن مثل هذا المجتمع لم يوجد حقيقة، وإنما وجد هذا التفكير في ذهن أفراد لا في ذهن مجتمع كامل. ولا يمكن أن نطلق كلمة الإلحاد على مجتمع لمجرد أن الحاكمين لهذا المجتمع هم ملحدون. ولأنه قلما تجد مجتمعًا يفكر أفراده بنفس تفكير القائمين عليه، بل الغالب أن المسيطر في واد والأفراد في واد آخر، وهذا ما يمكن أن يقال عن المجتمع الشيوعي. وعليه فلا يمكن أن يأتي يومٌ يعيش الناس فيه من غير دين، بل ستبقى النفس تنــزع إليه لأنه من طبيعتها، ولهذا قرر الإسلام أن الدين فطرة، قال تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**﴾ (٢).

ويرى الشيخ الأفغاني أن الدين ضرورة للمجتمع، حيث إن العقيدة الدينية تكفل للمجتمع الإنساني ثلاثة عناصر، هي: الحياء، الأمانة، الصدق.

ويفيض في شرح هذه العناصر وضرورتها للسلوك المستقيم في المجتمع، ويقول: (إن وهم الدهري لا يجتمع مع فضيلة الأمانة، والصدق، وشرف الهمة، وكمال الرجولة، وذلك لأن الإنسان له شهوات.. وطريقة تحصيلها إما بالسيف والقوة وهذا يفضي إلى سفك الدماء، أو بشرف النفس وهذا محدود بالعرف والعادة، وليس له مقياس عام، أو الحكومة وهي لا تعرف إلا الاعتداءات الواضحة، أما المفاسد المموهة فلا تعرفها، على أن رجالها قد يكونون أيضًا من المفسدين، أو الاعتقاد بمدبر للكون وبأنه مالك الجزاء في الحياة الأبدية، وذلك هو التعين(٣)).

---

(١) كتاب (إسلامنا) للسيد سابق. بتصرف. دار الفكر بيروت، ص ٤٧.

(٢) الروم ٣٠.

(٣) انظر الرد على الدهريين ص٥٧-٦٣ للأفغاني تحقيق محمود أبو رية، دار الكرنك، القاهرة، مطبعة الوحدة.

ويشكو الغربيون من الخطر الذي سيحل بمجتمعهم نتيجة طغيان المادة، وذلك على لسان وزير خارجية أمريكا السابق (فوستر دالاس) إذ يقول: (إن هناك شيئًا ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحالة النفسية. لا يجدر بنا أن نأخذ موقفًا دفاعيًا وأن يتملكنا الذعر. إن ذلك أمر جديد في تاريخنا. إن الأمر لا يتعلق بالماديات فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية. إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا. وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهمًا بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها. فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرًا حتميًا)(١).

وهذا قليل من كثير مما تعاني منه المجتمعات مما يبين أن صلاحها يكون بلازمها وهو الإيمان ليسودها التقدم والرخاء والسعادة.

- **الضرورة الأخلاقية:**

قلنا: إن الإيمان بالغيب ضرورة بشرية، ومن مستلزمات البشر الأخلاق، ولا يوجد على ظهر البسيطة إنسان دون أخلاق مهما كان نوع خلقه، حسنًا كان أو سيئًا، المهم أنه يمتاز بالخلق، وهذا يدل على أن الإنسان كائن يتصف بالخلق، فإن كان تصرفه حسنًا وصف بأنه حسن الخلق، وإن كان العكس وصف أنه سيئ الخلق. وإذا ارتبطت الأخلاق فلابد أن ترتبط بما ارتبط به الإنسان ألا وهو الإيمان بالغيب.

إن الأخلاق يمتاز بها الأفراد وتمتاز بها الشعوب والجماعات، ولكن كما ذكرنا فالأخلاق تتنوع إلى حسن وقبيح. وكمثال على الخلق الفردي الحسن نتذكر الرسول ﷺ، وكخلق أمة نتذكر معاملة صلاح الدين الأيوبي للصليبيين بعد أن انتصر

---

(١) ص ٣٣٧ بتصرف (كتاب حرب أم سلام - فصل حاجتنا الروحية) جون فوستر دالاس. طبع القاهرة.

عليهم(١). بينما نجد فارقًا لا يجعلنا ندع مجالا للمقارنة حين نتذكر إلقاء القنابل الذرية على اليابان من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

إن تقسيم الأخلاق إلى حسن وقبيح لابد أن يعتمد على شيء ثابت يعد ضابطًا للأخلاق البشرية؛ لأن تقسيم الأخلاق واعتبارها حسنة أو قبيحة، لو ترك هذا التقسيم لرغبة الأفراد لاختلف الناس فيما هو حسن وما هو قبيح. ولهذا وجد من يقول بأن العقل هو الذي يحسن ويقبح الأخلاق، ولكن يؤخذ على هذا أن عقول الناس تختلف، وحينئذ نعود إلى دائرة التفرق والاختلاف، ولا نخرج منها إلا إذا أقررنا أن ضابط الأخلاق هو الدين الحق، فالحسن هو ما استحسنه الشرع، والقبيح هو ما استقبحه الشرع، كما يقول الغزالي(٢).

وإذا تصفحنا كتب علماء الأخلاق أيًا كانوا نجد أن القضايا التي طرقوها تعتبر جزءًا بسيطًا من الأخلاق الإسلامية، فالأخلاق التي ذكرها القرآن كثيرة، مثالها قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوَالدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفصَالُهُ في عَامَيْنِ أَن اشْكُرْ لي وَلوَالدَيْكَ إلَيَّ الْمَصيرُوَإن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ به علْمٌ فَلاَ تُطعْهُمَا وَصَاحبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبعْ سَبيلَ مَنْ أَنَابَ إلَيَّ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إنَّهَا إن تَكُ مثْقَالَ حَبَّة مِّنْ خَرْدَل فَتَكُنْ في صَخْرَة أَوْ في السَّمَاوَات أَوْ في الأرض يَأْت بهَا اللهُ إنَّ اللهَ لَطيفٌ خَبيرٌ يَا بُنَيَّ أَقم الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بالْمَعْرُوف وَانْهَ عَن الْمُنْكَر وَاصْبرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلكَ منْ عَزْم الأُمُور وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاس وَلاَ تَمْش في الأرض مَرَحًا إنَّ اللهَ لاَ يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصدْ في مَشْيكَ وَاغْضُضْ من صَوْتكَ إنَّ أَنكَرَ الأَصْوَات**

---

(١) انظر (الكامل في التاريخ) لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد السيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين. مطبعة الاستقامة، القاهرة.

(٢) انظر (المستصفى من علم الأصول) لأبي حامد الغزالي جـ١، ط١، ص ٥٥ المطبعة الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٢٢هـ.

لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا..﴾ الآيات[(٢)].

هذا وإن المتصفح لأي كتاب من كتب الحديث سيجد بابًا خاصًا بالأخلاق بعنوان باب الأدب كما في الصحيحين. والكتب التي تحدثت عن تهذيب النفس من قبل علماء الإسلام مليئة بذلك، ومثالها (مدارج السالكين) لابن القيم. فهو يتكلم عن الصدق، والغيبة، والنميمة، والرضا، ويتكلم عن أخلاق العبد مع ربه، وغيره من الناس، ومع نفسه.

وقد أثنى القرآن على محمد ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [(٣)]. وتقول عائشة -رضي الله عنها- في وصف خلق الرسول ﷺ: (كان خلقه القرآن)[(٤)] وقال ﷺ: (**إن خياركم أحسنكم أخلاقًا**)[(٥)]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولا﴾[(٦)]، وقال ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [(٧)] وقال: ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [(٨)]، وقال عليه الصلاة

(١) لقمان ١٣ - ٢٠.

(٢) الفرقان ٦٣ إلى نهاية السورة.

(٣) القلم ٤.

(٤) انظر مسلم ط١، جـ١ ص ٥١٣، ورواه البيهقي في سننه، جـ٣، ص ٣٠.

(٥) البخاري مع الفتح ٥٦٦/٦ ومسلم ١٨١٠/٤.

(٦) الإسراء ٣٤.

(٧) النساء ١٤٥.

(٨) الحجرات ١٢.

والسلام: (**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**)[١]، وقال ﷺ: (**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**)[٢]، وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (**كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إنائه**)[٣]، وفي الحديث القدسي: (**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي به ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**)[٤].

وعن أبي ذر[٥] قال: قال رسول الله ﷺ (**تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطة الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك عن دلوك في دلو أخيك لك صدقة**)[٦]. وفي مجال الأخلاق مع الله تعالى قال ﷺ معرفًا الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[٧]. وفي الأخلاق مع الغير: (**المسلم أخو المسلم، لا يسلمه،**

---

(١) سنن الدارمي. مطبعة الاعتدال ص ٢٤٧ جـ٢ وانظر الترمذي ط١ جـ٥ ص ٢١٣ قال الترمذي هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الثوري عن أبي حمزة اسمه عبد الله بن جابر وهو شيخ بصري.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ١٥٤/٣ المكتب الإسلامي قال في الفتح الرباني ٢٣٣/١٩ (تخريجه رواه أبو يعلي في مسنده وابن حيان في صحيحه والطبراني في الصغير والبيهقي في السنن والضياء المقدسي في المختارة وعبد بن حميد وسنده حسن).

(٣) المسند للإمام أحمد ٣٤٤/٣ المكتب الإسلامي.

(٤) البخاري الفتح ٤١٧/٤.

(٥) قال في الإصابة جـ٤ ص٦٣ (أبو ذر الغفاري الزاهد المشهور الصادق اللهجة هو جندب ابن جنادة بن سكن من السابقين إلى الإسلام علم بخبر النبوة فجاء يبحث عن الحق فأسلم، وطلب منه الرسول ﷺ أن يعود إلى قومه لكنه صمم أن يجهر بالحق في مكة فذهب للمسجد وصرخ الشهادتين فضربه القوم وكرر الفعل في اليوم التالي وضرب توفي سنة ٣١هـ بالربدة قال عنه الرسول ﷺ يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده).

(٦) سنن الترمذي بشرح ابن العربي جـ٨، ص ١٣٤، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب.

(٧) رواه مسلم ط١ جـ١ ص ٣٧ ورواه البخاري مع الفتح في الطبعة السلفية جـ١ ص ١١٤.

ولا يظلمه..)[١].

وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** [٢]، وقال: **﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾**[٣].

ولتوضيح ارتباط الأخلاق بالإيمان نذكر على سبيل المثال الخلق الإسلامي الأصيل الصدق، قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**[٤]، فقد خاطبهم بصفة الإيمان، وأمرهم بالصدق أن يكونوا من الصادقين، ومفهومه أن لا يكونوا مع الكاذبين، وقال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾**[٥].

فمنطوقه: اصدقوا، ومفهومه: أن لا تقولوا قولا غير سديد، والكذب من القول غير السديد.

وقال تعالى: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** [٦].
جعل الصادق والمصدق للصدق من المتقين. وقد سمي أبو بكر بالصديق حيث إن إيمانه دفعه إلى تصديق ما قيل عن الرسول محمد ﷺ فقال: (إن قالها فقد صدق، إني لأصدقه بأكثر من ذلك، أصدقه بخبر السماء).

وقد وضع الإسلام قواعد أخلاقية للفرد والأسرة والمجتمع والدولة، فأمر الفرد بالتحكم بشهواته، وكظم غيظه، وأمره بالصدق، والرقة، والتواضع، والتحفظ في الأحكام، واجتناب سوء الظن، والثبات والصبر، وأن يكون قدوة حسنة، وأن يكون من المعتدلين في كل شيء، وأن يبادر إلى الصالحات، وينافس في الخيرات، ويستمع للخير ويتبعه، وينتهي عما يؤذي نفسه من انتحار وتشويه للجسم، وتبديل لخلق الله،

---

(١) البخاري مع الفتح جـ٥ ص ٩٧. ومسلم ط١ جـ٤ ص ١٩٨٦.
(٢) الحجرات ١٠.
(٣) الممتحنة ٨.
(٤) التوبة ١١٩.
(٥) الأحزاب ٧٠.
(٦) الزمر ٣٣.

ونهاه عن الكذب والنفاق وتناقض الأعمال والأقوال، والبخل والإسراف، والرياء والاختيال، والكبر والعجب، والتنفخ والتفاخر بالقدرة والعلم، والتعلق بالدنيا، والحسد، والطمع، والأسى على ما مضى، والفرح بما يأتي، ونهاه عن الخمر، والزنا، واللواط، ونهاه عن تعاطي الكسب الحرام.

وفي مجال الأسرة أمر بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما، وبين واجبات وحقوق كل من الزوجين، وبين المحرمات من النساء، وبين واجب الوالدين نحو الأولاد وتربيتهم، وبين أمور الزواج وشروطه، وبين أخلاق المعدد للأزواج في ضرورة العدل، وبين بغض الله للطلاق، وجعل العلاقة الزوجية مبنية على المودة والرحمة وملؤها السكينة، وأمر أن تتحلى المعاشرة بالمعروف، وأن الإمساك مع الكره أفضل من الانفصال، وبين أحكام الناشز، والتحكيم بين الطرفين، وأحكام العدة، والتوارث، والوصية.

وللمجتمع أمر باحترام الجار، وحرم القتل إلا بالحق، وحرم النظر إلى عورات الناس، وحرم السرقة، والغش، والربا، والاختلاس، وكل تملك غير مشروع، وحرم أكل مال اليتيم، وخيانة الأمانة، والظلم، والإيذاء، والتواطؤ على الشر، والدفاع عن الخونة، وأمر بالوفاء بالعهد، والأمانة، ونهى عن الغدر، والخداع، والغش في القضاء، وشهادة الزور، وكتمان الحق، وقول السوء، وسوء معاملة اليتيم، وأمر بإصلاح ذات البين إلى غير ذلك مما لا حصر له. ووضع أخلاقًا للدولة نذكرها في الفقرة التالية لأهميتها.

- الضرورة السياسية:

السياسة مصدر ساس يسوس. وساس الراعي غنمه: ساقها إلى المرعى الخصب الذي ينفعها. وسمي الحاكم سائسًا؛ لأنه من الواجب عليه أن يقود الرعية -وهم الشعب- إلى حيث السلامة والأمان والمصلحة. فالسياسة هي الطريقة التي يتبعها الحاكم ومن يساعده في الحكم ليصل بشعبه وأمته إلى حيث السلامة والمصلحة والقوة والعزة، ويدخل فيها الأساليب التي يتبعها في معاملة الناس والأمم المجاورة والبعيدة. ولكن هذا المفهوم انحرف عند بعض الناس حيث فهموا السياسة بمعنى: الخداع، والدسيسة، ونصب الفخاخ، والإيقاع بالغير، والتجسس على الناس، واتباع

الطرق التي تؤمن سلامة الحاكم وتثبيته على كرسي الحكم بغض النظر عن الأمة وأين تكون مصلحتها، وأين هي العزة والرخاء والسلامة والأمان. وهذا المفهوم الأخير يرفضه الإسلام، ويرفضه الذوق السليم والفطرة الأصلية. إن الإسلام باعتباره دينًا ربانيًا يلزم الحاكم -وهو سائس الأمة- أن يسوسهم بما يرضي الله تعالى، ولا يجوز لهذا الحاكم أن يفرد السياسة عن العقيدة، وإننا نرفض الفصل بين الدين والسياسة كما وقع في أوروبا لأن دين أوربا؛ يختلف عن ديننا، فلا رهبانية ولا كنيسة ولا صكوك غفران، وإنما الحرية في العبادة لله تعالى رب العالمين، ولا واسطة في رفع دعائنا ولا في غفران ذنوبنا، وإنما التوبة الخالصة النصوح بين العبد وربه.

على الحاكم المسلم أن يخط سياسته كما أراد الله، ومن هنا كانت السياسة نابعة في الإسلام من صميم الإيمان، فلا دجل، ولا نفاق، ولا خوف، ولا خداع، ولا حب للمنصب والكرسي، بل كل خطوة يخطوها الحاكم تكون بحثًا عن رضى الله عز وجل، ويحاسب نفسه على كل تقصير ويربط هذا بحساب الله تعالى، فقد ورد عن علي بن أبي طالب قال: رأيت عمر بن الخطاب على قتب يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ[١] من إبل الصدقة أطلبه، فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك، فقال: لا تلمني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمدًا بالنبوة لو أن عناقا[٢] ذهبت بشاطئ الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلي عنها يوم القيامة). وفي رواية ثالثة (لو مات جدي بطرف الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمرا)[٣].

والحاكم لا يفرط في القانون لمصلحة قرابته بل يكون حازمًا في تطبيقه مع الجميع كما قال ﷺ: **(والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**[٤].
والقائد لا يرى له سلطة في ظلم الناس، بل إن أخطأ فعليه أن يعود ويعطي الحق لصاحبه، هذا ما حدث قبيل بدر حين وكز الرسول ﷺ أحد الجنود لأنه لم يسوّ

(١) ندّ: نفر وذهب على وجهه شاردًا.
(٢) عناقًا الأنثى من ولد المعز.
(٣) انظر هذه الروايات في كتاب (تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي) تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي دار إحياء علوم الدين ص ١٨.
(٤) رواه مسلم ط١ جـ٣ ص ١٣١٥، ورواه أحمد ١٦٢/٦ والدرامي ١٧٣/٢.

الصف، فقال الجندي: لقد أوجعتني يا رسول الله، فكشف النبي ﷺ عن بطنه، فأخذ الصحابي يقبل ما انكشف له، وقال: ما أردت أن أستقيد، ولكني مقبل على معركة، وأحببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس جسدي جسدك[١].

ومن أخلاق الحاكم المسلم المشورة مع أصحابه، ولا يستبدُّ برأيه، أن يعدل بين الرعية، يقر النظام، يصون الأموال، الأعراض، يقيم الحدود، ينشر الإسلام، يسمح، بل يطالب ويقرر كلمة الحق على نفسه، وأن يقرب الصالحين ويبعد المفسدين، وأن يكون قدوة في كل شيء،أن يضع الصراط بين عينيه ليقيم العدل كما أراد الله عز وجل. وعليه أن يفرح إذا رد عليه أحد الرعية بعض قوله، ولا يغضب لنفسه بل لله، وأن يعد للأمة الجيش القوي الذي يدفع عن الأمة مكر أعدائها، لا أن يكون مخصصًا لحمايته هو، وأن يحافظ على الأخلاق السالف ذكرها عند الفرد والأسرة والمجتمع، أن لا يوالي أعداء الله، وأن يستأصل الكفر والفساد إلى غير ذلك مما قرره العلماء في هذا المجال.

إن مما يدعو إلى الإيمان بالغيب والالتزام بالدين من الناحية السياسية الأوضاع الحالية، فالسياسة العالمية جعلت الأمم معسكرات وأحلافًا كل يهدد الآخر ويتوعده، مما يجعل الطرف الآخر في حالة قلق وخوف، ثم هذه المناورات العسكرية الضخمة التي تثير الرعب في الناس ضخامة أسلحتها المتطورة تستطيع أن تفتك بالملايين في وقت قصير كما حدث في الحرب العالمية الثانية حين ضربت أمريكا اليابان، فدمرت مدينتي هيروشيما، وناغازاكي.

إن هذه المأساة تدعو الناس إلى الإيمان الذي يمنع الإنسان من حرق وتدمير أخيه الإنسان. وها هو الإنسان غير المؤمن يعد الأسلحة الفتاكة، وكل يوم يظهر سلاح جديد ذري أو عادي، وبخاصة أن دولا محدودة تملك هذا السلاح، بينما معظم دول العالم لا تملكه، فتكون هذه الدول تحت الخطر والتهديد. فالقوي يأكل الضعيف، يأكله باستغلال الثروات، والتهديد بالقوة العسكرية، والسلاح الذري، وبعمل الفوضى الداخلية، والانقلابات العسكرية، والتحريض، وعدم التعامل الاقتصادي.

---

(١) انظر غزوة بدر الكبرى محمد أحمد باشميل ط١ ص ٧٦ وقال اسم الجندي سواد بن غزية.

ومن المظاهر الفاسدة التي برؤيتها يتذكر الإنسان الإيمان وأثره، ما اختص به بعض زعماء دول العالم من الكذب، والدجل، والنفاق، واستغلال شعوبهم.

وكل هذا من أجل مصلحته الخاصة حتى أن بعضهم على استعداد أن يفني العشرات من أمته للمستعمر في سبيل أن يبقى حاكمًا على هذا البلد.

ويذكرنا بالإيمان ما يحدث في الدول الظالمة اليوم من تزوير للانتخابات، والرشوة لأعضاء البرلمانات للتصويت على قانون معين. يدعونا هذا للتمسك بالإيمان بالغيب لأن هذا الإيمان سينتج لنا أفرادًا لا يتصفون بالصفات الحقيرة التي تذهب مصالح الأمة هباء منثورًا. ولا ننسى دور الإعلام في تربية الشعوب ونشر الأفكار والآراء والأخبار، وتزوير الحقائق، ونشر الرذيلة، ونفخ الباطل، وجعل القزم بطلا، واللص أمينًا، والمستسلم منتصرًا، والزاني شريفًا، والمقامر اقتصاديًا، والأرنب أسدًا.

إن الإعلام من أهم الوسائل التي تغير الحقائق، وتحيل الحق باطلا والباطل حقًا؛ ولهذا كان من الضروري جدًا أن يكون المسئولون عن هذا الإعلام مؤمنين بالله، واليوم الآخر، والجنة والنار، وضروري أن يكون هؤلاء مؤمنين بالغيب ليتقوا الله فيما يقولون ويكتبون ويصورون ويعرضون، حتى يكون ذلك كله كما أراد الله وفي طاعة الله تعالى.

- الضرورة الاقتصادية:

ومما يدعونا إلى الإيمان بالغيب ويجعله ضرورة الناحية الاقتصادية، فالسرقة لم تنتشر بشكل ذائع إلا في المجتمعات التي طغت عليها المادة، وإن ما حدث من سرقة في المجتمع الإسلامي مثلا يعد حوادث فردية لا تذكر إذا ما قيست بما يحدث الآن، وبخاصة إذا راعينا المساحة وعدد السكان. ولا ننسى أن جميع النواحي تتكامل، فإذا لم يكن هناك ظلم للأفراد من قبل الدولة، والمجتمع لا ينسى الفرد، فإن هذا الفرد لن ينـــزل إلى مستوى اللصوص السارقين إلا إذا كان يهوى هذا، وبالتالي فإن العقوبة الإلهية الرادعة تكون لتلك الأيدي الماهرة في السرقة فيقطعها الإسلام ولا يبالي بها؛ لأنها لم تُرد البناء بل الهدم. والإسلام لا يقطع اليد إذا امتدت لتأكل ولهذا لم يقطع

عمر في عام المجاعة(١).

وإن اتصاف الأفراد بالاعتدال في كل شيء - ونخص هنا النفقة أمر مطلوب - فالله يقول: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(٢)، ويقول: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾(٣)، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٤). فالإيمان يطلب من صاحبه أن يكون معتدلا في إنفاقه. وهنا نتذكر ما يحدث في المجتمعات من إسراف لا يرضى عنه الله، وبخاصة إذا حدث هذا الإسراف في مجتمع بحاجة إلى كل فلس، وبين أفراده

---

(١) قال ابن القيم في أعلام الموقعين جـ٣ ص ١٣: أسقط عمر القطع في عام المجاعة، قال السعدي حدثنا هارون بن إسماعيل الخراز ثنا علي بن مبارك ثنا يحيى بن أبي كثير حدثني حسان بن زهران أن ابن حدير حدثه عن عمر: قال لانقطع اليد في غدق ولا عام سنة قال السعدي سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال: الغدق النخلة وعام سنة: المجاعة، فقلت لأحمد تقول به؟ فقال أي لعمري قلت إن سرق في مجاعة لا تقطعه؟ قال لا إذ حملته الحاجة على ذلك والناس في مجاعة وشدة قال السعدي وهذا على قضية عمر في غلمان حاطب: ثنا أبو النعمان عارم ثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي حاطب أن غلمة لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل إلى عبد الرحمن بن حاطب فقال له إن غلمان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأقروا على أنفسهم فقال عمر: يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم فلما ولى بهم ردهم عمر ثم قال أما والله لولا إني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم وأيم الله إذا لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك ثم قال يا مزني بكم أريدت منك ناقتك قال أربعمائة قال عمر.. اذهب فاعطه ثمانمائة وذهب أحمد إلى موافقة عمر في الفضلين جميعًا ففي مسائل إسماعيل بن سعيد الشافعي التي شرحها السعدي بكتاب سماه المترجم قال سألت أحمد بن حنبل عن رجل يحمل الثمر من أمامه فقال فيه الثمن مرتين وضرب نكال وقال وكل من درأنا عنه الحد والقود أضعفنا عليه الغرم، وقد وافق أحمد على سقوط القطع في المجاعة الأوزاعي). قال ابن حجر في الفتح جـ٤ ص ٤٨٩ وفي حديث أبي هريرة والجني (حديث الصدقة) إن السارق لا يقطع في المجاعة.

(٢) الإسراء ٢٩.

(٣) الإسراء ٢٧.

(٤) الفرقان ٦٧.

من لا يجد القوت الكافي بينما المسرفون يلقون الطعام في القمامة، ويلقون النقود فيما هو ضروري أو غير ضروري يجارون في ذلك (الموديلات) المتجددة من سيارات وملابس وأثاث. كل هذا لأنهم فرّغوا قلوبهم من حقيقة الإيمان بالغيب وملؤوها بحب الدنيا والشهوات.

وها هو الربا ينتشر في المجتمعات التي ابتعدت عن روح الدين متمثلا هذا الربا في المؤسسات الربوية مثل: البنوك، وأنه لا يشك باحث اقتصادي في ضرر الربا على المجتمع، وأنه من عوامل تفتيته، ونشر الحقد والجريمة بين أفراده، ولهذا هاجم الإسلام الربا، واعتبره جريمة كبرى يحارب الله فاعلها، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[١]، وقال: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾[٢].

وعن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: (**هم سواء**)[٣].

وإن المجتمع الفاضل يستبدل الربا بالصدقة، والقرض الحسن، نظام الزكاة. وقد ثبت في التاريخ كيف عاشت الأمة في رخاء اقتصادي حين تركت الربا والتزمت الاقتصاد الرباني، حتى إن الدولة بحثت عمن يأخذ من أموال الزكاة فلم تجد، فردوها إلى بيت المال[٤]. أضف إلى هذا أن الإسلام ربط بين الإيمان والاقتصاد، فجعل من

---

(١) البقرة ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) البقرة ٢٧٥.

(٣) رواه مسلم ط١ جـ٣ ص ١٢١٩ رواه البخاري بروايات أخرى جـ١٠ ص ٣٧٩، ص ٣٩٣ ورواه الدارمي في السنن جـ٢ ص ٢٤٦ رواه الترمذي جـ٤ ص ٢٠٤.

(٤) أورد ابن الجوزي في كتابه سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٧ مطبعة المؤيد (قال: حدثني ابن زيد بن عمر بن السيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين وبضعا - ثلاثين شهرًا - لا والله مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله قد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس).

تكفير الذنوب ما يساعد على حل المشكلة الاقتصادية، فالسيئة تمحوها الحسنة[1] ومنها الصدقة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء والنار[2]، وكفارات بعض الذنوب الصدقة، كالحلف، ومجامعة الزوجة في نهار رمضان، والظهار.

وإن نظام الحج مليء بما يجعل الناحية الاقتصادية في رخاء لو التزمت الدولة بروح نظام الإسلام، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فعليه دم. وهكذا نجد الإسلام حتى في أخص عباداته يمارس الاقتصاد؛ لأن الإسلام نظام متكامل لا رهبانية، فهو لا يحتاج إلى نظام اقتصادي بشري يكمله؛ لأنه نظام من رب العالمين.

وها نحن في شهر رمضان ننهي صيامنا بإخراج صدقة الفطر ليتمكن الفقير من أن يفرح بالعيد كما يفرح غيره، وبخاصة إذا عرفنا أن العيد للصائمين حيث فرحوا لأنهم أدوا الطاعة، وهذه في مقدور الغني والفقير على السواء، ومع هذا يرى الإسلام أن المظاهر المادية يجب أن يشترك فيها الجميع.

وحض الإسلام الأغنياء على مواساة الفقراء بأموالهم التي اعتبرها مال الله وقد استأمنهم على هذا المال، فليؤدوا الأمانة إلى أهلها كما أراد الله، وليسألن هؤلاء الأغنياء عن أموالهم أين أنفقوها، ومن أين اكتسبوها؟[3] ومع هذا فقد طلب من الفقير أن يتصف بالقناعة والحاجة إلى الله وحده، وأن يبذل جهده ليحصل على رزقه، وألا يشكو لمخلوق، وأن اليد العليا خير من اليد السفلى[4]، ولئن يغدو إلى

---

(١) قال تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام واتبع السيئة الحسنة تمحها رواه أحمد ١٥٣/٥ والدارمي٣٢٣/٣ والترمذي مع ابن العربي ١٥٥/٨ ط١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري بالمعنى ٣١/١٣ ورواه أحمد في المسند ٣٢١/١٣ والنص عند الترمذي ٣٦٢/٧ وابن ماجة ٢١٤.

(٣) انظر سنن الترمذي بشرح ابن العربي ط١ جـ٦ ص ٢٥٣ وقال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حفظه وفي الباب عن أبي برزة وهو حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري جـ٣ ص ٣٣٥ ومسلم ط١ جـ ٧١٧ والدارمي جـ١ ص ٣٨٩.

الجبل فيحتطب فيبيع خير له من أن يسأل الناس[1]. وبهذا يكون المجتمع المؤمن يعيش في رخاء واطمئنان، لا يحقد الفقير على الغني، ولا يظلم الغني الفقير. وبالمقارنة مع المجتمعات الحالية وانقساماتها إلى مجتمع رأسمالي ومجتمع اشتراكي، والنـــزاع القائم والحقد بين الغني والفقير، ومظاهر استغلال الناس من قبل دولهم من كثرة الضرائب، ونهب المسئولين للأموال، ورفاهيتهم بها، والمعيشة المريرة التي يحياها الناس الآخرون من فقر مدقع، وحال لا يرضى عنها الله، كل هذا يجعلنا نقول: إن الإيمان ضرورة للاقتصاد كي يعيش الناس في أمن ورخاء في ظل الحب في الله تعالى.

- الضرورة القانونية:

ومن الأشياء التي تدفعنا للقول بأن الإيمان بالغيب ضرورة، قضية التقنين. فالقانون الذي لابد منه للمجتمع يحتاج إلى من يوجده ويكتبه ويقننه، ولكن البشر عاجزون عن هذا؛ لأن الذي يضع القانون للبشر لابد أن يكون خالقهم؛ لأنه أعلم بما يناسبهم. وإن البشر إذا تولوا هذا الأمر فإنه سيكون الفساد والدمار، حيث إن هذا القانون لن يصلح من حيث التطبيق، وسنجد عند التطبيق أن منافذه واسعة لكل من يريد التلاعب بمصائر الناس، وأن عنصر الأنانية سيتدخل فيه، فكاتب القانون سيضع هذا القانون بحيث لا يتعارض مع مصالحه، ولهذا نجد في القانون الوضعي الملك أو رئيس الجمهورية فوق القانون، ونجد الرشوة في المحاكم القضائية ليتحول الحق باطلا والباطل حقًا، ونجد الظلم والاضطهاد لمجرد أن هذا الشخص قد عارض القانون الذي وضعه شخص مثله راعى مصلحته، ومصلحة عشيرته وطبقته.

وإن من المهازل في القانون الوضعي ما يحدث حين يتعارض قانون مقر مع مصلحة الرئيس، فنجد هذا الرئيس يستبدل القانون بآخر عن طريق البرلمان الذي هو كاللعبة في يده. فلكي نتخلص من هذه العيوب في القانون الوضعي لابد من استبعاده، وتطبيق القانون الإلهي الذي هو من الله عز وجل، حيث لا يخل به اجتهاد الفقهاء؛ لأن اجتهادهم راجع إلى سند في الكتاب أو السنة، وهذا الاجتهاد ضرورة لصلاح الشريعة لكل زمان ومكان لمواجهة ما يستجد من الأحداث والمسائل، فهذا

---

(١) رواه البخاري جـــ ٣ ص ٣٤١.

الاجتهاد لا يخرج الشريعة عن كونها من الله تعالى، فحق التشريع لله وحده من حيث القواعد الكلية، أما التفريع على هذه القواعد فإن العلماء يجتهدون فيما نص فيه من المسائل قياسًا على فرعية مشابهة، أو تطبيقًا لقاعدة الكلية، وهكذا فاجتهاد العلماء لا يخرج بنا عن إطار الشريعة[١]. فالمهم أن يكون التشريع من عند الله، وبهذا نكفل العدالة الاجتماعية والحرية والمساواة أمام القانون، قال عليه الصلاة والسلام: (**والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**)[٢].

ولهذا قصر الله الحكم له، فقال: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٣]. وللمرحوم سيد قطب كلام طيب حول هذا إذ قال: (إن الحكم لا يكون إلا له فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته).

إن الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه وتعالى أولى خصائص الألوهية سواء ادعى هذا الحق فرد، أم طبقة، أم حزب، أم هيئة، أم أمة، أم الناس جميعًا في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرًا بواحًا، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة حتى بحكم هذا النص وحده. وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعًا لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه، فليس من الضروري أن يقول: (ما علمت لكم من إله غيري)، أو يقول لك: (أنا ربكم الأعلى) كما قالها فرعون جهرة. ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية هي الأمة أو مجموع البشرية. والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة

---

(١) انظر كتاب الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر وهي رسالة دكتوراه للطالب الأفغانستاني (سيد محمد موسى) ص ١٥١.

(٢) رواه مسلم ط١ ج٣ ص١٣١٥ رواه أحمد في مسنده ١٦٢/٦ والدارمي في سننه ١٧٣/٢.

(٣) يوسف ٤٠.

الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعية، إنما مصدر الحاكمية هو الله[1].

- الضرورة العقلية:

وكذلك فالإيمان بالغيب ضرورة؛ لأن العقل أدرك من الغيبيات بل رأس الغيبيات وهو وجود الله عز وجل، ثم إن هذا العقل قد أدرك أن الحواس الإنسانية محدودة، وحتى ضمن هذه الحدود نجدها مختلفة بين الناس من حيث النصيب.

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة
أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة

فهناك أعمى البصر وهناك الذي يبصر ولكن بصعوبة، ثم هناك الإنسان العادي، ثم هناك خوارق الناس كزرقاء اليمامة التي ترى -كما يقال- على مسافات بعيدة. ومع هذا تبقى هذه الحاسة محدودة. وكذلك الأذن تسمع على مسافة محدودة واهتزازات صوتية ذات قوة معينة، وهناك من الأصوات -وهي كثيرة- مالا تدركها حاسة السمع. وهكذا بقية الحواس، فهذه الحواس محدودة، وإن عدم إدراك الحاسة لشيء معين لا يعني أن هذا الشيء غير موجود، وبكلمة أخرى إن عدم الإدراك لا يدل على عدم الوجود. ثم إن العقل محدود؛ ولهذا قرر الفيلسوف كانت أن العقل ليس هو الوسيلة لمعرفة الله تعالى، بل الفطرة والشعور الداخلي هو الذي يدرك ذلك.

وكمثال على أن العقل محدود أنني أستطيع أن أدرك بعض المسائل الرياضية، ولكن قد أعجز عن إدراك غيرها لصعوبتها، ولعدم مقدرتي العقلية على الاستمرار في محاولة فهم تلك المسألة، وقد يستطيع غيري أن يتابع الفهم لتلك المسألة ويدركها، ولكنه قد يعجز عن غيرها وهكذا.

ولقد عجز العلماء مع ما يبذلونه من جهد عن تفسير كثير من القضايا العقلية، وقرروا أن لا تفسير لها. مما يدل على محدودية العقل.

وإن هذا العقل الذي منحنا الله إياه يقتضي منا أن نحافظ على الضرورات السابقة (البشرية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، الأخلاقية، القانونية) لما قد تبين

---

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، جـ٤ ص ط٧ دار الشروق - ١٩٩٠.

لنا من مصلحة في تلك الضرورات. فالعقل يقتضي الإيمان بالغيب؛ لأنه ضرورة من الضرورات، ولأن العقل أيضًا لا يملك حجة واحدة تنفي عالم الغيب.

- الضرورة الفطرية:

قال تعالى: ﴿ **فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾(١)، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنه إلا مريم وابنها**)(٢). ولهذا نقول إن الفطرة في الإنسان أن يكون متدينًا، وهذا يعني أنه يؤمن بالغيب. ونلاحظ قول الرسول ﷺ (**كل إنسان**) حيث إن (**كل**) تفيد العموم، أي: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، وهي: الإسلام.

إن الفطرة تميل إلى اكتشاف المجهول، ولهذا يحاول كل إنسان أن يعرف كل ما خبئ عنه، مما يدل على أن هذه الفطرة تسعى وراء الغيب، والسعي وراء الشيء يدل على وجوده، فالفطرة تقتضي أن هذا العالم ليس هو وحده العالم بل هناك ما أخفى عنا، وهو أكبر وأكثر وأوسع، وأن هذه الحياة تعيسة إذا لم يكن هناك حياة أخرى تزيل عنا الأحزان وترفعنا من هذه الأحوال المحزنة في الدنيا إلى حيث الراحة والسعادة والاطمئنان.

- الضرورة الإسلامية:

أما الضرورة الإسلامية، فهي أولا، وقبل كل ما سبق. وما التفصيل السالف إلا بيان لهذه الضرورة الإسلامية، حيث إن الإسلام أكد على الضرورات السابقة جميعًا. فالإسلام جاء يخاطب البشر، ورسول الإسلام يقول عن نفسه في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ (٣). وهذا الإسلام لم يأت ليخاطب أفرادًا منفردين منعزلين عن بعضهم البعض. والإسلام دين اهتم بالأخلاق، حتى إن الرسول ﷺ جعل دعوته

---

(١) الروم ٣٠.

(٢) رواه مسلم ط١ جـ٤ ص ٢٠٤٨.

(٣) الكهف ١١٠.

وكأنها للأخلاق فقط، فقال: (**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[١]. ولما جاء الإسلام استبدل النظام القبلي بنظام الدولة، ورسم لها سياستها الداخلية والخارجية، ووضع لها نظامها الاقتصادي بتفصيل دقيق، وجعل هذا التشريع غير قابل للتبديل لكنه يقبل الاجتهاد، واحترم بذلك العقل ولم يصادم الفطرة. وهكذا نجد الإسلام دائمًا مع الضرورات التي ذكرناها بتفصيل يدعمها، ويؤكد عليها لما لها من أهمية في ميزان الإسلام.

ووجه آخر للضرورة الإسلامية، وهو أن الإيمان بالغيب ركن الإيمان فأركان الإيمان لا تتحقق إلا به، وكذلك الإسلام يثني على المؤمنين بالغيب ثناء ما بعده ثناء، إذ جعل الله تعالى أول صفة من صفات المتقين الإيمان بالغيب، فقال: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [٢]. وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: ذكروا عند عبد الله أصحاب محمد ﷺ وإيمانهم قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينًا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان الغيب.

ثم قرأ: ﴿ **الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ..** ﴾ إلى قوله: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [٣].

وإن إنكار الغيب من صفات الملحدين، فلا ينبغي للمسلم أن يتصف بهذا، بل يجب أن يخالفهم بتقرير الإيمان بالغيب وإلا فإنه لن يعتبر من المسلمين، إذ لا إسلام لمن لا إيمان له.

---

(١) الموطأ لمالك. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٦٤ قال ابن عبد البر هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

(٢) البقرة /٣.

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري الإمام الحافظ أبي عبد الله وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي مكتبة المطبوعات الإسلامية. حلب جـ٢ ص ٢٦٠ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وعبد الله المقصود هو ابن مسعود.

الفصل الرابع

الإيمان بالغيب وأثره في حياة الإنسان

- الإيمان بالغيب وأثره في حياة الإنسان:

كثيرة هي الأشياء التي تؤثر في حياة الإنسان، فهو يتأثر بالمناخ، والتضاريس، والبحار، والشمس، والحروب، والفقر، والغنى.. إلخ، وأهم المؤثرات في نظري، هي: العقيدة، وبخاصة العقيدة الغيبية الإسلامية، حيث نجد مظاهر التأثير أقوى وأعمق وأكثر، وإليك بيانها: نبدأها ببيان التأثير في حياة الفرد، ثم في حياة الجماعة ضاربين الأمثلة لتوضيح الآثار الطيبة التي يتركها الإيمان بالغيب في حياة الإنسان.

- أثر الإيمان بالغيب في حياة الفرد:

الفرد هو الكائن الأول الذي اهتم به الإسلام -الإسلام بمعنى: دين الأنبياء- فقد أكرمه الله وجعله في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً**﴾ (١)، وسخر له ما في السموات ومافي الأرض، وخلق فيه روحًا وأنزل لهذه الروح ما يشبعها من عقائد وروحانيات، فكان الإيمان بالغيب أساس حياة الروح، بل الروح نفسها كانت من الدلالات على الغيب.

والأصل في الفرد الفطرة السليمة، لكنه قد يتعرض لمؤثرات تجعل فوق فطرته حجابًا فلا يتأثر إلا بالشرور، وهذا الحجاب هو الران(٢) الذي قال الله تعالى عنه:

---

(١) البقرة/٣٠.

(٢) وفي الحديث عند مسلم ١/١٢٨، تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء.... "وفي البخاري مع الفتح ٨/٦٩٥" وقال مجاهد ران ثبت الخطايا.. قوله (وقال مجاهد: بل ران ثبت الخطايا) وصلة الفريابي، وروي في فوائد الدياص من طريق عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (بل ران على قلوبهم) ثبتت على قلوبهم الخطايا حتى غمرتها انتهى. والران والرين وهو الصدى على الشيء الصقيل وروى ابن حبان والحاكم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن هو عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي ذكره الله تعالى).

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١). أما الذي لم يقع الران على قلبه فإن نفسه قابلة للتأثر، وهذا هو الفرد الذي نقصده (إنه الفرد السوي لا الشاذ، السليم، لا المختل المشوه المشوش)(٢).

لأن هذا الذي يريد أن يكون كالأنعام حياة وموتًا ليس مقياسًا للبشر.

وأهم النواحي التي تبرز ظاهرة حين تتكلم عن تأثر الفرد بالإيمان بالغيب هي: العقيدة، النفس، الأخلاق. وهذا التقسيم لا يعني انفصال هذه الأشياء عن بعضها البعض، فالعقيدة تحملها النفس، والأخلاق ثمرة الاعتقاد، وإنما القصد بسط الموضوع وتسهيل دراسته. ونفصل القول في الاعتقاد من جهتي القدر والآخرة، وإن كانت كل أركان الإيمان لها دورها في التأثير.

وفي النفس نتوسع في الطمأنينة، والسعادة، وراحة الضمير، وشرح الصدر، والرضا، ثم نفصل كلا من خلق الرحمة، والصبر، والتصدق، والتحرر، والحب، والقوة، والانقياد، والعمل.

- الإيمان بالغيب وأثره في حياة الفرد من جهة عقيدة القدر والأسباب:

القضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الستة التي إذا فقد أحدها فقد القلب إيمانه وأصبح قلبًا كافرًا. ومضمون هذا الركن الإيماني أن الله عز وجل قد سبق في علمه وتقديره وخلقه ما هو كائن، فهو عز وجل يعلم أن فلانًا شقي أو سعيد، وأن فلانًا سيكون له كذا وكذا من الأرزاق والأولاد. ويوضح عقيدة القدر الحديث الصحيح عن عبد الله قال حدثنا: رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع: رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين،**

---

(١) المطففين /١٤.

(٢) بتصرف عن الإيمان والحياة للقرضاوي ص ٥٣ ط٥.

فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)[١]. فما من شيء يحدث في الكون إلا بإرادة الله تعالى وعلمه، فما شاءه كان وما لم يشأ لم يكن. وهذه العقيدة لا تتصادم مع العمل بل تحض عليه، فعن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: **(اعقلها وتوكل)**[٢]. فلابد من بذر الحب والتوكل على الرب. وبذر الحب أو عقل الناقة يسمى بالأسباب، وهذه الأسباب لا تتناقض مع القدر، إلا أن بعض الجهلة[٣] اتخذ من عقيدة القدر دافعًا إلى الكسل والخمول، وقالوا بعد جلوسهم عن العمل للدنيا والآخرة: إن ما كتبه الله سيحدث. وهذا حق أريد به باطل، فما كتبه الله سيقع لا محالة، لكن من منا يعرف ماذا كتب الله له أو عليه؟ الجواب بالطبع: لا أحد. إن عقيدهم هذه تتضمن سوء الظن بالله تعالى، ولهذا لابد من العمل، وفي الطريق يكتشف الإنسان ما كتب الله عليه ومن سار في طريق الخير يسر الله ذلك، ومن أراد الشر يسر له ذلك. وفي الحديث عن ذي اللحية الكلابي أنه قال: يا رسول الله نعمل في أمر مستأنف أو في أمر قد فرغ منه؟ قال: **(لا بل في أمر قد فرغ منه)** قال: ففيم نعمل إذًا؟ قال: **(فكل ميسر لما خلق له)**[٤].

فمن عقيدة القدر تنطلق قوة الإنسان للبناء والتعمير، فهو قوة باعثة حيث تصطبغ النفس بالقوة والشجاعة لصلتها بالله القوي. يقول المودودي رحمه الله: (إن

---

(١) انظر البخاري مع الفتح جـ ١١ ص ٤٧٧ الطبعة السلفية.
وفي مسألة القدر أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب فعند أبي داود (٢/٢٥٦ ط١ الحلبية) قال ابن عمر حين نسال عن القدرية (لو كان لأحدكم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر).

(٢) انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ٩/٣٢٠ ط١ مطبعة الصاوي بمصر.

(٣) في الحديث (يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ثم يقولون الله قدرها علينا الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله) أورده سيد سابق في العقائد الإسلامية ولم أجده.

(٤) قال في مجمع الزوائد ٧/١٩٤ (رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. وفي رواية أخرى عند البزار ورجاله رجال الصحيح).

المتوكل على الله يصبح عزمه مماثلا للحجر في صلابته واستحكامه، ولا تستطيع كل مصائب الدنيا، وآلامها، ومضارها، وخسائرها، وقواها المعادية أن تزل قدمه أو تزحزحه قيد شعرة عما يكون عقد عليه عزيمته)[١].

نفهم مما سبق أن الله تعالى لا يظلم أحدًا كما قال: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**[٢]. والله تعالى لا يجبر أحدًا على عمل الشر، بل إرادة الإنسان ضمن إرادة الله، فالإنسان يكسب ولهذا يحاسب على كسبه، وإذا أجبرت الدولة بعض الناس على عمل الشر ثم عاقبتهم على فعلهم قيل: إنها دولة ظالمة فتنـــزه الله عن ذلك.

فالإحاطة بموضوع القضاء والقدر تنحصر في عدة نقاط.

أولا: علم الله للمستقبل: **﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾**[٣]، **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾**[٤]، **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾**[٥]، **﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾**[٦].

ثانيًا: عدم ظلم الله للبشر **﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[٧].

ثالثًا: كسب واختيار الإنسان **﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾**[٨]، **﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾**[٩].

رابعًا: لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئًا من غير إرادة الله تعالى. قال تعالى: **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾**[١٠]، **﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ**

---

(١) انظر كتابه الإيمان ص ١٣٩وما بعدها. طبع دار الخلافة.
(٢) الأنفال ٥١.
(٣) المزمل ٢٠.
(٤) الأنفال ٢٣.
(٥) الحجر ٢٤.
(٦) الفتح ٢٧.
(٧) النحل ٣٣.
(٨) آل عمران ١٨٢.
(٩) الروم ٤١.
(١٠) الإنسان ٣٠.

أَن يَشَاءَ اللّٰهُ﴾ [(١)].

وقال: ﴿ **مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّٰهُ**﴾ [(٢)].

خامسًا: الدعاء يرد بعض القدر ففي الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله: (**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد العمر إلا البر**)[(٣)].

إن الإيمان يفرض على الإنسان أن يأخذ بمبدأ التوكل، واستخدام الأسباب، والاعتماد على رب الأرباب، وترك التواكل، وهو: القعود بحجة أن المكتوب سيقع، فيبدأ بالعمل والنشاط وينتهي بالصبر والرضى. الإيمان بالقدر يجعل الإنسان لا يحزن على مالم يحصل عليه، ولا يفرح فرحًا غير عادي إذا أصابه خير، قال تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾[(٤)] وعن صهيب[(٥)] قال: قال رسول الله ﷺ: (**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير -وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن- إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**)[(٦)]، وعن عبادة بن الصامت[(٧)] -رضي الله عنه- قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له:**

---

(١) الكهف ٢٤.

(٢) الأنعام ١١١.

(٣) رواه أحمد في المسند جـ ٥ ص ٢٧٧ المكتب الإسلامي.

(٤) الحديد ٢٢ - ٢٣.

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٩٥ ط١. دار إحياء الكتب العربية. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٦) قال في الإصابة جـ٢ ص ٢٦٠ (عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس ابن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري أبو الوليد أحد النقباء بالعقبة. شهد المشاهد كلها. روى كثيرًا من الأحاديث ولي قضاء فلسطين وتوفي بالرملة ٣٤هـ وقال بعضهم توفي ببيت المقدس).

(٧) رواه أبو داود جـ٢ ص ٥٢٨ ط١.

اكتب، فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من مات على غير هذا فليس مني**)[١]. وفي حديث ابن عباس: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**)[٢]. ومع أخذ المسلم بالأسباب إلا أنه لا يعتقد أنها هي الفاعلة الموجدة، بل الله تبارك وتعالى، فكثيرًا ما يبذل الإنسان الأسباب ثم لا تحصل النتائج، فهذا يتزوج لكنه لا ينجب؛ لأن ذلك بيد الله ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾[٣]، وآخر يبذر فلا يخرج الزرع؛ لأن الله ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾[٤] فالأسباب لا تؤدي إلى النتائج المطلوبة، لكن الأخذ بها واجب، وتركها حرام.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الأسباب المشروعة هي من القدر، قال سفيان[٥]: مرة: سألت رسول الله ﷺ: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقيها أترد من قدر الله تبارك وتعالى شيئًا، قال: (**إنها من قدر الله تبارك وتعالى**)[٦]. فالأسباب من القدر، لكن اعتبارها مؤثرة هو المحظور، بل هو شرك في التوحيد. والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، لذا أمر الرسول بالتداوي، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**)[٧]، وكان أفضل المتوكلين ﷺ يلبس لامة الحرب ويمشي في الأسواق للاكتساب.

---

(١) رواه أحمد جـ١ ص ٢٩٣ ط١.

(٢) رواه أحمد جـ١ ص ٢٩٣ ط١.

(٣) الشورى/٥٠.

(٤) الأنعام/٩٦.

(٥) قال سفيان بن عيينة يروي عن أحمد والراوي الأصلي هو أبو خزامة.

(٦) رواه أحمد في المسند جـ٣ ص ١٣٤.

(٧) البخاري مع الفتح جـ١٠ ص ١٣٤.

وقصة عمر مع أبي عبيدة[١] بالنسبة للطاعون معروفة، حين قال له نفر: من قدر الله إلى قدر الله[٢]. وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إليّ شيئًا، ثم سمعته وهو يضرب فخذه وهو يقول: (**وكان الإنسان أكثر شيء جدلا**)[٣].

وقال سهل بن عبد الله: (من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان)[٤]. والتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته فمن عمل على حاله، فلا يتركن سنته. إن عقيدة القدر ترفض الكسل والخمول، بل تحض على العمل الجاد، وعلى المسلم أن يبذل كل ما في وسعه من الأسباب بالإضافة إلى الإتقان لقوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ..** ﴾[٥].

إن القدر يدفع بالقدر، فقدر الجوع يدفع بقدر الأكل، وقدر الظمأ بقدر الري، وقدر المرض بقدر العلاج، وقدر الكسل بقدر النشاط وهكذا..

إن القدر إذا فهم بالفهم الإسلامي الصحيح فإنه سيؤتى ثماره الطيبة الكثيرة والتي سيأتي شرحها تحت باب الأخلاق.

إن الخوض في القدر منهي عنه، فعن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: (**أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا**

---

(١) قال في الأعلام جـ٤ ص ٢١ (عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي الأمير القائد الفاتح. أحد العشرة المبشرين بالجنة. لقبه أمين الامة. ولد بمكة قبل الهجرة بأربعين سنة. ومن السابقين إلى الإسلام شهد المشاهد كلها. توفي بالطاعون عام ١٨هـ ودفن في غور بيسان روى حوالي ١٤ حديثا).

(٢) فتح الباري جـ١٠ ص ١٧٩.

(٣) البخاري ط١ المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٨هـ جـ١ ص ١٣٧.

(٤) مدارج السالكين/دار الكتاب العربي/تحقيق محمد حامد الفقي/جـ٢ ص ١١٦.

(٥) التوبة/٩٤.

في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه)[١].

وفي هذا يقول أبو هريرة حين سئل: (طريق مظلم لا تسلكه)، فكرر عليه السؤال فقال: (بحر عميق لا تمجه، وكرر عليه السؤال فقال سر الله قد خفي عليك فلا تفشه)[٢].

- الإيمان بالغيب وأثره في الفرد من جهة الآخرة:

إن الإيمان بالغيب يجعل للمؤمن تصورًا عن حياة أخرى هي ما تسمى في الاصطلاح الإسلامي بالدار الآخرة، وإن هذا التصور ليس لمجرد الرياضة الذهنية، بل هو تصور ينبني عليه العمل والسلوك، فمن آمن بالآخرة وأحب لقاء الله، فلابد أن يعمل ويسلك الطريق الموصلة إلى ذلك، ومعلوم أن طريق الآخرة تجعل سالكها إنسانًا ربانيًا، فهو بعيد عن الطمع لأنه يطمع في الآخرة، وهو لا يخاف إلا سوء الآخرة، وهو لا يحب الدنيا لأنها[٣] تبعده عن الآخرة، وفي الحديث (**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**..)[٤]. إن المؤمن بالآخرة بعيد عن الجزع؛ لأن مالا يدركه في الدنيا، فهناك فرصة أخرى أوسع وأرحب. إن تصور المؤمن ليس ضيقًا، إن هذه الدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، ولو كانت تساوي شيئًا ما سقى الكافر منها شربة ماء كما في الحديث[٥]. ولهذا نجد أهل الله لا يعبأون بهذه الدنيا، ولا يهتمون لها إلا بقدر ما يعينهم على طاعة الله عز وجل.

إنه كلما مر يوم اقترب الإنسان من آخرته، وما أسرع الوقت في المضي وبخاصة في هذه الأيام، فاليوم يمضي كاللحظة وهكذا ينقضي العمر.

---

(١) رواه الترمذي جـ ٨ ص ٢٩٥ وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي السند صالح المري له غرائب ينفرد بها ولا يتابع عليها.

(٢) العقائد الإسلامية - سيد سابق.

(٣) أما ما يقرب إلى الله من الأمور الدنيوية فلا غبار على محبته كما قال ﷺ (حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة).

(٤) رواه الترمذي جـ ١٢ ص ٣٢.

(٥) الترمذي بشرح ابن العربي ١٨٩/٩ وقال الترمذي هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

إن المؤمن هو أعقل الناس، ولهذا يرفض أن يعيش في الشهوات فترة قصيرة مقابل العيش أحقابًا في جهنم والعذاب، وهذا هو عين الحكمة والبصيرة. إن الموت في نظر المؤمن لا يمثل إلا نقطة انتقال إلى حياة أخرى واسعة رحبة لا نكد فيها ولا تعب ولا نصب، إنها دار الجزاء حيث لا عمل، بينما هذه الدنيا هي دار العمل.ولهذا يرغب المؤمن في الإكثار من الخيرات، ويسابق فيها عله يصل إلى مرتبة عليا في الآخرة. إن الإيمان بالآخرة يعطي الإنسان قوة عجيبة في التضحية والفداء، وقصة الصحابي الذي ألقى التمرات لينتقل إلى الدار التي أحبها (الدار الآخرة) قصة توضح هذا المعنى وتجليه(١)، بينما نجد منكر الآخرة ينكص عن التضحية في كثير من الأحيان، والسبب هو أنه يخاف على أثمن ما يعتقد وجوده، وهو الدنيا، إذ إنه أسقط الآخرة من اعتقاده.

إن الإيمان بالآخرة يثبت دعائم النظام في الدولة، فالمؤمن بالآخرة لا يحتاج إلى شرطي يحرسه ليبقى محافظًا على القانون؛ لأن السلطان الداخلي (الإيمان بالآخرة) يحرسه، وأقرب مثال على ذلك: المؤمنون في الوقت الحاضر، نجد أن المؤمن الحق لا يشرب الخمر رغم أن كثير من الدول لا تعاقب على شربه، وكذا الزنا وغيره من المحرمات، فما الذي دفع المؤمن إلى التمسك سوى الإيمان بالآخرة، وسيأتي بيان الأخلاق تفصيليًا، وإن الإيمان كان وسيظل وراء هذه الأخلاق، وإن إنكار الآخرة يجعل القلوب المنكرة، والنفوس المستكبرة يطبعها طابع الأنانية والتكالب على الدنيا، إذ لا مجال آخر، والوقت ضيق فلابد من الحصول على كل شيء، والقتال والنـــزاع والسلب والنهب إلى غير ذلك من سيئ الأخلاق، قال تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيم وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ (٢) فلا مجتمع صالح ولا دولة مستقرة، ولا نظام سائر إلا إذا بني على الآخرة.

- الإيمان بالغيب وأثره في الطمأنينة، والسعادة، وشرح الصدر، والرضا:

من أهم آثار الإيمان بالغيب على نفسية الفرد، الطمأنينة والسكينة، قال تعالى:

---

(١) حين كان في المعركة وكانت بيده تمرات فقال بخ بخ ما بيني وبين الجنة إلا أن أدخل المعركة فمالي ولهذه التمرات إنها حياة طويلة فألقى التمرات ودخل المعركة فاستشهد.

(٢) الماعون ١-٣.

﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [(٢)]. ورأس الإيمان بالغيب هو الإيمان بالله تعالى، ولا اطمئنان إلا به، قال سبحانه: ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [(٣)].

الأمن طمأنينة تتعلق بكل ما يتوقعه الإنسان ويخاف عليه أو منه، ولا سعادة بدونه. فقد سئل حكيم: ما السرور؟ فقال: هو الأمن، فإني وجدت الخائف لا عيش له[(٤)]. فلا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام، فأهلها في الغرفات آمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنزن.

والاطمئنان والأمان هما قمة الروح المعنوية العالية التي تلزم لكل إنسان وبخاصة أصحاب الدعوات والمهمات، ومنهم الجنود في المعارك، ولهذه نجد في تاريخ الإسلام العسكري روحًا معنوية عالية. وتركز الجيوش في هذه الأيام على الروح المعنوية؛ لأن النصر لا يتتحقق إلا بها. إن الراحة النفسية لا توجد إلا بالإيمان بالغيب، ولهذا يلجأ العلماء النفسانيون[(٥)] إلى الدين كعلاج للأمراض النفسية.

إن الدين يحقق للإنسان الطمأنينة؛ لأنه لا يترك مجالا من المجالات إلا ويبين له القول الحق، فلا يبقى شيء أمام الإنسان دون تفسير، ولا يوجد أي سؤال مما أثاره الفلاسفة واختلفوا فيه إلا ولدى المؤمن إجابة واضحة، مقنعة، صافية يقبلها العقل، فلا حيرة عنده، ولا استفسارات؛ ولهذا لا يصاب المسلم بالقلق. فالمؤمن مستريح النفس، بينما نجد الإلحاد لا يحقق الطمأنينة النفسية لأتباعه؛ لأن كثيرًا من الأشياء لا يفسرها، وإن فسر شيئًا فتفسيره غير معقول فيها. ويقول الشيخ أبو الأعلى المودودي -رحمه الله- عن عقيدة الإلحاد: (إنها لا ترجع ولا تستطيع أن ترجع على الإنسان

---

(١) الأنعام ٨٢.

(٢) قريش ٣، ٤.

(٣) الرعد ٢٨.

(٤) الإيمان والحياة - يوسف القرضاوي - ص ١٤٣.

(٥) اللجوء إلى الدين للعلاج النفسي فقط لا يعتبر وإنما المطلوب هو الاعتقاد والعمل وإن كان هذا لا يتناقض مع قوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

بشيء من الثقة والطمأنينة النفسية، وليس فيها ما يجيب بشيء على كثير من الأسئلة التي تخالج نفس الإنسان عندما يفكر في شئون الحياة ومتعلقاهًا. وفوق هذا فإن الإنسان إذا كانت أخلاقه وأعماله قائمة على هذه العقيدة فإنها لا تخلو من إحدى حالتين: إذا كانت ظروفه غير ملائمة له، فلابد أن تصيبه هذه العقيدة بنوع من اليأس، والقنوط والتقاعس، وخور العزيمة؛ لأنه عندما لا يرى في حياته نتيجة لما يؤدي فيها من أعمال البر، والصلاح، والخير تبرد فيه قوة العمل والجد والنشاط، وهو عندما لا يجد في هذه الحياة من ينصفه من ظالم ينكسر قلبه، وهو عندما يرى الظالمين الفاسقين في هذه الدنيا يترفلون في النعيم ويستمتعون بلذات الحياة ومباهجها، ويحرزون فيها الرقي والتقدم، ويجمعون فيها أسباب البذخ والترف والقوة والبطش، يحسب أن الشر له الحكم النافذ، والكلمة المسموعة في عالم الحياة، وأن ليس فيه الخير إلا ليكون ذلولا مغلوبًا على أمره. وعلى العكس من هذا، فإن ظروفه إذا كانت ملائمة له، جارية على هواه، فإنه لابد أن ينقلب إلى حيوان همّ يعبد هواه لتأثير هذه العقيدة فيه، وإنه إذا بقي محرومًا من لذة من لذات الدنيا ونعمة من نعمها، فلا حياة له بعد هذه الحياة ليتداركها فيها، إذ لا بد أن يظلم الناس ويهضم حقوقهم ويسفك دماءهم)[1].

فالمؤمن لا يقع عليه حقيقة اليأس والقنوط، إذ إن الإيمان رصيد غير منقطع من قوة القلب، وطمأنينة الروح، فلو أغلقت أبواب الدنيا كلها في وجهه فهناك باب الله الذي لا يغلق أمام من يطرقه، وما أجلّ قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾[2]. فأي طمأنينة يعيش فيها المؤمن حين يقول له ربه: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ ؟! إن المؤمن لا يرضى أن يتصف بصفات الكافرين، ومنها اليأس، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ من رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[3]، وهو لا يقنط من رحمة الله؛ لأن الله يقول له ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ**

(١) الإيمان. دار الخلافة للطباعة والنشر ص ٢٢٤.

(٢) البقرة ١٨٦.

(٣) يوسف ٨٧.

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[١].

قال الغزالي: (قال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب) قال الغزالي: (إنما جمع بينهما؛ لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي، والقلب القانط لا يسعى، والمعجب، يعتقد أنه قد سعى والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب، مستحيلة في اعتقاد القانط فمن ههنا جمع بينهما)[٢].

ثم على ماذا يخاف الناس؟ على الأموال، أم الأرواح، أم الأولاد، أم الأرض؟ المؤمن لديه رصيد إيماني يحول دون خوفه على هذه الأشياء، فالرزق والأجل بيد الله قال تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [٣]، وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[٤] وعن أبي حميد الساعدي[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: (**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما خلق له**)[٦]. والموت بيد الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ**﴾[٧] وفي حديث ابن عباس: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**)[٨]. وقد هدد الحجاج سعيد بن جبير[٩] بالقتل، فقال له: (لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلهًا غيرك) فالمؤمن لا يخاف الموت. وقال يحيى بن معاذ: (لا يكره لقاء

---

(١) الزمر ٥٣.
(٢) الأحياء ربع المهلكات انظر القنوط والعجب.
(٣) الذاريات ٢٢.
(٤) الذاريات ٥٨.
(٥) قال في الإصابة ٤٧/٤ صحابي مشهور اسمه عبد الرحمن بن سعد قال الواقدي توفي في آخر خلافة معاوية.
(٦) رواه ابن ماجه ٧٢٥/٢ تحقيق فؤاد عبد الباقي الطبعة الحلبية.
(٧) آل عمران ١٤٥.
(٨) رواه أحمد ٢٩٣/١.
(٩) قال في الأعلام ١٤٥/٣ (سعيد بن جبير الأسدي الكوفي أبو عبد الله تابعي حبشي الأصل ولد عام ٤٥هـ، وتوفي عام ٩٥هـ تتلمذ على عبد الله بن عباس وكان ابن عمر يقول إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه: أتسألوني وفيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيدًا).

الموت إلا مريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب).

وقيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بي الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟.

قال الشاعر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها ... من المترل الفاني إلى المترل الباقي

وقال آخر:

ومـــن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

والأولاد والأموال والأراضي كلها لله، ولهذا كان دعاء التعزية (إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب)(١)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الأرض للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٢).

إن المؤمن لا يعاني مما يعاني منه الناس من اضطرابات نفسية، وقلق، وخوف، وهذا كله انطلاقًا من عقيدة. فعقيدة الإيمان بالله فرغت قلب المؤمن من الخوف من غيره سواء كان بشرًا أو حيوانًا أو مخلوقًا آخر.

لقد اختلف المؤمن عن غيره لاختلاف العقيدة والميزان. فغير المؤمن كل همه الدنيا، والمال، والمنصب، والجاه والسمعة، وهذه كلها وما شابهها لا قيمة لها عند المؤمن؛ لأن همه الأكبر رضى ربه عز وجل.

إن سعادة المؤمن ليس لها مثيل، يقول أحد المؤمنين: (نحن في سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها)(٣)، وقيل لعبد الله بن المبارك(٤): (من الملوك؟ قال: الزهاد، قالوا: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون بدينهم. قالوا: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذين

---

(١) البخاري مع فتح الباري جـ٣ ص ١٥١.

(٢) الأعراف ١٢٨.

(٣) انظر (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي ص ٨١.

(٤) قال في الأعلام جـ ٤ ص ٢٥٦ (عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء التميمي المروزي أبو عبد الرحمن الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر صاحب التصانيف. ولد عام ١١٨هـ وتوفي بهيث على شاطئ الفرات عام ١٨١هـ. له كتاب في الجهاد).

يصلحون دنيا غيرهم بتضييع دينهم)[١].

ومما يطمئن المسلم أنه يعلم أن هذه الدنيا ليست النهاية، والجزاء ليس على هذه الأرض بل إلى الله المنتهى. إن أعصاب الإنسان بحاجة إلى الراحة، ولا راحة إلا بالإيمان، وكم من شخص فقد السيطرة على أعصابه فجن، أو انتحر، أو انفجر دماغه، أو أصيب بمرض القلب أو غيره، إن المؤمن مرتاح من هذا كله.

إن المؤمن مشغول بما يسعده ويطمئنه، إنه مشغول بالدعوة إلى الله، وكم سيكون فرحه حين يهتدي إنسان على يديه فيشعر بسعادة لا حد لها، إذ يتذكر قول نبيه ﷺ: **(لئن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم)**[٢]. ومما يجلب السعادة للمسلم أنه يؤمن بالقدر كما سبق بيانه فلا يحزن على نقص، ولا يبطر لزيادة في الماديات.

إن الثقة بالله تجعل المؤمن مطمئنًا إلى ربه، فهذا من أهم عوامل السكن النفسي. إن المؤمن يشعر بالسكينة؛ لأن طريقه وغايته واضحة. وفرق بينه وبين ضال لا يدري لماذا يسير، وإلى أين المصير فهو يمشي إلى غير غاية، قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٣]. إن السكينة لا تكون إلا من الله، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾[٤]. إنها السكينة التي عمرت قلب رسول ﷺ يوم الهجرة ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[٥]، وفي المعركة تنـزل السكينة ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٦].

إن الناس جميعًا يحلمون بالسعادة، الفيلسوف في قمة تفكيره، العامي في سذاجته، الملك في قصره، الصعلوك في كوخه، كلهم يحلمون بالسعادة ويتمنونها،

---

(١) انظر "العقيدة وأثرها في بناء الجيل" ص ١٩٥ ط١ للدكتور عبد الله عزام.

(٢) انظر البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص ١١١.

(٣) الملك/٢٢.

(٤) الفتح/٤.

(٥) التوبة/٤٠.

(٦) الفتح/٢٦.

لكنهم لا يصلون جميعًا إليها، بل الأكثر يسلك طريقًا يبعده عن السعادة. لقد وقفوا أمام طرق، على كل طريق لافتة إحداها الإيمان، وأخرى المال، وثالثة المنصب، ورابعة الأولاد[١] وهكذا، فسلك كل قسم طريقًا و لم يبق لطريق الإيمان إلا قلة قليلة، ومع هذا فلن يصل الآخرون الكثيرون إلى السعادة؛ لأنهم لم يثقوا بربهم الذي خلقهم وخلق السعادة. إن الناس حقيقة لا يبحثون عن الشقاء، ولكنهم يهمون ويظنون ويستسلمون لطرق الهوى قال ﷺ: (**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**)[٢]. إن السعادة ليست بالمال، وإن كان المال يساعد على السعادة بشرط الإيمان، ولهذا قال تعالى عن غير المؤمنين: ﴿ **وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ** ﴾ [٣]. وكثير من الأغنياء يعيشون في تعاسة من أمرهم. إنهم مشغولون بعد أموالهم؟ ماذا سيصنعون بهذا المال؟ إنهم يخافون اللصوص؟ وقد يكونون جمعوه من الحرام. قد يصاب بعدم القناعة، فعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن له واديًا آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب**)[٤]. ليس للغني معدة أكبر من معدة الفقير بل على العكس، إن الغني يضع على مائدته مالذ وطاب، ولكن إذا حضر الأكل فإنه يتناول من طعامه كما تتناول الدجاجة من طعامها نقرًا ولسعًا، ثم يلقي أكثر الطعام في القاذورات، بينما الفقير إذا حضر أمامه صحن واحد بعد تعب وكد فإنه يتناوله، فلا يبقي فيه؛ لأنه أكل بتعب وعرق جبين[٥].

إن الإيمان لا يرفض المال، ولا الدنيا، ولكنه يعتبرها بعد الإيمان، وبدون إيمان لا تساوي شيئًا، إن المؤمن يرفض أن يستبدل بدينه الدنيا كلها؛ لأن إيمانه أثمن من ذلك

---

(١) المقصود بالمال والمنصب والأولاد التي تبعد عن طاعة الله، أما التي تقرب فهذه تدخل في الإيمان.

(٢) رواه مسلم ط١ جـ٤ ص ٢١٧٤.

(٣) التوبة/٨٥.

(٤) رواه مسلم ط١ جـ٢ ص ٧٢٥.

(٥) وماذا عن نوم الغني، إنه مصاب بالأرق بينما الفقير يرتمي على فراشه من التعب لا يدري متى نام. وبالنسبة للجنس فهل بالمال سيصبح للغني طاقة جنسية أكثر وأقوى؟ لا.

بل لا وجه للمقارنة. أما إذا حضر الإيمان فلا مانع أن يأخذ الإنسان من الدنيا ما يساعده على الطاعة والاستقامة، ولهذا ورد في الحديث الذي يرويه نافع بن عبد الحرث قال: قال رسول الله ﷺ: (**من سعادة المرء الجار الصالح، والمركب الهنئ، والمسكن الواسع**)(١).

إذن فالمال إن لم يكن لفعل الخير وطاعة المولى فلا فائدة منه سوى تعب البال؛ لأن السعادة ليست فيه ولا في المنصب الذي يأتي بالمال، ولا الجاه فماذا يستفيد الإنسان من حصوله على الجاه؟ إنه مجرد الذكر. وأي نوع من الذكر؟ قد يكون ذكرًا بالشر. أما المؤمن فله ذكر بين الناس، ولكنه لا بماله ولا بمنصبه بل بإيمانه، وكم من أصحاب الجاه والمال والسلطان مكروهون بين الناس وما أكثرهم؟ وكم من مستور الحال يعيش عزيزًا بين الناس يذكره من يعرفه بالخير ويجلونه ويحترمونه.

إن السعادة شيء في النفس لا يوجدها إلا الإيمان حيث يجلب لها الطمأنينة والسكينة، يقول أحد الصالحين: (إنه لتمر عليّ ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة بمثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذن في عيش طيب)(٢).

إن شجرة السعادة، ماؤها، وغذاؤها، وهواؤها، وضياؤها الإيمان. وكثيرون هم الحيارى في هذه الدنيا حيث بعدوا عن الإيمان، ويقول أحد صرعى الاضطراب النفسي: (إنني أعيش في خوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، ولا الثروة أعطتني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها، ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المرأة، ولا السهرات الحمراء، ضقت بكل شيء بعد أن جربت كل شيء...)(٣) وعبر بعضهم عن صرعى الفلسفة، فقال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها   وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر   على ذقن أو قارعًا سن نادم(٤)

---

(١) رواه أحمد في مسنده/جـ٣ ص ٤٠٧.
(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم جـ١ ص ١٥٢.
(٣) انظر "الإيمان والحياة" للدكتور القرضاوي ص ٤٣.
(٤) المرجع نفسه ص ٩٧.

وقال أحدهم معبرًا عن قلقه وعدم اطمئنانه:

كريشة في مهب الريح طائرة   لا تستقر على حال من القلق

وقال ابن الشبل البغدادي:

بربك أيها الفلك المدار   أقصد ذا المسير أم اضطرار
فماذا الامتنان على وجود   لغير الموجدين به الخيار
وكانت أنعما لو أن كونًا   تخير قلبه أو نستشار

وقال:

قبح الله لذة لأذانا   نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألف الفقد   فإيجادنا علينا بلاء

وقال عمر الخيام[1]:

لبست ثوب العمر لم أستشر   وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ولم   أدر لماذا جئت؟ أين المفر؟

وقال أبو العلاء المعري[2]:

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة   أي المعاني بأهل الأرض مقصود
لم يعطنا العلم أخبارًا يجيء بها   نقل ولا كوكب في الأرض مرصود

ويقول:

أصبحت في يومي أسائل من غدي   متحيرًا عن حاله متندسا

---

(١) قال في الأعلام جـ٥ ص ١٩٤ (عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري أبو الفتح شاعر فيلسوف فارسي ولد في نيسابور وتوفي فيها عام ٥١٥هـ كان عالمًا بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ. له مصنفات منها الرباعيات. قدح الناس في زمنه في عقيدته).

(٢) قال في الأعلام جـ١ ص ١٥٠ (أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري شاعر فليسوف ولد عام ٣٦٣هـ بمعرة النعمان وتوفي فيها عام ٤٤٩هـ. أصيب بالجدري فعمي وعمره أربع سنوات. له كتاب (لزوم مالا يلزم، وسقط الزند وغيرهما).

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهاد أن أظن وأحدسا(١)

ويقول:

سألتموني فأعيتني إجابتكم من ادعى أنه دارٍ فقد كذبا

ويمتنع عن الزواج حتى لا يحطم أولاده، ويقول:

وأرحت أولادي فهم في نعمة العدم التي فضلت نعيم العاجل

وحديثًا قال إيليا أبو ماضي في قصيدته التي سماها الطلاسم:

جئت لا أعلم من أين جئت ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت(٢)

إن المؤمن بعيد عن هذه الأمراض، بل هو في سعادة مستمرة، حيث إنه في معية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٣). وقد قرر المختصون في الأمراض النفسية أن الشعور بالوحدة قد يؤثر آثارًا عضوية على جسم المصاب وحركته وتصرفاته. يقول د. موريس جوبتهيل مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك: (إن مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية)، وقرر هؤلاء الأطباء أن أفضل علاج هو اللجوء إلى الله، يقول د. فرانك لوباخ العالم النفسي الألماني: (مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك، فاعلم أنك لست بمفردك أبدًا، فإذا كنت على جانب من الطريق فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر)(٤). ويقول الكسيس كاريل: (إن الصلاة التي تعقبها تأثيرات عضوية ذات طبيعة خاصة فهي أولا لا تهتم بالذات، إذ يقدم الإنسان نفسه فيها لله..)(٥)، ويقول:

---

(١) انظر الأشعار السابقة ص ٩٨ وما بعدها في كتاب "الإيمان والحياة" للقرضاوي.

(٢) انظر ص ١٩٣ كتاب (إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر. شعر ودراسة للشاعر الفقيد زهير ميرزا ط٢. ١٨٨٣م.

(٣) الحديد /٤.

(٤) ونحن إذ نستشهد بهذا الكلام لتأكيد ما نريد فإننا نلحظ عدم وضوح الفكرة الإلهية عندهم ففي كلام هذا الألماني نجد تشبيه الخالق بالمخلوق.

(٥) انظر "الإنسان ذلك المجهول" للدكتور ألكسيس كاريل. تعريب شفيق أسعد فريد مؤسسة المعارف ص ١٧١.

(أما فكرتنا الحالية عن تأثير الصلاة على الأمراض الباثولوجية فقائمة على ملاحظة المرضى الذين شفوا فورًا تقريبًا من الأمراض المختلفة)[١]. ويقول ديل كارينجي: (إن للصلاة فوائد ثلاث:

(أ) تعين على التعبيرات بأمانة ودقة عما يشغل النفس.

(ب) لا تشعر بالوحدة.

(ج) حافز إلى العمل[٢].

وهذا يذكرنا بقوله ﷺ: **(يا بلال أرحنا بالصلاة)**[٣]، وقوله: **(وجعل قرة عيني في الصلاة)**[٤].

إن الحزن قد يصيب المؤمن، ولهذا نهى الله تعالى عن الحزن على الكافرين بقوله: ﴿ **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾[٥]، وقوله: ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** ﴾[٦]، لكن حزنه لغيره لا لنفسه ولآخرته لا لدنياه، وإن حزن للدنيا فهو عارض، أما المرتاب فهو في مأتم مستمر[٧]. وفي الحديث: **(من سعادة ابن آدم استخارته الله، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله عز وجل)**[٨].

الراحة لا تكون إلا بالإيمان، وبدونه يكون القلق والاضطراب، وها نحن نجد أهل السويد في رغد من العيش المادي لا نظير له: دخل فردي عال، تأمينات صحية واجتماعية، تعليم مجاني، لكل مواطن معاش وسكن، إعانات للأمهات، تنفق الضرائب في

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٢.

(٢) انظر ص ٣٠١ (دع القلق وابدأ بالحياة). لديل كارينجي: ولد عام ١٨٨٨م في ولاية ميسوري بأمريكا وهو من الأثرياء.

(٣) رواه أحمد ٥/٣٦٤.

(٤) رواه أحمد ٣/١٢٨.

(٥) النحل /١٥٧.

(٦) يونس /٦٥.

(٧) انظر الإيمان والحياة ص ١٢٢.

(٨) رواه أحمد في المسند جـ١ ص ١٦٨.

المساعدات، لكنهم لا يعيشون في سعادة، بل قلق، واضطراب، وضيق، وتوتر، وشكوى، وسخط، وتبرم، وانتحار، وكذلك أمريكا.

ولو استعرضنا الموضوعات(١) التي تبحثها كتب الأمراض النفسية لوجدنا أن الإيمان هو العلاج للمشاكل التي يعدها علماء النفس معضلات لا تحل إلا بصعوبة، فلابد من الطبيب المختص والعيادات، وهذا غير مرفوض، لكنه بدون دين لا يساوي شيئًا، فالدين أقصر وأسرع علاج.

والمؤمن لا يتحسر على الماضي، ولا يسخط على الحاضر، ولا يخاف من المستقبل، فهو لا يتعامل بـــ (لو) و (ليت)؛ لأن في هذا تعبًا للنفس، ولهذا ينصح النفسانيون والاجتماعيون والتربويون أن ينسى الإنسان آلام أمسه، وقد سأل محاضر في جامعات أمريكا طلبته: من منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع الكثيرون أصابعهم، ثم سأل: من منكم مارس نشر النشارة؟ فلم يرفع أحد إصبعه(٢)، فالنشارة لا تنشر والطحين لا يطحن، والماضي لا يعود.

ولهذا كان مبدأ الإسلام واضحًا، قال تعالى: ﴿ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ** ﴾(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**)(٤).

إن المؤمن يشعر بالسعادة لإيمانه بربه. ومما يزيد في سعادته أن الله عز وجل يريه من آياته، فهاهو نبي الله داود عليه الصلاة والسلام تؤمر الجبال أن تسبح معه، وكذلك الطير،

---

(١) في كتاب أسس الصحة النفسية لعبد العزيز القوصي ط٥ مكتبة النهضة نجد الموضوعات التالية: البيئة والوراثة الجسم والعقل، الانفعالات، العاهة، الدوافع والغرائز، الصراع والكبت، النجاح، الشره، القيء، الغيرة، الكذب، الجنس، الأحلام، الطفل وإخوته، النطق وصعوباته.

(٢) ص ١٧٢ دع القلق وابدأ بالحياة. ديل كارينجي.

(٣) الحديد /٢٣.

(٤) رواه مسلم جـــ٤ ص ٢٠٥٢.

قال تعالى: ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ (١)، وقال: ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ** ﴾ (٢) وما أروعها من حالة لا تصفها الكلمات من السعادة حين يتغنى داود عليه السلام بذكر ربه فتردد الجبال والطير تسبيحه وكأنها أنشودة كونية في تسبيح الإله.

إن الكافر لا يشعر بالسعادة أبدًا، بل هو في عذاب نفسي مستمر، وهو ما يسميه الناس عذاب الضمير، إذ يصاب به الإنسان كلما اقترف سيئة، وإن كان بعض الناس قد وصل إلى درجة استعذاب المعصية والمنكر، وهؤلاء قلة، لكن الأكثر كلما عمل عملا سيئًا تألم نفسيًا، وهذا بالطبع لمن لا تزال في نفسه بقية من خير. وهذا الضمير أحسن ما يكون عند المؤمن، وهو ما ذكره سبحانه بقوله ﴿ **وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ (٣). وقد اعتمدها الإسلام في تربية أفراده قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ... لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** ﴾(٤) وقال أيضًا: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾(٥)، وقال: ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ...** ﴾(٦). وحكي أن هذا الصيد الذي ابتلاهم الله به كان يطوف بخيامهم ومنازلهم وهذا هو الابتلاء. والحكمة منه هي قوله تعالى: ﴿ **لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ (٧)، بينما نجد اليهود أصحاب السبت لم ينجحوا في الابتلاء.

ومن مظاهر السعادة النفسية عند المؤمن: انشراح صدره، بينما الكافر صدره ضيق، وينطبق عليه قول الشاعر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

---

(١) سبأ /١٠.
(٢) الأنبياء /٧٩.
(٣) القيامة /٢.
(٤) المائدة/٩٤ – ٩٥.
(٥) المجادلة /٧.
(٦) الملك /١٣.
(٧) المائدة /٩٤.

وقد سئل الرسول ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ...**﴾[1] فقال: (**إن النور إذا دخل في القلب اتسع وانفسح**)[2]. قال النيسابوري على هامش الطبري: (قال تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾[3] كلما ارتفع حجاب ازداد نورًا فيتقوى)[4]. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أسباب شرح الصدر نلخصها فيما يلي:

١- التوحيد على حسب كماله: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾[5]

٢- النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، فقد روى الترمذي[6] في جامعه عن النبي ﷺ أنه قال: (**إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح**) قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: (**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور**).

٣- العلم الموروث عن الرسول ﷺ .

٤- دوام ذكر الله تعالى.

٥- الإنابة إلى الله تعالى.

٦- الإحسان إلى الخلق، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا للبخيل والمتصدق

---

(١) الزمر /٢٢.

(٢) ذكره القرضاوي في (الإيمان والحياة) ص ١٠٤ وهو عند الطبري عند قوله تعالى ﴿مَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ الأنعام/ ١٢٥ وضعفه المحقق.

(٣) الأنفال /٢.

(٤) انظر ص ٤٠.

(٥) الأنعام ١٢٥.

(٦) قال في الأعلام ٢١٣/٧ (محمد بن عيسى بن السلمي البوغي الترمذي أبو عيسى من أئمة الحديث وحفاظه من أهل ترمذ تتلمذ على البخاري ولد ٢٠٩هـ توفي بترمذ ٢٧٩هـ له الجامع الكبير في الحديث والشمائل النبوية وغيرها).

فقال: **(مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع)**[١].

٧- الشجاعة.

٨- إخراج دغل القلب.

٩- ترك فضول الكلام، والنظر، والمخالفة، والأكل والنوم[٢].

ومن آثار الإيمان النفسية الرضا، وهو باب الله الأعظم ومستراح العابدين. إن أهل الرضى لا يشعرون بالألم على ما فات. إنهم يرضون بما كتبه الله لهم.

وليس لمقصود بالرضى أنهم يرضون بالكفر، بل لا يرضونه لأن الله لا يرضى لعباده الكفر. إن المؤمن لا يندم، ولا يتحسر، ولا يتلفت للوراء، ولا يتعرض، بل لسان حاله قول ابن القيم -رحمه الله-:

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أكرم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم[٣]

وما أحلى قول عمر رضي الله عنه: (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب)، ويقول الشافعي -رحمه الله-:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما اقتنعت بالقوت عمري ... فلماذا أخاف زيدا وعمرا

إن المؤمن الراضي مطمئن على حاضره ومستقبله، أما الساخط فهو كما قال ابن القيم: (قل إن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه، وإن كان لا يشعر به، فهو دائم

---

(١) البخاري مع الفتح ٣/٣٠٥.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ١/١٥٢.

(٣) الإيمان لمحمد نعيم ص ١٠٦ وبعدها.

الحزن والكآبة، ضيق الصدر، ضيق الحياة، ضيق بنفسه، وبالناس، وبكل شيء كائن، الدنيا على سعتها في عينه سم الخياط، والساخط يسخط على كل شيء، على الناس، على نفسه، على الدهر، وقديمًا قالوا: من غضب على الدهر طال غضبه).

إن الساخطين والملحدين لمسوا أثر الإيمان، لكن عنادهم الصريح جعلهم يستكبرون. قال بعضهم: إن الدين خرافة لا تستقيم الحياة إلا بها(١). ويقول آخر: إنه وهم لابد منه، ويقول ثالث: لو لم يكن الله موجودًا لوجب علينا أن نخترعه.

ويقول فولتير الفرنسي: (لم تشككون في الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي)(٢).

إن المؤمن يرتفع بقيمته، ويتقن عمله، ويشكل نفسه وحياته وفق مراد الله أما المادي فهو يهوي بقيمته إلى حضيض بعيد.

إن المؤمن في اطمئنان وراحة، أما غيره ففي ضياع وتيه لا يدري ماذا يعمل، قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلا رَّجُلا فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَان مَثَلا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُون**﴾(٣).

إن أخلاق الكافر تقوم على الأثرة والأنانية وحب الذات، ولا يكون الإثم والشر والذنب إلا عبارة عن الخسارة المادية الدنيوية،وهكذا انقلبت الموازين عند الكافر.

إن طريق الكافر طريق شهوات، فما عليه إلا أن يرخي جسمه للأمواج التي ستأخذه إلى أي مكان. أما المؤمن الذي يريد مكانًا مخصوصًا وهو الجنة، فلابد أن يقاوم الأمواج، ويسبح بمهارة لينجو من الغرق ومن خطر ابتلاع الحيتان له. إن طريق الجنة شاق على النفس، ذكر، وفكر، وتوحيد، وتوكل، وخوف، ورجاء، أما الكافر فطريقه اختلاط، وشهوات وزنى، ونساء، وتبرج، ومحرمات، قال رسول الله ﷺ: (**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**)(٤).

إن المؤمن بعيد النظر، وواسع الأفق، إذ الإيمان يوسع وجهة نظر الإنسان على

(١) انظر الإيمان والحياة للقرضاوي ص ٢٣١.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الزمر/٢٩.
(٤) رواه مسلم ط١ جـ٤ ص ٢١٧٤.

قدر سعة مملكة الله غير المحدودة. ألا ترى أن الإنسان مادام لا ينظر إلى الدنيا إلا على اعتبارها علاقة نفسه، فإنما يكون نظره محدودًا بالدائرة الضيقة التي تكون محدودة بها، إنه لا يبحث عن قاض لحاجاته إلا في هذه الدائرة، ولا يخشى إلا الأقوياء في دائرته، ويتكبر على الضعفاء فيها، ولكنه إذا آمن خرج من الدائرة، وتغيرت الموازين، واتسع النظر، وليس الذي يسكن قصرًا كمن يسكن صندوقًا.

ونظرة المؤمن إلى القوى المنطلقة نظرة صائبة، إذ يراها جندًا من جنود الله مسخرة تطيع ربها، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه**﴾ [1]، أما غير المؤمن فيراها عدوة، ولهذا نجد في عباراته الخوف كقولهم: (تحدي الطبيعة، قهر الطبيعة، السيطرة عليها)، ثم إن الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وهو سبب نزول بركات السماء، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ**﴾[2]. بينما الكفر يجعل صاحبه بعيدًا عن الصالحات، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..**﴾[3]، وقوله: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ...**﴾[4]، وقوله: ﴿**لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾[5]. إن الذي يترك الإيمان يحرم نفسه من الهداية في الدنيا، ويوقع نفسه في شقاء الآخرة، وسيطرة الدجالين والمشعوذين والمستبدين في الدنيا.

إن غير المؤمن يعيش كالحيوان، يأكل ويشرب وهذا كل همه، وهو يفسد في الأرض؛ لأنه استعمل نفسه في غير ما خلقه الله له، وهو: العبادة، قال تعالى: ﴿**وَمَا**

(١) الإسراء /٤٤.
(٢) الأعراف /٩٦.
(٣) البقرة /١٨.
(٤) الماعون/١ - ٣.
(٥) التوبة/٤٤ - ٤٥.

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾[(١)]. إن الكافر متعلق بالدنيا وزخارفها ومن أجلها يقتل الأخ أخاه، والابن أباه، ويخون أمانته، وينكث عهده، ويقوم بكل ما هو باطل، والذي دفعه لهذا حب الدنيا، فحبها رأس كل خطيئة، ولهذا ورد عن الرسول ﷺ: (**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا...**)[(٢)]، ولهذا حض الإسلام على الاجتهاد في طلب الآخرة، ووصف المؤمنين بقوله: ﴿**وبالآخرة هُمْ يُوقنُونَ**﴾[(٣)]. والدنيا لا تساوي شيئًا عند الله، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئًا، ففي الحديث عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (**لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**)[(٤)].

- الإيمان وأثره في أخلاق الفرد:

يقول ﷺ: (**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**)[(٥)]، ووصف الله عز وجل رسوله بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [(٦)]. لقد جاء الإسلام وهذب أخلاق أتباعه بغرس الإيمان في قلوبهم، وإنما يظهر الدين والإيمان بأخلاق أتباعه في التعامل مع غيرهم من الناس وفيما بينهم. وللإيمان آثار عظيمة كثيرة يصعب حصرها، وقد ذكرنا طرفًا من هذا الموضوع عند حديثنا عن الضرورة الأخلاقية للإيمان بالغيب. وإذ نذكر الآن أثر الإيمان في أخلاق الفرد نستعرض بعضها، وإليك بيانها:

أولا: التحرر:

إن أول ما يتخلق به المؤمن بعد إعلانه العقيدة العظيمة بنطقه الشهادتين هو خلق التحرر، فهو يتحرر من القيود لغير الله سواء، كان صنمًا حجريًا، أو بشريًا، أو مبدأ هدامًا، أو هوى متبعًا. إنه لا ينحني لأية قوة على ظهر الأرض. وكيف يذل لعبد مثله وهو يراه خلق من نطفة مذرة، ومصيره أن يكون جيفة قذرة، وخلال حياته

---

(١) الذاريات/٥٦.
(٢) رواه الترمذي ١٢/٣٢.
(٣) البقرة/٤.
(٤) رواه الترمذي ١٠/١٩٨ وقال هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.
(٥) رواه أحمد في المسند ٢/٢٨١.
(٦) القلم /٤.

يحمل العذرة؟ كيف لعبد خلق من ماء مهين، أو تراب حقير بينما يترك عبادة الرب العظيم؟ وما أروع جواب ربعي بن عامر حين سئل عن سبب مجيئهم، فقال: (جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده).

إن الإسلام يرفض أن يذل المسلم لغير الله، وهذا جزء هام من العقيدة الإسلامية، وقد شنع القرآن على المشركين؛ لأنهم مقيدون لا يملكون الحرية الحقيقية؛ لأن الحرية الحقيقة لا تكون إلا بالعبودية لله وحده.

ثانيًا: الرحمة:

قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[1] فالله عز وجل لم يرسل رسولا إلى البشر إلا رحمة بهم، وهو سبحانه أرحم بعباده من الأم بطفلها، ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: (**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**) قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: (**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**)[2]. ولهذا كان الإيمان الذي يريده رب العالمين غارسًا الرحمة في نفوس المؤمنين، فقلب المؤمن حي، مرهف، رحيم، مستمد رحمته من رحمة الله له، وهو محتاج إلى رحمة الله، ولهذا رحم الضعفاء لقوله ﷺ: (**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**)[3]، ورحمة الله المؤمن تفيض حتى على الحيوان، ففي الحديث أن رجلا لقي كلبًا عطشًا (**فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له**)[4]. ومن مظاهر الرحمة: الصدقة، وإطعام الطعام، ومساعدة المحتاج، وإماطة الأذى من الطريق، والوقف. وقد كان في تاريخ الإسلام (وقف الزبادي، ووقف الكلاب الضالة، ووقف الأعراس، ووقف الغاضبات، ووقف

---

(١) الأنبياء /١٧.

(٢) البخاري مع الفتح ٤٢٦/١٠.

(٣) رواه الترمذي ١١١/٨، قال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) رواه مسلم ١٧٦١/٤ ط١.

مؤنس المرضى والغرباء، ووقف خداع المريض)[1] ومن مظاهر الرحمة بالأولاد والصغار: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: (**أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة**)[2]. ومن مظاهر الرحمة: سقاية الظمآن، وإطعام الجائع، وكسوة العريان، وإيواء الغريب، وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، وغير ذلك.

وبالمقابل فإن الكفر يثمر الغلظة والقساوة، وهاهو فرعون يتكبر، ويتجبر، ويقتل الأطفال خوفًا على ملكه. وها هو نيرون يحرق روما بكاملها، وها هم أقطاب الشيوعية قد نزعت الرحمة من قلوبهم، يقول لينين في بعض رسائله إلى مكسيم جوركي: (إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون في سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعيًا). وتاريخ الشيوعية ومذابحها في البلاد العربية والإسلامية أمر معروف، وقد أعدم ستالين أعضاء المجلس الذين انتخبوه، وأعدم وزراء لينين، وأعدم ثمانين بالمائة من سكرتيري اتحادات العمال، وأعدم خمسة عشر عضوًا من أصل سبعة وعشرين من لجنة وضع دستور عام ١٩٣٦م، وأعدم ثلاثة وأربعين سكرتيرًا من أصل ثلاثة وخمسين شخصًا، وهم الذين يشرفون على تنظيم الحزب، وأعدم سبعين من أصل ثمانين عضوًا من أعضاء مجلس الدفاع السوفيتي، وثلاثة مارشالات من خمسة في الجيش الأحمر، وتسعة وزراء من أحد عشر وزيرًا الذين يتألف منهم مجلس الوزراء عام ١٩٢٦م، وأعدم ستين بالمائة من قادة الجيش، وثلاثين ألف موظف[3]، بينما نجد الرحمة عند قادة الإسلام. وهاهو رسول الله ﷺ يوصي قادة الجيوش بأدب الحرب

---

(١) انظر الإيمان و الحياة للقرضاوي ص ٢٥٠. الوقوف والحبس كلاهما بمعنى واحد بل هو لله يستفيد منه كل الناس، فمثلا وقف الزبادي كان المسلمون يتبرعون بالزبادي حيث تجمع في مكان خاص فإذا أرسلت أم طفلها ليشتري شيئًا ومعه شيء من الزبادي فكسر ما معه في الطريق فإنه يعطى بدلا من الوقف حتى لا تضربه أمه وهنا تبدو الرحمة في مجتمعنا.

(٢) البخاري مع الفتح ٤٢٦/١٠.

(٣) لقد تناقص عدد المسلمين في روسيا (٢٦) مليون في مدة ربع قرن بمعدل المليون ونيف سنويًا ونقص في يوغسلافيا مليون مسلم (انظر العقيدة وأثرها لعبد الله عزام ص٩١).

بأن لا يقطعوا شجرًا، ولا يقتلوا شيخًا، ولا امرأة ولا طفلا. وها هو عثمان بن عفان يرفض أن يقاتل الخارجين رغبة في عصمة دم المسلمين. إن الرحمة من آثار العقيدة عقيدة الإيمان بالله تعالى، ومن أسماء الله تعالى الرحمن الرحيم وإذا لم يبدأ بها فعمله أبتر.

وها هو المؤمن يذل لوالديه طاعة لربه الذي أمره بذلك بقوله: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ (١)، فهذا الذل محبوب ومطلوب؛ لأنه لم ين على أساس من الضعف والخور، بل على أساس يحبه الله وهو الرحمة. وسميت الرحم بذلك حيث لابد من الرحمة تجاهها، وهي معلقة بعرش الرحمن سبحانه وتعالى.

ثالثًا: الصبر:

قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ**﴾ (٢).
إن عقيدة المؤمن في القضاء والقدر هي من أهم دواعي الصبر، وإن صفة الرضا السالفة الذكر ملتصقة التصاقًا وثيقًا بالصبر، فإذا صبر الإنسان فقد رضي. وقد كان صبر الصحابة على البلاء الذي وقع بهم شيئًا عجيبًا، وكلنا يعرف ما جرى لآل ياسر وغيرهم. يقول أبو محمد الحريري: (الصبر أن يطرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما)(*) ولقد تحلى يعقوب -عليه السلام- بالصبر الجميل حين قال الله حكاية عنه: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ (٣) على فقد ولده يوسف عليه السلام وأخيه.

إن جزاء الصابرين بغير حساب قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (٤)، وإن الصبر درجات كل يصبر حسب إيمانه. إن المؤمن الحق لا تستطيع مصائب الدنيا، وآلامها، ومضارها، وخسائرها أن تزل قدمه لأنه على ثقة بالله، فكل مصيبة تهون ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ (٥)، فقد كتب

---

(١) الإسراء /٢٤.
(*) الإيمان لمحمد نعيم نقلا عن عدة الصابرين.
(٢) النحل/١٢٦.
(٣) يوسف /٨٣.
(٤) الزمر/١٠.
(٥) الانشراح/٥ - ٦.

أبو عبيدة ابن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم يتخوف منهم، فكتب إليه عمر بن الخطاب: (أما بعد، فإنه مهما ينــزل بعبد مؤمن من منــزل يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين)[١]. وكما قال أحد الصالحين: (ما أصبت في دنياي إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم: إنها لم تكن في ديني، أنها لم تكن أكبر منها، وأنني أرجو ثواب الله عليها).

رابعًا: الصدقة:

إن المؤمن بالآخرة وما عند الله يترجح عنده جانب العطاء، وبخاصة إذا اتضح عنده ما يملكه هو من الله، وأنه مجرد مستخلف فيه، ولهذا عبر القرآن عما للفقير في مال الغني بأنه ليس مجرد عطف بل هو حق، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾[٢]. إن المؤمن يعتقد أن المال لا ينقص بالتصدق بل يزيد ويبارك الله فيه، قال ﷺ: (**ما نقصت صدقة من مال**)[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينــزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكًا تلفًا**)[٤]، وعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: (**أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**)[٥] وهاهو أبو الدحداح[٦] يدفعه الإيمان لإنفاق ماله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ**﴾ [٧]، فعن عبد الله بن مسعود قال: لما نــزلت ﴿ **مَن ذَا**

---

(١) الموطأ ص ٢٩٥، ٢٩٦ دار النفائس ط١.

(٢) المعارج/٢٤ – ٢٥.

(٣) رواه مسلم ٤/٢٠٠١ ط١.

(٤) البخاري مع الفتح ٣/٣٠٤.

(٥) البخاري مع الفتح ٣/٢٨٤ – ٢٨٥

(٦) قال في الإصابة ٤/١٩٣ (ثابت بن الدحداح الأنصاري يكنى أبا الدحداح وأبا الدحداحة توفي يوم أحد وقيل جرح ثم توفي وقد قتله خالد بن الوليد).

(٧) النحل/٩٦.

﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [١] قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: (**نعم يا أبا الدحداح**)، قال: أرنا يدك، قال: فناوله يده، قال: أقرضت ربي حائطي، وحائطه فيه ستمائة نخلة، فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي. وفي رواية فقال رسول الله ﷺ: (**كم من عذق لأبي الدحداح في الجنة**)[٢].

وهذا هو ثمرة قوله تعالى: **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾** [٣]. ونهاهم عن البخل **﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**[٤].

وعن مالك أنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ أن مسكينًا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطه إياه، قالت: ففعلت، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا شاة وكفتها، فدعتني عائشة أم المؤمنين فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك)[٥].

خامسًا: العمل:

والمؤمن يعلم أن أيامه على الأرض محدودة فهو في عمل مستمر ليصل إلى رضوان الله، إنه يعمل ليحصل على الأجر من الله تبارك وتعالى. ويحصل هذا الأجر بإخلاص النية فيكون العمل الدنيوي عبادة للمؤمن في ميزان الله تبارك وتعالى.

وهو إذ يعمل يحسن العمل، ويتقنه، ويخلص فيه لأن الله تعالى يحب ذلك. إن المؤمن يهتم بالعمل؛ لأنه يعلم أن الله سائله عن عمره فيم أفناه؟ ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: (**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند**

---

(١) البقرة/٢٤٥.

(٢) انظر مجمع الزوائد ٩/٣٢٤ وقال رواه أبو يعلي والطبراني ورجالهما ثقات ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) البقرة/٢٧٢.

(٤) آل عمران/١٨٠.

(٥) الموطأ ص ٧٠٤ دار النفائس ط١.

ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم)[١]. وفي رواية أخرى عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)**[٢].

فالمؤمن يضن بوقته أن يضيع في حرام أو عبث؛ لأنه رأس ماله وقد قيل: (إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما). فالإيمان لا يعطل العمل للدنيا، بل يحض عليه شريطة أن يكون العمل في الحلال، والبحث عن رضى الله تعالى فيه، وأن لا يلهي عن الآخرة بل يقرب إليها.

إن المؤمن يسخر الدنيا لنفسه ولا يسخر نفسه لها، وما أجمل الدعاء القائل (اللهم اجعل الدنيا في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا).

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ صناعًا وتجارًا، و لم يقعد بهم إيمانهم عن العمل، بل قال لهم رسولهم ﷺ: **(إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)**[٣]، وقال عمر رضي الله عنه: (أرى الرجل فيعجبني، فإذا قيل لي: ليس له عمل، سقط في عيني). ورأى رجلا في المسجد فقال له: ما تصنع؟ قال: أعبد الله، قال: من يطعمك؟ قال: أخي، قال: أخوك خير منك). ولهذا فالبطالة مرفوضة في مجتمع الإسلام رفضًا دينيًا قبل أن يكون مشكلة اقتصادية. والغش المشاهد في الأعمال والصناعات مرفوض في الإسلام، فقد ورد في الحديث **(من غشنا فليس منا)**[٤].

ومما يدفع إلى العمل الإيمان بالقدر، إذ يقتضي هذا الإيمان بذل الأسباب كما

---

(١) انظر الترمذي بشرح ابن العربي ٢٥٣/٩ مطبعة الصاوي ١٣٥٣هـ ط١ وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود. إلا من حديث حسين بن قيس وحسين يضعف فيه الحديث.

(٢) المرجع السابق وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد ١٩١/٣.

(٤) رواه مسلم ٩٩/١. وأحمد ٥٠/٢.

تقدم، والأسباب هي العمل، فتنطلق القوى البشرية لتتعرف على السنن وتكتشف المجهول للبناء والتعمير.

ومما يدفع المؤمن للعمل أمله ورجاؤه فيما عند الله، فقد طلب إبراهيم الولد وهو شيخ، ويعقوب لم يفقد الأمل في ولديه بعد غياب طويل، وزكريا نادى ربه نداءً خفيًا فاستجاب الله له، وأيوب نادى ربه أنه مسه الشيطان بنصب وعذاب، ونادى يونس ربه في الظلمات فأنقذه الله، ولم يفقد موسى أمله عندما كان البحر أمامه وفرعون خلفه. ومحمد ﷺ في الغار ومعه أبو بكر الصديق صلوات الله وسلامه على رسله أجمعين.

سادسًا: الحب:

قال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾(١)، وقال: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾(٢)، وقال ﷺ: (**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**)(٣). إن الحب هو روح الوجود وإكسير القلب، وهو الذي يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتتخرق.

قال جلال الدين الرومي: (إن الحب يحول المر حلوًا، والتراب تبرًا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة)(٤). الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأهواء.

إن المؤمن أول ما يحب الله ربه واهب الحياة ومصدر الخلق، قال ﷺ: (**اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك**)(٥). ويحب المخلوقات لأنها تدل على الله، قال ﷺ عن أحد: (**هذا جبل يحبنا ونحبه**)(٦). والمؤمن

---

(١) المائدة/٥٤.

(٢) البقرة/١٦٥.

(٣) رواه مسلم جـ١ ص ٧٤.

(٤) رجال الفكر والدعوة في الإسلام. للندوي ص ٣٥٨ دار القلم ط٣.

(٥) رواه الترمذي جـ١٠٢ ص ٢٧ وقال حديث حسن غريب.

(٦) فتح الباري جـ٦ ص٨٣.

يحب الحياة لأنها مجال كسبه وحرثه للآخرة، ويحب الإنسان[١] لأنه أخوه ويهتدي به ويهديه، ويحب كل شيء في هذا الكون وأكثر ما يحب أخاه المؤمن الذي يشاركه في اعتقاده. والمؤمن يحب الموت؛ لأنه يعجل به إلى لقاء الله وفي الحديث عن عائشة قالت: قال ﷺ: (**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**)، فقلت يا نبي الله: أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت، فقال: (**ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله فكره الله لقاءه**).

ولذلك اختار الرسول ﷺ لقاء الله، فعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: (**لن يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخبر**) فلما نـزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: (**اللهم الرفيق الأعلى**).. قالت فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها: (**اللهم الرفيق الأعلى**)[٢].

وها هو خالد بن الوليد يهدد أعداءه، فقد كتب إلى هرمز قائد الفرس يخيره بين الإسلام والجزية، أو الحرب، ويقول له في ختام كتابه: (جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)[٣].

وحب المؤمن للرسول من الإيمان، بل لا يتحقق إلا به قال ﷺ: (**ثلاث من من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**)[٤]. وعن أنس قال النبي ﷺ : (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**) ، وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ

---

(١) ولا يتعارض هذا مع كره المؤمن للكافر حيث أنه يكره الكفر الذي حمله فلو تركه لعاد لمحبته.

(٢) البخاري مع الفتح ١١/١٤٩.

(٣) انظر عبقرية خالد/للعقاد. ص١٢١ ط٣ دار الكتاب العربي ١٣٨٩هـ.

(٤) متفق عليه. البخاري مع الفتح ١/٦٠.

وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: (**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**) فقال له عمر: فإنه الآن والله، لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال ﷺ: (**الآن يا عمر**)[٢].

سابعًا: الجهاد:

قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [٣]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**)[٤]. واقترن الجهاد بالإيمان، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ..**﴾[٥]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ..**﴾[٦] وقال: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ..**﴾[٧].

إن الإيمان بالله ينشئ في الإنسان صفة خلقية عظيمة، وهي: صفة الجرأة، والإقدام والبسالة، والشجاعة[٨]. إن المؤمن لا يخاف؛ لأن الخوف يكون على المال والولد والنفس، وهذه كلها قد عالجها الإيمان. فالمال مال الله والولد هبة من الله، والنفس إن لم تمت في سبيل الله فلماذا هي؟ إن المال يزداد بالطاعة وينقص بالمعصية،

---

(١) قال في الإصابة ٣٦٩/٢ عبد الله بن هشام بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي ولد بسنة ٤هـ روى له البخاري. ذهبت به أمه وهو صغير إلى الرسول ﷺ فمسح رأسه ودعا له بالبركة عاش إلى خلافة معاوية.

(٢) البخاري مع فتح الباري جـ١١ ص ٥٢٣.

(٣) الأنفال /٦٠.

(٤) رواه مسلم ط١ جـ٤ ص ٢٠٥٢.

(٥) الحجرات /١٥.

(٦) التوبة /١١١.

(٧) الأحزاب/٢٣.

(٨) الإيمان. للمودودي. عنوان (الجرأة).

فلابد من الشجاعة في بذل المال وتزكيته، ولابد من الجهاد بالمال والنفس؛ لأن هذا مقتضى الإيمان. والأولاد مسئولية تربيتهم على أبيهم، فإن لم يكن شجاعًا مقدامًا فقد زرع الخوف فيهم. والنفس لابد أن تموت فلتكن ميتة جهادية، والموت بيد الله كما في الحديث (.. **ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..**)[(١)].

فالرزق[(٢)] والأجل بيد الله، وهذا من أسس العقيدة الإسلامية فلا مجال للخوف في قلب المؤمن.

إن المؤمن يعيش في حالة من الاستعلاء على قيم الأرض ومبادئها الحابطة، فهو عال باتصاله بالله عز وجل. وهذا الاستعلاء يمثل قوة في المؤمن؛ إذ إنه يستعلي على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان. إنه الاستعلاء الذي لا يتهاون أمام قوة باغية[(٣)]، وهكذا كان موقف المغيرة بن شعبة أمام الجاهلية الفارسية، وهكذا وقف ربعي بن عامر أمام رستم في القادسية.

والشيوعية تحاول طمس الإيمان؛ لأنها تشعر أن الإيمان يوجد في النفوس قوة تواجه مبدأها فكريًا وعسكريًا.

إن الإسلام يربي أتباعه على القوة، قوة الفكر والكلمة والسلاح، وقبل كل هذا قوة الإيمان. وها هو أعرابي لا حول ولا قوة إلا قوة الإيمان من الله يقف أمام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهو يومئذ يحكم بلادًا واسعة يحكمها الآن عشرات الحكام، يقف هذا الأعرابي ويقول كلمة الحق في وجه عمر (فقد روي أن عمر بن الخطاب قال يومًا على المنبر: يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى

---

(١) انظر الترمذي بشرح ابن العربي ٩/٣١٩ وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٢) قال في مجمع الزوائد جـ٤ ص٧١ (وعن حذيفة قال قام النبي ﷺ فدعا الناس: هلموا إلي فأقبلوا إليه فجلسوا فقال هذا رسول رب العالمين جبريل ﷺ نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته رواه البزار وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمة وبقية رجاله ثقات).

(٣) بتصرف من (معالم في الطريق) ص ١٦٣ لسيد قطب. دار الشروق.

الدنيا كذا وأشار إلى قطعة، فقال: إياي تعني بقولك، قال: نعم إياك أعني بقولي، فنهره عمر ثلاثًا وهو ينهر عمر، فقال عمر: رحمك الله الحمد الله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قومني)[١].

إن رسول الإسلام ﷺ قاد الجيوش، وأعد السلاح، وحفر الخندق، وبعث السرايا. إن الأعمال التي حققها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام إنما كانت ثمرة القوة التي أنبتها الإيمان في قلوبهم فضحوا وجاهدوا بالمال والنفس.

إن القرآن يحرض المسلمين على القتال، وبذل المنهج في سبيل الله، وذلك بأن يقنعهم أنهم إذا قتلوا لا يموتون، وإنما ينالون حياة خالدة سرمدية، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾** [٢].

إن المجاهد الموقن يمضي في طريق الكفاح المر وهو واثق من النتيجة الأخيرة، وهو قوله تعالى: **﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [٣]. والمجاهدون في سبيل الله بشر تجيش في أنفسهم المشاعر التي تجيش في نفوس غيرهم من تقدير للحياة، والرأي العام، وكفالة الأولاد، وتأمين العيش لأنفسهم وأهليهم، بيد أنهم وازنوا بين مطالب الحق وأشواق الدنيا فآثروا وعد الله[٤].

إن المؤمن يشعر بالعزة والكرامة، قال تعالى: **﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُؤْمِنِين﴾** [٥] وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾**[٦]. المؤمن يشعر أنه سيد الكون وهذا هو غرس الإيمان، إنه الخليفة في الأرض والشهيد على الناس يوم القيامة، والله معه وناصره، قال تعالى: **﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا﴾** [٧]، وهو في

---

(١) انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢/ ٥٠ ط١ الخانجي بمصر للإمام ابن جعفر الطبري.

(٢) البقرة /١٥٤.

(٣) الروم /٤٧.

(٤) انظر ركائز الإيمان ص ١٢٤ وبعدها.

(٥) المنافقون/٨.

(٦) الإسراء /٧٠.

(٧) النساء /١٤١.

حمى الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [(١)]. وها هو بلال العبد الأسود يصبح في عزة وقوة مستصغرًا قادة قريش وزعماءها، وكان لسان حال المؤمنين في عزهم قول الشاعر:

وما زادني شرفًا وتيهًا   وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي   وأن صيرت أحمد لي نبيا

إن المؤمن لا يخاف، فهو يذهب إلى المعركة متمنيًا الشهادة تاركًا أطفاله في رعاية الله، وتقول الزوجة بعد رحيل زوجها: (إنني عرفته أكالا وما عرفته رزاقًا، ولئن ذهب الأكال لقد بقي الرزاق)[(٢)]. وما أعظم قوة سعيد بن جبير أمام الحجاج التي أنبتها الإيمان في قلبه حين هدده الحجاج بالموت فأجابه سعيد:

(لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلهًا غيرك).

إن المؤمن لا يخاف من الموت؛ لأن لكل نفس أجلا، ولكل أجل كتاب ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [(٣)]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلا ﴾[(٤)].

لقد كان الرجل من الصحابة يزأر أمام الموت في المعركة ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [(٥)] وها هو أحدهم ينفذ الرمح في صدره فيصل إلى ظهره فيقول: (فزت ورب الكعبة)[(٦)].

وقيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، كيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلاّ من

(١) الحج /٣٨.
(٢) الإيمان والحياة للقرضاوي ص ١٤٣.
(٣) النحل/١٦١.
(٤) آل عمران/١٤٥.
(٥) طه/٨٤.
(٦) الإيمان والحياة ص ١٠٤.

عنده[١]. ومات أحدهم فوجدوا عند رأسه رقعة كتب فيها:

قل لإخوان رأوني ميتا فبكوني ورثـوني حزنـا
أتظنون بـأنـي ميتكـم ليس هذا الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي كان ثوبي وقميصي زمنا
أنا عصفور وهذا قفصي طرت عنه وبقي مرهنا
أحمد الله الذي خلصني وبنى لي في المعالي مسكنا
لا تظنوا الموت موتا إنه ليس إلا نقلـة من ههنا

فالمؤمن لا يعرف الخوف، ومن هنا ينطلق لا يخاف على رزق ولا مال ولا ولد ولا نفس؛ يواجه أعداءه في ساحات القتال، وفي جدال العقائد، وإحباط الحجج، ومقابلة الملوك والزعماء بهذه العقيدة الفريدة. إن الإيمان بالله يرتفع بالإنسان من حضيض الذل والهوان إلى أرفع ما يكون من منازل الأنفة، وعزة النفس، والقوة لأنه يعتقد ﴿إن القوة لله جميعا﴾[٢]. وهذه العزة هي غير التكبر، فهي ارتفاع بالحق والعدل، بل هي مظهر من مظاهر ضعف النفس الإنسانية وظلمها لنفسها ولغيرها. إن المؤمن مستعل وعزيز، وفي الوقت نفسه هو متواضع، ولا تناقض، إذ عزته من تواضعه، وتواضعه لا يعني الذلة بل هو الرحمة، والخشية من الله سبحانه، يقول المودودي -رحمه الله-: (إنها أنفة ولكنها ليست الزائفة التي تنشأ بسبب الغطرسة والقوة والجبروت والجاه والمال، إنها عزة الحق لا عزة الباطل، إنها أنفة مقترنة بالتواضع، وعزة متصلة بالتذلل والخضوع لله؛ لأنه يعلم أن الله هو القاهر الحقيقي فوق عباده)[٣]. إن غير المؤمن يرتكز على بيت العنكبوت ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [٤]. أما المؤمن فهو يأوي إلى ركن شديد، إنه يعتمد على الله

(١) المرجع نفسه ص ١٤٨، واسمه حرام بن مدحان كما في البخاري مع الفتح ١٩/٦.
(٢) البقرة/١٦٥.
(٣) بتصرف عن (الإيمان) للمودودي تحت عنوان (التذلل).
(٤) العنكبوت/٤١.

خالق السموات والأرض وما فيهن. وهذا أكبر دافع للمؤمن ليواجه أكبر التحديات، وها هو إبراهيم عليه السلام يواجه الملك العنيد وشعبه فيسخر من خرافاتهم، ويثبت لهم بالبرهان العملي بطلان ديانتهم، وعندما يقررون إلقاءه في النار ما زاده هذا إلا إيمانًا وقوة، فكان القوي بجانبه، وتحولت النار إلى برد وسلام عليه.

إن المؤمن ينظر إلى قصور الأمراء، وخزائن الملوك، ورياش المترفين كما ينظر راكب الطائرة المحلقة في أعالي الفضاء إلى القرى والمدن والناس، إنه يرى القصور الشاهقة كاللعب الصغيرة، ويرى البشر كالنمل في جحوره(١).

إن الإيمان يدفع الإنسان إلى البذل والتضحية، فها هو أبو طلحة الأنصاري(٢) يقرأ سورة براءة حتى بلغ ﴿ **انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا** ﴾ (٣)، فقال: ما سمع الله عذر أحد، وقال لبنيه: أي بني جهزوني جهزوني، يعني: للجهاد، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مَعَ النبي ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك، قال: ألا جهزوني، فجهزوه بجهاز الحرب فغزا في البحر، فمات في البحر فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه فيها رضي الله عنه(٤). إن المؤمن يستعذب البلاء فعن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله ﷺ، أي الناس أشد بلاء؟ قال: (**الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه**

(١) بتصرف عن الإيمان والحياة للقرضاوي ما بعد ص ١٢٢.

(٢) قال أبو عمر بن عبد الله القرطبي المالكي في كتابه الاستيعاب في معرفة الأصحاب (مع الإصابة) جـ٤ ص ١١٣ (اسمه زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد بن مناة ابن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري شهد العقبة وبدرا وما بعدها وكان من الرماة المذكورين من الصحابة قتل يوم حنين عشرين رجلا وأخذ أسلابهم قال عنه الرسول ﷺ (لصوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل توفي سنة ٣١هـ وقيل ٣٤هـ) وهو ابن سبعين سنة في البحر فدفن في جزيرة).

(٣) التوبة /٤١.

(٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير ط١ جـ٢ ص١٤٤ تحقيق محمد علي الصابوني.

خطيئة)[١].

وها هو سعيد[٢] بن المسيب يخرج إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.

وعن راشد بن سعد عمن رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فضل عنه من عظمة، فقلت له: قد أعذر الله عليك، فقال: أبت علينا سورة البعوث ﴿ **انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا** ﴾ [٣]. وقال ابن جرير عن حبان بن يزيد الشرعبي: قال: نفرنا مع صفوان[٤] بن عمرو وكان واليًا على حمص، فرأيت شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه، فقلت: يا عم قد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالا، ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه[٥]. وعمرو بن الجموح[٦] الأنصاري له في التضحية قصة عجيبة: عن أبي قتادة أنه حضر ذلك، قال: (أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟، وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: **(نعم)**، فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه

---

(١) رواه ابن ماجة جـ٢ ص ١٣٣٤ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) قال في الأعلام جـ٣ ص ١٥٥ (هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي أبو محمد سيد التابعين أحد الفقهاء السبعة في المدينة. محدثًا وفقيهًا زاهدًا ورعًا كان تاجرًا. توفى بالمدينة عام ٩٤هـ وولد عام ١٣هـ.

(٣) تفسير الطبري جـ١٤ ص ٢٦٧ تحقيق محمود شاكر.

(٤) قال في الإصابة ج٢ ص١٨٣ (صفوان بن عمرو السلمي والصواب الأسدي شهد أحدًا).

(٥) جـ١٤ ص ٢٦٤ المرجع نفسه.

(٦) قال في الأعلام ٥/٢٤١ (عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي صحابي كان في الجاهلية من سادات بني سلمة وأشرفهم وهو آخر الأنصار إسلامًا استشهد بأحد عام ٣هـ).

ومولى لهم، فمر رسول الله ﷺ فقال: (**كأني أنظر إليه يمشي برجله هذه صحيحة في الجنة**)، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبر واحد)[١].

وهذا ثمرة للإيمان الذي يغرسه الإسلام في النفوس، فعن عبد الله بن أبي أوفى[٢] رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**)[٣]، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى، أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى إلى عدوه فضرب حتى نال الشهادة. ويتسابق الأب والابن إلى الجهاد فيقرعان بينهما فتخرج القرعة للابن، فيقول: الأب آثرني يا بني أنا أبوك، فيقول: إنها الجنة يا أبت، ولو كان شيء غيرها لآثرتك. ويقول سيد قطب بعد الحكم عليه بالإعدام وتدخل الوسطاء ليترحم ويذل: (لماذا أسترحم إن حكمت بحق فأنا أرضى، وإن حكمت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل. إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة يرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية، لقد استحوذت عليه الجنة وشغلته عن كل شيء، وعندما تلقى حكم الإعدام فرح وقال: الحمد لله لقد عملت خمسة عشر عامًا من أجل هذه الشهادة).

ووطئ أبو بكر في مكة يوما بعدما أسلم، وضرب ودنا منه عتبة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملته بنو تميم في ثوب حتى أدخلوه منـــزله لا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذبوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما دخلت به ألحت عليه وجعل أبو

---

(١) ذكره في مجمع الزوائد ٩/٣١٥ وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة.

(٢) قال في الإصابة ٢/٢٧١ (عبد الله بن أبي أوفى واسمه علقمة بن خالد الأسلمي من هوازن روى أحاديث شهيرة آخر من مات من الصحابة بالكوفة سنة ثمانين. شهد حنين وقال غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد).

(٣) البخاري مع الفتح ٦/٣٣.

بكر يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل[١]. وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع الرسول ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرًا هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرينيه حتى أنظر.

ورفعوا خبيبا[٢] (رضي الله عنه) على الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب محمدًا مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا منه[٣].

وترس أبو دجانة[٤] يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك[٥]. ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس[٦]. وقصة أصحاب الأخدود وسحرة فرعون تبين روعة الإيمان حين يحول النفوس ويجعلها تضحي بالغالي والرخيص.

وما أحلى كلام بائع الملوك العز بن عبد السلام سلطان العلماء: (من الله لو قبل

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ٣٠. مكتبة المعارف بيروت ط١، ١٨٨٦هـ.

(٢) قال في الإصابة جـ١ ص ٤١٨ (خبيب بن عدي بن مالك بن عامر بن مجموعة بن حجي ابن عوف بن كلفة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري. شهد بدرًا واستشهد في زمن رسول الله ﷺ كان يأكل العنب وهو أسير وما في مكة يومئذ عنب قصتها في البخاري).

(٣) البداية والنهاية جـ٤ ص ٦٦ وقال رواها البخاري في المغازي انظر الفتح ٣٨٤/٧.

(٤) هو سماك بن خرشة الخزرجيّ البياض الأنصاري المعروف بأبي دجانة صحابي وكان شجاعًا بطلا، شهد بدرًا ثبت يوم أحد وأصيب بجراحات كثيرة واستشهد باليمامة كان يمشي بخيلاء نظر إليه النبي ﷺ في المعركة وهو يتبختر بين الصفين فقال هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان) الأعلام جـ٣ ص٢٠٢ توفي عام ١١هـ.

(٥) زاد المعاد ص ١٣٠.

(٦) زاد المعاد ص ٢١٦.

رأسي ما قبلت، الحمد-لله الذي عافاني مما ابتلاكم به نحن في واد وأنتم في واد).

وها هو أنس بن النضر يقول يوم أحد: (الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد، ومن ذاق عرف، ومن حرم أنكر). ورفض عمير بن الحمام يوم بدر أن ينظر أكل تمرات لأن الجنة أمامه. وهذه الخنساء فقدت أخاها لأبيها صخرًا في الجاهلية فملأت الآفاق عليه بكاء وعويلا وشعرًا حزينًا من أعظم شعر المراثي، فهي تقول:

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل طلوع شمس

ولــولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكنها لما آمنت قدمت فلذات كبدها إلى الميدان، وقالت لأبنائها الأربعة يوم القادسية: (أي بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1] فإذا أصبحتم من غد -إن شاء الله- سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها تظفروا بالمغنم في دار الخلد). وعندما استشهدوا جميعًا وبلغها، قالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم جميعًا، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته).

ودخل عمرو بن عبيد على ابن أبي جعفر المنصور يعظه ويتلو عليه: ﴿**وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾[2] إلى أن قال: (إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد)، فبكى أبو جعفر واستمر يعظه حتى جفت عيناه من الدموع وهنا تدخلت البطانة السيئة سليمان بن خالد: (رفقًا بأمير المؤمنين قد أتعبته منذ اليوم). فيسكته عمرو بقوله: (بمثلك ضاع الأمر وانتثر لا أبالك، وماذا خفت على أمير المؤمنين؟ أن يبكي من خشية الله؟)، ثم

---

(١) آل عمران/٢٠٠.

(٢) الفجر /١.

يأمر له أبو جعفر بعشرة آلاف درهم: تستعين بها على سفرك وزمانك، فيقول له عمرو: لا حاجة لي بها، فيحلف المنصور إلا يأخذها ويحلف عمرو ألا يأخذها، وكان المهدي ولد المنصور جالسًا، فيقول مستنكرًا: أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ وبغير مبالاة أو اكتراث يسأل عمرو المنصور من هذا الفتى؟ فيجيبه هو ولي العهد، ابني المهدي. وهنا ينطلق الحق من صميم قلب الرجل على لسانه: (أما والله لقد ألبسته لباسًا ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه، ومهدت له أمرًا أمتع ما يكون به، أشغل ما يكون عنه). ويختصر المنصور الحديث وقد آلمه قول الرجل: هل من حاجة؟ فيجيبه عمرو: لا تبعث إليّ حتى آتيك، وهنا ينفد صبر المنصور وقد آلمته جرأة عمرو وجرحت كبرياءه، فيقول: إذن لا تلقني، ولاتزيد هذه الإجابة من الخليفة عمرًا إلا استخفافًا وعدم مبالاة، فيقول: هي حاجاتي ويمضي فيتبعه المنصور ويقول:

كلكم يمشي رويد   كلكم يطلب صيد   غير عمرو بن عبيد

وعند خروجه لقي أبا أيوب المورياني وزير المنصور، فيقول له: يا أبا عثمان أظنك قد ردعت هذا الرجل؟ فيقول عمرو: نعم فإن استطعت أن تعين بخير فافعل وكفى بأمة شرًا أن تكون أنت المدبر لأمرها[1]. ومن معاني القوة إسلام عمر وإعلانه الهجرة.

- **الإيمان بالغيب وأثره في حياة الجماعة:**

قلنا: إن الإيمان بالغيب يؤثر في حياة الفرد واستعرضنا بعض النواحي التي تدلل على ذلك، وذلك يتضمن التأثير في حياة الجماعة، إذ الفرد لا يعيش منعزلا عن الناس. ومع هذا فسنتكلم عن بعض النواحي البارزة في الحياة الجماعية كآثار بارزة في حياة الجماعة وأهم هذه النواحي:

- **أولا: الناحية الاقتصادية:**

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ**

(١) بتصرف عن الإيمان وأثره في نهضة الشعوب ليوسف العظم ط٣ ص٥١.

السَّمَاء﴾[١]، وقال: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا من فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْت أَرْجُلِهِم﴾** [٢].

إن أولى خصائص هذه العقيدة لأنها تحمل السعادة لمن يطبقها، والشقاء لمن يعرض عنها. ومفهوم السعادة مطلق ويدخل فيه الجانب الاقتصادي.إن نظرية الإسلام الأولى في هذا المجال هي أن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لم يحب، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما يقسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه)**[٣]. إن المادة غير ممنوعة عن الكافر، بل كثيرًا ما نجد مؤمنًا فقيرًا، وكثيرًا ما نجد كافرًا غنيًا، ولكن ليس هذا مطردًا. إن كسب الدنيا يقوم على الجهد، وهذا يملكه الإنسان بغض النظر عن اعتقاده. ولكن الإيمان يبارك الجهد وبخاصة أن المؤمن يأخذ من الحلال، ويتصدق ويزكي، ويعتقد أن الرزق مكتوب. ولا ننسى أن الدنيا قد يفتحها الله على الإنسان المؤمن ليبتليه هل سينفق أم سيبخل. وإذا فتحها على الكافر فهي عقوبة من الله؛ لأن الكافر سيستعمل المال في المعصية، قال تعالى: **﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا﴾** [٤]، وها هو قارون قد أغرقه الله بالمال فكانت النتيجة البطر، وعدم شكر الله، فما نفعه ذلك، بل خسف الله به وبداره الأرض **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ من قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ**

---

(١) الأعراف/٩٦.

(٢) المائدة /٦٦.

(٣) رواه أحمد في مسنده جـ١ ص ٣٨٧.

(٤) الزخرف /٣٥.

إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (١).

وقد عبر القرآن عن الفقر والغنى بتعبير واحد وهو الابتلاء، فقال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ﴾**(٢). مع كل ما سبق يجب أن نعلم أن الإسلام لا يمنع أن يملك الإنسان الأموال الكثيرة، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من الأموال يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون)(٣)، وقال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** (٤).

بل المال الكثير يساعد على طاعة الله بشرط أن يحذر صاحبه، ويكون كل همه الآخرة، فيستعين بهذا المال على العبادة، والصدقة، وعمل المشاريع التي تعود على الجماعة بالخير، ودعم فقراء المسلمين ومحاربيهم وها هو عثمان سيد الأغنياء يجهز جيشًا كاملا هو جيش العسرة. إن الإيمان يطلب من المؤمن أن يبذل الأسباب لتحصيل الرزق، فإن جاءه بعد ذلك قليل فليرض، وإن كان كثيرًا فليشكر، ولابد أن

---

(١) القصص/٧٦ - ٨١.

(٢) الفجر/١٥ - ١٦.

(٣) رواه مسلم ط١ جـ١ ص ٤١٧ وانظر فتح الباري جـ٢ ص ٣٢٥.

(٤) الأعراف/٣١.

يعتقد أن الرزق بيد الله قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [(١)] ﴿ **اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ...**﴾[(٢)].

إن التفاوت في الرزق له حكمة أرادها الله، وهي أن يسخر الناس بعضهم البعض قال تعالى: ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** ﴾[(٣)]. إن الإيمان يطلب من المؤمن أن يتصف بالقناعة في الأمور الدنيوية؛ لأن ابن آدم لا يشبع كما في الحديث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن له واديًا آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب**)[(٤)]، وعليه أن يلهث وراء الآخرة وينافس فيها كما قال تعالى: ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [(٥)].

إن الإسلام يعترف بوجود طبقتي الغنى والفقر، لكنه لا يعترف بالجفوة بين الطبقتين، بل الود والاحترام؛ لأن الغني لم يجمع ماله من دم الفقير، ولا من حرام، ولا ينفقه في حرام ولا ينسى الفقير، بل يعطف عليه ويحبه، ولا يشعر بأنه أفضل منه؛ لأن الله يقول: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [(٦)]. والفقير لا يحقد على الغني لأن الله يؤتي فضله من يشاء. وحرم عليه الحسد وأباح له الغبطة. إن الحقد بين الطبقات كما تصورته الشيوعية لا يؤمن به الإسلام إذ مجتمع الإسلام أرفع من أن يكون هذا مستواه، ومع هذا فقد قرب الإسلام بين الطبقات ماديًا بعد أن قرب بينهما معنويًا. إن الإسلام يحترم الفرد والجماعة فلا فرد مذاب في الجماعة، ولا فرد يدوس مصلحة الجماعة، بل الفرد والجماعة معًا. إن الإنسان الذي جمع المال من الحلال ونماه بالطرق المشروعة لا يستطيع أحد أن يأخذ ماله؛ لأن هذا يعتبر حرامًا وأكلا لمال الناس بالباطل. ويجوز للدولة أن تأخذ في وقت الضرورة (كالحرب) من مال الفرد

---

(١) آل عمران /٧٣.

(٢) الرعد /٢٦.

(٣) الزخرف/٣٢.

(٤) رواه مسلم ط١ جـ٢ ص ٧٢٥.

(٥) المطففين/٢٦.

(٦) الحجرات/١٣.

الغني لمصلحة الأمة، ولا أظن مؤمنًا حقًا يضن بماله ويؤخره في الظروف العادية فضلا عن الضرورة.

وموضوع الصدقة السالف الذكر يدخل في الناحية الاقتصادية. إن الإسلام يحض على العمل كما سبقت الإشارة إليه، وقلنا: إنه عمل متقن لأن الله يحب العمل المتقن. ومعلوم أن الإنتاج لا يكون جيدًا إلا إذا كان العمل متقنًا يقوم به الإنسان بكل إخلاص.

إن المؤمن لا يرهب الطبيعة ولا يتعبدها، بل يبحث فيها ويسخرها لمصلحته، فلا قداسة لحيوان أو شجر، ولا تشله خرافات التطير والتشاؤم عن المضي في سبيل معاشه، ولا تقعده النجوم والمواسم، وهو متحرر من العصبيات لا يهاب الخروج والمهاجرة، ولا يتعزل الناس من غير أهله بل يتعامل معهم[1]. إن الإيمان يأمر أتباعه أن يتركوا الجشع والحسد والشح والاختيال، وهذه يعرفها مجتمع التجار، وعليه أن يتحلى بالرضى والصدق والإيثار[2].

ومما يضعضع الناحية الاقتصادية في المجتمع ضياع الحقوق المالية بطريق السرقة والاختلاس، وجحد العارية، والتهرب من أداء الحقوق والضرائب، وهذا كله قليل في مجتمع المؤمنين، إذ إن المؤمن ينطلق من نفسه إلى أداء ما عليه تجاه الآخرين.

والتجارة جزء من الاقتصاد، وقد أحلها الإسلام وأمر بها ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾[3]، وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: (**التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء**)[4]. وذكر الإمام الغزالي في الإحياء عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة دراهم فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسيات بعشرة دراهم، فلما عاد ابن المنكدر وعرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك بما يساوي خمسة بعشرة، فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت، فقال: إن

(١) الإيمان وأثره في حياة الإنسان للدكتور حسن الترابي ص ٢٣١ بتصرف.
(٢) المرجع نفسه بتصرف.
(٣) البقرة/٢٧٥.
(٤) رواه الترمذي جـ٥ ص ٢١٣ وقال هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي[1]. ومجتمع الإسلام يرفض الربا لأنه من عوامل هدم الاقتصاد السليم.

ثانيًا: نظام الحكم:

إذا كان سلوك الفرد وأخلاقه تقوم على عقيدته، وحياة المجتمع وأخلاقه كذلك تقوم على العقيدة، فالنتيجة الطبيعية أن نظام الحكم يجب أن يقوم على العقيدة؛ لأن هذا النظام يتصل بحياة الجماعة، والقائمون على أمر هذا النظام هم أفراد من المجتمع. وقد راعى الإسلام في بنائه لنظام الحكم التركيز على الفرد؛ لأن رئاسة الدولة بيد الخليفة ومساعدة مجلس الشورى المحيط به. وأول أسس الحكم الإسلامي أن القانون الذي يجب على الدولة تطبيقه هو المستمد من القرآن والسنة، فحق التشريع لله وحده متمثلا هذا التشريع فيما جاء في الكتاب والسنة، ويبقى بعد هذا مجال الاجتهاد ليس تشريعًا، ولكنه إلحاق بنص، أو استنباط منه، أو قياس عليه، وهذا من مستلزمات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ**﴾[2]، وللشهيد سيد قطب كلام طيب حول هذه الآية إذ يقول: (إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء ادعى هذا الحق فرد، أم طبقة، أم حزب، أم هيئة، أم أمة، أم الناس جميعًا بصورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرًا بواحًا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة حتى بحكم هذا النص وحده. وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعًا لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه. فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول: أنا ربكم الأعلى كما

---

(١) الإحياء ربع العادات ص ٧٢.

(٢) يوسف/٤٠.

قالها فرعون جهرة، ولكنه يدعي هذا الحق، وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، أي: التي تكون هي مصدر السلطات جهة أخرى غير الله سبحانه.. ولو كان هم مجموع الأمة أو مجموع البشرية. والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشرعية الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هو الله ففرق بين مزاولة السلطة ومصدر السلطة)(١).

فالتشريع بيد الله، واجتهاد العلماء إنما هو تفريع على أصول موجودة، أو إلحاق بصورة مشابهة وهكذا.

ونحن إذ نركز الكلام حول هذه النقطة؛ لأن واقع بلاد المسلمين يحتاج إليها. ففي العصور الأولى الإسلامية كان هذا الأمر مسلمًا به، ولم يكن محلا لنقاش حتى في زمن بعض الخلفاء الذين أثرت عنهم مخالفات لأحكام الإسلام. فمخالفاتهم تعتبر معاصي شخصية خاصة بهم، وإن كان عليهم وزر أكثر لكونهم محلا للقدوة. أما من حيث نظام الدولة التي كانوا يحكمونها فلم يكن هناك قانون آخر أو تشريع آخر، إنما هو القرآن والسنة.

لم يكن هناك عزل لقوانين الإسلام عن نظام الحياة والمجتمع، ولم يكن هناك قانون آخر مكتوب ولا مجلس للتشريع؛ لأن القانون الإسلامي مكتوب وكامل منذ وفاة الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾ (٢).

ولا يجوز التساهل في هذا الأمر بحجة أن التكفير مسألة خطيرة. حقًا إن التكفير مسألة ليست سهلة، ولكن إدخال الكافر في الإسلام أمر -أيضًا- ليس بسهل، وكما يجب الحذر من التكفير؛ فيجب الحذر من إدخال الكافر في الإسلام. إن الإسلام ليس وسامًا ولا شعارًا يعطى لكل إنسان جزافًا واعتباطًا، ولكنه دين الله يوصف به الإنسان إذا التزم ما طلب منه ربه قدر استطاعته، ولهذا توجد أركان

---

(١) في ظلال القرآن جـ٤ ص ١٩٩٠ دار الشروق ط٧.

(٢) المائدة/٣.

للإسلام، وأركان للإيمان.

لقد قاتل أبو بكر من منع الزكاة، فكيف بمن منع الصلاة، أو حكم بغير ما أنزل الله.

ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين جعل الحاكم الجائر المغير لأحكام الله[١] من رؤوس الطواغيت، وثنى عليها بصفة أخرى، ورأس آخر من رؤوس الطواغيت فقال: (الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [٢]. إن الفساد الذي يخلفه الحكم بغير ما أنزل الله أكثر من أن يوصف وهو مشاهد في بلادنا الإسلامية، ويكفي في وصفه قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ [٣]. وبالمقابل فإن الحكم بما أنزل الله يجعل المجتمع يعيش في حالة من السعادة لا توصف، فمحبة متبادلة بين الحاكم والمحكوم وليس حقدًا ولا كرهًا. ويشعر الحاكم بأنه من الناس وأن الناس له، فتسير الأمور في ظل من الأخوة والثقة، ولا يبقى مجال للسارقين والنفعيين.

والتاريخ الإسلامي الأول، وبخاصة فترة الخلفاء الراشدين هي أكبر دليل عملي على الواقع السعيد الذي تعيشه الأمة في ظل حكم الله. والقصص في هذا المجال أكثر من أن أرويها هنا، وهي معروفة لدى معظم الناس. فثبت بالتجربة أن المجتمع إن حكم بالإسلام فله السعادة في الدارين، كما قال تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى**﴾[٤].

---

(١) مجموعة التوحيد ص٩ نشر دار الإفتاء.

(٢) المرجع السابق ص١٠.

(٣) طه/١٢٤.

(٤) طه/١٢٣.

الباب الثالث

العلاقة بين الغيب والعلم

الفصل الأول
العلم والغيب

- **العلم والغيب:**

في البداية يجب أن نتفق على حقيقة، وهي: أن للعقل -وهو أداة العلم- مجاله الخاص الذي يفكر فيه كما شاء بمنطقه وقيوده وشروطه، يجول فيه كما شاء لا يقيده شيء خارج عنه، وهذا المجال يتمثل فيما يلي:

١- الكون وما تنطوي عليه آفاقه من قوانين، وقد استقامت البحوث العلمية في مجال الكيمياء والطبيعة والهندسة والفلك والأحياء وتمهدت مناهجها. وليس أمام الفكر الإنساني حرج في ارتياد هذه الميادين الكونية، وليس له حدود يقف عندها، كما قال تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا..﴾**[1] وقال: **﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾**[2].

٢- شئون الدنيا وأساليب ارتفاق الإنسان من هذه الطبيعة التي تمهدت له، وما يزخر به عالم الصناعة والزراعة والتجارة والطب والحرف، وما أفادته الأمم من خبرات في هذه الأنحاء كلها. فالعقل يتحرك هنا دون قيد[3]، ولهذا ورد عن الرسول ﷺ قوله: (**أنتم أعلم بشئون دنياكم**)[4].

أما ميدان العقيدة والعبادة وما وراء المادة فلا مجال للعقل فيها، يقول ابن خلدون[5]: (.. بل العقل ميزان صحيح غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد

---

(١) العنكبوت ٢٠.

(٢) الرحمن ٣٣.

(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين. لمحمد الغزالي، ط٤، ١٣٩٥هـ ص١٢ - دار الكتب / مطبعة حسان. القاهرة.

(٤) رواه مسلم جـ٤ ص ١٨٣٦ ط١ الحلبية.. (عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال ما لنخلكم؟ قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمر دنياكم).

(٥) عن مقدمة ابن خلدون تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي. جـ١ ط١ ١٣٧٦هـ مطبعة لجنة البيان العربي (ابن خلدون هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ولد عام ٧٣٢هـ وتوفي عام ٨٠٨هـ أصل أسرته من اليمن، دخلت الأندلس مع الفاتحين المسلمين تولى القضاء في مصر. درس القرآن والقراءات والتفسير والحديث والفقه المالكي واللغة والشعر والفلسفة والمنطق ومارس التدريس).

والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال)[(١)]. وقد رفض الإمام مالك رضي الله عنه أن يفسر الاستواء من هذا الباب. وما العداء الذي قام بين المحدثين والمتكلمين في إلا لخوض المتكلمين في مالا مجال للخوض فيه. وقد روى أبو هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: (**أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه**)[(٢)]. يقول عبد الكريم الخطيب: (.. والحق أن شهادة العقل عن عالم ما وراء الحس شهادة بعيدة عن الحقيقة، إذ العقل في هذا الموقف لا يشهد عن علم ولا يخبر عن عيان، وإنما يشهد بما يقع في الوهم، وما يتصيده الخيال ولقد أجرت الإنسانية العقل في هذا الميدان.. قديماً وحديثاً فلم تبلغ بها غاية ولم يحقق بها مطلباً.. وقد أصبح من الحقائق المتعمدة في الفلسفة أن العقل لن يدرك كنه الوجود سواء الظاهر منه أو الباطن، وأنه إن أدرك شيئاً من عالم المادة فلن يدرك إلا بعض الظواهر التي تلوح على سطحها، أما أعماقها وأغوارها فلا يصل إلى شيء منها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[(٣)].

وقد تكشفت هذه الحقيقة لفلاسفة الهنود قديماً تكشفاً واضحاً، فهاجموا الجسدية المادية، ومارسوا الرياضة الروحية، ونبذوا العقل كوسيلة للاتصال بما وراء الطبيعة.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٠ مطبعة مصطفى محمد بمصر - المكتبة التجارية.

(٢) انظر الترمذي جـ٨ ص ٢٩٥ بشرح ابن العربي، قال أبو عيسى وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري وصالح المري له غرائب ينفرد بها ولا يتابع عليها.

(٣) الروم ٧.

إن العقل لا يدرك كنه الوجود.. إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذي تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع في أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد؟.. ويقرر كانت أن الإنسان يعرف من الأشياء ظواهرها، أما الأشياء ذاتها فمستحيلة الإدراك(١).. ويقول هربرت سبنسر: (إن في أمر الخلقة سراً عالياً يعجز الفكر والذكاء البشري عن الإحاطة به(*)) ويقرر الفيلسوف الأمريكي برجسون أن العقل هو الامتداد الطبيعي لحواسنا، ولهذا فإن موضوعه الأول هو المادة الجامدة.. ويقول: (إن من أخص خصائص العقل عجزه الطبيعي عن فهم الحياة).. وينكر الفيلسوف نيتشه مقام العقل في التعرف على الحقائق.. ويشكك ديكارت في حقيقة ما يقع تحت الحواس، إذ من المحتمل أن يكون مجرد أحلام ورؤى وأوهام.. ويتبع ديكارت الفيلسوف بركلي)(٢).. ويقول في موضع آخر: (وظيفة العقل هي إدراك ما يقع له من مظاهر الوجود.. وقد ينتج الإدراك معرفة، ولكنه لا يقيم إيماناً.. ذلك أن الإيمان أكبر من الإدراك وأعلى من المعرفة.. الإدراك يتعامل مع المحدود، والإيمان يتعامل مع اللامحدود.. وعلى هذا يكون ما ليس بمدرك موضوعاً للإيمان، ويكون عالم الغيب أو العالم غير المنظور واقعاً موقع الإيمان من الناس، وإن لم يكن واقعاً في مجال الإدراك أو الحس..)(٣). ونحن إذ نتكلم عن العقل حيث إنه أداة العلم فهو لا يناوئه. أما العلم فهو يطلق بمعنى:

١- العلم البدهي مثل: الكل أعظم من الجزء، وما علم بواسطة الحواس، وما علم بالدليل العقلي.

٢- الاسم لكل علم من العلوم المدونة، كالهندسة، والفلسفة، والمنطق، والطبيعة والفقه، وأصوله، وأصول الدين وغيرها.

---

(١) انظر كتابه (نقد العقل المجرد).

(*) انظر ص ٤٩ كتاب (العلم والدين للمشير أحمد عزت باشا التركي. ترجمة حمزة طاهر – طبع القاهرة عام ١٣٦٩هـ).

(٢) بتصرف عن (الله ذاتاً ومضموناً) لعبد الكريم الخطيب ط٢، ١٣٩١هـ – دار الفكر العربي ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق.

والعلم بالمعنى الأول مؤيد للدين، أما العلم بالمعنى الثاني فإنه يحكم على موضوعه، أما ما وراء ذلك فليس له الحق أن يثبت أو ينفي. فالعلوم منها ما يؤيد ومنها ما يحايد، ولا يوجد منها ما يعارض أو يمانع أساس الدين. ولهذا قال و. س. وون -من علماء الإنجليز المشهورين-: (إن الإلحاد على الأسس العلمية غير قابل للتحمل)[١]. ولهذا فإنه كلما تقدم العلم اقترب من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢]. والعلماء لفظ مطلق وإن كان أول من يقع عليهم علماء الدين. إنه كلما تقدم العلم فقدت فلسفة الماديين مكانتها، لكن الناس لا يجمعون على شيء واحد، فلابد من وجود أناس يشذون عن الخط العام الذي تسلكه البشرية، فالذين يرددون الصيحات المادية باسم العلم، وادعوا لأنفسهم الموضوعية هم أبعد الناس عن ذلك بل هم الشواذ. إنهم يخلطون الحق بالباطل، فالعلم حق، لكن رفض الدين باسم العلم باطل. لقد وصل بهم[٣] الحد أن يقولوا: (من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات، ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات)[٤]. ومن قال لكم إن الدين والعبادة تأمركم أن لا تصنعوا طائرات ودبابات وغيرها؟.. ومن قال لكم إن الدين يطلب البخور؟ أما الخرافات فالدين لا يعترف بها أصلاً ولا يقر أصحابها، كما قال ﷺ: (**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**)[٥].

ولمزيد من التوضيح حول هذه النقطة ذكرناها تحت عنوان (الكهانة والغيب).

أما العلم فإنه يؤيد الدين وقد وصل الإنسان إلى صناعات واختراعات تؤيد

---

(١) بتصرف عن (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين) مصطفى صبري ١٨٧٠هـ نشر المكتبة الإسلامية ص ٢٧٥ المجلد الثاني.

(٢) فاطر ٢٨.

(٣) أي ملحدي البلاد الإسلامية.

(٤) ذكر عبارتهم مصطفى محمود في كتابه (رحلتي من الشك إلى الإيمان) دار العودة، بيروت، ص ٦.

(٥) قال في فتح المجيد (رواه الأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما). ص ٢٩٦م الإسلام ١٣، جـ ٤٢٩/٣، ٦٨/٤، ٢٨٠/٥.

الدين وتجعله قريباً من الإنسان. فالسينما والتليفزيون والمسجل اختراعات تقرب للذهن الأشياء الغيبية التي قال بها الدين. فإننا نرى كثيراً من الأشخاص المشهورين الذين ماتوا وانقطع خبرهم على شاشة التليفزيون وهم في حالتهم الطبيعية يقرأون ويتكلمون، فهذه قدرة الله رب العالمين[١]. ومن الأشياء التي أثبتها العلم أن الأمواج الصوتية تبقى في الأثير إلى الأبد فمن الممكن سماعها مرة أخرى وهذا يؤيد ما يقرره الدين من أن أعمال الإنسان مسجلة. وأوضح من ذلك المسجل الذي بين أيدينا يسجل كل كلمة بل كل همسة، فكيف بقدرة الله تعالى القائل: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[٢].

وها هي الإذاعات تبث موجاتها الصوتية ومع هذا نستطيع تمييز الأصوات فكيف بقدرة الله على ذلك سبحانه وتعالى؟.. ومما قرره العلم حديثاً وجود أشياء فيما وراء المادة، وهي ما تسمى عند الغربيين بالمباحث الروحية. يقول وليم مكدوجل أستاذ علم النفس بجامعة بيرمون، وهو عمدة في علم النفس الاجتماعي، ومن أعظم علماء النفس في القرن العشرين في كتابه إرادة الاعتقاد: (جمعية المباحث الروحية التي امتد علمها إلى انجلترا وأمريكا رئيسها الأستاذ سد جوبك المعروف بأنه أشد الناس شكيمة في النقد وأعصاهم قياداً للشك في جميع البلاد الإنجليزية، وجميع أعضائها من أصحاب الكفاءات العلمية. وهي جمعية تقبل في عضويتها المؤمنين بوجود الأرواح والمناهضين لها، وكل ما تشترطه الاهتمام بالروح كظاهرة طبيعية. وقبل إنشاء الجمعية حمل الرأي العام المجتمع الإنجليزي مهمة البحث في حقيقة الأمر، فتألفت لجنة من ثلاثة وثلاثين عالماً استمروا مدة ثمانية عشر شهراً، كتبوا في النهاية تقريراً (٥١٤ صفحة) وطبع إلى أكثر اللغات، جاء فيه: (عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفي كل احتمال في إعداد آلات لإحداث هذه الظواهر، أو أية وسيلة أخرى، وتحاشت اللجنة استخدام الوسطاء، بل قام بالعمل أحد أعضاء اللجنة وهو رجل ثقة. وكان ٤/٥ رجال اللجنة مقتنعين في

(١) بتصرف عن (الحياة بعد الموت) رضا المطوف السماوي. دار الزهراء بيروت ط١، ١٣٩٣هـ ص ٢٩٣.

(٢) ق ١٨.

البداية أن الأمر خرافة وتدليس، ولكن تنازل هؤلاء عن رأيهم بسبب ما رأوه واقتنعوا بأن هذه المشاهدات حقه لا غبار عليها)[١].

واستجابة إلى الانسجام بين الدين والعلم آمن كثير من العلماء في شتى الفنون. ويقسم العقاد العلماء من حيث الإيمان، فيقول: (من العلماء من عقيدته تقرير وتوكيد، ومنهم من عقيدته ترجيح ورغبة، ومنهم من عقيدته استعداد وانتظار، وحصة هؤلاء في تأييد العقيدة غير قليلة لأنها بمثابة "فتوى علمية" بأن العلوم التي تفرغوا لها وبلغوا مبلغ الثقة فيها لا تعارض الإيمان في أساسه، ولا تمنع صاحبها أن يفتح صدره وضميره لعالم الغيب، فليس عالم الشهادة عندهم بالعالم الوحيد)[٢].

وإليك أقوال بعض العلماء وهم يعبرون عن إيمانهم بالغيب مقررين بذلك أن الدين لا يتعارض مع العلم، بل العلم يقود إلى الدين الحق.

يقول وولتر أوسكار لندبرج: (للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره، إذا استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله، فالمبادئ الأساسية التي تستند إليها الطريقة العلمية التي يجري بحوثه على مقتضاها هي ذاتها دليل على وجود الله)[٣]، ويقول بول كلارنس ابرسولد: (والحق أن التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله)[٤].. ويقول جورج إيرل دافيز: (كلما تقدم ركب العلم وتضاءلت الخرافات القديمة، ازداد تقدير الإنسان لمزايا الدين والدراسات الدينية)[٥]، ويقول توماس دافيد باركس: (وإنني أجد شخصياً أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله حكيم خبير، وتصميم خالق علوي يعد تفسيراً مرضياً للنفوس ومقنعاً للعقول. إنني أرى في كل

---

(١) دائرة معارف فريد وجدي جـ١ ص٢٤٦.

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين ص٨١. بتصرف.

(٣) انظر ص٣١ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان – نشر مؤسسة الحلبي وشركاه بمصر.

(٤) انظر ص ٣٩ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

(٥) انظر ص ٣٩ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة، إنني ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم)[١].

يقول دونالد روبرت كار[٢]: (ويتجلى التوافق بين العلوم والدين في ذلك النشيد الديني الذي أستمع إليه تتغنى به الملايين في أمريكا، والذي كان تأليفه من وحي الكشوف العلمية الحديثة التي تمت في السنوات الأخيرة، ويقول هذا اللحن: (يا إلهي العظيم، عندما أنظر بعجب ورهبة إلى كل العوالم التي صنعتها يداك، وأبصر النجوم، وأسمع هدير الرعد وزمجرته، وعندئذ تتجلى لي قوتك في كل أرجاء الكون، عندئذ تغني روحي وتناجي إلهي الكبير: ما أعظم إبداعك، ما أعظم إبداعك)[٣] وها هو سير أوليفر لودج مخترع صمام الراديو يؤمن بالله ويزاول الصلاة[٤]. ونجد ألكسيس كاريل يؤمن بوجود كائنات غير منظورة تملأ الفضاء حولنا، ويقول: (إن الصلاة تجعلنا على صلة بتلك العقول الخفية، وتجعلنا محلاً لعنايتهاوإلهامها)[٥]. وهو يقرر أن الله لازم للإنسان لزوم الماء والأكسجين. ويقول روبرت بروم عضو الجمعية الملكية الإنجليزية: (ولقد كانت مباحثي في الخمسين سنة الأخيرة مفرغة على الأكثر لدراسة الحفريات الفقارية، ولم تقنعني هذه المباحث بأن أنواع الحياة الأخيرة قد جاءت من طريق التطور وكفى، بل أقنعتني كذلك بأن هذا التطور لم يحدث جزافاً ولا عرضاً، ولكن حدث بهداية، أو هدايات روحانية)[٦] وغير هؤلاء العلماء كثير جداً يصعب حصرهم، ولا مجال لذكرهم هنا، وأكتفي بما ذكرت.

---

(١) انظر ص ٤٥ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

(٢) أستاذ الكيمياء الجيولوجية – حاصل على الدكتوارة من جامعة كولومبيا – مساعد بحوث بجامعة كولمبيا – أستاذ مساعد بكلية شلتون – أخصائي في تقدير الأعمال الجيولوجية باستخدام الإشعاعات الطبيعية.

(٣) انظر ص ٨٧ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

(٤) انظر ص ٩٥ في كتاب "الله" لمصطفى محمود. دار العودة بيروت – ط١ ١٣٩٢هـ.

(٥) انظر كتابه (الإنسان ذلك المجهول) ونحن إذ ننقل كلامه لا يعني هذا الموافقة عليه كله فعبارة العقول الخفية تعبير خاطئ عن الله وكذلك تشبيه لزوم الله بلزوم الأكسجين.

(٦) انظر ص ٨٧ (عقائد المفكرين في القرن العشرين) لعباس محمود العقاد. بتصرف.

ومما ينقض قول القائلين بأن الدين يتعارض مع العلم، أو العلم يتعارض مع الغيب توضيحنا لموقف الإسلام من العلم، لقد وردت كلمة العلم ومشتقاها في القرآن على نحو يزيد على خمسين وثمانمائة مرة مقترناً بالثقة، ورفع الدرجة، و لم يُدِن إلا ترك التعلم، وترك العمل بما علم. ومقابل العلم يدين القرآن الظن. وأول ما يذكر في هذا المجال قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾(١) كأول آية نزلت من كتاب الإسلام العظيم. وهذا الكتاب وهو القرآن الكريم مليء بالآيات التي تتحدث عن العلم، وقد بلغ عدد الآيات التي ذكرت المعرفة أكثر من (٧٠٠) آية، شملت الفلك والجغرافيا، والطب، بفروعه العلاجي والوقائي، والنفسي والاجتماعي، وعلوم النبات والزراعة، والطبيعة، والكيمياء، وعلوم الذرة، وغزو الفضاء(*). ومن الآيات قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ**﴾(٢)، فوضع العلماء بعد الملائكة الأطهار مباشرة في أقدس شهادة، وهي توحيد الله تعالى، وقوله: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾(٣)، وقوله: ﴿**بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ**﴾(٤)، وقوله ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾(٥)، ويذيل الآيات الكثيرة بـ﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ ﴿**يَتَفَكَّرُونَ**﴾ ، ثم طالب بالمقابل مهاجمة الذين لا يحترمون عقولهم ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾(٦)، ووصفهم بالدواب ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾(٧).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة نذكر منها قوله ﷺ: (**من سلك طريقاً يلتمس**

---

(١) العلق ١.

(*) انظر كتاب (السنة والعلم الحديث) لعبد الرازق نوفل ص ٤٧، دار الشعب.

(٢) آل عمران ١٨.

(٣) فاطر ٢٨.

(٤) البقرة ٢٤٧.

(٥) الزمر ٩.

(٦) الأعراف ١٧٩.

(٧) الأنفال ٣٢.

فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة)[١]، وقوله: (**من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)**[٢] وقوله: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ذكر منها "علم ينتفع به")**[٣]، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: (**من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تام حجته)**[٤]، وقوله: (**اغد عالما أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا ولا تكن الخامس فتهلك)**[٥] وقال: (**من يرد الله به خيـــرًا يفقهه في الدين)**[٦].

وروي أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي في الرياضيات السماوية لبطليموس على أستاذه الأبهري، فدخل عليهما بعض الفقهاء يومًا، فقال لهما: ما الذي تقرأونه؟ فقال الأبهري: (أفسر آية من القرآن وهي قوله: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**﴾ فأنا أفسر كيفية بنائها). قال الرازي: (ولقد صدق الأبهري فيما قال)[٧]. ومما يذكر في هذا المجال قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾[٨] فلابد من إعداد كل قوة حسب العصر وهذا يقتضي المعرفة الدقيقة.

ثم فداء أسرى بدر بتعليم عشرة من المسلمين أمر يذكر في هذا المقام، ولا ننسى

---

(١) رواه الترمذي ١١٥/١٠ وقال هذا حديث حسن - قال ابن حجر جـــ١ ص ١٤١ (والأحاديث في فضل العلم كثيرة صحح مسلم منها حديث أبي هريرة رفعه (من التمس طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) و لم يخرجه البخاري).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٣) رواه مسلم جـــ٣ ص ١٢٥٥ ط١.

(٤) قال في مجمع الزوائد جـــ١ ص١٢٣ (رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثوقون كلهم.

(٥) قال في مجمع الزوائد جـــ١ ص١٢٢ (عن أبي بكره قال سمعت النبي ﷺ يقول اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك قال عطاء قال لي مسعر زدنا خامسة لم تكن عندنا والخامس أن تبغض العلم وأهله رواه الطبراني في الثلاثة والبزار ورجاله موثوقون).

(٦) البخاري مع الفتح السلفية جـــ١ ص ١٦٤.

(٧) بتصرف عن (الإسلام والمبادئ المستوردة) لعبد المنعم النمر ص٨١.

(٨) الأنفال ٦٠.

موقف الحضارة الإسلامية في زمن الرازي وابن سينا وغيرهم من العلماء في كافة المجالات من طب وهندسة وجبر وصيدلة وفلك وجغرافية وعلم اجتماع...إلخ.

وقد وضح علماء الإسلام اتفاق العقل مع الوحي كما ذكر ذلك ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه (موافقة صحيح المنقول لصريح العقول)، ومحمد عبده في كتاب (تاريخ الأمم جـ٢، ص ٢٥٩)، وابن رشد في كتاب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)، ويقول الأستاذ محمد قطب: (إن العلم وهو فريضة كان يقرب القلوب إلى الله ولا يبعدها عن هداه. نعم لم يحدث في الإسلام تلك الفرقة البغيضة بين العلم والدين، وكيف تحدث والعلم فريضة يتقرب بها الإنسان إلى الله، وكيف يتقرب إليه بالبعد عنه والنفور منه؟ كلا. إن العلم نور، موهبته المعجزة التي وهبها للإنسان وهي أولى بالشكر لا بالكفران.. لا يحدث في التاريخ الإسلامي أن عالماً يبحث في الفلك أو الطبيعة أو الكيمياء وجد نفسه معزولاً عن العقيدة، أو وجد أن العقيدة تعطله عن البحث العلمي الدقيق، ولم تقم الحرب والخصومة في قلب مسلم بين العلم والعقيدة. وإنما عاش في ظلال العقيدة يتقدم وينشط ويصل إلى كشوف هائلة أقر بها المتعنتون أنفسهم من علماء أوروبا دون أن يفترق الطريق لحظة أو يحدث الشقاق. ذلك أن العلم فريضة إلى الله تؤدى كما تؤدى الصلاة والصيام والزكاة)[١]، وهذا هو ما ورد في الحديث: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**). وسبق أن قلنا إن المسلمة تدخل تحت كلمة المسلم وإن كانت لم ترد نصاً.

إن القرآن كتاب الله المقروء، والكون كتاب الله المنظور[*] فكيف يتعارض الكتابان وهما مضافان إلى رب واحد. إن الذي خلق السموات والأرض والكون كله، وبث فيه القوانين والسنن هو الله رب العالمين، منزل الكتب ومرسل الرسل، فلا يمكن أن يتعارض كلام الله في كتبه مع سننه المبثوثة في الكون، وما العلم إلا اكتشاف لهذه السنن. حقاً إنه تعارض في العصور الوسطى العلم مع الكنيسة، لكن من قال إن كلام الكنيسة هو كلام الله؟ (وقد أدرك هذا الأوروبيون أنفسهم،

(١) قبسات من الرسول: محمد قطب. ص٤٢ مكتبة وهبة ط٢ ١٨٨٢هـ.

(*) انظر: الطب محراب الإيمان، جـ٢ ط١ ص٧ -دار الكتب العربية ١٣٩٤هـ خالص الحلبي.

فكانت حركات الإصلاح التي قام بها لوثر (المتوفى سنة ١٥٤٦)، وكلفن (المتوفى سنة ١٥٦٤)، وحاربوا تعاليم البابا، وسموها: تعاليم الشيطان، مثل: عقيدة التثليث، وصكوك الغفران، والاعتراف)[١].

إن كلام الله الحق الذي لم تصله الأيدي المحرفة لا يمكن أن يتعارض مع السنن المكتشفة (وهي العلم). إن الكتب السماوية التي أنزلها الله ليست كتب علم محض بمعنى أن فيها تعليماً صناعياً وتكنولوجيا، وأقوالاً في طرق الاختراع وما شابه ذلك، بل هي كتب هداية وإن كان هذا لا يعني أنها خلت من الإشارة إلى أشياء كثيرة في مجال العلم بل ذكر الشيء الكثير، لكن هذا لا يدفعنا إلى الوقوف بجانب فريق من الناس يحاولون القول بأن في القرآن شيئاً من العلم، وذلك بغرض الدفاع عن الدين وأنه يتفق والعلم.

وقد أدى هذا المسلك إلى تأويل بعض النصوص وإخراجها عن مقصودها، ولهذا كان مسلكاً باطلاً خرج عن مسلك الحق المتمثل في اعتبار الكتب الربانية كتب هداية فيها إشارات إلى العلم، وفيها قواعد عامة، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا**﴾[٢]، وليس فيه أن الصعود إلى القمر محرم أو غير ممكن وما شابه ذلك، بل الأمر متروك لعقول البشر وطاقاتهم في البحث.

وإنني لست مع الذين يخشون تقدم العلم، ولو دققوا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٣] لحضوا الناس على البحث والتبحر في العلم؛ لأنهم لن يصلوا إلا إلى ما يقربهم إلى ربهم، وهذا ما حصل مع كل من تبحر في علمه.

إنه لا يمكن لأية نظرية علمية أن تصطدم مع آية قرآنية أو حديث نبوي صحيح. وإن حصل فهذا يعني أن النظرية لم تثبت بعد. وما أكثر النظريات العلمية التي اعتبرها الكثيرون حقائق فلم تلبث أمام طرقات العلم نفسه أن تغيرت وتبدلت. ولا زلت أذكر أستاذ الكيمياء حين أراد أن يشرح لنا النظرية الذرية وإذ به يقول قبل أن

---

(١) انظر العقيدة وأثرها في بناء الجيل للدكتور عبد الله عزام ص٤٠.

(٢) العنكبوت ٢٠.

(٣) فاطر ٢٨.

يشرحها: (وهذه النظرية التي سنشرحها قد اكتشف العلماء نظرية بديلة لها).

إن التعارض إن وقع يسلك تجاهه كما هو في مبحث علم أصول الفقه إما الجمع بين الدليل العقلي والدليل النقلي -إن أمكن الجمع- وإما الترجيح وذلك بالتأكد من الدليل العقلي، فإن ثبت قطعاً فلابد من التأكد من الدليل النقلي، فإن كان حديثاً بحث عن صحته وإن كانت آية ظنية الدلالة رجع إلى تفسيرها. ولا يمكن أن يستقيم الاثنان وهما متعارضان، اللهم إلا أن يكون فهم وعقول البشر لم تدرك السر في الموضوع، فبالتعمق في العلم والفهم للدين نصل إلى الحق، والجهل بهما يؤدي إلى ما يسمى بالتعارض.

إننا لا نثبت النصوص النقلية لأن العلم أثبتها، ولكن نأتي بشهادة العلم لتصفع الذين يتبجحون بالعلم ويرددون مالا يعرفون ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً**﴾[١].

إن العلم[٢] له منهاج، والنقل له منهاج. وهما مختلفان من حيث المصدر، متفقان من حيث النتائج. وعليه فلا يجوز للعلم أن يحكم على الأمور التي هي من اختصاص النقل. فالغيبيات مثلاً من اختصاص النقل لا يجوز للعلم أن يحكم عليها؛ لأن منهجه التجريب، وهذه أمور مجردة لا تخضع للتجربة، وكل ما يمكن للعقل أن يحاول تقريب هذه المعاني إلى الأذهان. وواقع العلم يؤيد هذه الفكرة حيث إن العلم عاجز عن كشف سر الروح، وسر الموت، وسر الحياة وغيرها. إننا نرفض الفلسفة (الميتافيزيقية)، وهي تخيلات العقل الإنساني لما وراء الطبيعة؛ لأنها استعمال للعقل في غير ما اختص به.

إن للعلم مجاله الخاص، وهو: الاكتشاف والاختراع،فإذا وصل العلم إلى شيء مما كان غائباً عن الناس فهذا لا يعني أنه علم الغيب، بل الأمر لا يخرج عن إطار معرفة السنن المبثوثة في الكون. إن التعارض المزعوم بين الدين والعلم أمر غريب على

---

(١) البقرة ١٧١.

(٢) يقصد بالعلم الأمور العقلية وإلا فكلمة العلم تطلق على النقل أولاً بل هو العلم الحقيقي وإن كان الاصطلاح العصري أن يطلق على المخترعات والمكتشفات.

ديننا. إن الغيب الذي نؤمن به يأمرنا بالنضوج العقلي باستعمال العقل فيما يعود علينا بالخير وفي هذا دفع للعلم إلى الأمام.

إن الإيمان بالغيب يصون الطاقة العقلية أن تضيع في غير ما يعود على الإنسان بالنفع. إن الاكتشافات والاختراعات يرضى عنها الله تعالى ويحض عليها. وكلمة الغيب تذكر بما غاب عن العقول مما يمكن معرفته من النواميس والسنن الكونية التي تهيء للناس سبل العيش الهنيء وهذا أمر مطلوب، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾(١). إن الإسلام فرض ما يعرف بفرض الكفاية، وهو ليس قاصراً على صلاة الجنازة التي إن قام بها البعض سقط الطلب على الباقين، لكن فرض الكفاية أوسع من ذلك، يمتد إلى كل ما يحتاجه المسلمون من فنون الحضارة والرقي والتقدم، فمن الواجب والمفروض أن يكون من المسلمين من يتقن هذا الفن من الفنون ويعرفه حتى يستغني المسلمون عن غيرهم ولا يكونوا تحت رحمة أحد إلا الله تعالى. وهذا بالطبع دافع عجيب إلى العلم حيث إن الإسلام يضعه تحت باب (الفرض)، وهو ما يعاقب الله على تركه ويثيب على فعله. فإذا لم يوجد بين المسلمين من هو متخصص في فن من الفنون كلها التي تفيد المسلمين وتعود عليهم بالخير فهم جميعاً آثمون(٢). وهذا معلوم لكل من عرف الإسلام حق معرفته، أما السطحيون الذين يهاجمون دون دليل ولا بينة فهؤلاء لا يبحثون عن حق، بل هو تعصب أعمى وحقد دفين. ولهذا نرى جوليان هكسلي يستعمل كلمة الغيب في معرض كلامه عن الجهل، وهذا مرفوض في التصور الإسلامي السليم. إن الذين تعمقوا في دراسة العلوم وتمسكوا بقول الحق وهم غير مسلمين أقروا قضية الغيب، أما الذين يهاجمون الغيب ويجعلونه مرادفاً للجهل فهم

---

(١) الأعراف ٣٢.

(٢) قال عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه ص ١٠٨ الطبعة العاشرة ١٣٩٢هـ دار القلم: (ينقسم الواجب إلى عيني وكفائي: الكفائي ما طلب الشارع فعله من مجموع المكلفين لا من فرد بحيث إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين كالأمر بالمعروف، والصلاة على الموتى وبناء المستشفيات وإنقاذ الغريق وإطفاء الحريق والطب والصناعات التي يحتاج إليها الناس..).

الذين أخذوا نتفاً من العلم دعوا إلى فكرهم ليبرروا سلوكهم المخالف لمقتضى الإيمان بالغيب. تقول الدكتورة بنت الشاطئ: (وهل يخرج العالم عن أحد اثنين:

١- أن يكون متديناً فيصدق بما جاء عن هذه الغيبيات في الدين الذي نؤمن به، ويأبى عليه إيمانه وعقله أن يخوض فيما وراء ذلك مما استأثر الله بعلمه.

٢- أو يكون غير متدين فيعصمه علمه من الرجم بالظن فيما لا يعلم وإنما حسبه أن يتوقف ولا يقول بنفي ولا إثبات. إذ إن النفي والإثبات كليهما من الرجم بالغيب)[1]. ونحن نذهب إلى أبعد من مما ذهبت إليه الدكتورة فنقول: حتى هذا العالم غير المتدين لابد له من إثبات الغيب كما هو الحال عند كثير من العلماء والمكتشفين.

إن عنصر التقليد الذي سيطر على الأمة الإسلامية بعد عهد الاستعمار العسكري جعل بعض العقول تنادي بنبذ الدين وأخذ العلم بدعوى الرغبة في التقدم العلمي، إنهم يريدون الأخذ عن أوروبا ويا ليتهم أخذوا العلم والصناعة لكنهم قلدوها في الخلاعة والميوعة والتخنث.

إنهم لم يدرسوا الإسلام الحق، إذ إن الذين وضعوا المناهج في البلاد الإسلامية أناس درسوا في أوروبا وحملوا لواء الدعوة إلى نبذ الدين. إنهم لم يعرفوا أن العلماء في الإسلام كان الواحد منهم فقيهاً وطبيباً ومهندساً وفلكياً. إنهم تناسوا مجالس العلماء في حضرة الحكام، نسوا الجامعات الإسلامية في قرطبة، وطليطلة، وغرناطة، والقيروان، والمهدية، والفسطاط، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وبغداد، والبصرة، والكوفة، وفي بخارى، وخوارزم، وقزوين، وفاس، بينما كانت أوروبا تعيش في الظلام. نسوا المكتبات الضخمة وحركة الترجمة. ومع كل هذا يعظمون العلم إلى درجة أبعد مما يعظمه العلماء أنفسهم. فالعلماء يعتبرون العلم تقريبياً، يقول ميريت ستانلي كونجدن[2]: (إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان

---

(١) الشخصية الإسلامية ص ٢٥.

(٢) دكتورة من جامعة بورتون، أستاذ سابق بكلية تربنيتي بفلوريدا، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، أخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الإنجيلية.

وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ، وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك وليس باليقين)(١). أما المقلدون فيقولون: إن كلام العلم مائة في المائة، وهذا نتيجة جهل حتمًا إذ نصبوا أنفسهم أنهم من العلماء. وهم أبعد ما يكونون عن هذا. ومما يحتج به الأعداء: قولهم يجب علينا أن نكتفي بالعلم عن الدين؛ لأن العلم في طريقه إلى كشف كل المجاهيل(٢). وهذه دعوى مجردة، فأهل العلم أنفسهم يعترفون أن هناك أشياء لا يستطيع العلم أن يدركها، ثم لو تأملنا قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ لكان جديراً بهؤلاء أن يتواضعوا تواضع الراسخين في العلم من غير المؤمنين -على الأقل- ثم إن هذه الدعوى تتعلق بالمستقبل، وما كان كذلك فلا حجة له على الواقع، فهم يدعون أن العلم سيصل إلى كل شيء، وأنا أدعي أن العلم لن يصل إلى كل شيء، وكلاهما دعوى تثبتها أو تنفيها الأيام المقبلة. ثم إننا نود لو تبحر هؤلاء فعندها لن تبقى مشكلة حيث سيتواضعون تواضع العلماء. خذ مثالاً ما يسمى بالتخصص في هذه الأيام، فالطبيب مثلاً في البداية يدرس الطب العام، ثم يتخصص في الجهاز الهضمي، ثم يتخصص في جزئية أخرى وهكذا، وكلما تعمق نجده فهم جزئية بسيطة ولا يزال يبحث فيها، لكنه ترك علوماً كثيرة وقد يجهلها جهلاً عجيباً في مقابل العلم غير الكامل بجزئية بسيطة. فالعلم كالقلعة الكبيرة الضخمة كلما دخلت من باب قابلك باب آخر وهكذا دون الوصول إلى نهاية، وحتى لو وصل فسيجد نفسه في غرفة صغيرة جداً، ومع هذا فإن ما سيحصله الإنسان إلى يوم القيامة لن يخرج عن دائرة كلمة (قليلاً). وهذه الآية تتضمن الدفع إلى العلم والحض عليه. إذ تستحث المخاطبين وتغريهم بأن العلم كثير جداً وعظيم وهذا إغراء لكشف العلم.

ومما يتحجج به المنكرون دعواهم أن في علم النفس التحليلي وعياداته وأطبائه

(١) انظر ص ١٨ في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).

(٢) انظر قولهم في كتاب (الإيمان والحياة) للقرضاوي. ص٢١٣.

استغناء عن الدين الذي جاء للعلاج النفسي عن طريق السماء، بينما علاج علم النفس التحليلي ينبع من واقع الأرض لا خيالات السماء. ويتولى الرد واحد غير متدين، وهو محمد زكي عبد القادر الصحفي المصري إذ يكتب في جريدة الأخبار فيقول: (إن الإيمان بالله ضرورة يدعو إليها العلم وليست الأديان وحدها. إن العلم يستطيع أن يحل المشكلات النفسية التي يعاني منها الإنسان. فهناك حوادث مفاجئة ومآس تقع دون أن تكون لها أسباب مفهومة ونحن نسندها إلى القدر وإرادة الله، فلو لم نكن على درجة من الإيمان ما استطعنا أن نتعزى عنها أو نحتملها. الأم تفقد أولادها. كارثة طيران تؤدي بعائلة بأسرها أو تقتل الأب والأم وتترك الأطفال، أو تقتل الأطفال وتترك الأب والأم.. حوداث الغرق والانهيار والأعاصير والزلازل والبراكين، غضب[1] الطبيعة على أية صورة وقع هذا الغضب.. الأمراض التي لاشفاء لها.. المتاعب النفسية والعقلية والقلبية والجسدية التي يعجز الإنسان عن إيجاد وسيلة للبرء منها، عشرات المصابين في المستشفيات والبيوت ومئات المشوهين بالخلقة هنا وهناك.. وكل ما نراه حولنا يعجز العلم عن إيجاد حل لها ويعجز الإنسان بكل ما أوتي من براعة وقوة وسلطان عن التخلص منها..)[2]، ويقول صاحب كتاب (الله والعلم الحديث) حول نفس الموضوع: (وعلماء النفس وعلى رأسهم فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي يرجعون كافة الأمراض النفسية للكبت الذي يسبب عقداً نفسية لا شفاء لها إلا بما يسمونه التحليل النفسي، ويتم هذا بأن يجلس الإنسان في استرخاء تام في عيادة الطبيب ويسرد حياته كاملة بصوت مسموع، وهو في الواقع اعتراف بالأخطاء يقرره المريض. والاعتراف كما يقول أطباء النفس صفة منطقية نفسية سلوكية تكشف عن أخطاء المريض فيراها ويشعر بها، فتحدث مهادنة بين النفس والضمير وبذلك يتسامح الضمير عما حدث ويوقف اللوم على النفس. قارن

---

(١) هذه عبارات مرفوضة إسلامياً إذ الطبيعة من صنع الله ولا يسند فعل الله إلى الطبيعة فما من حركة تكون في الكون إلا بإذن الله. ولا يعبر هؤلاء بلفظ الجلالة لانغماسهم في ماديتهم حتى في معرض كلامهم عن الإيمان وكذلك عبارتهم (تحدي الطبيعة) و (قهر الطبيعة).

(٢) ذكره القرضاوي في (الإيمان والحياة) ص ٣٣٣.

هذا بقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ**﴾[(١)]. فالاستغفار أعم من التحليل، إذ الاستغفار طلب المغفرة من ذنب اعترفت به فتحس النفس بالخطيئة ويبطل محاسبة الضمير. والتحليل محاولة للاعتراف بينما الاستغفار اعتراف ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[(٢)]، ويقرر علماء النفس ضرورة الاسترخاء والهدوء للنفس، ويعترفون بأن ذلك يساعد على تخفيف ضغط الدم. وإن أخفض ما يكون ضغط الدم والإنسان في صلاته وعبادته)[(٣)] فالفرق شاسع بين من يعالجه كلام رب العالمين، وبين من يعالجه طبيب هو نفسه قد يكون مصاباً بأمراض وعقد نفسية. ثم إن المؤمن عندما يعترف بذنبه يكون هذا بينه وبين الله. أما الاعتراف أمام الطبيب النفسي فهذا قد يكون له آثار سيئة – فمن الممكن أن يكشف هذا الطبيب وهو بشر يعتريه النقص أخبار الناس وفي هذا ضرر كبير ومشاكل اجتماعية.

وها هو أشهر الأطباء النفسانيين الأمريكي الشهير الدكتور هنري لنك الذي كفر يوماً بالدين الذي ورثه يعود إلى حظيرة الإيمان كما سمى كتابه (العودة إلى الإيمان، فيقول: (إنني لم أرجع إلى الإيمان بسبب ضيق مادي، أو شعور بالكبر، أو لنقاش فلسفي، أو انفعال عارض، بل نتيجة التجارب في حقل علم النفس)[(٤)] وكذلك ديل كارينجي صاحب كتاب (دع القلق وابدأ بالحياة).

وفي مجال الرد على المفتونين بالعلم أذكر ما قاله الدكتور عبد المحسن صالح صاحب الأبحاث العلمية إذ يقول: (... وقع في يدي كتاب حديث في سلسلة كتاب اليوم التي تصدرها أخبار اليوم القاهرية لكاتب إسلامي معروف والكتاب بعنوان (صنع الله).. ففي فصل كامل من فصول الكتاب يسوق المؤلف معلومات ينسبها إلى

---

(١) الزمر ٥٣.

(٢) النساء ١١٠.

(٣) الله والعلم الحديث. عبد الرزاق نوفل. مؤسسة دار الشعب ص ١٧١ وبعدها.

(٤) ص ١٤ بتصرف (العودة إلى الإيمان) هنري لنك ترجمة الدكتور ثروت عكاشة الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر.

العلم أخيراً واعترف بها، ولهذا نراه يؤسس على هذا الزعم الباطل حكاية شعبية ليس لها مصدر حقيقي موثوق به، فهو يقول بالحرف الواحد: (إن النخلة قد طأطأت رأسها أمام سيدنا رسول الله ﷺ وأحنت هامتها له في محاولة منها لتقبيل يده الكريمة (هكذا)، وأنه في اليوم العابس الحزين يوم أن قبض رسول الله ﷺ وتوفاه ربه شاهد الناس على سعف النخل الذي كان يجاور المنبر الشريف الذي تشرف بالوقوف عليه مخاطبة الناس من فوقه.. شاهدوا أمراً مذهلاً وشيئاً عجيباً.. لقد تغير شكل السعف.. وتقوست عروقه في أسف مبين، وتهدلت أوراقه وتهطلت في منظر حزين ويقطع من حضروا أنهم رأوا من السعف البكاء وسمعوا الأنين.. إلى آخر هذه الجمل الإنشائية التي تشغف القلوب)(١) وهذا الكلام من الدكتور غير مقبول فكونه يكتب هذا الكلام في كتاب سماه: (الإنسان الحائر بين العلم والخرافة) إشارة إلى أن الموضوع كله من قبيل الخرافة(*) حتى موضوع أنين الجذع وهذا خطأ فاحش إذ إن هذا الأمر ثابت في السنة الصحيحة(٢)، فقد روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما (كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه) وذكر في رواية جابر بن عبد الله (فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه)، وفي رواية أخرى لجابر (فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشاء)، ثم من قال لسعادة الدكتور: إن العلم يجعل العواطف مقصورة على الإنسان ومستحيلة عن غيره وعلى أي شيء استند؟ أما استبعاده لقصة النخلة فهذا أمر مرفوض في حق الأنبياء؛ لأنهم ما كانوا أنبياء إلا بالمعجزات. فما المانع أن تطأطئ النخلة لرسول الله ﷺ. كان الأولى به إذا أراد نفي القصة أن يجرح رواة القصة من حيث السند. وإن كان لا يفهم من كلامي هذا أن القصة صحيحة

---

(١) انظر كلامه في كتابه (الإنسان الحائر بين العلم والخرافة)د/ عبد المحسن صلاح ص١٧٤.

(*) ذكر أحمد في المسند ١٥٧/٦ (عن عائشة قالت حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة فقالت أتدرون ما خرافة إن خرافة كان رجلاً من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهم دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس حديث خرافة).

(٢) انظر جميع هذه الروايات في البخاري مع شرحه لابن حجر جـ٦ ص٦٠١، ٦٠٢.

مائة في المائة، بل الأمر يحتاج إلى تحقيق. ويقول الدكتور في موضع آخر من كتابه المذكور: (.. إننا لوعدنا إلى مجتمعاتنا التي نعيش فيها وحللنا بعض تفسيرات الناس لأمراض خاصة تصيبهم لوجدت النغمة ذاتها، فإذا مرض إنسان بداء عضال لقيل: إن الله ابتلاه بمرض رهيب عقاباً له على ما اقترفت يداه من ذنوب في حق الناس، وإذا مرض إنسان آخر بالمرض نفسه وكان له بينهم مكانة مرموقة، أو أنه إنسان في نظرهم صالح فإنهم يعللون مرضه بنغمة أخرى مناقضة، فيقولون: إن الله ابتلى عباده الصالحين ليعلم من منهم الصابر ومن منهم القانط. وطبيعي أن ذلك منطق العامة، فكل الناس يمرضون ويموتون ولكن الله منحنا العقول لنبحث بحثاً علمياً عن مسببات الأمراض، إذ إن لكل مرض سبباً فإذا عرفنا العلة عن طريق التقصي والتجربة فإننا نصل في أغلب الأحيان إلى استنباط العلاج الذي يتمثل في دواء أو جراحة أو مضاد حيوي أو علاج نفسي...إلخ. وهذا ما نشهده في علومنا الطبية الحديثة)(١)، وهذا الكلام فيه ما فيه من خطورة وخلط، أما الخطورة فلأنه متصل بموضوع القدر وهو من أركان الإيمان الستة، فإذا لم يكن الإيمان بالقدر واضحاً، فهذا فيه خطورة على إيمان الشخص إذ يهتز ركن من أركان إيمانه، وقد يؤدي به هذا الاهتزاز إلى الإلحاد. أما الخلط فقد خلط الدكتور بين الحق والباطل وجعل ممكنات الوجود متناقضات حيث قال: (.. فإنهم يعللون مرضه بنغمة أخرى مناقضة). أقول: أما إن الله عز وجل قد يصيب بعض الناس بأمراض عقوبة لهم على ذنوبهم فهذا أمر معلوم، ففي الحديث عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (**يا معشر المهاجرين: خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله**

---

(١) الإنسان الحائر بين العلم والخرافة ص٧٩.

وتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[(١)]. وأما أن المرض قد يكون ابتلاء للصالح من عباده فهذا أيضاً وارد ففي الحديث أيضًا: (**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل..**)[(٢)]. ثم قد تجتمع هاتان الحالتان في الشخص الواحد إذ قد يقترف ذنباً فيعاقبه الله عليه بمرض، فإذا تاب وعمل صالحاً وزادت تقواه قد نراه يصاب بمرض آخر لا على الاعتبار الأول بل على اعتبار (أشد الناس بلاءً..)، ولا تناقض كما زعم الدكتور، إذ مقتضى زعمه التناقض في النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة.

ونحن إذ نتفق مع الدكتور في البحث عن مسببات الأمراض القريبة، نذكره بأن حديث الناس الذي لم يعجبه إنما هو حديث عن السبب الأول وراء الأشياء، وهو الله عز وجل فإذا اعتقدنا أن الله هو المقدر لهذه الأشياء، وبعدها بحثنا عن الأسباب فلا حرج ولا عيب بل الواجب أن نفعل ذلك. ويقول هذا الدكتور في موضع آخر، (ويقوم الطب الخرافي في أحيان كثيرة على تعاويذ وأحجبة ووضع يد الشيخ المداوي على موقع الجزء المريض مع تميمة ودعوات قد تكون غير واضحة، ولا مفهوم لها، لكن ذلك لا يجدي شيئاً في الأمراض العضوية التي لها أسباب محدودة يعرفها الطب في أغلب الأحيان، فميكروب السل مثلاً لا تنفع معه الصلوات، ولا الدعوات، ولا الأحجبة، ولا هي أيضاً تزيل الحصوات، ولا تستأصل السرطان، ولا تفيد في تليف الكبد، ولا تقدم ولا تؤخر في شلل الأطفال.. إلخ. ومن هنا وجب على كل ذي عقل رزين أن يتبع حديث الرسول الكريم: (**تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم**

---

(١) رواه ابن ماجه جـ٢ ص١٣٣٢/١٣٣٣، وفي مجمع الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. طبع عيسى البابي الحلبي.

(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد به البلاء وإن كان دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة ابن ماجة جـ٢ ص١٣٣٤ ورواه الترمذي بشرح ابن العربي جـ٩ ص٢٤٣، ٢٤٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم)[١]، أي: فيما عدا الشيخوخة فليس لها دواء وهذا ما نعرفه حق المعرفة)[٢]. وهذه العبارة فيها من الجرأة في إطلاق الألفاظ ما يستغرب من هذا الدكتور، فهو يعتبر التعاويذ ووضع اليد على الجزء المصاب من المريض والدعاء من الطب الخرافي، مع أنه قد ورد في السنة أدعية وأذكار تقال عند المريض بل قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾[٣] و﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ [٤] من التعاويذ[٥] التي أعطيت لرسول الله ﷺ ليحمي نفسه بها وورد في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر فمروا من أحياء العرب، فاستضافوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل فأعطي قطيعاً من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى للنبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: (**وما أدراك أنها راقية؟ خذوا منهم، واضربوا لي بسهم معكم)**[٦].

فهل هذا الحديث (وغيره كثير) من الطب الخرافي أم الطب النبوي المستمد من الوحي؟ أما وضع اليد على مكان المرض ففي الصحيح عن عائشة بنت سعد أن أباها قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاءني النبي ﷺ يعودني فقلت: يا نبي الله إني أترك مالاً، وإني لم أترك إلا بنتاً واحدة، فأوصي بثلثي مالي وأترك الثلث؟ فقال: (**لا**). قلت: فأوصي بالنصف وأترك النصف؟ قال: (**لا**). قلت فأوصي بالثلث وأترك

---

(١) رواه ابن ماجه جـ٢ ص١١٣٧ قال المحقق في الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) الإنسان الحائر ص٧٦.

(٣) الفلق ١.

(٤) الناس ١.

(٥) قال ابن كثير: وفي الحديث (أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ قال اشتكيت يا محمد فقال نعم باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك) جـ٤ ص٥٧٣ عيسى البابي الحلبي.

(٦) اللفظ لمسلم ١٧٢٧/٤ ورواه البخاري (مع الفتح) ٥٤/٩.

لها الثلثين؟ قال: (**الثلث والثلث كثير**)، ثم وضع يده على جبهته ثم مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: (**اللهم اشف سعدًا وأتمم له هجرته**) فمازلت أجد بردة على كبدي فما يخال إليّ حتى الساعة. وعن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا وجد أحدكم ألما فليضع يده تحت ألمه، ثم ليقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته على كل شيء من شر ما أجد**)(١) وبذكر هذه النصوص أكتفي في الرد على قوله: (فميكروب السل مثلاً لا تنفع معه الصلوات ولا الدعوات..). بل كلامه مصادم تماماً للنصوص التي قالها من لا ينطق عن الهوى. أما ذكره لحديث رسول الله ﷺ (**عباد الله تداووا..**) فهذا حق لكنه استعمل في نفي فائدة الدعوات والأذكار والرقى، وهذا غير صحيح فإن الحديث لا يصطدم مع الدعوات والصلوات. وأعجب منه كيف أورد هذا الحديث ولم يورد غيره. إن الدعاء والدواء معاً، أما إنكار أحدهما فهو الخطأ والخطر. إن العلم لا يتناقض مع الدين كما أن الدعاء لا يتناقض مع الدواء. وكم من مريض عجز عنه الأطباء ودواؤهم فلم يبق إلا رحمة الله تعالى. وسبق ذكر قصة المريض الذي عجز عنه الدواء فشفي بالدعاء. كان الواجب على الدكتور إذا أراد أن يهاجم الخرافيين والخرافة أن لا ينسى الحق والنصوص الشرعية، بل النصوص الشرعية فيها ما يهاجم الخرافيين وأهل الدجل والشعوذة كما في الحديث (**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**)(٢).

ومما يحتج به الملحدون في رفضهم الدين وطلبهم العلم أن الدين إذا وجد في مكان وجد التأخر، وإذا وجد العلم في مكان وجد التقدم والحضارة. ألا ترى أوروبا الآن؟ ألا ترى المسلمين وغيرهم من الشعوب المتدينة..

والحق أن الناس متى تمسكوا بالعلم فإنهم سيتقدمون تكنولوجياً ومادياً سواء كانوا كافرين أم متدينين. أما أن الدين الإسلامي منع الشعوب عن التقدم فهذا مرفوض، بل هو من عند نفس هذه الشعوب لا من التدين. إن الدين يأمرهم بكل

---

(١) قال في مجمع الزوائد ١١٤/٥ (رواه أحمد والطبراني وفيه أبو معشر وقد وثق على أن جماعة كثيرة ضعفوه وتوثيقه لين وبقية رجاله ثقات).

(٢) سبق تخريجه.

خير، لكنهم ضعفاء بسبب فترات الاستعمار والضغط السياسي وعدم الانسجام بين الراعي والرعية والضغط الاقتصادي حتى لا يفكر الناس إلا في لقمة العيش. هذا كله يجعل هذه الشعوب متأخرة تكنولوجياً كي تبقى معتمدة على الدول الكبرى لتتبعها سياسياً وهذا وضع لم يأمر به الدين بل يرفضه. وإنما يرعاه ويساعد على بقائه أذناب الاستعمار في بلاد المسلمين. ثم إن مسألة التقدم التكنولوجي والصناعي تقع على الدولة لا على الأفراد. والدول الإسلامية أبعد ما تكون عن هذا التفكير الحاضر بسبب التبعية السياسية التي قسمت البلاد الإسلامية إلى تابع للغرب وتابع للشرق. والشرق والغرب كلاهما لا يريد للمسلمين نهضة صناعية وازدهاراً حضارياً.

- ومن الدلائل التي تشير إلى صحة الدين ويؤيدها العلم:

١- يقرر الدين أن الكون سيؤول إلى الزوال وهذا ما يقرره علماء الطبيعة، فكما أن الكون تطور إلى ما هو عليه فإنه سيتحول إلى الزوال[١].

٢- أورد القرآن الكريم حقائق الخلق وقرر تطورات الجنين في مختلف أدواره قبل أن يصل العلم إليها بمئات السنين وهذا ما أدهش كبار الأطباء[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[٣] تخبرنا هذه الآية أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ثم انفصلتا، وهذا ما قرره العلم أخيراً، ويؤيد هذا القول اكتشافهم أن في الشمس ٦٧ عنصراً من عناصر الأرض، ولاحظوا أن النيازك والصخور والأتربة القمرية التي حصلوا عليها برحلات الفضاء تحتوي من العناصر ما هو موجود في الأرض[٤].

٤- حركة الكواكب يقررها العلم، وكذلك القرآن الكريم: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي**

---

(١) بتصرف عن (العقائد الإسلامية) سيد سابق ص٢٦٦ دار الكتاب العربي / بيروت.

(٢) بتصرف ص١٤٨ (بين الدين والعلم) عبد الرزاق نوفل - مكتبة وهبة ط١.

(٣) الأنبياء ٣٠.

(٤) روح الدين الإسلامي - عفيف طبارة ص٤٩ وبعدها ط١١ دار العلم للملايين.

لِمُسْتَقَرٍّ..﴾[١].

وبعد هذا أختم الكلام حول قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[٢]، وقوله ﷺ: (**ضن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله، وأشار بيده قلت**[٣]: **وما هي قال: علم المنية قد علم منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم المني حين يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمون، وعلم ما في غد، وما أنت طاعم غداً ولا تعلمه. وعلم اليوم الغيث يشرف عليك**)[٤]. وفي رواية أخرى: (**مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**)[٥]. وسوف نتكلم عن الآية والحديث وما ذكره الأعداء من شبهات نسبوها للعلم حول هذا الموضوع الذي ذكر في الآية والحديث.

- **إنزال الغيث:**

قالوا: إن العلم يستطيع أن يحدد على وجه التقريب وقت نزول المطر، وخاصة بعد تقدم الأرصاد الجوية وكلنا يسمع يومياً في الإذاعات عن حالة الطقس المقبلة، وعليه فلم يبق مجال لجعل وقت نزول الغيث من المغيبات التي استأثر الله بعلمها. فإذا كانت غيباً في زمن محمد ﷺ؛ فلأن زمنه لم يكن متقدماً علمياً، أما وقد تقدم العلم فلا داعي لجعلها مما استأثر الله بعلمه. ثم إن الإنسان استطاع - بعلمه - أن ينـــزل مطراً صناعياً فلا حاجة لمطر السماء. وليس الله وحده هو الذي ينـــزل الغيث بل الإنسان بعلمه يستطيع أن ينـــزل الغيث.

---

(١) يس ٣٨-٤٠.

(٢) لقمان ٣٤.

(٣) الراوي "لقيط".

(٤) أحمد ٤/١٣ المكتب الإسلامي بيروت.

(٥) البخاري. انظر فتح الباري جـ١٣ التوحيد ص ٣٦١.

ونقول لهؤلاء: إن الله عز وجل وحده هو الذي يعلم بوقت نــزول المطر ومدة نــزوله علما يقيناً، كما يعلم موقع كل قطرة ومصيرها وأثرها وما سيؤول إليه أمرها، بل وما سيترتب على نــزولها من نفع وهذا أمر لا يعلمه إلا الله(١). ولا يعلم متى ينــزل الغيث (وهو المطر النافع) إلا الله، فهو الذي يرسل الرياح ويجمع بها السحب، ويجعلها ركاماً، ويسوقها إلى الأرض الميتة، وينبت بها الزرع، أما النشرة الجوية فإنما تخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه وتمام خلقه وبيان ذلك أن المطر الذي ينــزل في سواحل الشام مثلاً تبين -من العلم بسنن الله في الكون- أن سببه الهواء الذي يجيء من المحيط الأطلسي، فيمر بمضيق جبل طارق فيصطدم بكتلة هوائية راكدة، فتشكل السحب من اختلاف درجة حرارة الهواء القادم والهواء الراكد، فإذا رأوه علموا استناداً إلى معرفة سنن الله أنه سيتوجه إلى ساحل الشام بعد كذا. فهو كمن شاهد موزع البريد من نافذته وقدر متى يصل إلى داره، فقال لأهله: سيأتي البريد بعد خمس دقائق. وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه فيرى السيارة القادمة فيخبر بها قبل ظهورها للعيان. وهذا وذاك ما علم -حقيقة- الغيب، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره.

وأما إنشاء السحب وإنــزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف أو منع السحاب والمطر عن أرض كتب الله لها الحياة والخضرة، فهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾(٢). ونذكر في هذا المقام كلمة الدكتور محمد جمال الدين الفندي أستاذ الفلك إذ يقول: (إن الظروف الطبيعية التي تؤدي إلى تكوين المزن ونــزول المطر لا يمكن أن يصنعها البشر، بل وحتى لا سبيل إلى التحكم فيها، ولا يزال موضوع المطر الصناعي ليس مطراً صناعياً؛ لأن المطر لا يصنعه الإنسان في المعمل، وإنما هو مطر يستحث الإنسان نــزوله. واستمطار السحب العابرة مجرد تجارب لم يثبت نجاحها بعد. وحتى إذا ما تم نجاحها فإن اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعي حتى يمكن استمطار السماء صناعياً أي إن واجب علماء الطبيعة الجوية

---

(١) توحيد الخالق. مجموعة من الأساتذة. ط٢ جـ٣ ص٦٦.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام. لعلي الطنطاوي ص١٤٥.

لا يتعدى قدح الزناد فقط بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية)[١].

إن المطر الصناعي ما هو إلا استحثاث لنــزوله كما يستحث الإنسان إخراج الثمار والأشجار من البذرة المخزونة فيضعها في التراب ويسقيها الماء كما قدر الله عز وجل.

إنه لم يثبت نجاح المطر الصناعي بدليل عدم شيوعها في العالم، واستمرار اعتماد المناطق الزراعية في العالم على مطر السماء؛ وحتى المزروعات التي تسقى بماء الري فهو لا يعني الاستغناء عن مطر السماء، لأن ماء الري أصله ماء مطر سماوي أو ماء أوجده الله أصلاً في الأرض، فالكل من خلق الله وليس من صنع الإنسان.

- علم مافي الأرحام:

قال في الرد القويم: (قال عابد الطاغوت: ولكن المتدينين لا يشمئزون ولا يثورون الثورة المجتاحة إلا إذا سمعوا أن علم الإنسان قد يتوصل إلى ما يظنونه غيباً، فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الإنسان قد يستطيع بآلته الدقيقة والأشعة التي هتكت كل حجاب أن يعلم ما في بطن الأنثى أذكر هو أم أنثى، وأنه يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد، إن شاء ذكراً وإن شاء أنثى فقد صنعوا ذلك في الإنسان نفسه). وقالوا: إن مما يبطل الإيمان بالدين ما توصل إليه العلم من حيث معرفة نوع الجنين في بطن أمه ذكراً هو أم أنثى، وذلك بعد عدد من الأشهر، وأن الطب يستطيع الآن أن يهيئ للناس نوع الحمل الذي يريدونه، وذلك بأساليب خاصة يعرفها.

قال رشيد رضا في تفسير المنار: (وما قد يستشكله في هذا المقام من لم يقف على حقيقة الغيب ما اكتشفه بعض الأطباء من سنة الله تعالى في سبب الذكورة والأنوثة في الحمل وملخصه أن البويضة التي يحصل الحمل بلتقيحها في الرحم بماء الذكر منها ما يخلقه الله تعالى في جانب الرحم الأيمن ومنه يتكون الذكور. ومنها ما يخلقه في جانب الرحم الأيسر ومنه يولد الإناث. وإن هذه البويضة توجد بالتناوب في أثناء حيض المرأة، فحيضة تنتهي بخلق بويضة الذكور في الجانب الأيمن، فإذا حصل التلقيح عقبها كان الجنين أنثى. وقد ألفوا في بيان هذه السنة الإلهية كتباً منها

---

(١) توحيد الخالق.

(تعليل النوع) تأليف الطبيب رملي دوسون الإنجليزي، وقد ترجمه الطبيب محمد عبد الحميد المصري. يقول صاحب (تعليل النوع): تمكنت من التنبؤ بمعرفة نوع الطفل الآتي في النساء الحوامل من مرضاي وغيرهن ممن لم يسبق لي رؤيتهن، وأذكر أني نجحت في (٩٧٪) والفشل في الثلاثة تابع لعدم استطاعة الأم أن تخبرني بالدقة عن شهر الولادة، وهناك أحوال ينشأ فيها فشل التنبؤ لتكوين البيض تكويناً غير قياسي، فبدلاً من أن يحدث البيض كل (٢٨) يوماً مرة بانتظام يحدث كل ٢١ أو ٢٠ يوماً[١]).

وتقول مجلة السياسة الكويتية في مقال لها تحت عنوان (حملة مكثفة ضد مشروع إنتاج أطفال عباقرة عن طريق التلقيح): (يقوم علماء الأخلاق والدين في نيويورك بحملة مكثفة ضد مشروع إنتاج أطفال عباقرة عن طريق تلقيح نساء فائقات الذكاء بحيوانات منوية من علماء نالوا جائزة نوبل.. وكان المليونير الأمريكي روبرت جراهام (٧٤ سنة) قد أنشأ بنكاً للحيوانات المنوية تجمع من الحاصلين عل جوائز نوبل. وأوضح جراهام أن ثلاثة فائزين بهذه الجائزة قد تبرعوا بحيوانات منوية للبنك حيث تم تلقيح ثلاث نساء تم اختيارهن لذكائهن الخارق بهذه الحيوانات المنوية. وقال جراهام: إن مبادئ هذه الطريقة قد تكون مستهجنة وغير مألوفة ولكنها صحيحة)[٢].

ومما يرتبط بموضوع الأرحام ما قيل عن طفل الأنبوب فقد ذكرت مجلة العربي في مقال لها تحت عنوان: (طفل الأنبوب حدث عام ١٩٧٨م) قالت: في عام ١٩٣٢م تنبأ هكسلي في كتابه (العالم الجديد الممتاز) بإمكانية الحفاظ على البويضة الملقحة حية خارج جسم الأم بفضل التقنية الحديثة في ظل درجة حرارة مثلى. وتحققت هذه النبوءة عام ١٩٧٨م مع الأب جون براون والأم لزلي براون وطفلتهما لوزير براون مع الدكتور باتريك ستبتو، والدكتور روبرت ادواردز، حيث قام ستبتو بانتزاع البويضات الناضجة من مبيض المسز بروان (لأن قناتي فالوب مسدودتان) بواسطة

---

(١) تفسير المنار رشيد رضا، جـ٧ ص ٤٦٤.

(٢) السياسية الكويتية. العدد (٤٢٠٠) السنة الخامسة عشرة. الإثنين ربيع ثاني ١٤٠٠هـ آذار (مارس) ١٩٨٠م.

جهاز الباراسكوب، ثم كانت المرحلة الثانية التي وضعت فيها بويضة الزوجة ومنويات الزوج في المحلول المناسب حيث تم الإخصاب، ونقلت البويضة الملقحة في المرحلة الثالثة وإلى محلول آخر يناسبها وقد بلغت، من النمو ما بلغت حتى إذا نمت بالقدر الكافي عمد الدكتور ستبتو في المرحلة الرابعة إلى نقلها من الطبق وزرعها في رحم المسز بروان.(١).. ثم ولدت الطفلة لويز براون ولادة طبيعية عام ١٩٧٨م، فكانت أول طفلة تولد باستعمال الأنبوب الاختباري).

وذكرت صحيفة السياسة الكويتية عن نفس الموضوع فقالت: (أول طفل أنبوب في أستراليا: أعلن في ملبورن أمس أن أول طفل أنبوب في أستراليا يتوقع أن يولد في شهر مايو أو يونيو المقبل، وكان أطباء المستشفى الملكي للنساء قد أعلنوا يوم أمس الأول الأربعاء أن السيدة ليندا ريد (٢٦ سنة) من بلدة تشيرشل في مقاطعة فيكتوريا تتوقع مولوداً بعد أن تم إخصاب بويضة من السيدة ريد خارج الرحم. وأعلن الأطباء الأستراليون أن هناك سيدة أسترالية أخرى تتوقع طفلاً بنفس الطريقة في شهر أغسطس المقبل، إلا أنهم لم يكشفوا النقاب عن اسمها، وعندما تضع السيدة ريد طفلها فسوف يكون رابع طفل في العالم يولد بواسطة الأنابيب. ويعتبر الأطباء البريطانيون رواد هذه الطريقة الجديدة المعروفة بطريقة (الإخصاب داخل الأنبوب) حيث ولدت في بريطانيا أول طفلة أنبوب في عام ١٩٧٨م)(٢).

يتبين من النصوص السابقة أن الكلام يدور حول أربع نقاط:

١- معرفة العلم لنوع الجنين وهو في بطن أمه.

٢- تمكن العلم وقدرته على اختيار جنس الجنين أي ذكراً أم أنثى.

٣- تمكن العلم من إنتاج أطفال عباقرة عن طريق التلقيح بين الأذكياء.

٤- تمكن العلم من التلقيح خارج الرحم ثم زراعته في الرحم وهو ما يسمى بطفل الأنبوب.

---

(١) مجلة العربي العدد (٢٤٢) السنة الحادية والعشرون. صفر ١٣٩٩هـ يناير ١٩٧٩م والمقال لمجموعة من الدكاترة وهم: د. حسان حتحوت، د. محمد سعيد رمضان البوطي، د. عبد المحسن صالح، د. أحمد كمال أبو المجد.

(٢) السياسة الكويتية العدد ٤١٦٩، ٢١ ربيع الأول ١٤٠٠هـ.

أما بالنسبة للنقطة الأولى، ففيها التفصيل الآتي: أن يعرف العلم نوع الجنين منذ اللحظة الأولى للتلقيح، أو أن يعرف العلم نوع الجنين بعد تكون المولود وكمال أعضائه. أما الصورة الأولى (أي معرفة نوع الجنين منذ اللحظة الأولى للتلقيح) فيقول فيها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (ولعلك قد سمعت بأن بعض الأطباء في الغرب يأمل في اقتراب اليوم الذي يتمكن فيه الطب أن يعلم منذ الأيام الأولى لظهور الحمل نوع الجنين أذكر هو أم أنثى. وإننا نقول: إن هذا ممكن وإنما سبيله تتبع القرائن والأسباب التي جعلها الله شرطاً لذكورة الجنين ولأنوثته. وهي قرائن وأسباب لم يستأثر الله بعلمها، بل ندب الناس إلى التنبيه إليها. ولكن هل ترقى معرفة ذلك إلى اليقين الجازم بأن الجنين سيكون ذكراً، أو إلى القدرة على التحكم بنوع الجنين؟ لا، لا يمكن أن ترقى هذه المعرفة إلى اليقين الحتمي ولا إلى أن نحكم بالنوع؛ لأن الإله الذي أقام ذكورة الجنين على الأسباب التي شاءها قادر على أن يبطل سببيتها في الوقت الذي يشاء. لا جرم أن الأمر يقف إذن عند حدود الظن الراجح وحده)[1]. ويقول الأستاذ الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار حول معرفة نوع الجنين عن طريق مكان البيض هل هو في الجانب الأيمن أم الأيسر من الرحم: (فمعرفة نوع الحمل في الرحم بهذه الطريقة يعد من العلوم البشرية الكسبية، وهو لا يتعارض مع أن ما في الأرحام حقيقة لا يعلمها إلا الله. إذ معنى الحصر أن ما سيحدث في عالم الحيوان من التكوين في المستقبل هو من خزائن الغيب التي لا يحيط بما فيها إلا الله، ومفاتح العلم بأي شيء منها عنده. فإذا هدى عباده إلى سنة من سننه التي هي مفتاح موصل إلى الاطلاع على بعض ما تحويه هذه الخزانة فذلك لا ينفي ما ذكر. ومع ما سبق فإن العلم بالذكورة والأنوثة ليس علماً قطعياً بالرغم من الشروط التي اشترطوها وإنما هي الظن الغالب..)[2]. وأرى أن كلام الشيخ رشيد رضا، والدكتور البوطي ليس فيه القطع بمعرفة نوع الجنين علمياً وإنما أعطوه حكم الظن الراجح أو الغالب، على اعتبار أن للذكورة والأنوثة سنناً وضعها الله تعالى ولم يمنع الله البشر عن اكتشاف

---

(١) مجلة العربي عدد ٢٤٢ السنة الحادية والعشرون صفر ١٣٩٩هـ يناير ١٩٧٩م.

(٢) تفسير المنار جـ٧ ص ٤٦٤ بتصرف.

سننه. وأنا أقول أيضاً إن السنن يمكن البحث عنها واكتشافها. لكن الواقع أن الأمر حتى الآن لم يصل إلى درجة العلم القطعي الذي يتبجح به أدعياء العلم. وعلمياً لم نجد من أهل العلم من يصرح بمعرفته القطعية لما تحمله النساء في بطونها في الأيام الأولى، وإن حصل وتوقع بعضهم فهذا لا يتصف بصفة العلمية وإنما هو الظن المحتمل للخطأ والصواب على السواء. أما الصورة الثانية فممكنة وليست موضوعاً محالاً ولا تصطدم مع الآية الكريمة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ ؛ لأن الجنين في هذه الصورة يكون قد تكون بخلقته الكاملة، وما يقوم به العلم ما هو إلا تصوير للجنين في بطن أمه كما هو الحال في تصوير العظام وخصائصها التي اكتشفها الإنسان من سنن الله عز وجل في هذا الكون. وبالتالي فلا يعدو عمل العلم في هذا إلا نقل الخبر إلينا، كما هو الحال بالنسبة لمن ينظر بالمنظار إلى مكان بعيد فيرى الأشياء فيخبرنا عنها قبل أن نراها نحن بالعيان. يقول علي الطنطاوي: (إن من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكيله ما علم في الحقيقة الغيب، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره، وهذه المعرفة غير ممكنة حين يكون الجنين حويناً منوياً أو حويناً صادف بويضة فهذا هو المراد من الآية، والله أعلم)(١). وهذه المعرفة ليست هي المقصود من الآية، بل قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أوسع من ذلك بكثير. ففرق كبير بين (ما في الأرحام) و (من في الأرحام) حيث الثانية تفيد الذكورة أو الأنوثة، أما الأولى فتفيد حقيقة ما في الأرحام. فالله وحده يعلم عن هذه النطفة ماذا ستكون وهي في الرحم، بل يعرف ذلك قبل أن يجامع الزوج زوجته. ويعرف كم سيكون في رحم هذه المرأة من الأولاد، وكم يوجد ما في رحم نساء العالم أجمعين، ويعلم كم منهن حامل في رحمها، ويعلم كم واحدة سيسقط في رحمها. وهو يعلم مافي الأرحام من جهة الآجال والأرزاق، فكم سيكون رزق وأجل هذا المحمول في رحم أمه.

إنه يعلم ما في الأرحام في كل لحظة، وفي كل طور من فيض وغيض وحمل حتى في حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم. وهو وحده الذي يعلم ما هو مودع في تلك النطفة في ظلمات الرحم من مواهب وطاقات، فذلك العلم الدقيق الشامل لما

---

(١) تعريف عام ص١٤٥.

في كل رحم من الأرحام هو المقصود)[١].

أما النقطة الثانية، وهي: تمكن العلم من اختيار جنس الجنين ذكراً أو أنثى، فهي من ادعاءات المغرورين بالعلم، ولو كان الأمر كما قالوا لتغير مجرى الحياة. فكم هم الذين يتمنون أن يرزقوا بذكر أو بأنثى، ولكنهم لا يجدون إلى ذلك سبيلا حيث إن الأمر بيد رب الناس القائل: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾ . فما أعظم هذه الآية حيث تصفع المغرورين صفعة ما بعدها صفعة. وها هو ملك مصر (الملك فاروق) يتمنى أن يرزق بولد ومع ذلك لا شيء.

أما النقطة الثالثة، وهي: قضية إنجاب أطفال عباقرة، فهي أمر ممكن وليس محالاً للآية الكريمة، بل هو أمر مطبق في عالم الحيوان. وفي الإسلام ما يؤيده من حيث إمكانية الوقوع لا من حيث الشكل والطريقة التي تقع عند الغربيين، فقد ورد عن الرسول ﷺ الأمر بالنظر إلى المخطوبة حيث قال: (**فإن في أعين الأنصار شيئاً**)[٢]، وفي حديث آخر (**تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس**)[٣]. فتحسين النوع أمر مطلوب ومرغوب فيه، ولكن أن يحدث هذا بأسلوب تتبناه الدول بقصد أن يؤدي هذا إلى التخلص من الأفراد أصحاب الصفات غير الجيدة بأية طريقة كانت فهذا أمر مرفوض ولكن يقبل إذا اتبع الطريق العادي بأن يختار الشخص الجيد المرأة الجيدة فيتزوجها زواجاً لا أن تتم عمليات تلقيح، أو تنشأ (بنوك) لحفظ الحيوانات المنوية

---

(١) توحيد الخالق ط٢ مجموعة من الأساتذة ص٦٦ جـ٣.

(٢) في صحيح مسلم جـ٢ ص١٠٤٠ عن أبي هريرة قال كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ (أنظرت إليها) قال لا قال فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً.
والمقصود بتزوجها: خطبتها.
والمقصود بالشئ الذي في أعينهم قثل الصغر وقيل الزرقة.

(٣) نص ابن ماجه في باب النكاح ٤٦ (تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم) انظر المجلد الأول. طبع عيسى البابي الحلبي ص٦٣٣. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي وقال في الزوائد: في إسناده الحارث بن عمران المديني قال فيه أبو حاتم ليس بالقوي والحديث الذي رواه لا أصل له يعني هذا الحديث عن الثقات وقال الدارقطني متروك.

فهذه من أبشع الأشياء التي أفرزتها الحضارة العلمية غير المتقيدة بالتعاليم الربانية، بل هي تعبير عن الفساد الخلقي المنتشر بينهم. فالإسلام ليس ضد تحسين النوع، ولكنه يرفض الطريقة التي يتبعونها. والإسلام لا يقول بالفكرة التي نادى بها هتلر وهي إبادة الأغبياء، وبقية الناس من غير أصحاب الذكاء[1]؟ شيء يعطل مقاصد الحياة وهو غير متوقع حدوثه، إذ إن في اختلاف الناس من جميع النواحي (لغة، عادات، أفكار، ذكاء، علم..) حكمة الخلق في تحقيق الابتلاء. وقد كان من بين الغربيين من رفض هذه الفكرة بطريقتها إذ عقد في العام الماضي -كما تقول جريدة السياسة الكويتية- مؤتمر في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا وضم علماء ورجال دين واتخذ المؤتمر موقفاً مناهضاً لمثل هذه التجارب[2].

وقال أستاذ علم الأديان والأخلاق في جامعة بوسطن الأب روبرت نيلسون: (إن عملاً كهذا سيؤدي كذلك إلى ممارسة الاضطهاد والتمييز ضد طبقات أخرى من الناس العاديين. وقال: إن حصيلة مثل هذه الطريقة هو إيجاد طبقة مزيفة تؤدي إلى حكم النخبة والدعوة لمثل هذا الحكم)[3].

أما النقطة الرابعة والأخيرة، فإن الإسلام لا يمنع العلم من علاج الحالات الخاصة التي ابتلى بها بعض الناس من عقم أو إسقاط مستمر للجنين. ومن هذا الباب عملية التلقيح خارج الرحم لامرأة (سدت القنوات فيها) من ماء زوجها الشرعي، لكن أن يصبح الأمر مفتوحاً على مصراعيه دون حدود ولا قيود فإنه عندئذ ستنتشر المشاكل في المجتمع.

يقول الدكتور البوطي: (..فما حكم إخصاب النطفة خارج الرحم؟ مداره في الإباحة وعلى أمرين اثنين:

١- أن يتأكد العلماء والأطباء تأكداً تاماً من أن هذه الطريقة لن تعقب أي

---

(١) لأن الإسلام دين رحمة وعدالة ثم إن تحول النوع البشري كله إلى نوع خارق الذكاء.

(٢) السياسة الكويتية العدد (٤٢٠٠) الاثنين ٢٣ ربيع ثان ١٤٠٠ آذار (مارس) ١٩٨٠ السنة الخامسة عشرة.

(٣) المرجع السابق.

ضرر جنسيّ أو نفسي أو عقلي في الجنين بعد ولادته. فأما إذا لم يتوافر هذا اليقين فإن الإقدام على ذلك محرم بالاتفاق، عملاً بالقاعدة الشرعية الكلية (**لا ضرر ولا ضرار**)[1].

٢- ألا يستتبع الإقدام على هذا العمل اختلاط في الأنساب. فإذا كانت النطفة التي يراد إخصابها بهذه الطريقة هي نطفة كل من الزوج والزوجة وتمت إعادتها بعد ذلك إلى رحم الزوجة دون غيرها، فذلك جائز (بعد ملاحظة توفر الشرط الأول). وأما إذا كان الأمر غير منضبط فهو غير جائز في نطاق الأحكام الشرعية قولاً واحداً.

وإنني أقول - على ضوء هذا الكلام - من الناحية التطبيقية إن عملية إخصاب النطفة خارج الرحم لا تزال في طور التجربة، وذلك لأن أحداً من العلماء لم يتبين بعد انعكاسات هذه العملية على الجنين بعد ولادته. ومدى الضرر الذي يمكن أن يلحقه بسببها وهذا وحده كاف للقول بحرمة هذا العمل من الناحية الشرعية، وخاصة أنه ذريعة إلى اختلاط الأنساب ومعلوم أن الذرائع تأخذ في الشريعة في غالب الأحيان أحكام نتائجها)[2].

(١) هذه القاعدة هي حديث الرسول ﷺ فعند ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي جـ٢ ص٧٨٤ (عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قضى أن (لا ضرر ولا ضرار). قال المحقق: في الزوائد: في حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا إنه منقطع لأن إسحاق بن الوليد قال الترمذي وابن عدي: لم يدرك عبادة بن الصامت وقال البخاري لم يلق عبادة.

(٢) مجلة العربي عدد (٢٤٢) السنة ٢١ صفر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

الفصل الثاني

الكهانة والغيب

- تعريف الكهانة:

الكهانة مصدر كَهَنَ كَمَنَعَ ونَصَرَ، أو كَهُنَ مثل: كَرُمَ. والكاهن هو المتعامل بالكهانة، والجمع كَهَنَةٌ وكُهَّانٌ[(١)]. والكَهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها كما يقول ابن حجر[(٢)]. وهي ادعاء علم الغيب.

وللعلماء تعاريف للكهانة والكهان. قال ابن سيده في المحكم: (الكاهن القاضي بالغيب)[(٣)]، وقال الخطابي: (الكاهن: هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب ويخبر الناس عن الكوائن)[(٤)]. والكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور. وقال ابن تيمية: (الكاهن هو: المتخرص، وقيل: هو المخدوم)[(٥)]. وقال في فتح المجيد: (الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع.. قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن.. والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: يخبر عما في الضمير..)[(٦)]. وهناك ألفاظ أخرى قد يشكل فهمها في هذا المقام: كالمنجم والرمال ونحوهم. قال ابن تيمية: (إن العراف اسم للكاهن، والمنجم، والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي

---

(١) بتصرف عن القاموس الفيروز آبادي ٢٦٦/٤ المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت.

(٢) فتح الباري ٢١٦/١٠.

(٣) ١٠٣/٤ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة / علي بن إسماعيل بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط١ طبعة الحلبي ١٣٨٨هـ.

(٤) انظر معالم السنن للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨هـ ط١ ص٢٢٨.

(٥) النبوات لابن تيمية ص٢٧٠ مكتبة الرياض الحديثة.

(٦) فتح المجيد. عبد الرحمن آل الشيخ. مكتبة الرياض الحديثة ص٢٩٨ تحقيق محمد حامد الفقي.

الكشف)[١]. فكلهم يدعي معرفة المستقبل إما عن طريق النجوم، أو النظر في الرمل أو الكف أو الحصى أو غيره، فيطلق عليهم جميعاً اسم العراف وإن كان لكل منهم اسم خاص حسب الطريقة التي يزعم بها معرفة المستقبل. فإن كان عن طريق النظر في النجوم سمي: منجماً، وإن كان عن طريق الرمل سمي: رمالاً وهكذا.

يقول صاحب كتاب التنبؤ بالغيب: (وتطلق الكهانة على الناظرين في الأجسام الشفافة في المرايا، وطساس الماء، وقلوب الحيوان وأكبادها، وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وأهل الزجر والفأل والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع وأهل الرياضة والسحر وأصحاب الفراسة ونحوهم)[٢]. وهذا كلام طيب في بيان الطرق التي تستعمل من قبل الكهنة، لكنه خلط الفأل والفراسة معها. أما الفأل فهذا أمر يمكن أن يمارسه كل إنسان وهو مرغوب في الإسلام والله سبحانه وتعالى يحبه كما ورد في الحديث أنه ﷺ كان يعجبه الفأل[٣]. وعن أنس: أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع يانجيح ياراشد[٤]، وعن بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه[٥]. وهذا فيه استعمال الفأل.

أما الفراسة فهي منحة إلهية وهبها الله لعباده على تفاوت بينهم، وفي الحديث (**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**)[٦]، وكان أبو بكر رضي الله عنه عالماً بالأنساب[٧]، وهو نوع من الفراسة. ومن الناس من يستدل بالآثار على الأشياء كأثر السارق على المسروق، وهذا لا شيء فيه ولا حرج إن كان يبذل المجهود في

---

(١) المرجع السابق.
(٢) التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً. أحمد الشنتناوي ص٤٥.
(٣) فتح المجيد ص ٣١٢.
(٤) قال في فتح المجيد ص٣١٢: رواه الترمذي.
(٥) قال في فتح المجيد ص٣١٢: رواه أبو داود وإسناده حسن.
(٦) مدارج السالكين.
(٧) انظر ص٣٣٤ جـ٢ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

البحث والتقصي. والممنوع منه ما كان بالظن والتخمين والرجم بالغيب، فعندها يطلق على فاعله كاهناً أو عرافاً كما ذكر عن البغوي في ذلك. والكهانة أربعة أنواع:

(أ) ما يتلقونه من الجن من السماء ولم يبق منه إلا الخطف كما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ (١).

(ب) ما يخبر به الجني قرينه عن غيره من الناس.

(ج) الظن والتخمين.

(د) التجربة والعادة(٢).

- الكهانة عند العرب:

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظ كاهن على كل من ادعى علم الغيب، لكنها ليست أصيلة عندهم بل جاءهم من الأمم المجاورة كالكلدانيين(٣)، ومما يؤيد ذلك أن الكاهن في العربية يسمى: حازي أو حزاء، وهو لفظ كلداني معناه: الناظر، أو الرائي، أو البصير. وهذا يدل على أن الكهانة كانت موجودة في الشعوب. وذكر صاحب كتاب مصرع الشرك(٤) والخرافة نقلاً عن كتاب أسرار الأبراج أن المزارعين لم يكونوا يزرعون حبوبهم إلا بعد استشارة الكهان وكذا المحاربين. والغريب أن تكهنات الكهان كانت تصدق في بعض الأحيان.

وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء، ولهذا كانت منـزلة الكاهن أعلى المنازل(٥). وقد ذكر الشعراء الكهان في شعرهم قال أحدهم:

فقلت لعراف اليمامة(٦) داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

(١) الصافات ١٠.

(٢) انظر هذا التقسيم في فتح الباري جـ١ ص ٢١٦.

(٣) انظر التنبؤ بالغيب ص٤٤.

(٤) مصرع الشرك والخرافة الشيخ خالد محمد علي طبع قطر ص٦١٣.

(٥) التنبؤ بالغيب ص٤٤.

(٦) عراف اليمامة هو رباح بن عجلة كما يقول صاحب (التنبؤ بالغيب).

وقال آخر:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما[١] شفياني

وقال ثالث:

شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان[٢]

وقال لبيد في ذم الكهان:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع[٣]

وللعرب قصص في هذا المجال ذكرها المدائني[٤].

وقد نبغ من العرب في الكهانة كثيرون مثل: شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وعمران بن عامر القحطاني وزوجته طريفة الخير كاهنة من حمير وكان قد أنبأ عن سيل العرم كما أخبرته زوجته[٥].

ومن كواهن العرب أيضاً طريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة، وكاهنة حرس، والغيطلة كاهنة بني الأسهم، وكاهنة خثعم فاطمة بنت مر[٦]. ويلاحظ أن الكهانة لم تكن في الرجال وحدهم بل شاركتهم النساء. ويلاحظ أيضاً أن كل كاهن كان ينسب إلى بلدة ككاهن قريش، وكاهن اليمن، وكاهن حضرموت. وقد كانت الكهانة فاشية عند العرب لانقطاع النبوة فيهم[٧]، أما بعد الإسلام فقد قل عددهم؛ لأن الإسلام حاربها - أي الكهانة - كما سيأتي بيانه.

- مؤيدو الكهانة:

والعجيب أن صاحب التنبؤ بالغيب يؤيد الكهانة فيقول: (وقد ظهرت من بني

---

(١) عراف نجد هو الأبلق الأسدي.

(٢) التنبؤ بالغيب ص٥٣.

(٣) انظر الإيمان وآثاره والشرك ومظاهره ص١٠٨.

(٤) التنبؤ بالغيب ص٥٦.

(٥) المرجع السابق ص ٤٨.

(٦) انظر موجز تاريخ العرب والإسلام ص٩٤ د. حسين قاسم العزيز ط١ - ١٣٩١هـ مكتبة النهضة بيروت.

(٧) انظر فتح الباري جـ١٠ ص٢١٦.

البشر في كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل، وقد خلعت عليهم هذه القدرة مهابة واحتراماً وتبجيلاً بين الناس، بل قد أدنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء، وسلكتهم في عدد أولياء الله الصالحين. و لم يقف هذا الميل أو الادعاء بالقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد، بل تعداهم إلى الأمم والشعوب. فقديماً برع الآشوريون في التنبؤ بالغيب، وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية في مسالكها، وقد مكنتهم سماؤهم الصافية من مراقبة حركاتها، وقالوا: إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم. وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم، وواصلوا قراءة صفحة السماء. ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذا العلم ورثوه عن أسلافهم. أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة. ومن عرافي العصور الوسطى بستراداموس (فرنسي)، ووليم ليلل (إنجليزي)، وويتز ومدام تيبس (فرنسية)[(١)].

ويقول: (وقد صدقت كثير من التنبؤات، ولكن بعض العرافين تنبأ نبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه التنبؤات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق؛ لأن الطبيب يخطئ والملاح والقائد العسكري يخطئ)[(٢)].

ويقول: (إن اعتقادنا في النبوءات لا يمكن أن يموت.. إن تعلق المرأة الحديثة وكثير من الرجال بالمنجمين والعرافين وضاربي الرمل والودع يفوق كل وصف)[(٣)].

والحق أن انتشار الكهانة بين الشعوب قديماً وحديثاً لا يرفعها إلى مستوى عال ولا يصبغها بصبغة الحق، بل تبقى كما هو معروف عنها تصدق أحياناً وتكذب كثيراً. ونحن نشاهد كثيراً من الأشياء منتشرة بين الشعوب، ولكنها لا تخرج من دائرة الخطأ والباطل والحرام. أما تبرير الكاتب لأخطاء الكهان، وجعلها كأخطاء الطبيب والملاح والقائد العسكري، فنقول: حقاً إن خطأ الطبيب أو الملاح أو القائد

---

(١) التنبؤ بالغيب ص٥.

(٢) المرجع السابق ص١٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٦.

العسكري لا يغير من حقيقة كونهم حاذقين لمهنهم وأعمالهم، لكن نحب أن نذكر المؤلف بأن عمل هؤلاء مبني على العلم بينما عمل الكهان مبني على الشعوذة والدجل.

وإن تعلق الناس بالكهان وزيارتهم لهم لا يدفعنا للقول بصحة مذهبهم، لأن غالبية الناس تسير مع الباطل، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ** ﴾(١)، وقال: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ (٢).

- اتهام الأعداء الإسلام بالكهانة:

يتهم أعداء الإسلام -كغيره من الأديان- بأنه مليء بالخرافة والدجل والشعوذة والكهانة. وهذا الادعاء وإن كان أكثر ما يتردد على ألسنة العصريين، إلا أن قدماء الأعداء ذكروه، فقد اتهموا الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنهم سحرة ومسحورون كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(٣)، وقوله: ﴿**إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا**﴾(٤)، وقوله: ﴿**فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ**﴾ (٥)، وقوله: ﴿**وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾(٦)، ويلاحظ أن اتهاماتهم متناقضة فبينما يهتمون بأنه كاهن وبنفس الوقت يقولون عنه مجنون.

وأعداء الإسلام يتهمون الإسلام بنفس التهم القديمة، فيا عجبا كيف يهاجمون الرجعية وهم أول الرجعيين؟ وكيف يطالبون بالتقدم ولا يزالون يعيشون على فتات القديم؟ إن الإنسان يعجب لاتفاق التهم التي أطلقوها قديماً وحديثاً، وكأن بعضهم أوصى بعضاً كما قال تعالى: ﴿ **أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾(٧). يقول

---

(١) سبأ ١٣.
(٢) الأنعام ١١٦.
(٣) الذريات ٥٢.
(٤) الإسراء ٤٧.
(٥) الطور ٢٩.
(٦) الحاقة ٤٢.
(٧) الذاريات ٥٣.

الملحدون في الكراسة الرمادية[١] التي نشرها الفوضويون الماديون في العراق: (.. بل إن القرآن حافل بالشعوذة والدجل، كما أن الإسلام خليط من القصص والأساطير والروايات ونبوءات كهنة العرب القدماء ومنجميهم)، ونقلت الكراسة عن ل. ى. كلموفيتش السوفيتي في بحث له بعنوان (الإسلام ونشأته ومستقبله) إذ يقول: (.. مما يدل على احتفاظه بشعوذات ونبوءات كهنة العرب القدماء ومنجميهم). وهاهو أحد زعماء البلاد الإسلامية يصرح أن في القرآن خرافات وأساطير كقصة أهل الكهف، وعصا موسى. وقد تولى الرد عليه بعض العلماء جزاهم الله خيراً. إنني أعجب من هؤلاء كيف يتهمون الإسلام وهو الذي شن الحرب عليها، ونصوصه مليئة بذمها وتحريمها كما سيأتي بالنسبة للكهانة. إنه لا يوجد في الإسلام نص صحيح يدعم الخرافة ويؤيدها، ولو كان الإسلام خرافة لكان الأولى أن لا يهاجمها أو يسكت عنها. وهؤلاء الأعداء لا سند لهم من تاريخ في اتصال رسول الإسلام ﷺ بالكهان والتعامل معهم، ولم ينقل التاريخ شيئاً عن ممارسته الكهانة فكيف يكون الإسلام كهانة؟!

إن أعداء الإسلام هم أعرف الناس بالحقيقة. فرغم التهم التي يطلقونها إلا أنهم فيما بينهم وبين أنفسهم يعرفون الحق ومما يدل على هذا ما رواه ابن كثير في البداية والنهاية يقول: (قال البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفراً من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر المواسم، فقال: إن وفود العرب ستقوم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قول بعضكم بعضاً فقيل: يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع، فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: ما هو بكاهن رأيت الكهان فما هو بزمزمة

(١) ذكر الكراسة الرمادية محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه (الرد على الملحدين) دار الكرنك ١٨٨١هـ القاهرة ص١٥.

الكهان..)[١]. ومما يدل على معرفة الأعداء أن الإسلام حق قول أبي جهل (فقد أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله. فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أنك قد بلغتً، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل علي، فقال: والله إني أعلم أن ما يقوله حق، ولكن يمنعني شيء، أن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا النبوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء قلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل). وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه[٢].

وروى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل كما حدث بها أبو سفيان عن ابن عباس، ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان هذا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قلت: لا، وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى).

وأخرج ابن عساكر عن معاوية رضي الله عنه قال: خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هند، وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي، إذ سمعنا رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتى يركب محمد، فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيهة، ثم التفت إلينا، فقال: (**يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة، والله لتموتن، ثم لتبعثن، ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار، وأنا أقول لكم بحق، وإنكم لأول من أنذرتم**)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم.. حتى بلغ قالتا أتينا طائعين**) فقال أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟ قال: (**نعم**) ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها وأقبلت

(١) البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف. بيروت ط١ ١٨٨٦هـ جـ٣ ص٦١ .

(٢) انظر هذه الأقوال كلها ٢٢/١ "الرسول" لسعيد حوي. مؤسسة الرسالة ط٣ ١٣٩١هـ.

هند على أبي سفيان: أهذا الساحر أنــزلت ابني، قال: لا والله ما هو بساحر ولا كذاب) أخرجه الطبراني أيضاً.

- موقف الإسلام من الكهانة:

قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**﴾[١]، وقال: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾[٢]، وقال: ﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾[٣]، وقال: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ**﴾[٤]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها فاختصموا إلى النبي ﷺ فقضى أن دية ما في بطنها غرة عبد أو أمة، فقال وليّ المرأة التي غرمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل، فقال النبي ﷺ: (**إنما هذا من إخوان الكهان**)[٥]. وعن عائشة قالت: سأل رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة[٦]. وقال ﷺ لما قيل له: إن منا قوماً يأتون الكهان قال: (**فلا يأتوهم**)[٧] وكان ابن صياد[٨] كاهناً ولهذا قال له النبي ﷺ: (**قد خبأت لك خبياً**) فقال: الدخ، فقال: (**اخسأ فلن تعدو قدرك إنما أنت من إخوان الكهان**)[٩].

---

(١) الشعراء ٢٢٢.

(٢) الحاقة ٤١.

(٣) الصافات ١٠.

(٤) الطور ٢٩.

(٥) فتح الباري ٢١٦/١٠.

(٦) رواه مسلم وفي لفظ البخاري (سأل ناس رسول الله) انظر مع الفتح ٢١٦/١٠.

(٧) انظر مسلم ١٧٤٩/٤ والحديث مروي بالمعنى.

(٨) عبد الله بن صياد وقد ظنه الصحابة الدجال لكنه كان من جنس الكهان وقد خبأ له سورة الدخان. في الصحيحين اسمه صافي.

(٩) النبوات لابن تيمية ص ٢٧٠.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنـزل على محمد**)[١]. وقال ﷺ: (**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**)[٢]، وفي رواية (**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنـزل على محمد**)[٣] وقال: (**ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له ومن عقد عقدة ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنـزل على محمد ﷺ**)[٤]. وعن ابن مسعود قال: نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن[٥]، وقال: (**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنـزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**)[٦].

يتبين من النصوص السابقة موقف الإسلام من الكهانة ويتلخص فيما يلي:

١- الكهانة أمر واقع موجود لا ينكر وجوده.

٢- الكهانة عبارة عن أخذ معلومات من القرين الجني الذي يسترق السمع، وكانوا قبل البعثة كثيراً أما بعدها فقليل.

٣- الإسلام يحرم ممارسة الكهانة والتعامل بها ويحرم زيارة الكهان ويعتبرها من الكبائر. قال ابن عبد البر في الكافي كما رواه عنه القرطبي[٧]: (من المكاسب المجتمع على تحريمها:.. وعلى الكهانة وادعاء علم الغيب وأخبار السماء).

---

(١) قال في مجمع الزوائد ١١٧/٥ (روه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا عقبة بن سنان وهو ضعيف).

(٢) رواه مسلم ١٧٥١/٤ ط دار إحياء الكتب العربية.

(٣) قال ابن حجر في الفتح ٢١٧/١٠ (أخرجه أصحاب السنن صححه الحاكم من حديث أبي هريرة.

(٤) قال في مجمع الزوائد ١١٧/٥ (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة.

(٥) البخاري مع الفتح ٢١٦/١٠.

(٦) قال ابن حجر في الفتح ٢١٧/١٠ (رواه الطبراني بسند لين عن أنس).

(٧) انظر تفسير القرطبي جـ٧ ص٣.

٤- مصدق الكاهن كافر[١] في الإسلام فضلاً عن عدم قبول صلاته أربعين يوماً.
٥- ليس كل ما يصدر من الكهان صحيحاً بل يخلطون مع كلمة الحق مائة كذبة.
٦- حقارة الكهان حيث اقترن ذكرهم بالكلب والبغي.
٧- استشكال بعض الناس أمر النبوة بالكهانة فلزم توضيحها.
٨- ذم الكهانة والتشبه بها حيث ذمه بقوله: (**إنما هذا من إخوان الكهان**).

وقد فصل موضوع الفرق بين النبوة والكهانة شيخ الإسلام ابن تيمية نلخصه فيما يلي:

١- آيات الأنبياء لا يقدر عليها الجن والإنس بخلاف عمل الكهان.
٢- آيات الأنبياء لا يمكن معارضتها بخلاف عمل الكهان.
٣- آيات الأنبياء خارقة لعادات الإنس والجن بخلاف خوارق الكهان.
٤- خوارق الكهان تنال بأفعالهم بخلاف آيات النبوة إذ هي بيد الله.
٥- تعاليم النبي تتفق مع تعاليم الأنبياء قبلهم بخلاف تعاليم الكهان إذ تتضارب مع تعاليم الأنبياء.
٦- النبي لا يأمر إلا بالخير بخلاف الكاهن[٢].

يقول شارح الطحاوية: (الواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات أو أن يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك)[٣].

ونبه إلى أن ما يكتب في الصحف اليومية عن موضوع الأبراج والحظوظ أمر يرجع إلى الكهانة وأن هذا لا يتفق مع مطالب أهل الحضر والتقدم.

---

(١) كفراً عملياً وإذا اعتقد أن الكاهن يغير في القدر ويتصرف فهو كفر اعتقادي.

(٢) بتصرف عن "النبوات" لابن تيمية ص ٢٨١.

(٣) انظر ص ٥٦٨ شرح العقيدة الطحاوية ط٤ تخريج الألباني وتحقيق جماعة من العلماء. المكتب الإسلامي.

ونشير إلى أن كلمة الصدق الواحدة التي يخلطها الكهان مع المائة كذبة قد دلت على الغيب، فقد تكهن هؤلاء، وقالوا بقرب ظهور الرسول ﷺ، وهذه من كلام الحق الذي يخلطونه مع الباطل. فالكهانة ليست هي ديننا، وليس الإيمان بالغيب إيماناً بالكهانة وإن كانت الكهانة تدل على الإيمان بالغيب.

القسم الثاني

الباب الرابع

من قضايا الغيب في ضوء القرآن والسنة

الفصل الأول

عالم البرزخ

- **تعريف البرزخ لغةً:**

البرزخ: (الحاجز، والحاجز والمسافة متقاربان في المعنى، ذلك أنك تقول: بينهما حاجز أن يتزاورا، فتنوي بالحاجز: المسافة البعيدة، وتنوي الأمر المانع، مثل اليمين والعداوة.

فصار المانع في المسافة كالمانع في الحوادث، فوقع عليها البرزخ)[١].

يريد بذلك، أن البرزخ يفيد أول ما يفيد الموانع المعروفة، كالعداوة تمنع من التزاور واللقاء، والحَلِفُ ألا يلتقي بشخص، هذا هو الظاهر المتبادر من لفظ البرزخ، إلا أن الفراء جعل من معانيه المسافة، فإنها تمنع من اللقاء بين شخصين، أحدهما في طرف المسافة، والآخر في طرفها الآخر، فإنها تمنع من اللقاء بينهما.

فانتهى إلى القول بأن البرزخ كما يطلق على الموانع المتبادرة من لفظه، يطلق أيضاً على المسافة، إلا أنه: هل يبقى إطلاقه عليها حقيقياً أو مجازياً؟ هذا ما لم نتبينه من العبارة. ومثله في النهاية لابن الأثير، قال: (ومنه حديث علي رضي الله عنه "**أنه صلى بقوم فأسوى برزخاً**) أي: أسقط في قراءته من ذلك الموضوع إلى الموضوع الذي كان انتهى إليه من القرآن[٢].

وقال الراغب الأصفهاني[٣]: (وقيل البرزخ: الحاجز والحد بين الشيئين، وقيل أصله برزة فَعُرِّبَ).

قال الله تعالى: ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾ [٤]، أي: حاجز لا يختلطان، والبرازخ:

---

(١) معاني القرآن للفراء، مادة برزخ.

(٢) النهاية لابن الأثير، مادة البرزخ.

(٣) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، سكن بغداد واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. الأعلام للزركلي ج٢، ص ٢٧٩.

(٤) الرحمن ٢٠.

جمع برزخ.[١]

وأما ما قاله الراغب فيبدو أن فيه تقصيراً عن التعريفين السابقين، لأنه فسّر البرزخ بالحاجز، ثم عطف عليه الحد، ولاشك أن الحد من الحواجز، فذكْره بعده لا فائدة فيه، وقد أهمل ذِكْر المسافة كمعنى من معاني البرزخ.

وأما المراد من البرزخ الذي نتحدث عنه، وهو ما يكون بعد موت الشخص، فقد فُسِّرَ بتفسيرات عدة، منها: قول الفراء[٢] في قوله تعالى: ﴿**وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٣].

البرزخ: من يوم يموت إلى يوم البعث[٤].

وقيل البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ، وقال الكسائي: البرزخ ما بين كل شيئين، ومنه قيل للميت: هو في البرزخ، لأنه بين الدنيا والآخرة[٥].

ويبدو أن مراده بالبرزخ هو من انتهاء دنيا الشخص، وذلك بموته إلى أن يحشر ويبعث، فما بين موته وبعثه، هو برزخه، هذا ما يفهم من العبارة، وبهذا التفسير لا يكون هناك فرق بين ما قيل أولاً وآخراً.

وقال الهروي[٦]: (البرزخ: هو القبر)[٧].

---

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني ص٤٣.

(٢) هو يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي المعروف بالفراء، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب.كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، ولد بالكوفة وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه، فكان أكثر مقامه بها، ومع تقدمه في اللغة، كان فقيهاً متكلماً يميل إلى الاعتزال، تاريخ بغداد للخطيب ج١٤ص١٤٩.

(٣) المؤمنون ١٠٠.

(٤) معاني القرآن للفراء، مادة البرزخ.

(٥) لسان العرب، مادة البرزخ، انظر تاج العروس، مادة البرزخ.

(٦) هو أحمد بن محمد الهروي البردي الأصل الهروي الدار والمولد، الشافعي الواعظ، ولد سنة ٨٢٩هـ وطاف البلاد واعظاً وتكرر قدومه القاهرة، من أهل الأدب والحديث واللغة.الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لمحمد السخاوي ج٢ ص٩٥.

(٧) كتاب الغريبين على غريب القرآن والحديث للهروي، مادة البرزخ.

وظاهر كلام الهروي أن القبر نفسه هو البرزخ، وهو معنى فاسد؛ لأن القبر حسب الظاهر المفهوم إنما هو من الدنيا قطعاً، ولعله أراد أن القبر ما دُفن فيه أولئك الأموات الذين دخلوا في البرزخ، فلا منافاة بين هذا القول وما سبقه من الأقوال.

وقال قتادة[١]: (البرزخ بقية الدنيا)[٢].

وظاهر كلام قتادة أنه جعل الجزء الباقي من الدنيا هو البرزخ، وليس ذلك بصحيح؛ لأنه جزء الدنيا دنيا، لعله أراد أن برزخ كل شخص يبدأ من موته، حتى تنتهي الدنيا وتقوم الساعة، وهو بهذا المعنى مستقيم مع الأقوال السابقة.

وهذه المعاني السابقة كلها، ينطبق عليها المعنى اللغوي الذي ذكرناه آنفاً، سواءً ما قاله الفرَّاء وصاحب النهاية والراغب، فإن الوقت الذي يمر على الشخص بعد موته إلى يوم الحشر، فاصل بين دنياه وآخرته، والله أعلم.

الأقوال في عذاب القبر ونعيمه:

اختلف الناس في عذاب القبر ونعيمه على ثلاثة أقوال هي:

١- النافون له، وهم بعض المعتزلة والروافض والخوارج.

٢- المثبتون له، وهم أكثر أهل الإسلام.

٣- ومنهم من ذهب إلى أن الله يُنعِّم الأرواح ويؤلمها، فأما الأجساد التي في قبورهم، فلا يصل ذلك إليها في القبور[٣].

أدلة المثبتين لعذاب القبر:

لقد تظاهرت الدلائل من الكتاب والسنة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه، وأجمع عليه أهل السنة.

أ -الأدلة النقلية من الكتاب:

١- قوله تعالى: **﴿وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذاب *النارُ يُعرضونَ عليها غدوّاً**

(١) قتادة بن دعامة السدوسي البصري، حافظ مفسر ضرير أكمه، قال فيه أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأساً في اللغة ومفرداتها وأيام العرب وأنسابهم.الأعلام للزركلي ج٦ص٢٧.

(٢) كتاب الغريبين على غريب القرآن والحديث للهروي، مادة البرزخ.

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ج٢ ص١٠٤.

وعشيّاً ويومَ تَقومُ الساعة أدخِلوا آل فرعونَ أشـــدَّ العذاب﴾[١].

قال الرازي[٢]: في تفسير هذه الآية: (احتج أصحابنا في هذه الآية على عذاب القبر، قالوا: الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً وليس المراد منه يوم القيامة؛ لأنه قال: ﴿ **يوَم تقومُ الساعةُ أدخلوا آل فرعونَ أشدَّ العذاب**﴾. وليس المراد منه أيضاً الدنيا، لأنه عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم، لأنه لا قائل بالفرق)[٣].

ويؤيد ما قاله الرازي، ما قاله علماء العقائد: إن العقائد الدينية لا تختلف بين أمة وأخرى، وإنما الذي يختلف العبادات الأخرى، وهذا واضح؛ لأن العقائد لا تختلف بحسب الأمم، فإذا كان الله واحداً فهذه عقيدة لا تختلف بين الأنبياء.

قوله: ﴿**سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ قيل: الغرق، وقيل: أكل السباع والموت عطشاً، والقتل والصلب على ما روى ابن عباس -رضي الله عنهما- في حق الذين أرادوا قتل مؤمن آل فرعون حين فرَّ منهم وتبعوه، فقسمٌ منهم أكلته السباع، والقسم الآخر صلبهم فرعون لما عرف أنهم لم يقتلوا ذلك المؤمن، وقيل: النار ولعله أولى.

وقوله: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**﴾ وهو من باب الاستعارة التمثيلية، بتشبيه حالهم بحال متاع يبرز لمن يريد أخذه، وفي ذلك جعل النار كالطالب الراغب فيهم لشدة استحقاقهم الهلاك.[٤] فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً، عرض النصائح عليهم في الدنيا؟ لأن أهل الدنيا إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوّفوهم بعذاب الله، فقد عرضوا عليهم النار.

---

(١) غافر ٤٥-٤٦.

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن التميمي البكري: فخر الدين الرازي، الإمام المفسر، اشتهر بعلمه في المنقول والمعقول، وعلوم الأوائل، قرشي النسب، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وكان واعظاً بارعاً في اللغتين العربية والفارسية مات سنة ٦٠٦هـــ / الأعلام ج٧ ص٣ .

(٣) تفسير الرازي ج٢٧ ص٧٣، وانظر القرطبي ج١٥ ص٣١٩، والمواقف ج٨ ص٣١٧.

(٤) روح المعاني جـــ٢٤ ص٧٣.

الجواب على ذلك: على قول هؤلاء يصير معنى الآية، الكلمات المذكرة لأمر النار، كانت تعرض عليهم، وذلك يفضي إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى المجاز، وهو عدول عن الظاهر بدون دليل فلا صحة له بعد ذلك[١].

يتضح بعد ذلك أنه لا وجه لهذا الاعتراض أصلاً؛ لأن الآية تتحدث عن أحوال موتى آل فرعون، وليس عن أحوالهم في الحياة الدنيا، فلا صحة له بعد ذلك مطلقاً.

قيل: في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر، وبيانه من وجهين:

الأول: أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع، وقوله تعالى: ﴿**يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ يقتضي ألا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين فقط، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر.

الثاني: أن الغداة والعشية، إنما يحصلان في الدنيا، أما في القبر فلا وجود لهما، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر.

والجواب على ذلك: لِمَ لا يجوز أن يُكتفى في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين، ثم عند قيام القيامة يُلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك؟

وأيضاً لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾[٢].

أما قوله: ليس في القبر غدوة أو عشية، قلنا: لم لا يجوز أن يُقال: إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب.[٣]

ويتضح لنا من خلال ما ذكر، أن عذاب آل فرعون وعرضهم، إنما هو عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا بما رواه شعبة[٤] عن يعلى بن عطاء[٥] قال: سمعت

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـــ٢٤ ص٢٥، وانظر تفسير الرازي جـــ٢٧ ص٧٣.

(٢) مريم ٦٢.

(٣) تفسير الرازي جـــ٢٧ ص٧٣.

(٤) هو شعبة بن الحجاج العتكي الأزدي، البصري، من أئمة رجال الحديث، حفظًا ودراية وثبتًا، سكن البصرة، وهو أول من أمر المحدثين، قال فيه الشافعي: لو لا شعبة ما عرف الحديث بالعراق، وكان عالمًا بالأدب والشعر مات سنة ١٦٠هـــ/تاريخ بغداد جـــ٩ ص٢٥٥.

(٥) هو يعلى بن عطاء العامري الليثي تابعي، أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل خيراً، ووثقة يحيى بن معين والنسائي، وذكره ابن حبان في الثقات وقال البخاري: مات بواسطة سنة ١٢٠ هـــ/ تهذيب التهذيب لابن حجر جـــ١١ ص٤٠٣.

ميمون بن ميسرة يقول: كان أبو هريرة(١) إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار، فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوّذ بالله من النار.

وكذلك روي عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: "**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده، بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، إن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة** "(٢)(٣).

وروي عن السدّي أنه قال: بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غدواً وعشياً، حتى تقوم الساعة، ورُوي عن الأوزاعي(٤) مثل ذلك(٥).

لقد تبين لنا ثبوت دلالة الآية الكريمة على وقوع عذاب القبر، واستمرار ذلك العذاب، وأنه باق كذلك إلى يوم القيامة، وذلك بما ورد في حديث ابن عمر المذكور آنفاً وغيره من الآثار عن الصحابة والتابعين.

٢-كذلك استدلوا بقوله تعالى: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ**

---

(١) اختلف في اسمه، وقيل كان اسمه عبد شمس بن صخر قبل الإسلام، فسماه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبد الرحمن، وكنيته أبو هريرة لحمله هرة في كمه، وهو من الأزد الدوسي اليمني، أسلم في السنة السابعة للهجرة وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حفظاً للحديث رضي الله عنه مات سنة ٥٧ هـ/الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر جـ٤ ص٢٠٣.

(٢) فتح الباري جـ٣ ص٢٣١، ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٠.

(٣) تفسير القرطبي جـ١٥ ص٣٢٠، وانظر تفسير الرازي جـ٢٧ ص٧٣.

(٤) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية، الفقيه الزاهد، أحد الكتاب المترسلين، ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ نشأ في البقاع، وسكن في بيروت، عرض عليه القضاء فامتنع، مات سنة ١٥٧ هـ.الأعلام جـ ٤ ص٩٤.

(٥) جامع البيان للطبري جـ٢٤.ص٧١.

يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنْصَارًا﴾[(١)].

قـــال الرازي: تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿**أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ وذلك من وجهين:

الأول: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿**فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ تدل على أن تلك الحالة حصلت عقب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء.

الثاني: إنه قال: ﴿**فَأُدْخِلُوا**﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي، وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك[(٢)].

وقال النيسابوري: [(٣)] وقد يستدل بفاء التعقيب لاسيما وقد دخل على ماضٍ معطوف على مثله، على إثبات عذاب القبر.

وقال مقاتل[(٤)] والكلبي: (معناه: أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً، ثم عبّر عن المستقبل بالماضي لصحة كونه، وصدق الوعد به كقوله: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ**﴾[(٥)]، وقوله: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾[(٦)][(٧)].

قال الرازي: اعلم أن الذي قالوه تَرْكٌ للظاهر من غير دليل، فإن قيل: إنما تركنا هذا الظاهر لدليل وهو أن من مات في الماء فإنا نشاهده هناك، فكيف يمكن أن يقال:

---

(١) نوح: ٢٥.

(٢) تفسير الرازي جـــ٣٠ ص١٤٥.

(٣) هو الحسن بن محمد الحسين القمي النيسابوري، مفسر له اشتغال بالحكمة والرياضيات، أصله من بلدة قم وسكن في نيسابور، من كتبه: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، وأوقاف القرآن، ولب التأويل وشرح الشافية، وكتاب في الصرف يعرف بشرح النظام /الأعلام جـــ٢ ص٢٣٤.

(٤) هو مقاتل بن سليمان البلخي المفسر روى عن مجاهد والضحاك، قال فيه الشافعي: الناس عيال في التفسير على مقاتل، وقيل إنه كان يكذب، وقيل غير ذلك مات سنة ١٥٠هـــ/ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ج٤ ص١٧٣.

(٥) الأعراف: ٥٠.

(٦) الأعراف: ٤٤.

(٧) تفسير الرازي جـــ٣٠ ص١٤٥.

إنهم في تلك الساعة أدخلوا ناراً؟.

والجواب: هذا الإشكال جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل وهذا خطأ، لأن الإنسان الذي كان موجوداً من أول عمره كان صغير الجثة، ثم إن أجزاءه في تحلل وذوبان مستمر ومعلوم أن الباقي غير المتبدل، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن، فَلِمَ لا يجوز أن يقال: إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء، إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب؟[1].

نقول: هذا الجواب من الرازي غير مستقيم من وجوه:

أولها: دعوى أن هناك أجزاء أصلية باقية في الجسم لا تتغير هذا يحتاج إلى دليل.

الثاني: لو سلّمنا بذلك، لكن دعوى أن الله ينتزع هذه الأجزاء الأصلية من الجسم الغارق، ويعذبه بالنار، هذا مجرد تجويز لم يقم عليه دليل؛ بل إذا عقدنا مقارنة بين هذا التجويز وبين ما يقوله المعترض، لكان قول المعترض أقرب إلى العقل.

والصحيح في الجواب: أن الحياة القبرية وما فيها من نعيم وعذاب لها شأن خاص، لا يخضع لما جرت عليه العادة في هذه الحياة كما سيأتي في الرد على منكري الحياة القبرية مفصلاً.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿**فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ أي: بعد إغراقهم، وهذا يدل على عذاب القبر.

ومنكروه يقولون: صاروا (مستحقي) دخول النار، أو عُرض عليهم أماكنهم من النار، كما قال تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ [2][3].

ونجيب على هؤلاء: إن التأويل في إدخال النار باستحقاق النار باطل، لأن استحقاق دخول النار، ثابت قبل ذلك، فلا معنى لأن يكون الاستحقاق بعد الإغراق، لأنهم استحقوا النار بكفرهم الحاصل قبل الإغراق.

---

(١) تفسير الرازي جـ٣٠ ص١٤٥.

(٢) غافر ٤٦.

(٣) تفسير القرطبي جـ١٨ ص٣٠٧.

وأما قولهم: أو عرض عليهم أماكنهم من النار، واستشهادهم بقوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ فالآية وردت في إثبات عذاب القبر كما بيَّنا سابقاً، وهي بالتالي شاهد عليهم لا لهم، وإذا كان مرادهم بالعرض، إنما هو تعذيب، فقد ثبت عذاب القبر.

فلو تجاوزنا هذا المعنى، فمجرد العرض على النار عذاب، لأن العرض يحتاج إلى حياة، وإذا عرضت عليه النار، وظهر أنه من أهل النار، كان في ذلك عذاب.

وخلاصة القول: إنه بناءً على هذا التأويل للخصوم فهناك حياة، وهناك إدراك لما يؤول إليه هذا الميت من العذاب في النار، كل هذا يشهد بكذب من ينكر الحياة القبرية، فإن المنكرين يزعمون أنه لا حياة ولا نعيم ولا عذاب فتأويلهم هذا حجة عليهم.

وقال الضحاك[(١)]: (كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب آخر في حالة واحدة)[(٢)].

ونرد على الضحاك: أنه يفر بجوابه هذا من كون الماء في جانب آخر، ونقول: إن هذا كلام بعيد جداً، ويكذبه الواقع، فإن الغريق يبقى في الماء وهو محيط به من كل جانب، وليس له جانب خارج الماء حتى يكون هذا الجانب في النار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد قاس الضحاك ما يجرى على الغريق من عذاب وغيره، على ما جرت عليه العادة في أحوال الدنيا، وهذا قياس لا صحة له كما بيَّنا سالفاً.

٣-وكذلك استدلوا بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾ [(٣)]

وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ**

---

(١) الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم: مفسر.كان يؤدب الأطفال ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي قال الذهبي: كان يطوف عليهم على حمار، وذكره ابن حبيب تحت عنوان: أشراف المعلمين وفقهاؤهم له كتاب في التفسير /الأعلام جـ٣ ص٣١٠.

(٢) تفسير القرطبي جـ١٨ ص٣٠٧ وانظر غرائب القرآن جـ٢٨ ص٥٩ وتفسير الخازن جـ٦ ص١٥٦.

(٣) البقرة ١٥٤.

رَبِّهِمْ يُرْزَقُون فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْله وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما(٢): نزلت هذه الآية: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ**﴾ في قتلى بدر، وقُتلَ يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار وكانوا يقولون: مات فلان ومات فلان، فنهى الله تعالى أن يُقال فيهم: إنهم ماتوا.

وعن آخرين أن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد ﷺ من غير فائدة فنــزلت هذه الآية(٣).

وقال ابن كثير(٤): (يخبر الله تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياءٌ يرزقون كما جاء في رواية مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، قال: أَمَا إِنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث نشاء؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من غير أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا)(٥).

---

(١) آل عمران ١٦٩، ١٧٠.

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له النبي عليه السلام بالفقه والحكمة في الدين، وكان يقال له حبر هذه الأمة، وكان عمر يقرب ابن عباس مع الصحابة، تقديراً لسداد رأيه ومبلغ علمه، تولى الإمارة على البصرة في عهد علي ثم أمضى آخر أيامه في الطائف ومات فيها سنة ٦٨ هــ/الإصابة جــ٢ ص٣٣٠.

(٣) تفسير الرازي جــ٤ ص١٦٣.

(٤) هو إسماعيل بن عمر بن ضو القرشي، أبو الفداء: حافظ مؤرخ فقيه، رحل في طلب العلم، وتناقل الناس تصانيفه: البداية والنهاية، تفسير القرآن العظيم وغيرهما مات سنة ٧٦٧ هــ الأعلام جــ١ص٣١٧.

(٥) تفسير ابن كثير جــ١ ص١٩٦، والحديث في مسلم بشرح النووي جــ١٣ ص٣١، وانظر مسند الحميدي جــ١ رقم ١٢٠.

وقال الرازي: واعلم أن ظاهر الآيات يدل على كون هؤلاء المقتولين أحياء؛ فإما أن يكون المراد منه حقيقةً أو مجازاً، فإن كان المراد منه هو الحقيقة، فإما أن يكون المراد أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء في الحال، وبتقدير أن يكون هذا هو المراد إثبات الحياة الروحانية، أو إثبات الحياة الجسمانية، فهذا ضبط الوجوه التي يمكن ذكرها في هذه الآيات:

الاحتمال الأول: إن تفسير الآية بأنهم سيصيرون أحياء في الآخرة، قد ذهب إليه جماعة من متكلمي المعتزلة، ومنهم أبو القاسم الكعبي[1] قال: ذلك لأن المنافقين الذين كانوا يقولون: أصحاب محمد يعرضون أنفسهم للقتل، فيقتلون ويخسرون الحياة ولا يصلون إلى خير، وإنما كانوا يقولون ذلك لجحدهم البعث والميعاد، فكذبهم الله تعالى وبيَّن بهذه الآية أنهم يبعثون ويرزقون ويوصل إليهم أنواع الفرح والسرور والبشارة.

واعلم أن هذا القول باطل، ويدل عليه وجوه: -

الأول: أن قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾ ظاهره يدل على كونهم أحياء عند نزول الآية، فحمله على أنهم سيصيرون أحياء بعد ذلك عدول عن الظاهر.

الثاني: أنه لا شك أن جانب الرحمة والفضل والإحسان، أرجح من جانب العذاب والعقوبة، ثم إنه تعالى ذكر أهل العذاب، وأنه أحياهم قبل يوم القيامة لأجل التعذيب، فإنه تعالى قال: ﴿**أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ [2] والفاء للتعقيب، والتعذيب مشروط بالحياة، وأيضاً قال تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾[3]، وإذا جعل الله أهل العذاب أحياء قبل يوم القيامة لأجل التعذيب فلئن يجعل أهل الثواب أحياء قبل يوم القيامة لأجل الإحسان والإثابة كان ذلك أولى.

---

(١) هو عبد الله بن أحمد محمود الكعبي البلخي المشهور، كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية، وهو صاحب مقالات، ومنها: أن الله سبحانه وتعالى ليس له إرادة، وأن جميع أفعاله واقعة منه بغير إرادة ومشيئة منه. توفي سنة ٣٢٧ هـ /وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٣, ص٤٥.

(٢) نوح: ٢٥.

(٣) غافر: ٤٦.

الثالث: أنه لو أراد أنه سيجعلهم أحياء عند البعث في الجنة لما قال للرسول ﷺ ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ**﴾ مع علمه بأن جميع المؤمنين كذلك، أما إذا حملناه على الثواب حسن قوله ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ**﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام لعله ما كان يعلم أنه تعالى يشرّف المطيعين والمخلصين بهذا التشريف، وهو أنه يحييهم قبل يوم القيامة، لأجل إيصال الثواب إليهم.

فإن قيل: إنه عليه الصلاة والسلام وإن كان عالماً بأنهم سيصيرون أحياء عند ربهم عند البعث ولكنه غير عالم بأنهم من أهل الجنة، فجاز أن يبشره الله بأنهم سيصيرون أحياء ويصلون إلى الثواب والسرور.

قلت: قوله: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ**﴾ إنما يتناول الموت؛ لأنه قال: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا**﴾ فالذي يزيل هذا الحسبان هو كونهم أحياء في الحال، لأنه لا حسبان هناك في صيرورتهم أحياء يوم القيامة، وقوله: ﴿**يرزقون فرحين**﴾ هو خبر مبتدأ ولا تعلق له بذلك الحسبان، فزال هذا السؤال.

الرابع: قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ** ﴾ والقوم الذين لم يلحقوا بهم لابد وأن يكونوا في الدنيا، فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا، لابد وأن يكون قبل يوم القيامة، والاستبشار لابد وأن يكون مع الحياة، فدل هذا على كونهم أحياء قبل يوم القيامة[1].

ويمكن أن نقول إن هذه الوجوه التي ذكرها الرازي في بعضها نظر، كالوجه الثاني، فإنه مجرد كلام خطابي يعوزه الدليل، لأنه يجوز أن يكرمهم الله تعالى بدون عذاب.

الاحتمال الثاني: وهو أن المراد في هذه الآية أن الشهداء أحياء في الحال، والقائلون بهذا القول، منهم من أثبت هذه الحياة للروح، ومنهم من أثبتها للبدن.

الاحتمال الثالث: في تفسير الآية عند من يثبت هذه الحياة للأجساد والقائلون بهذا القول اختلفوا، فقال بعضهم: إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات، وإلى قناديل تحت العرش، ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها، ومنهم

---

(١) تفسير الرازي جـ٩ص٨٩ -٩٢.

من قال: يتركها في الأرض ويحييها، ويوصل هذه السعادة إليها.

واعترض عليهم بقول: إنا نرى أجساد هؤلاء الشهداء قد تأكلها السباع فإما أن يقال: إن الله تعالى يحييها حال كونها في بطون السباع ويوصل الثواب إليه، أو يقال: إن تلك الأجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله تعالى، ويؤلفها ويرد الحياة إليها ويوصل الثواب إليها، وكل ذلك مستبعد، ولأنا قد نرى الميت المقتول باقياً أياماً إلى أن تتفسخ أعضاؤه، وينفصل القيح والصديد، فإن جوزنا كونها حية متنعمة، عاقلة عارفة، لزم القول بالسفسطة(١).

والجواب عن هذا الاعتراض سيأتي في الرد على شُبَهْ المنكرين للحياة القبرية بإذن الله.

وأما الشق الثاني من الاحتمال الثالث، هو المعقول الذي يؤيده ما يأتي من الأحاديث، وأما الشق الأول، وهو أن أجسادهم ترفع إلى السماء، فهذا بعيد يحتاج إلى دليل.

الاحتمال الرابع: أنه ليس المراد من كونهم أحياء حصول الحياة فيهم، بل المراد بعض المجازات وبيانه من وجوه:

الأول: قال الأصم البلخي(٢): (إن الميت إذا كان عظيم المنــزلة في الدين، وكانت عاقبته يوم القيامة البهجة والسعادة والكرامة، صح أن يقال: إنه حي وليس بميت، كما يقال في الجاهل: الذي لا ينفع نفسه ولا ينتفع به أحد: إنه ميت وليس بحي، وكما يقال للبليد: إنه حمار، وللمؤذي: إنه سبع، إلى غير ذلك من المجازات).

الثاني: قال بعضهم في مجاز هذه الحياة: إن أجسادهم باقية في قبورهم وإنها لا تبلى تحت الأرض البتة، واحتج هؤلاء بأنه لما أراد معاوية أن يجري العين على قبور الشهداء، أمر بأن ينادي: من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع، قال جابر: فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابت المسحاة إصبع رجل منهم فقطرت دماً.

---

(١) المصدر السابق جـ٩ ص٩٣.

(٢) هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن الأصم. من أهل بلخ عرف بالزهد والتقليل، واشتهر بالورع والتقشف، وله كلام في الزهد والحكم ولد بخرا سان وتوفي سنة ٢٣٧ هـ /تاريخ بغداد جـ٨ ص٢٤١.

الثالث: أن المراد بكونهم أحياء أنهم لا يغسَّلون كما تغسّل الأموات ولا يُصلى عليهم[١].

وهناك جواب حاسم وهو أن هؤلاء المنافقين أو الكفار، حسبوا أن الشهداء يموتون بعد قتلهم مباشرة، فإذا مَا ردّ الله تعالى عليهم بأنهم أحياء، يجب أن يكون الأحياء في الوقت الذي حسب به الحاسبون فيه بأنهم أموات، هذا وأن التفسير للأحياء بالمجاز لا يصلح رداً على حسبانهم أمواتاً، إنما هو الموت الحقيقي المادي، فكونهم أحياء حياة مجازية لا يصلح رداً عليهم، وإنما الذي يصلح رداً عليهم، أنهم يحيون حياة حقيقية لا مجازية.

٤-واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [٢].

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات السابقة أن صفة الكلمة الطيبة، أن يكون أصلها ثابتاً، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت، بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار، ذكر أن ذلك القول الثابت، عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم وثبات ثوابه عليهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة، يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ**﴾ أي: على الثواب والكرامة، وقوله: ﴿**بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ الْآخِرَةِ**﴾ أي: بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني: كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة، وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه[٣].

ونلاحظ على عبارة الرازي أنها توهم الحمل على الوجوب العقلي في حق الله تعالى، كما زعم المعتزلة، ولكن الرجل من أئمة أهل السنة لا يقول بشيء من

(١) المصدر السابق جـ٩ ص٩٣.

(٢) إبراهيم: ٢٧.

(٣) تفسير الرازي جـ١٩ ص ١٢٢.

الوجوب العقلي على الله تعالى، ولهذا حملنا الوجوب في عبارته على الوجوب الشرعي، ومثل هذا التعبير قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**﴾(١) وقال أيضاً: وفي الآية قول آخر وهو المشهور: إنّ هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله تعالى المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال، وتثبيته إياه على الحق، فعن البراء بن عازب(٢) رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ الآية قال: (**نزلت في عذاب القبر، حين يقال له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ**).

وفي رواية عنه أيضاً، أنه ﷺ قال: (**المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**) فذلك قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾(٣) الآية.

والمراد من الباء في قوله تعالى: (**بالقول الثابت**) هو أن الله تعالى إنما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو: أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله وعلى التأمل في دقائقها وحقائقها أكمل وأتم، كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا ثبته الله عليها في قبره، ويلقنه إياها)(٤).

---

(١) هود: ٦.

(٢) البراء بن عازب الأنصاري الأوسي رضي الله عنه، من الصحابة وروي أنه غزا مع الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أربع عشرة غزوة وشهد مع علي موقعة الجمل وصفين وقتال الخوارج ونزل بالكوفة ومات سنة ٧٢ هـ/الإصابة جـ ١ص١٤٢.

(٣) الحديث متفق عليه انظر فتح الباري جـ ٣ ص٢٣١، مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٣.

(٤) المصدر السابق جـ ١٩ ص١٢٢.

ونحن نؤكد تعلق الثبات في القبر للمؤمن، بما كان عليه من يقين وصدق وثبات في الحياة الدنيا، وذلك أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سمع من رسول الله ﷺ ذكر فتان القبر، قال: أَتُرَدُّ علينا عقولنا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (**نعم كهيئتكم اليوم**)، فقال عمر: بفيه الحجر[١]، وذلك كناية عن أنه إذا ردت إليه روحه يستطيع أن يدافع عن إيمانه بالجواب الذي يُسْكتُ الفتَّانَ ويُقْنِعُهُ، وهذه المدافعة مبنية على صدق وإخلاص مع الله سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا قبل الموت.

وقيل في قوله تعالى: ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ فلا يَزِلُّونَ إذا فُتِنُوا في دينهم، فيثّبتهم الله على دينهم مدة حياتهم، وذلك كما جرى لأصحاب الأخدود، وكما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ والذين نُشروا بالمناشير ومُشِّطَتْ لحومُهم بأمشاط الحديد من الأمم السابقة دون أن يتمكن أعداء الله من فتنتهم عن دينهم.

﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾ أي: بعد الموت وذلك في القبر الذي هو أول منـــزل من منازل الآخرة، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم، ولا تدهشهم الأهوال[٢].

وقوله تعالى: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني: أن الكفار إذا سُئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري، وإنما قالوا ذلك لأن الله أضلهم[٣].

ومما يؤكد ذلك، ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة على عدم توفيق الله للمنافقين والكافر في الإجابة عند السؤال في القبر فمنها: حديث أنس بن مالك[٤] -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري! كنت أقول ما يقول الناس! فيُقال: لا دريت و لا**

---

(١) الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني للساعاتي جـ٨ ص١٠٧.

(٢) تفسير الرازي جـ١٩ ص١٢٢.

(٣) تفسير البيضاوي جـ٣ ص١٦٠، وانظر روح المعاني للألوسي جـ١٣ ص٢١٧ .

(٤) أنس بن مالك بن النضر بن النجار الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مدة عشر سنين، وأحد المكثرين من روايته عنه نزل البصرة ومات فيها وهو آخر من مات من الصحابة فيها وكان ذلك سنة ٩١هـ رضي الله عنه/الإصابة جـ١ ص٧١.

تليت)[١].

وعن البراء بن عازب -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: (**وأما الكافر فذكر موته، قال: ويعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري...**) الحديث[٢].

وبالجملة فإن هذا التثبيت في قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ الآية حاصل للإنسان المؤمن بتوفيق من الله تعالى بعد الموت عند سؤال الملكين إياه، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ في الأحاديث الصحيحة التي ذكرناها آنفاً، وإنما يكون هذا التثبيت للمؤمن، بناء على ثباته وصدقه في اتباع أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه والمداومة على ذلك قبل الموت.

كذلك فإن الخذلان وعدم التوفيق في قوله تعالى: ﴿**وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ**﴾ حاصل من المنافق أو الكافر بإضلال من الله تعالى بعد موته عند سؤال الملكين إياه، وهو مما أخبر به الرسول ﷺ في الأحاديث التي وردت آنفاً، وإنما يكون ذلك بناء على كفرهم وضلالهم عن الحق، ومعصيتهم لله تعالى قبل الموت، فاستحقوا بذلك هذا الجزاء، أعاذنا الله وإياكم فإن قيل: فالظاهر أن الآية نزلت في سؤال القبر، قلنا بالتوفيق في هذه الإجابة على هذا السؤال، ينجو من العذاب من يوفق، وبالإخفاق في إجابته، يقع في العذاب من لا يوفق، فالمراد أن الآية نزلت فيما ينجى فيه من عذاب القبر، وما يوقع فيه من عذابه.والله أعلم.

٥-واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٣].

---

(١) الحديث متفق عليه واللفظ للبخاري.انظر فتح الباري جــ٣ ص٢٣١، ومسلم بشرح النووي جــ١٧ ص٢٠٣، قوله: لادريت لا تليت: أي لا اتبعت الناجين.

(٢) رواه أحمد جــ٤ ص٢٨٨ وإسناده صحيح.انظر مشكاة المصابيح جــ١ص٤٨.

(٣) المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

قال الألوسي[١]: حتى هنا ابتدائية، وغاية المقدر يدل عليه ما قبلها والتقدير: فلا أكون كالكفار الذين همزهم الشياطين وتحضره: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**﴾ الآية، ونظير ذلك قوله: فيا عجباً حتى كليب تسبني فإن التقدير يسبني كل الناس حتى كليب[٢].

ولقد اختلفوا في وقت المساءلة للرجعة فالأكثرون على أنها في حالة المعاينة، لأنه عندها يضطر إلى معرفة الله تعالى، وإلى أنه كان عاصياً.

وقال آخرون: بل يقول ذلك عند معاينة النار في الآخرة، ولعل هذا القائل إنما ترك ظاهر هذه الآية، لما أخبر الله تعالى في كتابه عن أهل النار في الآخرة أنهم يسألون الرجعة، لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة، والله تعالى يقول: المعاينة، فلا وجه لترك هذا الظاهر[٣].

ومما يؤكد هذا المعنى، وهو أنهم يسألون الرجعة عند معاينة الموت وظهور إمارته، أي: إذا ظهر لأحدهم، أي أحد كان منهم أمارات الموت وبدت له أحوال الآخرة قال تحسراً على ما فرط في جنب الله تعالى: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ**﴾[٤].

هذا وقد دلت الآية الكريمة: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**﴾ الآية على أن أحداً لن يموت حتى يعرف اضطراراً أهو من أولياء الله أم من أعدائه، ولولا ذلك لما سألوا الرجعة، فيعلموا بذلك قبل نزول الموت[٥].

فإن قيل: لعل منشأ سؤال الرجعة مجرد مشاهدة الموت دون أن يرى عذاباً حتى يثبت عذاب القبر، قلنا: هذا احتمال باطل لأنه يقول في سؤاله: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ فهذا يشهد قطعاً بأنه رأى جزاء سوء عمله

---

(١) محمود الآلوسي مفسر ومحدث وأديب من المجددين من أهل بغداد، وهو سلفي الاعتقاد، من كتبه المعاني، وغرائب الاغتراب، ومقامات في التصوف مات سنة ١٢٧٠ هـ /الأعلام جـ٨ص٥٣.

(٢) تفسير الرازي جـ٢٣ ص١٩٩، ١٢٠، وانظر روح المعاني للآلوسي جـ١٨ ص٦٣.

(٣) تفسير الرازي جـ٢٣ ص١٩٩، ١٢٠ وانظر روح المعاني للآلوسي جـ١٨ ص٦٣.

(٤) المصدر السابق جـ٢٣ ص١٢٠.

(٥) تفسير القرطبي جـ١٢ ص١٤٩، ١٥٠ وانظر تفسير الرازي جـ٢٣ ص١٢٠.

السابق، فضرع إلى الله تعالى أن يرجعه إلى الحياة الأولى كي يعمل صالحاً فلا يُجزي شيئاً، أما مجرد الموت فلا يحمل على هذا السؤال؛ لأن الموت في ذلك لا يستلزم شيئاً من ذلك، فإن الأنبياء والصالحين وغيرهم يموتون.والله أعلم.

لقد تعرضت الآية الكريمة إلى الرجعة وطلبها، وهذا يحتم علينا أن نبحث هذا البحث، وهو: أن الرجعة خاصة بالكافر؟ أو تتناول الكافر والمؤمن؟.

قال القرطبي(١): ليس سؤال الرجعة مختصاً بالكافر، فقد يُسألها المؤمن كما في سورة المنافقين: في قوله تعالى: ﴿**فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾(٢) سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً.

وروى الترمذي(٣) عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: من كان له مال يُبَلّغه إلى حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، إنما سأل الرجعةَ الكافرُ، فقال سأتلو عليك بذلك قرآناً: ﴿**وَأَنفقُوا من مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾(٤).

وقال الرازي: (اختلفوا في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**﴾، فالأكثرون أنه راجع إلى الكفار، وهو الأقرب وذلك لأن المؤمن إذا عرف منــزلته في الجنة وشاهدها، لا يتمنى أكثر منها، ولولا ذلك لكان أدوهم ثواباً يغتم بفقد ما يفقد من منــزلة غيره، وأما ما ذكره ابن العباس -رضي الله عنهما- من قوله:

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي من الكبار المفسرين من أهل قرطبة، عرف بصلاحه وتقواه وتعبده، رحل إلى مصر واستقر في شمال أسيوط / الأعلام جـ٦ص٢١.

(٢) المنافقون ١٠.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة السلمي البغوي الترمذي أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ على نهر جيحون، تتلمذ للبخاري وشاركه في بعض شيوخه، ارتحل إلى خرا سان والعراق والحجاز، وعمي في آخر أيامه، وكان يضرب به المثل في الحفظ مات سنة ٢٧٩ هـ/الأعلام جـ٧ ص٢١٣.

(٤) تفسير القرطبي جـ١٢ ص١٤٩، ١٥٠.

﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**﴾ فهو إخبار عن حال الحياة في الدنيا، لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا)[١].

نقول: رغم غموض عبارة الرازي في رده على ابن عباس، ولكن يمكن أن نقول في تفسيرها وفهمها ما يأتي: يقول الرازي كما فهمنا، أن الرجعة التي نتحدث عنها ونختلف في أنها للكافر فقط، أو للكافر والعاصي، وإنما هي رجعة بعد الموت، بعد أن ذهبت الدنيا، ومن فيها، وصرنا في الآخرة، كما هو ظاهر الآية ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ**﴾ وهذا حديث في الآخرة بعد انقضاء الدنيا، فحديث الرجعة إنما هو بعد انقضاء الدنيا، وأمّا ما ذكره ابن عباس فليس فيه رجعة كهذا، بل طلبٌ من عصاة المؤمنين، أنه كان يتمنى على الله أنّه يطيل في عمره، فبدل أن يكون ثمانين مثلاً التي أعرض فيها عن الإنفاق والعمل الصالح، تكون تسعين حتى ينفق ويكون من الصالحين، فهو لا يطلب رجعة، بل إمهالاً في الدنيا التي لم تزل.

ففرق بين الرجعة التي فيها النـــزاع، وبين ما ذكره ابن عباس -رضي الله عنهما-.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ فالبرزخ هو الحاجز والمانع، كقوله في البحرين ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾[٢]، أي: فهؤلاء صائرون إلى حالة مانعة من التلاقي، حاجزة عن الاجتماع، وذلك هو الموت، وليس المعنى أنهم يرجعون إلى البعث، وإنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة[٣].

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة[٤].

٦-واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [٥].

---

(١) تفسير الرازي جـ٢٣ ص١٢٠، ١٢١.

(٢) الرحمن: ٢٠.

(٣) تفسير الرازي جـ٢٣ ص١٢١.

(٤) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٥٥.

(٥) طه: ١٢٤.

قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشاً ضيقاً.

يقال: منـــزل ضنك وعيش ضنك، يستوي فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع[١].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: الشقاء كلما أعطيته عبداً من عبادي قلّ أو كثر لا يتقيني فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، وقال أيضاً: إن قوماً ضُلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنّهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به، اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك.

وقال الضحاك: هو العمل السيئ والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة[٢] ومالك ابن دينار[٣].

وروى عن أبي سعيد الخدري[٤] مرفوعاً في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: عذاب القبر[٥].

وروي عنه موقوفاً في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه، وروي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: **(عذاب القبر)**[٦].

---

(١) تفسير القرطبي جـــ١١ ص٢٥٩.

(٢) عكرمة بن عبد الله البربري المدني مولى ابن عباس، تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي روى عن أكثر من ثلاثمائة رجل توفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـــ/الأعلام جـــ٥ ص٤٣.

(٣) مالك بن دينار السامي البصري الزاهد، تابعي وثقة ابن حبان والنسائي، كان يقتات من كسب يده مات سنة ١٢٣هـــ وقيل غير ذلك/تهذيب التهذيب لابن حجر جـــ٣ ص٥١.

(٤) سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، من المكثرين في رواية الحديث، وكان من أفقه الصحابة المحدثين في سنه توفي سنة٦٣ هـــ رضي الله عنه /الإصابة جـــ٢ص٣٥.

(٥) تفسير ابن كثير جـــ٣ ص١٦٩.

(٦) تفسير ابن كثير جـــ٣ ص١٦٩، بعد أن ذكر حديثي أبي سعيد الخدري قال: الموقوف أصح، وقال عن حديث أبي هريرة إسناده جيد، وقال الشوكاني عن حديث أبي سعيد الخدري أخرجه عبد الرازق وسعيد بن منصور، ومسدد في مسنده، وعبد بن حميد وابن حميد وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي، وقال في حديث أبي هريرة أخرجه ابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وابن مردويه والبيهقي.فتح القدير جـــ٣ ص٢٩٤.

قال الطبري[١] بعد ذكر الأقوال في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: هو عذاب القبر، فقد روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**أتدرون فيما أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة**)[٢]، وإن الله أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [٣] فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشد منه، بطل معنى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ فإذا كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك، التي جعلها الله لهم، من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة كما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كل من أعرض عن ذلك من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثير منهم، أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تعالى، القائلين له، المؤمنين بذلك، ما يدل على أن ذلك ليس كذلك، وإذا خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صح الوجه

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، المؤرخ المفسر الإمام، عرض عليه القضاء ببغداد فامتنع، له تصانيف منها: أخبار الرسل والملوك ويعرف بتاريخ الطبري، وجامع البيان في تفسير القرآن واختلاف الفقهاء والقراءات وغير ذلك وهو من ثقات المؤرخين/الأعلام /ج٦ ص٢٩٤.

(٢) قال ابن كثير بعد ذكره هذا الحديث: رفعه منكر جداً، والتنين: الحية الكبيرة. انظر تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٦٩.

(٣) طه ١٢٧.

الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ[١].

ويتضح لنا أن ترجيح الطبري غير سليم، لأنه ذكر للترجيح وجهين:

الأول: الترجيح بالحديث، وهذا حديث غير صحيح كما علمنا آنفا.

الثاني: أنه رجح بقوله تعالى: ﴿**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**﴾ وهذا أيضاً لا يفيد الترجيح، لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب القبر وعذاب الدنيا، فلا وجه بعد ذلك للترجيح.

نعم يمكن أن نقول: إن الثاني أرجح، لأنه يصير عندنا رأيان:

الأول: رأي ابن عباس ومن تبعه من التابعين.

الثاني: ما روي عن الرسول ﷺ في حديثي أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وقد ثبت صحة الحديثين، حديث أبي سعيد الخدري الموقوف، وحديث أبي هريرة، فإننا نقول بعد ذلك بداهةً وديناً: الرأي الثاني أرجح من الأول. والله أعلم.

٧-واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ**﴾[٢].

قالوا: إن المراد بالإماتتين والإحياءين في هذه الآية: الإماتة قبل مزار القبور ثم الإحياء في القبور، ثم الإماتة فيه أيضاً بعد المساءلة، ثم الإحياء للحشر، هذا هو الشائع المستفيض بين أصحاب التفسير، قالوا: والغرض بذكر الإحياءين في هذه الآية، أنهم عرفوا فيها قدرة الله تعالى على البعث ولهذا قالوا: ﴿**فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا**﴾ أي: الذنوب التي حصلت بسبب إنكار الحشر، وإنما لم يذكر الإحياء في الدنيا، لأنهم لم يكونوا معترفين بذنوبهم في هذا إحياء، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالإماتتين ما ذُكر، وبالإحياءين: الإحياء في الدنيا والإحياء في القبر، لأن مقصودهم ذكر الأمور الماضية، وأما الحياة الثالثة حياة الحشر، إنّما هم فيها فلا حاجة إلى ذكرها، وعلى هذين التفسيرين ثبت الإحياء في القبر.

وأمّا حمل الإماتة الأولى على خَلْقِهِمْ أمواتاً في أطوار النُطف، وحمل الثانية على

---

(١) تفسير الطبري جـ١٦ ص٢٢٨.

(٢) غافر ١١.

الإماتة الظاهرة، وحمل الإحياءين على إحياء الدنيا والإحياء عند الحشر، وحينئذ لا يثبت بالآية الإحياء في القبر، فقد رُدّ عليه: بأن الإماتة إنما تكون بعد سابقة الحياة، ولا حياة في أطوار النُطف هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه قول شاذ من المفسرين، والمعتمد هو قول الأكثرين(١)، والله أعلم.

وهناك من الأدلة الأخرى التي استدل بها المثبتون لعذاب القبر ونعيمه، ولكنّها لا تدل قطعيةً عليه، وذلك لتطرق الاحتمال إليها، نذكرها تتميماً للفائدة:

١-قوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾**(٢).

والغمرات جمع غمرة: وهي الشدة، وأصلها الشيء الذي يغَمرُ الأشياء فيغطيها، ومنه غمرة الماء، ثم استُعلمت في الشدائد، ومنه غمْرة الحرب، والجمع: غُمَر، مثل: نَوْبٌ ونوب، قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾** أي: اليوم الذي تُقبض فيه أرواحكم، أو أراد به الوقت الذي يُعذَبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر(٣).

وقيَل: المراد باليوم مُطلق الزمان، لا المتعارف، وهو إمّا حين الموت أو ما يشمله وما بعده(٤).

ويتضح بعد ذلك أنّه لا يمكن حَمْلُ هذه الآية على ثبوت عذاب القبر؛ لأنّ المفسرين الذين ذكروا ذلك مترددون في قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾** هل المراد به لحظة الموت أو لحظة الموت وما بعدها؟ ففي الاحتمال الأول، لا عذاب في القبر، إنما هو عذاب خروج الروح، وهو في آخر لحظة من الحياة الدنيا للميت وليس في القبر.

نعم الاحتمال الثاني فيه شاهد على عذاب القبر، لكنّ المفسرين لم يجزموا بأن المراد باليوم هو لحظة الموت وما بعده، بل هذا مجرد احتمال، وقد قالوا: إنّ الدليل

---

(١) المواقف جـ٨ ص٣١٨، وانظر شرح المقاصد جـ٢ ص٢٢٠.

(٢) الأنعام ٩٣.

(٣) فتح القدير جـ٤ ص٤٨١، وانظر تفسير الرازي ص٨٥.

(٤) روح المعاني جـ٧ ص٢٢٤.

إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.والله أعلم.

٢-قوله تعالى: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ (١).

رُوِيَ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾ قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: (**اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق**)، فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم، لقيهم عمر ابن الخطاب وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياءً أنّه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبأوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد، فإذا الناس لم يصلوا، فقال رجل من المصلين: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم، فقال ابن عباس: فهذا هو العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وروي عن السدي(٢) مثل ذلك، وعن مجاهد قال: الجوع وعذاب القبر.

وعن قتادة قال في قوله تعالى: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾ عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقال الحسن(٣): بأخذ الزكاة في أموالهم، وعذاب القبر، وكذلك عن ابن زيد والفراء، وقال محمد بن إسحاق(٤): (هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام، ودخولهم فيه ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه، والأولى أن يقال: مراتب الحياة ثلاث: حياة الدنيا، وحياة القبر، وحياة القيامة)(٥).

---

(١) التوبة: ١٠١.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي حجازي الأصل، سكن الكوفة، كان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس /الأعلام جــ١ ص٣١٣.

(٣) الحسن بن يسار البصري.أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، حبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، لا تأخذه في الحق لومة لائم /الأعلام جــ٢ ص٢٤٢.

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار أحد الأئمة الأعلام من موالي قيس، وثقه غير واحد، وهو صالح الحديث إلا ما حشاه من الأشياء المنكرة والأشعار المكذوبة في السيرة. وقال أحمد هو كثير التدليس جدا مات سنة ١٥١ هــ /الميزان للذهبي جــ٣ ص٤٦٨ .

(٥) تفسير ابن كثير جــ٢ ص٣٨٥، انظر تفسير الرازي جــ١٦ ص١٧٣ -١٧٤ وتفسير القرطبي ج ٨، ص ٢٤١.

فقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ المراد منه: عذاب الدنيا بجميع أقسامه، وعذاب القبر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ المراد منه في الحياة الثالثة، وهي حياة القيامة، وقال آخرون: سنعذبهم عذاباً في الدنيا، وعذاباً في الآخرة.

وقال آخرون: كان عذابهم في إحدى المرتين، مصائبهم في أموالهم وأولادهم، والمرة الأخرى في جهنم.

وقال الطبري بعد ذكر هذه الأقوال: (وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله أخبر أنه يُعذِّب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، و لم يضع لنا دليلاً نتوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائز أنْ يكون بعض ما ذكرنا من القائلين أنبئنا عنهم، ليس عندنا علم بأي من ذلك، على أنّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخول النار، والأغلب في إحدى المرتين أنّها في القبر)[1].

ونحن نُؤيد ما ذهب إليه الطبري من أنّ الآية الكريمة: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ لا تدل دلالة قطعية على أنَّ أحد العذابين المذكورين يكون في القبر، وذكر من قال ذلك من أصحاب الأقوال المذكورة آنفاً يحتاج إلى دليل يثبت ما ذهبوا إليه، حتى نقطع بدلالة الآية على عذاب القبر, ولكنّا لم نجد دليلاً، يحدد لنا نوع العذابين المذكورين في الدنيا، لأنّ ثبوت الأمور الاعتقادية، لا يكون على الأغلب والظن، بل لابد من دليل يثبت ذلك الأمر، وإذ لم يتوصل إلى ذلك الدليل، لا نستطيع أن نجزم بأن أحد العذابين المذكورين في الدنيا خاص بالقبر. والله أعلم.

٣-إنه سبحانه وتعالى يذكر في السورة الواحدة القيامة الكبرى والصغرى، كما في سورة الواقعة, فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة كما قال تعالى:﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ *خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ

---

(١) تفسير الطبري جـ١١ ص١٠-١٢.

الأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا *وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾[(١)].

ثم إنه ذكر في آخرها القيامة الصغرى بالموت، أنهم ثلاثة أصناف بعد الموت فقال: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَ تُبْصِرُونَ* فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[(٢)(٣)].

ونلاحظ أنّ هذه الآيات المذكورة لا تدل على حياة القبر نعيماً ولا عذاباً، لأنه قال: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ*فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ وليس في الآية ما يشهد بأنّ هذا من الحياة القبرية، بل يجوز أن يكون بياناً وتفصيلاً للجزاء في الآخرة، والفاء لتفصيل حال المبعوثين، بل يتأيد هذا بأنه قال في القسم الأول: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ فإنه لم يعهد في التعبيرات القرآنية أنه يقال في نعيم القبر: جنة نعيم، بل ذلك في جنة الآخرة كما يشهد أيضاً أن العذاب ليس في القبر، بل في الآخرة قوله تعالى: ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ فإن هذه العناوين والتعبيرات، إنما هي عن جهنم الآخرة، كما يظهر للمتتبع في أساليب القرآن. والله أعلم.

٤-وكذلك في سورة (ق) هي في ذكر وعيد القيامة، ومع هذا قال فيها: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[(٤)] ثم قال بعدها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[(٥)] فذكر القيامتين الصغرى والكبرى، وقوله تعالى: ﴿جاءتْ سَكرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي جاءت به الرسل، وليس المراد به الموت، فإنّ هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد إن الموت باطل، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فالإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقيه ملائكته، وهذا قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ

---

(١) الواقعة ١-٧.

(٢) الواقعة ٨٣ -٩٤.

(٣) فتاوى ابن تيميه جـ٤ ص١٢٦٣.

(٤) ق ١٩.

(٥) ق ٢٠.

﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[١] واليقين ما بعد الموت، كما قال ﷺ: (**أمّا عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه**)[٢]، وإلا فنفي الموت لم ينازع فيه أحد يسمى يقيناً[٣].

ونلاحظ أنّ ابن تيميه[٤] اختار فيما ذكره خطوتين:

الأولى: أنــه فسر الحق بغير الموت.

الثانية: أنه فسرّ الحق بالنعيم والعذاب في القبر، وقد استدل على الخطوة الأولى، وهي أنّ الحق ليس هو الموت، بأن الموت حق لم ينازع فيه، ولم يشك فيه أحد، ونحن نقول: لماذا يخصص إطلاق الحق بالأمر الذي يكون مشكوكاً فيه؟ بل الحق هو الأمر المطابق للواقع، سواء كان فيه شك أولاً، ثم إن سكرات الموت، هي المبادئ والاضطرابات التي تتقدم الموت في الميت، والمقدمات تأتي بالنتائج، فنتائج السكرات هي الموت وهو الحق.

يتأيد ما رأيناه بما أجمع عليه المفسرون من أنّ الحق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وهو الموت.

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجهان من التأويل:

أحدهما: وجاءت سكرة الموت وهي شدته وغلبته على فهم الإنسان كالسكرة من النوم أو الشراب، بالحق من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه.

والثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت، ويكون تأويل الكلام: وجاءت السكرة الحق بالموت[٥].

---

(١) الحجر ٩٩.

(٢) الحديث رواه البخاري في باب الجنائز /فتح الباري جـ٣ص١١٤.

(٣) مجموعة الفتاوى جـ٤ ص٢٦٤.

(٤) هو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي أبو العباس الإمام شيخ الإسلام نشأ في دمشق ورحل إلى مصر وسجن فيها مدة، علم خلالها أهل السجن أصول الدين، وسجن في دمشق عدة مرات صنف كثيرًا من كتبه في السجن ثم منع من ذلك، كان كثير البحث في فنون المحكمة، داعية إصلاح في الدين آية في التفسير والأصول مات بالسجن في قلعة دمشق سنة ٨٢٨ هـ/دائرة المعارف الإسلامية جـ١ ص١٠٩ .

(٥) تفسير الطبري جـ١٦ ص١٦٠، وانظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٢٤.

وأخيراً فحملَ الحق على أنه عذاب القبر ونعيمه يحتاج إلى سند والله أعلم.

٥-وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾[١] وقد ذكر أن هذا التَّنَـــزُّلَ عند الموت[٢].

وقال الرازي: ﴿**تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ**﴾ قيل: عند الموت، وقيل في مواقف ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث[٣].

ونلاحظ أيضاً في هذه الآيات، أنها لا تشهد بأن في القبر نعيماً أو عذاباً، لأن الإنسان حينما يموت، يعتريه الخوف، فلا يدري ماذا يكون من أمره، فتتنـــزل الملائكة على المؤمنين تطمئنهم وتبشرهم بالجنة، وفي تبشيرهم بالجنة إشعار بأن الكلام متعلق بما يلاقونه في الآخرة. وبالجملة، ليس في الآية ما يشعر بعذاب القبر ونعيمه. والله أعلم.

ب-باب الأدلة النقلية من السنة:

لقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، في مواطن كثيرة حتى قال غير واحد إنها متواترة لا يصح عليها التواطؤ، وإن لم يصح شيء من أمر الدين[٤].

١-حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: (**المسلم إذا سُئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**)، فذلك قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[٥] وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ قال: ﴿ **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾

---

(١) فصلت ٣٠-٣١.

(٢) مجموعة الفتاوى لابن تيميه جـ٤ ص٢٦٤.

(٣) تفسير الرازي جـ٢٧ ص١٢٢.

(٤) إرشاد الساري للقسطلاني جـ٢ ص٥٥٦ والمقصود بالتواتر: المعنوي.

(٥) إبراهيم ٢٧.

(نزلت في عذاب القبر، ويقال له: من ربُّك؟ فيقول ربي الله، ونبيي محمد)[١] متفق عليه.

٢-وعن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمدﷺ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل: فيقول لا أدري! كنت أقول ما يقول الناس! فيقال: لا دريت ولا تليت**[٢]**، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)**[٣] متفق عليه واللفظ للبخاري[٤].

٣-حديث عبد الله بن عمر[٥] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده، بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة"**[٦] متفق عليه.

---

(١) البخاري جـ ص١٢٢ باب عذاب القبر، ومسلم باب عرض مقعد الميت جـ٤ ص٢٢٠١، ٢٢٠٢.

(٢) أي لا اتبعت الناجين، مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٥.

(٣) البخاري جـ٢ ص١٢٣ كتاب الجنائز، مسلم باب عرض مقعد الميت جـ٤ ص٢٢٠٠.

(٤) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، البخاري، حبر الإسلام والحافظ للحديث، صاحب الجامع الصحيح، وهو أول من وضع كتاباً على هذا النحو، رحل في طلب العلم وجمع الحديث من مختلف الأمصار وسمع من نحو ألف شيخ وروي أنه قال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت لله ركعتين، وقد أمضى في تصنيف هذا الكتاب عشر سنين. وتوفي في سنة ٢٥٦ هـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٥) عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي ولد سنة ثلاث من البعثة وهاجر وهو ابن عشر سنين روى عن بعض الصحابة، وروي عنه من التابعين، واشتهر بورعه وعبادته وتقواه مات سنة ثلاث وسبعين هجرية /الإصابة جـ٢ ص٣٤٧.

(٦) البخاري كتاب الجنائز جـ٢ ص١٢٤، مسلم كتاب الجنة جـ٤ ص٢١٩٩.

٤-حديث عائشة رضي الله عنها، أنَ يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: (**نعم عذاب القبر حق**).

قالت عائشة: (**فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة، إلا تعوذ بالله من عذاب القبر**)(١). متفق عليه واللفظ للبخاري.

٥-حديث زيد بن ثابت(٢) -رضي الله عنه- قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني نجار، وعلى بغلة له ونحن معه، إذ حادت به وكادت تلقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: (**من يعرف أصحاب هذه القبور؟**) فقال رجل: أنا، فقال: (فمتى ماتوا)؟ قال: في الشرك، فقال: (**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا**(٣) **لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**)، ثم أقبل بوجهه علينا، فقال: "**تعوذوا بالله من عذاب النار**" قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: "**تعوذوا بالله من عذاب القبر**"، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: "**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**"، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: "**تعوذوا بالله من فتنة الدجال**" قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال"(٤).

٦-حديث موسى بن عقبة قال: حدثتني ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنها سمعت النبي ﷺ وهو يتعوذ من عذاب القبر(٥).

٧-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: "**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة**

---

(١) البخاري هـــ٢ ص١٢٣ كتاب الجنائز، مسلم جـــ٤ ص٢١٩٩ كتاب الجنة.

(٢) زيد بن ثابت بن النجار الأنصاري الخزرجى، شهد أحداً وما بعدها وكتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم من علماء الصحابة وخاصة في الميراث، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق مات سنة ٤٥ هـــ/الإصابة جـــ١ ص٥٦٢.

(٣) أي لولا مخافة عدم التدافن إذا كشف لكم، مسلم بشرح النووي جـــ١٧ ص٢٠٠ .

(٤) رواه مسلم جـــ٤ ص٢١٩٩ كتاب الجنة.

(٥) رواه البخاري جـــ٢ ص١٢٤ كتاب الجنائز.

المسيح الدجال"[١].

٨-حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على قبرين فقال: (**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله**) قال: ثم أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: (**لعله يخفف عنهما مالم ييبسا**)[٢].

٩-حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق**"[٣].

١٠-حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ بعد ما غربت الشمس، فسمع صوتاً فقال: "**يهود تعذب في قبورها**" متفق عليه.

١١-حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: اطَّلَعَ رسول الله ﷺ على أهل القليب فقال :"**وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟**" فقيل له: تدعو أمواتًا؟! فقال: "**ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون** " رواه البخاري.

وفي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "إن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: **يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً**"؟ فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: "**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**"[٤].

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص١٢٤ كتاب الجنائز.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص١٢٤ كتاب الجنائز.

(٣) رواه البخاري جـ٢ ص١٢٤ كتاب الجنائز.

(٤) متفق عليه رواه البخاري جـ ص١٢٤ كتاب الجنائز، مسلم جـ٤ ص٢٢٠٣ كتاب الجنة ونعيمها، انظر فتح الباري، جـ٧ ص٣٠٠ كتاب المغازي.

١٢-حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، يقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك**"[(١)] متفق عليه.

١٣- حديث البراء بن عازب، عن الرسول الله ﷺ قال: "**يأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما يدريك؟[(٢)] فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت**"، فذلك قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ الآية.

قال: فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، ويفتح. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فيها مد بصره، وأما الكافر فذكر موته، قال: وتعاد روحه إلى جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادى من السماء: أن كذب

---

(١) رواه الترمذي، تحفة الأحوذي جـ٤ ص١٨٣ وقال حسن غريب، قلت: سنده حسن وهو على شرط مسلم /انظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٩.

(٢) هكذا عند أبي داود وعند أحمد: "وما علمك".

فأفرشوه من نار [وألبسوه من النار]، وافتحوا له باباً إلى النار، قال: فيأتيه من حرها وسمومها. قال: ويضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه، [ثم يُقَيَّضُ له أعمى أصم معه مرزبة من حديد، لو ضرب بها جبلٍ لصار تراباً، فيضربه ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير تراباً، ثم يعاد فيه الروح](١).

١٤-وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: "**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**".

قال: وقال رسول الله ﷺ: "**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**"(٢).

١٥-وعنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: "**استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل**"(٣).

١٦-وعن أسماء بنت أبي بكر(٤) قالت: "**قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك، ضج المسلمون ضجة**" رواه البخاري هكذا.

وفي رواية أخرى: حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجتهم، قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله فيك! ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر قوله؟ قال: "**قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال**"(٥).

---

(١) رواه أحمد جـ٤ ص٢٨٨ وإسناده صحيح، انظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٨ والمرزبة: آلة لكسر الحجارة. وكذا أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) والزيادات له.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٣٠٩ في الزهد، وابن ماجه رقم ٤٢٦٧ في الزهد وسنده حسن.انظر شرح السنة للبغوي جـ٥ ص٤١٨.

(٣) رواه أبو داود رقم ٣٢٢١ في الجنائز وسنده حسن كالذي قبله.شرح السنة للبغوي جـ٥ ص٤١٨.

(٤) أسماء بنت أبي بكر الصديق من السابقات في الإسلام وسماها رسول الله ﷺ بذات النطاقين؛ لأنها هيأت له سفرة فاحتاجت إلى ما تشدها به، فشقت خمارها نصفين، وهي والدة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ماتت سنة ٧٣ هـ /الإصابة ج ٤ ص٢٣٠.

(٥) رواية البخاري جـ٢ ص١٢٣ كتاب الجنائز، والرواية الثانية للنسائي وسنده صحيح انظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٥٠.

١٧- وعن جابر[١] رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "**إذا أُدْخِلَ الميتُ القبرَ مثلث له الشمس عند غروبها، فيجلس يمسح عينيه، ويقول: دعوني أصلي**"[٢].

١٨-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "**إن الميت يصير إلى القبر، فيجلس الرجل في قبره من غير فزع ولا مشغوب، ثم يقال: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام، فيقال: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فَيُفْرَجُ له فُرْجَةً قِبَلَ النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يُفْرَجُ له فُرْجَةً قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، على اليقين كنت، وعليه متَّ، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى، ويجلس الرجل السوء في قبره، فَزِعَاً مَشْغُوبَاً، فيقال: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري! فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته، فيفرج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرج له فرجة إلى النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: هذا مقعدك، على الشك كنتَ وعليه متَّ وعليه تُبْعَثُ إن شاء الله**"[٣].

١٩-حديث عبد الله بن عمرو بن العاص[٤] رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ

---

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري السلمي، غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة استشهد والده في أحد، وكانت له حلقة في المسجد النبوي بالمدينة وأصيب بصره في أواخر أيامه، مات سنة ٧٨ هـ/الإصابة جـ١ ص٢١٣.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه، انظر مشكاة المصابيح ج ١ ص٥٠.

(٣) رواه أحمد وقال فيه الساعتي: رجاله رجال الصحيح.الفتح الرباني جـ٨ ص١١٣، ورواه ابن ماجه رقم ٤٢٦٨ وقال فيه محقق المشكاة: وسنده صحيح على شرط الشيخين.مشكاة المصابيح جـ١ ص٥٠.

(٤) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، قيل كان اسمه العاص فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، صاحب الصحيفة الصادقة في الحديث، وقد أصيب في أواخر أيامه بالعمى، ومات في الشام سنة ٦٥ هـ وقيل بمكة المكرمة الإصابة جـ٢ ص٣٥٢.

ذكر فتان القبر، فقال عمر: أَتُرَدُّ علينا عُقُولُنَا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "**نعم كهيئتكم اليوم** " فقال عمر: بفيه الحجر[(١)].

٢٠-حديث أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- تُحَدِّثُ عن النبي ﷺ قالت: قال: "**إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً، أَحَفَّ به عملُه، الصلاةُ والصيامُ، قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده، قال فيناديه: اجلس، قال: فيجلس، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ، قال: من؟ قال: محمد، قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ، قال: يقول وما يدريك؟ أدركتَهُ؟ قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: على ذلك عشتَ وعليه مِتَّ وعليه تُبْعَثُ**"، وإن كان فاجراً أو كافراً قال: "**جاءه الملك وليس بينه وبينه شيء يرده، قال: فأجلسه، قال: يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال محمد ﷺ قال: والله ما أدري! سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، قال: فيقول له الملك: على ذلك عشتَ، وعليه مِتَّ، وعليه تبعث، قال: وتسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل غربِ البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه**"[(٢)].

٢١-حديث جابر -رضي الله عنه-، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوماً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه حين توفي، قال: فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضعه في قبره، وسَوَّى عليه سَبَّحَ رسولُ الله ﷺ فَسَبَّحْنَا طويلاً، ثم كَبَّرَ فكبرنا، فقيل: يا رسول الله لم سبحت ثم كبرت؟ قال: "**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُهُ حتى فَرَّجَهُ اللهُ عز وجل عنه**"[(٣)].

٢٢-حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله تُبْتَلَى هذه الأمةُ في قبورها، فكيف بي وأنا امرأةٌ ضعيفة؟ قال: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾...الآية[(٤)].

---

(١) رواه أحمد انظر الفتح الرباني جـ٨ ص١٠٧.
(٢) المصدر السابق جـ٨ ص١١٤ ورجال أحمد رجال الصحيح.
(٣) رواه أحمد وإسناده جيد /الفتح الرباني جـ٨ ص١٣٤.
(٤) رواه أحمد ورواته ثقات /المصدر السابق جـ٨ ص١٣٤ .

٢٣-حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: دخلت عليَّ يهودية استوهبتها طيباً، فوهبتْ لها عائشة فقالت: أجارك الله من عذاب القبر، فوقع في نفسي من ذلك، حتى جاء رسول الله ﷺ قالت: فذكرت ذلك له، قلت: يا رسول الله إن للقبر عذاباً؟ قال: "**نعم إنهم ليعذبون عذاباً في قبورهم تسمعه البهائم**"(١).

٢٤-وعن عبد الله بن القاسم قال: حدثتني جارة للنبي ﷺ أنها كانت تسمع رسول الله ﷺ يقول عند طلوع الفجر: "**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة القبر**"(٢).

٢٥-حديث أُبيٍّ بن كعب(٣) رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، ذكر الدجال فقال: "**إحدى عينيه كأنها الزجاجة، خضراء (وفي رواية عينه خضراء كأنها الزجاجة) وتعوذوا بالله تبارك وتعالى من عذاب القبر**"(٤).

٢٦-حديث أم خالد رضي الله عنها، أنها سمعت النبي ﷺ يتعوذ من عذاب القبر(٥).

٢٧-حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "**يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنيناً تلدغه حتى تقوم الساعة، فلو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء**"(٦).

٢٨-حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: "**يُرْسَلُ على الكافر حَيَّتَان، واحدةٌ من قِبَلِ رأسه وأخرى من قِبَلِ رجليه تَقْرُصَانِه قرصاً، كلما فَرَغَتَا عَادَتَا، إلى يوم القيامة**"(٧).

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح /المصدر السابق جـ٨ ص١١٩.
(٢) رواه أحمد وسنده جيد /المصدر السابق جـ٨ ص١٢٢.
(٣) أبي بن كعب بن قيس بن النجار الأنصاري، سيد القراء، من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدراً والمشاهد كلها، من كتاب الوحي، سماه عمر بن الخطاب سيد المسلمين رضي الله عنه /الإصابة جـ١ ص٢٠.
(٤) رواه أحمد في مسنده بسند جيد /الفتح الرباني جـ٨ ص١٢٢.
(٥) رواه أحمد بسند جيد /المصدر السابق جـ٨ ص١٢٢.
(٦) رواه أحمد وغيره من طريق دراج، يعني ضعيف /المصدر السابق جـ٨ ص١٢٤.
(٧) رواه أحمد وإسناده حسن /المصدر السابق جـ٨ ص١٢٤.

٢٩-حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نبي الله ﷺ، في نَخْلٍ لأبي طلحة، يتبرز لحاجته، قال: وبلال يمشي وراءه، يُكْرِمُ نبيَ الله أن يمشي إلى جَنبه- فمر نبي الله ﷺ، بقبر، فقام حتى لَمَّ إليه بلال (أي قرب منه) فقال: "**ويحك يا بلال هل تسمع ما أسمع؟ فقال: ما أسمع شيئاً، قال: صاحب القبر يعذب، قال: فَسُئِلَ عنه فَوُجِدَ يهودياً**"(١).

٣٠-حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت على امرأة من اليهود فقالت: إن عذاب القبر من البول. فقلت: كذبت، فقالت: بلى إنا لنقرض منه الثوب والجلد، فخرج رسول الله ﷺ، إلى الصلاة وقد ارتفعت أصواتنا، فقال: "**ما هذه؟**" فأخبرته بما قالت، فقال: "**صدقت**".

قالت: فما صلى رسول الله ﷺ من يومئذ إلا قال في دُبُرِ كلِّ صلاة: "**اللهم رب جبرائيل أعذني من حر النار وعذاب القبر**"(٢).

٣١-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "**أكثر عذاب القبر في البول**"(٣).

٣٢-وعنه أيضاً، قال: مر رسول الله ﷺ على قبر فقال: "**ائتوني بجريدتين**"، فجعل إحداهما عند رأسه، والأخرى عند رجليه، فقيل: يا نبي الله أينفعه ذلك؟ قال: "**لن يزال أن يخفف عنه بعض عذاب القبر ما كان فيها ندو)** (رطوبة)(٤).

٣٣-حديث حذيفة بن اليمان(٥) رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر، قعد على شَفَتِه، فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: "**يُضْغَطُ**

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح /الفتح الرباني جـ٨ ص١٢٥.

(٢) رواه أحمد بسند جيد /المصدر السابق جـ٨ ص١٣٠.

(٣) رواه أحمد بسند جيد وصححه ابن خزيمة /المصدر السابق جـ٨ ص١٣١.

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح /المصدر السابق جـ٨ ص١٣٢.

(٥) حذيفة بن اليمان العبسي، صحابي، شهد مع أبيه أحداً فاستشهد أبوه فيها، استعمله عمر ابن الخطاب على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد قتل عثمان وروي عنه أنه قال: لقد حدثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة. مات سنة ٣٦ هـ/الإصابة جـ١ ص٣١٨.

المؤمنُ فيه ضغطةً، تزول حمائله (عواتقه وصدره)، **ويُمْلأُ على الكافر ناراً، ثم قال: ألا أخبركم بِشَرِّ عباد الله؟ الفَظُّ المتكبِّرُ، ألا أخبركم بخير عباد الله؟ الضعيف المستضعف، ذو الطِّمْرَيْنِ** (الثوب الخَلِق) **لو أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّ اللهُ قَسَمَهُ**"(١).

٣٤-حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلَحَّدْ (قبل إدخال الميت) فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت (يضرب به) في الأرض فرفع رأسه فقال: "**استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأنهم وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفخة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعد بها فلا يمرون -يعني بها على ملأ من الملائكة- إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها في السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**

---

(١) رواه أحمد وفيه محمد بن جابر، وهو ضعيف، وقد حكم ابن الجوزي على الحديث بالوضع، وذب عنه ابن حجر في كتابه (المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد) وشواهد المتن كثيرة. الفتح الرباني جـ٨ ص١٣٥.

فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أنْ صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِهَا وطيبِها، ويفسح له في قبره مَدَّ بصره، قال: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه، حَسَنُ الثياب، طيب الريح فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسُرُّكَ هذا يومُك الذي كنتَ تُوعد، فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رَبِّ أَقِمِ السَّاعةَ حتى أرجع إلى أهلي ومالي". وقال: "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة، سود الوجوه، معهم المسوح (اللباس الخشن)، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتــزعها كما ينتــزع السَّفُّود من الصوف المبلول (حديدة تستعمل للصوف) فيأخذها، ولم يَدَعُوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كَأَنْتَنِ ريح جيفَة وُجدَتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الخبيث، فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه، التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء، فيستفتح له، فلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾(١)، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٢) فتعاد روحه في جسده، ويأتيه مَلَكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَبَ، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى

(١) الأعراف ٤٠.

(٢) الحج ٣٠.

النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنْتِنُ الريح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعَدُ، فيقول: مَن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رَبِّ لا تُقِمِ الساعة)(١).

٣٥-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: إن المؤمن ينـــزل به الموت ويعاين ما يعاين، فود لو خرجت -يعني نفسه- واللهُ يحبُ لقاءَهُ، فإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الدنيا، أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ماجيء به إلينا، وإن المؤمن يجلس في قبره، فيُسْأَلُ: من ربه؟ فيقول: ربي الله، فيقول: من نبيك؟ فيقول: نبيي محمد ﷺ، قال: فما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيُفْتَحُ له بابٌ في قبره، فيقول، أو يقال: انظر إلى مجلسك، ثم يرى الجنة(٢) فكأنما كانت رقدة، فإذا كان عدواً لله نزل به الموت، وعاين ما عاين، فإنه يحب ألا تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره أو أُجْلِسَ، فيقال: من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لادريت، فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب ضربة تسمعه كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش، فقلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والجنادب، ثم يُضَيَّقُ عليه قبره(٣).

٣٦-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: شهدنا جنازة مع نبي الله ﷺ، فلما

---

(١) رواه أحمد جـــ٤ ص٢٨٧ والسياق له، والحديث حسنه الترمذي ورواه أبو داود والحاكم وابن أبي شيبة وابن منده وأبو نعيم وأبو عوانة الأسفراييني في صحيحة والبيهقي وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه العلامة ابن القيم في كتابه الروح، وقال: هذا صحيح ثابت مشهور مستفيض، صححه جماعة من الحفاظ، ولا يعلم أحد أئمة الحديث طعن فيه، وفي إسناد الحديث المنهال بن عمرو، وثقه ابن معين والعجلي، وقد تكلم في منهال ابن حزم ولا يلتفت لكلامه بعد احتجاج الشيخين به والله أعلم /الفتح الرباني جـــ٧ ص٨٠-٨٢ وانظر كتاب أحكام الجنائز للألباني ص١٥٩.

(٢) في "مسند البزار" (٨٧٤-زوائده) وكذا في "جمع الزوائد" (٣/٥٥-٥٦): "القبر" بدل: "الجنة".

(٣) رواه البزار (٨٧٤-زوائد) ولم يروه أحمد.

فرغ من دفنها وانصرف الناس قال نبي الله ﷺ: "**إنه الآن يسمع خَفْقَ نعالكم، أتاه منكر ونكير، أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر (قروها)، وأصواهما مثل الرعد، فيجلسانه فيسألانه، ما كان يعبد، ومن كان نبيه، فإن كان ممن يعبد الله قال: كنت أعبد الله، ونبيي محمد ﷺ جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه**".

فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا بالْقَوْلِ الثَّابت﴾ الآية فيقال له: "**على اليقين حَيِيتَ وعليه متَّ، وعليهَ تُبْعَثُ، ثم يُفْتَحُ له بَابٌ إلى الجنة ويُوسَعُ له في حفرته، وإن كان من أهل الشك، قال: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيقال له: على الشك حييت، وعليه مت، وعليه تبعث، ثم يفتح له باب إلى النار، ويُسَلَّطُ عليه عقاربُ وتنانينُ لو نفخ أحدهم في الدنيا ما أنبتت شيئاً، تنهشه، وتؤمر الأرض فتضمه حتى تختلف أضلاعه**"(١).

٣٧-حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "**توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، فخرجنا معه فرأينا رسول الله ﷺ مهتماً شديد الحزن، فجعلنا لا نكلمه، وحتى انتهينا إلى القبر، فإذا هو لم يفرغ من لحده، فقعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله، فحدَّثَ نفسه هنيهة، وجعل ينظر إلى السماء، ثم فرغ من القبر، فنـــزل رسول ﷺ فيه فرأيته يزداد حزنًا، ثم إنه فرغ فخرج فرأيته سُرِّيَ عنه وتبسم، فقلنا: يا رسول الله رأيناك مهتماً حزيناً، فلم نستطع أن نكلمك، ثم رأيناك سُرِّيَ عنك، فَلِمَ ذلك؟ قال: كنت أذكر ضيقَ القبرِ وغَمِّه وضَعْفَ زينب، فكان ذلك يَشقُّ عليَّ فدعوت الله عز وجل أن يخفف عنها، ففعل، ولقد ضغطها ضغطة سمعها مَنْ بينَ الخفاقين**"(٢).

٣٨-حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في جنازة، فجلس إلى قبر منها، فقال: "**ما يأتي على هذا القبر من يوم إلا وهو ينادي**

(١) قال صاحب الفتح الرباني: رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وفيه كلام /جـ٨ ص١١٦. وعند الطبراني في "الكبير" (٢٥٧/١) زيادة في آخره وهي: "إلا الجن والإنس".

(٢) قال صاحب الفتح الرباني: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده ضعيف /المصدر السابق جـ٨ ص١٣٦.

بصوت ذَلْقٍ طَلْقٍ (فصيح): يا ابن آدم كيف نسيتني؟ ألم تعلم أني بيت الوحدة، وبيت الغربة، وبيت الوحشة، وبيت الدود، وبيت الضيق؟ إلا من وسعني الله عليه" ثم قال رسول الله ﷺ: **"القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار"**(١).

ويتضح لنا بعد عرض هذه الأحاديث؛ أنها في كثرتها وكثرة طرقها، تدور حول شيء واحد له مظاهر مختلفة، ذلك أن للناس بعد موتهم حياة، فيها ينعمون أو يعذبون، وفيها يسألون، وفيها يُثَبِّتُ اللهُ من يشاء له التثبيت، ويخذل الله سبحانه من يشاء له الخذلان، وفيها يرى بعضهم مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، وفيها السؤال عما كانوا عليه في الدنيا من أمور الدين، حتى إنه قد صور العذاب في صورة هائلة تنكشف لجميع الموجودات ما عدا الثقلين، وفيها استعاذة النبي ﷺ من هذا العذاب، ومواظبته عليه دبر كل صلاة، وتأكيده على أصحابه رضوان الله عليهم، وتعليمهم الاستعاذة دبر كل صلاة، كما يعلمهم آيات القرآن، ومناداته ﷺ لأصحاب القبور ومخاطبته لهم، خطاب من يسمع ويعقل ويتدبر، وفيها أيضاً -وهو أهم ما فيها- أن ما في القبر من حياة ونعيم وعذاب وسؤال، كل ذلك قد حجبه الله تعالى عن حواس البشر، وقد أطلع عليه بعض أنبيائه، كما ورد عن النبي ﷺ، أنه كان يسمع أنين بعض المعذبين، بل كان يرى صوراً من العذاب، كما سيمر معنا من حديث رؤيا الرسول ﷺ، ولعل في هذا -كما سنحققه- فيما بعد رداً على من أنكر نعيم القبر وعذابه بحجة أننا لا نرى ولا نسمع، وسيأتي تحقيق ذلك مفصلاً بإذن الله في مناقشة أدلة المنكرين.

وأخيراً فإن الأحاديث قد اتفقت على معنى واحد، ومضمون واحد ومجيئها في هذا العموم، يمكننا أن نقرر أنها متواترة، وإن كان ذلك في المعنى، وكفى بذلك حجة على حياة القبر ونعيمه وعذابه وسؤاله.

أدلة النافين لعذاب القبر ونعيمه ومناقشتها وإبطالها

---

(١) قال صاحب الفتح الرباني: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أيوب بن سعيد وهو ضعيف /المصدر السابق جـ٨ ص١٣٦.

لقد أنكر عذاب القبر بعض المعتزلة، ومنهم: ضرار بن عمرو(١)، والرافضة والخوارج(٢)، واتكأوا على مجموعة من الأدلّة العقلية والنقلية، وإليك هذه الأدلة والرد عليها:

أ- الأدلة النقلية:

الأول: قوله تعالى: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**(٣).

قال الرازي: احتج قوم بهذه الآية على بطلان عذاب القبر، قالوا: لأنه -تعالى- بين أنه يحييهم مرة في الدنيا، وأخرى في الآخرة، ولم يذكر حياةً في القبر، ويؤكد ذلك قوله: **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾**(٤)، ولم يذكر حياة فيما بين هاتين الحالتين.

قالوا: لا يجوز الاستدلال بقوله تعالى: **﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾**(٥) لأنه قول للكفار، لأن كثيراً من الناس أثبتوا حياة الذرِّ في صُلْبِ آدم عليه السلام، حين استخرجهم، وقال: **﴿أَلَسْتُ**

---

(١) ضرار بن عمرو القاضي، معتزلي جَلْد، له مقالات خبيثة. قال: يمكن أن يكون جميع من يظهر الإسلام كفارا في الباطن، لجواز ذلك على كل فرد منهم في نفسه /ميزان الاعتدال جـ٢ ص٣٢٨.- وقد نفى القاضي عبد الجبار أن يكون ضرار منهم ولكنه كان يخالطهم فقط /انظر شرح الأصول الخمسة ص٧٣٣.

(٢) المعتزلة: فرقة من فرق المسلمين وأول من أطلق عليهم هذا الاسم الحسن البصري حينما قال: اعتزلنا واصل بن عطاء، ولهم آراء خاصة كغيرهم من الفرق الأخرى.
الرافضة: من فرق الشيعة أظهروا بدعتهم في زمن علي -رضي الله عنه- فأحرق بعضهم ونفى البعض الآخر، ولهم فرق منها: الكيسانية والسبئية وغيرها.
الخوارج: هي فرقة أخرى من فرق المسلمين، وهم الذين خرجوا على عليٍّ حينما قبل التحكيم، وقاتلهم علي وقضي على كثير منهم /انظر كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص١٥٤، ١٩٥، وتاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة جـ١ ص١٣٨.

(٣) البقرة ٢٨.

(٤) المؤمنون ١٥-١٦ .

(٥) غافر ١١.

﴿بِرَبِّكُمْ﴾[(١)]، وعلى هذا التقدير حصل حياتان وموتان، من غير حاجة إلى إثبات حياة في القبر.

والجواب على ذلك: لم يلزم من عدم الذكر في هذه الآية أن لا تكون حاصلة، وأيضاً فلقائل أن يقول: إن الله -تعالى- ذكر حياة القبر في هذه الآية ؛ لأن قوله: ﴿ثم يحييكم﴾ ليس هو الحياة الدائمة؛ وإلا لما صح أن يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن كلمة ثم تقتضي التراخي، والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة الدائمة من غير تَرَاخٍ، فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلاً على حياة القبر كان قريباً[(٢)].

ونلاحظ أن الرازي تكلم في مقالته هذه في نواح ثلاثة:

الأولى: تصوير استدلال المعتزلة بهذه الآية.

الثانية: إبطال استدلال المعتزلة.

الثالثة: أن الآية لا تشهد للمعتزلة على بطلان حياة القبر، بل هي شاهد لأهل السنة.

أما الناحية الأولى: فقد صور استدلال المعتزلة على غير ما يريدون، فإنه جعل استدلالهم بأن التنـــزيل لم يذكر حياة القبر بين الحياتين الأولى والثانية، والتصوير هكذا خطأ، بل إن استدلالهم بالآية في أن التنزيل نص على الموت بين الحياتين، وإذن فما قاله في الناحية الثانية من الرد عليهم غير سليم.

وأما الثالثة: فإنه حمل الحياة الثانية في التنـــزيل ﴿ثُمَّ يحييكُم﴾ على الحياة القبرية، مستدلاً على ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ إليه تُرجعون﴾ وفسر الرجوع إليه بالحياة الثالثة، وهذا تفسير بعيد للآية، لم يذهب إليه -فيما نعلم- مفسر من المفسرين، فضلاً عن أنه مجرد احتمال في هذه الآية. فلا يصح دليلاً لأهل السنة؛ لأن الدليل يجب أن يكون قطعياً لا مجال فيه للاحتمال.

وبعد، فإنا في حاجة إلى إبطال هذا الدليل كما صورناه، فنقول: إن التنـــزيل إنما يتحدث عن الأمور بحسب ما هو ظاهر ويتعارفه الناس فيما بينهم، وليس فيما

---

(١) الأعراف ١٧٢.

(٢) تفسير الرازي جـــ٢ ص١٥٢.

خفي عليهم وخص به بعض أنبيائه، إذا كان الأمر كذلك، فلا مناص من أن يسمى الله تعالى ما بين الحياة الأولى والثانية موتاً، ولا سيما وأن الحياة التي نثبتها في القبر حياة على نمط خاص غير معهود للناس، ولا يعلمه إلا بعض أنبيائه، فلو أن شخصاً عادياً فتح قبراً فلم يجد فيه، إلا عظاماً بالية، فلا مناص له من الحكم بأن مَنْ في القبر ميت، يشهد لهذا ما قاله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لرسول الله ﷺ، حين ذهب إلى صرعى بدر وخاطبهم، وقال له عمر: كيف تخاطبهم وقد جيفوا.. الحديث[1].

فعمر إذ قال ذلك للنبي ﷺ، إنما يتحدث عما رآه واضحاً، وهكذا شأن الناس جميعاً، أمَّا أنَّ النبي ﷺ قد كُشفَ له من الحياة ما لم يُكْشَفْ لغيره، فلا يَسُوغُ لغيره من الناس أن يحكموا بحياة في القبر، ولا سيما على نمط ما يألفون ويعهدون، والله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الحياة والموت، إنما يتحدث على حسب ما ألفه الناس وعهدوه، إذن فلابد من أن يكون الحديث كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ ، وإنما حَكَمَ التنــزيلُ بأهم أمواتٌ بالقياس إلى الحياة المعهودة، وعلى هذا النسق قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [2]. وأما ما ذهب إليه المنكرون من أنه لا يصح الاستدلال بقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ الآية، فباطل، بل الآية شاهدة على الحياة القبرية، وقد شرحنا ذلك في أدلة المثبتين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ [3] قالوا: إنهم لو أُحْيُوا في القبر لذاقوا موتتين.

قال صاحب المواقف: إن ذلك وصف لأهل الجنة والضمير في (فيها) للجنة، أي لا يذوق أهل الجنة في الجنة الموت، فلا ينقطع نعيمهم كما انقطع نعيم أهل الدنيا بالموت، فلا دلالة في الآية على انتفاء موتة أخرى بعد المسألة، وقبل دخول الجنة،

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص٢٢٠٣ كتاب الجنة ونعيمها.

(٢) فاطر ٢٢.

(٣) الدخان ٥٦.

وأما قوله: ﴿**إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**﴾ فهو تأكيد لعدم موهم في الجنة على سبيل التعليق بالمحال، كأنه قيل: لو أمكن ذوقهم الموتة الأولى لذاقوا في الجنة الموت، لكنه لا يمكن بلا شبهة فلا يتصور موهم فيها(١).

يريد صاحب المواقف أن يبطل ما زعمه المنكرون لعذاب القبر، استدلالاً على مذاهبهم، بأنه لاحياة في القبر، وحاصل الإبطال أن الله سبحانه وتعالى ينفي عن أهل الجنة أن يموتوا فيها، فمعنى قوله: ﴿**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا**﴾ أي: لا يذوقون في الجنة الموت، وليس المراد: أهم لا يذوقون الموت مطلقاً إلا الموتة الأولى كما فهم المنكرون؛ لأنه صرح في الآية بقوله: ﴿**فِيهَا**﴾ أي: في الجنة، فالموت المنفي إنما هو الموت في الجنة، فلا ينافي أهم يموتون قبل حياة الآخرة وبعد حياة القبر، فاصلاً بين الحياتين، فإن قيل: وبماذا تفسر قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**﴾؟ قلنا: المراد بيان استحالة موت أهل الجنة، إذ المعنى المراد من الآية: أن أهل الجنة لو ماتوا فإنما يموتون بالموتة الأولى التي أهت حياهم الأولى؟ هذا محال، إذ علق موهم فيها على أن يكون موهم فيها هي الموتة الأولى، وذلك واضح الاستحالة، فكان موهم محالاً. وذهب بعضهم إلى أن (الاستثناء) في قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**﴾ منقطع، أي: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا، وقيل: إنه متصل، وتأولوه: بأن المؤمن عند موته لمعاينة ما يعطاه في الجنة، كأنه فيها، لتيقنه بنعيمها، وقيل: (إلا) بمعنى: سوى، وهو صحيح شائع، بخلاف كونها بمعنى: بَعْد، الذي اختاره الطبري، فإن الجمهور لم يثبتوه(٢).

والصحيح بعد ذلك قول من قال: إن (إلا) في قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**﴾ بمعنى سوى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ الآية(٣) والله أعلم.

الثالث: أن من أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقاً، زعموا أنه لم يدل على ذلك

---

(١) المواقف: جـ٨ ص٣١٩ وانظر شرح المقاصد جـ ٢ ص٢٢٠.

(٢) تفسير البيضاوي جـ٨ ص١٤ وانظر تفسير الطبري جـ٢٥ ص١٣٧.

(٣) النساء ٢٢.

القرآن، وزعموا أنه يرد ذكره إلا من أخبار الآحاد[1].

وقبل أن نجيب على هذا الزعم نقول: حاصل زعمهم أنه لم يرد قرآن بحياة القبر، بل الذي ورد إنما هو أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن، والمقام للقطع؛ لأنها عقيدة من العقائد.

ونحن نجيب أولاً:

بأن القرآن قد أتى بحياة القبر، ثم نذكر آيات القرآن الدالة على ذلك.

أولاً: قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ الآية.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ الآية.

خامساً: قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ الآية.

سادساً: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[2].

وقد سبق بيان دلالة هذه الآيات على الحياة القبرية بإيضاح وتفصيل.

ونجيب ثانيًا:

بأن الأحاديث الواردة في هذا المعنى وفي كثير من أحوال الآخرة متواترة بالمعنى، وإن لم تبلغ ألفاظها حد التوتر[3].

---

(١) مجموع الفتاوي لابن تيميه جـ٤ ص٢٦٣ وانظر إرشاد الساري للقسطلاني جـ٢ ص٥٥٧.

(٢) طه ١٢٤.

(٣) العقائد النسفية ص ١٣٥.

قال ابن القيم[١]: الأخبار الواردة في عذاب القبر والشفاعة والحوض، ورؤية الرب تعالى، وتكليمه عباده يوم القيامة، والأحاديث الواردة في إثبات المعاد والجنة والنار، ونحو ذلك مما يعلم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ جاء بها، كما يعلم بالاضطرار أنه جاء بالتوحيد وفرائض الإسلام وأركانه، وجاء بإثبات صفات الرب تبارك وتعالى، فإنه ما من باب من هذه الأبواب إلا وقد تواتر فيه المعنى المقصود عن النبي ﷺ تواتراً معنوياً، لنَقْلِ ذلك عنه بعبارات متنوعة، من وجوه متعددة، يمتنع في مثلها عادة التواطؤ على الكذب عمداً أو سهواً، وإذا كانت العادة العامة والخاصة المعهودة من حال سلف الأمة وخلفها تمنع التواطؤ في الاتفاق على الكذب، في هذه الأخبار، ويمتنع في العادة وقوع الغلط فيها، أفادت العلم اليقيني، فكل عالم بهذه الأحاديث، وطرقها ونقلها وتعددها يعلم علما يقينياً لاشك فيه، بل يجد نفسه مضطرة إلى ثبوتها أولاً، وثبوت مخبرها ثانياً، ولا يمكن دفع هذين العِلْمَيْنِ عن نفسه.

العِلْمُ الأول: ينشأ من معرفته بطرق الحديث وتعددها وتباين طرقها، واختلاف مخارجها، وامتناع التواطؤ زماناً ومكاناً على وضعها.

العِلْمُ الثاني: ينشأ من جهة إيمانه بالرسالة، وأن الرسول صادق فيما يخبر به، ولهذا كان جميع أئمة الحديث الذين كان لهم لسان صدق في الأمة، قاطعين بمضمون هذه الأحاديث، شاهدين بها على رسول الله ﷺ جازمين بأن من كفر بها أو أنكر مضمونها فهو كافر، وأنهم حرروا الراوية عن رسول الله ﷺ تحريراً لم يبلغه أحد سواهم، لا من الناقلين عن الأنبياء، ولا من غير الأنبياء، وهم شاهدوا شيوخهم على هذا الحال، وأولئك شاهدوا من فوقهم على ذلك، حتى انتهى الأمر إلى من أثنى الله عليهم أحسن الثناء، وأخبر برضاه عنهم واختياره لهم، واتخاذه إياهم شهداء على الأمم يوم القيامة، ومن تأمل ذلك، أفاده علماً ضرورياً، بأن ما ينقلونه عن نبيهم

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الشهير بابن القيم، من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار العلماء، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيميه حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه. مات سنة ٧٥١ هـ/الأعلام جـ٦ ص٢٨٠.

أعظم من كل علم، حتى إنهم يشهدون بذلك، ويحلفون عليه، ويباهلون[١] من خالفهم عليه، وكل واحد يعلم أن أهل الحديث أصدق أهل الطوائف، كما قال عبد الله بن المبارك[٢]: وجدت الدين لأهل الحديث، والكلام للمعتزلة، والكذب للرافضة، والحيل لأهل الرأي.

وإذا كان أهل الحديث عالمين بأن رسول الله ﷺ قال هذه الأخبار، وحَدَّثَ بها في الأماكن والأوقات المتعددة، وعلمهم بذلك ضروري، لم يكن قول من لا عناية له بالسنة والحديث: "إن هذه أخبار آحاد لا تفيد العلم"، مقبولاً[٣].

ويتضح مما ذكر أن هذه الأحاديث التي تفيد في مجموعها ثبوت عذاب القبر ونعيمه، قد تناقلها أئمة الحديث مثبتين صحتها، وإذ قد تبين لنا وجوب الأخذ بها، وثبوت دلالتها، نقول: إذا لم يصح مثل هذه الأحاديث، ولم يؤخذ بها، لم يصح شيء من أمور الدين، وذلك لأنها جاءت مؤكدة لمجمل آيات القرآن الكريم، التي ذكرناها في الاستدلال على الحياة القبرية؛ فأصبح الإيمان بهذه الأحاديث واجباً، ولا عبرة بعد ذلك لادعاء النافين من أنها خبر آحاد، فقد بينا بطلان هذا الادعاء، وقد ثبتت صحة الأحاديث وكثرة طرقها، إذ إنها رويت عن أكثر من بضع وعشرين صحابياً، وقد أجمع أهل السنة على الأخذ بها.

ب- أدلتهم العقلية:

قالوا: "إنما يمكن العمل بالظاهر إذا لم يكن مخالفاً للمعقول، ودليل مخالفته للمعقول أن نرى شخصاً يُصْلَبُ ويبقى مصلوباً إلى أن تذهب أجزاؤه ولا نشاهد فيه حياة ولا مسألة، فالقول بهما مع عدم المشاهدة سفسطة ظاهرة، وأبلغ منه من أكلته

(١) المباهلة: يقال بهله الله أي: لعنه، والبهل اللعن، قيل نبتهل: نتضرع إلى الله في دعاء، تفسير القرطبي جـ٤ ص١٠٤.

(٢) عبد الله بن مبارك الحنظلي بالولاء، المروزي أبو عبد الرحمن، الحافظ شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات أفنى عمره في الأسفار، حاجاً ومجاهداً وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس، مات بعد انصرافه من غزو الروم بالقرب من الفرات. تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٧٤.

(٣) مختصر الصواعق المراسلة على الجهمية والمعطلة جـ٢ ص٣٥٥ -٣٦٣ لابن القيم.

السباع والطيور وتفرقت أجزاؤه، وأبلغ منه من أُحْرِقَ حتى تفتت أجزاؤه في الرياح العاصفة شمالاً وجنوباً وقبولاً ودبوراً، فإنا نعلم عدم إحيائه ومسألته "[١].

كذلك لو كان له أصل، لكان يجب في النَّبَّاش أن يرى العقوبة أو المثوبة للمُعَاقَب والمُثَاب، كَأَنْ يُشَاهِدَ عليه أَثَرَ الضرب وغيره، وفي عِلْمِنَا بخلافه دليلٌ على أَنَّ ذلك مما لا أصل له.

وقالوا: "ومما يؤكد هذا الكلام، أنه لو كان كذلك، لكان يجب في المصلوب والميت الذي لم يدفن أن يُسْمَعَ أَنِينَهُ، وأن يُشَاهَدَ اضطرابَهُ كلٌّ واحد، والمعلوم أنه لا يرى مضطرباً اضطراب المعاقب، ولا يسمع له أنين البتة، فكيف يكون مُعَذَّباً والحال كما قلناه؟"[٢].

وهذه الشبهة التي أوردها المنكرون لعذاب القبر، جالت في خاطر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ودفعته إلى مساءلة النبي ﷺ - حينما سمعه يخاطب صرعى بدر بعد أيام من مصرعهم - قائلاً: كيف تخاطبهم وقد جيفوا؟ فأجابه النبي ﷺ: "**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**"[٣].

والجواب على هذه الشُّبَه:

قال الغزالي[٤]: "إن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت، أَمَا تَرَى أن الصحابة رضوان الله عليهم كيف كانوا يؤمنون بنـزول الوحي وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه ﷺ يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجَوَّزْتَ أن يشاهد النبي ﷺ مالا تشاهده الأمة، فكيف لا تُجَوِّزُ هذا في

(١) المواقف جـ٨ ص٣١٩.
(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٧٣٣.
(٣) رواه مسلم جـ٤ ص٢٢٠٣.
(٤) محمد بن محمد الغزالي، أبو حامد، حجة الإسلام، فليسوف متصرف، له نحو مائتي مصنف، ولد بخراسان سنة ٤٥٠ هـ، ورحل إلى الشام والحجاز ومصر وغيرها، مات سنة ٥٠٥هـ/الأعلام جـ ٧ ص٢٤٧.

الميت"؟[١].

وقال ابن القيم: "إن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، ولتمييز المؤمن بالغيب من غيره.

وإن النار التي في القبور والخضرة ليست من نار الآخرة وخضرها، وهي أشد من نار الدنيا، وقدرة الله سبحانه وتعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله سبحانه وتعالى من آيات قدرته في هذه الدار، ما هو أعجب من ذلك بكثير، كنـزول جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، فيسمعه دون غيره ممن عنده، ويسمع صوت مجيئه دون غيره، والجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم، والملائكة تشترك مع المسلمين في المعارك، تضرب وتطارد أعداء الله تعالى والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يحدث في الأرض وهو بينهم.

وقد كان جبريل يُقْرِئُ النبي ﷺ، ويدارسه القرآن، والحاضرون لا يسمعون، ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والخردل عن عين الميت وصدره، ثم يرده بسرعة، فكيف يعجز ذلك المَلَكُ؟ وكيف لا يقدر عليه من هو على كل شيء قدير؟ وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الإنسان في الدنيا إلا محض جهل وضلال، وتكذيب أصدق الصادقين وتعجيز رب العالمين؟ وذلك غاية الجهل والظلم!"[٢].

وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع، وأكثر طولاً وعمقاً وعرضاً، ويستر توسيعه عن الناس، ويُطْلِعُ عليه من شاء؛ فكيف يعجز رب العالمين أن يُوَسِّعْهُ ما يشاء على من يشاء، ويستر ذلك عن أعين بني آدم، فيراه بنو آدم ضيقاً، وهو أوسع شيء وأطيبه ريحاً وأعظم إضاءة ونوراً؛ وهم لا يرون ذلك.

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار، ليس من جنس المعهود في هذا العالم، والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها

(١) إحياء علوم الدين للغزالي جـ٤ ص٥٠٠.

(٢) كتاب الروح لابن القيم ص٦٣-٧١.

ومنها، وأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء، ليكون الإقرار به والإيمان سبباً لسعادهم، فإذا كشف لهم الغطاء صار عياناً مشاهداً، فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه.

كذلك غير ممتنع أن تُرَدُّ الروح إلى المصلوب والغريق والمحروق، ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير معهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت، أحياء وأرواحهم معهم، ولا نشعر بحياهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على التباعد بينها أو القرب، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة[1].

وقال البيهقي[2]: وفي كل ذلك دلالة لمن آمن بالله ورسوله محمد ﷺ على جواز تعذيب من انتقضت بِنْيَتُهُ في رؤيتنا، أو صار رميماً في أعيننا، عذاباً يسمعه من أراد الله سبحانه أن يُسْمِعَهُ، دون من لم يرده، ويشاهده مَنْ أراد الله تعالى أن يشاهده، دون من لم يرده، فقد سمع رسول الله ﷺ أصوات من يُعَذَّبُ منهم، ولم يسمعها من كان معه من الصحابة، ورأى حين صلى صلاة الخسوف من يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، ومن يعذب في السرقة، والمرأة التي كانت تعذب الهرة، وقد صاروا في قبورهم رميماً في أعين أهل زمانه، ولم ير من صلى معه من ذلك ما رأى، وقد رأى رسول الله ﷺ في خبر صحيح عنه في منامه -ورؤيا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وحي- جماعةً يُعَذَّبُونَ في أماكن متفرقة، وفي جرائمَ مختلفةٍ، ولعلهم صاروا رميماً في قبورهم في أعيننا[3][4].

---

(١) المصدر السابق ص٧٢.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، من أئمة الحديث، نشأ في بيهق نيسابور، ورحل إلى بغداد، ثم إلى الكوفة ومكة وغيرها، كثرت تصانيفه في مذهب الشافعي، وقال فيه الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك، لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف، مات سنة ٤٥٨ هـ/الأعلام جـ١ ص١١٣.

(٣) الحديث رواه البخاري انظر فتح الباري جـ١٢ باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ص ٤٣٨.

(٤) عذاب القبر للبيهقي ص٢٠.

وجملة القول أن النافين للحياة القبرية يقولون: إن هذه المظاهر إذا وقعت في دائرة الحِسِّ ومتناوِلِه، أدركها لا محالة، وقد تَحَرَّجَ موقفُ أهل السنة بإزائها، وحاولوا احترام منطقها في ألوان مختلفة، ترجع إلى تصوير العذاب والنعيم في القبر وسائر شئونه بصورة بعيدة عن الحس، بحيث لا يكون في عدم الإحساس بها حجة على نفيها، فجمهورهم ذهب إلى أن مظاهر الحياة التي نثبتها إنما هي مظاهر لا ينالها الحس الظاهر.

ويتضح لنا من خلال تتبع الأحاديث التي وردت في نعيم القبر وعذابه، أن هذه الأحاديث أثبتت لنا أن الحياة وبعض مظاهرها المادية، ترجع للميت وهي من جنس ما يُحَسُّ ظاهراً في هذه الحياة؛ إلا أن الله تعالى حجب حواسهم عن الإحساس بها، فلا حُجَّةَ في عدم الإحساس بها على نفيها، فإنه لا شك أنه سبحانه وتعالى، قادر على كل شيء؛ وإن لم تَجْرِ به عادةٌ، فإذا ما جاءت النصوص بهذه المظاهر، وتعطيل الحواس عن الإحساس بها، وجب احترام ظاهرها.

والأحاديث التي تشهد لذلك وتُثْبِتُهُ قد مرت بنا؛ من سماعه ﷺ لمن يُعَذَّبُ في القبور، ولم يسمعها من كان معه من الصحابة، من هذه الأحاديث:

الحديث الأول: مخاطبته ﷺ لصرعى بدر: "**يا أبا جهل بن هشام، يا أبا أمية ابن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعه، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً**".

فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال: "**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**"(١).

تأمل قول النبي ﷺ "**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**" يدل على أنهم يسمعون ويتألمون وقد حجب الله ذلك عن الناس، إلا بعض أنبيائه كالنبي ﷺ.

الحديث الثاني: رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نبي الله ﷺ في

---

(١) مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٧ كتاب الجنة ونعيمها.

نخل لأبي طلحة، يتبرز لحاجته، قال: وبلال يمشي وراءه، يُكْرِمُ النبيَّ ﷺ أن يمشيَ إلى جنبه، فمر نبي الله ﷺ بقبر، فقام حتى لَمَّ إليه بلالٌ، فقال: "**ويحكَ يا بلال هل تسمع ما أسمع؟**" فقال: ما أسمع شيئاً، قال: "**صاحب القبر يُعَذَّبُ**"، قال: فَسُئِلَ عنه فَوُجِدَ يهودياً"(١).

فقد ثبت بهذا الحديث أن عذاب القبر أمر حسِّيٌّ، ولذلك أحس به رسول الله ﷺ، وسمع عذَابَهُ؛ لأن حواسه لم تعطل عن ذلك، بينما من معه من الصحابة، وخاصة بلال الذي اقترب من القبر لم يسمعوا شيئاً ولم يحسوا بشيء، فعدم إحساسهم لا يكون حجة لعدم ثبوته، وذلك لأن حواسهم قد عُطِّلَتْ عن ذلك.

الحديث الثالث: ما رُوِيَ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس؛ فسمع صوتاً؛ فقال: "**يَهُودُ تُعَذَّبُ في قبورها**"(٢).

الحديث الرابع: ما رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به وكادت تلقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة فقال: "**من يعرف أصحاب هذه القبور؟**". فقال رجل: أنا، قال: "**فمتى ماتوا؟**". قال: في الشرك. فقال: "**إن هذه الأمةَ تُبْتَلَى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسْمِعَكُم من عذاب القبر الذي أسمع منه**"(٣).

وهذا الحديث قد أثبت سماعَ الدابة التي يركبها رسول الله ﷺ لعذاب القبر واضطرابها، فلو لم يكن العذابُ أمراً محسوساً لما اضطربت الدابةُ منه.

وهذا الجواب منعٌ لدليل النافين، القائلين بجمادية الميت وعدم الحركة فيه والإدراك، بل له الحياة والإدراك كما علمت، وعدم شعورنا بذلك لا يدل على نفيه، لأن الحواس عُطِّلَتْ عن الإحساس بذلك، كما جاءت به الأحاديث.

وخلاصة القول: إن المعتزلة احتكموا إلى الحس، وقالوا: إننا لا نحس بشيء مما

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، الفتح الرباني جـ٨ ص١٢٥ لم إليه: قرب منه.

(٢) الحديث متفق عليه.انظر الباري جـ٣ ص٢٣٢ باب عذاب القبر ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص ٢٠٢ كتاب الجنة ونعيمها.

(٣) رواه مسلم. مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٠ كتاب الجنة.

قاله أهل السنة في الأموات، وذكروا على ذلك شواهد عديدة توصلوا من ذلك إلى قول: إذا كان الحس لا يشاهد شيئاً، فليس لذلك الشيء حقيقة واقعة.

وجوابنا: أن الاحتكام إلى الحس في الحياة القبرية احتكام باطل، وعدم الحس بالحياة القبرية لا يصلح شاهداً على نفيها؛ لأن الله سبحانه وتعالى عطل حواس البشر -إلا لبعض الأنبياء- عن الإحساس بهذه المشاهد القبرية، وقد تَأَيَّدَ ذلك بما نقلناه من الأحاديث التي بلغتْ حَدَّ التواتر في معناها، وإذا كان تعطيل الحواس قد جاء به النبي ﷺ، فإذن لا حجة للمنكرين في عدم الإحساس بمشاهدة الحياة القبرية والله أعلم.

القائلون بوقوع النعيم والعذاب على الروح فقط:

قال أبو محمد حزم[1]: "وأمّا مَنْ ظن أن الميِّت يحيا في قبره قبل يوم القيامة، فخطأ تبطله الآيات التالية[2]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ**﴾[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[4].

قال: ولو كان الميت يحيا في قبره، لكان الله تعالى قد أماتنا ثلاثاً وأحيانا ثلاثاً، وهذا باطل خلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾[5].

---

(١) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري: عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان في الأندلس ناس كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم الحزمية، زهد في الوزارة التي كانت له ولأبيه، وانصرف لطلب العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقهاً وحفظاً، له تصانيف منها: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والمحلى وجمهرة الأنساب وغيرها. توفي في الأندلس سنة ٤٥٦ هـ /دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص١٣٦.

(٢) الفصل في الملل والنحل جـ٤ ص٦٦ والمحلى جـ١ ص٢١، ٢٢ لابن حزم.

(٣) غافر ١١.

(٤) البقرة ٢٨.

(٥) الزمر ٤٢.

فَصَحَّ بنص القرآن أن أرواح سائر ما ذكرنا لا يرجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة.

وأما الأحاديث: فقد أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة أُسْرِيَ به عند سماء الدنيا، من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة، وأخبرهم يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور، ولم ينكر على الصحابة قولهم: قد جُيِّفُوا، وأعلمهم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فَصَحَّ أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾(١).

فنفي السمع عمن في القبور وهي الأجساد بلا شك، ولا يشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع، غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ.

قال: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءلة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به، قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة -مِنْ رَدِّ الأرواحِ في القبور إلى الأجساد- المنهالُ بن عمرو وحده(٢)، وليس بالقوي، تركه شعبة وغيره، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي(٣) وهو أحد الأئمة: ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ما قد نقل، وسائر الأخبار الثابتة خلاف ذلك.

قال: وهذا الذي قلناه هو الذي صَحَّ أيضاً عن الصحابة"(٤) ا.هـ.

---

(١) فاطر ٢٢.

(٢) المنهال بن عمرو الأسدي مولاهم الكوفي التابعي، وثقه يحي بن معين والنسائي، وقال فيه العجلي: كوفي ثقة، وقيل إنه سُمِعَ من بيته صوتُ غناء، وذكره ابن حبان في الثقات/ تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٣١٩.

(٣) المغيرة بن المقسم الضبي، مولاهم أبو هاشم الكوفي الفقيه، قيل: إنه ولد أعمى، اشتهر بحفظه، وكان من أفقه زمانه، وقال العجلي: المغيرة ثقة فقيه الحديث، إلا أنه كان يرسل الحديث، وقيل: إنه كان يدلس، توفي سنة ست وثلاثين ومائة وقيل غير ذلك /تهذيب جـ١٠ ص٢٦٩.

(٤) كتاب الروح لابن القيم: ص٤١، ٤٢.

الجواب على ذلك:

قال ابن القيم: "ما ذكره ابن حزم فيه حق وباطل، أما قوله: "من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ" فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن، وتدبره، وتصرفه، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس؛ فهذا خطأ كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد إليه الروح إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا؛ لِيُسْأَلَ ويمتحنَ في قبره، فهذا حق، ونفيه خطأ، وقد دَلَّ عليه النصُّ الصريحُ الصحيحُ، وهو قوله ﷺ: "**فتعاد روحه في جسده**".

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ الآية فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد، وعلى قوله ﷺ: "**فتعاد روحه في جسده**" لا يدل على حياة مستقرة؛ وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به، والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بَلِيَ وتمزق، وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه آخر.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً، بحيث لا تَبْقَى لها التفات إليه البتة، وهذا الالتفات والردُّ إعادةٌ خاصةٌ لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق، فهو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً"[١].

ونحن نقول إن قوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ الآية. قد استشهد به أهل السنة على ثبوت الحياة القبرية كما مر معنا؛ فهو بالتالي لا يصلح دليلاً لابن حزم على ما ذهب إليه، وكذلك فقد بَيَّنَّا أيضاً عدم دلالة قوله تعالى:

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على انتفاء الحياة القبرية فلا حاجة لتكراره[١].

وأما استدلاله بقوله تعالى: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** فإمساكه -سبحانه- التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت وقتاً ما رداً عارضاً؛ لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كانت روح النائم في جسده وهو حي، وحياته غير حياة المستيقظ، فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت له روحه إلى جسده، كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم تُرَدَّ روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي و الميت، فتأمل هذا يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وأما إخبار النبي ﷺ عن رؤيته الأرواح ليلة الإسراء[٢] فلا ينافي تعلق الروح بالبدن في القبر، فقد صح عنه ﷺ أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة أو السابعة[٣]، فالروح كانت هنالك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه به، بحيث يصلي في قبره، ويرد السلام على من سلم عليه وهو في الرفيق الأعلى.

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن؛ فإنها تصعد إلى ما فوق السماوات، ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره، وهو زمن يسير لا يصعد البدن وينـــزل في مثله، وكذلك صعودها وعَوْدُهَا إلى البدن في النوم واليقظة[٤].

وأما قول الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر: كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا؟! مع

---

(١) انظر ص ٥٨ من البحث.

(٢) هذا جزء من حديث الإسراء الذي رواه أنس بن مالك، انظر فتح الباري جـ١ ص٤٨٥ كتاب الصلاة.

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، الفتح الرباني جـ٢٠ ص٢٤٩ وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٦٢٧ للألباني.

(٤) المصدر السابق ص٤٤، ٤٥.

إخباره بسماعهم كلامه، فلا ينافي رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت، رداً يسمعون به خطابه، والأجساد قد جيفت، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي فسدت(١).

ونحن نقول: إن الرد الشافي في هذه المسألة، هو رد النبي ﷺ على الصحابة إذ قالوا له: كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا؟ فإن مرادهم بهذا أنهم لا حياة لهم ولا شيء من مظاهر الحياة؛ كسماع الأصوات، فكيف يكلمهم ويخاطبهم؟ فرد النبي ﷺ بقوله: "**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**" فإن حاصل هذا الرد أنهم يسمعون ما يقول، ومَنْ هذا شأنُهُ فلهُ الحياةُ، وهذا الرد من النبي ﷺ كاف على ما يزعمه ابن حزم؛ لأن الصحابة كانوا قد فهموا ما فهمه ابن حزم فخطأهم النبي ﷺ بجوابه، ففي نفس الحديث الذي استدل به ابن حزم الردُّ على ما يزعمه.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر ميِّت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعاً ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر إسماعهم إسماعاً ينتفعون به، ولم يُرِدْ -سبحانه- أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة، فكيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين، وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع؟!.

وأما قوله: إن الحديث لا يصلح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به، وليس بالقوي، فهذا من مجازفته -رحمه الله- فالحديث صحيح لا شك فيه(٢)، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان(٣)، منهم عدي بن ثابت(٤)، ومحمد بن عقبة

---

(١) المصدر السابق ص٤٥.

(٢) الحديث رواه أحمد وقد مَرَّ معنا تخريجه وأقوال أئمة الحديث انظر ص ٥٧ من البحث.

(٣) زاذان الكندي مولاهم الكوفي الضرير، يقال: إنه سمع خطبة عمر بالجابية وروي عن يحيى ابن معين أنه قال فيه: هو ثقة لا يسأل عن هؤلاء، وقال ابن عدي: أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة، وقال العجلي: كوفي تابعي ثقة.مات سنة ٨٢ هـ/تهذيب ج٣ ص٣٠٢ .

(٤) عدي بن ثابت الأنصاري: عالم الشيعة الإمامية وصالحهم في عصره، قال الذهبي: لو كانت الشيعة مثله لقل شرهم، وثقه أحمد العجلي والنسائي، مات سنة ١١٦ هـ /ميزان الاعتدال للذهبي جـ٢ ص ٦١.

ومجاهد.

قال الحافظ أبو عبد الله بن منده: أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف حدثنا محمد بن إسحاق، أنبأنا أبو النضر هشام بن القاسم، حدثنا عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب، فذكر الحديث، وفيه أن الروح تعاد إلى القبر، وأن المَلَكَيْنِ يُجْلِسَانِ الميتَ ويَسْتَنْطِقَانِه، ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجرزي عن مجاهد عن البراء بن عازب فذكر الحديث".

وأضاف ابن القيم: هذا الحديث ثابت مشهور مستفيض، صححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه، بل رَوَوْهُ في كتبهم، وتلقوه بالقبول، وجعلوه أصلاً من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه، ومساءلة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله تعالى، ثم رجوعها إلى القبر، وقول ابن حزم: لم يَرْوِهِ غيرُ زاذان فَوَهْمٌ منه؛ بل رواه عن البراء غيرُ زاذان، ورواه عنه عدي بن ثابت، ومجاهد بن جبير، ومحمد بن عقبة، وغيرهم، وقد جمع الدار قطني طُرُقَهُ، وزاذان من الثقات، روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره، وروى له مسلم في صحيحه، قال يحيى بن معين: ثقة، وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه: هو ثقة، لا تسأل عن أمثال هؤلاء، وقال ابن عدي: أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة.

وقوله: إن المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة، وهي قوله: "فتعاد روحه في جسده" وضعفه فالمنهال أحد الثقات العدول، قال يحيى بن معين: المنهال ثقة، وقال العجلي: الكوفي ثقة.

وأعظم ما قيل فيه أنه سُمِعَ من بيته غناء، وهذا لا يوجب القدح في روايته واطراح حديثه، وتضعيف ابن حزم له لا شيء، فإنه لم يَذْكُرْ موجباً لتضعيفه غير تفرده بقوله: "فتعاد روحه في جسده"، وقد بينا أنه لم يتفرد بها، بل قد رواها غيره، وقد روى ما هو أبلغ منها أو نظيرها، كقوله: "فتُرَدُّ إليه روحه"، وقوله: "فيجلسانه"،

وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها.

ويتضح لنا بعد ذلك أن ما جاء به ابن حزم من أدلة على نفي العذاب والنعيم عن البدن لا تنفي وقوع ذلك للبدن، فقد تصور ابن حزم أن اتصال الروح بالبدن بعد الموت هو كاتصالها المعهود في الحياة الدنيا، ولكن المثبتين لذلك لم يذهبوا إلى مثل هذا التصور، فثبت إذن وقوع العذاب والنعيم على الجسد والروح معاً، والله أعلم.

الموازنة بين أهل السنة والمعتزلة في إثبات عذاب القبر

لقد أغلفت كتب العقائد مسالك المعتزلة وأدلتهم التي يثبتون فيها الحياة القبرية، حتى خُيِّلَ لبعض الباحثين، أنه ليس لهم مسالك في هذا المطلب، بل ربما يُخَيَّلُ للباحث أنهم ينكرون الحياة القبرية، وهذا خطأ إذ الواقع يدل على أن لهم مسالك في إثبات الحياة القبرية نذكرها تتميماً للبحث.

أولاً: أدلة المعتزلة في إثبات عذاب القبر:

قال القاضي عبد الجبار(١): "أما ثبوته – أي عذاب القبر– يدل عليه:

أ- قوله تعالى: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾(٢) فالفاء للتعقيب من غير مهلة، وإدخال النار لا وجه له إلا التعذيب(٣)، وذلك في القبر عقب الموت، كما تفيده الفاء.

ب- ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ (٤) ووجه دلالته على عذاب القبر ظاهر، غير أنه يختص بآل فرعون ولا يعم جميع المكلفين.

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني، قاضي أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه بقاضي القضاة، ولا يطلقونه على غيره. ولي القضاء بالري، ومات فيها سنة ٤١٥ هـ. تاريخ بغداد جـ١١ ص١١٣.

(٢) نوح ٢٥.

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٧٣٠، ٧٣٢.

(٤) غافر ٤٦.

والدلالة التي تعم، قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾(١).

ولا تكون الإماتة والإحياء مرتين إلا في إحدى المرتين، إما التعذيب في القبر أو التبشير على ما نقوله.

ومتى قالوا إن إحدى الإماتتين إنما هو خلق الله تعالى الخلق من نطفة هي موات، قلنا: إن الإماتة في الحقيقة إنما هي إبطال الحياة وإزالتها وتفريق البِنْيَة التي تحتاج هي في الوجود إليها، وذلك لا يتصور في النطفة التي لم تكن حية أصلاً، وبَعْدُ فقد أثبت الله تعالى الإماتة مرتين".

جـ-وقال القاضي عبد الجبار أيضاً: ومما يدل على ذلك، ما روي أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: "**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير كان أحدهما يمشي بالنميمة، والآخر كان لا يستنزه من البول**" ورُوِيَ لا يستتر.

ثم ذكر القاضي بعد ذلك: "وأما الوقت الذي يَثْبُتُ فيه التعذيبُ، وتعيين ذلك، فما لا طريق إليه، ومن الجائز أن يكون بين النفختين على ما قال الله تعالى: ﴿**وَمن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾(٢).

والبرزخ في اللغة إنما هو الأمر الهائل العظيم، ولا معنى له إلا العذاب"(٣).

مناقشة الأدلة:

أما الاستدلال الأول، وهو قوله تعالى: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ ، وأما الاستدلال الثالث بحديث رسول الله ﷺ أنه مر بقبرين فقال: "**إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير**"، فالمعتزلة وأهل السنة في تقرير هذين الدليلين سواء، وأما الاستدلال الثاني بقوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ فالبون بين تقرير أهل السنة والمعتزلة شاسع جداً، وإننا سنعرض ما قاله أهل السنة والمعتزلة لنبين هذا الفرق بين تقرير أهل السنة والمعتزلة.

---

(١) غافر ١١.

(٢) المؤمنون ١٠٠، ١٠١.

(٣) المصدر السابق ص ٧٣٢.

قال القاضي عبد الجبار: من الأدلة على ثبوت عذاب القبر قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ، وقال: ووجه دلالته على عذاب القبر ظاهر، غير أنه يختص بآل فرعون ولا يعم جميع المكلفين[١].

وأما تقرير الدليل على ثبوت عذاب القبر عند أهل السنة فهو كما يلي:-

قالوا في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً، وليس المراد منه يوم القيامة، لأنه عطف عليه يوم القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وليس المراد أيضاً منه في الدنيا لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً لهم في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت، وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم، لأنه لا قائل بالفرق[٢] فيتم الاستدلال بالعموم.

ثم أجاب أهل السنة بعد تقرير الدليل على هذا الوجه على اعتراضات المعترضين، وأثبتوا بطلانها، وقد ذكرناها مفصلة فلا حاجة لإعادتها[٣].

ويتضح لنا من خلال عرض تقرير هذا الدليل لكلٍّ من الفريقين ما يلي:-

١-أن المعتزلة قد أهملوا جزءاً حيوياً من الدليل الذي تتوقف عليه الدلالة وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ؛ لأن الاستدلال بدون هذا الجزء لا يدل على الحياة القبرية أصلاً، لأنه يصح أن يقال إنه يوم القيامة.

لكن أهل السنة حينما ذكروا هذا الجزء، تَعَيَّنَ أن عرضَ النار غُدُوًّا وعشياً إنما هو في القبر، بدليل عطف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ عليه.

٢-أن القاضي عبد الجبار لم يبين لنا وجه الدلالة في الآية، بل اكتفى بقوله: ووجه دلالته على عذاب القبر ظاهر، على حين أن أهل السنة بَيَّنُوا وَجْهَ الدلالة في

---

(١) المصدر السابق ص٧٣٠ .

(٢) تفسير الرازي جـ١٧ ص٧٣، والمواقف جـ٨ ص٣١٧ .

(٣) انظر الصفحات من ٨-١١ .

الآية بذكر الجزء الحيوي في الاستدلال.

٣-أنه مُعْتَرَضٌ على هذا الدليل باعتراض يجعله غير منتج للدعوى؛ بزعم أنه خاص بآل فرعون، بينما أثبت أهل السنة أنه عام في جميع الأمم؛ حيث قالوا: وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم، فيتم الاستدلال بالعموم؛ لأن المسائل الاعتقادية لا تختلف بين أمة وأخرى.

٤-أن أهل السنة قد أجابوا على اعتراضات المعترضين في الاستدلال بهذه الآية، كما بَيَّنَّا سابقاً، على حين أن المعتزلة قد أغفلوا هذه الاعتراضات والإجابة عليها.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ الآية، فصحيح أيضاً، غير أنهم لم يُفَصِّلُوا ويبينوا وجه الدلالة فيه كما صنع أهل السنة في استشهادهم بهذه الآية على الحياة القبرية وغيرها من الآيات، على نمط ما سبق، وقد ورد على هذا الدليل إشكالان خطيران:

الأول: أن الإماتة تكون اثنتين مع انتفاء الحياة القبرية؛ لأن ما قبل الحياة الأولى موت قطعاً، فإذا ما أثبتنا الحياة القبرية كان الموت ثلاثاً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١) ولقد دفع هذا الإشكال أهل السنة كما دفعه المعتزلة.

الثاني: أن الحياة على تقدير الحياة القبرية تكون ثلاثة لا اثنتين: الأولى في الدنيا والثانية في القبر والثالثة في الآخرة؛ مع أن الآية ذكرت إحياءين فقط.

أقول هذا الإشكال تفرَّدَ بمعالجته ودَفْعِهِ أهلُ السنة بما لامزيد عليه، أما المعتزلة فقد أغفلوا هذا الموضوع إغفالا تاماً.

ثانياً: تناقض المعتزلة في حديثهم عن حياة القبر:

لقد ذكر القاضي عبد الجبار في بداية كلامه عن ثبوت عذاب القبر، أن ذلك العذاب واقع عقب الموت، واستدل على ما ذهب إليه بالأدلة التي بيناها قبل قليل، ثم ذكر بعد ذلك: وأما الوقت الذي ثبت فيه التعذيب وتعيين ذلك فمما لا طريق إليه، ومن الجائز أن يكون بين النفختين على ما قال الله تعالى: ﴿ **وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى**

---

(١) البقرة ٢٨.

يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾[١].

والبرزخ في اللغة إنما هو الأمر الهائل العظيم، ولا معنى له إلا العذاب[٢].

فأنت ترى أن هذا تناقض واضح بين كلامين في وقت واحد، فإنه قد أثبت أن العذاب في القبر عقب الموت بما استدل عليه من الآية والحديث، كما نص عليه هو في البداية الكلام، فكيف يأتي هنا ويقول: وأما الوقت الذي يثبت فيه التعذيب وتعيين ذلك فمما لا طريق إليه؟!.

كيف يتردد في وقت العذاب ولا يدري متى يكون هذا العذاب؟ وأعجب من هذا أنه جَوَّزَ وقوعَه بين النفختين، وهل هذا التجويز إلا إنكار لعذاب القبر الذي أثبته أولاً بما استدل عليه من القرآن والسنة؟!.

وهذا تناقض واضح كنا نُجِلُّ المعتزلة وشيخهم القاضي عبد الجبار أن يقعوا في مثله، هذا وإن ما ذهب إليه القاضي من أن معنى البرزخ في اللغة الأمر الهائل العظيم، ثم تفسيره بالعذاب، فلم أقف عليه بهذا المعنى عند أحد غيره، وقد استوفينا شرح ذلك في معرض تعريفنا للبرزخ، وبينا أن برزخ الميت يبدأ من موته إلى يوم القيامة.

ونقل عنهم أنهم قد ذهبوا إلى أن سؤال الملكين منكر ونكير إنما يكون بين النفختين أيضاً[٣]، وهذا غير صحيح من وجهين:

الأول: أن هذا الرأي مبني على تجويز وقوع العذاب بين النفختين، وقد بينا سابقاً بطلان ذلك التجويز وتناقضه.

الثاني: لقد أثبت أهل السنة بالأحاديث الصحيحة سؤال الملكين عقب الموت، ومنها حديث عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: "كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: "**استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل**"[٤].

---

(١) المؤمنون ١٠٠، ١٠١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٠-٧٣٢.

(٣) أصول الدين للبغدادي ص ٢٤٦.

(٤) رواه أبو داود في الجنائز رقم ٣٢٢١، وانظر شرح السنة للبغوي جـ٥ ص٤١٨.

تأمل في قوله ﷺ "**فإنه الآن يسأل**" فإنه قد حدد وقت سؤال الملكين.

ثالثاً: موازنة بين أدلة أهل السنة والمعتزلة:

أ- من حيث عدد الأدلة:

لقد اكتفى المعتزلة في مسلكهم لإثبات الحياة القبرية بذكر أربعة أدلة فقط، ثلاثة منها من الكتاب، والرابع من السنة(١).

على حين أن أهل السنة قد ذكروا في إثبات الحياة القبرية ست آيات من القرآن الكريم، وبضعاً وأربعين حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ.

والإفاضة في ذكر الأدلة على ثبوت شيء معين يجعل المُطَّلِعَ أكثرَ إيماناً واعتقاداً بثبوت ذلك الشيء، ومن هنا تبرز لنا أهمية ذكر أهل السنة لكل ما يتعلق بالحياة القبرية من أدلة صحيحة من الكتاب والسنة، ليقطعوا الطريق على من يدور في ذهنه شيء من الشك أو الوهم حول ثبوت هذا الأمر.

وَرُبَّ قائل يقول: دليلٌ واحدٌ صحيح لا يَرِدُ عليه شيء من الإشكالات، خير من أدلة كثيرة.

قلنا: لقد بَيَّنَّا فيما سبق أدلة أهل السنة، وقد استبانت لنا قوتها وصلابتها أمام الإشكالات التي قد يوردها الخصوم، وأنها بمنجاة من ذلك، وقد بينا كذلك أدلة المعتزلة ومكانتها من القوة أو الضعف.

ب- الاتفاق في بعض الأدلة:

استدل أهل السنة والمعتزلة بالآيات الثلاث والحديث على ثبوت عذاب القبر وهي:

١-قوله تعالى: ﴿ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** ﴾ الآية(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾الآية(٣).

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ص٧٣٠.

(٢) نوح ٢٥.

(٣) المؤمن ٤٦.

٣-قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ** ﴾ الآية[١].

٤-ما رُوِيَ عن الرسول ﷺ أنه مَرَّ على قبرين فقال: "**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير كان أحدهما يمشي بالنميمة، والآخر كان لا يستنــزه من بوله..**" الحديث[٢] متفق عليه.

جـ- الافتراق في بعض الأدلة:

لقد انفرد أهل السنة بأدلة لإثبات الحياة القبرية لم يأت بها المعتزلة وكانت قوية أمام الإشكالات التي قد يوردها الخصوم كما أسلفنا، وإليك الأدلة النقلية من الكتاب:

أولاً: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾[٣].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [٤].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ**﴾[٥].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [٦].

خامساً: قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٧].

---

(١) غافر ١١.

(٢) فتح الباري جـ ٣ص ٢٣٢ باب عذاب القبر ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص ٢٠٢.

(٣) البقرة ١٤٥.

(٤) آل عمران ١٦٩.

(٥) إبراهيم ٢٧.

(٦) طه ١٢٤.

(٧) المؤمنون ٩٩، ١٠٠.

وأما الأحاديث فقد رويت عن أكثر من خمسة وعشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ تزيد على أربعين حديثاً، لا حاجة إلى ذكرها مرة ثانية، فقد بينت هذه الأحاديث في مجموعها؛ الذي بلغ حَدَّ التواتر المعنوي بثبوت عذاب القبر ونعيمه وسؤال منكر ونكير.

وبعد فقد لاحظنا على المعتزلة التناقض في بيان وقت العذاب والنعيم في القبر، كما بَيَّنَّا ذلك، على حين أننا لم نجد هذا التناقض في أدلة أهل السنة.

وإجمالاً نقول: لقد تبين بعد هذا العرض لأدلة المعتزلة، كما جاءت على لسان شيخهم القاضي عبد الجبار، ومناقشة الأدلة وموازنتها مع أدلة أهل السنة، أن المعتزلة يختلفون اختلافاً كبيراً عن أهل السنة في تصوير وإثبات الحياة القبرية، بل إنهم بتناقضهم بين تعيين وقت العذاب ونفيه كأنما هم قد أنكروا ذلك العذاب وتراجعوا عنه بعد إثباتهم له، وتبين أن لهم مسالك في الحياة القبرية؛ اختلفت عن مسالك أهل السنة كَمّاً وكَيْفاً وتقريراً.

- منكر ونكير وسبب تسميتهما ووصفهما:

اختلفوا في منكر ونكير: هل يأتيان الإنسان في قبره أم لا؟

١-فأنكر ذلك كثير من أهل الأهواء، ومنهم البلخي والجبائي(١).

٢-وثبته أهل الاستقامة(٢).

قال المنكرون: إن فيما تدعون من أن الله تعالى يبعث ملكين أحدهما منكر والآخر: نكير حتى يسألا صاحب القبر، ثم يعذبانه أو يبشرانه، وتسمية ملائكة الله تعالى بما لا يليق بهم، وبما يقتضي استحقاق الذم، وذلك مما لا وجه له(٣).

وأجيب أنه ورد في السمع من أن الله يرسل ملكين، يسمى أحدهما منكراً والآخر نكيراً، ولا شيء في ذلك، لأن هذا بمنـــزلة غيره من الألقاب التي لاحظ لها

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي: من أئمة المعتزلة، ورئس علماء الكلام في عصره، وإليه نسبة الطائفة الجبائية، وله مقالات وآراء انفرد بها، مات سنة ٣٠٣ هـــ/ وفيات الأعيان جـــ٤ ص٢٦٧.

(٢) مقالات الإسلاميين للبغداي جـــ٢ ص١٤٧، وانظر العقائد النفسية ص ١٣٢.

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٧٣٤.

في إفادة المدح والذم، والثواب والعقاب، وهو جار على طريقة العرب وتسميتهم أبناءهم وأعزهم بالصخر والكلب والذئب وغير ذلك، من غير أن يفيدوا به مدحاً ولا ذماً، بل لكي يقوم مقام الإشارة على ما هو موضوع التقليب وعلى أنا لو جعلنا هذا الاسم من الأسماء المفيدة، فإنه ليس يفيد قولنا: منكر أكثر من أن الغير لا يعرفه، وبأن لا يعرف شخص من الأشخاص ملكاً من الملائكة، ولم يدخل الملك في استحقاق الذم، وهكذا في قولنا: نكير[1].

ونحن نثبت هذه التسمية وغيرها مما ورد عن رسول الله ﷺ وقد أخبر عليه السلام بتسمية هذين الملكين بمنكر ونكير، وهو عليه الصلاة والسلام أدرى بما يليق في حق ملائكة الله، وصدق الله حيث قال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[2].

فلا عبرة بعد ذلك لدعوى الإنكار ممن أنكر هذه التسمية.

ثبوت سؤال الملكين:

وأما ثبوت سؤالهما فقد ورد في كثير من أحاديث الرسول ﷺ:

الحديث الأول: عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبيﷺ قال: "**المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله**"، **فذلك قوله:** ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابت في الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفي الآخرَة**﴾[3].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابت في الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفي الآخرَة**﴾ **نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيي محمد**"[4] متفق عليه.

الحديث الثاني: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله: "**إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان**

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣٤.

(٢) النجم ٣، ٤.

(٣) إبراهيم ٢٧.

(٤) فتح الباري باب عذاب القبر جـ٣ ص٢٣١ ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص ٢٠٣.

فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟" الحديث[١].

الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "**إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير**"[٢] الحديث.

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربي الله فيقولان له: ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: ما يدريك؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت**"[٣] الحديث.

الحديث الخامس: عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: "**استغفروا لأخيكم ثم سلوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل**"[٤].

الحديث السادس: عن البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه الرسول ﷺ: "**فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله**"[٥] الحديث.

وقال صاحب الجوهرة: وسؤالنا -أي سؤال منكر ونكير إيانا- معاشر أمة الدعوة، المؤمنين والمنافقين والكفار بعد انصراف الناس، واجب سمعاً وهو ظاهر الأحاديث[٦].

وبعد، فهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة التي أوردناها قد بينت في مجموعها سؤال الملكين للميت بعد موته، وبهذا تأكد ثبوت سؤال الملكين ووجوب اعتقاد

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص٢٣١، جـ١٧ ص٢٠٣.

(٢) رواه الترمذي: تحفة الأحوذي جـ٤ ص ١٨٣.

(٣) رواه أحمد جـ٤ ص٢٨٨، إسناده صحيح، انظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٨ باب عذاب القبر.

(٤) رواه أبو داود في باب الجنائز رقم ٣٢٢١، وانظر شرح السنة للبغوي جـ٥ ص ٤١٨.

(٥) رواه أحمد وغيره، الفتح الرباني جـ٧ ص٨٠، ٨٢ باب عذاب القبر.

(٦) شرح جوهرة التوحيد ص ٢٢٠.

ذلك.

سبب تسميتهما بمنكر ونكير:

لقد سُمِّيَا بذلك لكونهما على هيئة منكرة لم يعرف مثلها، والنكير بمعنى المنكور، يقال: نكرت الشيء بالكسر وأنكرته، وكلاهما ضد المعروف، وسُمِّيَا به لأن الميت لم يعرفها ولم ير صورة مثل صورتيهما(١).

وقال القرطبي: فلم سمي فتانا القبر بالمنكر والنكير؟فالجواب: أنهما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين، ولا خلق الملائكة، ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام، بل هما خلق بديع لا يأنس بهما أحد من الناظرين، ولكن الله يخلق عندهما اللطف والرحمة والستر للمؤمنين فضلاً منه تعالى، فيتشكلان لكل إنسان بشاكلة عمله واعتقاده(٢).

ونحن نقول: ومما يؤكد تشكيل الملكين بشاكلة عمل الميت واعتقاده، ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله تبتلى هذه الأمة في قبورها فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ يريد(٣) ﷺ من ذلك أن الله تعالى يرحم المؤمن ويلطف به في مثل ذلك الموقف العظيم، من هول مطلع الملكين عليه على هيئة لم يعهد مثلها.

- صفة الملكين:

لقد وصف الملكان بصفات كثيرة، منها الفتنة وسود العيون وزُرْقها، وكبر حجم تلك العيون، وتشبيهها بقدور النحاس، وإن لهما قرونا كقرون البقر، كما وصفهما بشدة هدير صوتيهما حتى إنه لشدته يشبه صوت الرعد، وأما الأحاديث التي أوردت تلك الصفات فمنهما:

أولاً: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ ذكر فتان القبور، فقال عمر: أترد علينا عقولنا يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) إرشاد الساري للقسطلاني جـ٢ ص ٤٦٣.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للقرطبي ص ١٤٥.

(٣) الفتح الرباني جـ٨ ص ١٠٧.

"**نعم كهيئتكم اليوم** " فقال عمر: بفيه الحجر[١].

ثانياً: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "**إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير**"[٢].

ثالثاً: وروي عنه أيضاً أنه قال: شهدنا جنازة مع نبي الله ﷺ فلما فرغ من دفنها وانصرف الناس، قال: "**إنه الآن يسمع خفق نعالكم، أتاه منكر ونكير، أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواقما مثل الرعد، فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن كان نبيه**" الحديث[٣].

ونلاحظ أن الملكين قد وصفا بصفات متعددة، وهذا التعدد والاختلاف لا يدل على شيء من التناقض، ولكنه دليل على ما أسلفنا من أن الله يشكل هذين الملكين على صورة تتفق مع إيمان الميت، واعتقاده قبل الموت، ونظراً لاختلاف أعمال البشر واختلاف عقائدهم، فإن هذين الملكين يختلفان تبعا لذلك.

- لغة سؤال الملكين:

هل السؤال باللسان العربي أم بغيره؟

ظاهر قوله: ما كنت تقول في هذا الرجل إلى آخر الحديث إنه باللسان العربي.

وقال الحافظ ابن حجر: [٤] يحتمل مع ذلك أن يكون خطاب كل أحد بلسانه ويستأنس له بإرسال الرسل بلسان قومهم.

عن الإمام البلقيني[٥] إنه بالسريانية[١].

---

(١) المصدر السابق جـ٨ ص١٠٧.

(٢) تحفة الأحوذي جـ٤ ص١٨٤، انظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٨.

(٣) رواه الطبري في الكبير، مجمع الزوائد جـ ٣ ص٥٤ وقال صاحب الفتح الرباني فيه ابن لهيعة وفيه كلام جـ ٨ص١١٦ .

(٤) هو علي بن أحمد بن محمد الكناني العسقلاني، ابن حجر من أئمة العلم والتاريخ، رحل إلى اليمن والحجاز وغيرها لسماع الشيوخ وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وولي القضاء على مصر عدة مرات، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ/دائرة المعارف الإسلامية جـ١ ص١٣١.

(٥) هو عمر بن رسلان بن نصير الكناني البلقيني المصري الشافعي مجتهد حافظ للحديث، من العلماء بالدين ولي القضاء بالشام سنة ٧٦٩ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٥ هـ.الأعلام، جـ٥ ص٢٠٥.

وأما من ذهب إلى السؤال بلغة خاصة كالسريانية مثلاً، فهذا تكذبه أحاديث السؤال، من ربك وما دينك..الخ، غاية ما في الأمر أننا لا نستطيع أن نقول: إن السؤال مطلقاً لكل أمة بلغة العرب ونستدل بهذا الحديث، بل إن هذا الحديث إنما يتحدث عن مقبورين مسئولين عرباً، فلا ينافي أنه لو كان المسئول غير ذلك لكان بلغته وهذا هو الظاهر.

ولعل من ذهب إلى تخصيص لغة معينة لسؤال الملكين من عربية أو سريانية كان متأثرًا بموجة الشعوبية التي اجتاحت البلاد الإسلامية في بعض فترات التاريخ، فجعلت كل فريق يتعصب لقومه ولغته، ويَنسِبُ إليها أموراً دينية تمييزاً لها عن غيرها من اللغات.

- موضوع سؤال الملكين:

أما موضوع سؤال الملكين فقد صرحت به الأحاديث الصحيحة التي أوردناها آنفا ومنها:

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: "**وفيه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله**"(٢) الحديث متفق عليه.

الحديث الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "**وفيه: فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله** " الحديث(٣).

الحديث الثالث: عن البراء بن عازب -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: "**يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله**

=

(١) إرشاد الساري جـ٢ ص٤٦٥.

(٢) فتح الباري جـ٣ ص٢٣١ باب عذاب القبر ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٣.

(٣) رواه الترمذي انظر تحفة الأحوذي جـ٤ ص١٨٣.

فآمنت به وصدقت، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[١] الحديث[٢].

وبعد، فقد تبين لنا من خلال هذه الأحاديث ثبوت سؤال الملكين للميت عن ربه، ودينه، ونبيه، وعن الأساس الذي اعتمد عليه في تلك المعلومات في الإجابة عنها، وقد مر معنا أن الكافر والمنافق لا يستطيعان الإجابة عن هذه الأسئلة في الحياة الدنيا قبل الموت، وهو الإيمان بالله تعالى، وبرسالة الرسول ﷺ.

- نتيجة سؤال الملكين:

لقد وَضَّحَت الأحاديث الصحيحة نتيجة سؤال الملكين ومنها:

الحديث الأول: ما روى عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قوله ﷺ وفيه: **"فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً في الجنة، فيراهما جميعاً"** الحديث.

وهذه نتيجة سؤال المؤمن، وأما نتيجة المنافق والكافر فقد ورد ذكرها في الحديث أيضاً: **"وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لادريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعه من يليه غير الثقلين"**[٣] متفق عليه.

الحديث الثاني: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال بعد سؤال المؤمن: **"ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه، ثم يقال له نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك"** الحديث.

وأما نتيجة المنافق فقد ذكرها ﷺ في هذا الحديث أيضاً فقال: **"فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك "**[٤].

(١) إبراهيم ٢٧.
(٢) رواه أحمد جـ٤ ص٢٨٨ وانظر مشكاة المصابيح جـ١ ص ٤٨.
(٣) فتح الباري جـ ٣ ض٢٣١ باب عذاب القبر، ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٣١١.
(٤) رواه الترمذي انظر تحفة الأحوذي جـ٤ ص١٨٣.

الحديث الثالث: فيما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه، بين الرسول ﷺ كذلك نتيجة كل من المؤمن والكافر بعد سؤالهما، فأما المؤمن قال: "**فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوا من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، ويفتح، قال: فيأتيه مناد من روحها وطيبها ويفسح له فيها مد بصره**". وأما الكافر "**فينادي مناد من السماء أن كذب فأفرشوه من النار، وألبسوا من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، قال: فيأتيه من حرها وسمومها، قال: ويضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه، ثم يقيض له أعمى أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل صار تراباً، فيضربه ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير تراباً، ثم يعاد فيه الروح**"(١).

وفي رواية أخرى لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، ذكر النبي ﷺ نتيجة سؤال الكافر فقال: "**يسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل غرب البعير تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه** "(٢).

ويتضح لنا من خلال الأحاديث التي ذكرت، أن نتيجة سؤال الملكين للمؤمنين أن يأتيهم من الجنة ونعيمها ما يجعلهم في أمن وطمأنينة إلى يوم الدين وأن نتيجة المنافقين والكافرين لما يسألون ما يأتيهم من حر النار والألوان الفظيعة من العذاب والاضطراب إلى يوم الدين، فقد صورت لنا هذه الأحاديث، ألواناً من النعيم والعذاب تعقب الانتهاء من سؤال الملكين، تثبت في مجموعها نتيجة طيبة لمن أراد الله تعالى لهم التثبيت، ونتيجة هائلة مفزعة لمن أراد الله تعالى لهم الخذلان، وهذه النتائج مرتبطة بما أدى أصحابها من أعمال في حياتهم الدنيا، وماتوا وهم عليها اعتقاداً وعملاً.

فإن قيل: إن الأحاديث قد اختلف في تصوير النعيم والعذاب للميت عقب السؤال، قلنا: إن الناس مختلفون في النعيم والعذاب اختلافهم في أعمالهم إيماناً وكفراً، وطاعة ومعصية، قلة وكثرة، فالأحاديث تصور أحوالاً مختلفة، بل في هذا الاختلاف

---

(١) رواه أحمد جـ٤ ص٢٨٨ وانظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٨.
(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح انظر الفتح الرباني جـ٨ ص١١٤.

شهادة حقة لما ندعي من ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

هل السؤال خاص بهذه الأمة؟

وقد اختلف في سؤال منكر ونكير، هل هو خاص بهذه الأمة، أو يكون لها ولغيرها؟:

١-منهم من قال: إنه خاص بهذه الأمة، واعتمدوا فيما ذهبوا إليه على قوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**"(١).

وبقوله ﷺ "**أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم**" الحديث.

وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة، قالوا ويدل عليه قول الملكين له في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "**ما كنت تقول في رجل؟**"(٢).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: "**ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**"(٣).

٢-وقال آخرون: لايدل هذا على اختصاص السؤال، وإنما هو إخبار بأنهم مسئولون في قبورهم.

قد دل على هذا العموم القرآن والسنة:

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ**﴾ وقد ثبت أنها نزلت في عذاب القبر، حين يسأل: من ربك وما دينك ومن نبيك؟..(٤)

وأما السنة فقد روي في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم**" وذكر الحديث زاد البخاري: "**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟**" الحديث(٥).

---

(١) مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص ٢٠٣.

(٢) فتح الباري جـ٣ ص٢٣١ باب عذاب القبر، ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص ٢٠٣.

(٣) رواه أحمد جـ٤ ص٢٨٨ وانظر مشكاة المصابيح جـ١ ص٤٨.

(٤) كتاب الروح لابن القيم ص٨٦ والحديث متفق عليه.

(٥) الحديث متفق عليه انظر فتح الباري جـ٣ ص٢٣١ باب عذاب القبر ومسلم بشرح النووي ص١٧ ص٢٠٣.

وكذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ فقال: "**يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاءه ملك وفي يده مطراق فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له صدقت، فيفتح له باب إلى النار فيقول: هذا منزلك لو كفرت بربك، وأما الكافر والمنافق فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري! فيقال لا دريت ولا اهتديت**" الحديث(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل "**وأما الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح**" وذكر الحديث(٢)(٣).

ويتضح لنا أن ما ذكره الجمهور من الأحاديث على عموم السؤال، إنما هو تصوير لما تكون عليه هذه الأمة، وأما الدلالة على حصول مثل هذا السؤال على بقية الأمم بهذه النصوص فلا صحة له، لأنها خاصة في مؤمني هذه الأمة وكفارها، أي أمة الدعوة، فلم يبق دليل يعتمد عليه في إفادة العموم إلا الآية، وهو قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ فهي قد أفادت عموم السؤال لمؤمني وكفار كل أمة، ولا أمة محمد ﷺ فقط، بدليل السياق، فإنه قبل ذلك قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾(٤) وهذا مثل عام لا يختص بأمة محمد ﷺ دون غيرها.

---

(١) رواه أحد في مسنده جـ٣ ص٣.

(٢) رواه أحمد وغيره انظر الفتح الرباني جـ٧ ص ٨٠-٨١.

(٣) كتاب الروح لابن القيم ملخصاً من ص ٨٤ -٨٧ وانظر إرشاد الساري جـ٢ ص٥٦٣.

(٤) إبراهيم ٢٤، ٢٦.

وأما ما استدل به القائلون بتخصيص الفتنة في القبر بالحديثين السابقين "**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**" و"**أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم**" فإن الحديث الثاني لا دلالة فيه على الاختصاص، وأما الحديث الأول فإنه مجرد إخبار عن فتنة هذه الأمة، فلا ينافي فتنة غيرها من الأمم، فيكون بذلك قد ثبت ما ذهب إليه الجمهور من أن السؤال عام، وليس خاصاً بأمة الدعوة فقط، والله أعلم.

الأقوال في سؤال الطفل:

اختلف العلماء في سؤال الأطفال في القبر على قولين:

- القول الأول:

ذهب جماعة إلى أنهم يفتنون ويمتحنون، وهم جمهور العلماء منهم أبو حكيم الهمذاني وأبو الحسن بن عبدوس، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره، وهو ما ذهب إليه أحمد بن حنبل(١).

١-استدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ صلى على جنازة صبي فسمع من دعائه: "**اللهم قه عذاب القبر**"(٢) وهذا دليل على أنه يفتن.

٢-وقالوا كذلك: والدليل على أنه يسأل بعد الموت العمومات أي الأدلة العامة التي تتناول البالغين والأطفال -ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة على الميت: "**اللهم اغفر لحينا ولميتنا وشاهدنا وغائبنا وذكرنا وأنثانا وصغيرنا وكبيرنا**"(٣).

٣- كذلك ما روي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال "**لو كان أحد نجا من ضغطة القبر لنجا هذا الصبي**"(٤).

٤-واستدلوا كذلك بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ وهو بالموت، فدخل عليه، فقعد عند رأسه

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ٤ ص ٢٥٧ وانظر الروح لابن القيم ص٨٧.

(٢) الحديث من رواية سعيد بن المسيب.شرح الموطأ جـ٢ ص٢٦٠.

(٣) النكت والفوائد على شرح العقائد للبقاعي ص٧٧.

(٤) النكت والفوائد على شرح العقائد للبقاعي ص٧٧.

فدعاه إلى الإسلام، وفي رواية: فقال له النبي ﷺ: "**يا غلام، قل: لا إله إلا الله**" وفي رواية "**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**" فنظر الغلام إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه: أطلع أبا القاسم، وفي رواية: قل ما يقول لك محمد، فأسلم.

وفي رواية فقال الغلام: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله" ثم مات، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: "**صلوا على أخيكم**" فخرج ﷺ من عنده وهو يقول: "**الحمد لله الذي أنقذه**" وفي رواية: "**أخرجه بي من النار**"(١).

وقد جزم القرطبي بسؤال الصغير، وأنهم كالبالغين، وأن العقل يكمل لهم، ليعرفوا بذلك مترلتهم وسعادهم، ويُلهمون الجواب عندما يسألون عنه، هذا ما يقتضيه ظاهر الأخبار، وقد جاء أن القبر ينضم عليهم كما ينضم على الكبار(٢).

- القول الثاني:

وذهب جماعة إلى السؤال في القبر لمن يعقل، فلا يمكن سؤال الطفل والحالة هذه، وكذلك لم يقم الطفل بشيء من العمل حتى ينعم أو يعذب من أجله، فكيف يسأل عما لم يتمكن من معرفته وعما لم يعمل؟ ولا فائدة من هذا السؤال، ومن القائلين بهذا القول القاضي أبو يعلى(٣)، وابن عقيل(٤)، وغيرهما(٥).

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ صلى على جنازة صبي، فسمع من

---

(١) فتح الباري جـ٣ ص٢١٩ كتاب الجنائز.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للقرطبي ص ١٤٥.

(٣) هو محمد بن الحسين بن محمد أبو يعلى، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون، من أهل بغداد، ارتفعت مكانته عند القادر والقائم العباسيين، وولي القضاء، ولكنه امتنع ولما التزم الخليفة بشروطه وافق على القضاء، توفي في بغداد سنة ٤٥٨ هـ/ تاريخ بغداد جـ٢ ص٢٥٦.

(٤) هو علي بن عقيل البغدادي الظفري، ويعرف بابن عقيل، عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في عصره، كان قوي الحجة، اشتغل في مذهب المعتزلة في حداثته، وكان يعظم الحلاج، وأراد الحنابلة قتله ثم أظهر التوبة، مات سنة ٥١٣ هـ/الأعلام جـ٥ ص١٢٩.

(٥) مجموعة الفتاوى لابن تيميه جـ٤ ص٢٥٧ وانظر الروح لابن القيم ص٨٧.

دعائه: "**اللهم قه عذاب القبر**"، فليس معناه حصول العذاب المترتب على العمل، إذ لا عمل للطفل في الحياة الدنيا، ولكن المقصود به الألم الذي يحصل للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله، ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل فيتألم به، فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله تعالى أن يقيه عذاب القبر(١).

وقيل: يحتمل أنه قال ذلك على عادة في الصلاة على الكبير، أو دعي له على معنى الزيادة، كما كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تدعوا الله أن يرحمها وتستغفره(٢)، ورأينا في هذا المقام يقتضي الحديث في ناحيتين:

الأولى: نقرر فيها أن السؤال والعقاب والمؤاخذة إنما هو بناء على التكليف، وحيث أن الصبيان ليسوا مكلفين إجماعاً فهم بمعزل عن كل آثار التكليف، نعم إذا أراد الله تنعيمهم قليلاً أو كثيراً، فهذا ليس بناء على أعمال وطاعات أدوها، بل هذا تفضل منه سبحانه، وأما التبعات الأخرى من السؤال والعقاب فليس بمعقول أن يلقى الصبية شيء من ذلك؛ لأنهم غير مكلفين يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ (٣) وقال ﷺ: "**رفع القلم عن ثلاث المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ** "(٤).

الثانية: أما ما احتج به المخالفون لهذا الرأي من الأحاديث فنوضحه على الوجه الآتي:

الحديث الأول: وهو قوله ﷺ في صلاته على الصبي: "**اللهم قه عذاب القبر** "فلعل المتمسك بهذا الحديث يظن أن الدعاء بالوقاية من العذاب يقضي أن المدعو له عرضة للعذاب، أو يجوز عذابه، لكنا نقول هذا الاقتضاء ممنوع، وسندنا في هذا:

أولاً: ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يستغفر الله كثيراً، وذلك في حديث أبي

---

(١) الروح لابن القيم ص٨٨.
(٢) شرح الموطأ للزرقاني جـ٢ ص١٢٠.
(٣) الإسراء ١٥.
(٤) رواه البخاري في كتاب الحدود فتح الباري جـ١٢ ص١٢٠.

هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة** "(١).

فإذا كان النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو مع ذلك يستغفر الله تعالى، وما الغفران إلا طلب المغفرة، مع أنه ﷺ مغفور له مطلقاً، فعلى هذا يمكن أن يكون مراد النبي ﷺ بهذا الدعاء للصبي، التهويل والتخويف من عذاب القبر حتى أشفق عليه الصلاة والسلام على الأطفال من هذا العذاب بحكم مجاورتهم لمن يعذبون.

وخلاصة القول: أن النبي ﷺ أراد التهويل والتخويف من عذاب القبر لدرجة أنه دعا للأطفال بالوقاية منه، وإن لم يكونوا عرضة لهذا العذاب، ويحتمل أن يكون كما ذهب إليه شارح "الموطأ" من أن ذلك على العادة في الصلاة على الكبير.

وأما الحديث الثاني فهو قد أراد التهويل أيضاً –حديث أنس بن مالك –وعموماً فقد أجاب ابن القيم جواباً شاملاً حيث قال ما حاصله: أن ما في القبر من الهموم والحسرات والآلام، ما قد يسري أثره إلى الطفل بحكم المجاورة، فربما يتوهم أنه يناله شيء من هذا العذاب.

وأما حديث الغلام اليهودي الذي أسلم فليس في الحديث المذكور دلالة صريحة على أن ذلك الغلام لم يبلغ سن التكليف، فهو والحالة هذه لا يمكن أن يعتبر دليلاً على سؤال الطفل، وكذلك فإن قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ**﴾(٢) يدل على أن هذا التثبيت للمستحق إنما يكون بعد الإيمان الذي حصل منه قبل الموت، والإضلال للمستحق إنما يكون كذلك بعد إعراضه عن الإيمان قبل الموت، وهذه الأحوال لا يمكن للأطفال أن يتصفوا بها ويعتقدوا بها قبل بلوغهم، والله أعلم.

الأقوال في سؤال الأنبياء:

اختلف في سؤال الأنبياء على قولين:–

---

(١) فتح الباري جـ١١ ص١٠١ باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) إبراهيم ٢٧.

الأول: أنهم يسألون كغيرهم، ومن هؤلاء ابن عبد البر، وقال بأن الآثار تدل على أن الفتنة لمن كان منسوباً إلى أهل القبلة، وأدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (٢).

الثاني: أنهم يسألون، وقد ذهب صاحب الجوهرة إلى مثل ذلك، وقال: ومن باب أولى عدم سؤال سيدهم محمد ﷺ(٣).

ونحن نقول: لا نستطيع الجزم بسؤالهم صلوات الله وسلامه عليهم وذلك لعدم وجود الدليل على ذلك، وأما ما استدل به أصحاب القول الأول فليس صحيحاً في إثبات السؤال في القبر؛ لأن السؤال الذي تقرره الآيات إنما يكون يوم القيامة وليس في قبر، والله أعلم.

نوع النعيم والعذاب في القبر:

ذكر الغزالي أن في القبر ثلاثة أنواع من العذاب هي:-

الأول: حرقة فرقة المشتهيات: فصورته المستعارة من عالم الحس والتخييل هي ذلك التنين الذي وصف الشرع عدد رؤوسه، وهي بعدد الشهوات تلدغ في صميم الفؤاد لدغاً مؤلماً، على أن هذا اللدغ كان حاصلاً لهذا الإنسان في الحياة الدنيا، غير أنه لا يحس به، وكلما كان الإنسان مالكاً لأمور الدنيا، غارقاً في أحوالها، كان عدد رؤوس التنين الذي يلدغه عند موته أكثر، وكلما كان الإنسان متخلياً عن أمور الدنيا معرضاً عنها، كان عدد رؤوس هذا التنين بالنسبة إليه قليلاً.

الثاني: خزي خجلة المفضحات: إن الإنسان الذي اقترف السيئات في حياته الدنيا غير متأثر بها، أو مكترث بنتائجها، فإنه بعد الموت يحترق قلبه حزناً يوم القيامة وخجلاً، وما كان يعتقد حسنه قبل الموت، يراه أكثر قبحاً وقذارة بعد الموت، فيحس بالخزي والخجل من حبه له، وتمسكه به بعد ظهور حقيقته، وضرب أمثلة

---

(١) الأعراف ٦.

(٢) الحجر ٩٢.

(٣) الفتح الرباني جـ٨ ص٨٥ وانظر مجموعة الفتاوي لابن تيميه جـ٤ ص٢٥٧.

على ذلك، منها: أن الإنسان المتقلب في أنواع شتى من النعيم في حمى ملك من الملوك، يتعدى على حرمه وينتهك أعراضه، ظناً منه أن الملك لم يكن على علم بهذه الأعمال التي كان يعملها، فيحس بالخزي العظيم والفضيحة الهائلة تجاه ذلك عندما يعلم أن الملك كان يراقب جميع أعماله.

الثالث: حرقة فوت المحبوبات: فالإنسان متقلب في شتى أنواع الملذات، وهي محببة إلى قلبه، وهو عندما يفوته شيء من هذه الأمور التي كان يظن أنه لا قيمة لها، ثم يتبين له بعد ذلك أهميتها، فيزداد حسرة وألماً على فوتها فيقول عند ذلك: يا حسرتا على ما فرطت، وهكذا كلما تبين له أمر من الأمور المحببة إلى نفسه، المهمة إليها، يتألم لعدم حصوله عليها، ويشتد عليه الألم وتعظم عليه المصيبة حين يترك هذه المحبوبات، ويفارقها بالموت، فيتحول إلى غيره بعد أن كان المتصرف بها دون غيره ا.هـ ملخصاً[1].

ونحن نقول: إن أحوال القبر من الأمور الغيبية التي لا يعتمد فيها إلا على السمع، وإذا أردنا أن نتحدث عن نوع العذاب أو النعيم في القبر، فيجب علينا أولاً: أن مثبت من صحة السند، وثانياً: أن نحمله على ظاهره دون تأويل، فالغزالي اعتقد في النوع الأول على ما ورد في السمع من أن هناك تنيناً ولكنه لم يحمل هذا السمع على ظاهره، بل تأوله بألم ما ارتكبه من المعاصي وما فيها من سخف.

ونلاحظ عليه:

أولاً: أن الحديث الذي استند عليه في وجود التنين غير صحيح، فإنه روي من طريق دراج عن أبي الهيثم وهو ضعيف، وروي الحديث كذلك من طريق آخر، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف أيضاً،[2] وبالتالي فإنه لا يصلح الاحتجاج به.

ثانياً: وعلى فرض صحة ذلك فإن الواجب حمله على ظاهره دون تأويل.

وأما النوع الثاني من أنواع عذاب القبر الذي ذهب إليه الغزالي، فمن الجائز حصول هذا العذاب، لكن لا يصح إثباته بدون نقل صحيح، ولم يأت الغزالي بهذا

---

(١) انظر كتاب الأربعين للغزالي ص ٩٣، ٩٥.

(٢) انظر الفتح الرباني جـ٨ ص ١١٦، ١٣٧.

النقل.

وأما النوع الثالث من العذاب، فمن الجائز أيضاً حصوله، لكن لا يصح بدون دليل كذلك، بالجملة فقد حصر الغزالي عذاب القبر في هذه الأنواع الثلاثة، وغير خاف عليك أنها كلها من قبيل العذاب الروحي، ونحن لا ننكر مثل هذا إذا صح النقل فيه، لكن قصر العذاب على الروح غير صحيح، فمذهب السلف أن عذاب القبر مادي مع تجويز العذاب الروحي، وعلى هذا فإن ما ذهب إليه الغزالي لا يصح، اللهم إلا إذا كان غرضه بيان أنواع العذاب الروحي مع الاعتقاد بأن وراء ذلك عذاباً مادياً.

وبعد، قد بين القرآن الكريم أنواعاً من النعيم وألواناً من العذاب، فمنها:

الأول: حياة الشهداء وما فيها من نعيم مقيم، ورزق، وسرور، واستبشار، حيث قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم**﴾[(١)].

فقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة نوعاً من أنواع النعيم، وهو الفرح والسرور والاستبشار، وأما الرزق فقد جاء حكمه عاماً.

الثاني: الإحراق بالنار والعرض عليها حتى تقوم الساعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾[(٢)]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾[(٣)]. فهذه الآيات قد بينت نوعاً من العذاب وهو الإحراق بالنار.

وأما السنة: فقد بينت كذلك هذه الألوان من النعيم والعذاب في الحياة القبرية، وفيها أن الميت يري مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، أو النار، كان من أهل النار، واتساع القبر وإنارته، وفرشه من الجنة، وتنعيم صاحبه المؤمن فيه إلى يوم

---

(١) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

(٢) المؤمن: ٤٥.

(٣) نوح ٢٥.

القيامة، وضيق القبر واختلاف أضلاع صاحبه الكافر فيه، وضربه بمطارق من حديد، وصياحه من ذلك الضرب، وهول مطلع الملكين عليه، وفرش قبره من النار، وإتيانه من حرها وسمومها وما إلى ذلك من صنوف العذاب إلى يوم القيامة(١).

هذا وقد ثبت من بعض الآيات والأحاديث السابقة ألوان من نعيم أو العذاب لمن يستحق ذلك جزاء وفاقاً على ما قدموا من خير أو شر، كفر أو إيمان طاعة أو معصية، هذا النعيم وذاك العذاب، قد حجبه الله عن إدراك الناس، كما بينا سابقاً، رحمة بالبشر واستقامة للتكليف، فليس لأحد أن يحدد هذه الأمور الغيبية، ويؤولها تأويلاً لم يقم عليه دليل، مدعياً أنه توصل إليها بالمكاشفة(٢) وما إلى ذلك من الأمور التي لا يتحدث عنها ولا يكشفها إلا كتاب أو السنة.

- أسباب عذاب القبر ونعيمه:

أسباب النعيم عموماً الإيمان والطاعة، وأسباب العذاب الكفر والمعاصي إلا أن بعض المعاصي قد يغفرها الله تعالى لبعض الناس، فلا يعذبهم بها في القبر، ولكن رغم هذا فقد أوردت بعض النصوص من الكتاب والسنة بعضاً من هذه الأسباب، من ذلك ما ذكره البيهقي(٣).

أولاً: عذاب القبر من البول والنميمة، وذلك كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: "**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، أما أحدهما فكان يسعى بين الناس بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله**"(٤) متفق عليه.

ثانياً: عذاب القبر من النياحة على الميت، وذلك في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**" **وفي رواية أخرى "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه"** وقد قيد بعض العلماء هذا العذاب

---

(١) نظر الأحاديث الواردة في نعيم القبر وعذابه من ص٤٣، ٥٥ .

(٢) هذا ادعاء الغزالي في كتابه الأربعين ص٩١.

(٣) كتاب عذاب القبر للبيهقي ص ٤٩، ٥٢.

(٤) فتح الباري جـ٣ ص ٢٤٢ كتاب الجنائز، ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٢.

بوصية الميت لأهله، كما كانت تفعل العرب في الجاهلية(١).

ثالثاً: عذاب القبرْ من الغلول: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: فتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ثم انصرفنا مع الرسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبد له يقال له: (مدعم) أهداه له بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ، إذ جاءه سهم عائر، حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: "**بلى والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً**"، فجاء -رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ- بشراك أو بشراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ: "**شراك أو شراكان(٢) من نار**".

ويرى ابن القيم: أنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت لأوامره واجتنبت نواهيه، ولابدناً كانت فيه أبداً، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة، أثر سخط الله وغضبه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في الدار، ثم لم يتب ومات على ذلك، كان له عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب(٣).

ويتضح لنا بعد ذلك أن هذه الأسباب التي ذكرها البيهقي، ليست هي جميع أسباب عذاب القبر، فإن أسباب عذاب القبر أكثر من ذلك بكثير فمعصية الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ هي جماع الأسباب كلها.

- هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟

أجاب ابن القيم بأن عذاب القبر من حيث الدوام والانقطاع نوعان:

الأول: نوع دائم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾(٤).

---

(١) فتح الباري جـ١٥٤-١٥٣.

(٢) فتح الباري جـ٧ ص ٤٧٨ كتاب المغازي، وعائر: غير معروف المصدر.

(٣) الروح لابن القيم.

(٤) غافر ٤٦.

وحديث سمرة بن جندب[١] -رضي الله عنه - وفيه رؤيا النبي ﷺ وفيه: "**فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة** "[٢].

وحديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في قصة الجريدتين: "**لعله يخفف عنهما مالم ييبسا** " فجعل التخفيف مقيداً برطوبتهما فقط[٣].

وحديث البراء بن عازب -رضي الله عنه- في قضية الكافر: "**ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم القيامة** "[٤].

الثاني: إلى مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه العذاب بدعاء، أو صدقة، أو استغفار، أو ثواب أو حج، أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم"[٥].

هذا ما ذكره ابن القيم ويتضح لنا فيه ما يلي:

أولاً: أنه ذكر ضمن الاستدلال على دوام عذاب القبر حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، والمتقدم في قصة الجريدتين، وهذا الدليل لا يدل على دوام العذاب.

ثانياً: أنه لم يتعرض لحال النعيم هل هو دائم أو منقطع، أم ماذا؟.

وكنا نرقب منه بيان ذلك، لأنه إذا بين حال العذاب فلابد أن يمر بخاطره حال النعيم، فكيف سكت عن بيان حال النعيم؟

ثالثاً: أنه جزم بانقطاع بعض العذاب وهي الفقرة الأخيرة من مقالته،

---

(١) سمرة بن جندب الفزاري كان من حلفاء الأنصار، استصغره الرسول صلى الله عليه وسلم للجهاد في سبيل الله ثم قبله لما رأى قوته وصلابة عوده، نزل بالبصرة وعرف بشدته على الخوارج ومات رضي الله عنه إثر سقوطه في قدر مملوء بالماء الحار، وكان ذلك سنة تسع وخمسين للهجرة /الإصابة جـ٢ ص٧٩.

(٢) فتح الباري جـ١٢ ص ٤٣٨ كتاب التعبير.

(٣) الحديث متفق عليه انظر فتح الباري جـ٣ ص٢٤٢ كتاب الجنائز، ومسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٢.

(٤) رواه أحمد في مسنده جـ٤/ص٢٨٧ وأبو داود (٤٧٥٣) .

(٥) انظر كتاب الروح لابن القيم ص٧٧.

لكنه لم يذكر سنداً بصحة هذه السببية!!

ونحن إذ نتحدث عن دوام النعيم أو انقطاعه، نجد في كتب السنة من الأحاديث ما يدل على دوام هذا النعيم منها: حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**"(١).

أما انقطاع النعيم فلا نجد في الكتاب والسنة فيما نعلم ما يشهد بانقطاع النعيم، والظاهر أنه لا ينقطع كما ينقطع العذاب؛ لأن موجبة وهو الإيمان والطاعات ثابت، فكما أن الكفر اقتضى العذاب الدائم، فكذلك الإيمان يقتضي النعيم الدائم، فنقول والله أعلم أن نعيم المؤمن لا ينقطع.

وخلاصة القول: أن الله تعالى أخبرنا عن ألوان من النعيم والعذاب الدائم وذكر لنا رسول الله ﷺ ألواناً أخرى من العذاب المنقطع، إلى غير ذلك من هذه الأمور، فهي من العلم الذي استأثر به الخالق سبحانه، وجعله ضمن مشيئته حيث قال جل وعلا: ﴿**فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (٢)، فمن يشاء الله تعالى دوام تعذيبه عذبه ومن يشاء الله تعالى تعذيبه إلى مدة ثم يرفع عنه العذاب كتب له ذلك.

- **هل تعود الروح إلى الميت في قبره أم لا؟**

جرى بعض علماء العقائد على أن يذيلوا مباحث الحياة القبرية بخاتمة تناولوا بها هذا البحث: هل الحياة القبرية تقتضي عودة الروح؟فإذا أثبتنا حياة في القبر لزم أن تعود الروح إلى الميت أو لا تقتضي هذا، فلا يجب أن تعود الروح إلى من أحيي في قبره.

قال صاحب المقاصد: "إن الحياة التي تقتضي عودة الروح إلى الحي إنما هي الحياة الكاملة المعهودة كحياتنا في الدنيا، أما الحياة المعهودة التي أثبتها الشرع للأموات في

---

(١) فتح الباري جـــ٣ ص ٢٣١ كتاب الجنائز، مسلم بشرح النووي جـــ١٧ ص٢٠٠.
(٢) البقرة ٢٨٤.

القبور، فهي حياة محددة بالشعور بالنعيم أو العذاب، فلا تقتضي عودة الروح"(١).

وقال ابن القيم: "إن عرض مقعد الميت عليه من أهل الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر، ولا فنائه دائماً من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإن للروح شأناً آخر، تكون في الرفيق الأعلى، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه، فيرد عليه السلام وهي في الملأ الأعلى، وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً، لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض، فهذه روحه ﷺ، تكون في الرفيق الأعلى دائمًا ويردها سبحانه وتعالى إلى القبر لترد السلام على من سلم"(٢).

ونحن نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد سوى بين النائم والميت في إمساك روحيهما في قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾(٣).

وهذا قطع للروح عن البدن، لأن توفية روح الميت قطع روحه وفصلها عن بدنه، فإذا ما قرن الميت بالنائم في هذا الحكم وهذه التوفية، فقد قطع علاقة روح النائم عنه.

ثم إن النائم فيه حياة قطعاً للفرق بينه وبين الميت، لكن مع هذا هي حياة محدودة ليست كحياة المستيقظ.

إذاً نستطيع أن نقول من جميع ما سبق إلى أن الحياة الناقصة كحياة النائم لا تتوقف على عودة الروح، لأن الله تعالى يقول: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾، وأن الميت في قبره رغم أنه ميت، وقد ثبت بالكتاب والسنة أن فيه حياة قدر حياة ما يتنعم يتألم، لكن رغم ذلك فهي حياة محدودة كالنائم، إذن فلا يجب عودة الروح إلى هذه الحياة كما هو المعهود، وقد صح بهذا ما

---

(١) شرح المقاصد للتفازاني ملخصاً جـ٢ ص٢٢٢.
(٢) الروح لابن القيم ص ١٠١.
(٣) الزمر ٤٢.

ذهب إليه صاحب المقاصد من أن الحياة المحدودة لا يجب أن تعاد الروح إليها.

وخلاصة القول: أن الحياة القبرية حياة محدودة وقد جرى الخلاف في أنه هل تعود الروح إليها أم لا؟ ونحن نقول: إنه لا يجب عود الروح إلى الحياة المحدودة وسندنا في هذا قوله تعالى: ﴿ **اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾... الآية.

إن النائم حي قطعاً والله قد سوى بينه وبين الميت في أنه يتوفى نفسيهما وقد فرق الله بينهما بأن من قضى عليه الموت لا يرسل روحه إليه، أما من لم يقض عليه الموت، كالنائم يرسل روحه إليه، فالآية بهذه المعاني الواضحة تبين بأن النائم لم تكن روحه متصلة به، بل قد توفاها الله، فإذا لم يقض عليه بالموت يرسلها إليه دون من قضى عليه بالموت يرسلها إليه دون من قضى عليه بالموت، فتوفي روح النائم، ثم إرسالها إليه يؤكد بأنها كانت منقطعة عنه، إذا كان الأمر كذلك في النائم فالحياة القبرية في حدودها الضيقة وهي الشعور بالعذاب أو النعيم لا تقتضي عودة الروح إليها وأما ما ورد من عودة الروح بعد الموت، فهذا لا ينافي ما حققناه، لأن ما حققناه هو عدم وجوب عودة الروح، وعدم وجوب العودة لا ينافي العودة في الواقع، بل الذي ينافيه امتناع عودة الروح.

- **الأقوال في الروح:**

لم يفت العلماء السابقين البحث في موضوع الروح، وقد انحصر البحث فيها في رأيين:

الرأي الأول: أنها من قبيل الماديات، غاية الأمر أنها مادة شفافة أرق من الهواء، بل هي أرق من الأثير، تسري في البدن سريان الماء في العود الأخضر، ومن بين أصحاب هذا الرأي إمام الحرمين[(١)] محتجين بأنها لو كانت مجردة عن المادة لشاركت الله تعالى.

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف محمد الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، لأنه جاور في مكة المكرمة والمدينة المنورة أربع سنين يدرس ويفتي، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين من نواحي نيسابور سنة ٤١٩، ورحل إلى بغداد وبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، وله مصنفات منها: العقيدة النظامية، والإرشاد في أصول الدين، ومغيث الخلق في الأصول، توفي سنة ٤٧٨ هـــ/وفيات الأعيان لابن خلكان جـــ٣ ص١٦٧.

الثاني: أنها مجردة عن المادة؛ لأنها تتصف بصفات لا تتصف بها المادة كالإرادة والحب والبغض والعلم والإيمان، وكل هذه الخواص لا يعقل أن تكون للمادة أصلاً بسيطة كانت أو مركبة، إنما هي خواص لما ليس مادياً، ويكاد يكون هذا الرأي هو الأقرب للصواب.

وبعد، فقد يعترض معترض بقوله: كيف يجري هذا البحث بين العلماء ولاسيما علماء الإسلام وقد حسم الله تعالى في كتابه البحث في الروح فقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ ؟[1].

قلنا: إن ما جرى فيها من البحث لم يهدف إلى بيان حقيقتها، بل ذلك من أمر الله تعالى، وإنما جرى البحث في أوصافها، ومن أي جنس من الأجناس هي؟ فغاية الباحثين إنما هي التعرف عليها إجمالاً، أما ما أشارت إليه الآية من تعذر معرفتها، فإنما هو خاص بحقيقتها وإلا فكلنا يعلم عن الروح معنى إجمالياً، فهي المسخرة لكيانه وأعضائه، بل لها السلطان الأعلى في تصريف شئون الشخص.

وبعد، فإن هذه خلاصة موجزة عن الأقوال في الروح دون تفصيل، فليس هذا الموضوع موضوعنا إنما أن نعطي صورة موجزة تتحدث عن هذا البحث في استقامة وصواب، فنحن لا نستطيع أن نتجاوز حدودنا في البحث وراء موضوع استأثر الله تعالى بعلمه، فأدبنا معه سبحانه وتعالى يلزمنا بالوقوف عند قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

---

(١) الإسراء ٨٥.

الفصل الثاني

أشراط الساعة وعلاماتها

من قضايا العقيدة الأساسية في الإسلام، الإيمان باليوم الآخر وما يترتب عليه من بعث وحساب وجزاء، وقد أفاض القرآن الكريم في أهمية هذا الجانب (حتى ليلحقه في كثير من المواضع بالإيمان بالله مباشرة، إثباتًا ونفيًا... فيوصف المؤمنون بأنهم هم الذين يؤمنونَ بالله واليوم الآخر، ويوصف الكافرونَ بأنهم لا يؤمنونَ بالله ولا باليوم الآخر، كما يوصف المنافقونَ بأنهم يزعمونَ بأنهم يؤمنونَ بالله واليوم الآخر)[١].

ويعد كافرًا بإجماع المسلمين من يكفر باليوم الآخر، لأنه ركن أصيل من أركان الإيمان.

فلا غرابة -إذن- أن (نجد في الحديث النبوي عناية بالغة بهذا اليوم العصيب لأثره التربوي العظيم، ولأن توضيحه وهو أمر غيبي يعملُ على ترسيخ العقيدة)[٢].

والإيمان بالبعث والحشر، وبالحساب والجزاء، عنصر أصيل في العقيدة لا يستقيم منهجها إلا به (فلا بد من عالم مرتقب، يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر، ويتعلق به القلب، وتحسب حسابه النفس، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك)[٣].

وربما كان إنكار العرب لليوم الآخر والبعث والحساب مما جعل القرآن الكريم يهتم اهتمامًا كبيرًا بالتذكير المستمر به، ويلاحظ أن السور المكية بالذات قد حفلت بنصيب كبير من الإشارة إلى يوم القيامة لإقناع المنكرين ودحض أوهام الضالين وإرشاد الغاوين وتحدي المعاندين، وردًا على ما يؤمنون به من أمثال ما يقولون: **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكُنا إلا الدهر﴾** [٤].

---

(١) دراسات قرآنية: محمد قطب -دار الشروق- القاهرة (٦٣).

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي: د. محمد بن لطفي الصباغ (١٠٩).

(٣) اليوم الآخر في ظلال القرآن، أحمد فائز، مطبعة خالد حسن الطرابيشي، ط أولى ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م (١٣).

(٤) الجاثية ٢٤.

ويلاحظ الأستاذ محمد قطب استمرار الحديث عن اليوم الآخر في السور المكية باستفاضة لافتة، ليقرر أن هذا كله (لم يكن بسبب إنكار المنكرين للبعث، ولا كان كله موجهًا إلى أولئك المنكرين، إنما كان جزء منه على الأقل موجهًا للذين آمنوا بالفعل بالله واليوم الآخر.. ثم هو دليل كذلك على أن الذين آمنوا بالفعل ليسوا في غنى عن التذكير باليوم الآخر، إنما هم في حاجة دائمة إلى ذلك التذكير.. والله هو العليم بخلقه. فلو علم سبحانه أن مجرد حدوث الإيمان باليوم الآخر يكفي، لما عاد القرآن لتذكيرهم المرة بعد المرة. إنما علم الله أنه لا بد من التذكير.. وإعادة التذكير)[١].

ويشير الأستاذ محمد قطب أيضًا إلى موضوع السور المكية بأنها -وإن احتوت على معظم مشاهد القيامة- فإنها (لم يرد فيها ذلك الربطُ الجازم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؛ لأن عقيدة البعث والجزاء كانت ما تزال تنشأ إنشاء في قلوب العرب المنكرين لها من قبل أشد الإنكار، فجاء الحديث عنها مستقلاً في غالب الأحيان.

أمّا في المدينة فكانت قد استقرت في وضعها النهائي، وأبرزت كذلك في ميزانها النهائي، وهي أنها هي المتممة للإيمان بالله)[٢].

هذا اليوم المرتقب الذي أفاض القرآن الكريم في ذكره واهتم به اهتمامًا عظيمًا كان مدار تصديق وكفر، آمن به من صدق الرسل، وكفر به من كفر برسالات السماء، واعتبر الحياة الدنيا هي الحياة الوحيدة التي يحياها البشر، وأن القول بعودة الناس إلى الحياة مرة أخرى محض هراء وافتراء. وقد حكى رب العزة في كتابه العزيز مصائر هؤلاء المكذبين المعاندين، أذاقهم به من ويل في الدنيا، ويوم يردونَ يوم القيامة سيجدونَ ما كذبوا به شاخصًا أمام أعينهم، فيستغيثونَ لعلهم يرجعونَ إلى الدنيا فيؤمنوا بما كفروا به من قبل، ولات ساعة مندم.

وقد أخبر سيد البشر ﷺ أن هذا اليوم قريب، وأن له أمارات وعلامات أشار

---

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب (٦٤).

(٢) المرجع السابق (٦٥).

إليها حتى يدركها المؤمن ويتبينها، وقد (اصطلح علماء المسلمين على أن يطلقوا على بعض أشراط الساعة وآياتها أشراط صغرى، وعلى البعض الآخر أشراطًا كبرى، ولعل ذلك راجع إلى أن الأشراط الصغرى يتباعد الزمان بينها وبين قيام الساعة من جهة، كما يتباعد الزمان بين وقوع الواحدة منها والأخرى من جهة ثانية، ثم إن الأشراط الصغرى لا تحدث تأثيرًا على نظم الكون وقوانينه التي أقامه الله عليها.

وعلى العكس من ذلك يكون الأمر في الأشراط الكبرى، فإذا ما ظهرت آية منها، تتابعت سائر تلك الآيات، حتى لكأنها خرزات في خيط متى سقطت واحدة، تتابع باقي الخرزات حتى تسقط عن آخرها في زمن وجيز محدود)(١).

إن قرب الساعة ودنوها قد أعلنه رب العزة في قرآنه الكريم بقوله تعالى: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ (٢)، وانشقاق القمر آية من آيات اقترابها.. بل يصور الله -عز وجل- اقتراب الساعة بأكثر من ذلك حيث يقول: ﴿**أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه**﴾ (٣)، فكأنه حاضر لا حاجة للتفكير فيه.

ويصور الباري -عز وجل- غفلة البشر عن هذا اليوم المستور الذي يكاد يفجأهم ويبعدهم عن التفكير فيه أو ترقبه، فيحذرهم عز من قائل: ﴿**اقتربَ للناسِ حسابُهم وهُمْ في غفلة مُعْرِضُون* ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوهُ وهم يلعبون* لاهيةً قلوبُهُم**﴾ (٤).

أمَّا الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على قربه فكثيرة، وضحها رسول الله ﷺ للناس بما تقبله عقولهم، وتدركه أفهامهم، فعن سهل -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**بعثتُ أنا والساعة كهاتين**) ويشير بإصبعيه فيمدهما(٥). وفي رواية

---

(١) إطلالة على عقيدة البعث في الإسلام د. عبد الحميد علي عز العرب -دار المنار- مصر- ١٩٨٧ ص١٧.
(٢) القمر ١.
(٣) النحل ١.
(٤) الأنبياء ١-٣.
(٥) رواهُ البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: (بعثتُ أنا والساعة كهاتين)، انظر فتح الباري (٣٤٧/١١).

عند مسلم عن سهل بلفظ: سمعتُ رسول الله ﷺ يشير بأصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: (**بعثتُ أنا والساعة هكذا**)(١).

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: (**إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس**)(٢).

وفي لفظ آخر: (**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس**)(٣)

وعن عتبة بن غزوان قال: خطبنا رسول الله ﷺ، قال: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (**أمَّا بعد.. فإن الدنيا قد آذنت بصُرْم، وولت حَذَّاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء يَتَصابُّها صاحبها، وإنكم منتقلونَ منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم...**)(٤).

ثمة تساؤل يثار حول ما ورد من اقترابها وتطاول الأيام من زمن رسول الله ﷺ إلى اليوم، ولم يحدث ما يدل على قيام الساعة.

يعلق الدكتور عمر الأشقر على هذا التساؤل بقوله: (قد يقال: كيف يكون قريبًا ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام؟ والجواب: أنه قريب في علم الله وتقديره، وإن كانت المقاييس البشرية تراهُ بعيدًا، ﴿**إنهم يرونه بعيدًا* ونراهُ قريبًا**﴾(٥) (٦).

أما عن وقت قيام الساعة فلا علم لبشر به ولا مَلَك، وإنما علمها عند رب الأرض والسماء -سبحانه وتعالى-، استأثر بها، وهي من مكنونات علمه -جل

---

(١) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب قرب الساعة (٢٢٦٨/٤). وقد رواه البخاري ومسلم أيضًا عن أنس -رضي الله عنه-.

(٢) فتح الباري (٤٩٥/٦).

(٣) فتح الباري (٣٨/٢).

(٤) مسند الإمام أحمد: أحمد بن محمد بن حنبل -دار الفكر- بيروت (١٧٤/٤).

(٥) المعارج ٦، ٧.

(٦) القيامة الصغرى د. عمر سليمان الأشقر -مكتبة الفلاح- الكويت- ط أولى ١٩٨٦، ص١١٥.

وعلا-: ﴿**إن الله عندهُ علمُ الساعة وينزلُ الغيث ويعلمُ ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدًا وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾ (١).

وفضول الإنسان يدفعه إلى السؤال عن كل شيء، وقد جاء أقوام إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن الساعة، فجاء الجواب من رب العالمين: ﴿**يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة قريبًا**﴾ (٢).

وربما زاد إلحاح الناس في معرفة وقت قيام الساعة، فإذا بالقرآن الكريم يترل موضحًا ومحددًا: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (٣).

ويتساءل الناس عن حكمة إخفاء وقت قيام الساعة، ولا شك أن لإخفائها حكمة عند رب العزة، لعل منها ما يدفعُ الإنسان إلى ترقبها، والنظر إلى إصلاح نفسه وتهيئتها لذلك اليوم الموعود المرتقب وهو يوم مجهول، (والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعونَ إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم -وهم بهذه الفطرة- لوقف نشاطهم، وأسنت حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون، ويأملون، ويجربون، ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم. وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرور، فهم لا يدرونَ متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأمَّا مَنْ فسدت فطرته واتبع هواهُ فيغفل ويجهل، فيسقط، ومصيره إلى الردى)(٤).

وهناك علامات تسبق قيام الساعة وردت فيها أحاديث صحاح روتها كتب السنة، ومن أمثالها ما رواهُ البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة -رضي

---

(١) لقمان ٣٤.

(٢) الأحزاب ٦٣.

(٣) الأعراف ١٨٧.

(٤) في ظلال القرآن سيد قطب -دار الشروق- بيروت- ١٩٧٣ (٢٣٣١/٤).

الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمة، دَعوتُهما واحدة، وحتى يُبْعَثَ دَجَّالونَ كَذَابونَ قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقْبَضَ العلم، وتكثرَ الزلازل، ويتقاربَ الزمان، وتظهرَ الفتن، ويكثرَ الهرجُ وهو القتلُ، وحتى يكثرَ فيكم المال، فيفيضَ حتى يُهمَّ ربُّ المالِ من يَقبلُ صدقته، وحتى يَعرِضَهُ، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أربَ لي به، وحتى يتطاولَ الناس في البنيان، وحتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طَلَعَتْ ورآها الناس آمنوا أجمعونَ، فذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**)[١].

وفي الأحاديث صور شتى لعلامات يلمسها المرء في حياته وفي تعامله مع المجتمع الذي يعيش فيه، فمن ذلك ما رواهُ أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**من أشراط الساعة الفُحش، والتَفَحُّش، وقطيعة الرحم، وتخوين الأمين، وائتمان الخائن**)[٢].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد، لا يصلي فيه ركعتين، وألا يسلم الرجل إلا على من يعرف**)[٣].

ومن هذه العلامات ما قد وقع ومضى، ومنها ما يتكرر ظهوره أكثر من مرة، وقد يتكرر في مستقبل الأيام، ومنها ما لم يأذن الله بوقوعه بعد، وذاك ما عنتهُ بعض آيات الكتاب العزيز وأحاديث خاتم النبيين ﷺ.

وقد قسم أهلُ العلم هذه الأشراط إلى قسمين: علامات صغرى، وعلامات كبرى.

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب الفتن، انظر فتح الباري (٨١/١٣)، ورواه مسلم في صحيحه مفرقًا، وقد جمع ابن الأثير رواياته في جامع الأصول (٤٠٤/١٠)، حديث رقم (٧٩٢٠).

(٢) صحيح الجامع الصغير، الإمام جلال الدين السيوطي -تحقيق محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي- بيروت ط أولى- ١٩٦٩ (٢١٣/٥) وقال: رواهُ البزار، ورواهُ الطبراني في الأوسط عن أنس، ورواهُ أحمد والبزار عن ابن عمرو.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٢١٣/٥).

أشراط الساعة الصغرى:

بعثة النبي محمد ﷺ ووفاته:

ومن أشراط الساعة بعثة الرسول ﷺ ووفاته، وقد صح أنه ﷺ قال: (**بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار إلى إصبعيه السبابة والوسطى، وقرن بينهما**)(١).

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (**بعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه يمدّهما**)(٢).

وفي بيان دلالة بعثته ﷺ على قيام الساعة وكونها شرطًا من أشراطها، يقول أبو بكر الجزائري: (إن الله تعالى مازال يبعث بالأنبياء، ويرسل بالرسل لهداية الناس وإصلاحهم وإعدادهم للكمال الذي خلقوا له في الدنيا والآخرة، حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ، وأتم الشرائع بشريعته، وجعله خاتم الأنبياء، وأخبر أنه لا نبي بعده، فدل ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير، وأن الرسالة الأخيرة تتمها إصلاحًا وهداية، فلا يحتاج معها البشر إلى وحي جديد، وإلى رسالة ناسخة أو مجددة للشرائع والأحكام كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة، وانتهاء هذه الحياة الدنيا)(٣).

وفي كتب السيرة أن اليهود كانوا يحدثون عن الرسول ﷺ أنه يبعث مع الساعة(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٥٩٢/٢)، عن جابر بن عبد الله، وروي عن أنس بن مالك أيضًا في كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب قرب الساعة (٢٢٦٨/٤).

(٢) فتح الباري (٣٤٧/١١).

(٣) عقيدة المؤمن: أبو بكر الجزائري -دار الشروق- جدة- ١٩٨٢ (٣٣٦-٣٣٧).

(٤) انظر لذلك: سيرة النبي ﷺ لابن إسحاق وتهذيبها لابن هشام، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد- طبع مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة (١٩٦٣) (١٣٢/١-١٣٩). وكذلك زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية- المطبعة المصرية ومكتبتها بمصر (٥٠/٢)، وكذلك السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير- بتحقيق مصطفى عبد الواحد- طبع عيسى البابي الحلبي- القاهرة- ١٩٦٤- (٢٢٢/١-٢٣٢)، وكذلك البداية =

وروى البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة آدم، فقال: (**أُعْدُدْ ستًا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتَانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنَم، ثم استفاضة المال، حتى يُعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكونُ بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا**)(١).

- انشقاق القمر:

صرح القرآن الكريم بانشقاق القمر في قوله -عز وجل-: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ (٢).

وعن أنس -رضي الله عنه-: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آيه فأراهم انشقاق القمر مرتين)(٣).

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه مجموعة من هذه الأحاديث الدالة على انشقاق القمر، كما أوردها برواياتها المختلفة الإمام ابن كثير في تفسيره(٤).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: (قال القاضي: انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا محمد ﷺ، وقد رواها عدة من الصحابة -رضي الله عنهم-، مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها، قال الزجاج: وقد أنكرها بعضُ المبتدعة المضاهين المخالفي

=

والنهاية لابن كثير، نشر مكتبة المعارف- بيروت والنصر بالرياض- ط أولى- ١٩٦٦ (٢/٢٦٦-٢٦٧)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٢١٧)، وكذلك: إنسان العيون المعروف بالسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي- مصطفى البابي الحلبي بمصر- ط أولى- ١٩٦٤ (١/٢٩٨)، وسيرة النبي العربي لأحمد التاجي- مكتبة مصطفى الحلبي- مصر- ط أولى- ١٩٧٨ (١/١٢٨-١٣٩).

(١) جامع الأصول (١٠/٤١١)، وانظره في فتح الباري (٦/٢٧٧).

(٢) القمر ١.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/١٤٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/٤٦٧-٤٧١).

الملة وذلك لما أعمى الله قلبه، ولا إنكار للعقل فيها، لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعلُ به ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر آمره...)(١).

وقال ابن كثير: (وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات)(٢).

خروج نار من أرض الحجاز:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة، حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**)(٣).

وقد دلت الروايات التاريخية على ظهور هذه النار سنة ٦٥٤هـ، ومن معاصريها الإمام النووي الذي يقول: (وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارًا عظيمة جدًا من جنب المدينة الشرقي، وراء الحرة، تواتر العلمُ بخروجها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة)(٤).

وأورد المؤرخ ابن كثير في حوادث سنة (٦٥٤هـ) مجموعة من أخبار خروج هذه النار فقال: (فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناقُ الإبل ببصرى، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك شيخ الإسلام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه (الذيل وشرحه)، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة، وكيفية خروجها وأمرها، وملخص ما أورده أبو شامة أنه قال: (وجاء إلى دمشق كتب من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكتب الكتب في

(١) شرح النووي على مسلم (١٤٣/١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٦٩/٦).

(٣) فتح الباري (٧٨/١٣)، وفي مسلم (٢٢٢٧/٤)، وبصرى مدينة معروفة بالشام، وهي مدينة حوران، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل، انظر: شرح النووي على مسلم (٣٠/١٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢٨/١٨).

خامس رجب، والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان)، ثم قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ، وفيها شرح أمر عظيم حدث بها تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى**) فأخبرني من أثقُ به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكأن في دار كل واحد منا سراج[1]، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، إنما كانت آية من آيات الله -عز وجل-).

قال أبو شامة: (وهذه صورة ما وقفتُ عليه من الكتب الواردة فيها: (لما كانت ليلةُ الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة، نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نارٌ عظيمة، إشعالها أكثر من ثلاث منارات، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد سدت مسيل شظا وما عاد يسيل، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبالُ تسيل نيرانًا، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا، ورجعت تسيل في الشرق، فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿**إنها ترمي بشرر كالقصر* كأنه جمالة صُفْر**﴾ [2]. وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس من رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج. وأما أمُّ النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند

---

(١) هكذا وردت في النص وصوابها سراجًا.

(٢) المرسلات ٣٢-٣٣.

قريظة، وقد زادت وما عاد الناس يدرونَ أي شيء يتم بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خير، فما أقدر أصف هذه النار).

ويروي أبو شامة من أحوال النار وما يظهرُ لها من دوي قاصف وارتفاع ألسنة اللهب وما يصاحبها من زلزلة ورجة تهز المدينة ما أخاف الناس وأفزعهم وألجأهم إلى مسجد رسول الله ﷺ يبيتون فيه عند قبر المصطفى ﷺ ما بين دعاء وبكاء ورجاء، حتى يقول أبو شامة: (إن أهل المدينة قد تابوا جميعًا، وإن أمير المدينة قد طرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد إلى الناس ما كان تحت يده من أموالهم)(١).

توقف الجزية والخراج:

اتسعت الدولة الإسلامية وتجاوزت حدود الجزيرة العربية وذكر الحديث الذي يرويه الإمام مسلم بلاد العراق والشام ومصر، كما أن الإسلام قد دخل دولاً كثيرة، انضوت تحت لوائه وكانت تجبى مواردها إلى بيت مال المسلمين، وتصب الجزية والخراج في خزينة الدولة الإسلامية في الحجاز، وقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك سيتوقف، وسيفقد المسلمون بسبب ذلك موردًا إسلاميًا هامًا.. ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **(منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم)**(٢).

والقفيز، والمُد، والإردب: مكاييل لأهل ذلك الزمان في تلك البلاد، والدرهم والدينار: أسماء للعملات المتداولة في ذلك الوقت، قال النووي في تعليقه على الحديث: (الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين)، وبعد صفحات يقول النووي: (يوشك أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذلك، وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله، وهذا قد وجد في زماننا في العراق، وهو الآن

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٣/١٨٧-١٩٣).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٢٢٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب لا تقومُ الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب.

موجود، وقيل: لأنهم يرتدون آخر الزمان، فيمنعونَ ما لديهم من الزكاة وغيرها، وقيل: معناهُ: أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان، فيمتنعونَ مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج، وغير ذلك)[١].

أخبار في السُّنة عن أشراط الساعة الصغرى:

لا يخامر المسلم شك في أن ما أخبر به رسول الله ﷺ واقع لا محالة، فكلامه ﷺ ما هو إلا وحي يوحى، والله سبحانه وتعالى لا بد منجز وعد رسوله ﷺ وما مر من ظهور آيات فيما سلف من أيام الأمة دليلٌ على تيقن الخبر الذي تناقلته الأجيال المسلمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، وما نؤمنُ به أنه ماض إلى قيام الساعة، ولنا فيما مضى عبرة، وما يتكرر منه زيادة عظة وذكرى.

ومما نقرؤه من هذه النبوات ما روي عن نافع بن عتبة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم، فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله**)[٢].

وعن عدي بن حاتم، قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاهُ رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاهُ آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: (**يا عدي، هل رأيت الحيرة؟**) قلتُ: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: (**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله**)، قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طَيِّءِ الذين قد سعروا البلاد؟ (**ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحنَّ كنوز كسرى**)، قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: (**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلبُ من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان، يُترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقولُ: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظرُ عن يساره فلا يرى إلا جهنم**).

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٨/ ٢٠).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٥).

قال عدي: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة**)، وقال عدي: فرأيت الظعينة ترتحلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخافُ إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ، يُخرج ملء كفه...[١].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسُ محمد بيده لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله**)[٢].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (**إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزين: الأحمر والأبيض**)[٣].

وفي بشاراته المشهورة ﷺ، فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، كما أخبر ﷺ بفتح روما، ففي الحديث الصحيح، عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسُئِلَ: أيُّ المدينتين تُفْتَحُ أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال فأخرج منه كتابًا، قال فقال عبدُ الله: بينما نحنُ حول رسول الله ﷺ، نكتبُ، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتحُ أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: (**مدينة هِرَقْل تُفْتَحُ أولاً، يعني: قسطنطينية**)[٤].

ومن خلال متابعة التاريخ واستقصاء أمر الفتوحات يتبين لنا أن الإسلام قد وصل بقاعًا بعيدة انضوت تحت لوائه، وقد تحقق ما أخبر عنه رسول الله ﷺ غير رومية التي بقيت والتي لم يحن أوان فتحها بعد، وإن كان هذا الأمر لا بد واقعًا

(١) رواهُ البخاري في صحيحه كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٩٥)، فتح الباري (٦/٦١٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦١٨)، فتح الباري (٦/٦٢٥).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب هلاك الأمة، بعضهم ببعض (٤/٢٢١٥) ورقم الحديث (٢٨٨٩).

(٤) رواهُ الإمام أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٨)، حديث رقم ٤، والمسند (ش) (١٠/٦٦٤٥).

مصداقًا لحديث الرسول ﷺ القائل: (**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**)(١).

وإخباره ﷺ عن قتال الترك مذكور في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال النبي ﷺ: (**إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا ينتعلونَ نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا عِرَاض الوجوه كأنَّ وجوههم المِجَانُّ المُطْرقة**).

وفي رواية لهما عن أبي هريرة: (**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صِغَار الأعين حُمْرَ الوجوه، ذُلف الأنوف، كأنَّ وجوههم المجان المُطْرقة، ولا تقومُ الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر**)(٢).

ويصف النووي غزو التتار للديار الإسلامية في زمانه وهو يتبين وصف الرسول ﷺ للغزاة القادمين فيقول: (وقد وجدوا في زماننا -أي: الترك الذين تحدث عنهم رسول الله ﷺ- هكذا... بجميع صفاتهم التي ذكرها رسول الله ﷺ: صغار الأعين، حمر الوجوه، ذُلف الأنوف، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة ينتعلونَ الشعر، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتلهم المسلمونَ مرات، وقاتلهم الآن، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم، وأمر غيرهم، وسائر أحوالهم، وإدامة اللطف بهم والحماية، وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)(٣).

---

(١) رواهُ ابن حبان في صحيحه، وابن عروبة في المنتقى من الطبقات، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٧)، حديث رقم (٣).

(٢) رواهُ البخاري في كتاب الجهاد، باب كتاب الترك، وفتح الباري (٦/١٠٤)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، (٤/٢٢٣٣)، حديث رقم (٢٩١٢).
والمجان: جمع مجن وهو الترس، و(المطرقة)، وهي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة، قالوا: ومعناهُ: تشبيه وجوه الترك في عرضها وتَنَوِّر وجناها بالترسة المطرقة.
(ذلف الأنوف) أي فطس الأنوف، قصارها مع انبطاح، وقيل: غلظ في أرنبة الأنف، وقيل تطامن فيها، وكله متقارب. انظر شرح النووي على مسلم (١٨/٣٦، ٣٧).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/٣٨).

خروج الدجالين الكذابين:

ومن أشراط الساعة، ظهور دجالين كذابين يدَّعونَ النبوة ويزعمونَ أنهم أوحيت إليهم شرائع جديدة بعد شريعة الإسلام، مع قيام البراهين القاطعة على أنه ﷺ خاتم الأنبياء وآخر المرسلين، وأنه لا نبي بعده.

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى يبعث دجالونَ كذابونَ قريبٌ من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله**)(١).

ويحفظ التاريخ أسماء الكذابين من أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح بنت الحارث، وتلاهم المختار الثقفي ولا نزالُ نسمع بين حين وآخر عن ظهور متنبئ جديد يدعي النبوة حتى يومنا هذا.

شيوع الكبائر والقتل:

عن أنس -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**إن من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويكثر الجهل، والزنا وشرب الخمر، ويقل الرجال، وتكثرُ النساء؛ حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد**)(٢).

وفي رواية أخرى أن أنسًا -رضي الله عنه- قال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحدٌ بعدي سمعته منه: (**إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويُشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النَساء حتى يكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد**)(٣).

وبسبب الحروب الطاحنة التي تدور يذهب الرجال وتبقى النساء ولا يعني هذا مقاتلة المسلمين للكفار، وإنما هو قتل المسلمين للمسلمين، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: (**إن بين يدي الساعة الهَرْج**) قالوا: وما الهرج؟ قال: (**القتلُ، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا، حتى يقتل**

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الفتن، فتح الباري (١٣/٨١)، ومسلم (٤/٢٢٤٠).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٠٦٥)، كتاب العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

(٣) شرح النووي على مسلم: كتاب العلم، باب العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (١٦/٢٢١).

الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتل عمه، ويقتل ابن عمه) قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟ قال: (**إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء**)(١).

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (**والذي نفسي بيده، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي قَتَل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِلَ**)(٢).

إسناد الأمر إلى غير أهله:

في صحيح البخاري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعضُ القوم: سمع ما قال فكرهَ ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه، قال: (**أين أراه السائل عن الساعة**). قال: ها أنا يا رسول الله، قال: (**فإذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة**). قال: وكيف إضاعتها؟ قال: (**إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة**)(٣).

وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى من ترزأ فيهم الأمة الإسلامية حينما يؤول الأمر إليهم، فحينما يتسلط حاكم متابع لهواه، مشتغل بشهواته، يحملُ الناس على ما يحب -وإن كان مخالفًا للحق- ويولي غير الأكفاء في مناصب الأخيار، ويستبعد المخلص الناصح عن مكان الصدارة، فإنه بلا ريب داخل فيما عناه الحديث الشريف بأنه ممن أضاع الأمانة ووسد إليه أمر لي له بكفء، وليس من أهله.

فساد المسلمين:

حين يتخلى المسلم عن عقيدته، ويتنكر لأداء واجباته، فإنه يخل بالقيم النبيلة ويقصد إلى الطريق المعوج، فيتيه في دروبه، فإذا به يسلك طريقًا تحف به المخاطر وتحومُ حوله الشبهات، فربما ارتكس فيه وانتكس، فلا يبالي أي أمر هو فيه.

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح (٢/٤٩٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/٢٤٨) (٤/٣٩١-٣٩٢-٤٠٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا تقومُ الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٤/٢٢٣١)، ورقم الحديث (٢٩٠٨).

(٣) رواه البخاري: فتح الباري (١/١٤٢)، كتاب العلم، باب فضل العلم.

والأمانة من شروط هذا الالتزام المطلوب في حياة المسلم، فإذا فارقها ولم يؤد ما عليه لله أو لعباد الله من حقوق وأموال، فإنه قد دخل في الخيانة، وبرئت منه الأمانة، وليأتين يوم ينطبق فيه ما أخبر به رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-.

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيتُ أحدهما، وأنا أنتظرُ الآخر. حدثنا عن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: (**ينام الرجل النومة، فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة، فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك، فنفطَ، فتراهُ مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصىً فدحرجه على رجله، فيُصْبِحُ الناس يتبايعونَ، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا، حتى يقال للرجل: ما أجْلَدَهُ، ما أظرفَهُ، ما أعقَلَهُ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**) يقول حذيفة: (ولقد أتى عليَّ زمان، وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا ليَرُدَّنه عليَّ دينه، ولئن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليَرُدَّنَّهُ عليَّ ساعيه، وأمَّا اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا)[١].

والمراد من الأمانة في قوله ﷺ: التكليف الذي كلف الله تعالى به عباده، والعهد الذي أخذه عليهم في قوله تعالى: ﴿**إنا عرضنا الإمانة على السماوات والأرض والجبال**﴾ وقوله في جذر قلوب الرجال، أي: في أصلها وأعماقها.

والوكت: قيل: هو سواد يسير، وقيل: هو لون يحدث مخالفًا للون الذي كان قبله.

والمجل: قال أهلُ اللغة والغريب: هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل[٢].

ولادةُ الأَمَةِ رَبَّتَهَا، وتطاولُ رِعَاةِ الشَّاءِ في البنيان:

---

(١) رواهُ مسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة، (شرح النووي على مسلم) (٢/١٦٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/١٦٨-١٦٩).

في الحديث المشهور الذي رواهُ مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب حينما جاء جبريل -عليه السلام- يسأل رسول الله ﷺ، عن الإسلام والإحسان في صورة رجل، سأله أيضًا عن الساعة فقال: ... قال: فأخبرني عن الساعة. قال: (**ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل**). قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: (**أن تلد الأمةُ ربتها، وأن ترى الحُفَاةَ العُرَاةَ العالةَ رِعَاءَ الشاءِ يتطاولونَ في البنيان**)[١].

وفي رواية أخرى، عن أبي هريرة قال: (...**ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربَّها فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحُفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاولَ رِعاءُ البَهْم في البنيان فذاك من أشراطها**)[٢].

قال ابن رجب في تعليقه على الحديث: (مضمونُ ما ذُكِرَ من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: (**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**)، فإذا صار الحفاةُ العراة رعاء الشاة -وهم أهل الجهل والجفاء- رؤوس الناس، وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا...)[٣].

أمّا ولادة الأمة ربتها فقد قال النووي -رحمه الله-: (ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها. قال الأكثرونَ من العلماء: هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين، إما بتصريح أبيه له بالإذن، وإمّا بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال، وقيل معناه: إنَّ الإماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته).

وينقل النووي رأيًا آخر فيقول: (وقيل معناهُ أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان، فيكثر ترددها في أيدي المشترين حتى يشتريها ابنها ولا يدري، ويحتمل على هذا القول أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد، فإنه متصور

(١) شرح النووي على مسلم (١/١٥٨).
(٢) شرح النووي على مسلم (١/١٦٣).
(٣) جامع العلوم والحكم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن البغدادي -مطبعة مصطفى الحلبي- الطبعة الخامسة ١٩٨٠ (٤٠).

في غيرهن، فإن الأمة تلد ولدًا حرًا من غير سيدها بشبهة، أو ولدًا رقيقًا بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة في الصورتين بيعًا صحيحًا، وتدور في الأيدي حتى يشتريها ولدها وهذا أكثر وأعم من تقديرها في أمهات الأولاد)[١].

تداعي الأمم على الأمة المسلمة:

وهذه العلامة واضحة، تكررت عبر التاريخ مرات، اجتاح فيها التتار ديار الإسلام، وهاجمت الصليبية بأحقادها أرض المسلمين، ومرت قوافل الشر متفقة على هدم ما تبقى من أثر الإسلام في النفوس، وما إسقاط الخلافة الإسلامية في الربع الأول من هذا القرن إلا علامة من هذه العلامات البارزة، حيث تكاتفت جهود الملاحدة واليهود وملل أخرى على الإطاحة بنظام الإسلام، ونقض أركانه، ودك بنيانه، وهنا ننظر إلى حديث رسول الله ﷺ الذي رواهُ أبو هريرة -رضي الله عنه- عندما قال: قال رسول الله ﷺ: (**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها**). قالوا: أوَ مِنْ قلَة نحنُ يومئذ يَا رَسُولَ الله؟ قال: (**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السَيلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهَن**). قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: (**حُبُّ الدُنيا، وكراهيةُ الموت**)[٢].

ولا تزالُ هذه العلامة ماضية، فما نشهدهُ في حاضرنا من محاولات الأعداء المستمرة لتفريق صفوفنا، وإيقاع العداوة بين أبناء الأمة المسلمة، وتشجيع العدوان على أمة الإسلام والمسلمين في كل مكان، هو ما يشعر المؤمن بظلال هذا الحديث الذي يحذر فيه المصطفى ﷺ من الفرقة والاختلاف، ويدعوهم إلى الوحدة والتآلف ورص الصفوف، وإحياء شعيرة الجهاد حتى تتقوى النفوس، وتترع الوهن من الصدور، وتعيد قوة الإسلام ورهبته في صدور الأعداء حينما يجدونَ حرص المسلمين على افتداء دينهم بأرواحهم.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥٩/١).

(٢) رواهُ أبو داود في سننه (١١١/٤). كتاب الملاحم. باب تداعي الأمم على الإسلام.

تمني الموت:

من مجموع ما مر معنا من أوضاع الدنيا وما سيكون في مستقبل الأيام أن الانحدار في الأخلاق سيكون مريرًا حتى يتمنى الناس الموت من هول ما يرونه من فساد ومن كثرة ما يحيط بهم من فتن، وخشية وقوعهم فيها، وحرصًا على النجاة منها.

روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه**)[١].

تسلط الحكام:

من اختلال المقاييس في آخر الزمان أن يقوم المسئولون عن أمن الناس بترويعهم، ويمارسونَ بحق الناس أقسى أنواع الظلم، حتى وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم يغدونَ في سخط الله، ويرجعونَ في غضبه.

وقد قال رسول الله ﷺ مبينًا أوصاف هؤلاء المتسلطين الظالمين في حديث رواهُ أبو هريرة -رضي الله عنه-: (**صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربونَ بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات، مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحها ليوجدُ من مسيرة كذا وكذا**)[٢].

انحلال الأخلاق واختلال المقاييس:

تتعرض المجتمعات مع تطاول الأزمان إلى انحرافات تؤدي إلى هلاكها، وإذا تفشت في المجتمع المسلم هذه الآفات الخطيرة فإنه إذن بالزوال، وقد تمر علينا في تجارب الحياة ما يؤكد فحوى الحديث النبوي الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**قبل الساعة سنون خَدَّاعة، يُكذَّبُ فيها الصادق، ويُصدَّق فيها الكذوب، ويُخوَّن فيها الأمين، ويؤتمنُ فيها الخائن،**

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣١/٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

(٢) صحيح مسلم (٢١٩٢/٤-٢١٩٣)، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارونَ والجنة يدخلها الضعفاء.

وينطقُ فيها الرويبضة). قيل: وما الرويبضة؟ قال: (**الرجل التافه، يتكلمُ في أمر العامة)**[١].

وما اشتمله الحديث الشريف مشاهد في مجتمعات اليوم، فالأوصاف المذكورة تنطبقُ على من بيدهم المسئوليات العليا ومراكز التوجيه، فانقلاب المعايير وضياع القيم، وانحلال الأخلاق، يعني في عرفهم ما يطلقُ عليه من مصطلحات مستحدثة بالتقدم، والمحافظة وما تمثله أخلاق الإسلام وآدابه رجعية، وتلك ألفاظ تجدُ لها رواجًا في سوق الانحلاليين وأتباع الشهوات، وتعني هذه الأوضاع أن هذا التحذير قد أظلنا زمانه والعياذُ بالله.

وهناك علامات لا تسرد في باب الأشراط الكبرى وإنما سبقتها، وهي مقدمة لهذه الأشراط، إذ إنها بمجمل أحداثها كبيرة إلى ما تقدمها لكنها إلى ما سيتلوها أقل منها، فكأنها النذر بين يديها، وهذه الآيات لم تقع بعد، ووقوعها دليلٌ قوي على اقتراب الأشراط الكبرى، وهذه العلامات هي:

ظهور المسلمين على اليهود:

يقولُ الرسول الكريم ﷺ: (**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فَتَعَالَ فاقْتُلْهُ)**[٢].

وهذا إنباء عن مقاتلة المسلمين لليهود، وقد يكون قريبًا، ونراهُ بعيدًا، وإن كانت نذره تنبئ بقرب وقوعه لما يمثله تسلط اليهود على أرض المسلمين في فلسطين، وما يمارسونه من إجرام بين أهلها المسلمين، وتدنيسهم للمقدسات في مدينة القدس، وما يقومون به من أعمال ضد الأماكن المقدسة من حرق ونسف وتدمير، وإنه ليوم مرتقب تشفى فيه صدور قوم مؤمنين.

وعلاماتٌ أُخَرُ:

(١) المسند (٢/٣٣٨)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/٥٠٨).

(٢) رواهُ البخاري. فتح الباري (٦/١٠٣)، باب قتل اليهود، ورواهُ مسلم في صحيحه (٤/٢٢٣٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب لا تقومُ الساعة حتى تعبد دوس.

وتصادفنا أحاديث كثيرة عن أنواع من العلامات التي تعتبر نذرًا بين يدي الساعة كقوله ﷺ: (**سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الخمر**)(١).

وحديث عائشة -رضي الله عنها- عند الترمذي: يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلتُ: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (**نعم، إذا ظهر الخُبْثُ**) (٢).

وهناك أحاديث صحيحة مشابهة لهذا الحديث تؤيد صحته، منها ما رواهُ البخاري تعليقًا عن أبي عامر أو أبي مالك، وما رواهُ أبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناده إلى ابن عباس.

وهناك خسف كبير يكون قرب قيام الساعة يخسف بجيش كامل كما في الحديث الذي يرويه أحمد والحميدي عن بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد الأسلمي، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ على المنبر يقول: (**يا هؤلاء، إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريبًا، فقد أظلت الساعة**)(٣).

ومن العلامات أيضًا خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**)(٤).

ومن أشراط الساعة كذلك ذهاب الصالحين والمصلحين دعاة الخير، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الغيورين على دين الله، وبقاء الأشرار المارقين مرتكبي الآثام بما يقومون به من تنكيل بالناس وتعميم شرهم على الأمة.

ففي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى يأخذ الله شريطته(٥) من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة(٦)**،

---

(١) رواهُ الطبراني في معجمه (الكبير، والأوسط)، عن أبي سعيد، ورواهُ الترمذي عن عمران بن حصين، انظر (صحيح الجامع الصحيح) (٣/٢١٦) حديث رقم (٣٥٥٩).

(٢) سنن الترمذي (٤/٤٧٩).

(٣) المسند (٦/٣٧٨)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/٣٤٠).

(٤) صحيح مسلم (٤/٢٢٣٢)، كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب لا تقومُ الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه من البلاء.

(٥) شريطته: يعني أهل الخير والدين.

(٦) عجاجة: العجاج: الغوغاء، والأرذال ومن لا خير فيهم، واحدهم عجاجة.

لا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرونَ منكرًا)[١].

ومن علامات الساعة: كثرة المال، حتى إن الرجل يعطى المائة دينار من الذهب فيراها قليلة، ويبحث صاحب المال عن فقير يقبل منه صدقة ماله فلا يجد، فقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لعوف بن مالك -وكان آنذاك في غزوة تبوك-: (**أُعْدُدْ ستًا بين يدي الساعة**)، فذكرها، ومنها: (**استفاضة المال، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظلُ ساخطًا**)[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ، قال: (**لا تقومُ الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة، ويدعى إليه الرجل، فيقول: لا أرب لي فيه**)[٣].

وفي مسند أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن بين يدي الساعة تسليم الخاصَّة، وفُشُوَّ التجارة، حتى تعينَ المرأةُ زوجَها على التجارة، وقَطْعَ الأرحام، وشهادةَ الزور، وكتمانَ شهادة الحق، وظهور القَلَم**)[٤].

وتسليم الخاصة أن لا يسلم المسلم إلا على من يعرفه، وهذا الأمرُ لا يخفى على الناظر في زماننا وقوعه، وفشو ما ورد في هذا الحديث من تعيين لمجموعة من الأخلاق المذمومة.

أنهار جزيرة العرب:

روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله، فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**)[٥].

---

(١) المسند (٢/٢١٠).

(٢) فتح الباري (٦/٢٧٧).

(٣) رواهُ مسلم في كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (٢/٧٠١).

(٤) المسند (ش) (١/٣٣٣).

(٥) صحيح مسلم (٢/٧٠١).

والناظر إلى أرض جزيرة العرب يجدها صحراء قاحلة، تصعب الحياة فيها، إذ تمثل الصحراء جل مساحتها، فكيف تتحول هذه الأرض الجرداء إلى جنات خضر، وأنهار تجري تمثل الحياة، فهذا الانتقال من حال إلى حال يؤذن بقرب الساعة، وقد يتغير فيها المناخ من طبيعة الحرارة إلى البرودة، وقد يعني ذلك أن يهتم الناس بالأرض فيقومون بزراعتها، وتوفير المياه حتى تكون من جنان الأرض.

تكليم السباع والجماد الإنس:

روى الإمام أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري، قال: عدا الذئب على شاة، فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى على ذنبه، قال: ألا تتقي الله، تنـزعُ مني رزقًا ساقه الله إليَّ، فقال: يا عجبي ذئبٌ مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب، يخبرُ الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبلَ الراعي يسوق غنمه، حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: (**أخبرهم**)، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: (**صدق، والذي نفسي بيده لا تقومُ الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**)(١).

وهذا الخبر عن رسول الله ﷺ مما يحار العقل فيه، فمن غير المألوف أن يكلم الحيوان الأعجم الإنسان بكلام الآدمي، إذ هو شيء خارق للعادة، إلا أن إخباره ﷺ عن وقوع هذه الأشياء لا بد كائن، ومن اطلع على هذه الأحاديث التي تروي هذه الأخبار ووقعت له، فإنه لا شك قد علم قبل ذلك كما تم تفصيل ذلك فيما سيقع من حديث الدابة التي تكلم الناس، ومخاطبتهم للدجال عند ظهوره.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٨٣-٨٤)، ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٠-٣١) حديث رقم (١٢٢)، وقال: وهذا سند صحيح، رجاله ثقات رجال، مسلم، وأخرجه ابن حبان والحاكم مفرقًا وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرج الترمذي منه قوله: (والذي نفسي بيده..) وقال: حديث حسن، انظر الترمذي (٤/٤٧٦).

انحسار الفرات عن جبل من ذهب:

هذا الخبر من أخبار علامات الساعة رواهُ البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا**)(١).

وفي رواية مسلم: (**لا تقومُ الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقولُ كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو**)(٢).

وفي رواية أخرى لمسلم عن أُبيّ بن كعب: (**يُوشكُ الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذونَ منه ليذهبن به كُله، قال: فيقتتلونَ عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون**)(٣).

وواضح أن نهي الرسول ﷺ عن الأخذ منه لما يؤدي ذلك إلى إزهاق الأرواح، وسفك الدماء، وفتنة الذهب عند البشر تؤدي إلى هذا الوصف المثير من الاقتتال حتى ليموت الإنسان من أجل الحصول على شيء من هذا الجبل.

محاصرة المسلمين:

يتعرض المسلمون في قابل أيامهم إلى محن شديد، منها أنهم ينهزمون هزيمة منكرة حتى لا يبقى لهم من ظل ولا امتداد، وتقصر حدودهم حتى تصبح في رقعة من الأرض محدودة. وفي حديث صحيح عن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**يوشك المسلمون أن يُحاصروا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح**)(٤).

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب الفتن، باب خروج النار، فتح الباري (١٣/٧٨).

(٢) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٤/٢٢١٩). ورقم الحديث (٢٨٩٤).

(٣) صحيح مسلم (٤/٢٢٢٠)، ورقم الحديث (٢٨٩٥).

(٤) سنن أبي داود (٢/٤١٣)، وسَلاح: اسم موضع قريب من المدينة.

رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه:

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**)(١).

والمراد بقوله: (**يسوق الناس بعصاه**) كناية عن غلبته عليهم، وانقيادهم له، ولم يرد نفس العصا، لكن في ذكرها إشارة إلى خشونته عليهم وعسفه بهم، وقد قيل: إنه يسوقهم بعصاه حقيقة كما تساقُ الإبل والماشية لشدة عنفه وعدوانه(٢).

أشراط الساعة الكبرى:

حين تبدأ أشراط الساعة الكبرى بالظهور فإنه إيذانٌ بقرب قيام الساعة إذ هذه الآيات يتلو بعضها بعضًا، ومنها ما يخرجُ بعضه في إثر بعض سريعًا وربما اشتركت معها في زمن لا فاصل بينه إلا في شمس يوم واحد أو دونه، وهذه الأشراط قد ثبتت بطريق التواتر فمنها ما ورد في القرآن الكريم، ومنه ما حملته إلينا السنة المتواترة، مما يجعلها قطعية الثبوت، ومن ثم فالإيمان بها يكون واجبًا.

أخرج مسلم بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفَاري قال: (اطلع النبي ﷺ علينا ونحنُ نتذاكرُ فقال: (**ما تذاكرون؟**). قالوا: نذكرُ الساعة. قال: (**إنه لن تقومَ حتى ترونَ قبلها عشر آيات**).

فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم -عليه السلام-، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خَسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن، تَطرُدُ الناس إلى محشرهم)(٣).

وروى مسلم كذلك بسنده إلى أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال ﷺ: (**ثلاث خرجن لا ينفعُ نفسَ إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا:**

---

(١) فتح الباري (٧٦/١٣).

(٢) المصدر السابق (٧٨/١٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٢٥/٤-٢٢٢٦)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الآيات التي تكون قبل الساعة.

طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض)[١].

وهذه الآيات العشر المذكورة وردت فيها أقوال مختلفة في ترتيب ظهورها حسب تعدد الروايات، واختط العلماء لأنفسهم سبلاً في ترتيبها، ما بين مقدم آية ومؤخر أخرى، اجتهادًا من كل واحد منهم لما ظهر له من تتبع الأحداث، وما قد أداه فهمه للنص.

وسنتناول في دراستنا هذه الآيات حسب الترتيب الآتي:

الدخان، فتنة الدجال، نزول عيسى ابن مريم، خروج يأجوج ومأجوج، ظهور الفساد وفناء الأخيار، العودة إلى الجاهلية وعبادة الأوثان، هدم الكعبة، طلوع الشمس من مغربها، خروج دابة الأرض، النار التي تخرجُ من اليمن.

- الدخان:

والدخان من الآيات الكبرى التي ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالى: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين* يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾ [٢].

وقد أوردنا قبل قليل حديث رسول الله ﷺ في الآيات العشر التي تسبق الساعة فيما رواهُ الإمام مسلم.

وفي تفسير آيات سورة الدخان ثلاثة آراء:

الأول: أن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين* يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾ . قال: فأُتِيَ رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت. قال: (**لمضر! إنك لجريء**). فاستسقى فَسُقوا، فنزلت: ﴿**إنكم عائدون**﴾ . فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى* إنا منتقمون**﴾ قال:

---

(١) صحيح مسلم (١/١٣٨).
(٢) الدخان ١٠-١١.

يعني يوم بدر[١].

وهذا مما رواه البخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وقد روى عن ابن مسعود أهما دخانان. قال مجاهد: (كان ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: هما دخانان قد مضى أحدهما. والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض).

الثاني: أن الدخان كان يوم فتح مكة، لما حجبت السماء الغبرة. كما نقل ذلك عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وهو كناية عما أصاب أهل مكة ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما. والله أعلم[٢].

الثالث: أنه من أشراط الساعة، وأنه لم يجئ بعد، وأنه يمكثُ في الأرض أربعين يومًا يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام، وأما الكافر الفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقبُ مسامعهم، ويضيق أنفاسهم، وهو من آثار جهنم يوم القيامة[٣].

وممن قال: إن الدخان لم يأت بعد: علي، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة، وزيد بن علي، والحسن، وابن أبي مليكة، وغيرهم.

وفي حديث حذيفة السابق الذي رواهُ مسلم وأورد فيه ذكر الدخان يقول حذيفة: يا نبي الله، وما الدخان؟ قال: (**هذه الآية: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكثُ أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأمّا الكافر فيكون بمترلة السكران يخرجُ الدخان من فمه ومنخره، وعينيه، وأذنيه، ودبره**) [٤].

وقال النووي في شرحه على مسلم عند قوله ﷺ: (**لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات**) فذكر الدخان...: (هذا الحديث يؤيد قول من قال: إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، وأنه لم يأت بعد، وإنما يكون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة ط ١٩٣٥/٢ (١٣١/١٦)، وانظر: عون المعبود/ شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي- المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الثانية/١٩٦٨ (١٩٣/٤).

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) تفسير القرطبي (١٣٠/١٦).

(٤) تفسير القرطبي (١٣١/١٦)، وانظر روح المعاني: لشهاب الدين محمود الآلوسي- دار إحياء التراث العربي- بيروت (١١٨/٢٥).

قريبًا من قيام الساعة، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه وأنه قال: إنما هو عبارة عما نال قريشًا من القحط حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة وقال بالقول الآخر حذيفة، وابن عمر، والحسن، ورواهُ حذيفةَ عن النبي ﷺ أنه يمكثُ في الأرض أربعين يومًا، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار)(١).

فتنة الدجال:

خبر خروج الدجال من الأخبار المتواترة التي وردت في السنة، وفتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر، وقد روى خبره البخاري ومسلم وأصحاب السنن والمستدركات، وجاء تحذير الأمم على ألسنة أنبيائها، وحذرنا رسول الله ﷺ من فتنته وتعوذ منها.

ففي صحيح مسلم عن أبي الدهماء وأبي قتادة، قالا: كنا نمرُ على هشام بن عامر، نأتي عمران بن حصين، فقال ذات يوم: إنكم لتجاوزوني إلى رجال ما كانوا بأحضر إلى رسول الله ﷺ مني، ولا أعلم بحديثه مني، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال)**، وفي رواية: **(أمر أكبر من الدجال)**(٢).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: **(إني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه، ولكني سأقولُ لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، إنه أعور وإنَّ الله ليس بأعور)**(٣).

وعند البخاري ومسلم عن أنس -رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: **(ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين**

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٨/٢٧).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال (٤/٢٢٦٦)، حديث رقم (٢٩٤٦).

(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري (١٣/٩٠).

عينيه مكتوب كافر)[١].

وفي سنن ابن ماجه وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة، عن النبي، قال: (**يأيها الناس، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال، وإن الله -عز وجل- لم يبعث نبيًا إلا حذر أمته من الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة**)[٢].

وسُمِّي دجالاً -كما يقول ابن حجر- لأنه يغطي الحق بباطله، ويقال: دجل البعير بالقطران إذا غطاه، والإناءُ بالذهب إذا طلاه[٣].

ويقول ابن الأثير: (سمي الدجال مسيحًا؛ لأن عينه الواحدة ممسوحة، والمسيح: الذي أحد شقي وجهه ممسوح، لا عين له ولا حاجب، فهو فعيل بمعنى مفعول، بخلاف المسيح عيسى بن مريم، فإنه فعيل بمعنى فاعل، سمي به، لأنه كان يمسحُ المريض فيبرأ بإذن الله، والدجال: الكذاب)[٤].

ويبدو من مجموع الأحاديث الكثيرة الواردة في شأن الدجال وخروجه، أن ثمة إرهاصات تنبئ عن خروجه، وأن منها أن يكون للمسلمين شأن وقوة، وخروجه لكسر هذه الشوكة التي عليها المسلمون، ففي ذاك الزمان يتصالح الروم مع المسلمين، حتى إنهم ليغزون معًا عدوًا مشتركًا فينصرون عليه، ثم يعودون فتثور الحرب بينهم. وفي سنن أبي داود، عن ذي مخْبَر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتمَ وهم عدوًا من ورائكم، فتُنْصَرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذي تُلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غَلَبَ الصليبُ، فيغضبُ رجلٌ من المسلمين فَيَدُقُّه، فعند ذلك تَغدرُ الرومِ وتجمعُ للملحمة**)[٥].

وزاد بعضهم: (**فيثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون فيكرمُ الله تلك**

---

(١) فتح الباري (٩١/١٣)، ورواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفة ما معه (٢٢٤٨/٤)، حديث رقم (٢٩٣٣)، وانظر سنن ابن ماجه (١٣٥٩/٢)، حديث رقم (٤٠٧٧).

(٢) صحيح الجامع الصغير (٢٧٣/٦).

(٣) فتح الباري (٩١/١١).

(٤) ابن الأثير: جامع الأصول (٢٠٤/٤).

(٥) سنن أبي داود (٤٢٥/٢).

العصابة بالشهادة)[١].

أمَّا الملحمة المذكورة فمعركة كبيرة تقع بين المسلمين والصليبيين، والصليبيون يومئذ أكثرُ الناس عددًا كما ورد في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: (**تقومُ الساعة والرومُ أكثر عددًا**). وقد بينت الأحاديث صبر المسلمين في هذه المعركة، حتى يكون النصرُ حليفهم، وإلى جانبهم تقاتل أعداد من النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم. وهذه رواية مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق**[٢]**، فيخرج لهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خَلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منا نُقَاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقتلُ ثُلُثُهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتحُ الثلث، لا يفتنون أبدًا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمونَ الغنائم، قد عَلَّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلَفَكم في أهليكم، فيخرجونَ، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينـــزلُ عيسى ابن مريم -عليه السلام- فأمهم، فإذا رآهُ عدوُّ الله ذاب كما يذوبُ الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلِك، ولكن يَقْتُلُه الله بيده، فيُريهم دَمَهُ في حربته)**[٣].

وفي حديث آخر لمسلم يتحدث عن هول هذه المعركة، يكشف عن حقيقة أخرى، وذلك أن أعداد المسلمين قليلة، ولكن مواقفهم لنصرة الحق مشرفة، ومبايعتهم على القتال والجهاد مما يضعهم في مرتبة عالية وصفهم فيها رسول الله ﷺ بأنهم خير فوارس على ظهر الأرض.

عن عبد الله بن مسعود، قال: إن الساعة لا تقوم، حتى لا يُقْسَمَ ميراث، ولا يُفْرَحُ بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونَحَّاها نحو الشام)، فقال: عدو يجمعونَ لأهل

(١) مشكاة المصابيح (١٤٩٥/٣)، حديث رقم (٥٤٢٨)، وقال المحقق: إسناده صحيح. وسنن أبي دواد (٤٢٥/٢).

(٢) الأعماق ودابق بلدتان من أعمال حلب بالشام.

(٣) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب فتح القسطنطينية (٢٢٢١/٤).

الإسلام، ويجمعُ لهم أهل الإسلام (أي: للحرب والقتال): قلت: الروم تعني[١]؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة[٢] شديدة، فيشترط المسلمون شُرطة[٣] للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلونَ حتى يَحْجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كُلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمونَ شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نَهَدَ إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتَلة -إما قال: لا يُرى مثلها، وإمّا قال: لم يُرَ مثلها- حتى إن الطائر ليمر، بجنباتهم، فما يُخَلِّفهم حتى يخرَّ ميتًا، فيَتَعادُّ بنو الأب كانوا مائةً، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفْرَحُ؟ أو أي ميراث يُقَاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلونَ، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوانَ خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**)[٤].

وإذا أظل زمان الدجال فإن بلاء ينزلُ بالناس، فمما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أسماء بنت يزيد قالت: كنا مع النبي ﷺ في بيته فقال: (**إذا كان قبل خروج الدجال بثلاث سنين حبست السماء ثلث قطرها، وحبست الأرض ثلثي نباتها، فإذا كانت السنة الثانية حبست السماء ثلثي قطرها، وحبست الأرض ثلثي نباتها، فإذا كانت السنة الثالثة حبست السماء قطرها كله، وحبست الأرض نباتها كله،**

---

(١) القائل هو راوي الحديث عن عبد الله بن مسعود، وهو يُسَيْر بن جابر.

(٢) ردة شديدة أي: عطفة قوية.

(٣) الشرطة: الفرقة من الجيش.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب إقبال الروم في كثرة القتل (٢٢٢٣/٤) حديث رقم (٢٨٩).

فلا يبقى ذو خف ولا ظلف إلا هلك، فيقول الدجال للرجل من أهل البادية: أرأيت إن بعثت إبلكَ ضخامًا ضروعها، عظامًا أسنمتها، أتعلمُ أني ربك؟ فيقولُ: نعم. فتمثلُ له الشياطين على صورة إبله، فيتبعه، ويقول للرجل: أرأيتَ إن بعثت أباك وابنك ومن تعرف من أهلك، أتعلم أني ربك؟ فيقولُ: نعم. فيمثل له الشياطين على صورهم فيتبعه)، ثم خرج رسول الله ﷺ وبكى أهل البيت ثم رجع رسول الله ﷺ ونحنُ نبكي. فقال: (**ما يبكيكم؟**)، فقلت: ما ذكرت من الدجال فوالله إن أمة أهلي لتعجنُ عجينها فما تبلغ حتى تكاد تفتتت من الجوع فكيف نصنعُ يومئذ؟ فقال رسول الله ﷺ: (**يكفي المؤمنين عن الطعام والشراب يومئذ التكبير والتسبيح والتحميد**)، ثم قال: (**لا تبكوا، فإن يخرج الدجال وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدي فالله خليفتي على كل مسلم**)(١).

- **صفات الدجال:**

حذَّر الرسول ﷺ المؤمنين من الدجال، وبيَّنَ أوصافه، وشرح في أحاديث كثيرة ما سوف يأتي به الدجال لينشر باطله، لم يترك رسول الله ﷺ ما يقرب صورة الدجال إلى أذهان الناس إلا وعرضها حتى لا يبقى لأحد شك إن رآه، وفي الحديث الذي رواهُ أبو داود في سننه -وهو صحيح- ورواهُ الإمام أحمد في مسنده كذلك أن رسول الله ﷺ قال: (**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إنَّ الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**)(٢).

إن ما يتمتع به الدجال من إمكانات مذهلة تحير عقول الناس فيزل معه ويتبعه خلق كثير تنطلي عليهم حيله وأوهامه ومن هذه الفتن التي تجرف الناس:

١- سرعة انتقاله في الأرض:

من الأمور المقررة في الأحاديث الشريفة أنه يطأ كل أرض خلا مكة والمدينة

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٦/٤٥٣)، وذكره ابن كثير في الفتن (٩٠)، وفي صحيح الجامع للألباني (٦/٣٧٧)، يورد رواية مقاربة.

(٢) جامع الأصول (١٠/٣٥٣٤) حديث رقم (٧٨٤٦)، وانظر كذلك مسند الإمام أحمد (٤/٤٣١).

ففي حديث أنس في الصحيحين: (**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة**)[١].

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة، فيأتي المدينة فيجد بكل نَقب من نقابها صفوفًا من الملائكة، فيأتي سبخة الجُرْف، فيضرب رواقه، فترجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة**)[٢].

ويأتي الدجال ومعه ما يشبه الجنة والنار، وهذا ما يفتن الناس فيظنون الأمر كما يبدو لهم، فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (**معه** -أي: الدجال- **جنةٌ ونار، فناره جنة، وجنته نار**)[٣].

وعند البخاري ومسلم عن حذيفة أيضًا عن النبي ﷺ قال: (**إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار**) زاد في رواية مسلم (فلا تَهلكوا).

وفي رواية أخرى لمسلم عن حذيفة أيضًا: (**إن الدجال يخرجُ، وإن معه ماء ونارًا، فأمّا الذي يراهُ الناس ماءً فنارٌ تُحرقُ، وأمّا ما يراهُ الناس نارًا، فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارًا، فإنه ماء عذب طيب**)[٤].

٢- استعانته بالشياطين:

مر في حديث سابق كيف تتمثل الشياطين بالإبل وبأبي الرجل وأخيه، وفي سنن ابن ماجه وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (**وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهدُ أني ربك؟ فيقولُ: نعم، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك**)[٥].

ويسخر الله للدجال ما يستعين به على شدة البلوى، ويزداد امتحان الناس، ففي

---

(١) فتح الباري (٩٥/٤)، ومسلم (٢٢٦٥/٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (١٩١/٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٢٢٤٨/٤)، ورقم الحديث (٢٩٣٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن (٢٢٥٠/٤)، رقم الحديث (٢٩٣٤).

(٥) صحيح الجامع الصغير (٢٧٤/٦)، ورقم الحديث (٧٧٥٢)، وابن ماجه (١٣٥٣/٢).

صحيح مسلم عن النواس بن سمعان، أن النبي ﷺ قال: (**فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبونَ له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتُهُمْ، أطولُ ما كانت ذُرا، وأسبغه ضُروعًا، وأمدَّه خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيرُدُّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحونَ مُمْحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبَة فيقولُ لها: أخرجي كنوزك، فَتَتْبَعُهُ كنوزها كيعاسيب النحل**)[١]...

ومن فتنته: أنه يقتل الرجل الذي يدحض دعواه بادعاء الألوهية، ويفضحه على أعين الناس، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثًا طويلاً عن الدجال، فكان فيما يحدثنا أنه قال: (**يأتي الدجال -وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نِقاب المدينة- فيترل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هوَ خير الناس، أو من خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكونَ في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشدّ بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله، فلا يُسَلَّط عليه**)[٢].

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضًا بلفظ: (**يخرج الدجال، فتيوجه قِبَلَهُ رجل من المؤمنين، فتلقاهُ المسالح[٣]: مسالح الدجال، فيقولون له: أين تَعْمِدُ؟ فيقول: أعْمِدُ إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاءٌ، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن، قال: يا أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال به فيشج،**

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٢٢٥٢/٤)، رقم الحديث (٢٩٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب: لا يدخل الدجال المدينة، فتح الباري (١٠١/١٣)، رواه مسلم في كتاب الفتن، باب صفة الدجال (٢٢٥٦/٤). ورقم الحديث (٢٩٣٨)، ولفظ الحديث للبخاري.

(٣) حملة السلاح من أتباع الدجال.

فيقول: خذوه وشُجُّوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربًا، قال: فيقول: أوما تؤمن بي؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمرُ به فيُؤشَرُ بالمئشار من مَفرقه حتى يُفرق بين رجليه . قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم، فيستوي قائمًا ، قال: ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددتُ فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول: يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، فيأخذه الدجال ليذبحه، فيُجْعَل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلاً ، قال : فيأخذ بيديه ورجليه، فَيَقذفُ به، فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة، قال: فقال رسول الله ﷺ: (هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين)[١].

خروجه ومدة مكثه في الأرض:

في الحديث الذي يرويه الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد عن أبي بكر الصديق قال: حدثنا رسول الله ﷺ: **(إنَّ الدجال يخرجُ من أرض بالمشرق، يقال لها: خُراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجانُّ المُطرقة)**[٢].

وفي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه: (إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا)، قلنا: يا رسول الله! وما لبْثُهُ في الأرض؟ قال: **(أربعونَ يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم)** قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **(لا، اقدروا له قَدْرَهُ)** قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: **(كالغيث استدبرته الريح)**[٣].

- أتباع الدجال:

في حديث أنس بن مالك الذي رواهُ مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ،

---

(١) رواهُ مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب في صفة الدجال (٤/٢٢٥٦).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني (٤/١٢٢)، حديث رقم (١٥٩١)، وانظر سنن الترمذي (٤/٥٠٩)، وابن ماجه (٢/١٣٥٣-١٣٥٤)، والمسند (١/٧٥٤).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٤/٢٢٥٢) رقم الحديث (٢٩٣٧).

قال: (**يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعونَ ألفًا، عليهم الطيالسة**)[١].

وفي مسند أحمد، عن عثمان بن أبي العاص -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: (**وأكثر تبعه اليهود والنساء**)[٢].

ويزعم اليهود أن الدجال -واسمه عندهم المسيح بن داود- يخرج آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهم يزعمونَ أنه آية من آيات الله، يرد إليهم الملك، وقد كذبوا في زعمهم، بل هو مسيح الضلالة الكذاب، وأمّا مسيح الهدى عيسى ابن مريم، فإنه يقتل الدجال مسيح الضلالة كما يقتل أتباعه من اليهود[٣].

وحول موضوع فتنته يثور سؤال في الأذهان، فإذا كان الدجال على هذه الصورة من الكذب والافتراء على الله -عز وجل- فكيف يظهر الله على يديه عجائب الآيات وخوارق العادات؟ وقد فطن لذلك ابن حجر عندما قال: (فإن قيل كيف يجوز أن يجري الله الآية على يد الكافر؟ فإن إحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء، فكيف ينالها الدجال وهو كذاب مفتر يدعي الربوبية؟

فالجواب:

إنه على سبيل الفتنة للعباد، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعواه، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم، فدعواهُ داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر، إذ لو كان إلهًا لأزال ذلك عن وجهه، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان)، ثم قال: (وفي الدجال مع ذلك دلالة بينة لمن عقل على كذبه؛ لأنه ذو أجزاء مؤلفة، وتأثير الصنعة فيه ظاهر مع ظهور الآفة به من عور عينيه، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم، فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه، ولا يدفعُ النقص عن نفسه، فأقل ما يجب أن يقول: يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض صور نفسك وعدلها، وأزلْ عنها العاهة، فإن

(١) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٦/٤)، ورقم الحديث (٢٩٤٤)، والطيالسة جمع طيلسان، وهو أعجمي معرب، وهو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن، ينسج للبس، خال من التفصيل، والخياطة.

(٢) المسند (٢١٦/٤).

(٣) لوامع الأنوار البهية: محمد بن أحمد السفاريني -المكتب الإسلامي- بيروت (١١٢/٢).

زعمتَ أن الرب لا يحدث في نفسه شيئًا، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك)(١).

عور الدجال:

استفاضت الأحاديث في وصف عيني الدجال، وما هو مكتوب بينهما، كما أن هناك حديثًا عن عيب خلْقيّ آخر فيه، وهو أنه أفحج الساقين.

وقد وصفه رسول الله ﷺ وصفًا حدد معالم جسمه وأبرز شخصيته حتى إنه لا يشتبه على إنسان يراهُ، فكل من رآه عرفه لوصف النبي ﷺ له، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ رأى الدجال في الرؤيا، وجاء في وصفه له: (رجل جَسيمٌ، أحمرُ، جَعْد الرأس، أعورُ العين، كأن عينه عِنَبَةٌ طافية... أقرب الناس به شبهًا ابن قطن، رجل من خزاعة)(٢).

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت أنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: (**إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت ألا تعقلوا، إن المسيح الدجال رجل قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، وليست بناتئة ولا جَحراء، فإن ألبس عليكم، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور، وأنكم لن تروا ربكم**)(٣).

وفي مسند أحمد أيضًا في قوله ﷺ: (**وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة، ولا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دُري**)(٤).

وقد وصف الرسول ﷺ عين الدجال التي يرى بها، فقال: (**الدجال عينه خضراء كالزجاجة**)(٥).

ومن العلامات المميزة التي وسم بها الدجال أنه مكتوب بين عينيه كلمة (**كافر**) أو (**ك ف ر**). وهي علامة يقرؤها المؤمنون من كان قارئًا أو أميًا، ولا تبين لمن

---

(١) فتح الباري (١٠٣/١٣).

(٢) فتح الباري (٩٠/١٣).

(٣) صحيح الجامع الصغير (٣١٨/٢)، حديث رقم (٢٤٥٥) وانظر في المسند (٣٢٤/٥).

(٤) مسند الإمام أحمد (٧٩/٣)، عن أبي سعيد.

(٥) المسند (١٢٣/٥-١٢٤).

طمس الله على بصائرهم.

ففي صحيح البخاري، عن أنس، عن النبي ﷺ، قال: (**ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر**)(١)، وفي صحيح مسلم مثل رواية البخاري، إلا أنه قال: (**مكتوب بين عينيه: ك ف ر**)(٢).

وفي صحيح مسلم كذلك: (**إنه مكتوبَ بين عينيه كافر، يقرؤه من كَرِهَ عَمَلَهَ، أو يقرؤه كلُّ مؤمن**)(٣).

وفي صحيح ابن خزيمة وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح، عن أبي أمامة: (وأنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب)(٤).

يقول الإمام النووي -رحمه الله- تعالى: (والصحيح الذي عليه المحققونَ أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم، كاتب وغير كاتب. ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناعَ في ذلك، وذكر القاضي عياض فيه خلافًا، منهم من قال: هي كتابة حقيقية كما ذكرنا، ومنهم قال: هي مجاز، وإشارة إلى سمات الحدوث عليه، واحتج بقوله يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهذا مذهب ضعيف)(٥).

هذه الأوصاف التي دلنا عليها رسول الله ﷺ والتي هي علامات تميز لنا صورة هذه الفتنة الداهية، يرجف قلب المؤمن لقراءتها فكيف به إذا واجه الدجال ورأى منه ما رأى؟.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري (٩١/١٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٢٢٤٨/٤)، حديث رقم (٢٩٣٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤٥/٤).

(٤) صحيح الجامع الصغير (٢٧٤/٦)، رقم الحديث (٧٧٥٢)، وانظر سنن ابن ماجه (١٣٥/٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (٦٠/١٨).

إن الرسول ﷺ حذر المؤمنين من لقائه ما أمكنَ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: (**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إنَّ الرجل ليأتيه وهو يحسبُ أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**)(١).

أمَّا إن اضطر المؤمن إلى مواجهته فعليه أن يقوم بالأمر الذي يحفظ عليه دينه وعقيدته، وأن يستعين بما يعرف من توجيه الرسول عند لقاء الدجال، ففي الحديث: (**إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم**).

أمّا من يخاف لقاءه، ولا يقوى على فتنته فأخبر النبي ﷺ أهم سيفرونَ منه، ففي صحيح مسلم عن أم شريك قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (**ليفرنَّ الناس من الدجال في الجبال**)(٢).

وقد أرشد الرسول ﷺ المؤمنين إلى ما يعصمهم من الفتنة إن شهدوها، فقال: (**فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف**)(٣). وحديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: (**من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال**). وفي بعض الروايات: (**آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**).

وفي بعض الروايات: (آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال).

وفي رواية أخرى: (من حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال)(٤).

ومما يعصم من فتنة الدجال يلجأ المسلم إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، فإن

---

(١) جامع الأصول (١٠/٣٥٤)، رقم الحديث (٧٨٤٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال (٤/٢٢٦٦)، حديث رقم (٢٩٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال (٤/٢٢٥٣)، حديث رقم (٢٩٣).

(٤) نهاية البداية والنهاية (الحافظ ابن كثير الدمشقي-مكتبة النصر الحديثة-الرياض-الطبعة الأولى ١٩٨٦ (١/١٥٤).

الدجال لا يدخلهما؛ لأنه محرم عليه دخولهما.

وقد علم الرسول ﷺ المسلمين من الأدعية الشريفة ما يساعد على قمع فتنة الدجال، ففي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (سمعتُ رسول الله ﷺ يستعيذُ في صلاته من فتنة الدجال)[١].

وكان المصطفى ﷺ يتعوذ بعد التشهد من فتنة الدجال فيقول: (**اللهم إنا نعوذُ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**)[٢].

هلاك الدجال:

ذكرنا قبل قليل الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- الذي فيه أن هلاك الدجال يكون على يد عيسى بن مريم -عليه السلام- (**فبينما هم يعدونَ للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فيترلُ عيسى بن مريم -عليه السلام- فأمهم، فإذا رآهُ عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته**).

وعن أبي أمامة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال: (**وإمامُهُم (أي: المسلمين الذين يعدونَ العدة لقتال الدجال) رجلٌ صالحٌ، فبينما إمامهم قد تقدم يُصَلِّي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام يَنْكُصُ، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى، فيضعُ عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فَصَلِّ، فإنها لك أقيمت، فيُصَلي بهم إمامًا، فإذا انصرفَ، قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتح ووراءه الدجال، معه سبعونَ ألف يهودي، كلهم ذو سيف مُحَلّى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب المِلْحُ في الماء، فينطلقُ هاربًا.. فيدركه عند باب لُدّ[٣] الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله -عز وجل- يتواقى به اليهودي، إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري (١٣/ ٩٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ بالله من عذاب القبر، فتح الباري (٣/ ٢٤١).

(٣) (اللدّ): مدينة معروفة في فلسطين.

حائط، ولا دابة -إلا الغرقدة[١]، فإنها من شجرهم لا تنطق- إلاَّ قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي، فتعال فاقتله)[٢].

وحديث قتال المسلمين لليهود مشهور فقد رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(لا تقومُ الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله)**[٣].

قال النووي في شرحه لمسلم: (قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى، من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى -عليه السلام-، ويثبت الله الذين آمنوا، هذا مذهب أهل السنة، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وخلافًا للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود، ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات، لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقًا لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة، فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدعي الألوهية، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة

---

(١) الغرقد: نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس.

(٢) صحيح الجامع الصغير (٦/٢٧٦) ورقم الحديث (٧٧٥٢٩) والحديث في سنن ابن ماجه (٢/٥١٤).

(٣) فتح الباري (٦/١٠٣).

والفاقة رغبة في سد الرمق، أو تقية وخوفًا من أذاه؛ لأن فتنته عظيمة تدهش العقول، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء بحاله، ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة)[١].

خبر تميم الداري:

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، قالت: فصليتُ مع رسول الله فكنتُ في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلمّا قضى رسول الله ﷺ جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: (**ليلزم كل إنسان مصلاه**)، ثم قال: (**أتدرونَ لم جمعتكم؟**) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (**إني ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم، لأن تميمًا الداري، كان رجلاً نصرانيًا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال.**

حدثني، أنه ركب سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر، ثم أرفأوا[٢] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة[٣]، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب[٤] كثير الشعر، لا يدرونَ ما قُبُله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجسَّاسة، قالت: أيها القوم، انظروا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعًا، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشدّه وثاقًا، مجموعة يداهُ إلى عنقه، فقلنا له: ما أنت أيها الرجل؟ قال: أما خبري فقد قدرتم عليه، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحنُ أناس من

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٨/٥٨).

(٢) أرفأوا: التجأوا إليه.

(٣) أقْرُب: جمع قارب وهو السفينة الصغيرة، وقيل: المراد بأقرب السفينة أخرياتها وما قرب منها للنـــزول.

(٤) أهلب: كثير الشعر، غليظه.

العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حتى اغتلم[١]، فلعب بنا الموج شهرًا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابةٌ أهلبُ كثير الشعر، لا يدرى ما قُبُله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعًا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

قال: فأخبروني عن نخل بَيْسَان[٢]، قلنا: عن أي شيء تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا: نعم، قال: أما إنه يوشك ألا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة طبرية[٣]، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرةُ الماء، قال: أما إنَّ ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زُعَر[٤]، قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قالوا له: نعم، هي كثيرةُ الماء، وأهلها يزرعونَ من مائها. قال: أخبروني عن نبيّ الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناهُ أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوهُ، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، وإني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذنَ لي في الخروج، فأخرجَ فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، إلا مكة وطيبة[٥]، فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردتُ أن أدخلَ واحدة أو واحدًا منهما، استقبلني ملكٌ بيده السيف صَلْتًا[٦]، يصدني عنها، وإنَّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها).

---

(١) اغتلم: هاج وجاوز حده المعتاد.

(٢) بيسان: إحدى مدن فلسطين.

(٣) بحيرة طبرية: بحيرة عذبة الماء في فلسطين.

(٤) بلدة في الجانب القبلي من الشام.

(٥) طيبة: المدينة المنورة.

(٦) صلتًا: مسلولاً.

قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: (**هذه طيبة هذه طيبة، هذه طيبة**) يعني المدينة، (**ألا هل كنتُ حدثتكم ذلك**) فقال الناس: نعم، (**فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنتُ حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام وبحر اليمن، لا بل من قِبَل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق ما هو**)(١). وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ(٢).

قصة ابن صياد:

مختصر قصته أنه من يهود المدينة، وكان اسمه (صاف)، وقد اجتمعت فيه كثير من صفات الدجال، ولم يتبين أمره للرسول مما كان موضع شك لديه، وقد حاول معرفة حقيقته، إذ لم يبلغه من الوحي شيء بشأنه، ومما يرويه مسلم في صحيحه عنه عن عبد الله ابن عمر -رضي الله عنه- أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أُطُمِ(٣) بني مَغَالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحُلُم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: (**أتشهد أني رسول الله؟**) فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهدُ أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهدُ أني رسول الله؟ فرفضه رسول الله ﷺ، وقال: (**آمنتُ بالله ورسله**).

ثم قال له رسول الله ﷺ: (**ماذا ترى؟**) قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: (**خُلِّطَ عليك الأمرُ**).

ثم قال له رسول الله ﷺ: (**إني خبأتُ لك خبيئًا**)، فقال ابن صياد: هو الدُّخُّ(٤)، فقال له رسول الله ﷺ: (**اخسأ فلن تعدو قدرك**)، فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله، أضرب عنقه، فقال له رسول الله ﷺ: (**إن يَكُنْه فلن تُسَلَّطَ عليه، وإن**

(١) قال النووي: قال القاضي: لفظه (ما هو) زائدة، صلة الكلام، ليست بنافية، والمراد إثبات أنه في وجهة المشرق.
(٢) شرح النووي على مسلم (١٨/٨٠-٨٣).
(٣) الأطم: الحصن.
(٤) قيل: إن رسول الله ﷺ قد خبأ له سورة الدخان.

لا يكنه فلا خير لك في قتله)(١).

وفي الحديث الآخر الذي رواه مسلم أيضًا في صحيحه عن سالم بن عبد الله قال: سمعتُ عبد الله بن عمر يقول: انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ، وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صياد، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل، طَفِقَ يَتَقي بجذوع النخل، وهو يختلُ أن يسمع من ابن صياد شيئًا، قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على فراش في قطيفة، له فيها زمزمة(٢)، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ، وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف -وهو اسم ابن صياد- هذا محمد، فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: (**لو تركته لَبَيَّن)**(٣).

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد: (قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمرُهُ مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة، قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال، ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطعُ بأنه الدجال ولا غيره، ولهذا قال لعمر: (**إن يكن هو فلن تستطيع قتله)**(٤).

وقد نقل النووي عن البيهقي قوله: (ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي لقول عمر، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم)(٥).

نزول عيسى بن مريم:

يعد نزول عيسى بن مريم -عليه السلام- من أكبر العلامات وحدثًا من أهم الأحداث التي تقعُ بين يدي الساعة، ومن ثم فقد دل على نزوله القرآن الكريم،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤)، حديث رقم (٢٩٣٠).
(٢) الزمزمة: الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم.
(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤)، حديث رقم (٢٩٣).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٨/٤٦).
(٥) المصدر نفسه (١٨/٤٨).

والسنة والمشرفة.

فمن القرآن قوله -تعالى-: ﴿**ولما ضُرِبَ ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون* وقالوا ءألهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون* إن هو عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناهُ مثلاً لبني إسرائيل ولو نشاءُ لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون* وإنه لعلم للساعة فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم**﴾ (١).

والضمير في قوله تعالى: (وإنه..) عائد على عيسى -عليه السلام-، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾، أي: قبل موت عيسى -عليه السلام-. وقول مجاهد: (وإنه لعلم للساعة)، أي: آية للساعة خروج عيسى بن مريم -عليه السلام- قبل يوم القيامة(٢).

وفي قوله -عز وجل-: ﴿**وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن* وما قتلوهُ يقينًا* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا* وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا**﴾ (٣).

في هذه الآيات حجة قاطعة ودلالة بينة على نزوله -عليه السلام-، ومحل الشاهد قوله تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾ ، إذ المعنى ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى بعد نزوله وقبل موته، ولا خلاف في رجوع الضمير في قوله تعالى: ﴿**قبل موته**﴾ ، إلى عيسى بن مريم المذكور في صدر الآيات السالفة الذكر فيكون ذلك نصًا في أن عيسى -عليه السلام- حيًا لم يمت بعد.

وبعد استعراض طويل للآية الكريمة يلخص ابن كثير ذلك في عبارات موجزة فيقول: (ولا شك أن هذا هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان

---

(١) الزخرف ٥٧-٦١.
(٢) تفسير ابن كثير (٢٣٥/٦).
(٣) النساء ١٥٧-١٥٩.

ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، فأخبر الله رفعه إليه، وأنه باق حي، وأنه سيترل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبًا، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخترير، ويضع الجزية، يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم)[(١)].

أمَّا في السنة المطهرة فقد روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **(والذي نفسي بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخترير، ويضعُ الجزية، لا يقبلها من كافر، ويفيضُ المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها)**.

ثم يقول أبو هريرة: فاقرأوا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته...**﴾ [(٢)].

وروى مسلم أيضًا من حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ بشأن الدجال، وفيه: **(بينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فترل عند المنارة البيضاء شرق دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، وإذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تَحَدَّر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه لُدّ فيقتله، ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...)**[(٣)].

ويوافق نزوله -عليه السلام- وقت اصطفاف المسلمين لصلاة الفجر، وقد تقدم

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٣٥).

(٢) صحيح مسلم (١/١٣٥)، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ عن أبي هريرة، عن طريق ابن المسيب.

(٣) صحيح مسلم ١/١٣٦. كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد.

الإمام للصلاة، وعندما يلمح عيسى يتراجع ليطلب من المسيح أن يتقدم للإمامة، فيأبى، ثم يقول له: تقدم فصل، فإنها لكم أقيمت، فيصلي بهم إمامهم[(١)].

في هذا الوقت يستعد المسلمون لحرب الدجال، فيكرمهم الله -عز وجل- بنزول عيسى -عليه السلام-، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: (**لا تزالُ طائفة من أمتي يقاتلونَ على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزلُ عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال، صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**)[(٢)].

والسبب في عدم تقدم عيسى بن مريم للإمامة هو الدلالة على أنه جاء تابعًا لهذا النبي ﷺ، حاكمًا بالقرآن لا بالإنجيل، فإن شريعة القرآن ناسخة للشرائع قبلها، وقد أخذ الله العهدَ والميثاقَ على جميع الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتابعوهُ إذا بعث وهم أحياء: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين* فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾[(٣)]، فعيسى ينزلُ تابعًا لرسولنا ﷺ محكمًا لشريعة القرآن، ولذلك فإنه يصلي خلف ذلك الرجل الصالح.

بعد أن ينصرف عيسى من صلاة الفجر يتوجه إلى بيت المقدس حيث يكون الدجال محاصرًا عصابة المسلمين فيأمرهم عيسى بفتح الباب، قال رسول الله ﷺ: (**فإذا انصرف، قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحونَ ووراءه الدجال، معه سبعونَ ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إلى الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلقُ هاربًا... فيدركه عند باب لد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود**)[(٤)].

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٦/٢٧٧)، قال: رواهُ ابن ماجه وابن خزيمة، والحاكم، وإسناده صحيح. وانظر سنن ابن ماجه (٢/١٣٥٩).

(٢) رواهُ مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى (٤/١٣٧)، حديث رقم (١٥٦).

(٣) آل عمران ٨١، ٨٢.

(٤) صحيح الجامع الصغير (٦/٢٧٥)، وانظر سنن ابن ماجه (٢/١٣٥٩).

وقد مر معنا حديث أبي هريرة أن عيسى -عليه السلام- يدركه عند باب لد فيقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته، ويقضي بذلك على فتنة الدجال.

وفي زمان نزوله -عليه السلام- يخرج يأجوج ومأجوج فيفسدونَ في الأرض كما أشار القرآن الكريم فيدعو عيسى ربه، فيستجيبُ له، ويصبحونَ موتى لا يبقى منهم أحد.

ثم يهبطُ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدونَ في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهَمُهُم[١]، ونَتَنُهُم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم طيرًا كأعناق البخت[٢]، فتحملُهُم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل مطرًا لا يكن منه بيت مَدَر[٣] ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلقة[٤]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[٥] من الرُّمانة، ويستظلونَ بقحفها ويُبَارِكُ في الرِّسْل[٦]، حتى أن اللَّقحة[٧] من الإبل لتكفي الفئام[٨] من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[٩]، من الناس[١٠].

ويبقى عيسى -عليه السلام- في الأرض أربعين سنة لحديث أبي هريرة: (**فيمكثُ في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون**)[١١].

---

(١) أي دسمهم.
(٢) البخت: الجمال الخرسانية، وشهرتها بطول أعناقها.
(٣) بيت المدر: بيت الطين.
(٤) المرآة.
(٥) العصابة: الجماعة من الناس.
(٦) الرسل: اللبن.
(٧) اللقحة: القريبة العهد بولادة وقيل: الناقة الحلوب.
(٨) الفئام: الجماعة الكثيرة.
(٩) الفخذ: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.
(١٠) رواهُ مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٤/٢٢٥٤)، حديث رقم (٢٩٣٧).
(١١) صحيح الجامع الصغير (٥/٩٠)، رقم الحديث (٥٢٦٥)، والحديث في سنن أبي داود.

ويعم الأرض في زمانه رخاء ويسر، ويسود السلام والأمن، ولا يبقى على ظهر الأرض إلا موحد، ويقيم حكم الإسلام في الناس، ويجتمع البشر على كلمة الله تبارك وتعالى، ويغبط الناس لما يعيشون فيه من نعيم وأمن وسلام، وفي حديث أبي أمامة شيء مما يكون، وذلك عند ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم بإسناد صحيح قال: قال رسول الله ﷺ: (**فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكمًا عدلاً، وإمامًا مقسطًا، يدق الصليب، ويذبحُ الخنــزير، ويضعُ الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفعُ الشحناء والتباغض، وتنزعُ حُمَةُ كُلِّ ذات حمة**[١]**، حتى يدخل الوليد يده في الحية، فلا تضره وتضر الوليد الأسد، فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم، كما يملأ الإناء من الماء، وتكونُ الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلبُ قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثورة**[٢] **الفضة، تنبت نباها بعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب، فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة، فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بدريهمات..**)[٣].

وثبت في الأحاديث الصحيحة أنه يحج البيت العتيق، فعند مسلم في صحيحه وابن أبي شيبة، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: (ليهلن عيسى بن مريم بِفَجِّ الرَّوحاء بالحج أو العمرة أو ليثنيهما جميعًا).

والروحاء: مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة، على نحو أربعين ميلاً من المدينة أو ستة وثلاثين أو ثلاثين[٤].

ويموت عيسى -عليه السلام- في المدينة المنورة وبها يدفن، وقد قيل: إنه يدفن مع رسول الله ﷺ وصاحبيه -رضي الله عنهما- ويكون قبره رابعًا[٥].

---

(١) مثل سم الأفعى والعقرب.

(٢) الفاثورة: الخوان من الرخام أو البساط.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٦/٢٧٦)، رقم الحديث (٧٧٥٢).

(٤) لوامع الأنوار البهية (٢/١١٣).

(٥) نفس المرجع السابق.

خروج يأجوج ومأجوج:

هما قبيلتان من سلالة يافث بن نوح -عليه السلام- يخرجونَ ليعيثوا في الأرض الفساد وينشروا فيها الدمار والخراب كما كان هذا حالهم قبل أن يحجز السد الذي بناهُ ذو القرنين بيننا وبينهم، ولهم أوصاف متعددة، فمن قائل أنهم قصار القامة جدًا لهم آذان كبيرة يفترشونها لنومهم، ومن قائل بأنهم عمالقة، وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو مفرط في الطول، لهم مخالب في موضع الأظفار من أيدينا، وأنياب وأضراس السباع ولهم شعر في أجسادهم(١).

والمشهور أنهم أمة كثيرة العدد يخرجونَ فتمتلئ بهم الأرض، لا يمرونَ على شيء في طريقهم إلا أتوا عليه، وتركوا الأرض من خلفهم بلاقع.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خروجهم فقال -عز وجل-: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون* واقترب الوعدُ الحق فإذا هي شاخصة أبصارُ الذين كفروا* يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين**﴾(٢).

وفي سورة الكهف أن قومًا لا يكادونَ يفقهونَ قولاً اشتكوا إلى ذي القرنين -وكان يطوفُ في الأرض- ما يجدونه من يأجوج ومأجوج من الأذى، وطلبوا منه أن يمنعَ فسادهم بإقامة سد يحجزهم عنهم. يقولُ -عز وجل-: ﴿**حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قومًا لا يكادونَ يفقهونَ قولاً* قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعلُ لك خرجًا على أن تجعلَ بيننا وبينهم سدًا* قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردمًا* آتوني زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوه حتى إذا جعله نارًا قال آتوني أفرغ عليه قطرًا* فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا* قال هذا رحمةٌ من ربي فإذا جاء وعدُ ربي جعله دكاء وكان وعدُ ربي حقًا* وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخَ في الصورِ فجمعناهم جمعًا**﴾(٣).

---

(١) المرجع السابق (٢/١١٤).

(٢) الأنبياء ٩٦-٩٧.

(٣) الكهف ٩٣-٩٤.

وأمَّا السنة فإنه قد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة، ففي صحيح البخاري، عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا، يقول: **(لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحَلَّقَ بأصبعيه: الإبهام والتي تليها**، قالت زينب: فقلتُ: يا رسول الله، أنهلكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: **(نعم، إذا كثر الخَبَثُ)**[١].

وسبقت الإشارة إلى أن خروجهم يقعُ بعد نزول عيسى بن مريم وقتله الدجال، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل قال: قال رسول الله ﷺ: **(... ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه** (أي: من الدجال)، **فيمسح عن وجوههم ويُحَدِّثُهُم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى، أن قد أخرجت عبادًا لي، لا يَدانِ لأحد بقتالهم**[٢]**، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعثُ الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينْسلُون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربونَ ما فيها، ويمرُ آخرهم فيقولُون: لقد كان بهذه مرةً ماء، ويُحْصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيُرسِلُ الله عليهم النَّغَفَ**[٣] **في رقابهم، فيصبحونَ فَرْسَى**[٤] **كموت نفس واحدة، ثم يهبطُ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدونَ في الأرض، موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونَتَنُهُم، فيرغبُ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكنُّ منه بيتُ مَدَر ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة)**[٥].

---

(١) فتح الباري (١٠٦/١٣)، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، ورواه مسلم في صحيحه (٢٢٠٧/٤)، كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج مأجوج.

(٢) لا قدرة لأحد على قتالهم.

(٣) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٤) أي: قتلى.

(٥) شرح النووي على مسلم (٦٨/١٨، ٦٩)، باب ذكر الدجال، كتاب الفتن.

ويمثل الحديث الشريف لكثرتهم في صورة تقريبية، ففي سنن الترمذي: (سيوقدُ المسلمونَ من قِسيّ يأجوج ومأجوج، ونُشابهم، وأسلحتهم، وأترستهم سبع سنين). ورواهُ ابن ماجه في سننه[1].

وعن كيفية خروجهم، وبيان نيتهم ومصيرهم روي أكثر من حديث، ففي سنن الترمذي وابن ماجه، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومسند أحمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن يأجوج ومأجوج يحفرونَ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت الشمس مدهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرونَ شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودونَ إليه، وهو كهيئة يوم تركوه، فيحفرونه، ويخرجونَ على الناس فينشفونَ الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمونَ بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدم الذي احفظّ**[2]**، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعثُ الله عليهم نغفًا في أقفائهم، فيقتلونَ بها**). قال رسول الله ﷺ: (**والذي نفسي بيده إنَّ دوابَّ الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم**)[3].

وفي سنن ابن ماجه، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومسند أحمد، عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: (**يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجونَ على الناس كما قال الله -عز وجل-: ﴿من كل حدب ينسلون﴾ فيغشونَ الأرض، وينحاز المسلمونَ عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربونَ مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربونَ ما فيه حتى يتركوه يبسًا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان هنا مرة**

(١) ابن ماجه (٢/٤٠٧٦).

(٢) احفظ: أي امتلأ، أي ترجع ممتلئة دمًا.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/٣١٣)، وانظر في الترمذي (٢/١٩٧)، وابن ماجه (٢/٤٠٨٠).

ماء، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهلُ السماء -قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع مخضبة دمًا للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دودًا في أعناقهم كنعف الجراد الذي يخرجُ في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمعُ لهم حس، فيقولُ المسلمون: ألا رجل يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد منهم محتسبًا لنفسه، قد أظنها على أنه مقتول، فيترلُ فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجونَ من مدائنهم وحصونهم، ويسرحونَ مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط)(١).

وهذا الذي مر من نصوص عن خروجهم إنما يصور كثرتهم وهمجيتهم التي يكونونَ عليها، وما تمثله هذه الكثرة من قوة لا يقوى أحد على التصدي لهم، فيفرونَ منهم إلى الجبال والحصون اتقاء شرهم حتى يبيدهم الله، ويغسل الأرض من أوضارهم.

- ظهور الفساد وفناء الأخيار:

تتبدل أحوال الناس بعد موت عيسى -عليه السلام- وتبدأ مرحلة جديدة من مراحل ضعف المسلمين وجهلهم بالإسلام، ويقوى نفوذ الشر، ويقل العلم حتى لا يذكر أحد من الإسلام إلا اسمه يتردد على ألسنة من عاشوا زمنًا بعيدًا. واستشراء الشر، وتكاثر الأشرار معجل بظهور الآيات العظام التي تسرع بالأحداث نحو قيام الساعة.

روى مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تقومُ الساعة إلا على شرار الخلق)**(٢).

وذلك بعد أن تبهت صورة الإسلام في النفوس حتى تكون الأيام كما في

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤٠٢/٤)، وانظر في سنن ابن ماجه (٤٠٧٩/٢).
(٢) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب قرب الساعة (٢٢٦٨/٤)، حديث رقم (٢٩٤٩).

الحديث الذي أخرجه ابن ماجه والحاكم عن حذيفة بن اليمان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز، يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحنُ نقولها**)[١].

ويتناقص عدد الصالحين في الأرض حتى يبعث الله ريحًا تقبض من تبقى من المؤمنين لتقوم الساعة على الأشرار.

وروى البخاري بإسناده إلى مرداس الأسلمي -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: (**يذهب الصالحونَ الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر، لا يباهم الله باله**)[٢].

وفي حديث مسلم، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (**إن الله يبعث ريحًا من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدعُ أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلاَّ قبضته**)[٣].

وفي رواية عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**)[٤].

وفي صحيح مسلم أيضًا عن النواس بن سمعان يرفعه: (فبينما كان كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقومُ الساعة)[٥].

ومن مظاهر دروس الإسلام أن ينقطع أداء الشعائر حتى شعيرة الحج، فلا حج ولا عمرة، ففي مسند أبي يعلى ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى لا يُحَجَّ**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/١٢٧)، وانظر سنن ابن ماجه (٢/١٣٤٤).

(٢) رواهُ البخاري، انظر فتح الباري (١١/٢١٠)، والنهاية لابن كثير (١/١٨٦).

(٣) رواهُ مسلم في صحيحه (١/١٠٩)، باب في الريح التي تكون قرب القيامة حديث رقم (١٨٥).

(٤) رواهُ مسلم في صحيحه (١/١٣١)، حديث رقم (٢٣٤)، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان.

(٥) رواهُ مسلم في صحيحه (٤/٢٢٥٥)، حديث رقم (٢٩٣٧).

البيت)[١].

وأمَّا ما رواهُ البخاري عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: (**ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**)[٢].

فهذا حاصل قبل انبعاث الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين وفي هذا الوقت تكون العبادة مستمرة فيمن تبقى من الصالحين.

العودة إلى الجاهلية وعبادة الأوثان:

بعد فناء الأخيار، وبقاء الأشرار، تعودُ الأرض سيرتها الأولى، ويسقط العقل في حمأة الجهل فتظهر عبادة الأثان ثانية كما كانت قبل الإسلام. وقد أخبرنا المصطفى ﷺ فيما يكون بعد موت عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان، ففي حديث مسلم عن عبد الله بن عمرو: (ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو كان أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه، حتى تقبضه، قال: سمعتُها من رسول الله ﷺ، قال: (**فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرونَ منكرًا فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبونَ؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارَّة أرزاقهم، حَسَنٌ عيشهم، ثم ينفخُ في الصور**)[٣].

وتعودُ العرب لأصنامها في الجاهلية: اللات والعُزى، وذو الخلصة، ففي صحيح مسلم، عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**). فقالت عائشة: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿**هو الذي أرسلَ رسوله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره**

---

(١) انظر صحيح الجامع الصغير (٦/١٧٤)، حديث رقم (٧٢٩٦)، وانظر كذلك بداية النهاية لابن كثير (١/١٨٦).

(٢) رواهُ البخاري، انظر فتح الباري (٣/٣٥٧).

(٣) رواهُ مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج الدجال (٤/٢٢٥٨)، ورقمه (٢٩٤٠).

المشركون﴾ (١) أن ذلك تامٌّ، قال: (**إنه سيكون ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعونَ إلى دين آبائهم**)(٢).

ومن الأوثان التي تعبد (ذو الخَلَصَة)، وهو صنم لقبيلة دوس كانت تعبده في الجاهلية، ففي صحيحي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**لا تقومُ الساعة حتى تضطرب أليَاتُ نساء دوس حول ذي الخَلَصَة**)(٣).

وفي رواية البخاري عن ذي الخلصة.

ومن دلائل ما يكون في تلك الأيام المظلمة، أن الرذيلة تفشو حتى لا يخجل أحد، وتنقطعُ المروءة. فقد أخرج البزار في مسنده، وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تقومُ الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير**). قلتُ: إنَّ ذلك لكائن؟ قال: (**نعم، ليكونن**).

وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعًا أخرجه الحاكم: (والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: هلا واريتها وراء الحائط)(٤).

وقد سقنا قبل صفحات ما يؤيد هذا المعنى من حديث النواس بن سمعان في الدجال، ويأجوج ومأجوج.

هدم الكعبة:

من الآيات العظام التي تسبق قيام الساعة، هدم الكعبة المشرفة، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) التوبة ٣٣.

(٢) رواهُ مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقومُ الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٢٣٠/٤)، حديث رقم (٢٩٠٧).

(٣) رواهُ البخاري في كتاب الفتن، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، انظر فتح الباري (٧٦/١٣). وكذلك مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٢٣/٤)، حديث رقم (٢٩٠٦).

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني (٢٤٥/١).

(يُبَايعُ لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلاَّ أهله، فإذا استحلوهُ فلا يسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا وهم الذين يستخرجونَ كنزه)(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(يُخَرَّبُ الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويَسْلُبَها حُلِيِّها، ويجردها من كسوها، ولكأني أنظرُ إليه أصَيْلِعًا أُفيدعًا**(٢)**، يضرب عليها بمَسَاحِيه ومعْوَله)**(٣).

وفي صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **(كأني أنظرُ إليه أسودَ أفحجَ ينقضُها حجرًا حجرًا، يعني الكعبة)**(٤).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)**(٥).

ويشرح النووي حديثًا معلقًا، فيقول: ذو السويقتين هما تصغير ساقي الإنسان لرقتهما وهي صفة سوق السودان غالبًا.

ويردُ على سؤال حول كيفية هدم الكعبة وهي في البلد الحرام الآمن: مكة. فيقول: ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿**حرمًا آمنًا**﴾؛ لأن معناهُ آمنًا إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل: يخص منه قصة ذي السويقتين(٦).

طلوع الشمس من مغربها:

من آيات القيامة الكبرى طلوع الشمس من مغربها ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تقومُ الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفعُ**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني (٢/١١٩) وانظر المسند (٢/٢٩١).

(٢) الفدع: اعوجاج المفاصل.

(٣) ابن كثير: نهاية البداية (١/١٨٧)، قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي.

(٤) الأفحج: من به فحج: وهو تداني صدور القدمين، تباعد العقبين.

(٥) نهاية البداية: ابن كثير (١/١٨٧).

(٦) شرح النووي على مسلم (١٨/٣٥).

نفسًا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا)[١].

خروج دابة الأرض:

تخرجُ هذه الدابة في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وإذا وقع القولُ عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾ [٢].

وهذه الدابة ليست مما ألف الناس من أشكال الدواب، فهي دابة تتكلم، قيل إنها تقولُ للناس: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ولها أوصاف كثيرة تذكرها كتب التفاسير وكتب الفتن، لا دليل عليها.

وفي مسند الإمام أحمد، والبخاري في (التاريخ الكبير)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناد صحيح عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ، قال: (**تخرجُ الدابة، فَتَسِمُ الناس على خراطيمهم، ثم يعمرونَ فيكم حتى يشتري الرجل البعير، فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المخطمين**)[٣].

وفي مسند الطيالسي عن رجل من آل عبد الله بن مسعود قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: (لها ثلاث خَرْجات من الدهر: فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية -يعني مكة-، ثم تكمن زمنًا طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية) يعني: مكة، قال رسول الله ﷺ: (ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، تنفضُ عن رأسها التراب، فانفضَّ الناس عنها شتى ومعًا، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم، فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولّت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقائق فتح الباري (٣٥٢/١١)، ورواهُ مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (٣٧/١).

(٢) النمل ٨٢.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألباني (٣١/١)، حديث رقم (٣٢٢)، وانظر المسند (٢٦٨/٥).

فلان! الآن تصلي، فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلقُ، ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر، اقضني حقي، وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضني حقي)[(١)].

النار التي تخرج من اليمن:

ذكرنا فيما سبق حديث مسلم الذي عدد فيه الرسول ﷺ أشراط الساعة وذكر منها النار التي تخرج من اليمن، تطردُ الناس إلى محشرهم.

وفي علامات الساعة الصغرى أشرنا إلى ما ورد في السنة المشرفة من ذكر نار تخرج من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى، وذكرنا ما رواهُ العلماء بشأنها.

وهذه النار التي تطردُ الناس إلى محشرهم يروي البخاري خبرها في صحيحه عن أنس -رضي الله عنه- أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة (أي: مهاجرًا) فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث: ما أول أشراط الساعة؟ فقال الرسول ﷺ: (**أما أول أشراط الساعة فنار تحشرُهم من المشرق إلى المغرب**)[(٢)].

وفي سنن الترمذي عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: (**ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشرُ الناس**)، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: (**عليكم بالشام**)[(٣)].

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إنكم تحشرونَ رجالاً وركبانًا، وتجرونَ على وجوهكم هاهنا، وأومأ بيده نحو الشام**)[(٤)].

وفي صحيح البخاري تفصيل للكيفية التي تحشر فيها النار الناس إلى أرض الشام، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (يحشرُ الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين،

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢٥٥)، وانظر في مسند أبي داود (١٤٤).

(٢) فتح الباري (٧/٢٧٢).

(٣) سنن الترمذي (٣/٣٣٧، ٣٣٨)، وانظر صحيح الجامع الصغير (٣/٢٠٣)، حديث رقم (٣٦٠٣).

(٤) المسند (٥/٣)، والترمذي (٤/٣٩)، وانظر صحيح الجامع الصغير (٢/٢٧٢)، حديث رقم (٢٢٩٨).

اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيتُ معهم حيث باتوا، وتصبحُ معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا)[1].

وفي الفصل الذي عقده ابن كثير في كتابه (نهاية البداية) عن حشر الناس أصنافًا ثلاث، يروي الأحاديث الواردة، منها ما ذكرناهُ، وما زاد عليه، ثم يقول: (فهذه السياقات تدلُ على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا، من أقطار محلة الحشر، وهي أرضُ الشام، وأنهم يكونونَ على أصناف ثلاثة، فقسم يحشرونَ طاعمين كاسين راكبين، وقسم يمشونَ تارة ويركبون أخرى، وهم يعتقبون على البعير الواحد، كما تقدم في الصحيحين: (اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير)، يعني يعتقبونه من قلة الظهر، كما تقدم، كما جاء مفسرًا في الحديث الآخر، وتحشرُ بقيتهم النار، وهي التي تخرجُ من قعر عدن، فتحيطُ بالناس من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب، إلى أرض المحشر، ومن تخلف منهم أكلته).

وهذا كله مما يدلُ على أن هذا في آخر الدنيا، حيث الأكل والشرب، والركوب على الظهر المستوي وغيره، وحيث يهلك المتخلفونَ منهم بالنار، ولو كان هذا بعد نفخة البعث، لم يبق موت ولا ظهر يسري، ولا أكل ولا شرب، ولا لبس في العرصات.

والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث، حمل هذا الركوب على أنه يوم القيامة، وصحح ذلك، وضعف ما قلناهُ، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**يوم نحشرُ المتقين إلى الرحمن وفدًا* ونسوقُ المجرمين إلى جهنم وردًا**﴾[2].

وكيف يصح ما ادعاهُ في تفسير الآية بالحديث، وفيه: (أن منهم اثنين على بعير، وعشرة على بعير) وقد جاء التصريح فيه بقلة الظهر وهذا لا يلتئم مع هذا، والله أعلم، تلك نجائب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات، على غير هذه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري (١١/٣٧٧).

(٢) مريم ٨٥ .

الصفة كما سيأتي تقرير ذلك في موضعه[١].

وآخر من تحشرهم النار راعيين من مزينة، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلاَّ العوافي (يريدُ عوافي السباع والطير)، وآخر من يحشر راعيان من مزينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثَنِيّة الوداع خرَّا على وجوههما**)[٢].

---

(١) نهاية البداية والنهاية، ابن كثير (١/٢٥٩).

(٢) انظر فتح الباري (٤/٨٩/٩٠)، ومسلم (٤/١٢٣)، مطبعة كتاب التحرير القاهرة، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/٤٣٠٢).

الفصل الثالث

البعث والحساب

أفاض القرآن الكريم في الحديث عن يوم القيامة، وما يجري فيه من أهوال وأحداث، وأبانَ في وضوح تام عن مواقفه ومشاهده في سور كثيرة، يتكرر الخبر وتتغير الصور، وتتبدل المواقف، لتدل في كل مشهد على حدث، يرسم إطاراً لذلك اليوم الرهيب الذي تم وصفه في القرآن بأنه: ﴿**يوم ترونها تذهلُ كل مرضعة عما أرضعت وتضعُ كلُّ ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾[١].

(والذي يقع في النفس من عرض مشاهد القيامة في القرآن هذا العرض الفردي لها هو أن يقع كل مشهد على حدة موقعًا متمكنً ا من النفس، دون أن يزحمه مشهد آخر، أو يطغى عليه.. فكل مشهد من مشاهد القيامة منظور إليه على أنه أمر عظيم.. جدير بأن تحتجز له النفس كلها، وأن تشغل به وحده.. وهكذا تقعُ المشاهد جميعها من النفس هذا الموقع الثابت الواضح)[٢].

وقارئ القرآن يدرك هذا الاهتمام الكبير الذي ناله اليوم الآخر، حتى تمثل في آياته بهذه المتابعة الملحة التي تضعُ أمام العين حقائق اليوم الآخر شاخصة يكاد المرء يراها لقوة ما تحمل من تعبير، بل كأنها تمرُ أمامه وهي مشاهد لها في عجب ودهشة، وخوف وفزع، ويقين وإيمان بحدوث ما يعلنه القرآن العظيم.

ليس عجيبًا بعد هذا أن يترجم سيد قطب هذا الإحساس بقوله: (لقد عني القرآن بمشاهد القيامة: البعث والحساب، والنعيم والعذاب، فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر، موصوفًا فحسب، بل عاد مصورًا محسوسًا وَحَيًّا متحركًا، وبارزًا شاخصًا، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة،

---

(١) الحج ٢.

(٢) الله.. والإنسان.. : د/ عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي -القاهرة- ط ١٩٧١/٢ (٣٣٨).

رأوا مشاهده، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم من النار شواظ، ورف إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفونَ هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود)(١).

والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة (فإن الآخرة صفة تأنيث الآخر -بالمد وكسر الخاء- وهو الحاصل المتأخر عن شيء قبله في فعل أو حال، وتأنيث وصف الآخرة منظور فيه إلى أن المراد إجراؤه على موصوف مؤنث اللفظ حذف لكثرة استعماله وصيرورته معلومًا، وهو يقدر بالحياة الآخرة مراعاة لضده وهو الحياة الدنيا، أي: القريبة، بمعنى: الحاضرة، ولذلك يقالُ لها: العاجلة، ثم صارت الآخرة علمًا بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد الموت، وهي الحاصلة بعد البعث لإجراء الجزاء على الأعمال)(٢).

وقد تعدد ذكرُ يوم القيامة في القرآن حتى إن لفظ (الآخرة) وحده ذكر خمس عشرة ومائة مرة.

وقد شرح القرطبي ما ورد في القرآن من أسماء القيامة في كتابه التذكرة، ويرى الدكتور عمر الأشقر أن (تفسيره مأخوذ من كتاب (سراج المريدين) لابن العربي، وربما زاد عليه شيئًا ما في الشرح والتفسير)(٣).

ويقول ابن حجر العسقلاني عن أسماء يوم القيامة: (وجمعها الغزالي، ثم القرطبي فبلغت نحو الثمانين اسمًا)(٤).

ويعلل القرطبي هذه الكثرة في الأسماء بقوله: (وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا من كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦ (٣٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر -تونس ١٩٨٤- الجزء الأول- الكتاب الأول (٢٤٠).

(٣) القيامة الكبرى: د: عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت- ط أولى ١٩٨٦ (١٩).

(٤) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (١١/٣٩٦).

فالقيامة لما عظمَ أمرها وكثرت أهوالها سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة)[١].

النفخ في الصور:

قال الله تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿**يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين**﴾ [٣].

وقد ورد النفخ في الصور في القرآن الكريم في عشر آيات[٤].

وورد ذكر الصور في السنة المطهرة في قوله ﷺ: (**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ**)، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ. فقال لهم: (**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**).

وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظرُ أن يؤمر ينفخ، فينفخ**). قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسول الله؟ قال: (**حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**)[٥].

والصور في لغة العرب: القرن، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود، وسنن ابن حبان، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي -مطابع مدكور وأولاده- القاهرة (٢١٤).

(٢) الزمر ٦٨.

(٣) النمل ٨٧.

(٤) وهي حسب ترتيبها كما وردت في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: سورة الأنعام (٧٣)، الكهف (٩٩)، طه (١٠٢)، المؤمنون (١٠١)، النمل (٨٧)، يس (٥١)، الزمر (٦٨)، ق (٢٠)، الحاقة (١٣)، النبأ (١٨).

(٥) سنن الترمذي (٦٢٠/٤)، وانظر تخريج الحديث بطرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٦٦/٣).

عنهما- قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: (**قرن ينفخُ فيه**)[(١)].

وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ (الصور) جمع صورة، وتأوله على أن المراد بالنفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح.

ونقل عن أبي عبيدة أنه قال: (يقالُ إنها جمع صورة تنفخ فيها روحها، فتحيا، بمنزلة قولهم: سور المدينة، واحدها سورة، وكذلك كل ما علا وارتفع)[(٢)].

قال أبو الهيثم: (وهذا خطأ فاحش، وتحريف لكلم الله عن مواضعه؛ لأن الله -عز وجل- قال: ﴿**وصوركم فأحسن صوركم**﴾ [(٣)] بفتح الواو، ولا نعلمُ أحدًا من القراء قرأها: فأحسن صوركم، وكذلك قال الله: ﴿**ونفخ في الصور**﴾ فمن قرأها ونفخ في الصور أو قرأ: ﴿**فأحسن صوركم**﴾ فقد افترى الكذب وبدَّل كتاب الله، وكان أبو عبيدة صاحب أخبار وغريب، ولم يكن له معرفة بالنحو).

وقال الفراء: (كل جمع على لفظ الواحد الذكر سبق جمعه واحدته، فواحدته بزيادة هاء فيه، وذلك مثل الصوف والوبر والشَّعر والقطن والعشب، فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه، فإذا أفردت واحدته زيدت فيها هاء؛ لأن جميع هذا الباب سبق واحدته، ولو أن الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا: صوفة وصُوَف، وبُسْرةٌ وبُسرَ، كما قالوا: غرفة وغرف، وزلفة وزلف.

وأمّا الصور: القرن، فهو واحد لا يجوز أن يقال: واحدتُه صورة، وإما تجمع صورة الإنسان صُورًا، لأن واحدته سبقت جمعه.

قال الأزهري: (قد احتج أبو الهيثم فأحسن الاحتجاج، ولا يجوز عندي غير ما ذهب إليه، وهو قول أهلُ السنة والجماعة، والدليل على صحة ما قالوا: أنَّ الله -جل وعلا- ذكر تصويره الخلق في الأرحام قبل نفخ الروح، وكانوا قبل أن صورهم نُطَفًا، ثم عَلقًا، ثم مُضَغًا، ثم صورهم تصويرًا)[(٤)].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٦٨)، انظر سنن الترمذي (٤/٦٢٠)، والمسند (١٦٢/١٩).

(٢) مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى، نشر محمد سامي الخانجي بمصر -بتحقيق محمد فؤاد سزكين الطبعة الأولى ١٩٥٤ (١/١٩٦).

(٣) غافر ٦٤.

(٤) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري -الدار المصرية للتأليف والترجمة -تحقيق: عبد العليم البردوني (١٢/٢٢٨-٢٢٩) مادة: صار، وانظر كذلك ابن منظور، لسان العرب (٤/٤٧٦) مادة: صور.

فالصور موجود لدلالة القرآن عليه، وتوضيح السنة له، وموكل به ملك عظيم جدًا ينتظرُ الإذن من الله -عز وجل- بالنفخ فيه.

وهو عبارة عن قرن كما ورد في الحديث الشريف، يشبه البوق كما ذكر البخاري عن مجاهد(١).

والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل الذي ينفخُ في الصور مرتين، وقد دلت الآية السابقة على أن النفخ مرتان: الأولى يحصلُ بها الصعق، والثانية يحيي الله بعدها الخلائق، وقد سمى القرآن العظيم النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، حيث قال: ﴿**يوم ترجفُ الراجفة* تتبعها الرادفة**﴾ (٢).

وسماها في موضع آخر بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالى: ﴿**ما يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾(٣).

وصرحت الأحاديث النبوية بالنفختين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**ما بين النفختين أربعون**). قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيتُ. قال: أربعونَ سنة؟ قال: أبيتُ، قال: أربعونَ شهرًا؟ قال: أبيتُ، (**ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يُركب الخلق**)(٤).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (**ثم ينفخُ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا، ورفع ليتًا**(٥)**، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسلُ الله -أو**

---

(١) انظر فتح الباري (١١/٣٦٨)، باب: نفخ الصور حيث قوله: (قال مجاهد: الصور كهيئة البوق).

(٢) النازعات ٦، ٧.

(٣) يس ٤٩-٥١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٨/٥٥١). ومسلم (٤/٢٢٧٠).

(٥) الليت: صفحة العنق، إصغاؤه: إمالته.

قال: ينـــزلُ الله مطرًا، كأنه الطلّ، أو الظل، (نعمان الشاك)- فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون)(١).

وقد تتبع الإمام ابن حجر العسقلاني أقوال العلماء في مسألة النفخ في الصور، وبيَّن حجج القوم في عدد مرات النفخ، ورجَّح رأي القائلين بنفختين.

وبين استدلال القائلين بأنها نفخات ثلاث: نفخةُ الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، بأن ذلك لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السماوات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة. وقد نص عليه في قوله: (ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا يحصلا معًا من النفخة الأولى)(٢).

وذكر القرطبي مثل كلام ابن حجر إذ يقول: (ونفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لا زمان لهما، أي: فزعوا فزعًا ماتوا منه)(٣).

بعد النفخة الأولى، نفخة الموت، يهدأ ضجيج الحياة، ويتوقف لهاث البشر، ويعم الكون سكون رهيب لانقضاء الحياة على ظهر الأرض، فلا يبقى حي إلا وقد أتاه أجله، إلا من شاء الله -عز وجل-، ومن عناهم رب العزة في محكم الآية القرآنية الكريمة: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ (٤).

وللعلماء فيمن لا يصعق أقوال لم يرد دليل يعتمد عليه في تعيينهم، فقيل: هم الشهداء، وقيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: هم الحور، والولدان في الجنان.

وفي الكتب التي تناولت اليوم الآخر(٥) وأحداث الساعة أخبار مجموعة وآراء للعلماء كثيرة تبحث هذا الموضوع. بعضها يستندُ إلى أدلة قرآنية مردها تفسير

---

(١) مسلم (٤/٢٢٥٨).
(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١١/٣٦٩).
(٣) التذكرة: القرطبي (١٨٤).
(٤) الزمر ٦٨.
(٥) ينظر في ذلك: كتاب التذكرة للقرطبي، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وكتاب الروح لابن قيم الجوزية.

الآيات، وبعضها يعتمدُ الحديث الشريف، وإنْ وَهَّن المُحدِّثُونَ طرقه ومرتبته.

ولابن تيمية رأي يعبر عن مذهب أهل السنة والجماعة تجاه مناقشة هذه القضايا، فبعد أن أبدى وجهة نظره في مسألة الاستثناء قال مختتمًا كلامه: (فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبِر بكل من استثنى الله، ولم يمكنا نحنُ أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخير، والله أعلم)(١).

وما بين النفختين، نفخةُ الموت ونفخة البعث يجمعُ الله جسد كل مخلوق على عجب ذنبه، ثم يترلُ الله مطرًا خاصًا يصير به التراب طينًا، ثم يتحول إلى جسد ذي عظم ولحم ودم.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما بين النفختين أربعون، ثم يترل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلا بلي، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة**)(٢).

وكما ينبت الزرع من الأرض إذا بللها المطر أو سقاها، فإن الله مخرج منها الإنسان بعد فنائه، وقد ضرب الله المثل في القرآن في قوله -عز وجل: ﴿**وهو الذي يرسلُ الرياح بشرًا بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحابًا ثقالاً سقناهُ لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك يُخرجُ الموتى لعلكم تذكرون**﴾ (٣).

وقوله -عز وجل-: ﴿**والله الذي أرسل الرياح فتثيرُ سحابًا فسقناهُ إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور**﴾ (٤).

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أجساد الأنبياء لا يصيبها الفناء كما يصيب أجساد سائر العباد لما ورد في الحديث الذي يرويه أبو داود وغيره: (**إن الله حرَّم**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية (٤/٢٦١).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٢٧٠، ٢٢٧١)، فتح الباري (٨/٦٨٩، ٦٩٠).

(٣) الأعراف ٥٧.

(٤) فاطر ٩.

على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)[١].

أحداث البعث:

عندما ينفخُ إسرافيل في الصور نفخته الثانية، تهب الخلائق من قبورها سعيًا إلى أرض المحشر حيث يقفون جميعًا أمام خالق الأرض والسماء، كل حسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، يومئذ يبهتُ الكافرون المعاندون حينما يجدونَ ما أنكروا حاضرًا، وما كافحوا من أجله حياتهم قد مضى هباء لا رجعة فيه، وَرَنَّ في أسماعهم نغم القرآن العظيم وهو يُتلى عليهم فيصدون عنه: ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾ [٢]. ويذكرهم الباري -عز وجل- لو كانوا يعقلونَ فيما مضى في قوله تبارك وتعالى: ﴿**ألا يظنُ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ [٣].

إن هذا اليوم العظيم سماهُ رب العزة: يوم الجمع لما يتم فيه من جمع الأولين والآخرين: ﴿**قل إن الأولين والآخرين لمجموعونَ إلى ميقات يوم معلوم**﴾ [٤]. وهو يوم مشهود: ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾ [٥].

في ذلك اليوم الرهيب لن يتخلف أحد، إن جموع التاريخ البشري وافدة تنسل من كل حدب وصوب، لن يعزب عن علم رب العالمين مخلوق واحد، تأمل قوله عز من قائل: ﴿**إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً* لقد أحصاهم وعدهم عدًا* وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا**﴾ [٦].

وقوله تباركت أسماؤه: ﴿**وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا**﴾ [٧].

وذكر القرطبي حكاية أهل العلم في حشر البهائم، وأيد القول بالحشر، وساق

---

(١) فتح الباري (٦/٤٨٨).
(٢) التغابن ٧.
(٣) المطففين ٤-٦.
(٤) الواقعة ٥٠.
(٥) هود ١٠٣.
(٦) مريم ٩٣-٩٥.
(٧) الكهف ٤٧.

الأخبار الصحيحة الواردة في ذلك، قال: (واختلف الناس في حشر البهائم وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها، وقاله الضحاك، وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر، وقاله أبو ذر، وأبو هريرة، وعمرو بن العاص، والحسن البصري، وغيرهم، وهو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ [(١)] وقوله: ﴿**ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ [(٢)].

قال أبو هريرة: يحشرُ الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والطير، والدواب، وكل شيء. فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجمَّاء من القَرْناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿**ويقول الكافرُ يا ليتني كنتُ ترابًا**﴾ [(٣)]، ونحوه)[(٤)].

إن وصف تلك اللحظات العصيبة وما سيتلوها من أحداث لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنها، ولا يقوى عقل بشر مهما أوتي من قوة التخيل أن يتصورها بغير التعبير القرآني أو يتلمسها بسوى الكلمات الشريفة التي نطق بها المصطفى ﷺ.

إن القرآن الكريم ينقلُ لنا أحداث القيامة كأنها كتاب مفتوح، ونتملى مضمون الكلمات من واقع ما يمر بنا من أحداث الحياة، فنتمثلها بخيالنا القاصر حسب ما نعرفه من مشاهداتنا في بعض الأحيان، في الوقت الذي لا نستطيع تصور بعض الحقائق دون تقريب، وتوضيح، وتبسيط، وتفسير، وذلك ما يجليه الحديث الشريف من خلال سؤال يوجه للرسول ﷺ، فلا يكون الجواب خاصًا بفرد، إنما تفهمه الأمة على امتداد تاريخها، ومضيفة إلى رصيدها هذا الفهم الذي يكون حجة لها، ونبراسًا تهتدي به في ظلمات الحياة.

لا بد لنا أن ننظر في القرآن الكريم نظره تبين لنا هذه المشاهد المروعة التي تبعث الفزع في القلوب، وتقشعرُ لهولها الأبدان، وتحتارُ في إدراكها العقول، فلا تملكُ إلا

---

(١) التكوير ٥.

(٢) الأنعام ٣٨.

(٣) النبأ ٤٠.

(٤) القرطبي: التذكرة (٢٧٣).

التسليم المطلق إزاء العظمة الربانية، وتسجدُ لخالق الأرض والسماء وتسبح بحمده، تسأله العفو والغفران، وأن يكون ذلك اليوم، يوم فرح مع المؤمنين، ويوم نجاة مما يصيب الكافرين.

هذه صورة من صور البعث في القرآن الحكيم: ﴿**فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة* وحملت الأرضُ والجبال فدكتا دكة واحدة* فيومئذ وقعت الواقعة* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية* والملكُ على أرجائها ويحملُ عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية* يومئذ تعرضونَ لا تخفى منكم خافية**﴾ (١).

وفي سورة أخرى نجد مظاهر أخرى من مشاهد ذلك اليوم وقد أصابها ما أصابها من أمر ربها: ﴿**إذا السماء انفطرت* وإذا الكواكب انتثرت* وإذا البحارُ فجرت* وإذا القبور بعثرت* علمت نفسٌ ما قدمت وما أخرت**﴾ (٢).

والجبال الراسيات، التي تحفظ توازن هذه الكرة المعلقة...ما شأنها؟ يفغر الناظرُ فاه وهو يراها تمرُ من أمامه كأنها لم تكن يومًا ذات أوتاد: ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُ مرَّ السحاب صُنْعَ الله الذي أتقنَ كل شيء إنه خبير بما تفعلون**﴾ (٣).

ويستمرُ القرآن في تبديد حيرتهم، وهم يستمعونَ إلى آياته في سير الجبال ومرها مر السحاب فيقول: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا* فيذرها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا**﴾ (٤).

وتستمرُ أهوال اليوم العصيب، وتنخلعُ قلوب الكافرين لما يشهدون من تحقيق أمر الله الذي أنكروهُ طويلاً فإذا هو واقع بهم، يحسونه بكل جارحة من جوارحهم، وينظرونه رأي العين، ولا يجدونَ لهم نصيرًا، أو ملجأ يأوونَ إليه، فكل شيء حولهم مضطرب متصدع لا ثبات له، وكل ما أملوه من قوة في المخلوقات المحسوسة قد تلاشى، فالسماء بارتفاعها وسموها قد انفطرت، والكواكب التي كانت مثار

---

(١) الحاقة ١٣-١٨.
(٢) الانفطار ١-٥.
(٣) النمل ٨٨.
(٤) طه ١٠٥-١٠٦.

إعجاهم وتقديسهم قد انتثرت، والبحار التي كانت تحت أبصارهم خلقًا يخافون منه، قد فجرت، والقمر الذي تغنوا به دهرًا طويلاً، وأنكروا على رسول الله ﷺ أن يكون قد انشق كما أخبرهم بمكة، يرونه مخسوفًا لا أثر لنوره، والشمس هذا المخلوق الكبير الذي طالما سجدت له خلائق من قبل واتخذوه ربًا، ها هو ذا في كسوفه وذهاب ضوئه، يتبع الأمر الإلهي بانقضاء أجله، فيأوي إلى المكان الذي اختاره له ربه، ليس هذا فقط، فالأرض التي يقفُ الإنسان عليها قد اضطربت وماجت، فها هي تهتزُ هزات عنيفة، يتصدع من هول زلزالها القلب، وترتجف قوته حتى يعود ضعيفًا آيسًا، ولا يبقى في الأرض شيء إلا أخرجته، ما عرفته البشرية في تاريخها وما لم تعرفه، فيذهل الرائي لما يرى حتى يردد من فزعه: ما لها؟

ذلك يوم تحدث الأرض من كان ضالاً منكرًا لرسالة ربه أن هذا هو الحق الذي كان يمارس فيه حياته، إن الأرض تخبره أن الله القادر أوحى لها أن تري البشر ما كانوا ينكرون، ويشتدون في الإنكار، ويكذبون المرسلين ويردون دعوتهم، وهم يتلونَ آيات ربهم محذرين ومنذرين، إن للكافرين المعاندين أن يروا فعل ربهم وخالقهم... إنها أوامره سبحانه وتعالى أن يحدث هذا الذي يحدث، وأن يقفوا على ضلالهم وكفرهم ومتابعتهم للشيطان وأتباعه، إنه اليوم الذي طالما حُذِّروا منه، وبذل الأنبياء في سبيل إنقاذهم منه ما استطاعوا من جهد وعمل... ولكنهم صدوا وسخروا، فاليوم يشهدونَ ما كذبوا به.

والتصوير القرآني لأهوال ذلك اليوم يقرب المشاهد المفزعة من صور مألوفة، يلمسها الناس في حياتهم اليومية ويتعاملونَ معها، وتكتظُ بها آدابهم وأشعارهم، وتكشف عنها ملاحمُ الحروب، أو حالات الفرح، فهم أقدرُ على تمثيلها واستجلاء مضمونها، ورحمةُ الله تحيطُ بالبشر، وهي تحذرهم من مغبة ذلك اليوم العظيم، فتبدأ الآية بالنداء الرباني العام لبني الإنسان: ﴿**يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم* يوم ترونها تذهلُ كل مرضعة عما أرضعت وتضعُ كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾ [(١)].

---

(١) الحج ١-٢.

إن هذه الآية تصور حالة الذهول والخوف الذي يصيب الناس، حتى ليكاد المرء يفقد عقله من هول ما يرى، وما بالإنسان من سكر أو خبال، ولكن وعد الله قد تحقق، والتحذير واضح شديد الوضوح في قوله عز وجل: ﴿**إن زلزلة الساعة شيء عظيم**﴾. وحتى يقترب الفهم، ضرب المثل في الأم التي تتخلى عن رضيعها لشدة الموقف وما كانت الأم لتطرح ولدها، وهي التي تفديه بنفسها عندما تحل الكارثة، أما في هذا الموقف فإنها تذهلُ عنه لغلبة الشدة التي تعتري كل إنسان فلا يجد أكرم من نفسه إليه.

ويلمس القرآن من الإنسان ما يزيده يقينًا، إذ القلوب هي المحك، فثباتها ثبات للإنسان الذي لم يرتكب جرمًا، إنما أتى ربه بكل عمل أرضاهُ في الدنيا فهو لاقيه عنده، أما المعاند فإنه لن يعصمه في ذلك اليوم شيء، وهنا يحذر الباري -عز وجل- من ذلك الموقف الذي سماهُ: يوم الآزفة: ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين**﴾ [1].

إنَّ الهلعَ أخرسها فما عادت تستقر في مكانها، ولم يجدوا من رد يتفوهونَ به، فكان السكوت علامة الخزي والخذلان.

أمّا الأبصار فزائغة تتقلبُ فيما حولها، فلا تجدُ إلا ما تنكر، فما ألفت في حياتها الدنيا ما تشهدهُ في ساعتها هذه، إنهم كانوا يسمعونَ في الدنيا قراءة المؤمنين لكتاب ربهم وهو يقول: ﴿**قلوب يومئذ واجفة* أبصارها خاشعة**﴾[2]. ويسمعون: ﴿**يخافونَ يومًا تتقلبُ فيه القلوب والأبصار**﴾ [3]. فما كانت لتعنيهم وهم جنود إبليس، دأبهم أن يعارضوا الحق، والشيطان ينفخُ في كبريائهم فيزدادونَ شموخًا في الباطل، إنهم في يومهم هذا يرقون ما يحيط بهم من هم مقيم، وعذاب لا مرد له، ولن يغني عنهم ما كانوا يتعلقونَ به في الدنيا من أسباب العنجهية والتكبر، إن أبصارهم لا تطرف لشدة رعبهم وهلعهم، بل لا يقوون على الالتفات يمينًا وشمالاً، وقلوبهم هائمة لا تعي ولا تعقل، إنهم كفروا بتحذير ربهم لهم فحق عليهم وعلى أمثالهم وعد الله:

---

(١) غافر ١٨.
(٢) النازعات ٨، ٩.
(٣) النور ٣٧.

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعملُ الظالمونَ إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار* مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدُ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ (١).

إن التحذير الذي ذكره الله في القرآن فخشعت له قلوب المؤمنين فثبتت يوم اللقاء، هو التحذير الذي سخر منه الكافرون فعضوا بنان الندم حزنًا على استكبارهم وتماديهم في الغي، إنه حذرهم من ذلك اليوم الذي قال فيه: **﴿فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعلُ الولدان شيبًا السماء منفطرٌ به كان وعده مفعولاً﴾** (٢).

وصف حي مخيف، لطفل لم يرتكب جرمًا أحال الفزع ورهبة الموقف شعر رأسه إلى بياض، وكيف يتصور الولد في هذه السن وكأنه قد عبرت عليه سنون عجاف. إن التنبيه في الآية واضح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يشير إليه القرآن الكريم كذلك أن الله تبارك وتعالى يقبضُ الأرض، ويطوي السماء كما قال عز وجل: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** (٣).

وفي آية ثانية يخبرنا عن كيفية طيِّ السماوات فيقول: **﴿يوم نَطْوي السماء كطيِّ السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين﴾** (٤).

ويشرحُ الرسول ﷺ ما يتم بعد قبض الأرض وطي السماوات في الحديث الصحيح الذي روي عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**)(٥).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (**يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله**) وفي رواية: (**يأخذهن بيده الأخرى ثم**

---

(١) إبراهيم ٤٢-٤٣.

(٢) المزمل ١٧، ١٨.

(٣) الزمر ٦٧.

(٤) الأنبياء ١٠٤.

(٥) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (٨/٥٥١).

يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟)[١].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود أن يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسكُ السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، والخلائق على أصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسولُ الله ﷺ، حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ [٢].

أرض المحشر:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾ [٣].

هي أرض غير أرضنا التي نحيا عليها، وهي أرض جديدة يكون عليها حشر العباد استعدادًا للفصل بينهم، وقد وضح ذلك الحديث الشريف، ففي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**يحشرُ الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عَفْرَاء كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ**). قال سهل -أو غيره-: (ليس فيها مَعْلَم لأحد)[٤].

قال الخطابي: (العفر: بياض ليس بناصع).

وقال عياض: (العفر: بياض يضرب إلى حمرة قليلاً).

وقال ابن فارس: (معنى عفراء: خالصة البياض).

وقال الداودي: (شديدة البياض).

والنَقِيُّ: قال الخطابي: (الدقيق النقي من الغش والنخال)[٥].

والمعلم: العلامة التي يهتدي بها إلى الطريق كالجبل والصخرة البارزة، أو ما يتخذه الناس من علامات دالة على الطرقات.

---

(١) مشكاة المصابيح، التبريزي (٣/٥٣)، انظر صحيح مسلم (٤/٢١٤٨).

(٢) فتح الباري: ابن حجر (١٣/٣٩٣).

(٣) إبراهيم ٤٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (١١/٣٧٢)، ومسلم (٤/٢١٥)، والسياق هنا للبخاري.

(٥) فتح الباري (١١/٣٧٥).

وقيل: إن في هذا الحديث تعريضًا بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها، وأن أحدًا لا يحوز منها شيئًا إلا ما أدرك منها.

وينقلُ ابن حجر العسقلاني رأيًا لأبي محمد بن أبي جمرة في توضيح صفات أرض المحشر، فيقول: إن ذلك فيه دليلٌ على عظيم القدرة، والإعلام بجزئيات يوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة فيخلّص نفسه من ذلك الهول؛ لأن في معرفة جزيئات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة، وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جدًا، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل، وظهور حق، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقعُ فيه ذلك طاهرًا عن عمل المعية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليقُ بعظمته، ولأن الحكمَ فيه إنما يكون لله وحده، فناسبَ أن يكون المحل خالصًا له وحده)[١].

وفي الحديث الصحيح أيضًا، عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: (**تكون الأرض يوم القيامة خُبزةً واحدةً، يتكرؤها الجبارُ بيده كما يَكْفَأُ أحدكم خبزته في السَّفَرِ نُزُلاً لأهل الجنة**)[٢].

ومن واقع النصوص المختلفة الواردة في صفة أرض المحشر يتضح لنا أنها تدور حول تفسير الآية الكريمة: ﴿**يوم تبدلُ الأرض غير الأرض**﴾. وقد سقنا ما رواه ابن حجر من اتخاذ أرض مستوية نقية لم يسفك عليها دم حرام و لم يعمل عليها خطيئة.

وقد أثار حديث تبديل الأرض يوم القيامة ذهن السيدة عائشة -رضي الله عنها- فسألت رسول الله ﷺ عن موقف الناس يومئذ، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿**يوم تبدل الأرض غير**

---

(١) فتح الباري (١١/١٣٥).

(٢) رواهُ البخاري ومسلم، انظر فتح الباري (١١/٣٧٢)، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١٣٥)، ويتكفؤها: يميلها، وخبزة السفر: يعني خبز الملة الذي يصنعه المسافر، فإنها لا تدحى كما تدحى الرقاقة، وإنما تقلبُ على الأيدي حتى تستوي، والترل: ما يقدم للضيف والعسكر، ويطلقُ على الرزق وعلى الفضل.

الأرض والسماوات﴾ فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: (**على الصراط**) [(١)].

وفي صحيح مسلم أيضًا عن ثوبان أن حَبْرًا من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: (**هم في الظُّلْمَةِ دونَ الجِسْرِ**)[(٢)].

صفة الحشر:

تتوالى أحداث القيامة على الناس، وهم في ذهول عجيب، وحال كئيب يساقونَ إلى أرض المحشر، خلائق إثر خلائق، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفًا مشاة، وصنفًا ركبانًا، وصنفًا على وجوههم**). قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: (**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمْشِيهُمْ على وجوههم، أمّا إنّهم يتقربون بوجوههم كُلَّ حَدَب وشوك**)[(٣)].

وفي صحيح البخاري عن قتادة: (حدثنا أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: (**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟**). قال قتادة: بلى وعزة ربنا)[(٤)].

إن مشهد الحشر على الوجوه فيه من التحقير والإهانة والإذلال ما يقابل ذات الاستكبار والإعراض عن الحق والتعالي عن الاستماع إليه، وقد جاءهم به رسول أمين، إنه مشهد يُمرِّغ كبرياءهم أمام الحشود، ويزلزل عنادهم، ويهز كياهم هزًا، ولا يملكون شيئًا آئنذ وقد كفروا من قبل بتحذير الله لهم: ﴿**الذين يحشرونَ على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانًا وأضل سبيلاً**﴾ [(٥)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين باب البعث والنشور (٤/٢١٥٠).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الحيض، باب بيان صفة منيّ الرجل والمرأة (١/٢٥٢).

(٣) الجامع الصحيح، الترمذي (٥/٣٠٥).

(٤) فتح الباري (١١/٣٧٧).

(٥) الفرقان ٣٤.

ولا يكون الحشر أن يمشيهم الله على وجوههم، ويجدونَ العنت والضيق وهم على هذه الحال فحسب، بل هم أيضًا لا يقدرونَ على التأوه أو السماع أو النظر، انظر إلى قوله عز وجل: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا مأواهم جهنم كلما خَبَتْ زدناهم سعيرًا**﴾ (١).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ على المنبر يقول: (**إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلاً**)(٢).

وعن ابن عباس أيضًا قال: قام فينا النبي ﷺ يخطبُ فقال: (**إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾** الآية.

وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل، وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقولُ: يا رب أصيحابي، فيقولُ: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبدُ الصالح: ﴿**وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمت فيهم** -إلى قوله- **الحكيم**﴾ قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم)(٣).

وعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: (**تحشرونَ حفاة عراة غرلاً**) قالت عائشة -رضي الله عنها-: فقلتُ: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظرُ بعضهم إلى بعض؟ فقال: (**الأمرُ أشدُ، من أين يُهِمُّهم ذلك**)(٤).

وفي رواية مسلم: (**من أن ينظر بعضهم إلى بعض**).

وللإمام الغزالي تعليق حول سؤال السائلين عن الذين يمشون على وجوههم، يقول: (في طبع الآدمي إنكارُ كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكرَ شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم

---

(١) الإسراء ٩٧.

(٢) فتح الباري (١١/٣٧)، غرلاً: غير مختونين.

(٣) فتح الباري (١١/٣٧٧)، وفي صحيح مسلم (٤/٢١٩٤).

(٤) فتح الباري (١١/٣٧٨)، ومسلم (٤/٢١٩٤).

عرضت عليك قبل المشاهد، لكنت أشد إنكارًا لها)[١].

وما نفهمه عن الآخرة وأحداثها، ندركه من طريقين موثوقين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وما لم يوضحه القرآن بينته السنة المشرفة، فاكتملت الصورة، وتسلسلت المعاني التي دارت في عقول الأولين، لتهدي الآخرين لما اهتدى إليه الجيل الأول، فانتفى عنا الجهل، ووجب علينا الإيمان.

- أهوال الموقف:

مهما شرح الشرَّاح، وفَسرَّ المفسرونَ هول ذلك اليوم، فإن الألفاظ تظلُ قاصرةً عن أداء المعنى الحقيقي، ومهما ارتقى الخيال لرسم لصورة تلك المشاهد، فإنه يبقى عاجزًا عن الوصول إلى درجة تقارب ما هو واقع، ولكنه القياس على ما يمكن أن يحدث في هذه الحياة الدنيا، ولذلك بين الرسول ﷺ أحداث ما سيجري آنذاك، بتقريب الصورة إلى الأذهان، بما يمرُ في الحياة من أحداث ملموسة، وللمرء بعد ذلك أن يتخيل شدة الموقف وصعوبة المشهد، وهول اللقاء.

إن الأمم لتساق إلى مصيرها المحتوم، إلى الأرض التي أنشأها رب العباد لعباده، ليلقى كل عبد ما قدم من خير أو شر، ويحاسب البشر أجمعونَ بعدل الله، ويقضي بينهم، ثم ينال كل حسابه على ما قدم.

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة التي تحدثت عن اليوم الآخر، وجد الأهوال العظام والمواقف التي لا يتحملها العقل البشري العادي، ولا يطيقها صبر إنسان حتى لو كان يضرب به المثل في صبره وأناته، لأن الموقف أكبر من أن تتحمله طاقة بشر.

إن مشهدًا يصوره القرآن الكريم يعطي وضوحًا في الرؤية لما نقول، فقوله عز وجل: ﴿**يوم يَخْرجُونَ من الأجداث سراعًا كأهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**﴾ [٢].

يقول سيد قطب: (فهؤلاء الخارجونَ من القبور يسرعونَ كأنما هم ذاهبون إلى

---

(١) أبو حامد الغزالي: مكاشفة القلوب. دار إحياء العلوم- بيروت. ط ١٩٨٥/٢ (١٨٧).
(٢) المعارج ٤٣-٤٤.

نصب يعبدونه. وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا، لقد كانوا يسرعونَ إلى الأنصاب يعبدونها، فها هم أولاء يسرعونَ يوم القيامة إسراعهم ذاك، ولكن شتان ما بين هذا وذاك..! ثم تتم سماتهم بقوله: ﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**﴾ فنلمح سيماهم كاملة، وترسم لنا من قسماتهم صورة واضحة، وهي صورة تتناسق مع صورة الخوض واللعب في الدنيا، فإنهم ليسرعونَ اليوم ولكن لا إلى اللهو واللعب، بل إلى الذل والرهق. وإنَّ أساريرهم المرحة الفرحة في الدنيا لتخشع وتذل في الآخرة: ﴿**ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**﴾ (واحدة بواحدة، ويوم بيوم)(١).

وصور الحشر كثيرة في القرآن الكريم والسنة المشرفة، وقد جاء في وصف الناس وهم في سعيهم إلى أرض المحشر أنهم كالفراش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وفي هذا التشبيه ما يقرب للمخاطبين به هوان الناس وضآلتهم، والصورة قريبة إلى الأذهان، إذ إنها مستمدة من مألوف حياتهم، غير أن ما لا توحيه الآيات بعد ذلك هو الذي يجعل العقل في تفكر دائم لشدة ذلك اليوم.. وفي التعبير القرآني يتضح ذلك تمامَ الوضوح: ﴿**فَتَولَّ عنهم يوم يدعُ الداعِ إلى شيء نُكُر* خُشَّعًا أبصارهم يخرجونَ من الأجداث كأنهم جراد منتشر* مهطعين إلى الداع يقول الكافرونَ هذا يومٌ عَسِر**﴾ (٢).

إن كلمة (مهطعين إلى الداع) تعبر بحث عن ذلة فظيعة تأخذ الكافرين حتى إنهم لا يستطيعونَ الامتناع أو إظهار الاستعلاء الذي كان يحكمهم في الدنيا ويغريهم، بالآخرين، كما أن الأبصار الخاشعة من ذلك تضيف إلى الصورة بعدًا آخر للخزي الذي يبوءون فيه منذ اللحظة التي سمعوا فيها دعوة الداع، فإذا هم مساقونَ بقوة غيبية يجهلونَ مصدرها ولا يقدرونَ على الامتناع عن تلبية أوامرها.

والهوان المتجسد في وصفهم بالفراش تارة، وبالجراد تارة أخرى يلقي ظلالاً أخرى على الصورة الشاقة التي يجدونَ أنفسهم داخل إطارها، فالفزع والاضطراب والتدافع الشديد المهلك تمثله الحركة السريعة، كما يبدو في تهافت الفراش على النار،

---

(١) سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن (١٨٨، ١٨٩).

(٢) القمر ٦-٨.

وإلقائه بنفسه في أتونها المحرق.

ومن الملامح التي تدلُ على سرعة استجابتهم للنفير العام، وإسراعهم في الانطلاق نحو مصدر الصوت قوله عز وجل: ﴿**ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون* قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**﴾[١].

وقوله عز وجل: ﴿**ينسلون**﴾ بمعنى: يسرعون، وقد فسرها أبو عبيدة بالسير السريع وقرنه بعدو الذئب فقال: (ينسلون: يسرعون، والذئب يعسل وينسل)[٢].

وقد فسر الفخر الرازي الكلمة بمعنى السرعة السريعة حيث قال: (والسرعة مجيء الأمور كأن الكل في زمانه واحد)[٣].

وقال الآلوسي في تفسيره ﴿**ينسلون**﴾ يسرعونَ بطريق الإجبار لقوله تعالى: ﴿**لدينا محضرون**﴾ [٤].

ويشتد الزحام وتضيق الأرض، إذ يلتقي في ذلك اليوم كل مخلوق خلقه الله من ابتداء الدنيا حتى فنائها، يحشرُ كل شيء حتى إن الشخص لا يدري أين يضعُ قدمه لشدة الزحام.

قال ابن عباس -رضي الله عنه-: (فهم في ضيق مقامهم فيها كضيق سهام اجتمعت في كنانتها، فالسعيد يومئذ من يجدُ لقدمه مقامًا). قال: (وأكثرُ الأقدام يومئذ بعضها على بعض)[٥].

وإذا القومُ في تزاحمهم ذلك إذ تدنو الشمس من رؤوسهم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا مقدار ميل واحد، ولأن الموقف موقف عذاب لهم فهم يتلقونَ حرارتها

---

(١) يس ٥١، ٥٢.

(٢) مجاز القرآن: أبو عبيدة (٢/٤٢).

(٣) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: الإمام محمد الرازي فخر الدين. دار الفكر لبنان -ط ٣، ١٩٨٥ (٢٦/٨٨).

(٤) روح المعاني: شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي. دار إحياء التراث العربي - بيروت (٢٣/٣٢).

(٥) لوامع الأنوار البهية للإسفراييني (٢/١٦٨).

بإرهاق وعنت شديدين، إذ إن خلقهم الجديد الذي أنشئوا به يمنع انصهارهم وذوبانهم، ولا موت هناك بعد إن قاموا من رقدتهم والتي عبر عنها القرآن الكريم بأنها الموتة الأولى. ويطول بهم الوقوف حتى إن طول اليوم فيه خمسونَ ألف سنة، ولا يجدُ فيه المؤمنونَ نَصَبَ الكافرين وإنما يمتاز المؤمنونَ يومئذ برحمة الله التي تخفف عنهم ما يكابده الكفار من مشقة وعسر وضيق.

ولشدة حر ذلك اليوم، وتزاحم الناس فإن العرق الذي يسيل من أجسادهم يذهبُ في الأرض ثم يرتفعُ حتى يغرق فيه من يغرق، وينال كل حسب عمله، ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**تدني الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل**).

قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافةَ الأرض، أمِ الميلَ الذي تُكْتَحل به العين.

قال: (**فيكونُ الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا**).

قال: وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فيه[١].

وفي رواية للإمام أحمد وأبي يعلى وابن حبان، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال -لما قيل له: ما طولُ هذا اليوم؟-: (**إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة**).

وإزاء ما يرى الكفار من تحقق ما وعد الله به، يوقنونَ أن ما جاءوا به من عمل لا بد أن يقذف به في وجوههم فيعتريهم اليأس والقنوط، فقد ذكر الله حالهم قبل في قوله عز من قائل: ﴿**ويوم تقومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون**﴾ [٢].

إنهم الآن مجرمون بلفظ الكتاب العزيز، فكيف تغفر ذنوبهم وهي مثل الجبال طولاً وضخامة. ولفظة الإبلاس هنا تعني اليأس الذي لا رجاء معه. ذكر الفراء فقال:

---

(١) صحيح مسلم (٢١٩٦/٤).

(٢) الروم ١٢.

(المبلس: البائس المنقطع رجاؤه). ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته لا يكون عند جواب: قد أبلس، وقد قال الراجز:

يا صاح هل تعرف رَسْمًا مُكْرِسًا
قـــال : نعم أعرفـــه ، وأبلسا[(١)]

وتستبد بهم حسرة قاتلة وندم عظيم، حتى لقد سمي يوم القيامة بيوم الحسرة لكثرة تحسر الكافرين فيه ما فرطوا في جنب الله في الحياة الدنيا. ويبين القرآن حسرتهم وندمهم فيقول عز وجل: ﴿**ويوم يعضُ الظالمُ على يديه يقولُ يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً* يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطانُ للإنسان خذولاً**﴾ [(٢)].

ولا يجدي الندم، ولا عض الأيدي، إذ إن الموقف العصيب يزيد من الآلام النفسية، ولن يغير مما هم فيه إلا أن يتمنوا ما كانوا يبغضونَ في حياتهم الأولى، وهو مفارقة الحياة، فالآن أمنية عزيزة غالية أن يمن الله عليهم بالموت أو يحولهم إلى شيء لا يشعر أو يحس حتى ينتهي هذا العذاب المهين: ﴿**يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض**﴾ [(٣)]، ﴿**ويقول الكافر يا ليتني كنتُ ترابًا**﴾ [(٤)].

ويختلف موقف المؤمنين، فقد صدقوا ببشارات المصطفى ﷺ وهو يمنيهم بالنعيم، والورود على الرب الكريم، فتحملوا المشاق والصعاب، وهانت عندهم الدنيا حتى تمنى المؤمن أن يقتل في سبيل الله شهيدًا ثم يعود فيقتل لما يجد من أثر الكرامة عند ربه.

هذا يوم الإقبال على الله حيث يجدونَ ما عملوا من خير محضرًا، وإذا كان الكفار يجهدونَ اليوم، فإنهم ينالونَ جزاء ما أجهدوا الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا.

---

(١) معاني القرآن الفراء (١/٣٣٥)، وانظر كذلك: مجاز القرآن (٢/١٢٠) والبيت للعجاج كما ذكر أبو عبيدة.

(٢) الفرقان ٢٧، ٢٨.

(٣) النساء ٤١.

(٤) النبأ ٤٠.

أما المؤمنونَ فإنهم يتطلعونَ إلى رضوان الله، وقد بشرهم ربنا سبحانه بأن أمنهم من الفزع الذي يسود الناس في الموقف، وبحفاوة الملائكة بهم: ﴿**لا يحزنهم الفزعُ الأكبرُ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾ .

والمؤمنونَ كما اطمأنت قلوبهم وفرحت نفوسهم يرون وعد الله يتحقق لهم، فهذا هو الذي حدثهم عنه رسول الله ﷺ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعتهُ امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه**)[1].

إنه لا ظل يومئذ والناس تحت الشمس المحرقة إلا ظل العرش فتكرمة الله لهذه الطوائف من المؤمنين ألا يجدوا ما يجد الكافرون من أسف وحسرة وضيق.

وقد أشار الرسول ﷺ في أحاديث أخرى إلى طوائف أخرى من المؤمنين يستظلونَ بعرش الرحمن، كالمتحابين في الله، ومن نفس عن غريمه أو محا عنه، ومن أنظر معسرًا أو وضع عنه.

وتحذيرًا من النبي الكريم لأمته، وتعليمًا لصحابته الأجلاء وجه إليهم أسئلة يعرفونَ معاني ألفاظها، غير أن مقصودها الشرعي هو المتحقق من الإجابة.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**أتدرونَ ما المفلس؟**) قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (**إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**)[2].

---

(١) الإمام منسلم صحيح مسلم (٢/٧١٥)، وفي فتح الباري (٢/١٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩٩٧).

والتحذير من هذه المواقف كثير كثير، سنعرض له فيما يأتي من مشاهد كل حسب مجاله، حينما تأتي الوفود أمام محكمة يتولى فيها فصل القضاء رب العالمين جَلَّ جلاله؟

الحساب والجزاء:

الحساب هو أن يقف العباد بين يدي الله تبارك وتعالى قبل الانصراف من المحشر، وأن يعرفوا بما عملوا وأن تحضر أقوالهم، وما صدر منهم في الحياة الدنيا من إيمان وكفر، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه من عقاب وثواب، ثم ما يتسلمونه من كتب بأيمانهم إن كانوا مؤمنين صالحين، أو بشمالهم إن كانوا من الأشقياء الطالحين.

والناس يوم القيامة متفاوتون فمنهم:

من يعرض عليه عمله، ثم يطلعه الله على سيئاته سرًا، ثم يعفو عنه ويأمر به إلى الجنة.

ومنهم من يناقشه ربه في صغيرة وكبيرة ويشهد عليه الشهود ثم يأمر به إلى النار.

ومنهم من يأتي بذنوبه وخطاياه مقرًا معترفًا بجرمه، ثم يتوسلُ إلى ربه طالبًا الصفح والمغفرة لما سبق منه أن فرَّج عن مسلم كربة، أو يسَّر عن مؤمن عسرًا، فيعفو الله عنه ويدخله الجنة.

فالحساب منه العسير ومنه اليسير، منه التكريم ومنه الزجر والتوبيخ، ومنه إسباغ الفضل والعفو والصفح والتجاوز، ومنه من لا ينظر إليهم رب العباد ولا يكلمهم.

والمحاسب في ذلك اليوم قيُّوم السماوات والأرض وهو ما يلقي على المشهد مظهر العظمة الحقة، والمهابة الكاملة، والجلال التام، ومجيء رب العالمين إلى القضاء بين الناس تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿**هل ينظرونَ إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغَمَام والملائكة وقضي الأمرُ وإلى الله ترجعُ الأمور**﴾ [1].

وواضح من الآية أن الملائكة تحضر الحساب ومعها صحائف أعمال العبادة التي أحصت على الخلق أعمالهم وأقوالهم فكانت حجة لا ترد، وهو كتاب وصفه الله

---

(١) البقرة ٢١٠.

بقوله: ﴿**وَوُضِعَ الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا وليتنا ما لهذا الكتاب لا يغادرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلمُ ربك أحدًا**﴾ (١).

ويجاء بالأنبياء والرسل إلى موقف القضاء فيسألونَ عن الأمانة التي كلفوا بإبلاغها ويسألونَ عن أممهم، وتُسألُ أمة محمد ﷺ عن جميع الأمم وهل أجابت أنبياءها أم لم تفعل، ويشهدونَ شهادة الحق لمن آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر.

والأشهاد يوم القيامة هم الملائكة الذين كانوا يحصونَ الأعمال على العباد والأنبياء، والعلماء، كما تشهدُ الأرض والسماء والأيام والليالي، بل تشهدُ على الإنسان أعضاؤه وجوارحه.

في ذلك المشهد الذي يزيد فيه ندمُ الكفار على كل ثانية من العمر مرت دون أن يؤمنوا بها يتذكرون -وأنَّى لهم الذكرى- قول الله عز وجل: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا يومئذ يَوَدُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهمُ الأرض ولا يكتمونَ الله حديثًا**﴾ (٢).

وشهادة هذه الأمة التي عناها ربُ العباد في كتابه فقال: ﴿**وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا**﴾ (٣).

وقد روى البخاري والإمام أحمد وغيرهما عن أبي سعيد قال: قال رسول الله: **(يدعى نوح يوم القيامة فيقالُ له: هل بلغت؟ فيقولُ: نعم. فيدعى قومه فيقالُ لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، قال: فيقالُ لنوح من يشهدُ لك؟ فيقول: محمد وأمته. قال: فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ ، قال: الوسط العدل، قال: فيدعونَ فيشهدونَ له بالبلاغ، قال: ثم أشهدُ عليكم)**(٤).

---

(١) الكهف ٤٧.

(٢) النساء ٤٠، ٤١.

(٣) البقرة ١٤٣.

(٤) انظر فتح الباري (٨/١٧١، ١٧٢)، مسند الإمام أحمد (٣/٣٢).

ويؤتى بالعباد ليعرضوا على ربهم: ﴿**وعرضوا على ربك صفًا**﴾ (١). ويؤتى بالمجرمين في هيئة مزرية بئيسة مقرنين في الأصفاد مسربلين بالقطران: ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد* سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب**﴾ (٢).

ويؤتى بالأمم جاثية على رُكَبِهَا لا تقوى على الوقوف لهولِ ما تشاهد من عظم ذلك اليوم عبر عنها الكتاب العزيز في قوله عز وجل: ﴿**وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزونَ ما كنتم تعملون**﴾ (٣).

- **محاسبة الكفار:**

للعلماء آراء في محاسبة الكفار يوم القيامة ففريق يرى أنهم لا يحاسبون لأن أعمالهم باطلة فلا فائدة من سؤالهم، واحتج آخرونَ بأن حسابهم قد ورد في القرآن ذكره، فلا بد من سؤالهم.

والآيات الكريمة تدلُ على حسابهم وعلى وزن أعمالهم، فقوله عز وجل: ﴿**فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية* وأمَّا من خفت موازينه فأمُّه هاوية* وما أدراك ما هية* نارٌ حامية**﴾ (٤).

وعلل القائلون بالحساب رأيهم إلى أن الله سبحانه وتعالى يحاسبهم لتقريعهم وتوبيخهم، قال ابن تيمية -رحمه الله-: (يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويرادُ بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبونَ بهذا الاعتبار، وإن أريدَ به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقونَ الجنة فهذا خطأ ظاهر)(٥).

وفي الكتاب العزيز نصوص تشير إلى هذا التأنيب الذي يقعُ للكافرين في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى**

---

(١) الكهف ٤٨.

(٢) إبراهيم ٤٩-٥١.

(٣) الجاثية ٢٧.

(٤) القارعة ٦-١١.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٥/٤).

وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ (١).

وقوله عز وجل: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**﴾ (٢).

ويقول ابن كثير: (وأمَّا الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق)(٣).

ويقول القرطبي: (والباري -سبحانه وتعالى- يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريرًا لإقامة الحجة وإظهارًا للحكمة)(٤).

فالله سبحانه وتعالى هو القاضي يومئذ، وقضاؤه الحق، وحكمه العدل المطلق، فلا يظلمُ رب العالمين أحدًا من خلقه، فلكل إنسان يقرأ كتابه وينظر إلى أعماله في الميزان ويدرك سوء عمله وشناعة جرمه.

يقول رب العزة: ﴿**ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلمُ نفسٌ شيئًا* وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ (٥).

والكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفونَ بفروعها، ولذلك وجب سؤالهم، يقول القرطبي: (وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها -أي فروع الشريعة- مسؤولون عنها، محاسبونَ بها، مجزيونَ على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وويل للمشركين* الذين لا يؤتونَ الزكاة**﴾ (٦). فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقالُ لهم: ﴿**ما سلككم في سقر* قالوا لم نك من المصلين* ولم نك نطعمُ المسكين* وكنا نخوضُ مع الخائضين* وكنا نكذبُ بيوم**

---

(١) الأنعام ٣٠.

(٢) الأنعام ١٣٠.

(٣) النهاية، لابن كثير (٢/٣٥).

(٤) التذكرة: القرطبي (٢٢٥).

(٥) الأنبياء ٤٧.

(٦) فصلت ٦، ٧.

الدين﴾ [(١)].

فبان بهذا أن المشركين مخاطبونَ بالإيمان والبعث، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولونَ عنها، مجزيونَ بها)[(٢)].

ومما ورد في صحيح الإمام مسلم عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله لا يظلمُ مؤمنًاحسنة، يُعْطَى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأمَّا الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجرى بها)**[(٣)].

ومما يذكر في هذا المجال أيضًا تفاوت الكفار في الذنوب والمعاصي ودرجة الكفر، بمقدار ما يحملونَ من أوزار وآثام وذنوب يكون موقعهم من النار، فالنار دركات كما أن الجنة درجات، وكلما كان الكفرُ أشدُ كانت درجة الكافر أشد عذابًا، وقول الحق تبارك وتعالى: **﴿إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾** [(٤)]. تبيان لما في النار من طبقات بعضها فوق بعض.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخفُ عذابًا من أبي لهب).

وقال تعالى: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾** [(٥)]. والنار دركات، فإذا كان بعضُ الكفار عذابه أشد عذابًا من بعض -لكثرة سيئاته وقلة حسناته- كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة[(٦)].

---

(١) المدثر ٤٢-٤٦.

(٢) التذكرة (٣١٢).

(٣) صحيح مسلم ٢١٦٢/٤، وعند الإمام أحمد في المسند ١٢٣/٣ والحديث كما يلي: (إن الله لا يظلمُ المؤمن حسنة، يعطى عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له بها حسنة يعطى بها خيرًا).

(٤) النساء ١٤٥.

(٥) النحل ٨٨.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية (٣٠٥/٤).

أمَّا الذين قالوا بعدم سؤال الكفار، فقد استندوا إلى آيات من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**﴾ [(١)]، وقوله عز وجل: ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ [(٢)]، وقوله: ﴿**هذا يومُ لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون**﴾ [(٣)].

وقد أجاب العلماء على هذا التساؤل الذي يظهر لقليل البضاعة من الدين أنه تعارض أو تناقض جَلَّ كتاب الله عنه.

قال عكرمة: (القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها). وقال ابن عباس: (لا يسألونَ سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألونَ سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟.

والقاطعُ لهذا قوله تعالى: ﴿**فوربك لنسألنهم أجمين عما كانوا يعملون**﴾ [(٤)]).

وقال القرطبي: (إن معنى قوله تعالى: ﴿**ولا يسألُ عن ذنوبهم المجرمون**﴾ ، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي أن الملائكة لا تحتاجُ أن تسأل أحدًا يوم القيامة أن يقال: ما كان دينك؟ وما كنت تصنعُ في الدنيا حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنًا أو كان كافرًا، لكن المؤمنين يكونونَ ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكونُ المشركون سود الوجوه زرقًا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم)[(٥)].

محاسبة العباد وسؤالهم:

يسأل الناس عن الإله الذي كانوا يعبدون، وعن إجاباتهم الرسل، وعن أعمالهم ويسألونَ عن عهودهم ومواثيقهم، كما يسألونَ عما أفاء الله عليهم من نعم كثيرة منها حواسهم.

---

(١) الرحمن ٣٩.
(٢) القصص ٧٨.
(٣) المرسلات ٣٥.
(٤) الحجر ٩٢.
(٥) التذكرة القرطبي (٢٨٧).

وأعظمُ ما يسألونَ عنه الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿**وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**﴾[(١)]، وقوله: ﴿**ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون**﴾[(٢)].

وعن عبادتهم للآلهة التي كانوا يذبحون لها القرابين يقول تعالى: ﴿**ويجعلونَ لما لا يعلمون نصيبًا مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون**﴾[(٣)].

وعن تكذيبهم الرسل يوجه إليهم سؤال: ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين* فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون**﴾[(٤)].

وفي قوله تبارك اسمه: ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين* عما كانوا يعملون**﴾ ما يبين سؤال المرء عن كل عمل عمله في الحياة الدنيا.

وفي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تزول قدم عبد يوم القيامة، حتى يسألَ عن أربع:**

عن عمره فيما أفناه؟

وعن علمه ماذا عمل به؟

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟

وعن جسمه فيم أبلاه؟)[(٥)].

وفي الحديث تحذير من فتن الدنيا، فإن أكثر ما يبتلى الإنسان باليسر فيطغى إن رزقه الله مالاً، وقد يغترُ امرؤ بشبابه، فلا يرعى لله حرمة فينطلقُ لاهيًا عابثًا ظالمًا.

وفي صحيح مسلم (عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ قال: جاء ثلاثةُ نفر إلى عبد الله ابن عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد إنَّا والله ما نقدرُ على شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاعٍ. فقال: ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر

---

(١) الشعراء ٩١، ٩٢.

(٢) القصص ٦٢.

(٣) النحل ٥٦.

(٤) القصص ٦٥، ٦٦.

(٥) الجامع الصحيح، الترمذي حديث رقم (٢٤١٧) في صفة القيامة، باب رقم١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر كذلك جامع الأصول (٤٣٦/١٠).

الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**إن فقراء المهاجرين يسبقونَ الأغنياء، يومَ القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا**)[١].

وفي الحديث ترغيب في الآخرة، وعدم التهالك على حطام الدنيا، وليس جمع المال وتنميته مما يمنعه الإسلام، ولكن الخشية أن يتلهى المؤمن عن واجباته بانشغاله بالدنيا فيفقدُ الآخرة. وهذا الحديث يضعُ أيدي المسلمين على جوهر ما يحيون فيه، فلا يكون المالُ سببًا يوم القيامة في إيذاء صاحبه. (والتعريف بالآخرة ليس تجهيلاً بالدنيا أو صرفًا عنها كما يتصورُ البعض، فربما أوجب عليك الإسلام أن يكون لك مال قارون، على ألا يكون لك كبره أو شحه أو فساده)[٢].

وفي قول الرب عز وجل: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ سؤال عن الماء البارد في الصيف الحار، وعن الدفء في الشتاء، وعن المسكن والأهل والولد، وعن كل لذة من لذات الدنيا، ونعم الله على عباده لا يحصيها عادٌّ لو أنفقَ العمر في عدِّها، أليس الله عز وجل يقول: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [٣].

ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (**نعمتان مغبون فيها كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**)[٤]. بمعنى: أنهم لم يقوموا بواجب الشكر لله الواهب سبحانه.

وفي صحيح مسلم أن رجلاً سأل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنتَ من الأغنياء. قال: فإن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك[٥].

وتوضيحًا لما قد يسأل عنه المسلمونَ لمعرفة النعيم الذي يسألونَ عنه يوم القيامة

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٨٥/٤).
(٢) علل وأدوية، محمد الغزالي. دار القلم بدمشق، ط أولى ١٩٨٥ (٢٦٩).
(٣) إبراهيم ٣٤.
(٤) فتح الباري (٢٢٩/١١)، وانظر كذلك مشكاة المصابيح (٦٤٨/٢).
(٥) صحيح مسلم (٢٢٥٨/٤).

فقد أبان رسول الله ﷺ عن صورة من صوره ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**يلقى الرب العبد فيقول: أي فل**[١]**، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟**

فيقولُ: بلى. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟

قال: فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل. ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقولُ: بلى، أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليتُ، وصمتُ، وتصدقتُ، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذن[٢].

قال: (**ثم يقالُ له: الآن نبعثُ عليك شاهدًا عليك، ويتفكرُ في نفسه: من ذا يشهدُ علي؟ فيختمُ الله على فيه. ويقالُ لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطقُ فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليعذر من نفسه.**

وذلك المنافق الذي يسخطُ الله عليه)[٣].

وقد حذر الباري عز وجل عباده من القول بلا علم فقال: ﴿**ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ إن السمع والبصرَ والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾ [٤].

قال قتادة: (لا تقف. لا تقل: رأيت وأنت لم تر، ولا سمعتَ وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم. وهذا من تجنب الكذب).

والمعنى: كل السمع والبصر والفؤاد كان مسئولاً عن نفسه، ومحقوقًا بأن يبين مستند صاحبه من حسه والسؤال: كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق.

وقد صيغت جملة (كل أولئك كان عنه مسئولاً) على هذا النظم بتقديم (كل) الدالة على الإحاطة من أول الأمر. وأتي باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: كلها

---

(١) فل: أي يا فلان.

(٢) معناهُ قف: هاهنا إذن.

(٣) صحيح مسلم (٤/٢٢٨٠).

(٤) الإسراء ٣٦.

كان عنه مسئولاً، لما في الإشارة من زيادة التمييز. وأقحم فعل (كان) لدلالته على رسوخ الخبر كما تقدم غير مرة[١].

وفي التنزيل الحق قوله جل اسمه: ﴿**يوم تشهدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾ [٢].

وفي قوله عز وجل: ﴿**حتى إذا جاءوها وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون**﴾ [٣].

وفي الحديث عن أنس –رضي الله عنه– قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: (**هل تدرونَ ممَّ أضحك؟**) قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ. قال: (**من مخاطبة العبد ربه فيقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ يقولُ: بلى. فيقول: إني لا أجير اليوم على نفسي إلا شاهدًا مني، فيقولُ: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا**)، قال: **فيختمُ على فيه ويقولُ لأركانه: انطقي. فتنطقُ بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلامِ. فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسحقًا، فعنكُن كنتُ أناضل**)[٤].

قاعدة الحساب والجزاء:

قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار قوله الحق: ﴿**من عمل سيئة فلا يُجزى إلا مثلها ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلونَ الجنة يرزقونَ فيها بغير حساب**﴾ [٥].

يقول سيد قطب: (اقتضى فضلُ الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده، وتقديرًا لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعلها كفارة للسيئات، فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير حساب)[٦].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٥/١٠١).
(٢) النور ٢٤.
(٣) فصلت ٢٠.
(٤) صحيح مسلم (٤/٢٢٨٠).
(٥) غافر ٤٠.
(٦) في ظلال القرآن: سيد قطب (٥/٣٠٨٣).

إن التاريخ البشري يتقدمُ للمحاكمة في ذلك اليوم العصيب، لا يسترهُ شيء، ففي يوم الحساب لا تخفى خافية، وكل ما جهد الإنسان الحرص على ستره مكشوف، فالكلُ مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، وكما تتعرى الأجساد تتعرى النفوس، وتصبحُ فضائح الإنسان ماثلة أمام الناس جميعًا، هذه الفضائح التي طالما حجبها والتمسَ لها الأستار معروضة أمام الخلائق لا يستطيعُ مواراتها كما كان يفعلُ في الدنيا.

إن ستور الدنيا قد انتهكت، وجاء اليومُ الذي حذر منه القرآن الكريم أنه آت لا ريب فيه، وبلغ الرسول الأمانة، ونصح للناس أن يغتروا بالدنيا وما فيها، فإنهم إن عصوا الشيطان أمنوا ذلك الموقف الرهيب، ولكنه الإنسان!!.

(وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه، وتتدسس بمشاعرها، ونزواتها، وهفواتها، وخواطرها، وأسرارها، وخصوصياتها، وإن الإنسان ليصنعُ أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخز إبرة، فتنطوي سريعًا، وتنكمشُ داخل القوقعة، وتغلقُ على نفسها تمامًا. إن الإنسان ليصنعُ أشد من هذا حين يحس أن عينًا تدسست عليه، فكشفت منه شيئًا مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه دربًا خفيًا أو منحنى سريًا! ويشعرُ بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية.

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان؟ عريان حقًا، عريان الجسد، والقلب، والشعور، والنية، والضمير. عريان من كل ساتر، عريان، كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بالأستار؟.

ألا إنه لأمر، أمر من كل أمر)[١].

إن تكشف الحقائق يوم الفصل مما يخيف الظالمين، فلا استقرار لنفوسهم ولا راحة لقلوبهم، فإن العيون ترمقهم، ولطالما تطاير شرر عيونهم إلى هذه الوجوه المشرقة التي تنظر إليهم الآن وقد لاقت منهم في الدنيا من العذاب ما لاقت واحتملته لمثل هذا اليوم الذي آمنت بأنه آت لأنه وعد الله، ولا يخلف الله الميعاد.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٦/٣٦٨٠).

النفوس القادمة للعرض على رب الناس ومع كل نفس سائق وشهيد. إنه سوق المجرمين أمام ساحة العدالة الإلهية، لينالوا جزاء ما اقترفوا، ويحق القصاص منهم.

ويؤتى الإنسان كتابه بيمينه أو بشماله، فإن تلقاه بيمينه كان من السعداء الذين -رضي اله عنهم- وكتب لهم النجاة فحسابه حساب يسير إذ لا يناقش ولا يدقق معه الحساب، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: (**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**)، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا**﴾ [(١)]؟. فقال رسول الله ﷺ: (**إنما ذلك العرض، وليس لأحد يناقش يوم القيامة إلا هلك**)[(٢)]. قال ابن حجر نقلاً عن القرطبي في قوله: (إنما ذلك العرض) قال: (إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة)[(٣)].

وعن أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيعرض عليه صغارها، فيقال له: عملت يوم كذا، كذا، وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها هاهنا**) -قال: فلقد رأيت رسول الله يضحك حتى بدت نواجذه[(٤)].

وفي صحيح البخاري عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر -رضي الله عنهما- آخذ بيده إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه**

(١) الانشقاق ٧، ٨.
(٢) صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، فتح الباري (١١/٤٠٠). وصحيح مسلم (٤/٢٢٠٤)، واللفظ للبخاري.
(٣) فتح الباري (١١/٤٠٢).
(٤) صحيح مسلم (١/١٧٧).

كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأمّا الكافر والمنافقونَ فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على رهم، ألا لعنة الله على الظالمين)[١].

وفي صحيحي البخاري ومسلم حديث طويل عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، أن ناسًا في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: **(نعم)**. قال: **(هل تضارُّونَ في رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب؟ وهل تضارونَ في رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب؟)** قالوا: لا، يا رسول الله! قال: **(ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارونَ في رؤية أحدهما**[٢]**. إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كنت تعبد، فلا يبقى أحد، كان يعبدُ غيرَ الله سبحانه من الأصنام والأنصاب، إلاَّ يتساقطونَ في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبدُ الله من بَرٍّ وفاجر، وغُبر أهل الكتاب**[٣]**. فيدعى اليهود، فيقالُ لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبدُ عزيرًا ابن الله. فيقالُ: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغونَ؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا. فيشارُ إليهم: ألا تردون؟ فيحشرونَ إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطونَ في النار.**

ثم يُدعى النصارى، فيقالُ لهم: ما كنتم تعبدونَ؟ قالوا: كنا نعبدُ المسيح ابن الله، فيقالُ لهم: كذبتم. ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فيقالُ لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا، يا ربنا، فاسقنا. قال: فيشارُ إليهم: ألا تردون؟ فيحشرونَ إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطونَ في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة

---

(١) فتح الباري (٥/٩٦).

(٢) أما تضارونَ في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارونَ في رؤية أحدهما معناهُ: لا تضارونَ أصلاً كما لا تضارونَ في رؤيتها أصلاً.

(٣) (غبر أهل الكتاب) بقاياهم. جمع غابر.

من التي رأوه فيها. قال: فما تنتظرونَ؟ تتبعُ كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولونَ: نعوذُ باللهِ منك لا نشركُ باللهِ شيئًا (مرتين أو ثلاثًا) حتى إن بعضهم ليكادُ ينقلبُ[(١)]، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولونَ: نعم. فيُكشفُ عن ساق[(٢)]، فلا يبقى من كان يسجدُ للهِ من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجدُ اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقةً واحدةً، كلما أرادَ أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعونَ رؤوسهم، وقد تحوَّل في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربُّنا، ثم يُضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهمَّ! سلم سلم).

قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: (دَحْضٌ مَزَلَّةٌ[(٣)]، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقالُ لها: السعدان، فيمرُ المؤمنونَ كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مُسَلَّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس[(٤)] في نار جهنم، حتى إذا خَلَصَ المؤمنونَ من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق[(٥)] من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولونَ: ربنا! كانوا يصومونَ معنا ويصلونَ ويحجونَ. فيقالُ لهم: أخرجوا من عرفتم، فتُحرَّمُ صورهم على النار، فيُخرجُونَ خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا، ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال

---

(١) ليكاد أن ينقلب: أي يرجع عن الصواب للامتحان الشديد الذي جرى.

(٢) قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي: ضبط يكشف بفتح الياء وضمها، وهما صحيحان. وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشدة، أي يكشف عن شدة وأمر عظيم.

(٣) دحض مزلة: الدحض والمزلة بمعنى واحد، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر، ومنه: دحضت الشمس أي: مالت، وحجة داحضة: أي لا ثبات لها.

(٤) المكدوس: المدفوع في نار جهنم دفعًا عنيفًا.

(٥) أي: تحصيله من خصمه والمتعدي عليه.

دينار من خير[١] **فأخرجوه، فيُخرجونَ خلقًا كثيرًا، ثم يقولونَ: ربنا! لم نذر فيها أحدًا مما أمرتنا، ثم يقولُ: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها خيرًا**[٢]).

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم: ﴿**إن الله لا يظلمُ مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنهُ أجرًا عظيمًا**﴾ [٣].

فيقول الله عز وجل: (شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين)، فيقبضُ قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حُممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقالُ له نهر الحياة، فيخرجونَ كما تخرجُ الحبة من حميل السيل، ألا ترونها تكونُ إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟) فقالوا يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: (**فيخرجونَ كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهلُ الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: (ادخلوا الجنة فما رأيتموهُ فهو لكم، فيقولون: ربنا! أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضلُ من هذا، فيقولون: يا ربنا، أيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا**)[٤].

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**يجمعُ الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا يتبع كل إنسان**

---

(١) من خير: قال القاضي عياض -رحمه الله-: قيل: معنى الخير هنا اليقين، قال: والصحيح أن معناهُ شيء زائد على مجرد الإيمان، لأن مجرد الإيمان الذي هو التصديق، لا يتجزأ وإنما يكون هذا التجزؤ لشيء زائد عليه من عمل صالح أو ذكر خفي، أو عمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى، ونية صادقة.

(٢) خير: أي صاحب خير.

(٣) النساء ٤٠.

(٤) صحيح مسلم (١/١٦٧).

ما كانوا يعبدونه، فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعونَ ما كانوا يعبدونَ، ويبقى المسلمونَ فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذُ بالله منك، نعوذُ بالله منك، الله ربنا، هذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى، ثم يطلعُ فيقول: ألا تتبعونَ الناس؟ فيقولونَ: نعوذ بالله منك، نعوذ بالله منك، الله ربنا، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم). قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: (وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟). قالوا: لا يا رسول الله، قال: (فإنكم لا تضارون في رؤيته تلك الساعة)، ثم يتوارى ثم يطلعُ فيعرفهم نفسه، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط، فيمرونَ عليه مثل جياد الخيل والركاب، وقولهم عليه: سلم، سلم، ويبقى أهلُ النار فيطرح منهم فيها فوج، ثم يقال: هل امتلأت؟ فتقول: (هل من مزيد؟) ثم يطرح فيها فوج، فيقال: هل امتلأت؟ فتقول: (هل من مزيد؟) حتى إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه[1] وأزوى بعضها إلى بعض، ثم قال: قطْ، قالت: قط قط، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال: أتِيَ بالموت مُلبيًا، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعونَ خائفين، ثم يقالُ: يا أهل النار فيطلعونَ مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقالُ لأهل الجنة ولأهل النار: هل تعرفونَ هذا؟ فيقول: هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه، هو الموت الذي وكل بنا، فيضجعُ فيذبح ذبحًا على السور الذي بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة

---

(١) وضع الرحمن قدمه فيها: أي من تأخر دخوله في النار من أهلها، عبر في حديث آخر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل، والعرب تعبر عن جماعة الناس والجراد بالرجل فتقول: جاءنا رِجْلٌ من جراد، ورجل من الناس، أي جماعة منهم والجمع أرجل، ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: ولا يزالُ في الجنة فضل حتى ينشئ الله له خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة. وفي التنزيل: إن لهم قدم صدق عند ربهم، قال ابن عباس: المعنى منزل صدق، وقال القرطبي: معنى قدم صدق عند ربه: عمل صالح. وقيل: هو السابقة الحسنة.

وقال ابن فورك: وقال بعضهم: القدم خلق من خلق الله يخلقه يوم القيامة فيسميه قدمًا، ويضيفه إليه من طريق الفعل، يضعه في النار فتمتلئ النار منه والله أعلم.

انظر: التذكرة، للقرطبي (٤٢٤، ٤٢٥).

خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود لا موت)(١).

إن ظلال يوم القيامة تتبدى في أحاديث رسول الله ﷺ تحملها الصور التي ينقلها لهم عن الدار الآخرة، فتستجيش مشاعرهم، ويتلقونَ توجيهاته ﷺ باستسلام وقلوب مفتوحة، فمشاعر التقوى تملؤها وتخضع لما تسمع من ترهيب وترغيب، وتحذير، حتى غدت تعيش الآخرة وهي في الدنيا تدب أقدامهم على الأرض وتعانق قلوبهم السماء، فما أسرع ما يبادر أحدهم إلى إرضاء ربه إن سمع من رسول الله ﷺ ما يقربه إلى خالقه، وما أسرع ما تفيضُ عيونهم إن مروا بآيات العذاب في القرآن، أو سمعوا حديث رسول الله، ويستبشرونَ إن قرأوا آية نعيم طمعًا أن تشملهم رحمة ربهم، فيجتهدونَ لأداء ما يتمنون، ويجاهدونَ لأجل الابتعاد عن غضب الجبار، يسألونَ عن صغار الأمور قبل كبارها، ويلتمسونَ الكلمة الطيبة في كل معاملاتهم، ويحزن أحدهم أن بدرت منه بادرة ضد أخيه ارتكبها لغضب غضبه، أو حمية شطت به، ولا يهدأ لهم بال حتى يكفروا عنها بما يقوون عليه من، صلاة، ودعاء، ونفقة، وعتق، ويحرصونَ على القصاص من أنفسهم في الدنيا قبل أن يقتص منهم على رؤوس الخلائق، كيف لا وهم يسمعونَ رسول الله ﷺ يحذرهم مما يجري في ذلك اليوم.

عن عبد الله بن أنيس -رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقول: (**يحشرُ الله العباد يوم القيامة**) أو قال: (**الناس عراة غُرلاً بهمًا**) قال: قلنا: وما بهمًا؟. قال: (**ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الديان، أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه، حتى اللطة، قال: قلنا: كيف؟، وإننا نأتي عراة غرلاً بهمًا؟ قال**: (**الحسنات والسيئات**)(٢).

وحديث البطاقة حديث مشهور أخرجه الترمذي وإسناده صحيح ورواه ابن

---

(١) سنن الترمذي (٤/٩٦١، ٩٦٢).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/٤٩٥).

ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيره.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: (**إن الله سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشرُ له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بل إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**)(١).

إنه يوم الحق، ويوم العدل، يوم القضاء والفصل، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وتجدُ كل نفس شريرة ما وجدت من سوء محضرًا تتمنى لو أنها لا تراهُ، أو يباعد عنها.. ولكن... هيهات، وهو يوم الحساب وهم بين يدي أعدل القضاة، الملك الحق، رب العزة سبحانه وتعالى.

أنواع الحساب:

ورد في السنة الشريفة أن أول حق يحاسب عليه العبد من حقوق الله سبحانه وتعالى الصلاة، فإن قبلت منه صالحة قبل سائر عمله، وإن رُدَّت رُدَّ سائر عمله.

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول ما يحاسبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صَلُحَتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضة شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي هذا من تطوّع؟ فيكمّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**)(٢).

---

(١) الجامع الصحيح: الترمذي (٥/٢٥)، حديث رقم (٢٦٣٩)، وكذلك سنن ابن ماجة (١٤٣٧/٢).

(٢) الجامع الصحيح، الترمذي (٢/٢٧٠)، وفي مسند الإمام أحمد (١٩/١٥) طبعة شاكر، حديث رقم (٧٨٨٩)، وفي سنن الدارمي (١/٢٥٤)، والنسائي (١/٢٣٢).

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **(إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة)**، قال: **(يقولُ ربنا -عز وجل- لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع؟، فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك)**[١].

والحساب يوم الدين أنواع، يحاسب كل امرئ على ما قدم في الدنيا، وللناس مواقف وأحوال، يبلوها الناس في الدنيا، فإذا كان يوم الحساب أظهرها الله على حقيقة ما عملوها، فالذي اكتسب شهرته في الدنيا بعمل ما ولم تكن طاعة الله غايته، فاليوم يفضح على رؤوس الأشهاد، ويظهر عمله الذي راءى به في الدنيا حتى اكتسب مجده وشهرته، ولا يقدر على إخفائه أمام أعدل الحاكمين.

ولنر من أمثلة ما يمر في حياة البشر ما يعرضُ صورة من صور يوم القيامة.

- حوار المرائين:

روى مسلم، عن سليمان بن يسار قال: تَفَرَّق الناس عن أبي هريرة فقال له ناتل أهل الشام[٢]: أيها الشيخ! حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(إنَّ أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجلٌ استُشْهِدَ فَأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟**

قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت.

قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتِيَ به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: تعلمتُ العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن.

---

(١) صحيح الجامع: الألباني (٣٥٢/٢).

(٢) ناتل أهل الشام هو ناتل بن قيس الجذامي الشامي من أهل فلسطين، وهو تابعي، وكان أبوه صحابيًا، وكان ناتل كبير قومه، انظر تهذيب التهذيب (٣٩٨/١٠)، والإصابة في ترجمة أبيه (ت ٧١٧٥).

قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاهُ من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[1].

والحديث واضح فيه أن عقاب هذه الأصناف على فعلهم ذلك لغير الله عز وجل، وما إدخالهم النار إلا لغلظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، والله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

أمّا العلماء العاملون، والمنفقونَ في وجوه الخير، والمجاهدونَ في سبيل الله فأولئك لهم من الله حسن المآب وعظيم الثواب، وقد أثنى الله عليهم ورسوله، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

عتاب الرب للعبد:

وفي الأحاديث الصحيحة أحداث لا يتصورها العبد، إذ يجري بين الخالق العظيم والمؤمنين من عباده ما يشبه العقاب لتقصير صدر المخلوق، ولكن رب العالمين يرى المسلم ما لم يكن يتوقع حدوثه.

ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله عز وجل، يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضتُ فلم تعدني.**

قال: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟.

قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني.

قال: يا رب! وكيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟

---

(١) صحيح مسلم (١٥١٤/٣).

قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني.

قال: يا رب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي)(١).

إن حياة المؤمن في الدنيا لا تنفكُ في تقديم مهر الجنة ورضا الباري عز وجل، فكل صغيرة وكبيرة مدخرة ليوم الحساب ولا يضيع شيء عند رب الأرباب، يستقل الإنسان العمل القليل ويحتقره وهو عند الله عظيم، يقدمه للمحتاج فيدخر يوم القيامة إلى جزء حسنة تشيل في الميزان فإذا بهذا العمل القليل، كأنه جبل من الحسنات يثقل الميزان فيرفع صاحبه، وينقذه من غضب الجبار.

إن في الأحاديث الشريفة منهاج حياة متكامل لحياة مثلى تحملُ العامل على التزامها على بلوغه درجات لا يعي مقدارها في حياة البشر الشائكة، ولكنه يتصورها يوم تختفي هذه الدنيا لتحل محلها حياة أخرى دائمة خالدة لا فناء فيها، فيحمد الله على توفيقه له بأن هداهُ فأخذ بأحسن ما علم والتزم خير ما أدى به إلى عمل... وقدم بين يدي ربه ما وفقه إليه من طاعته.

في ختام مشهد الحساب يتلقى كل عبد سجلاً كاملاً لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا، للمؤمن كتاب يتلقاهُ بيمينه من أمامه، يحاسب بعده الحساب اليسير المذكور في القرآن ثم ينقلب إلى أهله فرحًا مسرورًا.

وأمّا الكافر والمنافق فإن كتبهم تعطى لهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم ولا هم له إلا الدعاء بالويل والثبور جزاء ما اقترف وقدم من عمل كفور.

ويقال بعد أن يتسلم كل فريق كتابه: **﴿هذا كتابنا ينطقُ عليكم بالحق إنا كنا نستنسخُ ما كنتم تعملون﴾** (٢).

---

(١) صحيح مسلم (٤/١٩٩٠).

(٢) الجاثية ٢٩.

القصاص:

القصاص هو أخذ الحق من الظالم للمظلوم ومن الباغي للمبغي عليه، والقصاص يوم القيامة عام بين كل ظالم ومظلوم ومعتد ومعتدى عليه سواء أكان من المكلفين من الثقلين أو غيرهما.

قال الله تعالى: ﴿**وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلمًا**﴾ [(١)].

أي خاب يوم القيامة من حمل ظلمًا لخلق الله تعالى في الدنيا، فإنَّ الله تعالى سوف يوصل كل حق حتى أنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[(٢)].

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: (**من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال**)[(٣)].

وروى البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**من ضرب بسوط ظلمًا، اقتص منه يوم القيامة**)[(٤)].

- طريقة قصاص المظالم بين العباد:

يأتي الإنسان يوم القيامة مجردًا من كل ما كان يتمتعُ به في الدنيا من جاه ومال وثروة، وليس له من رأس مال يومئذ إلا ما قدم من خير أو شر، فإن كان خيرًا كان حسناته معه، وإن كان غير ذلك سبقته سيئاته إلى حيث لا يحب أن يرى عمله وما جلب له من خزي.

ففي صحيح البخاري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله ﷺ قال: (**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن**

---

(١) طه ١١١.

(٢) الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها، عبد الله سراج الدين، جمعية التعليم الشرعي حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٧ (٣٦٢).

(٣) صحيح مسلم (١٢٨٢/٣).

(٤) صحيح الجامع الصغير (٣١٩/٥)، ورقم الحديث (٦٢٥٠).

له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)(١).

وهذه حقيقة الإفلاس التي بينها حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**أتدرونَ من المفلس؟**) قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: (**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا منه حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**)(٢).

والدَّيْنُ عظيم خطره، حذر الإسلام منه، حتى لا يبقى في عنق المدين منه شيء يوم القيامة وإلا أخذ به، ولا يقدرُ يوم القيامة على أدائه إذ لا حساب يومئذ بالدينار والدرهم.

روى ابن ماجة بإسناد صحيح، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: (**من مات وعليه دينار أو درهم، قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم**)(٣).

وفي سنن الترمذي، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيفَ أنا منهم؟

فقال رسول الله ﷺ: (**إذا كان يوم القيامة يُحْسبُ ما خانوك وعَصَوْك وكذبوك، وعقابُك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل**).

فتنحى الرجل وجعل يهتفُ ويبكي.

فقال له رسول الله ﷺ: (**أما تقرأ قوله تعالى: ﴿ونضعُ الموازين القسط ليوم**

---

(١) فتح الباري (٥/١٠١).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩٩٧)، ورقم الحديث (٢٥٨١).

(٣) صحيح الجامع الصغير (٥/٣٥٧)، حديث رقم (٦٤٢٢).

القيامة فلا تظلمُ نفسٌ شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [(١)]).

فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدُ أنهم كلهم أحرار[(٢)].

ومن الأمور العظيمة عند الله سبحانه وتعالى أن تسفك الدماء بغير وجه حق، وقد تبين ذلك من خلال الحديث الذي يرويه البخاري، عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: **(أول ما يقضى بين الناس في الدماء)**[(٣)].

وقال ابن حجر العسقلاني في شرحه للحديث: (وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنبُ يعظمُ بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعدام البنية الإنسانية غاية في ذلك)[(٤)].

فأول الحساب يوم القيامة للعبد سؤاله عن صلاته، وأول القضاء قضاء الدم وقد شرح ابن حجر حديث النسائي الجامع للخبرين وبين أن حديث قضاء الدم محمول على ما يتعلقُ بمعاملات الخلق، وأن الصلاة فيما يتعلق بعبادة الخالق[(٥)].

ويمثل الحديث الشريف الهيئة التي يأتي بها القاتل والمقتول للوقوف أمام رب العزة تبارك وتعالى، حتى يقتص للمقتول من قاتله، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: **(يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا رب، هذا قتلني. فيقول: لم قتلته؟**

فيقولُ: قتلته لتكون العزة لك.

فيقول: فإنها لي.

---

(١) الأنبياء ٤٧.

(٢) الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح (١٥٤٣/٣)، ورقم الحديث (٥٥٦١)، وقال: رواهُ الترمذي. انظره في سنن الترمذي (٣٢٠/٥).

(٣) فتح الباري (٣٩٥/١١)، وفي جامع الأصول (٤٣٦/١٠)، قال: ورواهُ البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٤) فتح الباري (٣٩٧/١١).

(٥) فتح الباري (٣٩٦/١١).

ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني.

فيقول: لم قتلته؟

فيقول: لتكون العزة لفلان.

فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه)(١).

وفي سنن الترمذي، وأبي داود، وابن ماجه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (**يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، فيقولُ: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش**)(٢).

أمّا المؤمنون فلا بد من قصاص بينهم ورد ظلامات بعضهم على بعض، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: (**يخلصُ المؤمنون من النار، فيحبسونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم، كانت بينهم في الدنيا، حتى إذاً هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنــزله في الجنة منه بمنــزله كان في الدنيا**)(٣).

اقتصاص البهائم:

اقتضى عدلُ الله -عز وجل- أن لا يمر شيء في الحياة الدنيا دون عقاب أو ثواب حتى ولو كان الظالمُ حيوانًا غير مكلف، إذ من مقتضى العدل أن لا يجور قوي على ضعيف، وأن يقتص للمظلوم من ظالمه.

وورد في الحديث الشريف ما يفيد الاقتصاص من البهائم حتى إنه ليقيد الجماء من القرناء.

وقد أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: (**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**)(٤).

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٦/٣٢٤)، ورقم الحديث (٧٨٨٥).

(٢) صحيح الجامع الصغير (٦/٣٢٤)، ورقم الحديث (٧٨٨٧).

(٣) فتح الباري (١١/٣٩٥).

(٤) صحيح مسلم (٤/١٩٩٧).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة**)(١).

وفي المسند أيضًا عن أبي هريرة يرفعه: (**ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحا**)(٢).

وروى أحمد أيضًا بإسناد صحيح، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: (**يا أبا ذر، هل تدري فيما تنتطحان؟**

قال: لا.

قال: ولكن الله يدري وسيقضي بينهما)(٣).

وكانت لبعض أهل العلم آراء حول حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض. وفي شرحه لصحيح مسلم وضح الإمام النووي هذه المسألة فقال عند ذكر الحديث السابق (لتؤدن الحقوق إلى أهلها...): (هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعادُ الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة.

قال الله تعالى: ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ (٤).

وإذا ورد لفظُ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره).

قال العلماء: (وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأمّا القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة، والجلحاء بالمد، هي: الجماء التي لا قرن لها، والله أعلم)(٥).

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/٣٦٣.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/٣٩٠).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/١٦٢).

(٤) التكوير ٥.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/!٣٦).

وقال الإمام الشوكاني في تفسير آية ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ (الوحوش: ما توحش من دواب البر، ومعنى حشرت: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء)[١].

وتوسع صديق حسن خان في عرض حشر البهائم فجمع الآراء المذكورة في هذا الباب ورد منها ما رده العلماء قبله وانتهى إلى قوله:

(إن الله تعالى يعيدها وينصفُ بعضها من بعض بما فعلته بإرادتها لإدراكها للجزئيات، وليس هذا بتكليف ولا مبني عليه، لأن جزاء التكليف إنما يكون في داري الخلود: الجنة والنار، وهي تعود ترابًا قبل دخول أهليهما فيهما.

وأمّا فعل الحكيم القدير لذلك فليعرف أهل المحشر أنه -عز وجل- لا يتركُ مثقال ذرة من العدل، ليتحقق أهل النعيم ما لهم من النعيم المقيم، وأهلُ الجحيم ما أعد لهم من العذاب الأليم تنويرًا لهم وإرشادًا لأن يعلموا عظمة كبريائه، وتساوي جميع مخلوقاته عنده بالنسبة لذلك)[٢].

وحسب المؤمن أن يقرأ الحديث المشهور عن أن الظلم يكون يوم القيامة ظلمات وأن الله سبحانه وتعالى حذر منه حتى يكون المؤمن ممن يخوضونَ في نورهم في ذلك اليوم الرهيب.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ قال: (**الظلم ظلمات يوم القيامة**)[٣].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**)[٤].

وأنى للسائر في الظلمات أن يهتدي إن لم يدركه عمل ينجيه يوم القيامة يوم لا

---

(١) الشوكاني فتح القدير (٣٨٨/٥).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن. صديق حسن خان. مطبعة العاصمة. القاهرة ١٩٦٥ الجزء العاشر (٢٤٨).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، فتح الباري (١٠٠/٥)، وانظر كذلك صحيح مسلم (١٩٦٩/٤) ورقم الحديث (٢٥٧٩).

(٤) صحيح مسلم (١٩٦٩/٤)، ورقم الحديث (٢٥٧٨).

ينفعُ شفاعة ولا خلة، وأن ينير هذا العمل الصالح طريقه حتى ينقذه من الكرب العظيم الذي يحيط به ويمزق نفسه، فلا يدري له مستقرًا، ولا يعرفُ له مقرًا.

- **الميزان:**

دلت الآيات القرآنية وصريح السنة المشرفة على أن الميزان حق، وأن الله سبحانه وتعالى ينصبه يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهذا مقتضى العدل الإلهي المطلق.

وقد (ذكر لفظ الوزن والميزان في القرآن الكريم في ثلاث وعشرين آية، منها خمس عشرة آية خاصة بالحث على إقامة العدل في ميزان الدنيا، والحذر من التطفيف في الكيل والميزان المستوجب لعذاب الله، ومنها ثماني آيات خاصة بالوزن في الآخرة)(١).

وأمَّا الأحاديث الشريفة التي وردت في ذكر الميزان (فقد بلغت حد التواتر المعنوي)(٢).

والميزان ميزان حقيقي توزنُ به أعمال العباد، قال شارح الطحاوية:

(والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان)(٣).

قال ابن حجر: (قال أبو إسحاق الزجاج: أجمعَ أهلُ السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العبادة توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميلُ بالأعمال. وذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان)(٤).

أفما تصدق أن أعمال العباد تحط يوم العرض في الميزان
وكذاك تثقل تارة وتخف أخرى ذاك في القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه والكفتان إليه ناظرتان
ما ذاك أمرًا معنويًا بل هو الـ محسوس حقًا عند ذي الإيمان(٥)

---

(١) الغيبيات في ضوء السنة: د. محمد أحمد همام: مطبعة دبي. الطبعة الأولى ١٩٨٦ (٣٤٥).
(٢) المرجع السابق ٢٤٦.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز (٢/٦٠٩).
(٤) فتح الباري: ابن حجر (١٣/٥٣٨).
(٥) قصيدة ابن القيم مع شرحها جـ٢ (٥٩٣).

قال القرطبي: (وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال؛ والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها)(١).

ودلت آيات القرآن على دقة موازين يوم القيامة، ففي سورة الأنبياء قوله جل شأنه: ﴿**ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلمُ نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ (٢).

وقد حكى بعضُ أهل العلم أن لكل شخص ميزانًا خاصًا، أو لكل عمل ميزانًا وذلك لقوله جل شأنه: ﴿**ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة**﴾ .

وقال آخرونَ: إن الميزان واحد.

وقد رجح ابن حجر بعد سرده لآراء القائلين بوحدة الميزان وتعدده أن الميزان واحد، يقول: (ولا يشكل كثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا)(٣).

وذكر ابن حجر أيضًا أن الإمام أحمد بن حنبل قد رد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله: ﴿**ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة**﴾. والنبيُ ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة، فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله عز وجل(٤).

وقد سئل ابن تيمية -رحمه الله- عن الميزان، هل هو عبارة عن العدل؟ أم له كفتان؟

فأجاب:

(الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غيرُ العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿**فمن ثقلت موازينه**﴾ (٥)، ﴿**ومن خفت موازينه**﴾ (١)

---

(١) التذكرة: القرطبي (٣٠٩).

(٢) الأنبياء ٤٧.

(٣) فتح الباري: ابن حجر (٥٣٧/٣)، وانظر كذلك: آراء القائلين بتعدد الموازين لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١٨٦/٢).

(٤) فتح الباري (٥٣٨/١٣).

(٥) المؤمنون ١٠٢.

=

وقوله: ﴿**ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة**﴾ [٢].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**). وقال عن ساقي عبد الله بن مسعود: (**لَهُمَا في الميزان أثقلُ من أحد**).

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به، فنشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيوضع في كفة، ويؤتى ببطاقة فيه شهادة أن لا إلا الله. قال النبي ﷺ: (**فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**).

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو مما به يظهرُ العدل. والمقصود بالوزن العدل، كموازين الدنيا.

وأمّا كيفية تلك الموازين فهو بمترلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب[٣].

وكعادة أصحاب الفرق التماس التأويل في كل القضايا، وابتداع ما لا يصح من الأفكار والآراء، فقد كان الميزان من ضمن ما التمسوا له التأويل، ومنهم من أنكره، ومنهم من بالغ في وصفه حتى كأنه يراه[٤].

وقد رد القرطبي على هؤلاء المنكرين المؤولين، فقال: (قال علماؤنا: ولو جاز حملُ الميزان على ما ذكروه، لجاز حمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة وهذا كله فاسد، لأنه رد لما جاء به الصادق، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته، وقوله: فيخرج له بطاقة، وذلك يدل على الميزان الحقيقي، وأن الموزون صحف الأعمال

=

(١) المؤمنون ١٠٣.

(٢) الأنبياء ٤٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية (٤/٣٠٢).

(٤) انظر لذلك: كتاب التذكرة للقرطبي (٣٠٩-٣١٧).

ما بينا وبالله التوفيق)(١).

الميزان، وما الذي يوزن فيه؟

للعلماء أقوال في هذا الباب تتلخص في الاعتماد على النصوص الواردة، وإدراك كل عالم لمفهوم خاص لما دلت عليه هذه النصوص.

ففريق يرى أن الأعمال والأقوال توزن في الميزان، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**)(٢).

وبهذا الحديث استدل البخاري على أن ذات الأقوال والكلمات توزن في الميزان والأعمال كذلك.

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله: (**الطهور شطر الإيمان، والحمدُ لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمدُ لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض، والصلاةُ نور، والصدقة برهان، والصبرُ ضياء، القرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو، فبايع نفسه، فمعتقها، أو موبقها**)(٣).

وذكروا أن الأعمال تأتي في صور حسنة نَيِّرة إن كانت صالحة، وفي صور سيئة قبيحة إن كانت خبيثة، والله أعلم بالكيفية التي تتمثل بها تلك الأعمال، ومما وردفي الحديث الشريف عن مجيء الأعمال يوم القيامة ما رواهُ مسلم عن النواس بن سمعان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملونَ به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظُلَّتان بينهما شَرَق(٤) أو كأنهم فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**)(١).

---

(١) التذكرة (٣١٤).

(٢) فتح الباري (١٣/٥٣٧).

(٣) صحيح مسلم (١/٢٠٣).

(٤) شرق: أي ضوء ونور.

=

ودافع ابن حجر عن هذا الرأي بعد أن رأي ترجيحه فقال: (والصحيح أن الأعمال هي التي توزن).

ورأى فريق آخر أن العامل نفسه هو الذي يوزن واستدل على ذلك بما رواهُ البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: (**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناح بعوضة، ، وقال اقرأوا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا**[٢]﴾[٣].

وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكًا من الآراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (**مما تضحكون**؟ قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه.

فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقلُ في الميزان من أحد)[٤].

فهذان الحديثان يوضحان أن العباد يوزنونَ في يوم القيامة، وأن الإيمان هو الذي يرجح الميزان لا أوزان الأجسام من ضخامة ونحافة.

وفريق ثالث قال:

إن الميزان يزن يوم القيامة صحائف الأعمال. قال القرطبي: (والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز. قال الله -عز وجل-: ﴿**وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين**﴾ وهذا نص.

قال ابن عمر: (توزن صاحئف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعلُ الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار)[٥].

=

(١) صحيح مسلم (٥٥٣/١)، حديث رقم (٢٣٥).

(٢) الكهف ١٠٥.

(٣) فتح الباري (٤٢٦/٨).

(٤) مسند الإمام أحمد (٤٢٠/١-٤٢١).

(٥) التذكرة، القرطبي (٣١٣).

وشابه قول السفاريني قول القرطبي إذ قال: (والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر، والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاهُ ابن عطية عن أبي المعالي...)(١).

ومن أمثلة هذا الفريق ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحُبُلي، قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- يقول: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشرُ عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا، يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فتخرجُ له بطاقة فيها: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فيقول أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضعُ السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيءَ بسم الله الرحمن الرحيم**)(٢).

ويتبين لنا من مجموع النصوص أن العامل وعمله وصحف أعماله كلها توزنُ ولا يردُ حديث حديثًا آخر أو ينافيه فاقتضى الجمعُ بين ما ورد في النصوص على أن الوزنَ يشملها جميعًا.

ونستأنس هنا برأي لأحد العلماء المعاصرين إذ كتب يقول: والذي أستظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينهما، ويدلُ على ذلك ما رواهُ أحمد -رحمه الله تعالى- عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: (**توضعُ الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل،**

---

(١) لوامع الأنوار البهية، السفاريني (١٨٧/٢).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢١٣/٢)، والترمذي (٢٤/٥)، وابن ماجه (١٤٣٧/٢)، ورقم الحديث (٤٣٠٠)، وسنده صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي، ورواية (ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم) شاذة، وهي لأحمد، والرواية الصحيحة (ولا يثقل مع اسم الله شيء) وهي رواية الترمذي والحاكم.

فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصى عليه، فيمايل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار).

قال: (**فإذا أدبر، إذا صائح من عند الرحمن -عز وجل- يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضعُ مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان**).

فهذا يدلُ على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمدُ والمنة)[١].

الحوض:

لا يدرك الإنسان قدر النعمة إلا عند افتقادها، وتعظم عند اشتداد الحاجة إليها، ومن نعم الله الكثيرة على رسوله ﷺ، أن آتاهُ حوضًا يوم القيامة يرده الطائعونَ من أمته كما يؤتى الرسل أحواضًا يردها المؤمنونَ الذين اتّبعوهم، وإن كان حوض نبينا ﷺ أكبرها وأعظمها.

والأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابيًا، تتبعها ابن حجر في الفتح (وذكر أسماء الرواة في بحث مستفيض مع تعليقات مفيدة، كما استقصى طرقها ابن كثير في كتابه (النهاية)[٢].

وفي الأحاديث وصف لهذا الحوض المبارك، من ذلك ما رواهُ البخاري من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: قال النبي ﷺ: (**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض**

---

(١) معارج القبول، الشيخ حافظ الحكمي -طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية- الرياض (٢/٢٧٢).

(٢) الجزء الأول من (النهاية) (١/٣٣٧-٣٧٣)، وقال: ذكر ما ورد في الحوض المحمدي سقانا الله منه يوم القيامة من الأحاديث المشهورة المتعددة من الطرق المأثورة الكثيرة المتضافرة، وإن رغمت أنوف كثير من المبتدعة المكابرة القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخْلِق بهم أن يحال بينهم وبين وروده كما قال بعضُ السلف: من كذب بكرامة لم ينلها، ولو اطلع المنكر للحوض على ما سنورده من الأحاديث قبل مقالته لم يقلها. وانظر أيضًا (فتح الباري) (١١/٤٦٨-٤٦٩).

من اللبن، وريحهُ أطيبُ من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبدًا)[١].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: **(حوضي مسيرة شهر، وزواياهُ سواء**[٢]**، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجومِ السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدًا)**[٣].

وسئل ﷺ عن سعة حوضه فقال فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: **(إن قدر حوضي كما بين أَيْلَةَ إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجومِ السماء)**[٤].

وفي رواية أخرى قوله ﷺ: **(أمامكم حوض كما بين جرباءَ وأذْرُح)**[٥].

وفي صحيح مسلمٍ عن أبي ذر، قال: قلتُ: يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: **(والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المُصْحِية، آنية الجنة، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجَنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عَمَّان إلى أيلة، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل)**[٦].

- حوض النبي: من يَرِده ومن يُردُّ عنه:

ورد في الأحاديث الشريفة أن أقوامًا من أمة محمد ﷺ، ترد الحوض فيتلقاها رسول الله ﷺ مرحبًا مهللاً، وأن أقوامًا أخرى ترد الحوض فتدفع عنه وتذاد عن الوصول إليه. وفي الأحاديث التالية ما بين ذلك:

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤٦٣/١١).

(٢) قال العلماء: معناهُ طوله كعرضه.

(٣) صحيح مسلم (١٧٩٤/٤).

(٤) فتح الباري (٤٦٤/١١)، وفي مسلم (١٨٠٠/٤، وأخرجه أحمد (٢٣٠/٣).

(٥) فتح الباري (٤٦٣/١١).

(٦) صحيح مسلم (١٧٩٨/٤) حديث رقم (٢٣٠٠). ويرى ابن حجر أنها (عمان) بضم عين وتخفيف النون وهي البلد التي على ساحل البحر من جهة البحرين، انظر فتح الباري (٤٦٩/١١).

روى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: (**إني فرطكم على الحوض، من مَرَّ عليّ، شرب، ومن شرب، لم يظمأ أبدًا، ليردنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثُمَّ يحالُ بيني وبينهم**).

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال:

هكذا سمعتُ من سهل؟

فقلتُ: نعم.

فقال: أشهدُ على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها، فأقولُ: (**إنهم مني**) فيقالُ: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: (**سحقًا، سحقًا، لمن غَيَّر بعدي**)[١].

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: (**يردُ علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى**)[٢].

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنها قالت:

كنتُ أسمع الناس يذكرونَ الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ، فلما كان يومًا من ذلك، والجارية تمشطني، فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**أيها الناس**).

فقلتُ للجارية: استأخري عني.

قالت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء.

فقلتُ: إني من الناس.

فقال رسول الله ﷺ:

(**إني لكم فَرَطٌ على الحوض، فإياي، لا يأتين أحدكم فيُذَب عني، كما يُذبُ البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقالُ: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا**)[٣].

---

(١) فتح الباري (١١/٤٦٤). وفي مسلم (٤/١٧٩٣).

(٢) فتح الباري (١١/٤٦٤). وفي مسلم (٤/١٧٩٦).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٧٩٥)، ورقم الحديث (٢٢٩٥).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**بينا أنا قائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم. فقلتُ: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنها؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، قلتُ: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراهُ يخلص منهم إلا مثلُ هَمل النَّعَم**)(١).

وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله**).

قالوا: يا نبي الله، أتعرفنا؟

قال: (**نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردونَ عليّ غرًا محجلين من آثار الوضوء، وليُصدنَ عني طائفة منكم فلا يصلون، فأقولُ: يا ربِّ، هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملكٌ فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟**)(٢).

وروى مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

قال: (**أنزلت على آنفًا سورة**). فقرأ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم* إنا أعطيناك الكوثر* فصل لربك وانحر* إن شانئك هو الأبتر**﴾ .

ثم قال: (**أتدرونَ ما الكوثر؟**).

فقلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: (**فإنه نهرٌ وعدنيه ربي -عز وجل-، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلجُ العبدُ منهم، فأقولُ: ربِّ، إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثَتْ بعدك؟**).

---

(١) فتح الباري (١١/٤٦٥). وهمل النعم: الإبل الضالة.

(٢) صحيح مسلم (١/٢١٧).

زاد ابن حجر في حديثه: بين أظهرنا في المسجد، وقال: (**ما أحْدَثَ بعدك**)[١].

ومما رواه مسلم عن ثوبان، أن النبي ﷺ قال: (**إني لبعقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن أضربُ بعصاي حتى يرفضّ عليهم**)، فسئل عن عرضه؟ فقال: (**من مقامي إلى عمان**)، وسئل عن شرابه؟ فقال: (**أشدُ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، يُغتُّ**[٢]**فيه ميزابان يُمدانه من الدنة، أحدهما من ذهب وآخر من وَرِق**)[٣].

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشدُ بياضًا من اللبن، وأبردُ من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيبُ ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في حال[٤] من المسك والرضراض[٥] من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء[٦].

ويذكر القرطبي في كتابه (التذكرة) أقوال العلماء في أيهما يكون قبل الآخر؟ الميزان أم الحوض؟ ويتناول ما ذكره الإمام الغزالي، وأبو الحسن القابسي، والقاضي عياض ولكل وجهته في تقديم بعض على بعض.

ويعلق الشيخ حسن أيوب على هذه الآراء فيقول: (هذا، ولم يقم دليل صريح على شيء مما ذكر، فالواجب اعتقاده هو أن النبي ﷺ له حوض تعدد أو اتحد، تقدم على الصراط أو تأخر، ولا يضرنا جهل ذلك)[٧].

---

(١) صحيح مسلم (١/٣٠٠)، حديث رقم (٤٠٠)، وفي مسند أحمد (٣/١٠٢)، والنسائي (٢/١٣٣)، وأبو داود (٢/٥٣٨).

(٢) يغت: يدفقان فيه الماء دفقًا شديدًا متتابعًا.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٧٩٩)، وفي مسند أحمد (٥/٢٨١).

(٤) الحال: التراب اللين.

(٥) الرضراض: ما دق من الحصى.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٨١، ٢٨٢).

(٧) رحلة الخلود، حسن أيوب (١٧٢).

الصراط:

الصراط جسر على جهنم، إذا انتهى الناس من ذلك الموقف العصيب الرهيب هرعوا إلى الصراط، وهم يعرفونَ وصفه، قلوبهم واجفة، وجوارحهم مرتجفة فما أن خلصوا من موقف عظيم حتى قدموا على ما هو أعظم منه، وقبل مدة كانوا يتمنون فراق الموقف ولو إلى النار، وهاهم أولاً: تسير جموعهم كاسفة البال يجللها خزي وعار وهول لم يحسبوا حسابه، بل سخروا من المؤمنين بلقاء هذا اليوم، واستهزءوا بهم، وأذاقوهم الويل في الدنيا ليكفروا بما ورد في حق هذا اليوم فإذا هم يتجرعون الغصص ألوانًا ويذوقونَ العذاب تلو العذاب، لا ينتهونَ من حزن إلا إلى حزن، ولا يسيرون في طريق إلا أسلمهم إلى سبيل هي أخزى وأذل.

وتصوير القرآن الكريم لهم ينبئ عن ذلتهم، بل تخبطهم، حتى إن المتأمل في نصوص الكتاب العزيز يجد في أوصافهم ما يبعثُ على الرثاء والشفقة من حركاتهم، وسكناتهم، فهم كالعميان يتسابقونَ، ويتساقطونَ، ويتنافسونَ على عبور الصراط. يقول الله عز وجل: ﴿**ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون**﴾ (١).

وفي حال توقفهم وقلة حيلتهم في الحركة، فما يستطيعونَ أن يأمروا أطرافهم لأنها تخضع لأمر الديان، فتثير فيهم حالة من الهمّ والغمّ، وينظرونَ إلى المؤمنين وهم يجتازونَ مسرورين فرحين بما آتاهم ربهم، يعبر الكتاب العزيز عنهم بقول الله تبارك وتعالى:﴿**ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضيًا ولا يرجعون**﴾(٢).

أما تكريم الله عز وجل للمؤمنين يومئذ فعظيم، إذ تزحزح عنهم النار فيبتعدونَ عنها. إن تعبير القرآن يبعثُ على الفرح والاشتياق: ﴿**يوم لا يُخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير**﴾ (٣).

---

(١) يس ٦٦.

(٢) يس ٦٧.

(٣) التحريم ٨.

إنَّ شدة الموقف، وهول ما يصطرع فيه الناس، يعقد الألسنة، ويفزع القلوب، ولكن قلوب المؤمنين وألسنتهم تُلهم الدعاء اللطيف: (ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا).

يقول سيد قطب: (وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب، هو علامة الاستجابة. فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب، فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور)[١].

واختلف المفسرونَ في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ [٢] ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿**ثم نُنجي الذين اتقوا ونذرُ الظالـــمين فيها جثيًا**﴾ [٣].

وفي الصحيح أنه قال: (**والذي نفسي بيده، لا يلجُ النار أحد بايع تحت الشجرة**)، قالت حفصة: فقلتُ: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ . **فقال**: (**ألم تسمعيه قال**: ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا ونذرُ الظالمين فيها جثيًا**﴾).

أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا يستلزم حصوله، بل يستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوهُ و لم يتمكنوا منه، يقال له: نَجَّاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا هودًا**﴾ [٤]، ﴿**فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا**﴾ [٥].

﴿**ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا**﴾ [٦]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصابَ غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة، لأصابهم ما أصاب أولئك[٧].

---

(١) في ظلال القرآن (٣٦١٨/٦).
(٢) مريم ٧١.
(٣) مريم ٧٢.
(٤) هود ٥٨.
(٥) هود ٦٦.
(٦) هود ٩٤.
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (٦٠٧/٦٠٦/٢)، وانظر كذلك: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٩/٧-٥١).

وفي ختام ذلك اليوم المشهود يحشر الناس إما إلى الجنة وإما إلى النار، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن كل أمة تتبع ما كانت تعبدُ في الدنيا، فتسير هذه الجموع خلف إلهها الذي كانت ترجوه في الحياة الأولى فتتساقط هذه الآلهة المزعومة في النار، وخلفها عبادها، وقد أشارت الآية الكريمة في سورة هود إلى هذا في قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿**يَقْدمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود**﴾ (١).

ويبقى المؤمنون وبعض أهل الكتاب، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا يخالطوهم في الدنيا، فيأتيهم ربهم، فيقولُ لهم ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظرُ ربنا، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم، وعندئذ يخرون سجدًا، إلا المنافقونَ فإنهم لا يستطيعونَ السجود: ﴿**يوم يكشف عن ساق ويدعونَ إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ (٢).

وينطلقُ المؤمنون إلى ربهم ويوضع الصراط ويسير عليه المؤمنونَ على قدر نورهم الذي جاء على قدر عملهم، أما المنافقون فإن نورهم يطفأ فلا يعرفون طريقًا ولا يتبينون مواقع أقدامهم فيقالُ لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا، ثم يضربُ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ويمر العباد على الصراط مسرعين كل على قدر عمله.

هذا مجمل ما أورده الإمام مسلم في صحيحه في الحديث الطويل الذي أوله: (**إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن**)(٣).

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله ﷺ: (... **وترسل الأمانة، والرحم، فتقومان على جَنَبَتي الصراط يمينًا وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق**)، قال: قلتُ: بأبي أنت وأمي، أيّ شيء كالبرق؟ قال: (**أولم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرِّ الطير وشد الرحال، وتجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب، سَلِّم**

---

(١) هود ٩٨.

(٢) القلم ٤٢.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/١٦٧)، وفي البخاري مثله كما في فتح الباري (٨/٢٤٩).

سَلِّم. حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا)، قال: (**وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار**)(١).

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في رده على سؤال الصحابة عن رؤية الله -عز وجل- يوم القيامة: (**هل تُضَارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. يجمعُ الله الناس، فيقول: من كان يعبدُ شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونَ، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذُ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم**). قال رسول الله ﷺ: (**فأكونُ أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟**). قالوا: بلى يا رسول الله، **قال**: (**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطفُ الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو**)(٢).

وفي صفة الصراط روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه قال: بلغني أن الجسر -أي الصراط- أدق من الشعر وأحدُّ من السيف.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلتُ: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ فقال ﷺ: (**يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب، فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله، وحين يخرج عنق النار فينطوي عليهم، ويقول ذلك العنق وُكِّلتُ بثلاثة:**

---

(١) صحيح مسلم (١/١٨٧).

(٢) فتح الباري (١١/٤٤٤)، وفي صحيح مسلم (١/١٦٣)، واللفظ للبخاري.

وُكِّلتُ بمن ادَّعى مع الله إلهًا آخر، ووكلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلتُ بكل جبار عنيد. قال: فينطوي عليهم -أي على ثلاثة- ويرمي بهم في غمرات النار).

قال: (ولجهنم جسر أدق من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخذونَ من شاء الله تعالى والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سلم سلم، فناج مُسلم، ومخدوش مسلم، ومكوَّر في النار على وجهه)[١].

- الشفاعة:

الشفاعة مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى العصاة والمذنبين من خلقه، كما أنها في حدها مكرمة لرسول الله ﷺ، في أن يشفع لأمته.

معناها لغة: الوسيلة والطلب.

وعرفًا: سؤال الخير للغير.

وهي تكون للأنبياء، والعلماء، العاملين، والشهداء؛ والصالحين، يشفعُ كل لأهل الكبائر على قدر منـــزلته عند ربه.

وعَرَّفها الحافظ الزرقاني بقوله: (هي انضمام الأدنى -أي لجوؤه وقصده- إلى الأعلى، ليستعين به على ما يرومه- أي: في جلب منفعة، أو دفع مضرة عن المشفوع به)[٢].

ويوم القيامة يكون لمحمد ﷺ القدح المعلّى، وتظهرُ مكانته للخلق أجمعين، حينما تكون له الشفاعة العظمى.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا)**[٣].

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **(أنا أول الناس يشفع في الجنة،**

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦/ ١١٠).

(٢) الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها، عبد الله سراج الدين (١٨٠).

(٣) صحيح مسلم (١/ ١٨٩)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠).

وأنا أكثر الأنبياء تبعًا)[١]. وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشقُ الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر**)[٢].

وعند ابن ماجه أيضًا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (**خيرتُ بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترتُ الشفاعة، لأنها أعمُ وأكفى، أترونها للمتقين؟، لا، ولكنها للمذنبين، الخَطائين المتلوثين**)[٣].

والشفاعة للنبي ﷺ ثابتة بالكتاب والسنة.

ففي الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**﴾ [٤].

والمقام المحمود في الآية الكريمة يعني الشفاعة، فقد روي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: (إن الناس يصيرونَ يوم القيامة جثًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولونَ يا فلان: اشفع. حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذاك يوم يبعثه المقام المحمود)[٥].

وما رواه البخاري أيضًا عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: (**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**)[٦].

وشواهد الشفاعة كثيرة حفلت بها كتب السنن، نقتطفُ منها هنا ما ينقل صورها لتقريبها إلى الأذهان، مع الاكتفاء منها بالمثل أو المثلين.

- **والشفاعة أنواع:**

قال شارح الطحاوية: (والشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها

---

(١) صحيح مسلم (١٨٨/١).

(٢) سنن ابن ماجه (١٤٤٠/٢).

(٣) سنن ابن ماجه (١٤٤١/٢).

(٤) الإسراء ٧٩.

(٥) فتح الباري (٣٩٩/٨).

(٦) المرجع السابق.

ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع:

النوعُ الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، -رضي الله عنهم أجمعين- أحاديث الشفاعة. منها: عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فدُفِعَ إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: (**أنا سيدُ الناس يوم القيامة، وهل تدرونَ مم ذاك؟ يجمعُ الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقونَ ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترونَ ما قد بلغكم؟ ألا تنظرونَ من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونَ آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته[1]، نفسي**

---

(١) في صحيح البخاري (٣٨٨/٦)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال (لم يكذب إبراهيم -عليه السلام- إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله -عز وجل- قوله (إني سقيم)، وقوله: (بل فعله كبيرهم)، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذا أتى على جبار من الجبابرة، =

نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى، فيأتونَ موسى: فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقولُ لهم موسى: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفسًا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتونَ عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتونَ فيقولون: يا محمد، أنت رسولُ الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقومُ، فآتي تحت العرش، فأقعُ ساجدًا لربي -عز وجل-، ثم يفتحُ الله علي، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقالُ: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقولُ: يا رب، أمتي أمتي، يا رب، أمتي أمتي، يا رب، أمتي أمتي. فيقال: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب)، ثم قال: (والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة

=

فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله، فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت، فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيمْ؟ قالت: رد الله كيد الكافر -أو الفاجر- في نحره- وأخدم هاجر، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء).

وبُصرى)[(١)].

النوعان الثاني والثالث: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسنُ أن يستشهد لهذا النوع بحديث عُكاشة بن مِحْصَن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلونَ الجَنة بغير حساب، والحديث مُخَرَّج في الصحيحين[(٢)].

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.

ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: (فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾[(٣)]، قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفعُ عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة)[(٤)].

النوع السابع: شفاعته أن يؤذَن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم وفي صحيح مسلم عن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: (**أنا أول شفيع**

(١) مسند الإمام أحمد (٢/٤٣٥-٤٣٦)، وأخرجه البخاري، وانظر فتح الباري (٨/٣٩٦)، وأخرجه مسلم (١/١٨٤)، وأخرجه الترمذي (٤/٦٢٢)، وابن أبي عاصم في السنن (٢/٣٧٩)، وأبو عوانة (١/١٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/٢٧٦)، ومسلم (١/١٩٧)، من حديث أبي هريرة بلفظ (يدخلُ الجنة من أمتي زمرة هي سبعون ألفًا تضيء وجوههم إضاءة القمر، فقال عكاشة بن محصن الأسدي يرفعُ نمرة عليه، فقال: ادع الله لي يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله: ادع الله لي أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: (سبقك عكاشة).

(٣) المدثر ٤٨.

(٤) التذكرة (١/٢٤٩)، وفي فتح الباري (١١/٢٧).

في الجنة)[١].

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون[٢].

ومن أحاديث هذا النوع الأخير ما رواه البخاري في كتاب التوحيد: (حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنــزي، قال: اجتمعنا نحنُ وناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معًا بثابت البُناني، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافيناه يصلي الضحى، فاستأذنا؟ فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة! هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ، قال: **(إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتونَ آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليلُ الرحمن، فيأتونَ إبراهيم، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليمُ الله، فيأتونَ موسى، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتونَ عيسى، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد، فيأتوني، فأقولُ: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمدهُ بها، لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلقُ فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، واشفع تُشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة، أو خردلة من إيمان، فأنطلقُ فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي**

(١) صحيح مسلم (١/١٨٨)، وأحمد (٣/١٤٠)، والدارمي (١/٢٧).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٨٣-٢٩٠).

أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى، مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلقُ فأفعل. قال: فلما خرجنا من عند أنس، قلتُ: لو مررنا بالحسن، وهو متوار في منـــزل أبي خليفة[١] وهو جميع، فحدثناهُ بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناهُ فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نَرَ مثلَ ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه؟ فحدثناهُ بالحديث، فأتينا إلى هذا الموضع فقال: هيه؟ فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فما أدري، أنسيَ، أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حديثي كما حدثكم، قال: (**ثم أعود في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقالُ: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله**)[٢]. وهكذا رواه مسلم.

إن التاريخ البشري يجتمعُ في ذلك اليوم، ويرهقه الموقف العصيب، ويؤذيه العرق المنتن، والحر الشديد، ويتمنى الجمع الفرار من هذا المكان ولو إلى النار، ولكن ولات حين مناص.

وترتفعُ أصوات أن لا بد من شفيع إلى الله حتى ينقذنا من هذا الهول الذي لا يطاق، فتتجه جموع الناس إلى آدم، وتتم السلسلة حتى يشار إليهم أن محمدًا ﷺ هو سيد الموقف، وأنه الشفيع الذي لا ترد شفاعته عند ربه، إنه موقف يزداد فيه خزي الكافرين ويزداد المؤمنون عزة، وهذا الجمعُ الهائل المتجه إلى صاحب اللواء، كم فيه من

---

(١) هو حجاج بن عتاب العبدي البصري، والد عمر بن أبي خليفة، سماهُ البخاري في تاريخه (٣٧٧/٢)، وأبو أحمد في الكنى، وكذا الدولابي (١٦٥/١)، وسئل عنه يحيى بن معين، فقال: مشهور كما في الجرح والتعديل (١٥٩/٣)، وكان -رحمه الله- متواريًا خوفًا من الحجاج بن يوسف الثقفي، (محققًا شرح العقيدة الطحاوية).

(٢) أخرجه البخاري: انظر فتح الباري (٤٧٣/١٣)، ومسلم (١٨٠/١)، وابن ماجه (١٤٤٢/٢)، وأحمد (١٦!/٣).

شامت برسول الله في الدنيا أفنى حياته في حرب رسالته، وأنفق ليله ونهاره في تسويد الصفحات سبًا وقدحًا في سيرته، وطالما أغراهُ وضعه في الدنيا فبذل ما بذل محاربًا دعوة الإسلام ونبيه. ويمتلئ الموقف بهؤلاء الذين ظنوا أنهم بحربهم لرسول الله ودعوته سينالونَ منه، وما دروا أنها محفوظة يقرؤونها هذا اليوم، وهم في أمس الحاجة إليه.

ورسول الله ﷺ الذي سماهُ ربه الرؤوف الرحيم، ينطلقُ ليسجد تحت عرش الرحمن حتى ينفض هذا الجمع إلى الحساب ويتلقى كل عبد كتابه، وينقذ الموحدين المخلصين من أمته، بل حتى المقصرين الذين اتخذوا في الحياة سبلاً تتباعدُ عن طريق الإسلام إلا أنهم احتضنوا دينهم في قلوبهم فجاءت أعمالهم دون ما يأمله مؤمن في النجاة من عذاب ذلك اليوم الأليم.

ومن كرم الله لعباده أن يشفع المؤمنون لغيرهم، وهي رحمة إلهية تتجلى في هذا الموقف، فعن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثلُ الحيّين ربيعة ومضر**)، فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟.

قال: (**إنما أقول ما أقول**)[1].

وعمل المؤمن يوم القيامة يشفعُ له أيضًا، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: (**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقولُ الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه: قال: فيشفعان**)[2].

ولا شيء أرجى للمؤمن في حياته من عمل صالح يقدم به على ربه، يثقل ميزانه ويشفع له، ويدخله الجنة، ويرضى به مولاه.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٥٧).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/ ١٧٤).

الفصل الرابع
الجنة والنار

الجنة والنار كلمتان تثيران في النفس كثيرًا من المشاعر، وتبعثان في الذهن صورًا وأخيلة شتى، تتفاوت بقدر مفهوم اللفظين، فمن النعيم الوارف والنسيم الهفهاف، والبرودة والنشوة، وطراوة الحياة ولذة العيش، إلى فحيح النيران، وأصوات المستغيثين، وصراخ المعذبين وروائح المحترقين، ولفح اللهيب، والإحساس بالألم المضني، وانشغال المرء في التفكير في كيفية الخلاص من هذا الوضع الرهيب.

والجنة والنار دارا قرار العباد، بعد أن خلص الحساب، وقضى الرحمن فيمن صدق رسله واستجاب لدعوته وآمن به، وبين من حارب رسله، وأنكرَ دينه، وكفر به.

وهما مجالا الترغيب والترهيب في دعوة الرسل، شمر للجنة مؤمنون، وتهافت على عمل يدخل النار بشر آخرون.

وفي الكتاب العزيز تحذير وترهيب للناس، وفيه دعوة وترغيب، حذرهم من النار ورغبهم في الجنة، وأظهرَ ألوان العذاب، وبين صنوف النعيم، إلا أن جبلة البشر تأبى الانصياع للحق في كثير من الأحيان، فيهوون العناد ويتمسحونَ بالباطل دحضًا للحق، حتى إذا وقع الحق، ورأوهُ رأي العين قالوا: ربنا ارجعنا نعمل صالحًا. وهيهات.

وصف الله سبحانه وتعالى النار محذرًا منها فقال: ﴿**يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصونَ الله ما أمرهم به ويفعلونَ ما يؤمرون**﴾ (١)، وقال -عز وجل-: ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾(٢).

ووصف الجنة وما فيها، مرغبًا عباده في الحرص على طلبها، فقال -عز وجل-: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم* على الأرائك ينظرون* تعرِفُ في وجوههم نضرة النعيم***

---

(١) التحريم ٦.

(٢) البقرة ٢٤.

من تسنيم عينًا يشربُ بها المقـــربون﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى مرغبًا: **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوزُ العظيم﴾** (٢).

والقرآن العظيم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، يصور يوم القيامة أمام قارئه كأنه رأي عين، وبلاغة القرآن تأخذ بالألباب، كما تأخذ بمجامع النفوس، وتأثيره آسر للقلب المتفتح، مسيطر على المشاعر، بل يثير حتى كوامن المعاندين الذين إن أنكروه جهرة، تلوه خفية، لكن وجاهتهم وكبرياءهم الكاذب يمنعاهم من التصريح فيفتعلونَ الأكاذيب لرده، وعلم الله أنهم لتتلجلج نفوسهم وتضطربُ عقولهم، وتنفطرُ قلوبهم لما يحسونه من أثره.

يقول الخطابي عن بلاغة القرآن وأثره في النفوس: (فإنك لا تسمعُ كلامًا غير القرآن منظومًا، ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة، والحلاوة في حال، ومن الروعة، والمهابة في أخرى ما يخلصُ منه إليه، تستبشر له النفوس، وتنشرحُ له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب، والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعرُ منه الجلود، وتنـــزعجُ له القلوب)(٣).

قال الله تعالى: **﴿فأما من أوتيَ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه* إني ظننتُ أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية* في جنة عالية* قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئًا بمَا أسلفتم في الأيام الخالية* وأمّا مَن أوتيَ كتابه بشماله فيقولُ يا ليتني لم أوت كتابيه* ولم أدر ما حسابيه* يا ليتها كانت القاضية* ما أغنى عني ماليه* هلك عني سلطانيه* خذوه فغلوه* ثم الجحيم صلوه* ثم في سلسلة ذرعها سبعونَ ذراعًا فاسلكوه* إنه كان لا يؤمنُ بالله العظيم* ولا يحضُ على طعام**

---

(١) المطففين ٢٢-٢٨.

(٢) التوبة ٧٢.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الرماني والخطابي والجرجاني -دار المعارف بمصر- ١٩٥٥ (٦٤).

المسكين* فليس له اليوم هاهنا حميم* ولا طعام إلا من غسلين* لا يأكله إلا الخاطئون﴾ (١).

وقال تعالى يصفُ بعض مظاهر الحياة في الجنة، وحياة الضنك والضيق والعنت في النار: **﴿هل أتاك حديثُ الغاشية* وجوهٌ يومئذ خاشعة* عاملة ناصبة* تصلى نارًا حامية* تُسقى من عين آنية* ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع* لا يسمنُ ولا يغني من جوع* وجوه يومئذ ناعمة* لسعيها راضية* في جنة عالية* لا تسمعُ فيها لاغية* فيها عينٌ جارية* فيها سرر مرفوعة* وأكواب موضوعة* ونمارقُ مصفوفة* وزرابي مبثوثة﴾** (٢).

هذا هو القرآن الكريم في إعجازه العجيب الذي ينقل النفس في لحظات، بين مشاعر متباينة، من الفرح والسرور وحالة الابتهاج، إلى حالة من الخوف والهلع والعذاب.

كذلك كانت السنة المطهرة، ورسول الله ﷺ، يروي للصحابة والدنيا تنقلُ حديثه إلى الأجيال كذلك كانت السنة وهي تحوي ما دق من أسئلة السائلين، واستفسار المستفسرين عن دقائق ذلك اليوم، وأحداثه، عن نعيمه وشقائه، وعن الناس وكيف هم في دار فيها جزاء ولا عمل، وعن أمور لا يبلغُ العقل مقدار تصورها، ولا تقوى النفس على احتمال رؤياها، ولا القلب ينفذ إلى جزء من أسرارها إلا وله خفق كبير ووجيب مسموع.

بقاء الجنة والنار:

هذا مبحث طويل عند الكاتبين، زمن الترف الفكري، أيام أن كانت الفرق تنتظم وتعقد حلقاتها على امتداد الرقعة الإسلامية، وكان حديث أهل السنة هو الأصل حتى إذا نجمت طائفة تنقض رأيًا أو ترد كلامًا، تصدى لها العلماء المحققون، فردوا دعواهم، وأبطلوا باطلهم، وأنقذوا الناس من ضلالهم يكادُ يفتك بعقولهم وعقائدهم. وقد مضى ذلك الزمان واستقرت المفاهيم، ولا شأن لنا هنا بما دار من

(١) الحاقة ١٩-٣٧.

(٢) الغاشية ١-١٦.

خلاف، فمكان ذلك الكتب المتخصصة، ويكفينا أن نأخذ قدر ما نحتاج إليه وندعُ ما لا حاجة لنا فيه.

قال الطحاوي في العقيدة المنسوبة إليه: (والجنةُ والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لها أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخيرُ والشر مقدران على العباد).

وقال ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية موضحًا ما في هذا النص:

(أمّا قوله: (إن الجنة والنار مخلوقتان)، فاتفق أهلُ السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة. وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوهُ على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث، لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدَّعوا من خالف شريعتهم)[1].

وساق نصوصًا من الكتاب والسنة تدلُ على أنهما مخلوقتان، فمن أدلة القرآن قوله تعالى عن الجنة: ﴿**أعدت للمتقين**﴾[2]، ﴿**أعدت للذين آمنوا بالله ورسله**﴾[3]، ﴿**أعدت للكافرين**﴾[4]، ﴿**إن جهنم كانت مرصادًا* للطاغين مآبًا**﴾[5]. وقال تعالى: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى* عندها جنةُ المأوى**﴾[6].

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦١٥).
(٢) آل عمران ١٣٣.
(٣) الحديد ٢١.
(٤) آل عمران ١٣١.
(٥) النبأ ٢١، ٢٢.
(٦) النجم ١٣-١٥.

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله عنه- في قصة الإسراء، وفي آخره: (ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا بها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[1].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: (**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**)[2].

وفي صحيح مسلم، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ، فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ: (**رأيتُ في مقامي هذا كُلَّ شيء وُعِدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطْفًا من الجنة حتى رأيتموني أُقَدِّمُ**[3]**، ولقد رأيت جهنم يَحْطِم بعضها بعضًا حين رأَيتموني تأخرت**)[4].

وفي الصحيحين، واللفظُ للبخاري، عن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: (**إني رأيتُ الجنة، وتناولتُ عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيتُ النار، فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظعُ، ورأيتُ أكثر أهلها النساء**)، قالوا: بم، يا رسول الله؟ قال: (**يَكْفُرْنَ**)، قيل: أيكفرنَ بالله؟ قال: (**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى**

---

(١) الجنابذ: جمع جُنْبُذَة: ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة.
فتح الباري (٧/٢٠١، ٢٠٢)، مسلم (١/١٤٦)، أحمد (٤/٢٠٨، ٢١٠)، النسائي (١/٢١٧).

(٢) الإمام مالك، المؤطأ (١/٢٣٩)، مسلم (٤/٢١١٩)، أحمد (٢/١١٣)، النسائي (٤/١٠٧).

(٣) قال النووي: ضبطناهُ بضم الهمزة، وفتح القاف وكسر الدال المشددة، ومعناهُ: أقدم نفسي أو رجلي، وكذا صرح القاضي عياض بضبطه.

(٤) قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم (٢/٦١٩)، والبخاري (٣/٨١)، والنسائي (٣/١٣٠-١٣٢).

إحداهنَّ الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيتُ خيرًا قط!!)(١).

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: (**وأيمُ الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيرًا**)، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: (**رأيتُ الجنة والنار**)(٢).

وفي الموطأ والسنن، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إنما نسمة المؤمن يَعْلَقُ في شجر الجنة، حتى يَرْجِعهَا الله إلى جسده يوم القيامة**)(٣).

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم والسنن والمسند، من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، أن رسول الله ﷺ قال: (**لما خلق الله الجنة والنار، أرسلَ جبريل إلى الجنة، فقال: اذهب، فانظر إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمعُ بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة، فَحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع، فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، ثم رجع، فقال: وعزتك، لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركبُ بعضها بعضًا، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها، فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب، فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجعَ، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها**)(٤). ونظائر ذلك في السنة كثيرة (٥).

- عذاب جهنم:

بعد أن يحاسب الناس حسابهم الموعود، ويقضي الله بينهم بحكمه العادل، ويؤتى

---

(١) فتح الباري (٢/٥٤٠)، مسلم (٢/٦٢٦).

(٢) صحيح مسلم (١/٢٣٠)، النسائي (٣/٨٣).

(٣) الموطأ (١/٢٤٠)، النسائي (٤/١٠٨)، الترمذي (٤/١٧٦)، أحمد (٣/٤٥٥).

(٤) أبو داود (٢/٥٣٧، ٥٣٨)، الترمذي (٤/٦٩٣)، النسائي (٧/٣، ٤)، أحمد (٢/٣٣٢، ٣٥٤).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦١٥-٦١٨).

كل امرئ كتابه بيمينه أو بشماله، يتولى كلٌّ إلى الجهة التي قدر له أن يكون من أهلها، إلى الجنة أو إلى النار.

والنار جزاء من كفر في الدنيا، وحُذِّر منها كل إنسان، وجاءت الرسل تبين للناس مغبة عملهم، وحوى القرآن الكريم من هذه النصوص المنذرة والمحذرة ما لا يحويه كتاب سماوي آخر، وأفاضت السنة النبوية الشريفة، في شرح ما يكون من أهوال النار وعذابها، وهذا هو اليوم الذي ينال فيه المسيء عقابه، والمحسن ثوابه.

وقد ورد ذكر كلمة النار في إحدى وعشرين ومائة آية في القرآن الكريم[١] كما ورد تعبير جهنم في سبع وسبعين آية[٢]، وتكرر ذكر لفظة الجحيم في ست وعشرين آية[٣]، وورد لفظ السعير في ست عشرة آية[٤].

كما أن هناك ألفاظًا أخرى تدل على النار، ولهيبها المستعر، وشدة حرها كالهاوية، وسقر، وتعابير أخرى توحي بأنواع من العذاب يختص بها القرآن الكريم في رسم صور ما يعانيه من في النار من آلام وضيق وضنك وشدة.

وإلى جانب ما عبر عنه الكتاب العزيز من فظائع كان الصحابة يسألونَ رسول الله ﷺ عن النار ورسول الله يجيبهم مقربًا إلى أذهانهم ما تكون هذه النار.

ففي الحديث الذي رواهُ مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: (**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءًا من حر جهنم**).

قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله.

قال: (**فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلها مثل حرها**)[٥].

وحتى تكون أكثر وضوحًا في التصور قال رسول الله ﷺ: (**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة**

---

(١) انظر المعجم المفرس لآيات القرآن الكريم (٧٢٣-٧٢٥).

(٢) انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم (١٨٤، ١٨٥).

(٣)انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم (١٦٤، ١٦٥).

(٤) انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم (٣٥٠، ٣٥١).

(٥) صحيح مسلم (١٧٩/١٧)، والترمذي (٧٠٩/٤).

حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة)[1].

وكان رسول الرحمة ينذر الناس في كل آن من الغفلة، حتى لا يردوا مواطن الهلاك. وكان ﷺ رؤوفًا بالمؤمنين، مشفقًا عليهم، حتى إنه ليجهد نفسه من أجل إنقاذ مسلم من النار، وفي الحديث الذي رواهُ الإمام الدارمي في مسنده عن النعمان ابن بشير، ما يؤكد هذا الوجه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ فقال:

(أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار).

فمازال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهل السوق حتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه[2].

والجيلُ الأول الذي تلقى هذه النذر، شمر عن ساعد الجد، فصام نهاره وقام ليله، وتضرع إلى الله في كل حين أن يحرم وجهه على النار، وأن يقربه من كل عمل يرضيه ويدخله الجنة، كيف لا، وهم يقرؤون كتاب ربهم ويجدونَ فيه قوله تعالى: ﴿**إن هو إلا نذير بين يدي عذاب شديد**﴾ [3].

ويرونه ﷺ يجتهدُ أن يباعد بينهم وبين غضب الجبار، ويسأل الله لهم الهداية، ويسأله دفع الغواية.

إنه يضربُ لهم الأمثال ليكونوا على علم بما سيكون في عالم الغيب الذي لا يشهدونَ، ويمثل لهم دوره في منعهم عن النار، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم**[4] **وأنتم تَقَحَّمون فيها)**[5].

وفي رواية لمسلم: (**إنما مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها**

---

(١) رواهُ الترمذي عن أبي هريرة (٤/٧١٠)، وفي سنن ابن ماجه (٢/١٤٤٤، ١٤٤٥)، عن أبي هريرة أيضًا عن النبي ﷺ قال (أوقدت النار ألف سنة فابيضت، ثم أوقدت ألف سنة فاحمرت، ثم أوقدت ألف سنة فاسودت، فهي سوداء كالليل المظلم).

(٢) سنن الدارمي (٢/٢٣٧).

(٣) سبأ ٤٦.

(٤) الحجز: جمع حجزة وهي معقد الإزار.

(٥) صحيح مسلم (٤/١٧٨٩).

جعل الفراش، وهذه الدواب يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيتقحمن فيها)، قال: (**فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني تقتحمونَ فيها)**[١].

وحين نستعرض السنة النبوية تتجلى لنا شفقة رسول الله ﷺ على أصحابه وأمته، فكما كان ﷺ يحذر الأمة من الدجال ويشتد في التحذير نراهُ يكرر تحذيره للمسلمين من النار، كما يكرر الجُمل ثلاثاً أو أكثر.

عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**اتقوا النار**).

قال: وأشاح ثم قال: (**اتقوا النار**).

ثم أعرض وأشاح ثلاثًا حتى ظننا أنه ينظرُ إليها ثم قال: (**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)**[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [٣] دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعم وخص. فقال:

(**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار.**

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار.

فإني لا أملكُ لكم من الله شيئًا، غيرَ أنَّ لكم رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَهَا)[٤].

وفي فتح الباري، عن عدي بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: (**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظرُ فلا يرى شيئًا قُدَّامه، ثم**

---

(١) صحيح مسلم (٤/١٩٨٧).

(٢) الفتح الرباني (٢٤/١٦٩).

(٣) الشعراء ٢١٤.

(٤) صحيح مسلم (١/١٩٢).

ينظرُ بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة)[١].

إن في هذه التحذيرات ما يكفي العاقل أن يرعوي، وأن يتجنب غضب ربه سبحانه وتعالى، ويعمد إلى رضا ربه بإصرار، طلبًا لمغفرته وتوفيقه، والتزام سنة رسوله ﷺ.

أبعد هذه الرحمة والشفقة والخوف واللهفة، تأتي معصية ويستبد عناد؟ ألا إنه الجهل الذي يغلف العقول والران الذي يلف القلوب، وما بعد النار من مستعتب.

صفة النار:

خلق الله النار لتكون مثوى للكافرين والمتكبرين، والطغاة والمعاندين، وتوعدهم الله سبحانه وتعالى إن لم يعودوا إلى فطرهم أن يكونوا ممن تُسَعَّر بهم النار، فقد ذكر الحق سبحانه وتعالى أن وقود النار يوم القيامة من الناس والحجارة والكافرين، وذلك في قوله: ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾ [٢].

ويخوِّفهم رب العزة من ورود النار، ويسفه آراءهم باتباعهم آلهة لا تدفعُ عن نفسها، وسترد النار معهم لتكونَ وقودًا تسعر به جهنم، يقول عز وجل: ﴿**إنكم وما تعبدونَ من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون* لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون**﴾ [٣].

ولهذه النار خزنة يقومون عليها، وهم ملائكة وصفهم ربهم بأنهم غلاظ شداد، لا يعصونه في أمر، ويفعلونَ ما يؤمرون، كما قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناسُ والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصونَ الله ما أمرهم ويفعلونَ ما يؤمرون**﴾ [٤].

وقد سخر الكفار من خزنة النار، عندما سمعوا أن عددهم تسعة عشر، فاستقلوهم وخيل إليهم أنهم سيتغلبون عليهم حينما يواجهونهم.

---

(١) فتح الباري (رقاق٤٩).

(٢) البقرة ٢٤.

(٣) الأنبياء ٩٨، ٩٩.

(٤) التحريم ٦.

إن خيالهم الصغير المريض، أوهمهم أن الحياة الآخرة كحياتهم الدنيا، وأنهم سادة فرسان، لهم قوة وعزة، وأن الملائكة كمن يرونَ أمامهم من البشر لن يلبثوا أن يصرعوا ويقضى عليهم، ولم يلتفتوا إلى الآيات التي سبقت عدد الخزنة، يقولُ الله تعالى: ﴿**سأصليه سقر* وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر* لواحة للبشر* عليها تسعة عشر**﴾ (١).

كانت عدتهم فتنة للكافرين: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا**﴾ (٢).

قال ابن رجب الحنبلي: (والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقتلهم، وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم، ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته).

وهؤلاء الملائكة موكلون بأبواب النار السبعة، كما قال عز وجل: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين* لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ (٣).

قال القرطبي: (إن علي بن أبي طالب كان يقول:

هل تدرونَ كيف أبواب جهنم؟

قلنا: هي مثل أبوابنا.

قال: لا، هي هكذا بعضها فوق بعض). زاد الثعلبي: (ووضع إحدى يديه على الأخرى- وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكل باب أشد حرًا من الذي يليه سبعين مرة)(٤).

وهذه الأبواب تفتح للقادمين إليها بعد انقضاء حسابهم ومعرفة مآلهم فيتوزعونَ على هذه الأبواب كل حسب عمله، ويساقونَ إليها سوقًا، يقولُ عز وجل: ﴿**وسيق**

---

(١) المدثر ٢٦-٣١.

(٢) المدثر ٣١.

(٣) الحجر ٤٣، ٤٤.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣٠).

الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ [١].

وباعترافهم التام يتقدمونَ نحو الأبواب المفتوحة فيقالُ لهم: ﴿**ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ [٢].

وإذا دخل آخرهم أوصدت الأبواب من ورائهم كما قال الله تعالى: ﴿**إنها عليهم مؤصدة* في عمد ممددة**﴾ [٣].

والنارُ درجات أو دركات، وحرها متفاوت في الشدة، فلكل داخل نوع من العذاب. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ [٤]. وهو العذاب الأشد، وقيل: يقال لها درجات أيضًا كما في قوله عز من قائل: ﴿**أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواهُ جهنم وبئس المصير* هم درجات عند الله..**﴾ [٥].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (درجات الجنة تذهبُ علوًا، ودرجات النار تذهب سفولاً)[٦].

ومما يدلُ على تفاوت عذاب أهل النار ما رواهُ البخاري عن أبي عمران قال: سمعتُ أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**يقولُ الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بي**)[٧].

---

(١) الزمر ٧١.
(٢) الزمر ٧٢.
(٣) الهمزة ٨، ٩.
(٤) النساء ١٤٥.
(٥) آل عمران ١٦٢، ١٦٣.
(٦) التخويف من النار ابن رجب الحنبلي ٥٠.
(٧) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (١١/٤١٦).

وفيه أيضًا: عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (**إن أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجلُ بالقمقم**)(١).

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن الحارث قال: سمعتُ العباس يقول: قلتُ: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟

قال: (**نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح**).

وفي رواية أخرى: ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**)(٢).

- سعة النار وشدة حرها:

من سياق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يتضح أن جهنم واسعة شاسعة، وأنها بعيدةُ القعر، وأن خلقها عظيم جدًا حيث تسع ما يلقى فيها لآماد طويلة دون أن يظهر منها ما يدعو إلى امتلائها، حتى يسألها الرحمن بقوله: ﴿**يوم نقولُ لجهنم هل امتلأت وتقولُ هل من مزيد**﴾ (٣).

فهي نهمة لا تشبع، يكبكبُ فيها أتباعُ الشيطان جماعات فيغوصون فيها ويختصمونَ، وتنتظرُ الأفواجَ الجديدة، وهي تسأل: هل من مزيد؟ وقد يخطرُ في بال الكافرين أنها من مخلوقات الله التي يألفونها، فمهما اتسعت فلا بد أن تضيق، فربما توهموا أن لا يكون لهم مكان فيها فيكونوا لضيقها من الناجين.

ومناسبة قوله عز وجل لجهنم: ﴿**هل امتلأت**﴾ أن هذا القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم تضيق بهم سعة جهنم، فيطمعُ بعضهم أن يكون ممن لا يجدُ له مكان فيها، فحكاهُ الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليمًا لأهل القرآن المؤمنين(٤).

---

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (٤١٧/١١)، والترمذي (٧١٦/٤)، وأحمد (١٩٥/١٨)، وفي صحيح مسلم (٨/٣).

(٢) صحيح مسلم (٨٤/٣).

(٣) ق ٣٠.

(٤) تفسير التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور (٣١٧/٢٦).

وفي حديث البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: **(تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاءُ الناس وسَقَطُهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذاب أعذبُ بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ، حتى يضعُ رجله فتقول: قط قط قط. فهنالك تمتلئ ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلمُ الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأمَّا الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقًا)**[1].

ومما يدلُ على غورها العميق، وبعد قعرها حديث مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا سمع وَجْبَةً[2]، فقال النبي ﷺ: **(أتدرونَ ما هذا؟** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. **قال: هذا حجر رُميَ به في النار من سبعين خريفًا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)**[3].

ونارٌ بهذا الحجم وهذا الاتساع، ملئت بالناس والحجارة واتقدت لا شك أنها مهلكة لا يبقى فيها شيء مما تطوله، غير أنها عذاب الله للكافرين، ولله في خلقه حكم لا يتبدل.

يقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿**سأصليه سقر* وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر* لواحة للبشر**﴾ [4].

وهي في اشتداد وازدياد، لا تفنيها الأيام، ولا يخبو لهبها، أو يخف وهجها، والكافرونَ في عذابهم يصرخونَ يطلبونَ تخفيفًا ولو ليوم واحد، إلا أن الحق يرد عليهم بقوله: ﴿**فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**﴾ [5].

وكلما أحسوا أنها أقل عذابًا جاءهم ما هو أشد إيلامًا لقوله عز وجل: ﴿**كلما**

---

(١) فتح الباري (٨/٥٩٥)، وفي صحيح مسلم (١٧/١٨٢)، وفي مسند أحمد (١٤/١٤٥)، طبعة شاكر.

(٢) وجبة: سقطة.

(٣) صحيح مسلم (١٧/١٧٩).

(٤) المدثر ٢٧-٣٠.

(٥) البقرة ٨٦.

خبت زدناهم سعيرًا﴾ [(١)].

والنارُ في كل يوم تسعر زيادة في عذابهم، ففي مسلم عن عمر بن عبسة، عن النبي ﷺ قال: (**صل صلاة الصبح، ثم اقصر عن الصلاة، حتى تطلع الشمس حتى ترتفع، فإنها تطلعُ حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجدُ لها الكفار، ثم صل، فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم اقصر عن الصلاة، فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصلِّ**)[(٢)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**)[(٣)].

يقولُ ابن حجر في قوله: من فيح جهنم: (أي: من سعة انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح، أي: متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها، وظاهره أن مثار وهج الحر في الأرض من فيح جهنم حقيقة، وقيل: هو من مجاز التشبيه، أي: كأنه نار جهنم في الحر، والأول أولى)[(٤)].

وهذه النار الملتهبة المستعرة المسجرة المنتظرة للعاصين المتمردين على أمر ربهم يزداد ألمها وضيقها مما بها من قوة وشدة وتدافع، فاشتكت إلى خالقها أن يخفف مما بها، ففي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: (**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضًا، فجعلَ لها نفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فشدة ما تجدونَ من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدونَ من الحر من سمومها**)[(٥)].

ومن مشتملات النار شرار ودخان، والمرء لا يطيق حر شمس الدنيا، بله النار، فكيفَ بها نار جهنم، وما دخانُ الدنيا الذي يأخذ بخناق الإنسان فلا يستطيع التنفس

---

(١) الإسراء ٩٧.

(٢) صحيح مسلم (١/٥٧٠).

(٣) صحيح مسلم (١/٤٣٠)، وفتح الباري (٢/١٥).

(٤) فتح الباري (٢/١٧).

(٥) سنن ابن ماجه (٢/١٤٤٤).

إلى دخان جهنم، وهم فيها، لا يدركونَ كيف يكفونَ النار عن أجسادهم، فإذا بالدخان يخنقهم، وإذا السموم تلفحهم، وكل شيء في جهنم مضخم، وكبير.

فالقرآن الكريم يتحدث عن أصحاب النار فيقول: ﴿**وأصحابُ الشمال ما أصحابُ الشمال* في سموم وحميم* وظل من يحموم* لا بارد ولا كريم**﴾ (١).

إن الهواء سموم، ريح حارة حارقة، والماء حميم يغلي لا يطاق من شدة حره، أما الظل، وهو ما تستروحه النفس وتترع إليه طلبًا للراحة والابتراد، فيصفه العزيز الكريم بأنه اليحموم، وهو قطع الدخان الأسود الكثيف.

وفي سورة أخرى صورة لهذا الظل، يقول تعالى: ﴿**انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب* إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر**﴾ (٢).

إنه ظل لا يغني ولا يقي من اللهب، وهو أسلوب من أساليب التهكم، يفرحُ السامع لكلمة الظل لما يفهم من معناها، فإذا أحسها حقيقة وجد أنها غير ما فهم من اللفظ وأنها نوع من عذاب جديد، وفي التعبير عن الشرر بأنه كالقصر، أو الجمالة الصفر ما يضاعف الألم والعذاب، فالشرر في ضخامته كالأشجار الكبيرة أو القصر المبني، أو كأنه في حجم الإبل السود ضخمة الحجم، أو الحبال الغليظة التي تستخدم في السفن. وكل شيء من هذا يبعثُ الفزع في النفس قبل أن يراهُ الإنسان فكيف بمن يواقعه؟.

- أهل النار:

لأن جهنم خالدة لن تبيد ولن تفنى، ولأنهم مقيمونَ فيها بقاء خلود، فإنهم لا بد أن يُسَمَّوْا بأهلها، فهي دارهم التي يسكنون، لا دار لهم غيرها، ولا مأوى، وقد وصفهم الله بذلك في الكتاب العزيز.

أمّا عن خلودهم فقد قال الله تعالى: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون**﴾ (٣) ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك**

---

(١) الواقعة ٤١-٤٤.

(٢) المرسلات ٣٠-٣٣.

(٣) الأعراف ٣٦.

أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ (١). **﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾** (٢).

﴿يريدونَ أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ (٣).

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ، قال: **(يدخلُ أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقوم بينهم مؤذن: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود)**(٤).

وفيه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(يقالُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار: يا أهل النار خلود لا موت)**(٥).

ويقالُ هذا بعد أن يذبح الموت أمام أهل الجنة وأهل النار، ففي البخاري عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إذا صار أهلُ الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم)**(٦).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: (٧) قال رسولُ الله ﷺ: **(يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقالُ: يا أهل الجنة، هل تعرفونَ هذا؟ فيشرئبونَ، وينظرونَ، ويقولون: نعم، هذا الموت)**.

قال: **(ويقالُ: يا أهل النار، هل تعرفونَ هذا؟ قال: فيشرئبونَ، وينظرونَ،**

---

(١) البقرة ٣٩.

(٢) البقرة ١٦٠، ١٦١.

(٣) المائدة ٣٧. وانظر كذلك حول خلودهم في النار: سورة الأنبياء: ٩٩، الزخرف: ٧٤، سورة فاطر: ٣٦، سورة التوبة: ١٧، ٦٣، سورة يونس: ٥٢.

(٤) فتح الباري (٤٠٦/١١).

(٥) فتح الباري: نفس الجزء والصفحة.

(٦) فتح الباري (٤١٥/١١).

(٧) صحيح مسلم (٢١٨٨/٤).

ويقولونَ: نعم، هذا الموت).

قال: (**فيؤمرُ به فيذبح**).

قال: (**ثم يقالُ: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**).

قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمرُ وهم في غفلة وهم لا يؤمنون**﴾ (١).

وفي سنن الترمذي من حديث أبي هريرة الطويل والذي منه أن رسول الله ﷺ قال: (... **فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: أتي بالموت ملبيًا، فيوقفُ على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقالُ: يا أهل الجنة، فيطلعونَ خائفين، ثم يقالُ: يا أهل النار، فيطلعونَ مستبشرين يرجونَ الشفاعة، فيقالُ لأهل الجنة ولأهل النار: هل تعرفونَ هذا؟.**

فيقولُ هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناهُ، هو الموت الذي وكل بنا، فيضج، فيذبح ذبحًا على السور الذي بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت)(٢).

وكما يتمتع أهلُ الجنة بالنعيم ويتخذونها سكنًا طيبًا، كرامة من الله لهم لما استجابوا لدعوته، فكذلك النار مأوى الكافرين: ﴿**أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾ (٣)، ﴿**ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين**﴾ (٤).

وذمها الله سكنًا ومثوى: ﴿**فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾ (٥)، ﴿**وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد**﴾ (٦).

- دعاة على أبواب جهنم:

منذ أن أخرج إبليس من الجنة مطرودًا، وهو يحملُ عبء الغواية لبني آدم، وعالمه

---

(١) مريم ٣٩.

(٢) سنن الترمذي (٤/٦٩٢).

(٣) يونس ٨.

(٤) آل عمران ١٥١.

(٥) البقرة ٢٠٦.

(٦) ص ٥٥، ٥٦.

عالم مضاد لعالم الخير والرشاد المتمثل في دعوة الأنبياء والرسل، وقد أخذ على نفسه عهدًا أن يقعد للناس في كل مرصد إلا من عصمه الله منه وحصَّنه بالإيمان الذي لا يستجيب لضلالات الشيطان أو إغراءات أتباعه.

ونبه الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلى كيد الشيطان في الكتاب العزيز، وحذر من اتباعه، لأنه مُورده ومُوردهم جهنم الحامية، قال تعالى: ﴿**أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير**﴾ (١).

وللشيطان حزب وصفه الله تعالى في القرآن وحذر منه، لأنه: ﴿**إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ (٢).

ولم تخل الأرض في كل زمان من معاندين وضالين، ممن رفضوا أوامر السماء، ولبوا داعي الشيطان، فكان الانحراف سبيلهم، زين لهم الشيطان سوء عملهم فاتبعوهُ واتبعوا من سلك طريقه من أهل الأرض الذين أغراهم إبليس وصدق فيهم ظنه، فكثرت المذاهب الأرضية الباطلة، وانتشرت مبادئ ضالة تدلُ على سفاهة عقول متبعيها حتى غدوا في الأرض أئمة: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعونَ إلى النار**﴾ (٣). ﴿**أولئك يدعونَ إلى النار**﴾ (٤).

وأشهر أمثال القرآن لهؤلاء الأئمة الداعين أتباعهم إلى جهنم فرعونَ الذي: ﴿**يقدمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار**﴾ (٥).

وحتى يستبين الطريق للمؤمنين فقد حرم الله على المؤمنين الزواج من المشركات، كما حرم زواج المؤمنات من مشركين: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤمنّ ولأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعونَ إلى النار والله يدعو إلى الجنة**

(١) لقمان ٢١.
(٢) فاطر ٦.
(٣) القصص ٤١.
(٤) البقرة ٢٢١.
(٥) غافر ٤١.

والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ [(١)].

خالدونَ في النار:

لا يدخل النار إلا من أفنى حياته في محاربة الهدى، ونصرة الباطل والضلال، وبذل كل ما استطاع في سبيل الصد عن طريق الحق، ووقف للدعاة يمنعهم بجاهه وماله وجبروته، كما وقف من قبله أتباع إبليس للأنبياء، فآذوهم وحاربوهم وسفكوا دماءهم.

والله سبحانه وتعالى أعدلُ الحاكمين، وأحكمُ العادلين، لا يترك لعبد من حسنة إلا وضاعفها حتى تغلب سيئاته، ولا يصل النار عبد إلا بعد ألا يكون قد قدم لنفسه حسنة عند ربه، وإنما جاء بقراب الأرض آثامًا وخطايا.

وقد فصل القرآن الكريم جرائم هؤلاء الداخلين إلى جهنم ليتعظ اللاحق بما جرى للسابق، ويتجنب طريق الزيغ وينجو بنفسه، ومن هذه الجرائم.

الكفر والشرك:

وهي قطب الرحى في قضية الإيمان، فالله سبحانه وتعالى يتجاوز عن كثير من الذنوب، إلا أنه أخبر بما لا غفران معه، ألا وهو الشرك: **﴿إن الله لا يغفرُ أن يشرك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء﴾** [(٢)].

أمّا هؤلاء المعاندونَ المصرونَ على الكفر، فإن الحق يتوعدهم بنار جهنم، ويريهم عاقبتهم إن أصروا على الكفر والعناد، وما سينالهم من عذاب مخيف، يقول عز وجل: **﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون* إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبونَ* في الحميم ثم في النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون* من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئًا كذلك يضلُ الله الكافرين* ذلكم بما كنتم تفرحونَ في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحونَ* ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾** [(٣)].

---

(١) البقرة ٢٢١.

(٢) النساء ٤.

(٣) غافر ٧٠-٧٦.

وعندما يجدونَ أنفسهم في النار لا حول لهم ولا قوة، يتمنونَ العودة إلى الحياة الدنيا لعلهم يؤمنونَ بعد أن رأوا ما كذبوا به واقعًا لا ينكرونه، ولكن قضي الأمرُ وكل في الدار التي اختار.

وفي السعير يلومونَ أنفسهم حتى إنهم ليمقتونَ ذاتهم لشدة جرمهم الذي أودى بهم إلى هذه النهاية المحزنة. فينادونَ: إن مقت الله أعظم من مقتكم أنفسكم، وسببه إشراككم وكفركم، فلا شيء يعادل ذلك أو يوازنه سوى الخلود في النار: ﴿**إن الذين كفروا يُنادَوْنَ لمقتُ الله أكبرُ من مقتكم أنفسكم إذ تُدْعَونَ إلى الإيمان فتكفرونَ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل* ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير**﴾ (١).

وقال عز وجل في حق الذين جعلوا آلهتهم أندادًا لله: ﴿**فكُبكبوا فيها هم والغاوون* وجنودُ إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين**﴾ (٢).

والذين أنكروا البعث وسخروا من الأنبياء وهم يحدثونهم عن الدار الآخرة، وأن الله سيعيد كل نفس لتحاسب، وتنال ما تستحث من ثواب وعقاب، هؤلاء يرد الله عليهم بقوله: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابًا أإنا لفي خلق جديد* أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلالُ في أعناقهم وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون**﴾ (٣).

ولا شك أن الكفر جريمة كبرى والشرك جريمة توازنها، وقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك، فما رواهُ معاذ -رضي الله عنه- قوله: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: (**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**). قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: (**فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركونَ به شيئًا.**

---

(١) غافر ١٠-١٢.
(٢) الشعراء ٩٤-٩٨.
(٣) الرعد ٥.

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا). قلتُ: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: (**لا تبشرهم فيتكلوا**)(١).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك**)(٢).

والتحذير من الشرك والدعوة إلى الإيمان هو محك الدعوات في رسالات السماء ونظره إلى فهارس كتب السنة تكشف عن عزارة النصوص المحذرة من الشرك والكفر، وصيغة النهي الواردة في مقدمات الأحاديث خير دليل على لفت النبي ﷺ أنظار الناس إلى أخطار الوقوع في هاتين الجريمتين.

طاعة قرناء السوء:

يحفل تاريخ الدعوات على مر العصور بنماذج من العتاة المجرمين أصحاب الجاه والبطر، الذين يتصدرونَ المجتمعات، يرهبونَ الضعفاء بما لهم من نفوذ وسيطرة فيتبعوهم اتباع الخائف الذليل الذي لا حول له ولا طول، وهؤلاء هم الذي سخروا من الأنبياء، وحرضوا السفهاء عليهم، وأغروهم بهم، وقد فضح القرآن بعض هؤلاء كفرعونَ موسى، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وأبي لهب وامرأته، وقد نزل فيهم من آيات الله المتلوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليزيد عذابهم قبل ورودهم النار.

هؤلاء الزعماء الذين أضلوا أقوامهم، وقادوهم إلى محاربة الأنبياء والرسل، ووقفوا لدعاة الحق بالمرصاد، يؤتى بهم يوم القيامة مقرنين في الأصفاد، عليهم سيما الذي والصغار، ويجللهم العار أمام كل الناظرين ولهم جهنم خالدين فيها جزاء ما اكتسبوا، عنهم يقولُ رب العالمين: ﴿**وقيضنا لهم قُرنَاء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحَقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس أنهم كانوا خاسرين* وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون* فلنذيقنَّ الذين كفروا عذابًا شديدًا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون* ذلك**

---

(١) فتح الباري (٦/٥٨)، صحيح مسلم (١/٥٩).

(٢) ابن ماجه (٢/١٤٠٥).

جزاءُ أعداء الله النارُ لهم فيها دار الخلدِ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ [(١)].

وللتوقي من شر هذه العصابات التي تزين الشر للإنسان أعلم رسول الله ﷺ أمته خبر هذه الفئات، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما من والٍ إلا وله بطانة. بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاهُ عن المنكر، وبطانة لا تألوهُ خبالاً، فمن وقي شرها فقد وقي، وهو من التي تَغْلِبُ عليه منْهما**)[(٢)].

وحديث أبي أيوب أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**ما بعث نبي، ولا كان بعده من خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاهُ عن المنكر، وبطانة لا تألوهُ خبالاً، فمن وقي بطانة السوء فقد وقي**)[(٣)].

ونبه ﷺ أمته إلى اختيار الصاحب المؤمن والابتعاد عن قرناء السوء لأن لكل عملاً وخلقًا يؤثر على مقارنة، وقد ورد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)[(٤)].

وأثر هذا ملموس في أخلاق الناس، فلا يصاحب الفاجر إلا مثله، ولا يحرص على أهل الخلق والدين إلا أمثالهم.

النفاق:

النفاق شر تبتلى به المجتمعات، وداء تصابُ به الأمم، ومرض خبيث إن تمكن من صاحبه أهلكه.

ولم يسلم مبعوثو السماء من هذا العبث الشيطاني المتمكن في أخلاق بعض الحاقدين، فأعلنوا ولاءهم للدين، ورفضوهُ في قرارة نفوسهم وكادوا له، وأسسوا فريقًا يحسن التآمر مع العدو، إذا انقلبوا من مجلس النبي إليهم.

وهؤلاء المنافقون، توعدهم الله بالنار، وهو وعد قطعه الله سبحانه وتعالى على نفسه، فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يصنعون، ووعده عز وجل لهم،

---

(١) فصلت ٢٥-٢٨.

(٢) سنن النسائي (٧/١٤١).

(٣) المصدر السابق (٧/١٤٢).

(٤) المسند (٢/٣٣٤).

بخلودهم في النار، قال تعالى: ﴿**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم**﴾ (١).

واختار لهم رب العزة أذل الأماكن وأحقرها في جهنم، في قعرها، ليكون أكثر عذابًا، وأشد حرًا، وزيادة ذل ومهانة، قال تعالى: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ (٢).

ومادة (نفق) وما يختصُ منها بالمنافقين، باب كبير في كتب السنة، والنفاق قرين الكفر، ولذلك شدد القرآن في الوعيد، وتولت السنة تبيان كثير من الصفات التي تظهر المنافق، فلا يخفى وإن حاول ستر نفسه.

وقد كان لرسول الله ﷺ أمين من الصحابة يكتب له أسماء المنافقين، حتى كان الصحابة يحومونَ حوله لعلهم يعرفونَ شيئًا يخصهم خوفًا من فتنة النفاق.

ومن الأحاديث التي تعري المنافقين وتجعلهم والكفار في نسق واحد حدث ابن عمر في القصاص يوم القيامة والذي منه قوله ﷺ: (.. **وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين**)(٣) واقتران المنافقين بالكافرين كثير في نصوص الحديث الشريف، ومن ذلك حديث الدجال وأنه لا يدخل المدينة المنورة، ففي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجفُ بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق**)(٤).

وفي حديث أبي هريرة قوله ﷺ: (**إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نُهْبَة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربونَ المساجد إلا هجرًا، ولا يأتونَ الصلاة إلا دبرًا، مستكبرين لا يألفونَ ولا يؤلفونَ، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ**

---

(١) التوبة ٦٨.

(٢) النساء ١٤٥.

(٣) فتح الباري (٥/٩٦).

(٤) المصدر السابق (٤/٩٥).

بالنهار)[١].

الكبر:

وهي صفة ذميمة كرهها الإسلام وذمتها الأديان السماوية، ويبغضها الناس لأنها تصادم الفطرة السليمة، ولذلك اتصف بها عامة أهل النار، وما منع الكافرين الإيمان بالرسل، فجعلهم من الخالدين في نار جهنم، قال تعالى: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون**﴾ [٢].

وورد في صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن حارثة بن وهب، أنه سمع النبي ﷺ يقول: (**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتضَعِّف، لو أقسم على الله لأبره**).

ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلّ جَوَّاظ مستكبر[٣].

وفي رواية لمسلم: (**كل جواظ زنيم متكبر**)[٤].

وفي القرآن الكريم يقولُ الله عز وجل: ﴿**فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ [٥].

وفي سنن الترمذي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: (**يحشرُ المتكبرونَ يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال يغشاهم الذل في كل مكان، فيساقونَ إلى سجن في جهنم يُسمى (بُولُسَ) تعلوهم نارُ الأنيار يسقونَ من عصارة أهل النار طينةِ الخبال**)[٦].

---

(١) المسند (ش) (١٥/٥٠).

(٢) الأعراف ٣٦.

(٣) رواهُ البخاري (٨/٦٦٢) في تفسير سورة (ن) باب قوله تعالى ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾. وفي الأدب، باب الكبر، وفي الإيمان، باب قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾، ومسلم، رقم (٢٨٥٣) في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارونَ والجنة يدخلها الضعفاء، ورواهُ الترمذي رقم (٢٦٠٨) في صفة جهنم باب رقم (١٣).

(٤) صحيح مسلم (٤/٢١٩٠).

(٥) الأحقاف ٢٠.

(٦) سنن الترمذي (٤/٦٥٥)، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح.

وقد نفر الرسول ﷺ مما يقرب من الكبر، فمما رواهُ مسلم عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (**إن الذي يَجرُّ ثيابه من الخُيَلاء، لا ينظرُ الله إليه يوم القيامة**)[١].

وعنده أيضًا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**بينما رجل يمشي، قد أعجبته جُمَّتُهُ وبراده، إذ خُسِفَ به الأرض، فهو يتجلجلُ في الأرض حتى تقوم الساعة**)[٢].

أصناف الداخلين النار وجرائمهم:

يدخلُ النار أقوام جاءوا بذنوب كثيرة، استوجبوا بها أن يكونوا من أصحابها، وقد خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فيما يحذر فيه الصحابة من فتن الحياة، ومغريات الشيطان، وكان مما قال في خطبته كما ورد في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أنه قال: (**وأهلُ النار خمسة:**

الضعيف الذي لا زَبْرَ لَه[٣]، الذين هم فيكم تبعًا لا يتبعونَ أهلاً ولا مالاً.

والخائنُ الذي لا يخفى له طمع، وإن دقَّ إلا خانه.

ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك.

وذكر البخل، والكذب، والشنظير[٤]، الفَحَّاش)[٥].

الذين لا يخلدونَ في النار:

يدخلُ جمع من أهل التوحيد النار غير أنهم لا يخلدونَ فيها، وذلك لأنهم لم يشركوا بالله شيئًا، وأولئك الذين زادت سيئاتهم في ميزان أعمالهم فطغت على حسناتهم، فيدخلونَ النار لآماد يعلمها الله، ثم يخرجونَ إما بشفاعة شافعين، أو برحمة من الله عز وجل.

---

(١) صحيح مسلم (١٦٥٢/٣).

(٢) صحيح مسلم (١٦٥٣/٣)، جمته: الجمة من شعر الرأس ما سقط من المنكبين، يتجلجلُ: أي يغوص في الأرض حين يخسف به، والجلجلةُ حركة مع صوت.

(٣) أي لا عقل له يمنعهُ مما ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له.

(٤) الشنظير: فسره في الحديث بأنه الفاحش، والسيئ الخلق.

(٥) صحيح مسلم (٢١٩٧/٤).

وذنوب أولئك مختلفة متنوعة، وقد ورد في القرآن ما يدلُ على ذلك كما أشار الحديث الشريف إلى بعض هذه الأصناف.

فمن ذلك:

مخالفة السنة:

روى أبو داود والدارمي وأحمد والحاكم وغيرهم عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: ألا إنَّ رسول الله ﷺ قام فينا فقال: (**ألا إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإنَّ هذه الأمّة ستفترقُ على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**)[١].

وهذه الملل المذكورة منها من خالف في مسألة من المسائل، ومنها من افترق وأصل أصولاً خالف بها أصول السنة، ومنها من دخل في الغلو فأبعد النجعة، ومنها من خالف في مسائل عظيمة لكنها لا تبلغُ حد الكفر، ولله الأمر فيهم إن شاء غفر وإن شاء عذب، ولعل منهم من ينجيه عمل صالح قدمه، أو شفاعة شافع، أو رحمة من رب العالمين.

الكذب على رسول الله ﷺ:

من الذنوب الكبيرة والآثام الشنيعة الكذب على رسول الله ﷺ، إذ في الكذب عليه ﷺ تحريف للعقيدة، وانتقاص للدين، وهو من أقبح القبائح، وقد حذر المصطفى ﷺ من الكذب عليه، ففي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا تكذبوا علي، فإنه من كذب علي فليلج النار**)[٢].

وفي حديث أنس -رضي الله عنه- قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا أن النبي ﷺ قال: (**من تعمدَ عليَّ كذبًا فليتبوأ مقعده من النار**)[٣].

وما رواهُ البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (**إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمدًا**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني حديث رقم (٢٠٤)، المجلد الأول، الجزء الثالث (١٤).

(٢) فتح الباري (١/١٩٩)، صحيح مسلم (١/٩).

(٣) فتح الباري (١/٢٠١)، مسلم (١/١٠)، سنن الدارمي (١/١١١).

فليتبوأ مقعده من النار)(١).

قتل النفس بغير حق:

تاج هذا الأمر قول الله سبحانه: ﴿**ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا**﴾ (٢).

وبين الله عاقبة قتل النفس المسلمة فيما قصه علينا من نبأ ابني آدم حيث قال: ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرَّبا قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنَّما يتقبلُ الله من المتقين* لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يديَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين* إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين**﴾ (٣).

ونهى النبي ﷺ المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضًا، وأخبر أن القاتل والمقتول في النار، ففي صحيح مسلم، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**).

قال: فقلتُ، أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بالُ المقتول؟ قال: (**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**)(٤).

وفي صحيح البخاري، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: (**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**).

إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلِّه(٥).

الانتحار:

حياة الإنسان ليست ملكًا خاصًا به، فالعبدُ خلق لعبادة الله، وحياته طاعة

---

(١) فتح الباري (٣/١٦٠)، مسلم (١/١٠).

(٢) النساء ٩٣.

(٣) المائدة ٢٧-٢٩.

(٤) صحيح مسلم (٤/٢٢١٣).

(٥) فتح الباري (١٢/١٨٧).

لخالقه، ينشطُ ما وسعه النشاط ليرد الشكر للمنعم، ويسعى ليقدم أقصى ما يستطيع للمتفضل عليه بالخلق والحياة، ولكن الجاحد لا ينظرُ إلى الدنيا إلا أنها متاع، وأن حياته متى رخصت عليه فهو أولى بها أن يضع لها حدًا، وهذا تجن على نعمة الله، ورد لما تفضل به عليه.

وقد حرم الإسلام أن يقتل الإنسان نفسه، وثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ أنه قال: **(من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يجيء بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسم، فسمُه في يده يتحساهُ في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تَرَدَّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا)**[1].

أكلُ الربا:

من المحرمات في الكتاب الكريم، الربا، وقد شدد الإسلام في تحريمها وتوعد عليها بدخول النار، وحذر الله المؤمنين من الربا، وذكرهم بتقواه فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحونَ واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾** [2].

أمّا الذين علموا حكمها ولم يرعووا، وأصروا على التعامل بها فالله يقول لهم: **﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هـم فيها خالدون﴾** [3].

ونهى النبي ﷺ عن أكل الربا وبين لهم مكانة آكله يوم القيامة فقال في الحديث الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- فقال: قال رسول الله ﷺ: **(اجتنبوا السبع الموبقات)**. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: **(الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)**[4].

---

(١) فتح الباري (١٠/٢٤٧)، مسلم (١/١٠٣).

(٢) آل عمران ١٣٠، ١٣١.

(٣) البقرة ٢٧٥.

(٤) فتح الباري (٥/٣٩٣)، مسلم (١/٩٢).

الكاسيات العاريات:

روى أبو هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ أنه قال: (**صنفان من أهل النار لم أرهما، قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربونَ بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخْت**[١] **المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا**)[٢].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ.. وأمّا الكاسيات ففيه أوجه:

- **أحدهما**: معناهُ: كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها.
- **الثاني**: كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهم والاعتناء بالطاعات.
- **الثالث**: تكشف شيئًا من بدنها إظهارًا لجمالها، فهن كاسيات عاريات.
- **الرابع**: يلبسن ثيابًا رقاقًا تصف ما تحتها، كاسيات عاريات من المعنى.

وأمّا مائلات مميلات، فقيل: زائغات عن طاعة الله تعالى، وما يلزمهن من حفظ الفروج وغيرها، ومميلات يُعَلِّمْنَ غيرهن مثل فعلهن، وقيل: مائلات متبخترات في مشيتهن، مميلات أكتافهن وأعطافهن[٣].

ويعلق الدكتور عمر الأشقر على هذا الحديث بقوله: (والكاسيات العاريات كثيرات في زماننا، ولعله لم يسبق أن انتشرت فتنتهن كما انتشرت في زماننا، وهن على النعتِ الذي وصفه الرسول ﷺ: كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت)[٤].

- **الذين يشربونَ في آنية الذهب والفضة:**

نهى الرسول ﷺ عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة، كما نهى عن لبس

(١) البُخْت: الإبل الخراسانية، وهي التي تُنتج من بين عربية وفالج، والفالج البعير ذو السنامين، وهو الذي بين البختي والعربي.

(٢) صحيح مسلم (٢١٩٢/٤)، أحمد (٣٥٦/٢).

(٣) صحيح مسلم (٢١٩٢/٤).

(٤) الجنة والنار: د. عمر سليمان الأشقر -مكتبة الفلاح-الكويت-الطبعة الأولى ١٩٨٦ (٧٠).

الحرير والديباج للرجال، وأخبر أن من خالف النهي وعصى الأمر فإنما يدفع نفسه نحو الوبال، وأن جهنم يوم القيامة ستكون له بالمرصاد.

روى البخاري ومسلم، عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: (**الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجرُ في بطنه نار جهنم**)(١).

وهناك ذنوب تضاهي ما مر كالممتنعين عن الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام والبقاء في دار الكفر قد يعرضهم للفتنة، وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا* إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعونَ حيلة ولا يهتدونَ سبيلاً**﴾ (٢)

فلم يقبل الله عذرهم لأنهم تخلفوا عن الهجرة، والموقف الذي يقالُ فيه هذا القول، إنما هو في لحظات صعبة يحتاج فيها المرء إلى التسرية لا إلى زيادة الألم، كما أن الوصف المطلق عليهم (ظالمي أنفسهم) يوحي بفداحة الخسارة في هذا الموقف الذي لا يمكن معه التراجع لتنفيذ ما لم يتم في أوانه، ولم يشفع لهم الرد الذليل بادعائهم الاستضعاف في الأرض وفي أرض الإسلام سعة.

والظلمُ صفة تكفي أن تلتصق بإنسان حتى يبغضه الناس، فكيف بالله القوي الجبار العادل الذي نهى عن الظلم وحذر منه وهدد من يجور في حكمه إن كان حاكمًا أو يشتط في أمر ينظره إن كان قاضيًا، كما أن السنة الشريفة تناولت هذا الجانب في تفصيل وتوضيح.

يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتُم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ (٣).

وفي السنة عن بريدة بن الحصيب، أن رسول الله ﷺ، قال: (**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأمَّا الذي في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به،**

---

(١) فتح الباري (٩/٥٥٤)، مسلم (٣/١٦٣٤).

(٢) النساء ٩٧، ٩٨.

(٣) النساء ٥٩.

ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار)[١].

ومما يدخلُ النار أيضًا موالاة الكفار والظالمين أعداء الله، لقوله عز وجل: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾ [٢].

وآكلو أموال الناس بالباطل استحقوا عذاب النار لما أوقعوهُ من ظلم وافتئوا على الآخرين، يقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا* ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على الله يسيرًا**﴾ [٣].

وأكلُ أموال اليتامى أشدُ ظلمًا، لأنهم لا يدفعونَ عن أنفسهم لضعفهم وقلة حيلتهم، ومن يأكل أموالهم يأكلها دون إحساس بالمسئولية الملقاة على عاتقه، فيتضاعفُ الإثم ويزيد عند الله عذابه.

يقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿**إن الذين يأكلونَ أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلونَ في بطونهم نارًاوسيصلونَ سعيرًا**﴾ [٤].

وممن يشملهم عذاب جهنم يوم القيامة: المصورون، وقد وردت أحاديث كثيرة تبرز هذا المعنى وتنهى المؤمنين عنه، فمن ذلك ما روي في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: (**أشدُ الناس عذابًا عند الله المصورون**)[٥].

وعن عبيد الله بن نافع أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أخبره أن رسول الله ﷺ قال: (**إن الذين يصنعونَ هذه الصور يعذبونَ يوم القيامة يقالُ لهم: أحيوا**

(١) سنن أبي داود (٢/٢٦٨).
(٢) هود ١١٣.
(٣) النساء ٢٩، ٣٠.
(٤) النساء ١٠.
(٥) فتح الباري (١٠/٣٨٢، ٣٨٣).

ما خلقتم)[١].

وفي الصحيحين عن أبي زرعة قال: دخلتُ مع أبي هريرة في دار مروان، فرأى فيها تصاوير، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**قال الله عز وجل: ومن أظلمُ ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)**[٢].

وفي الحديث المتفق عليه، حديث ابن عباس، عن سعيد بن أبي الحسن، قال: كنتُ عند ابن عباس –رضي الله عنه–، إذ أتاهُ رجل، فقال: يا أبا عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنعُ هذه التصاوير، فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول، سمعتهُ يقول: (**من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدًا**).

فربا الرجل ربوة شديدة، واصفر وجهه، فقال ويحك: (إن أبيت إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، كل شيء ليس فيه روح)[٣].

- كثرة أهل النار:

الناظر إلى الحياة من حوله، خاصة في زماننا هذا، يجدُ أن الناس يتجهونَ وجهة غير ما تهدي إليه السماء، وتفرقهم وشتاتهم واتباعهم للمذاهب الأرضية الباطلة ينأى بهم عن صراط الله المستقيم الذي ضمته الكتب السماوية المنزلة، وتضمنته الدعوات التي حمل بلاغها الأنبياء والرسل.

والقرآن الكريم ينصُ صراحة على صد الكثيرين عن دعوة الحق، ومعارضتهم لدعوة الرسل، واستخفافهم بالأنبياء، قال تعالى: ﴿**وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ [٤].

وأهلُ النار يوم القيامة أكثر الناس، ويحملُ على هذا الانطباع ما ورد في صحيح مسلم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: (**عرضت علي الأمم فرأيتُ النبي ومعه**

---

(١) فتح الباري (١٠/٣٨٢)، مسلم (٣/١٦٧٠).

(٢) صحيح مسلم (٣/١٦٧١)، وفي الفتح (١٠/٣٨٥)، واللفظُ لمسلم.

(٣) فتح الباري (٤/٤١٦)، صحيح مسلم (٣/١٦٧١)، واللفظُ للبخاري.

(٤) يوسف ١٠٣.

الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...)[١].

وهناك أحاديث كثيرة تدل على كثرة أهل النار، من ذلك ما رواهُ البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه قال، قال النبي ﷺ: (**يقول الله -عز وجل- يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فيُنادي بصوت: إن الله أمرك أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يا رب وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف -أراهُ قال- تسعمائةً وتسعةً وتسعين. فحينئذ تضعُ الحامل حملها، ويشيبُ الوليد، وترى الناس سكارىً وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبّرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا)**[٢].

وروى عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت من أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم* يوم ترونها تذهلُ كل مرضعة عما أرضعت وتضعُ كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾ [٣].

فلما سمع أصحابه ذلك حثوا المطي. وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: (**أتدرونَ أي يوم ذاك؟**) قال: (**ذاك يوم ينادي آدم -عليه السلام-، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم ابعث بعثًا إلى النار، فيقول: يا رب، وما بعثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد في الجنة**).

قال: فأبلس أصحابه، حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأي ذلك قال: (**أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس**)، قال: فسرى

---

(١) صحيح مسلم (١/١٩٨).

(٢) فتح الباري (٨/٤٤١)، ومسند أحمد (٣/٣٢، ٣٣).

(٣) الحج ١، ٢.

عنهم، ثم قال: (**اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة**)[(١)].

وهذه الكثرة الوالجة إلى النار عرفت الرسل وأنكرت الدعوة، وتصدت لها وحاربتها وكثير من الذين يدخلونَ النار أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر فدخلوا في دائرة النفاق والذي أصبح به هذا الاسم علمًا يعرف به كل من اتصف بهذه الصفة، وحتى أن الله سبحانه وتعالى أفرد لهم مكانًا خاصًا يعذبون به في النار وهو الدرك الأسفل.

ويعلل ابن رجب الحنبلي سبب كثرة أهل النار وقلة أهل الجنة، فيقول: (فهذه الأحاديث وما في معناها تدلُ على أن أكثر بني آدم من أهل النار، وتدلُ أيضًا على أن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم، وغير أتباع الرسل كلهم في النار إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيه من الاختلاف. والمنتسبونَ إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ، وكتاب مبدل، وهم أيضًا من أهل النار كما قال تعالى: ﴿**ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده**﴾ [(٢)].

وأمَّا المنتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضًا، وهم المنافقونَ الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وأمّا المنتسبونَ إليه ظاهرًا وباطنًا فكثير منهم فتن بالشبهات، وهم أهلُ البدع والضلال، وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفترقُ على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة، وكثير منها أيضًا فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار -وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها- فلم ينج من الوعيد بالنار، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة إلا فرقة واحدة، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ظاهرًا وباطنًا وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جدًا لا سيما في الأزمان المتأخرة)[(٣)].

وارتكاس الناس في الحمأة الوبيلة، إنما يتم عن طريق ضعف النفس الإنسانية

---

(١) المسند (٤/٤٣٥)، والترمذي (٥/٣٢٢، ٣٢٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) هود ١٧.

(٣) التخويف من النار: ابن رجب الحنبلي (١٩٣).

وضعف الوازع الديني، وعدم الإحساس بالرقابة الإلهية، كما أن طريق النار قد زين بالشهوات، واقتياد المرء من شهوته سهل ميسور، كما يقاد الذكي من عقله للصلاح، ومحتوى حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان يدلُ على مدى ارتكاس الناس في الشهوات وسقوطهم في النار.

قال رسول الله ﷺ: (**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**)(١).

والمرأة -كما يقول الفقهاء- شهوة الرجل، وفي هذا جلاء لسر كثرة الداخلين من النساء وهم -كما في الحديث- أكثر أهل النار، كما أن الرجال يدخلون النار بإغواء النساء لهم.

وخطب رسول الله ﷺ في النساء فقال: (**يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**) فقلن: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: (**تكثرن اللّعن، وتكفرن العشير**)(٢).

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (**إنَّ أقَلَّ ساكني الجنة النساء**)(٣).

وعلق القرطبي على هذا الحديث مفسرًا بقوله: (وإنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا، لنقصان عقولهن أن تنفذ بصائرها إلى الأخرى، فيضعفن من عمل الآخرة والتأهب لها، ولميلهن إلى الدنيا والتزين لها، ومع ذلك هن أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة، لما فيهن من الهوى والميل لهن، فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهن صارفات عنها لغيرهن، سريعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى، وأعمالها من المتقين)(٤).

ولا يعني هذا أن النساء كلهن كذلك، فتاريخ الدعوات حافل بالمؤمنات

(١) فتح الباري (١١/٣٢٠)، ومسلم (٤/٢١٧٤)، وفي رواية مسلم: (حُفَّت) بدلاً من (حجبت).
(٢) صحيح مسلم (١/٨٦، ٨٧).
(٣) صحيح مسلم (٤/٢٠٩٧).
(٤) التذكرة، للقرطبي (٣٦٩).

الصالحات منهن من تسابق الرجال بأعمالها وإيمانها، ولهن بشريات الجنة ورضا الله تعالى، ومنهن من حفظ القرآن الكريم جميل صنعهن ومواقفهن فأثنى عليهن ومن أكرمها الأنبياء ودعوا لهن، فهن قدوة للمؤمنات الصالحات الفاتنات.

وتمر معنا أحاديث في السنة تشير إلى مجموعات أخرى ممن تجب لهم النار لسوء فعلهم، وتعديلهم على حقوق الآخرين، أو من يسعونَ بين الناس بالوقيعة والشر، كقوله ﷺ: (**لا يدخلُ الجنة نمام**)(١).

وفي رواية: (**لا يدخلُ الجنة قَتَّات**)(٢).

وحديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: (**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة، وأوجب له النار**).

قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟

قال: (**وإن كان قَضيبًا من أراك، وإن كان قضيبًا من أراك، وإن كان قضيبًا من أراك**).

قالها ثلاث مرات(٣).

- **طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم:**

يشكل طعام أهل النار في جهنم صنفًا من صنوف العذاب المستمر وكل عذاب في النار مستمر، لا يكاد يفرغ منه المعذب حتى يعاد مرة أخرى. وفي طعامهم عناء شديد وذل ومهانة.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نوع طعامهم وحصره في: الضريع، والزقوم.

قال تعالى واصفًا هذا الطعام: ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع* لا يسمن ولايغني من جوع**﴾ (٤).

وعن الزقوم: ﴿**إن شجرة الزقوم* طعام الأثيم* كالمهل يغلي في البطون* كغلي**

---

(١) صحيح مسلم (١/١٠١).

(٢) المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة.

(٣) الموطأ للإمام مالك (٢/٧٢٧)، مسلم (١/١٢٢).

(٤) الغاشية ٦، ٧.

الحميم﴾ (١).

﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم* إنا جعلناها فتنة للظالمين* إنها شجرة تخرجُ في أصل الجحيم* طلعها كأنه رؤوس الشياطين* فإنهم لآكلونَ منها فمالئون منها البطون* ثم إنَّ لهم عليها لشوبًا من حميم* ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ (٢).

﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون* لآكلونَ من شجر من زقوم* فمالئونَ منها البطون* فشاربونَ عليه من الحميم* فشاربونَ شرب الهيم* هذا نزلهم يوم الدين﴾ (٣).

والضريع المذكور، قال عكرمة ومجاهد: (نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تُسَمِّيه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطبًا، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاهُ، وهو سم قاتل وهو أخبث الطعام وأشنعه)(٤).

وعن ابن عباس أنه قال: (الضريع من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هُزْلا.

قال الهذلي يذكر إبلاً وسوء مرعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّرِيعِ فكلُّها حَدْبَاءُ داميةُ اليدينِ حرودُ(٥)

وهو طعام وصفه القرآن الكريم بأنه لا يسمن ولا يغني من جوع، وطعام صفته أنه يشبع كيف يكون طعامًا؟ وهو كما عبر عنه صاحب الكشاف بقوله: (أريد أن لا طعام لهم لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على

---

(١) الدخان ٤٣، ٤٤.

(٢) الصافات ٦٢-٦٨.

(٣) الواقعة ٥١-٥٦.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢٩).

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٣٠)، والبيت لقيس بن خويلد بن العيزارة، شاعر جاهلي من بني هذيل، انظر أشعار الهذليين (٢/٤٨٩)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٦٩). ورواية البيت في الديوان:

وحبسن في هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين جدود. انظر شرح ديوان الهزليين (٢/٥٩٨).

التوكيد)[١].

إنه طعام يزيد من جوع الإنسان ويدعوهُ إلى مزيد من الشراب، وما الشراب في حقيقته المألوفة، فشراب لا ينفع غلة، ولا يدفع عطشًا، إنما هو لون من العذاب جديد، يصهرُ ما في البطون ويزيد الألم والأذى والنكال.

والزقوم:

قال الأزهري: الزَّقْمُ الفعل من الزَّقوم، والازدقام كالابتلاع، وقال ابن سيده: (ازدقم الشيء وتزقمه ابتلعه، وهو طعام أهل النار)[٢].

وكان أبو جهل ينكرُ أن يكون الزقوم من كلام العرب، ولما أنزلت: ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾ قال: يا معشر قريش، هل تدرونَ ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: هو العَجْوَةُ.

فأنزل الله تعالى: ﴿**إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيم* طلعها كأنه رؤوس الشياطين**﴾ [٣].

وتعددت آراء المفسرين حول طلع الشجرة المُشَبَّه برؤوس الشياطين ففسر بعضهم الشياطين هنا بالحيات وقال: (والشياطين حيات خفيفات الأجسام قبيحات المناظر، قال الشاعر ذاكرًا ناقته:

تُلاعِبُ مثنى حضرميّ كأنَّهُ   تعمج شيطانٍ بذي خرْوَعِ قَفْرِ

يعني: زمامًا، شبه تلويه بتلوي الحية، وقال آخر:

عُجَيْزٌ تَحْلِفُ حين أحلفُ   كمثل شيطان الحَماطِ أعْرَفُ

والحماط شجر، والعرب تقول ذلك إذا رأت منظرًا قبيحًا كأنه شيطان الحماط، يريدونَ حية تأوي في الحماط)[٤].

---

(١) الكشاف: جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأخيرة، ١٩٧٢ (٢٤٦/٤).

(٢) لسان العرب: ابن منظور (٢٦٨/١٢).

(٣) لسان العرب ابن منظور (٢٦٩/١٢).

(٤) تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار التراث، القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٧٣ (٣٨٩/٣٨٨).

ويلخص ابن منظور أقوال المفسرين فيقول: (وللشياطين فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يشبه طلعها في قبحه رؤوس الشياطين؛ لأنها موصوفة بالقبح وإن كانت غير مشاهدة، فيقال: كأنه رأس شيطان إذا كن قبيحًا.

الثاني: أن الشيطان ضرب من الحيات قبيح الوجه وهو ذو العرف.

الثالث: أنه نبت قبيح يسمى رؤوس الشياطين[١].

وصورة الشيطان ثبتت في أذهان الناس كأقبح ما يكون شكل مخلوق، ولكُلٍّ أنْ بتصور شكلاً يختلف عن آخر، إلا أن النهاية لهذا التخيل تجمع على صورة كريهة، المنظر قبيحة الشكل.

وقد أنكر قوم تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، وزعموا أنه شيء غير معروف، فكيف يضرب به المثل.

ورد الجاحظ على هؤلاء بقوله: (قلنا: وإنْ كنا نحنُ لم نر شيطانًا قط، ولا صَوَّر رؤسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبحُ من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانًا على جهة التطير له... ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناهُ على ضرب المثل بقبح الشيطان، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما أنزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت)[٢].

وفي حديث الرسول ﷺ تقريب أكبر لمعنى الزقوم، ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاَّ وأنتم مسلمون**﴾ [٣].

قال رسول الله ﷺ: (**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا ومعايشهم، فكيف بمن سيكون طعامه**)[٤].

---

(١) لسان العرب (١٢/٢٦٩).

(٢) الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية (٦/٢١٢-٢١٣) تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

(٣) آل عمران ١٠٢.

(٤) سنن الترمذي (٤/٧٠٦)، وابن ماجه (٢/١٤٤٦)، ورواية ابن ماجه (ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأفسدت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن ليس له طعام غيره ؟).

ولا أظن أن وصفًا منفرًا يمكن أن يقرب لنا معنى الكلمة بأبلغ من وصف رسول الله ﷺ لها.

وإذا أكل أهل النار من هذا الطعام الكريه، والذي يبعث وصفه على الفزع والاشمئزاز، استدعى العطش الشرب، وما شراب المجرمين في جهنم؟ لقد وصفه الباري بأنه الحميم: ﴿**فشاربونَ عليه من الحميم* فشاربونَ الهيم**﴾ .

إن شوقهم إلى الماء شوق الإبل العطشى حتى إذا وردوا الماء وعبوا منه وجدوا أنفسهم لا يرتدون، وإذا الماء حار لا طاقة لهم بشربه، غير أنهم لا يستطيعونَ تركه، حتى إذا أحسوا بامتلاء أمعائهم، ذابت وتقطعت وسالت، فلا الأكل يشبع أو يبقى في البطون، ولا الماء مطفئ ظمأ أو راد لعطش، وختامه الذي لا يدوم أن تصهر الأمعاء وتتقطع.

ومن الطعام المذكور: الغسلين، لقوله تعالى: ﴿**فليس له اليوم هاهنا حميم* ولا طعام إلاَّ من غسلين* لا يأكله إلاَّ الخاطئون**﴾ (١).

والغَسَّاق طعام آخر: ﴿**هذا فليذوقوه حميم وغساق* وآخر من شكله أزواج**﴾ (٢).

قال القرطبي: (وقيل الغساق: القيح الغليظ المنتن... وقيل: الغساق الذي لا يستطاع من شدة برده، وهو الزمهرير)(٣).

وقيل: (إنَّ الغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم)(٤).

والطعام والشراب كما يتضح من آيات الكتاب العزيز أنواع من العذاب، لا طعام أو شراب حقيقي، فإحساسهم بالجوع يجعلهم يبحثونَ عن الطعام، حتى إذا

---

(١) الحاقة ٣٥-٣٧.

(٢) ص ٥٨.

(٣) التذكرة القرطبي (٤١٦).

(٤) يقظة أولي الاعتبار، صديق حسن خان (٨٦).

أوتوه في صورة شجرة الزقوم، والضريع وما ذكرنا من أنواع، غصوا به ولم يستطيعوا له دفعًا إلا بما كانوا يدفعونَ به الطعام في الدنيا إن غصوا به وهو الماء، فيستغيثون طلبًا للماء فيغاثوا: ﴿**وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا**﴾ (١).

فأنواع شرابهم التي يسقونها: الحميم وهو الماء الذي تناهى حره وبلغ الغاية، والغساق شراب، ويذكرُ فيما يأكلونَ أيضًا، والصديد، وهو: ما يسيل من لحومهم، والمهل، وهو: الذي ورد في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: (**كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه**)(٢).

والحميم كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه، وهو الصَّهْرُ، ثم يعاد كما كان**)(٣).

ومن أنواع العذاب بالأكل ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿**إنَّ الذين يأكلونَ أموال اليتامى إنما يأكلونَ في بطونهم نارًا**﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمونَ ما أنزل الله من الكتاب ويشترونَ به ثمنًا قليلاً أولئك ما يأكلونَ في بطونهم إلا النار**﴾ (٥).

وإذا كان الأكل والشراب في جهنم بهذه الصورة التي عرضنا، فإن اللباس لا بد وأن يكون من هذا الجنس، فقد أخبر الباري عز وجل عن لباس أهل النار، فقال: ﴿**فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصبُ من فوق رؤوسهم الحميم**﴾ (٦).

فثيابهم مفصلة من نار، وهذا من عجائب الأمور إذا ذكرت، بَيْدَ أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء في أي وقت وعلى الوجه الذي يراه.

---

(١) الكهف ٢٩.
(٢) مسند الإمام أحمد (٧١/٣)، وفي الترمذي (٢٠٤/٤).
(٣) سنن الترمذي (٧٠٥/٤).
(٤) النساء ١٠.
(٥) البقرة ١٧٤.
(٦) الحج ١٩.

وهناك أيضًا من له لباس خاص به كقوله تعالى: ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد* سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾ (١).

وفي باب التشديد في النياحة روى مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: (**النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**(٢)**ودرع من جرب**)(٣).

هذا شيء يسير ما يمكن تصوره عن هذه الجزئية الصغيرة لنوع من أنواع العذاب في جهنم و(واضح أننا لا نملكُ في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة، إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حِسِّنا البشري أقصى ما يملك تصوره من الألم الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية، ومن البرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء.

من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد)(٤).

- **ألوان من العذاب:**

عذاب الكفار في نار جهنم، تنطق به آيات الكتاب العزيز في وضوح تام؛ لأن خالق البشر يحذرهم من الكفر بما ينتظر المكذبين في الآخرة، ويعد المؤمنين بما تفيضُ به الآيات من نعيم وسرور ولذة أعين.

وقد سبق أن بينا جانبًا من عذاب النار، وما يقاسيه المعذبونَ إن في الطعام أو الشراب أو اللباس.

ونعرضُ الآن لطائفة من صنوف العذاب بعد بيان ما يكابده أهلُ النار من أهوال ومشاق.

فالكافرُ حين يلجُ النار، ويجد حقيقة العذاب الذي كذب به، وتمادى في إنكاره

(١) إبراهيم ٤٩.
(٢) القطران: النحاس المذاب.
(٣) صحيح مسلم (٢/٦٤٤).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٣٨٩٦).

في حياته الدنيا، يتمنى مالا يتحقق، ويجأرُ بالشكوى طالبًا المغفرة والصفح. ويصوِّرُ الباري هذا الموقف بقوله: ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبلَ من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين**﴾ (١).

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغُ في النار صبغة، ثم يقالُ: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب**)(٢).

إن وقتًا يسيرًا قد لا يتعدى اللفح ينسي الكافر كل لذائذ الدنيا وكل وقت هنيء أمضاهُ، ويشعر أنه لم يعش من الحياة لحظة سعادة أو يرَ في دنياهُ ساعة مسرَّة.

وأدل أيضًا على هذا الموقف الشديد المفزع قول الله تبارك وتعالى: ﴿**يود المجرمُ لو يفتدي من عذابِ يومئذ ببنيه* وصاحبته وأخيه* وفصيلته التي تؤويه* ومن في الأرض جميعًا ثم ينجيه* كلا إنها لظى* نزاعة للشوى**﴾ (٣).

إن عذاب النار شديد، وهوله ووقعه على النفس يستدعي أنانية الشخص حتى أنه ليقدمُ أحب الناس وأقربهم فداء لنجاته، بل إنه ليشتري عمره بمن في الأرض جميعًا لو استطاع.

إن حب الذات المتأصل في الإنسان تظهره الشدائد والمحن حين لا يجد معينًا كما قد تبطر النعمة الإنسان فيتنكرُ لأقرب الناس إليه.

وهذه الصورة الحية التي نتلوها في القرآن الكريم في كل آن تضعُ أمام أعيننا معاني كثيرة، أبرزها أن الإسلام العظيم قد أنقذنا الله به من هذه المواقف المحزنة المخجلة إن ارتضيناهُ سلوكًا وعملاً وتطبيقًا في حياتنا. ويبقى للمعاندين المنكرين ما توعدهم الله به يوم القيامة.

والنارُ بعد ذلك بانتظار المارِّين، والمقيمين زمنًا قصيرًا أو طويلاً، والخالدين،

---

(١) آل عمران ٩١. والمائدة ٣٦.

(٢) صحيح مسلم (٢١٦٢/٤).

(٣) المعارج ١١-١٥.

ولكل عذابه الذي يستحقه، ففي الحديث عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: (**منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزته**[١]**، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته**[٢])[٣].

وعندما تحين ساعةَ سوقهم إلى النار، يعضونَ بنان الندم، فكل ما قد مضى تولى وراح، ولم يعد لهم من حجة أو عذر فقد قَدمُوا بأعمالهم وحوسبوا عليها فكانت نتيجة فعلهم أنهم في النار خالدون: ﴿**وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون**﴾ [٤].

ويطرحونَ في النار استحقاقًا لكفرهم وعصيانهم، فإذا صَلَوْهَا دعوا بالويل والثبور، فيأتيهم الرد: ﴿**لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدًا وادعو ثبورًا كثيرًا**﴾ [٥]. وحينما يُواجهونَ بهذا الرد يزداد صراخهم وينطلقُ عويلهم عاليًا، ويعبّر القرآن عن حال صراخهم بقوله: ﴿**وهم يصطرخونَ فيها ربنا أخرجنا نعملُ صالحًا غير الذي كنا نعمل**﴾ [٦]. وكلمة (يصطرخون) توحي بقوة الصراخ الشديد الناتج عن الألم الحاد والنار المحرقة التي تأخذهم من كل جانب، ولما لم يجدوا مجيبًا لصراخهم تزداد ذلتهم فيتهمون أنفسهم بقلة العقل فيبكتوا: ﴿**وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا من أصحاب السعير* فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير**﴾ [٧]. ويسألونَ الله الخروج مما هم فيه بإعلانهم أنهم ضلوا لشقائهم، ولو أخرجوا من النار لعادوا قومًا صالحين، فلا يجدونَ ردًا إلا ما يرد به على أحقر حيوان: ﴿**قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون* قال اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾ [٨].

---

(١) حجزته: معقد الإزار والسراويل.
(٢) ترقوته: العظمُ الذي بين ثغرة النحر والعاتق.
(٣) صحيح مسلم (٤/٢١٨٥)، مسند أحمد (٥/١٠، ١٨).
(٤) يونس ٥٤.
(٥) الفرقان ١٤.
(٦) فاطر ٣٧.
(٧) الملك ١٠.
(٨) المؤمنون ١٠٦-١٠٨.

وبعد هذا الذي حل بهم، تضيق بهم رحاب أنفسهم. ويدركونَ أن أي محاولة لا تجدي فقد وجدوا ما عملوا حاضرًا، لكن الذي هم فيه يجعلهم يبحثونَ عن سبيل إنقاذ، فتدركهم أفكارهم الدنيوية، ويظنونَ أن الشفاعة مقبولة فيلجأونَ إلى خزنة النار يطلبونَ منهم سؤال الله عز وجل تخفيف العذاب: ﴿**وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾ (١).

آنئذ لا يجدون بعد طول تفكير سوى الدعاء بالإهلاك لعلهم يجدون الراحة في الموت: ﴿**ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون**﴾ (٢).

إن جميع ما طلبوه قد جوبهوا برفضه، فكلما لاح لهم بريق أمل وجدوا أن رده كان أسهل من التفكير فيه. فلا يجدونَ سوى العويل والنحيب فيشتد نحيبهم ويعلو عويلهم، فتزداد حسرتهم ويعظم ندمهم، فيلعنون من كان سببًا في إدخالهم النار وحثهم على الكفر: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار يقولونَ يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا* ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا**﴾ (٣).

- اندلاق الأمعاء في النار:

وهذا نوع عجيب من أنواع العذاب، ونلاحظ أن لكل نوع من أنواع التكاليف الشرعية في الحياة الدنيا ما يقابله في الحياة الآخرة من ثواب أو عقاب، وهذا العقاب الذي يتلقاهُ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ثم لا يأتي المعروف ولا ينهى نفسه عن المنكر -هو موافق جزاء عمله، وقد اختير له صنف من أصناف العذاب يجمعُ عليه الناس لما يرون به من البلاء، ويعجبونَ من وجوده بينهم وكان في الدنيا ينهاهم عن المنكر ويحببهم في المعروف وليس له شغل الآن غير أن يجمع أمعاءه ويدور معها وهي تفر من بين يديه كما يدورُ الحمار بالرحى.

---

(١) غافر ٤٩، ٥٠.

(٢) الزخرف ٧٧.

(٣) الأحزاب ٦٦.

ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ قال: **(يجاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلقُ أقتابه[١] في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمار برحاه، فيجتمعُ أهل النار عليه فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟. قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)**[٢].

وفي رواية لمسلم: **(يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلقُ أقتاب بطنه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمار بالرحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقولُ: بلى، قد كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)**[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **(رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يَجُرُّ قصْبَه في النار، وكان أول من سَيَّبَ السُّيُوب)**[٤].

- لجام من نار:

روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **(من سئل عن علم فكتمه، أُلجم بلجام من نار)**[٥].

---

(١) الأقتاب: الأمعاء واحدها قتبة، وهي ما استدار في البطن وهي الحوايا والأمعاء والاندلاق: خروج الشيء من مكانه بسرعة كما يقالُ: اندلق السيف من غمده، إذا خرج من غير أن يسله أحد.

(٢) فتح الباري (٦/٣٣١)، حديث رقم (٣٢٦٧)، وطرفه في (١٣/٤٨)، ورقمه (٧٠٩٨).

(٣) صحيح مسلم (٤/٢٢٩٠، ٢٢٩١)، حديث رقم (٢٩٨٩).

(٤) صحيح مسلم (٤/٢١٩٢)، حديث رقم (٢٨٥٦).

وتسييب السيوب: وهو تشريع وضعه عمرو للعرب أحل فيه ما حرم الله تعالى، فحرم أنواعًا من الأنعم، ومؤدى القول فيه أنهم: (كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها ولم يُجَزُّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ولدها، أو ضيف، وتركوها مسيبة وسموها السائبة، فما ولدت من ذلك من أنثى شقوا أذنها وخلوا سبيلها وحرم منها ما حرم من أمها، وسموها البحيرة).

انظر: صحيح مسلم (٤/٢١٩٢)، التعليق رقم (١)، في الهامش.

(٥) مسند الإمام أحمد (١٤/٥)، وكذلك (١٥/٨٦).

وهو عذاب موافق لما اتخذه مانع علمه عن الناس في الدنيا أن يعذب به في الآخرة، فكأنه ألجم نفسه عن تعليم العلم فيختم على فِيهِ بلجام من نار يمنعه من الكلام.

وصورة أخرى لعذاب كافر آخر تغير النار من شكله بصنف العذاب الذي يحيق به.

فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: (﴿**وهم فيها كالحون**﴾[(١)] **قال: تشويه النار فتقلّصُ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته**)[(٢)]، وفي هذا إلى جانب الألم الشديد الذي ينتاب هذا المعذب، صورة بشعة قبيحة منفرة، تبعثُ على الخوف والاشمئزاز من صورة مخلوق تتغير ملامح وجهه إلى هذه الدرجة.

- **زكاة المال:**

طهارة المال في الإسلام إخراج زكاته، لأنه حق معلوم للفقراء، حث القرآن الكريم عليه بآيات ترغيب وترهيب، كما حض الإسلام على الإنفاق والبذل والعطاء مداواة للنفس من الشح والبخل.

وكثير من الناس تستعبدهم أموالهم، وكلما زادت زاد حرصهم على جمعها وكترها فإذا ما تعرض لهم سائل أو محتاج ردوه ردًا غير كريم.

وقد وضح رسول الله ﷺ جزاء من يكتر المال ولا يؤدي حقه، ففي مسند أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه، إلاَّ جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره**)[(٣)].

وهذا عائد إلى من يجمعُ الذهب والفضة وما ماثلها من نفيس المعادن، وما نصت عليه الأحاديث عن زكاة المال، ففي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ آتاهُ الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يُطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه -يعني شدقيه- ثم يقول: أنا**

(١) المؤمنون ١٠٤.
(٢) سنن الترمذي (٧٠٨/٤)، ومسند الإمام أحمد (٨٨/٣).
(٣) مسند الإمام أحمد (٢٨٦/١٣).

مالك، أنا كنـــزك. ثم تلا: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ [(١)] الآية).

وعن أبي هريرة أيضًا أنه كان يقول: (**من كان عنده مالٌ لم يؤد زكاته، مثل له، يوم القيامة، شجاعًا أقرع له زبيبتان، يطلبه حتى يمكنه، يقول: أنا كنـــزك**)[(٢)].

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: (**إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يُمثل الله عز وجل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، ثم يَلْزَمُهُ يُطوقه، يقول: أنا كنـــزك، أنا كنـــزك**)[(٣)].

فعقابُ مانع الزكاة أن يمثل له ماله ثعبانًا ضخمًا، ذا هيئة مخيفة، وصفه الرسول ﷺ بأنه أقرع وهو الذي تمرط جلد رأسه.

وقوله زبيبتان: قال أبو عبيدة: النكتتان السوداوان فوق عينيه، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه[(٤)].

ولا شك أن العربَ تعرف هذا الصنف من الحيات، وتعرف شراسته، وقوته، فكيف به إذا طوق العنق وضغط على الرقبة حتى ليكاد يهلك الإنسان وهو يصيح به: أنا مالك، أنا كنـــزك.

وعن أبي ذر يرفعه للنبي ﷺ: (**بشر الكانزين برضف**[(٥)] **يُحمى عليه في نار جهنم، فيوضعُ على حَلَمَةِ ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نغض**[(٦)] **كتفيه، ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرجَ من حلمة ثدييه، يتزلزل**)[(٧)].

وفي رواية أخرى: (**بشر الكانزين بكيٍّ في ظهورهم يخرجُ من جُنُوبهم، وبكيٍّ من قِبَلِ أقفائهم يخرجُ من جباههم**)[(٨)].

---

(١) آل عمران ١٨٠.

(٢) الموطأ (١/٢٥٧)، وقال ابن عبد البر: هذا الحديث موقوف في الموطأ، وقد أخرجه، موصولاً، البخاري في ٢٤ -الزكاة- باب إثم مانع الزكاة.

(٣) مسند الإمام أحمد (٨/١٠٩).

(٤) لسان العرب: مادة زبب (١/٤٤٥).

(٥) الرضف: الحجارة المحماة.

(٦) النغض (بالضم والفتح) العظم الرقيق الذي على طرف الكتف، وقيل هو أعلى الكتف.

(٧) شرح النووي على مسلم (٧/٧٧).

(٨) شرح النووي على مسلم (٧/٧٩).

وفي هذا الحديث نوع آخر من العذاب لمانع الزكاة، الكانز لما أنعمَ الله عليه به من فضل وخير أن يؤدي حقه، وصيغة الحديث بالبشرى تدلُ على التهكم الساخر، وهو وصف مثير لما سيتعرض له هذا الجاحد من عقوبة شديدة تقشعرُ لها الأبدان.

- ضرس الكافر وجلده:

روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**)[1].

وعن أبي هريرة أيضًا، عن النبي ﷺ قال: (**إن غلَظ جلد الكافر اثنان وأربعونَ ذراعًا، وإن ضرسه مثلُ أحد، وإن مجلسه من جهنمَ كما بينَ مكة والمدينة**)[2].

وفي البخاري: (**ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاث أيام للراكب المسرع**)[3].

إن هذه الصورة من أشد الصور قبحًا وألما وبشاعة، فكيفَ يحتملُ إنسان أن يكون له ضرس في حجم جبل، إن بثرة في وجه الآدمي تشغله، وتملؤه هَمًّا وقلقًا، فكيفَ بضرس يأخذ عليه فمه وفي حجم ما لا يتصور أن يكون، وجلد الكافر في غلظه، ومساحة هذا الجلد وما يمكنه أن ينال بسببه من عذاب.

والتشبيهات معروفة لمن حول رسول الله ﷺ فهم لا يجهلونَ جبل أحد، ولا يغيبُ عن بالهم ما بين مكة والمدينة، ولا يخفى عليهم ما يعنيه رسول الله ﷺ من غلظ جلد الكافر بالقياس.

---

(١) صحيح مسلم (١٧/١٨٦).

(٢) سنن الترمذي (٤/٧٠٣).

(٣) فتح الباري (١١/٤١٥)، وصحيح مسلم (١٧/١٨٦).

الفصل الخامس

نعيم الجنة

الجنة في اللغة: البستان ومنه الجنات، وتجمعُ على جنان، والعربُ تسمي النخيل: جنة، قال زهير:

كأن عيني في غَرْبَيْ مُقتَلة من النواضح، تسقي جنة سحُقًا

والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وقال أبو علي في التذكرة: (لا تكونُ الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديثة وليس بجنة)(١).

ويعلل ابن فارس تسميتها بالجنة بقوله: (فالجنة ما يصير إليه المسلمونَ في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة البستان، وهو ذلك لأن الشجر بورقه تستر)(٢).

والجنةُ شرعًا: دار الثواب التي أعدها الله للمتقين، كما يتبين ذلك في قوله عز وجل: ﴿**وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ (٣).

وقد ورد لفظ، جنة، وجنات، وجنات النعيم في القرآن الكريم ١٤٧ مرة(٤).

والجنة خالدة باقية، لا تفنى ولا تبيد، وأهلها خالدونَ فيها لا يغادرونها ولا يرحلون عنها، يقولُ الله عز وجل: ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم**﴾ (٥).

ويقول عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات**

---

(١) لسان العرب، مادة جنن (٩٩/١٣، ١٠٠)، وانظر القاموس المحيط: مادة (ج ن ن)، (٥٤٣/١).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مطبعة البابي الحلبي بمصر -طبعة ثانية ١٩٦٩ بتحقيق عبد السلام محمد هارون (٤٢١/١).

(٣) آل عمران ١٣٣.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (١٨٠، ١٨١).

(٥) الدخان ٥٦.

الفردوس نزلاً* خالدين فيها لا يبغونَ عنها حولاً﴾ [(١)].

ويؤيد خلود أهل الجنة في الجنة حديث ذبح الموت والذي يقالُ فيه لأهل الجنة ولأهل النار: (**يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت**)[(٢)].

ويسمعُ أهل الجنة بعد دخولهم الجنة النداء الرباني الحبيب: (**إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا، فلا تبتئسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾** [(٣)])[(٤)].

إنها الحياة الجديدة الخالدة الباقية الهانئة الناعمة، حياة لا تشوبها منغصات الدنيا، ولا تعتريها هموم الحياة الأولى.

حياة شباب دائم، ونعيم مقيم، وصحة لا يصلُ إليها مرض، وعمر لا يعرفُ الانتهاء بالموت.

فالجنة كلمة تحملُ كل معنى جميل يطوفُ بخاطر الإنسان، ولا يتأتى لبشر أن يحصر ما أعده الله لعباده المتقين في الجنة من أنواع النعيم ولو أجهد نفسه العمر كله.

فالله تبارك وتعالى يقول في حديثه القدسي: (**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم: ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** [(٥)])[(٦)].

والدنيا بما فيها هباءة إذا قيست بما في الآخرة، ومعنى الحديث القدسي: أنه لا يرتقي عقل بشر إلى اكتشاف ما خبأه الله لعباده من نعيم، ولعل رسول الله ﷺ أراد تقريب بعض ما في الجنة من نعيم للناس من حوله، نجد ذلك في الحديث الذي رواهُ

---

(١) الكهف ١٠٧، ١٠٨.

(٢) فتح الباري (٨/٤٢٨).

(٣) الأعراف ٤٣.

(٤) صحيح مسلم (٤/٢١٨٢)، ومسند الإمام أحمد (٣/٩٥).

(٥) السجدة ١٧.

(٦) فتح الباري (٦/٣١٨)، وصحيح مسلم (١٧/١٦٦)، وسنن ابن ماجه (٢/١٤٤٧)، والحديث رواهُ الثلاثة عن أبي هريرة.

البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: (**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**)[١].

وفي الحديث الذي يرويه أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (**لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد -يعني سوطه- خير من الدنيا وما فيها**)[٢].

ونعمة الجنة نعمة عظيمة لا تقاسُ بشيء من متاع الدنيا، ولو أوتي الإنسان فيها حظًا لم يبلغه أحد، وكل نعمة إلى جانب الجنة مهما كان، محتقرٌ وتافه لا يؤبه له.

ودخول الجنة كرامة لا تعدلها كرامة، وكفى بالمؤمن فرحًا أن نجاهُ الله من النار، قال تعالى: ﴿**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**﴾ [٣].

وفي حديث آخر للرسول ﷺ تقريب لما تعنيه الدنيا في الآخرة، ففيه أن رسول الله ﷺ قال: (**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه** - وأشار يحيى بالسبابة[٤]- **في اليم فلينظر بم يرجع**)[٥].

والمؤمنونَ قبل دخولهم الجنة يوقفونَ على الصراط ليقتص لبعضهم من بعض، حتى لا تكون لأحد عند أخيه مظلمة، فإذا ما أذن لهم بدخول الجنة دخلوها آمنين مطمئنين عباداً أبراراً طاهرين.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**يَخْلُصُ المؤمنونَ من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونقوا أذنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**)[٦].

---

(١) فتح الباري (٣١٩/٦).
(٢) فتح الباري (١٥/٦).
(٣) آل عمران ١٨٥.
(٤) هو يحيى بن سعيد أحد رواة الحديث.
(٥) صحيح مسلم (١٩١/١٧). ويحيى هذا هو يحيى بن سعيد راوي الحديث.
(٦) فتح الباري (٣٩٥/١١).

- أول من يدخل الجنة:

أولُ من تفتح له الجنة رسولنا محمد ﷺ، وتدخلُ أمته بعده، وهي أول الأمم دخولاً الجنة.

روى مسلم في صحيحه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**أنا أكثرُ الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أولُ من يقرع باب الجنة**)(١).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**نحنُ الآخرونَ الأولون يوم القيامة، ونحنُ أول من يدخل الجنة**)(٢).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقولُ: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتحُ لأحد قبلك**)(٣).

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (.. **أنا أولُ من يحرك بحلق الجنة ولا فخر، فيفتح الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر**)(٤).

وأول من يدخل من هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر -رضي الله عنه- ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي**)، فقال أبو بكر: يا رسول الله: وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: (**أما إنك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنة من أمتي**)(٥).

ومما لا شك فيه أن تفاوت درجات الإيمان بين المؤمنين له صلة بتقديم بعضهم على بعض فلكل مرتبة فضل ومكانة، والجنة درجات، ولكل درجة أهل سكان. ويجلي رسول الله ﷺ هذا الفضل فيمن يسبق بدخول الجنة بأوصاف تدلُ على أصحابها، وقد امتدح الباري سبحانه وتعالى السابقين إلى دخول الجنة بقوله:

---

(١) صحيح مسلم (١/١٨٨).

(٢) صحيح مسلم (٢/٥٨٥).

(٣) صحيح مسلم (١/١٨٨)، ومسند الإمام أحمد (٣/١٣٦).

(٤) سنن الدارمي (١/٣٠)، والترمذي (٥/٥٨٨).

(٥) سنن أبي داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء (٢/٥١٦).

﴿والسابقونَ السابقون* أولئك المقربون* في جنات النعيم﴾ (١).

وروى البخاري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (أول زمرة تلج الجنة صورهما على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مُخُّ سوقِهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحونَ الله بكرة وعشيًا)(٢).

وزاد مسلم: (فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمونَ النَّفسَ).

وفي رواية أخرى عند مسلم، عن أبي هريرة أنه قال: (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على أضوأ كوكب دريّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب)(٣).

وفي رواية الترمذي: (على لون أحسن كوكب دري في السماء)(٤).

وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**ليدخلن الجنة من أمتي سبعونَ ألفًا -أو سبعمائة ألف- لا يدخلُ أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**)(٥).

قال ابن حجر موضحًا قوله ﷺ: (**لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**): (هو غاية للتماسك المذكور والأخذ بالأيدي، وفي رواية فضيل بن سليمان، (لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم)، وهذا ظاهره يستلزم الدور، وليس كذلك، بل المراد أنهم يدخلون صفًا واحدًا فيدخل الجميع دفعة واحدة، ووصفهم بالأولية والآخرية باعتبار

---

(١) الواقعة ١٠-١٢.

(٢) فتح الباري (٣١٨/٦)، ومسلم (١٧٣/١٧)، والترمذي (٦٧٨/٤)، وانظر كذلك مسند أحمد (٣٤٩/٣).

(٣) صحيح مسلم (١٧٠/١٧).

(٤) سنن الترمذي (٦٧٠/٤).

(٥) فتح الباري (٣١٩/٦).

الصفة التي جازوا فيها على الصراط وفي ذلك إشارة إلى سعة الباب الذي يدخلونَ منه الجنة)[١].

وزيادة في تكريم الله عز وجل لرسوله -عليه الصلاةُ والسلام-، فقد أعطاهُ مع كل واحد من السبعين هؤلاء سبعين ألفًا، فعن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**أعطيتُ سبعين ألفًا من أمتي يدخلونَ الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل، فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا**)[٢].

وعند الترمذي، عن أبي أمامة أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**وعدني ربي أن يدخلَ الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم، ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثياته**)[٣].

وحديث السبعين ألفًا الذين يدخلونَ الجنة بغير حساب، حديث مشهور رواهُ البخاري، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: (**عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرتُ فإذا سواد كثير، قلتُ: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، هؤلاء سبعونَ ألفًا قُدَّامهم لا حساب عليهم، ولا عذاب، قلت: ولم، قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة**)[٤].

ومن أوائل من يدخلونَ الجنة ما رواهُ الترمذي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**عرض علي أول ثلاثة يدخلونَ الجنة: شهيد، وعفيف متعفف، وعبد أحسن**

---

(١) فتح الباري (١١/٤١٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (١/٦).

(٣) سنن الترمذي (٤/٦٢٦)، أحمد (٤/١٦).

(٤) فتح الباري (١١/٤٠٥).

عبادة الله ونصح مواليه)(١).

وفي رواية الإمام أحمد قوله ﷺ: (**إني لأعلمُ أول ثلاثة يدخلونَ الجنة، الشهيد، وعبد أدّى حق الله وحق مواليه، وفقير عفيف متعفف)**(٢).

ومما تحفظه كتب السنة أن الفقراء يسابقونَ الأغنياء على أبواب الجنة فيسبقونهم، فقد ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**إنَّ فقراء المهاجرين يسبقونَ الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا)**(٣).

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام)**(٤).

وفي صحيح البخاري، عن أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ قال: (**قمتُ على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمتُ على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء)**(٥).

قال ابن حجر: (وأصحاب الجد محبوسون، أي: ممنوعونَ من دخول الجنة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال)(٦).

ومما أخرجه الحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟**) قلتُ: الله ورسوله أعلم، فقال: (**فقراء المهاجرين، يأتونَ يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحونَ فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ قال: فيفتحُ لهم، فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس)**(٧).

---

(١) سنن الترمذي (٤/١٧٦).
(٢) مسند الإمام أحمد (٢/٤٧٩).
(٣) صحيح مسلم (٤/٢٢٨٥).
(٤) مسند الإمام أحمد (٢/٣٤٣، ٥١٣).
(٥) فتح الباري (١١/٤١٥).
(٦) فتح الباري (١١/٤٢٠).
(٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٥٣٢)، وانظر كتاب البعث والنشور للبيهقي (٢٤٢).

ويلفتُ نظر القارئ أن حديثًا يرد في ذكر سبق الفقراء بدخول الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، وأن حديثًا آخر يحدد المدة بخمسمائة عام، و(وجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفو الحال، وكذلك الأغنياء -كما يقول القرطبي- فالفقراء متفاوتونَ في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أمّا إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولاً الجنة فتكون المدة أربعين خريفًا، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء)[١].

- الجهنميون يدخلون الجنة بالشفاعة:

والجهنميون هم من عصاة المؤمنين الذين أصابوا ذنوبًا استوجبت دخولهم النار، لا على سبيل التخليد فيها، وإنما هي معاصٍ يعاقبونَ عليها حتى إذا أذن الله سبحانه وتعالى بخروجهم، أخرجوا إلى الجنة تفضلاً من ربهم وتكرمًا.

ففي سنن الترمذي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (**يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حُممًا، ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة، قال: فَتَرُشُّ عليهم أهل الجنة الماء فينبتونَ كما ينبت الغثاء في حَمَالة السيل ثم، يَدخلونَ الجنة**)[٢].

ويسمى أهل الجنة من يدخل الجنة بعد خروجهم من النار بالجهنميين، فعن عمران بن حصين -رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ قال: (**يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلونَ الجنة، يسمون: الجهنميين**)[٣].

وروى البخاري أيضًا عن أنس بنِ مالك، عن النبي ﷺ قال: (**يخرجُ قوم من النار بعدما مسهم منها سفع، فيدخلونَ الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين**)[٤].

وعن جابر -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: (**يخرجُ من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير، قلتُ: وما الثعارير؟ قال: الضغابيس**)[٥].

---

(١) الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر (١٢٧).

(٢) سنن الترمذي (٧١٣/٤).

(٣) فتح الباري (٤١٨/١١). سنن الترمذي (٧١٥/٤).

(٤) فتح الباري (٤١٦/١١).

(٥) فتح الباري (٤١٦/١١)، والثعارير: قثاء صغار، والضغابيس جمع ضغبوس: وهو نبت يخرج قدر شبر في دقة الأصبع لا ورق له، وفيه حموضة، والمقصود وصفهم بالبياض والدقة.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (**أمَّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتونَ فيها ولا يحيونَ ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال: بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أُذنَ بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل**)، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية[١].

ويتردد هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن حوله من الصحابة في أكثر من حديث تقريبًا للمفاهيم، فحميل السيل ونبت الحبة على ضفافه مألوف لديهم لارتيادهم مواقع المياه، ومشاهدتهم هذا المنظر المتكرر، فكان قريبًا إليهم أن يتمثلوه في الذهن وأن يوضح الصورة الغامضة لقوم قد دخلوا النار فاحترقوا فكيف يكون لهم وجود إن خرجوا.

وفي صحيح مسلم تمييز لهؤلاء الذين يخرجون من النار، إذ إن علامة السجود في وجوههم لا تأكلها النار فيعرفون بها، ففي حديث أبي هريرة: (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجونَ من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه، كما تنبت الحبة في حميل السيل)[٢].

وفي النار أصناف من عصاة الموحدين قصّرت بهم أعمالهم فدخلوا النار لأمد محدود فلمَّا استوفوا ما كتب عليهم من العذاب، حان موعد خروجهم من النار، فأذّن مؤذن أن من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فليخرج، ويتجلى كرمُ الخالق جل وعلا، فيخرجُ من النار أقوام ما كانوا ليعرفوا أن لهم في الجنة نصيبًا بعد أن حم عليهم قضاء ربهم فدخلوا النار، وإن كانوا متعلقين برحمته لما لهم في الدنيا من حرب

(١) صحيح مسلم (١/١٧٢)، ابن ماجه (٢/١٤٤١)، مسند أحمد (٣/٢٥، ٢٦).

(٢) صحيح مسلم (١/٢٩٩).

للشرك وأهله وبغض للأوثان وعابديها.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة: روى الترمذي، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (**يخرجُ من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. قال أبو سعيد: فمن شك فليقرأ: ﴿إن الله لا يظلمُ مثقال ذرة﴾** [(١)]).

وفي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (**يخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرة، ثم يخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزنُ برة ثم يخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزنُ ذرة**)[(٢)].

وفي باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار يروي مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: (**يدخلُ الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه..**)[(٣)].

ومن سابغ رحمته عز وجل أن يخرج من النار قومًا لم يعملوا خيرًا قط. بعد أن أكرم أنبياءه ورسله وملائكته وعباده بقبول شفاعاتهم في جميع عصاة الموحدين.

فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا خلص المؤمنون من النار يوم القيامة وأمنوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة له من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار قال: يقولون: ربنا، إخواننا كانوا يصلونَ معنا ويصومونَ معنا ويحجونَ معنا فأدخلتهم النار، قال: فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، لا تأكلُ النار صورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربنا، أخرجنا من أمرتنا، ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول: من كان في قلبه مثقال**

---

(١) سنن الترمذي (٧١٤/٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم (١٨٢/١)، والترمذي (٧١١/٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح مسلم (١٧٢/١).

ذرة).

قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية: ﴿**إن الله لا يظلمُ مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنهُ أجرًا عظيمًا**﴾ (١).

قال: (فيقولون: ربنا، قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير، قال: ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين، قال: فيقبضُ قبضة من النار، أو قال قبضتين، ناس لم يعملوا لله خيرًا قط، قد احترقوا حتى صاروا حممًا، قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتونَ كما تنبت الحبة في حميل السيل فيخرجون من أجسامهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم عتقاء الله قال: فيقال لهم: ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم عندي أفضل من هذا، قال: فيقولون: ربنا، وما أفضل من ذلك؟ قال: فيقول: رضائي عليكم فلا أسخطُ عليكم أبدًا)(٢).

وفيض جود الله -عز وجل- لا حد له، فإن كثيرًا من مواقف القيامة تبعثُ في نفس المؤمن من العجب ما لا طاقة للنفس به، ولا قدرة للعقل على تخيله، إذ إن إمكانية الخيال البشري بالنسبة لما عليه الآخرة ومواقفها قاصرة، لا يردعُ عوج التفكير فيها إلا إيمان الشخص وتسليمه لما سيكون أمام نصوص القرآن الكريم وما صح من حديث رسول الله ﷺ ووثقه العلماء بعد طول تمحيص ونظر.

وفي هذا الباب من جوده عز وجل ما رواه مسلم، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (**يخرجُ من النار أربعة فيعرضونَ على الله، فيلتفتُ أحدهم فيقول: أي رب، إذ أخرجتني منها فلا تُعدني فيها فينجيه الله منها**)(٣).

وقصة الرجل الذي يخرجه الله من النار ويدخله الجنة وهو ما سمي في كتب الحديث: (باب آخر أهل النار خروجًا)، كما عند مسلم، قصة عجيبة، لطيفة العرض، مؤنسة الحوار، يشعرُ المرء إزاءها بعظمة الخالق وتلطف العظيم بالعبد الذليل

(١) النساء ٤٠.
(٢) مسند الإمام أحمد (٩٤/٣)، ابن ماجه (٢٣/١)، النسائي (٩٩/٨)، واللفظ لأحمد، وليس في روايتي ابن ماجه والنسائي بعد الآية شيء.
(٣) صحيح مسلم (١٨٠/١)، مسند الإمام أحمد (٢٢١/٣).

الصغير، والعجب منها لا ينقضي، فالرب يدير حوارًا مع العبد، وليس هذا العبد من المقدمين في العمل، بل هو آخر من ينظرُ إليه. وهذا الحوار الذي يجري بين الخالق والمخلوق إنما يبين عن فضل وكرم لا يمثل لهما بشيء. وإني لكرم الباري وفضله أن يشبه بهما شيء مما يألفه الناس.

فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعلمُ آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقولُ الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها، أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي -أو أتضحك بي- وأنت الملك**)؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منــــزلة)[1].

وعند مسلم أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار: رجل يخرج منها زحفًا، فيقالُ له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكرُ الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقالُ له: تمن فيتمنى، فيقالُ له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخرُ بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه**)[2].

وفي الحديث التالي شرح مفصل لما يمر به هذا الخارج من النار، وآخر من يفد على الجنة، وفي امتداد الأمل لابن آدم حتى في الآخرة، وصبر الله عليه ومحاورته إياه حتى يضحك رب العالمين من إلحاح هذا العبد وطمعه في كرم ربه، فيضحك رسول الله ﷺ لضحك رب العالمين، وفي الحديث ما يشرح صدر المؤمن عند قراءته ويُفرح قلبه، إذ يرى الله عز وجل يعامل عبدًا بين يديه هذه المعاملة التي تختفي من ذاكرة الإنسان في الدنيا في معاملة رجل متسلط، وللمرء حق عنده، فلا يناله لجهامة وجه

(١) صحيح مسلم (١/١٧٣)، فتح الباري (١١/٤١٨، ٤١٩).
(٢) صحيح مسلم (١/١٧٤)، الترمذي (٤/٧١٢).

هذا الجلف، وربما ناله الأذى.

إن المقارنة مفقودة تمامًا بين ما يتضمنه هذا الحديث، وما يمكن أن يتم بين فرد وحاكم في الحياة الدنيا، ولا يفهم هذا النص تمام الفهم إلا من أشرب الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتغلغل في أعماق يقينه.

والحديث طويل نوعًا ما، لكنه متصل الحدث، متسلسل الرواية، يتلهف القارئ على مواصلة حواره، وانتظار خاتمته وكله شوق وأمل.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسعفه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاهُ أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة. فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشربُ من مائها، ثم ترفعُ له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظلُ بظلها، ويشربُ من مائها، ثم ترفعُ له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسنُ من الأوليين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناهُ منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها فيقول: يا ابن آدم، ما يَصريني منك؟**[١]**، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين**).

(١) ما يصريني منك معناه ما يقطع مسألتك مني.

فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: **(من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر)**(١).

وحول قصة هذا الرجل أحاديث شتى تتغاير فيها الروايات في بعض عباراتها وإن أدت الهدف نفسه، وليس فيما تركت من إضافة إلى القصة في محتواها، وإنما هو اختلاف التعبير في بعض الكلمات، ولم أر من ضرورة لإثباتها، فاكتفيت بهذه النصوص الواضحة المجلية.

- صفة الجنة:

مهما أنشأ الكتاب والأدباء، وتخيل المتخيلون، وأبدع المبدعون، وصفًا للجنة، فإنه لن يبلغ من حقيقتها أيسر جزء يدل عليها، لأن الجنة فوق ما يصف الواصفون وأعلى مما يتوهم المفكرون، وأرقى مما يدور في خلد المعجبين بأفهامهم.

والإنسان مخلوق بشري لم ير غير ما في دنياه، فيميز ما بين النعيم والألم والعذاب بما يحيط به من منغصات الحياة وكدرها، أو ترفها بهجتها وفرحها، فإذا وصف له شيء من النعيم شبه له بشيء يعرفه، فإن كان لا يعرفه فقد المعنى ولم يصل إلى مبتغاه، وكذلك لا يحس بألم الآخرين إن عرض له في غير ما يعرف من الموجعات إلا ما كان سماعًا.

ووصف الجنة نستقيه من الكتاب العزيز حينما نقرأ آيات النعيم وما أعده الله للمتقين، ويبسط الأمر للناس، رسول الله ﷺ، حينما يسأله أصحابه الكرام عن شيء لا يجدون له ذاكرًا في القرآن، فيحدثهم الحديث الموحى إليه من ربه لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ورد في سنن ابن ماجه أن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: **(ألا مُشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، وهي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر**

---

(١) صحيح مسلم (١/١٧٤، ١٧٥).

مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دول عالية سليمة بهية)(١).

وفي الحديث عن أبي مدلة عن أبي هريرة قال: قلنا يا رسول الله، أخبرنا عن الجنة ما بناؤها، قال: (**لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وترابها الزعفران، من يدخلها يخلد فيها ينعم لا يبأس، ولا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم**)(٢).

أمَّا ما أخفاه الله لأهل الجنة من نعيم، فلا تبلغه عقول البشر، وقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخرًا، بله ما أطلعكم الله عليه**)، ثم قرأ: ﴿**فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ (٣).

- **أبواب الجنة:**

للجنة ثمانية أبواب، يدخل منها المؤمنون، وتستقبلهم الملائكة مرحبين ومحبين، قال الله تعالى: ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ (٤).

وقوله عز من قائل: ﴿**جنات عدن مفتحة لهم الأبواب**﴾ (٥).

ولكل أهل عمل باب يدعونَ بذلك العمل، ففي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا**

(١) سنن ابن ماجه (١٤٨/٢)، وفي إسناد الحديث مقال، وقد رواه ابن حبان في صحيحه (لا خطر لها) قال السيوطي: أي لا مثل لها، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزية.
(مطرد): أي جار عليها، من اطرد الشيء أي تبع بعضه بعضًا وجرى.
(حبرة): أي نعمة وسعة عيش، (نضرة): حسن وجه.

(٢) سنن الدارمي (٢٣٩/٢)، مسند الإمام أحمد (٤٤٥/٢)، سنن الترمذي (٦٧٢/٤).

(٣) صحيح مسلم (٢١٧٤/٢).

(٤) الزمر ٧٣.

(٥) ص ٥٠.

خير، فمن كان من أهل الصلاة، دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام، دعي من باب الريان).

قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: **(نعم، وأرجو أن تكون منهم)**[(١)].

وفي الحديث حث على أعمال البر والتصدق، وفيه ترغيب بدخول الجنة من خلال أعمال الخير.

ولأمر ما كان للصيام من المكانة ما جعل له بابًا خاصًا لا يدخله إلاّ الصائمون واسمه: الريان، وقيل: إنه سمي بذلك تنبيهًا على أن العطشان بالصوم في الهواجر سيروى، وعاقبته إليه.

روى البخاري ومسلم، عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: **(إن في الجنة بابًا يقالُ له: الريان، يدخلُ منه الصائمونَ يوم القيامة لا يدخلُ منه أحد غيرهم، يقالُ: أين الصائمونَ؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد)**[(٢)].

وأخبر الرسول ﷺ عن ثواب من توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا رسولُ الله، وهذا حث على ذكر الله بعد الوضوء.

روى مسلم عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أو فيُسبغ) الوضوء، ثم يقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخلُ من أيها شاء)**[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (٢/٧١١).

(٢) فتح الباري (٤/١١١)، صحيح مسلم (٢/٨٠٨).

(٣) صحيح مسلم (١/٢١٠).

وورد في حديث (القتل ثلاثة) الذي رواه الإمام أحمد قوله: (... ورجل مؤمن قرف على نفسه الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، محيت ذنوبه وخطاياه، إنَّ السيف محاء الخطايا، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب)[١].

وفي الصحيحين ومسند أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**). وعند مسلم: (فتحت أبواب الجنة)[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**تفتح أبواب الجنة في كل اثنين وخميس، قال معمر: وقال غير سهيل: وتعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفرُ الله عز وجل لكل عبد لا يشرك به شيئًا إلا المتشاحنين، يقولُ الله للملائكة: ذروهما حتى يصطلحا**)[٣].

وطبيعي أن لا يكون باب الجنة مما نألف من الأبواب، إذ لكل شيء ما يناسبه، وعظم الجنة التي لا يعلمها بشر يستوجب أن تكون أبوابها مما لا يمكن تصور أحجامها، وقد ورد في السنن ما يقرب الأفهام من حساب الناس ذلك الاتساع فيما بين مصراعي باب الجنة.

ورد في صحيح مسلم عن عقبة بن غزوان قال: (ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرةُ أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام)[٤].

وفي مسند أحمد عن حكيم بن معاوية، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (**أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله عز وجل، وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ**)[٥].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٨٥/٤).

(٢) فتح الباري (١١٢/٤)، مسلم (٧٥٨/٢)، مسند أحمد (١٩٢/١٤، ١٨/٢٠، ٢١).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥٨/١٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٢٧٨/٤)، وانظر كذلك: مسند أحمد (١٧٤/٤).

(٥) مسند الإمام أحمد (٣/٥).

- درجات الجنة:

ذكر الباري تقدست أسماؤه منازل الصالحين في الجنة فقال: ﴿**ومن يأته مؤمنًا قد عمـــل الصالحـــات فأولئك لهم الدرجاتُ العلى**﴾ (١).

ودرجات الجنة بعضها فوق بعض، والمؤمنون يومئذ يتفاضلونَ بحسب إيمانهم وتقواهم، والناس في الدنيا منهم من يجعل الدنيا همه ويطلب خيرها، ومنهم من يسعى للآخرة سعيها، طالبًا رضا خالقه ورحمته، والله يعطي من يشاء إن حرص على العاجلة عجل له فيها ما يشاء، وإن كانت الأخرى فله عند الله أوفى الجزاء ثم يقول الله بعد ذلك: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً**﴾ (٢).

وفي القرآن الكريم آيات تنبئ عما ادخره الله للعاملين والمجاهدين في سبيله من رفيع الدرجات، ووصف الرسول ﷺ بعضًا مما ورد في القرآن حثًا للصحابة على بذل ما يبلغهم تلك الدرجات العاليات.

روى البخاري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال النبي ﷺ: **(من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوهُ الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، -أراهُ قال: وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة)**(٣).

---

(١) طه ٧٥.

(٢) الإسراء ٢١.

(٣) فتح الباري (٦/١١)، قال ابن حجر: (وقوله: (أوسط الجنة وأعلى الجنة) المراد بالأوسط هنا الأعدل والأفضل، كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ فعلى هذا فعطفُ الأعلى عليه للتأكيد، وقال الطيبي: المراد بأحدها العلو الحسي وبالآخر العلو المعنوي، وقال ابن حبان: المراد بالأوسط السعة، وبالأعلى الفوقية) انظر فتح الباري (٦/١٣).
وانظر حول درجات الجنة، سنن الترمذي (٤/٦٧٥)، سنن ابن ماجه (٢/١٤٤٨)، ومسند الإمام أحمد (٤/٦٧٤، ١٥/٤).

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: (**يا أبا سعيد، من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة**) فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل، ثم قال: (**وأخرى يرفعُ بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**)، قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: (**الجهادُ في سبيل الله، الجهادُ في سبيل الله**)(١).

ويصف الرسول الكريم ﷺ نظر أهل الجنة إلى من مكنهم الله من سكنى الغرف العالية بما أتوا من أعمال استحقوا بها هذه الدرجات كأنهم ينظرونَ إلى كوكب بعيد، وذلك لما بين أهل الجنة من التفاضل، فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: (**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر**(٢) **في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**)، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: (**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**)(٣).

وحكاية أم حارثة يرويها أنس –رضي الله عنه– فيقول: إن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ وقد هلك حارثة يوم بدر أصابه سهم غرب، فقالت: يا رسول الله، قد علمتُ موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإلا سوف ترى ما أصنع، فقال لها: (**هَبِلْتِ، أجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في الفردوس الأعلى**)(٤).

وهذه الغرف التي يحل بها المؤمنون تختلف في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال وتفاضلهم، فبعضها أرفع من بعض.

وللقرطبي تعليق حول حديث ترائي أهل الجنة يقول فيه: (وقوله: (والذي نفسي

---

(١) صحيح مسلم (١٥٠١/٣).

(٢) في رواية الترمذي (الغارب).

(٣) فتح الباري (٢٢٠/٦)، صحيح مسلم (٢١٧٧/٤)، وسنن الترمذي (٦٩٠/٤).

(٤) فتح الباري (٤١٨/١١)، مسند الإمام أحمد (٢١٠/٣).

بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) ولم يذكر عملاً ولا شيئًا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال الله تعالى: ﴿**أولئك يجزونَ الغرفة بما صبروا**﴾ (١)، والصبر بذل النفس والثبات له وقوفًا بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين، وقال في آية أخرى: ﴿**وما أموالكم وأولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون**﴾ (٢). فذكر شأن الغرفة، وأنها لا تنالُ بالأموال والأولاد، وإنما تنالُ بالإيمان والعمل الصالح، ثم بين أن لهم جزاء الضعف، وأن محلهم الغرفات، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به، مطمئنًا به في كل ما نابه، وبجميع أموره وأحكامه، فإذا عمل عملاً صالحًا، فلا يخلطه بضده، وهو الفاسد، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا، فلهذا كانت منزلته دون غيره)(٣).

وبداهة أن يكون ترف أصحاب الدرجات العليا أكثر من سواهم، فلكل مقام ودرجة من الفضل ما لا يكون لمن دونهم في الدرجة والفضل، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أعد لمن يخافونه جنتين فقال: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ (٤)، ثم وصفهما، ثم قال بعد ذلك: ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ (٥)، أي: دونهما في المقام والرتبة وفرق بين الأوليين والتاليين في الوصف الذي ذكره المولى عز وجل.

قال القرطبي: (ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما، فقال في الأوليين:

---

(١) الفرقان ٧٥.

(٢) سبأ ٣٧.

(٣) التذكرة (٤٦٣، ٤٦٤).

(٤) الرحمن ٦٢.

(٥) الرحمن ٤٦.

﴿**فيهما عينان تجريان**﴾ [١]، وقال في الأخريين: ﴿**فيهما عينان نضاختان**﴾ [٢] أي: فوارتان بالماء، ولكنهما ليستا كالجاريتين، لأن النضخ دون الجري، وقال في الأوليين: ﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ [٣] معروف وغريب، رطب ويابس، فَعَمَّ ولم يخص، وفي الأخريين: ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾ [٤]، ولم يقل من كل فاكهة زوجان، وقال في الأوليين: ﴿**متكئين على فرش بطائنها من استبرق**﴾[٥]، وهو الديباج، وفي الأخريين: ﴿**متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان**﴾[٦]، والعبقري الوشي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كسر الخبا، ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من الخبا، وقال في الأوليين في صفة الحور العين: ﴿**كأنهن الياقوتُ والمرجان**﴾ [٧] وفي الأخريين: ﴿**فيهن خيرات حسان**﴾ [٨]، وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان، وقال في الأوليين: ﴿**ذواتا أفنان**﴾ [٩] وفي الأخيرتين: ﴿**مدهامتان**﴾ [١٠]، أي: خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداون، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها)[١١].

وفي الحديث الشريف وصف للجنتين الأوليين والجنتين الأخريين يرى ما بينهما من التفاضل، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء**

---

(١) الرحمن ٥٠.
(٢) الرحمن ٦٦.
(٣) الرحمن ٥٢.
(٤) الرحمن ٦٨.
(٥) الرحمن ٥٤.
(٦) الرحمن ٧٦.
(٧) الرحمن ٥٨.
(٨) الرحمن ٧٠.
(٩) الرحمن ٤٨.
(١٠) الرحمن ٦٤.
(١١) التذكرة (٤٤٠/٤٤١).

الكبر على وجهه في جنة عدن)[١].

وفي رواية الدارمي: (جنات الفردوس أربع، ثنتان من ذهب، حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنات عدن، وهذه الأنهار تشخبُ من جنات عدن في جوبة، ثم يصعدُ بعد أنهارًا)[٢].

وفي حديث رسول الله ﷺ للصحابه عن الجنة، أنه ذكر أدنى أهل الجنة منزلة وأعلاهم منزلة، فقد روي عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: (**سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء، بعدما أدخل أهلُ الجنة الجنة، فيقالُ له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب. وكيف؟ وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاهم؟ فيقالُ له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ رب، فيقول: لك هذا وعشرةُ أمثاله، ولَكَ ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيتُ رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمتُ عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر**) قال: (ومصداقهُ في كتاب الله -عز وجل-: ﴿**فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ [٣]).

- **الوسيلة:**

هناك في الجنة درجة مصطفاة، أعلى درجات الجنة، وهي درجة واحدة، لمقام نبي كريم، وتسمى الوسيلة، وهي لرسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى، ففي صحيح البخاري، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (**من قال حين يسمعُ النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**)[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: (**إذا سمعتم المؤذن**

(١) فتح الباري (٨/٦٢٣، ٦٢٤).
(٢) سنن الدارمي (٢/٢٤٠).
(٣) السجدة ١٧. والحديث رواه مسلم في صحيحه (١/١٧٦).
(٤) فتح الباري (٢/٩٤)، مسند الإمام أحمد (٣/٣٥٤).

فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاةً صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة، حلت له الشفاعة)[١].

وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن هذه الوسيلة التي جعل الرسول ﷺ ثمن من يسأل الله أن تكون لرسوله ونبيه محمد شفاعته يوم الزحام، فقالوا: وما الوسيلة؟، قال: (**أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون هو)**[٢].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (**الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة)**[٣].

- عباد في الدرجات العاليات:

من البشارات الطيبة ما يرطب به رسول الله ﷺ قلوب الموحدين، فيتعهدهم بين الفينة والفينة بالموعظة والنصيحة، ويدلهم على مدارج الخير حتى يسلكوها ويكونوا من الآمنين، ومن هذه البشارات ما كان على جواب سؤال رجل قال له ﷺ: أي الشهداء أفضل؟

قال: (**الذين إن يلقوا في الصف يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربهم وإذا يضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه)**[٤].

وممن رفع الله درجتهم في الجنة كافل اليتيم، وأنزله الرسول ﷺ من نفسه منزلة قريبة جدًا، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (**كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة**) وأشار مالك بالسبابة والوسطى[٥].

---

(١) صحيح مسلم (١/٢٨٨-١٨٩)، أبو داود (١/١٢٤)، الترمذي (٥/٥٨٦، ٥٨٧)، النسائي (٢/٢٢)، الإمام أحمد (٢/١٦٢).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/٢٦٥)، الترمذي (٥/٥٨٦).

(٣) مسند الإمام أحمد (٣/٨٣).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٨٧)، عن نعيم بن همار، وقال عنه الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير (١/٣٦٣).

(٥) صحيح مسلم (٤/٢٢٨٧).

وباب الإحسان من الأبواب التي حث الإسلام على طرقها بشدة، وأعطى الرسول ﷺ لها الأهمية ما للجهاد في سبيل الله، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**) -وأحسبه قال-: (**وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر**)[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٌ ينتفعُ به، أو ولدٌ صالح يدعو له**)[2].

وورد حديث بَيَّن فضل دعاء الولد الصالح لأبيه، وما يناله الأب جزاء ترتيبه الصالحة لولده.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله عز وجل ليرفعُ الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**)[3].

- أنهار الجنة وعيونها:

من مظاهر النعيم في الجنة، العيون المتفجرة والأنهار الجارية، وهذه الأنهار بما وصفت لمشاهد الجنة الجميلة بخمائلها وخضرتها وأطيارها، وهي تتمة للترف والبذخ الذي يحظى به المؤمنون عند دخولهم دار الأمن والسلام.

وهذه الأنهار، جاء ذكرها في القرآن الكريم في مواقف البشارات والتهاني، تفضلاً من الباري على عباده، ففي الكتاب العزيز قوله: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [4].

وقوله عز من قائل: ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**﴾ [5].

(١) صحيح مسلم (٢٢٨٦/٤).
(٢) صحيح مسلم (١٢٥٥/٣)، أبو داود (١٠٦/٢)، النسائي (٢١٠/٦).
(٣) مسند الإمام أحمد (٥٠٩/٢).
(٤) البقرة ٢٥.
(٥) الرعد ٣٥.

وذكر الرسول ﷺ هذه الأنهار في شيء من التعريف، فقد روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (**رفعت إليَّ السدرة، فإذا أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأمَّا الظاهران فالنيل والفرات، وأمّا الباطنان فنهران في الجنة**)[١].

وفي صحيح مسلم قال: وحدث نبي الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان: (**فقلتُ: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات**)[٢].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل كل من أنهار الجنة**)[٣].

وأشهر أنهار الجنة الكوثر، وهو نهر أعطاهُ الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [٤].

وفي حديث البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (**بينما أنا أسير في الجنة، إذ أنا بنهر حافتاهُ قباب الدر المجوف، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه -أو طينه- مسك أذفر**)[٥].

ومما حدث به عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما سمعتُ سعيد ابن جبير يذكر عن ابن عباس في الكوثر؟

فقلتُ: سمعته يقول: قال ابن عباس: هذا الخير الكثير، فقال محارب: سبحان الله، ما أقل ما يسقط لابن عباس قول، سمعتُ ابن عمر يقول: لما أنزلت: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ قال رسول الله ﷺ: (**هو نهر في الجنة، حافتاهُ من ذهب، يجري على جنادل الدر والياقوت، شرابه أحلى من العسل، وأشدُ بياضًا من اللبن، وأبردُ من الثلج، وأطيبُ من ريح المسك**)، قال: صدق ابن عباس، هذا والله الخير

---

(١) صحيح مسلم (١/١٥٠).

(٢) فتح الباري (١٠/٧٠).

(٣) صحيح مسلم (٤/٢١٨٣).

(٤) الكوثر ١.

(٥) فتح الباري (١١/٤٦٤)، ومسند الإمام أحمد (٣/١٠٣).

الكثير(١).

وعند الترمذي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ، ما الكوثر؟ قال: **(ذاك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة، أشدُ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيها طير أعناقها كأعناق الجُزر)**، قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ: **(أكلتُها أحسن منها)**(٢).

وفي رواية أحمد: (.. فقال عمر: يا رسول الله، تلك لطير ناعمة، فقال: **(أكلتها أنعمُ منها يا عمر)**(٣).

وقد عدد الله سبحانه وتعالى أنواعًا من الأنهار، فذكر أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، فقال تبارك اسمه: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن* وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين* وأنهار من عسل مصفى* ولهم فيها من كل الثمرات* ومغفرةٌ من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم﴾** (٤).

وفي الحديث عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: **(إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد)**(٥).

إن المسلم حينما يقرأ آيات النعيم، أو يمر بأحاديث رسول الله ﷺ يتلوها ويتأملها تطوفُ في خياله صور كثيرة لأنواع النعيم، فيطيل فيها المقارنة بما يشاهده في الحياة من حوله، ويرجع كل غيب موعود إلى حاضر موجود، يقيس عليه ويرتفع به إلى درجات عالية لعلها لو زادت فإنها ترتقي إلى ما يتنعم به أهل اليسار في الدنيا، ثم لا يزيد إلا أن يكون ممن أتوا حظًا من الخيال الواسع، والجنة كما وصفت يقنع منها العربي بما يحبه في حياته أن تكون موهوبة له في الجنة يعب منها ما يشاء، وخاصة أنه محروم في حياته من أهون ما يتمناه.

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٢/٨)، وسنن الدارمي (٣٤٣/٢)، ابن ماجه (١٤٥٠/٢).
(٢) سنن الترمذي (٦٨٠/٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٢٢٠/٣).
(٤) محمد ١٥.
(٥) سنن الترمذي (٦٩٩/٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والماء عماد الحياة عند العرب في بيئتهم الصحراوية، من أجله ينتجعونَ ويرحلون، وتزخر أشعارهم بذكره، إن مدحًا وإن هجاء لآخرين، وموضعه في مجال المفاخرة أكثر منه في مجال التشبيه.

فكيف إذا أردف الحديث عن أنهار الجنة بأنهار اللبن، وهو الذي يعتمده الأعرابي حياته ومعاشه، ولا يستطيع خزنه أو الاحتفاظ به زمنًا، لأن الفساد يعطبه في زمن يسير، وأنها الخمر الموصوفة في القرآن بأنها لذة للشاربين وليست مما يعهدونَ من ذهاب العقل وفقدان الوعي، وأنهار العسل التي تجري، ويغترفونَ منها أنى يشاؤون، وهو عسل مصفى لا يكدره شيء. إن صورة الجنة الخضراء، الوارفة الظلال ذات الطيب والمسك، والقصور العالية الفخمة، والنعيم المقيم، تنسابُ فيها هذه الأنهار فتكمل الصورة الجميلة البهيجة، يقرؤها العربي ويتلفت حواليه فلا يجد إلاّ جدبًا وشحًا وأرضًا جرداء قاحلة، وشمسًا لاهبة، وإبلاً هزيلة، فيطير به الشوق إلى تلك الجنة التي أعدها الله لمن رضي به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولاً، فيسجد شاكرًا لله متمتمًا أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين.

ويعقب الزمخشري على آية: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**﴾ [(١)] بقوله: (ولولا أن الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض -وإن كانت آنق شيء وأحسنه- لا تروق النواظر، ولا تبهج الأنفس، ولا تجلبُ الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتًا والسرور الأوفر مفقودًا. وكانت كتماثيل لا روح فيها، وصور لا حياة لها لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعًا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه)[(٢)].

ولم يرد شيء في الحديث عن العيون، وإن كانت وردت في القرآن الكريم

---

(١) البقرة ٢٥.

(٢) الكشاف للزمخشري (١/٢٥٧، ١٥٨).

بأوصافها الواضحة كعين الكافور(١)، وعين التسنيم(٢)، وعين السلسبيل(٣).

قصور الجنة وخيامها:

لن يمر في خاطر المؤمن شيء من أنواع النعيم والسعادة والبهجة في الجنة إلا وجده حاضرًا كأحسن ما تمنى وزيادة، وسيجدُ كل شيء أمامه على صورة مختلفة في الحسن والجمال والروعة ليست متمثلة في متاع الدنيا، وأن وجه الشبه فقط إنما هو الاسم، وما عداه فشيء غير الذي يعرف.

ويتبدى كرم الكريم فيما أعد لعباده المؤمنين، إذ إن أعطياته تكون بقدر عظمته سبحانه وتعالى، فكل داخل الجنة له مسكنه الذي يركنُ إليه، وهذا المسكن لا يعرف التواضع كما تواضع عليه أهلُ الدنيا، وإنما هي مساكن وصفها رب العزة بأنها طيبة، قال عز من قائل: ﴿**ومساكن طيبة في جنات عدن**﴾ (٤)، ووصف جزاء عباده المخلصين بقوله مسميًا المساكن بالغرف: ﴿**أولئك يجزونَ الغرفة بما صبروا ويلقونَ فيها تحية وسلامًا**﴾ (٥).

وقد وصف رسول الله ﷺ هذه الغرف للمؤمنين ليتأملوا في معانيها ويتفكروا في أشكالها وألوانها، فما تزالُ كلمة الغرف تصور لهم واقعًا محددًا قد لا يتجاوز تفكيرهم فيه ما يعرفون ويشاهدون.

روى أحمد والترمذي عن أبي مالك الأشعري وعلى بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: (**إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**) (٦).

وذكر الله سبحانه وتعالى الخيام في قوله: ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾ (٧).

---

(١) الإنسان ٥، ٦.
(٢) الإنسان ١٧، ١٨.
(٣) المطففين ٢٢-٢٨.
(٤) التوبة ٧٢.
(٥) الفرقان ٧٥.
(٦) سنن الترمذي (٤/٦٧٣)، ومسند الإمام أحمد (٥/٣٤٣).
(٧) الرحمن ٧٢.

وهي من لذاذات أهل الجنة حيث يؤتون هذه النعمة الجليلة التي لا مثيل لها في الدنيا، والخيمة رفيقة الأعرابي فهي وكنه، ينتقل فتنتقل معه، وفي البيئة العربية القديمة كانت الخيام مساكن أهل البادية، وما تزال هذه الوسيلة قائمة عند سكان الصحراء، ويفر إليها أهل الحاضرة طلبًا للتغيير من الحياة الرتيبة في أيام معلومات من العام يعتدل فيها الجو فينطلقونَ في مرح وسرور، فالخيمة ذات شأن في حياة العربي القديم، لكن هذه الخيمة التي يدخلها في الجنة ليست كخيمته، ليست من قماش ربما قطعته الريح، أو لوحت لونه شمس الهاجرة فغدا محترقًا، أو لا لون له.

إن خيام أهل الجنة وصفها المصطفى ﷺ فيما رواهُ البخاري عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: (**إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوفُ عليهم المؤمنون**)(١).

وعند مسلم عن عبد الله بن قيس، عن النبي ﷺ قال: (**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستونَ ميلاً، للمؤمن فيها أهلونَ، يطوفُ المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا**). وفي رواية أخرى: (**في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل، ما يرونَ الآخرين، يطوفُ عليهم المؤمن**)(٢).

ودلنا رسول الله ﷺ على صفات بعض قصور أصحابه، وما ورد في حديث عن وصف قصر لخديجة أم المؤمنين، فعن أبي هريرة، قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: (**يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها غناء فيه إدام طعام، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**)(٣).

وعن جابر قال: قال رسول اله ﷺ: (**دخلتُ الجنة أو أتيت الجنة فأبصرت قصرًا، فقلتُ: لمن هذا؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فأردتُ أن أدخله، فلم يمنعني إلا**

---

(١) فتح الباري (٦٢٤/٨).

(٢) صحيح مسلم (٢١٨٢/٤)، سنن الترمذي (٦٧٣/٤).

(٣)صحيح مسلم (٢١٨٢/٤)، مسلم (١٨٨٧/٤)، مسند أحمد (٢٠٥/١).

علمي بغيرتك) قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، يا نبي الله، أو عليك أغار؟ [١].

وعن أعمال البر التي تكسب المؤمن رصيدًا مضاعفًا في الجنة بناء المساجد إذ إن من بنى لله مسجدًا في الأرض بنى الله له بيتًا في الجنة، ففي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: **(من بنى لله مسجدًا، ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتًا في الجنة)**[٢].

وكذلك ما ورد عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال: **(من بنى مسجدًا)** -قال بكير-: حسبتُ أنه قال: - **(يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة)**[٣].

ومن قبيل ثواب الله لعباده أن ينيلهم الأجر العظيم على العمل القليل، ما ورد عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا، غير فريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة)**، أو **(إلا بُنِيَ له بيت في الجنة)**[٤].

- ريح الجنة:

يحرص البشر على التطيب، واقتناء الأزهار العطرية، وزراعة الورد العبق الرائحة أو شرائه، كما يسعونَ لامتلاك الطيب واستعماله، لما له من واقع أثير في النفس وما يتركه عند الآخرين من شعور بالارتياح لدى شمهم للطيب والرائحة الزكية وإذا كان هذا في الدنيا ومن صنع البشر، فكيف إذا كان ذلك في جنة الرضوان عند رب كريم؟

ورائحة الجنة وعبقها يوجد من مسافة بعيدة، وقد ورد في قصص الصحابة وفي السير أنهم عندما كانوا على أبواب الشهادة يرددون أنهم يجدون ريح الجنة، وقد ذكرت مرارًا وفي مناسبات متعددة[٥].

---

(١) فتح الباري (٩/٣٢٠)، مسلم (٤/١٨٦٢).

(٢) مسند الإمام أحمد (١/٢٤١).

(٣) فتح الباري (١/٥٤٤)، مسلم (١/٣٧٨-٤/٢٢٨٧)، مسند أحمد (١/٢٠، ٥٣، ٦١، ٧٠- ٢/٢٢١-٣/٤٩٠-٤/٣٨٦-٦/٦٤١)، النسائي (٢/٢٦).

(٤) صحيح مسلم (١/٥٠٣)، أحمد (٤/٤١٣-٦/٣٢٦).

(٥) فتح الباري (٦/٢١)، وذلك عندما قال أنس بن النضر لسعد بن معاذ في يوم أحد: (الجنة ورب النضر، إني أجدُ ريحها من دون أحد).

وفي الحديث الشريف ورد ذكر ريح الجنة في مجال الترهيب من الإقدام على عمل لا يصح، وذلك كقتل الذمي أو المعاهد، فعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: (**من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**)(١).

وفي مسند أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا**)(٢).

جمع ابن حجر في الفتح اجتهادات الشراح لما في الروايتين من اختلاف في تقدير المدة الزمنية بين الأربعين والسبعين، وما ورد من روايات أخرى جعلتها خمسمائة عام، وخلص إلى رأي ظهر له أنه أقرب إلى الفهم فقال: (والذي يظهرُ لي في الجمع أن يقال: إنَّ الأربعين أقل زمن يدرك به ريح الجنة من في الموقف، والسبعين فوق ذلك أو ذكرت للمبالغة). وأشار إلى رأي أحد شيوخه في طبيعة هذا الاختلاف فقال: (الجمعُ بين هذه الروايات أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص بتفاوت منازلهم ودرجاتهم)(٣).

- أشجار الجنة وثمارها:

تهفو النفوس إلى الجمال في جميع أشكاله وصوره، وتتملاه العين، ويهتز له خافق الإنسان طربًا، وتتميز الطبيعة في بعض الأماكن بما حباها الله به من جمال المنظر لروعة أشجارها، ونضرة أزهارها، وانتثار ورودها، وسيلان أنهارها، وشلالاتها وتغريد الأطيار في جوها اللطيف البديع، ويفتن الإنسان بهذه المشاهد الباعثة على الأنس والسرور حتى إذا انقلب إلى مسكنه تمنى لو طال به الوقت ليعب من هذا النعيم الذي بهره، وسحره، ونفس عنه همومه، وأبعد غمومه.

---

(١) فتح الباري (١٢/٢٥٩)، مسند أحمد (٥/٣٦، ٣٨).

(٢) مسند أحمد (٤/٢٣٧).

(٣) فتح الباري (١٢/٢٦٠).

هذا منظر يستجليه الإنسان في الدنيا، فيأخذ بلبه، ويتمنى أن تطول أيامه، أما نعيم الآخرة، فمبلغ ما يصل إليه عقل الآدمي المتفكر أن يخرج قليلاً عن إطار هذه الصورة الدنيوية، فيتصور أشجار الجنة أكبر حجمًا، وأكثر جمالاً، وأنضجُ ثمرًا، وهذه حقيقة دلت عليها الأحاديث الشريفة في نقل صورة الأشجار والثمار في جنان الخلد للسعداء من العباد الذين كتب الله لهم أن يتذوقوا هذا النعيم.

فالقرآن الكريم حفل بشواهد لهذا الصنف من الخير فقال تعالى: ﴿**إن للمتقين مفازًا حدائق وأعنابًا**﴾ (١).

وإلى جانب هذه الحدائق والأعناب هناك شجر النخل والرمان: ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾ (٢)، كما أن من أشجار الجنة السدر والطلح، قال تعالى: ﴿**وأصحابُ اليمين ما أصحاب اليمين* في سدر مخضود* وطلح منضود* وظل ممدود* وماء مسكوب* وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة**﴾ (٣).

والعربي تثيره أوصاف الجنة، وأكثر ما يثيره هذا الوصف الرائع لما في الجنة من أشجار وثمار، خاصة إذا ما قارن هذا بحياته الجافة من هذا النعيم فالصحراء الممتدة البعيدة، والشمس اللاهبة، وقلة الماء والمطر، وبالتالي قلة الخضراء من حوله حتى إنه ليفرح الفرح الشديد إن ورد على مرعى لإبله، أو بلغ به مسيره إلى واحة ظليلة، يفيء إلى بردها ومائها، فكيف به في الجنة وكل ما يحيط به مما يسر له، فلا ينقضي الطرف إلى صحراء أو منظر يملّه.

وفواكه الجنة لا تحجب عن مؤمن فضلاً عن كل نعيم يطلبه، وإذا كان قد ذكر بعض أنواع الفواكه فإن ما يحبه المؤمن من فاكهة يعرفها، له أن يتمنى ليجد بغيته أمامه، يقول عز وجل:﴿**يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب**﴾(٤)، ويقول: ﴿**وفاكهة مما يتخيرون**﴾ (٥)، ﴿**إن المتقين في ظلال وعيون* وفواكه مما يشتهون**﴾ (٦).

(١) النبأ ٣١، ٣٢.
(٢) الرحمن ٦٩.
(٣) الواقعة ٢٧-٣٣.
(٤) ص ٥١.
(٥) الواقعة ٢٠.
(٦) المرسلات ٤١، ٤٢.

ووصف الله سبحانه وتعالى أشجار الجنة بأنها ذات أغصان جميلة فقال: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* ذواتا أفنان**﴾ (١).

والخضرة لون تحبه النفس العربية، وتميلُ إليه، وقد شاع في شعرهم وترنموا به، لاقتران الخضرة بالخير والبركة، ومن يراجع أقوالهم النثرية والشعرية يجد مادة كبيرة توحي إليه بمغزى اللون الأخضر في حياتهم، وجاء ذكرُ هذا اللون المحبب إلى قلوبهم في وصف شجر الجنة في قوله تعالى: ﴿**ومن دونهما جنتان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* مدهامتان**﴾ (٢). ولا توصف الجنة بهذا الوصف إلا إذا كانت أشجارها مائلة إلى السواد لشدة ريها وقربها إلى لون السواد، يقول الجاحظ: (وأحسنُ الخضرة ما ضارع السواد، قال الله جل وعلا: ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ ، ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما: ﴿**مدهامتان**﴾ (٣).

ووصف ذو الرمة الوصال بالخضرة فقال:

أترابُ مَيٍّ والوصالُ أخضر ولم يغير وصلها المغير(٤)

ويخبرنا الباري -عز وجل- عن ثمر الجنة فيصفه بأنه قريب لا يبذل طالبه مشقة، ولا يصعب عليه تناوله، وما أحلى قوله عز وجل: ﴿**وذللت قطوفها تذليلاً**﴾ (٥).

وفي وصف آخر يوحي بترف النعمة وعظيم الدلال والعز، يقول تبارك اسمه: ﴿**متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنة الجنتين دان**﴾ (٦).

ولسرد القرآن الكريم لأوصاف أشجار الجنة وثمارها ما يروح القلوب المتعبة ويدفعها إلى البذل في سبيل بلوغ هذه المرتبة التي تبوئ من يحظى بها درجات من

(١) الرحمن ٤٧-٤٩.

(٢) الرحمن ٦٢-٦٤.

(٣) رسائل الجاحظ، لأبي عثمان عمر بن بحر: رسالة فخر السودان على البيضان (من مجموعة رسائل) بتحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون -مكتبة الخانجي القاهرة- ١٩٦٤-١/٢٠٤.

(٤) ديوان ذي الرمة، غيلان بن عقبة العدوي: المكتب الإسلامي- بيروت. طبعة ثانية- ١٩٦٤ (٢٨٤).

(٥) الإنسان ١٤.

(٦) الرحمن ٥٤.

الأمن والدعة ورضاء الخالق سبحانه، ويزيد رسول الله ﷺ أصحابه ومن يأتي بعدهم من أمته تفصيلاً لهذا النعيم، فيكون استثارة الخيال استثارة الإيمان الذي يدفع صاحبه دفعًا إلى التطلع لهذا الأمل الغالي والتماسه من خلال ما يمثله الالتزام الحقيقي بأسباب هذا الدين، إذ إن لكل عروس مهرًا، ومهرُ الجنة العمل الصالح، وسلعةُ الله غالية.

إننا نجد وصفًا في الحديث الشريف لبعض أشجار الجنة فإذا ما رجعنا إلى صحيحي البخاري ومسلم فإننا نجدهما يرويان عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد أو المضمر السريع مائة عام وما يقطعها**)(١).

وفي رواية عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: (**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**)(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرأوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾**(٣))(٤).

ومن أشجار الجنة المعروفة سدرة المنتهى، وقد ورد ذكرها في التنـــزيل العظيم: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى* عندها جنة المأوى* إذ يغشى السدرة مـــا يغشى* مـــا زاغ البصرُ وما طغى﴾** (٥).

وأشار إليها رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج فقال: (**ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلالُ هَجَر، وورقها كأنه آذانُ الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهرانِ ظاهران، فسألتُ جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران، النيل والفرات**)(٦).

وعند مسلم في صحيحه: (**ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان**

---

(١) فتح الباري (١١/٤١٦)، مسلم (٢/٢١٧٦).
(٢) فتح الباري (١١/٤١٥)، سنن الترمذي (٤/٦٧١)، مسلم (٢/٢١٧٥).
(٣) الواقعة ٣٠.
(٤) فتح الباري (٦/٣١٩)، سنن ابن ماجه (٢/١٤٥٠).
(٥) النجم ١٣-١٧.
(٦) فتح الباري (٦/٢٠٣-٧/٢٠٢)، مسند أحمد (٤/٢٠٧-٢٠٨).

الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[١].

ومن أشجار الجنة شجرة تسمى: (طوبى) وهي كما يتضح من وصفها أنها شجرة عظيمة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: (**طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**)، وقال له رجل: وما طوبى؟ قال: (**شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**)[٢].

وفي حديث أحمد الذي يرويه عن عبد الله بن عمرو دليل على أن ثياب أهل الجنة تشقق عنها ثمار الجنة، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة، خلقًا تخلق، أم نسجًا تنسج؟ فضحك بعضُ القوم، فقال رسول الله ﷺ: (**مم تضحكون؟ من جاهل يسأل عالمًا؟**) ثم أكب رسول الله ﷺ، ثم قال: أين السائل؟ قال: هو ذا أنا يا رسول الله، قال: (**لا، بل تُشَقَّق عنها ثمر الجنة، ثلاث مرات**)[٣].

ومن عجائب أخبار الأشجار أن سيقانها من ذهب، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: (**ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب**)[٤].

إن فضل الله كبير، ونعمته سابغة، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وكل شيء يتراءى للعبد أنه غير معقول هو هين عند الله وميسور أمره، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

- أصحاب الجنة:

أصحابُ الجنة كل مؤمن موحد، اتبع هدى الله الذي أنزله على أنبيائه ورسله فآمن ونصر المرسلين والتزم بما فرض عليه واجتنب ما نهى عنه، والله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الكريم كثيرًا من صفات المؤمنين الذين استحقوا دخول الجنة بما

(١) صحيح مسلم (١٤٦/١).
(٢) مسند الإمام أحمد (٧١/٣)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٦٣٩/٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤٥/١٢)، (شاكر).
(٤) سنن الترمذي (٦٧٢/٤).

عملوا وأطاعوا، فرضى الله عنهم ورضوا عنه.

ومن الأعمال التي قربتهم إلى الله فاستحقوا ثواب الجنة: الإيمان والعمل الصالح، وفي ذلك من التفصيل القرآني ما يلاحظه أي تال للقرآن الكريم ليجد الثواب تابعًا للعمل الصالح الذي تقدم به العبد بين يدي ربه، كما يجد أن إخلاص الوجه لله يكرم صاحبه بنعيم عظيم، ويذكر القرآن أنواعًا من هذه الأعمال الصالحة، ومنها السجود، والتسبيح، والتواضع، والصلاة، في جوف الليل والناس نيام، والإلحاح في الدعاء، والتوكل على الله، كما خص الصبر آيا باهرات، وذكر أن الاستقامة على الإيمان ثوابها دار الخلد، فقال تبارك اسمه: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون* أولئك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**﴾ [(١)].

ونلتمس فاتحة سورة (المؤمنون) التي حوت مجموعة من الصفات وثواب هذه الأعمال المذكورة، يقول عز وجل: ﴿**قد أفلح المؤمنون* الذين هم في صلاتهم خاشعون* والذين هم عن اللغو معرضون* والذين هم للزكاة فاعلون* الذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون* والذين هم على صلواتهم يحافظون* أولئك هم الوارثون* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾ [(٢)].

ووصف رسول الله ﷺ أهل الجنة فيما يرويه أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (.. **أما أهل الجنة فكل ضعيف متضعف أشعث ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره**)[(٣)].

وعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: (... **وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى**

---

(١) الأحقاف ١٣، ١٤.

(٢) المؤمنون ١-١١.

(٣) مسند الإمام أحمد (٣/١٤٥).

ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال)[١].

وفي الحديث عن أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: **(قمت على باب الجنة، فكانت عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجَدِّ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار، فإذا، عامة من دخلها النساء)**[٢].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **(اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)**[٣].

واختصم الرجال والنساء في جيل الصحابة، أيهم أكثر في الجنة الرجال أكثر أم النساء؟

قال ابن سيرين: اختصم الرجال والنساء أيهم في الجنة أكثر؟ فسألوا أبا هريرة فقال: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: **(إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب)**[٤].

واستفاد ابن حجر في الفتح من توفيق القرطبي للأحاديث التي يدل بعضها على أن النساء أكثر أهل النار، وكذلك أكثر أهل الجنة، وللقرطبي جمعه بين هذه الأحاديث وتعليقه عليها بقوله: (في حديث أبي هريرة، لكل واحد منهم زوجتان، وأن أقل ساكني الجنة النساء. قال علماؤنا: لم يختلفوا في جنس النساء وإنما اختلفوا في نوع من الجنس وهو نساء الدنيا ورجالها، أيهما أكثر في الجنة، فإن كانوا اختلفوا في المعنى الأول وهو جنس النساء مطلقًا، فحديث أبي هريرة حجة، وإن كان اختلفوا في نوع من الجنس وهم أهل الدنيا فالنساء في الدنيا أقل).

ويعقب القرطبي على أقوال مشايخه فيقول: (يحتمل أن يكون هذا في وقت كون النساء في النار، وأما بعد خروجهن في الشفاعة ورحمة الله تعالى حتى لا يبقى فيها

(١) صحيح مسلم (٢١٩٨/٤).
(٢) فتح الباري (٢٩٨/٩)، مسلم (٢٠٩٦/٤)،
(٣) فتح الباري (٣١٨/٦)، مسلم (٢٠٩٦/٤)، والترمذي (٧١٦/٤).
(٤) صحيح مسلم (٢١٧٨/٤، ٢١٧٩).

أحد ممن قال لا إله إلا الله، فالنساء في الجنة أكثر، وحينئذ يكون لكل واحد منهم زوجتان من نساء الدنيا)(١).

وأمة الإسلام أمة عظيمة العدد، لا تقاس كثرة أمة بها يوم القيامة، ومن يدخل الجنة من هذه الأمة ممن يدخلها من غيرهم، وتدلُ الأحاديث على أن ثلثي أهل الجنة من أمة محمد ﷺ، فعن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: (**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعونَ من سائر الأمم**)(٢).

ويؤكد ذلك الحديث الصحيح المتفق عليه المروي عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة فقال: (**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**) قلنا: نعم، قال: (**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**) قلنا: نعم، قال: (**أترضونَ أن تكونوا شطر أهل الجنة؟**) قلنا: نعم. قال: (**والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر**)(٣).

ويشرح النووي قول رسول الله ﷺ : (**أترضونَ**) مكررًا في ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، شطر أهل الجنة، بأن ذلك: (أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به، ودوام ملاحظته، وفيه فائدة أخرى هي تكرير البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضًا حملهم على تجديد شكر الله تعالى، وتكبيره، وحمده على كثرة نعمه، والله أعلم)(٤).

ويدلُ أيضًا على كثرة أمة الإسلام ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير قال: حدثني ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: (**عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر ومعه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي**

---

(١) التذكرة القرطبي (٤٧٥)، وانظر فتح الباري (٦/٣٢٥).

(٢) سنن الترمذي (٤/٦٨٣)، ابن ماجه (٢/١٤٣٤)، مسند أحمد (١/٤٥٣).

(٣) فتح الباري (١١/٣٧٨)، مسلم (٣/٩٦)، سنن الترمذي (٤/٦٨٤)، ابن ماجه (٢/١٤٣٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٩٥).

يمر وحده، فنظرتُ فإذا سواد كثير، قلتُ: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعونَ ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب)[١].

وفي رواية ابن فضيل: (فإذا سواد قد ملأ الأفق، فقيل لي: انظر هاهنا، وهاهنا في آفاق السماء)، وفي حديث ابن مسعود: (فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال). وفي لفظ لأحمد: (فرأيتُ أمتي ملؤها السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيأتهم، فقيل: أرضيت يا محمد؟ قلتُ: نعم يا رب)[٢].

ويزيد عدد الداخلين أيضًا ما روي أن رب العزة قد أعطى نبيه مع السبعين ألفًا سبعين ألفًا وثلاث حثيات من حثيات الله عز وجل، فعن أبي أمامة، قال: (**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعونَ ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي**)[٣].

والإسلام خاتم الأديان كما أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فهو قائم إلى يوم الدين، ومعجزته باقية ببقائه، محفوظة من لدن خالق الأرض والسماء، والأجيال تتلوهم الأجيال، حتى تقوم الساعة، يعبونَ من معين الإسلام، ويجدون فيه الحياة الآمنة في الدنيا والحياة السعيدة في الآخرة، ورسولنا ﷺ يأمل أن يكون أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاهُ الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**)[٤].

وعند مسلم: (**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي**)[٥]

- نعيم أهل الجنة:

يزداد شوق المؤمنين إلى الجنة فيلتمسون مواطن القربات إلى الله، وتتقرح الجباه

---

(١) فتح الباري (١١/٤٠٥).

(٢) فتح الباري (١١/٤٠٨)، وانظر مسند أحمد (١/٤٥٤).

(٣) سنن الترمذي (٤/٦٢٦)، وابن ماجه (٢/١٤٣٣)، مسند الإمام أحمد (٥/٢٦٨).

(٤) فتح الباري (٩/٣).

(٥) صحيح مسلم (١/١٣٤).

والأجفان، سجودًا وبكاء وخشية، يخافونَ يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، وقدومهم على الملك الجبار، ولا يطمعونَ في دخول الجنة، وجل مناهم البعد عن دار البوار، والنجاة من النار.

والكريم الجليل زين دار رضوانه للوجلين الداعين إلى سبيله، وحتى يتم للجنة بهاؤها ورونقها، فإن الله تبارك اسمه يجمل الداخلين، ويسبغ عليهم من فضله ما يؤهلهم أن يكونوا مكملين لبهاء الجنة ورونقها وجمالها، فأهلُ الجنة يؤمئذ في الخلق على هيئة خلق آدم عليه السلام طولاً، روى مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها وقال رسول الله ﷺ: **(خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا.. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)**(١).

وإذا كان طولهم واحدًا، فإن صفة خلقية أخرى تتحلى بها أول مجموعة تلج الجنة، ألا وهي الجمال الباهر، جمال يشع نورًا وضياء، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(عن أول زمرة يدخلونَ الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولونَ ولا يتغوطونَ، ولا يتمخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا، في السماء)**(٢).

فإلى الجمال المضيء، إلى استبعاد ما تستقذره النفس، إلى التحلي بالذهب، والطيب وما يمتعهم به المنعم من أزواج كريمات، كما أن الخلق دليل على صفاء السريرة، فأشبه خلقهم بعضهم كذلك الخلق، فكلهم على صورة أبيهم آدم في الطول كنخلة سحوق.

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي نجد أوصافًا خلقية توضح شباب أهل الجنة وقوتهم وجمالهم، فعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: **(يدخلُ أهل الجنة الجنة جردًا،**

---

(١) صحيح مسلم (٢١٨٣/٤، ٢١٨٤).

(٢) صحيح مسلم (٢١٧٩/٤).

مردًا، مكحلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين)[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(أهل الجنة جرد مرد، كحلى، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم)**[٢]. ومن فيض فضل الكريم عليهم أن يترع من صدورهم الغل والحسد ويجعلهم إخوانًا (لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحونَ الله بكرة وعشيًا)[٣]، وهذا من قوله تعالى: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين﴾**[٤].

- طعام أهل الجنة وشرابهم:

حدثنا القرآن الكريم عن طعام أهل الجنة وشرابهم، فذكر الفواكه واللحم وأنواعًا من المطاعم والمشارب مما تشتهيه الأنفس وتلذ للأعين، وتطرقنا إلى أنهار العسل واللبن والخمر، وأن طعوم هذه المشارب مختلفة عن طعومها في الدنيا، فلا ريب أن ما في الجنة من لذائذ لا يشبه ما في الدنيا إلا في الأسماء، وأن ما ادخره الله للمؤمنين لن يدركه العقل البشري المحدود، والحديث الشريف صريح في ذلك، أنه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فأنى للعقل أن يدرك ما وراء هذه الأشياء.

ثمة حديث عند البخاري ومسلم كان جوابه سؤالاً لقادم على رسول الله ﷺ يسأله عن أول طعام لأهل الجنة، فيذكر الرسول ﷺ له أن زيادة كبد الحوت أول ما يتحف الله به أهل الجنة من الطعام.

والسؤال الموجه إلى الرسول كان من يهودي، ذكر أنه عبد الله بن سلام، وذكر بصيغة المجهول أو التنكير، وسؤاله يدلُ على ما عند اليهود من خبر السماء الذي يخفونه ولا يظهرونه للناس، فأحكام التوراة يحفظها كثير من علمائها ولا يتفوهون بها، ومحاجتهم للرسول ﷺ في بعض المواقف تكشف عما يخبئونه من معرفة بالتوراة وأحكامها وآدابها.

---

(١) سنن الترمذي (٦٨٣/٤)، المسند (٣٤٣/٢).
(٢) سنن الترمذي (٦٧٩/٤)، ومسند أحمد (ش) (٧٤/١٥).
(٣) فتح الباري (٣١٨/٦).
(٤) الحجر ٤٧.

والحديث الذي رواهُ البخاري أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ أول قدومه المدينة أسئلة منها: (ما أول طعام أهل الجنة؟) فقال: (**أما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت**)(١).

وفي صحيح مسلم عن ثوبان أن يهوديًا سأل الرسول ﷺ قال: (**فما تحفتهم حين يدخلونَ الجنة؟ قال: زيادة كبد الحوت، قال: فما غذاؤهم، على إثرها؟ قال: ينحرُ لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**).

قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين تسمى سلسبيلاً، قال: صدقت)(٢).

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: (**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة**) فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنـزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: (**ألا أخبرك بإدامهم؟**) قال: إدامهم بالا ونون قالوا: وما هذا؟ قال: (**ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهم سبعون ألفًا**)(٣).

قال النووي: (ومعنى الحديث: أن الله تعالى يجعل الأرض كالرغيف العظيم ويكون ذلك طعامًا ونزلاً لأهل الجنة، أما النون فهو الحوت باتفاق العلماء، وأما (بالام) فإنه لفظة عبرانية معناها: ثور، وأما زائدة الكبد وهي القطعة المنفردة المتعلقة في الكبد وهي أطيبها)(٤).

أمّا آنية الطعام التي يأكلونَ بها ويشربونَ فإنها من الذهب والفضة، وذلك لقوله تعالى: ﴿**يطافُ علـيهم بصحاف مـن ذهب وأكـواب**﴾(٥).

---

(١) فتح الباري (١٦٥/٨)، مسند الإمام أحمد (١٠٨/٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٢/١).

(٣) فتح الباري (٣٧٢/١١).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٣٥/١٧، ١٣٦).

(٥) الزخرف ٧١.

وقوله: ﴿**ويطافُ عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرًا قواريرًا من فضة قدروها تقديرًا**﴾ [(١)].

وفي الحديث قوله ﷺ: (**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما..**)[(٢)].

- لباس أهل الجنة وزينتهم:

وعد الله المؤمنين بالخير العميم في الجنة، وقد مر معنا من كرم الله وإنعامه على عباده ما يزيد شوق المؤمن إلى الاستزادة من العمل الصالح والجهاد المتواصل لنيل الرضا والمغفرة، وكلما قرأ العبد المؤمن في كتاب ربه ازداد يقينًا وانشراحًا، وكلما طالع في السنة المشرفة أحاديث رسول الله ﷺ شع قلبه بالضياء، وأشرق بالنور، وامتلأ بالأمل العظيم، ومما يطالعه ويفرح له ذكر النعم الوفيرة، فأهل الجنة من الإكرام والتنعم ما يعجزهم عن الشكر أو شطر منه، ولأهل الجنة يوم القيامة هيئة تزري بأنعم أهل الأرض، ملكا كان أو وجيهًا ثريًا، وذلك من فضل الرب على عباده المخلصين.

وتناول القرآن ما يلبس أهل الجنة فقال عز اسمه: ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير**﴾ [(٣)]، وقال: ﴿**جنات عدن يدخلونها يحلونَ فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير**﴾ [(٤)].

والحرير محرم على الرجال من المسلمين، وهو نوع ترف لا يليق بالرجال العاملين المجاهدين، وإنما يعوضهم الله به في الجنة، إذ إنها دار النعيم والجزاء والثواب، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله عنه خيرًا، وآتاهُ ما هو أفضل منه.

والحرير لباس المؤمنين في الجنة كما ورد في الآيات الكريمات، وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: أتى رسول الله ﷺ بثوب من

---

(١) الإنسان ١٥، ١٦.

(٢) فتح الباري (٦٢٣/٨)، الترمذي (٦٧٣/٤).

(٣) الحج ٢٣.

(٤) فاطر ٣٣.

حرير، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه، فقال رسول الله ﷺ: (**لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا**)(١).

وفي صحيح مسلم عن البراء يقول: أهديت لرسول الله ﷺ حلة من حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبونَ من لينها، فقال: (**أتعجبونَ من لين هذه؟ لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين**)(٢).

ومن حليتهم في الجنة أن أمشاطهم من الذهب والفضة، وأن روائحهم المسك لتنبعث من أردانهم زاكية، وعود الطيب بخور لهم، فعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال واصفًا من يدخل الجنة، ذاكرًا بعض ما يرزقونَ من النعيم: (**آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة**)، قال أبو اليمان: عود الطيب، ورشحهم المسك)(٣).

والتيجان حلية يعرف بها الشهداء، فعن المقدام بن معدي كرب، عن رسول الله ﷺ فيما يعطاهُ الشهيد يوم القيامة: (**يوضعُ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها**)(٤).

وثياب أهل الجنة لا تبلى، ولا تتلف، ولا تتغير ألوان ما يتنعمونَ به كما يجري ذلك على ما في الدنيا، إذ عمر كل شيء قصير، كما عمر الدنيا قصير، لا تلبث أن تزول.

ومن هيئات الجلوس التي يتنعمُ بها المؤمن في جنة ربه، الاتكاء، وقد ذكر الله عز وجل ذلك فقال: ﴿**متكئين على سرر مصفوفة وزوجنهم بحور عين**﴾ (٥)، وقال: ﴿**متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان**﴾ (٦).

---

(١) فتح الباري (٦/٣١٩).
(٢) صحيح مسلم (٤/١٩١٦)، وانظر كذلك مسند الإمام أحمد (٣/١٢١، ١٢٢).
(٣) فتح الباري (٦/٣١٩).
(٤) سنن الترمذي (٤/١٨٨)، مسند الإمام أحمد (٤/١٣١).
(٥) الطور ٢٠.
(٦) الرحمن ٧٦.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: **(إن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأته فتضرب على منكبيه فينظرُ في وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب)** [(١)].

- سوق أهل الجنة:

يفهم السامع من معنى السوق اجتماع الناس للبيع والشراء وتبادل المنافع والمصالح، ولا ينطبقُ هذا الفهم على سوق الجنة، فلا بيع ولا شراء هناك، وإنما اجتماع ولقاء وتزاور، يرى المؤمن أخاه الذي كان يعرفه في الدنيا فيحييه، ويناجيه، وما يسمعونَ في سوقهم إلا كل جميل من اللفظ، وطري من التحية، وعبق من الريح، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **(إن في الجنة لسوقًا، يأتونها كل جمعة، فتهبُ ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادونَ حسنًا وجمالاً، فيرجعونَ إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً، فيقولونَ: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً)**[(٢)].

ويروي الترمذي قصة سوق الجنة في حديث مفصل لما يدور في السوق، وما يتفضل الله به على المؤمنين من نعمة التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، فيقول: **(إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم، ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم دني على كثبانَ المسك والكافور وما يرونَ أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا)** .

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا؟ قال: نعم. قال: **(هل تتمارونَ في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر)** قلنا: لا، قال: **(كذلك لا تمارونَ في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاصره الله محاصرة حتى يقول**

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/٧٥)، وفي مشكاة المصابيح يروى بدل (سبعين سنة)، سبعين مسندًا، انظر: المشكاة (٣/١٥٧٢) بتحقيق: ناصر الدين الألباني.

(٢) صحيح مسلم (٤/٢١٧٨).

للرجل منهم يا فلان بن فلان: أتذكرُ يوم كذا وكذا؟ فيذكرُ ببعض غدراته في الدنيا: فيقول: يا رب، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فسعة مغفرتي بلغت بك مترلتك هذه) فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة فوقهم فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط، (ويقولُ ربنا تبارك وتعالى قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة فخذو ما اشتهيتم، فنأتي سوقًا قد حفت به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب، فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيها ولا يشترى، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا) قال: (فيقبل الرجل ذو المترلة المرتفعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دني، فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديث حتى يتخيل إليه ما هو أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها، ثم ننصرفُ إلى منازلنا فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبًا وأهلاً، لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فرقتنا عليه، فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبناه)(١).

ويحقق الله رغبة عبده لمجرد تمنيه الشيء، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن نبي الله ﷺ قال: (إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي)(٢).

ومما يغلبُ على الإنسان أن عادة النفوس جبلت على حب الاستكثار من الدنيا، ويوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يومًا يحدث -وعنده رجل من أهل البادية- أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكن أحب أن أزرع، قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستوؤاه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشيًا أو أنصاريًا، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحنُ فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله(٣).

---

(١) سنن الترمذي (٤/٦٨٥، ٦٨٦)، سنن ابن ماجه (٢/١٤٥٠، ١٤٥١).
(٢) مسند الإمام أحمد (٣/٩)، الترمذي (٤/٦٩٥).
(٣) فتح الباري (١٣/٤٨٧-٥/٢٧).

ويطمعُ السؤال السؤال، وباب التمني مفتوح في الجنة، إلا أن استعجال ابن آدم يحمله على معرفة المزيد، فهذا رجل يسأل النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله هل في الجنة من خيل؟ قال: (**إن الله أدخلك الجنة، فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطيرُ بك في الجنة حيث شئت**) قال: وسأله رجل: فقال: يا رسول الله، هل في الجنة إبل؟ قال: فلم يقل مثل ما قال لصاحبه، قال: (**أن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك**)[١].

- نساء أهل الجنة:

يهيئ الله في الجنة للمؤمنين من النعم ما لا يعرفه البشر، ولم يروهُ في الدنيا، ومن ذلك الحور العين، وهن نساء أهل الجنة، (واحدهن: حوراء، وهي: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها)[٢].

وقد قال الله تعالى: ﴿**كذلك وزوجناهم بحور عين**﴾ [٣]، ووصفهن عز وجل بأوصاف كثيرة، فهن الكواعب الأتراب، والأبكار اللائي لم يطمثهن إنس ولا جان، وهن العُرْب أنشأهن الله إنشاء المؤمنات، كما وصفهن رب العزة أهن أمثال اللؤلؤ المكنون، والياقوت والمرجان، وذكر أهن مقصورات في الخيام، وقد جال المفسرونَ في معنى مقصورات وضربوا في أودية كثيرة، ولعل خلاصة ما ذهبوا إليه أهن النساء المخدرات المصونات، ومن مجموع ما وصفهن به رب العزة يتبين أهن جمعن كل معاني الحسن والجمال، فما يستطيع شاعر أن يلم بهذه الأوصاف في امرأة من نساء الدنيا، ولا يقدر ناثر أن يتصور مثلاً من أمثلتهن ولو رزق ناصية البيان، وجاءته البلاغة مذعنة.

ويقول فيهن خالقهن ومبدعهن: ﴿**ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**﴾[٤]. والمطهرة: (من طهرت من الحيض، والبول، والنفاس، والغائط، والمخاط، والبصاق، وكل قذر، وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق

---

(١) الترمذي (٦٨١/٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث: محب الدين ابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت (٤٥٨/١).

(٣) الدخان ٥٤.

(٤) البقرة ٢٥.

السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاءة، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ)[١].

وحدثنا المصطفى ﷺ عن جمالهن، فذكر في حديث أول زمرة تلج الجنة، قوله: (ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن)[٢].

وهذه الشفافية والصفاء في نساء أهل الجنة لا يشبهه في نساء العالمين شيء من جمال أو حسن، وإنما هو متاع واستمتاع للمؤمن من باب التكريم الذي أعده الله له.

ولننظر إلى وصف آخر يطريه لنا رسول الله ﷺ وهو يذكر أن امرأة واحدة من نساء أهل الجنة لو رآها أهل الأرض لغشيت أبصارهم لوضاءة وجهها ونورها الذي أسبغه الباري، فما تكاد عيون الخلق تقوى على النظر إليه، كما أن ريحها الطيبة تملأ الدنيا عطرًا وزكاة مشم، وحقارة هذه الدنيا وتفاهتها تبدو عند خمارها الذي فوق رأسها، الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه خير من الدنيا وما فيها، قال رسول الله ﷺ: **(ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت على أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها)** [٣].

وإذا كانت هذه صفة امرأة واحدة، ويرى الإنسان أنه يمتلك كل السعادة إن بلغ هذه المترلة، فكيف به إن كانت له زوجتان وهو ما مر معنا في حديث الشيخين، ولعل له أكثر من ذلك.

أما الشهيد فله من الفضل ما ليس لأحد غيره، وللشهداء مكانة كبيرة أثنى الله عليهم في محكم الكتاب وبشرهم رسوله في حديثه الشريف، فعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: **(للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه)**[٤].

---

(١) حادي الأرواح، ابن قيم الجوزية (١٧٣).

(٢) فتح الباري (٦/٣١٨)، مسلم (٤/٢١٧٨).

(٣) فتح الباري (٦/١٥)، مسند الإمام أحمد (٣/١٤١).

(٤) الترمذي (٤/١٨٨)، ابن ماجه (٣/٩٣٥)، مسند الإمام أحمد (٤/١٣١).

ذكر الحديث أنها ست خصال وفي المتن هي سبع، و لم أجد لها تعليلاً، وليست هي الوحيدة، إنما تصادفنا في بعض الأحاديث أمثالها، يذكرُ الراوي العدد ويختلف المعدود إن زيادة وإن نقصًا.

والحديث صريح بأن للشهيد ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.

ونفهم من حديث رسول الله ﷺ أن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع لهن مثيل، وهذا الغناء مقتصر على الأزواج، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها**) قال: (**يقلن: نحنُ الخالدات فلا نبيدُ، ونحنُ الناعماتُ فلا نبؤس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له**)(١).

وعن ابن عمرن عن النبي ﷺ قال: (**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، إن مما يغنين: نحنُ الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرن بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحنُ الخالدات فلا يمتنه، نحنُ الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه**)(٢).

وغناء الحور العين من زيادة النعيم في الجنة، والتلذذ بسماع أصواتهن الجميلة، وليس في غنائهن من الهذر السخيف، ولغو الكلام وباطل الأحاديث، فالجنة دار الطهر والعفاف والنظافة، فكل ما فيها جميل باعث على السرور، فهي حياة أبدية لا يعكر صفوها موت، أو خلاف، أو نزاع، أو ما يشوب الحياة من أكدار.

والزوجة المدخرة في الجنة للمؤمن تغار على زوجها وهو في الدنيا، فبإسناد صحيح عن معاذ -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: (**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذينه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا**)(٣).

وفي باب صفة جماع أهل الجنة روى الترمذي عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: (**يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**) قيل: يا رسول الله

---

(١) سنن الترمذي (٤/٦٩٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير الألباني (٢/٤٨)، والحديث مروي في المعجم الأوسط للطبراني.

(٣) سنن الترمذي (٣/٤٦٨)، ابن ماجه (١/٦٤٩)، مسند الإمام أحمد (٥/٢٤٢).

أو يطيق ذلك؟ قال: (**يعطى قوة مائة**).

إنه عطاء الوهاب الكريم، فما من عطاء مهما قل، إلا وهو أعظمُ من أي عطاء ينفقه موسر في الدنيا، بل إن المقارنة لا تصلح في هذا الباب، وما من شيء يهبه الله لعبده في الجنة إلا وهو يوازي تلك الدار، ولا قياس له من أحوال الدنيا.

- الغاية القصوى: رؤية الله تعالى:

يتقلب أهل الجنة في النعيم الذي أكرمهم الله به عندما أدخلهم دار الرضوان، ويتأملون ما هم فيه، وما يكابده الكفار من نار جهنم، فيحمدونَ الله ويسبحونه على أن أنقذهم من العذاب وشملهم برحمته. ويتذكرونَ أيام الدنيا الفانية وما كانوا عليه، وتصديقهم برسالة الحق، وما انقلبوا إليه، فيزدادونَ حمدًا لله وشكرًا وتعظيمًا. وهذا من مدلول ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (**لا يدخلُ أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة**)(١).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقالُ: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيمٌ قط؟، فيقول: لا يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغُ صبغة في الجنة، فيقالُ له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله، يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**)(٢).

وأنى لعبد يتخطر في هذا الأنس الكبير والنعمة الجليلة وينظرُ بعين عقله لما أنجاهُ الله منه، وما أفاء عليه من خير بإنقاذه من النار، ورضائه عنه، أن يهوم به فكره أن ينال أكثر مما نال، لكن العظيم الجليل لا حد لفضله، ليخاطب أهل الجنة، فقد روى أبو سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: (**إنَّ الله يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟، فيقولون:**

---

(١) فتح الباري (١١/٤١٨)، مسند الإمام أحمد (٢/٥١٢).

(٢) صحيح مسلم (١٧/١٤٩).

وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقولُ: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا)[1].

يقول ابن أبي جمرة: (والحكمة في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار أنه لو أخبر به قبل الاستقرار لكان خيرًا من باب علم اليقين، فأخبر به بعد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ [2]. ويقول: (وفي الحديث دليل على رضا كل من أهل الجنة بحاله مع اختلاف منازلهم، وتنويع درجاتهم؛ لأن الكل أجابوا بلفظ واحد وهو: أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك)[3].

وأعظمُ نعمة يمن الله بها على عباده من أهل الجنة النظر إلى وجهه الكريم وتكليمه إياهم، وقد صرح تبارك وتعالى برؤية عباده لخالقهم في الجنة، فقال: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [4]، أما الكفار أصحاب النار فقال عنهم: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ [5].

ومسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر لها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون[6].

وقد روى مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: (**إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدونَ شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب**

---

(١) فتح الباري (٤٨٧٩/١٣، مسلم/ (١٦٨/١٧)، الترمذي (٦٨٩/٤).
(٢) السجدة ١٧.
(٣) فتح الباري (٤٨٨/١٣).
(٤) القيامة ٢٣.
(٥) المطففين ١٥.
(٦) شرح العقيدة الطحاوية (٢٠٨/١).

إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[١].

وفي رواية الترمذي اختلاف يسير، فعن صهيب عن النبي ﷺ في قوله: **﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾**[٢] قال: **(إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدًا، قالوا: ألم يبيض وجوهنا، وينجنا من النار ويدخلنا الجنة؟ قالوا: بلى، قال: فينكشفُ الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه)**[٣].

وأحاديث رؤية الله تبارك وتعالى في الجنة متواترة إذ رواها نحو ثلاثين صحابيًا[٤] وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة[٥].

ورؤية الله يوم القيامة رؤية حقيقية، يقول صاحب العقيدة الطحاوية: (والرؤية لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: **﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة﴾**[٦]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناهُ على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه)[٧].

وفي شرح هذا النص تناول ابن أبي العز كل ما يثار حول مسألة الرؤية، وفند أقوال نفاة الرؤية، ورد عليهم، وبين فيه خطورة تأويل النصوص، وبين أن قوله تعالى: **﴿وجوه يوم ناضرة* إلى ربها ناظرة﴾** من أظهر الأدلة على إثبات الرؤية.

---

(١) صحيح مسلم (١/١٦٣).
(٢) يونس ٢٦.
(٣) سنن الترمذي (٤/٦٨٧).
(٤) انظر النهاية لابن كثير (٢/٣٠٠-٣٠٣).
(٥) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٠٨).
(٦) القيامة ٢٢، ٢٣.
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٠٧).

وعند ذكر الآية الكريمة: ﴿**كلا إنهم عن ربهـــم يومئذ لمحجوبون**﴾ قال: (احتج الشافعي -رحمه الله- وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، روى ذلك الطبري، وغيره والمزني عن الشافعي، وقال الحاكم، حدثنا الأصم، حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرتُ محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله-، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقولُ في قول الله عز وجل: ﴿**كلا إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون**﴾ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا)(١).

ومن أحاديث الرؤية حديث أبي هريرة: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (**هل تضارونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟**) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (**هل تضارون رؤية في الشمس ليس دونها سحاب؟**) قالوا: لا، قال: (**فإنكم ترونه كذلك**)(٢).

وحديث جرير بن عبد الله البجلي، قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: (**إنكم سترونَ ربكم عيانًا، كما ترونَ هذا، لا تضامونَ في رؤيته**)(٣).

ومن حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه-: (ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فيقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظرُ عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة)(٤).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢١٢/١).

(٢) فتح الباري (٤١٩/١٣)، مسلم (١٦٣/١، ١٦٤)، الترمذي (٦٨٨/٤)، أبو داود (٥٣٥)، الإمام أحمد (٢٧٥/٢، ٢٩٣، ٣٦٨، ٥٢٤).

(٣) فتح الباري (٤١٩/١٣)، مسلم (٤٣٩/١)، الترمذي (٦٨٨/٤)، أبو داود (٥٣٥/٢)، ابن ماجه (٦٣/١)، الإمام أحمد (٣٦٠/٤، ٣٦٢، ٣٦٥).

(٤) فتح الباري (٢٨١/٣)، مسلم (٧٠٣/٢)، الترمذي (٦١١/٤)، ابن ماجه (٦٦/١)، الإمام أحمد (٢٥٦/٤، ٣٧٧).

والله سبحانه لا يستطيع بشر أن يراه في الدنيا لا لامتناع الرؤية وإنما لعجز الأبصار، (فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصري في شعاعها، ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة، أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته)[١].

أما عن تشبيه رؤية الله سبحانه وتعالى بالشمس والقمر فليس ذلك تشبيهًا لله بل (هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالرائي، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه)[٢].

(إن رؤية الله تعالى في الآخرة هي (الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة)[٣].

- أصناف أخرى في الجنة:

أبواب الخير في الإسلام مشرعة، يلج منها كل راغب في رضوان الله، ومبتغ لجنته، وهناك من أعمال البر ما يدخل صاحبه الجنة، وفي الأحاديث النبوية الشريفة من هذه الإشارات الكثير، نقتطفُ من وردها ما نضيفه إلى هذا البحث؛ وتختلف درجات العباد باختلاف درجات الأعمال، فمن يقدم عملاً كبيرًا مندوبًا إليه، يختلف عن مؤمن تقعد به همته، فيرى في العمل القليل مترلة العمل الجليل ومن هذه الأعمال:

- الشهداء ومكانتهم يوم القيامة:

والحديث عن الشهداء يستدعي الكلام عن الجهاد في سبيل الله، والجهاد مرتبة عظيمة لا ينالها إلا من قويت عزيمته، ونظر إلى الآخرة نظرة لا تبقى للدنيا أثرًا في قلبه، وأهمه أمر دينه حتى عاهد الله لينصرنه حتى آخر قطرة من دمه، والله عز وجل أقر المسلمين بجهاد الأعداء ونصرة الدين، والتمكين لأمره وحكمه في الأرض: ولو رحنا نستقصي ما ورد في الكتاب والسنة من أوامر إلهية وتوجيهات نبوية لأعيانا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٢٠).

(٢) المرجع السابق (١/٢١٩).

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير الجزري (١٠/٥٥٧).

الحصر ولضاق المقام، فمبحث هذا شأنه تستوعبه المجلدات الضخمة، ولا يحويه عنوان صغير، وحسبنا أن نشير هنا إلى مكانة من يتمثلونَ هذه الحقيقة الكبرى في دين الإسلام ويحرصونَ على بلوغ غايتها.

ومن صفات المجاهدين أنهم: (قوم باعوا نفوسهم وأموالهم لله، ورغبوا في عاجل لقاه، لينالوا الحياة الآجلة الأبدية التي لا يصطفي الله لها من خلقه إلا خيارهم الذين يتخذهم شهداء، ومن صفاتهم أنهم يختارونَ الجوع والعطش والخوف لا الشبع والري والأمن في الحياة الدنيا ليسبقوا إلى نعيم الله الدائم في دار كرامته. ينام الناس ويسهرونَ، ويتمتع الناس بملذات الدنيا وطيباتها وهم منها محرومون، إذا تغطى القاعدونَ على سررهم بأنواع الثياب، وافترشوا أجود الزرابي وتوسدوا ألين النمارق، كان غطاء المجاهدين نقع غبار التحامهم بالأعداء، وكان فرشهم الحصى والشوك، وكانت وسائدهم أسلحتهم التي بها يقارعون الكفار)[(١)].

إن هؤلاء الذين يتمتعون برضوان الله عز وجل في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أدركوا مغزى حديث رسول الله ﷺ وهو يقول: (**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شُفع لم يشفع له**)[(٢)].

وقمة الفهم والإدراك أن يتمثل في تطبيق عملي يجد المرء نفسه صورة صادقة لمعنى قول المصطفى ﷺ حتى يكون مع الذين أنعمَ الله عليهم ووصف مقامهم في قرآنه.

ويبين فضل الشهيد وكرامته قوله ﷺ: (**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتلَ عشر مرات لما يرى من الكرامة**)[(٣)].

---

(١) الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته، د. عبد الله أحمد القادري دار المنارة -جدة- الطبعة الأولى، ١٩٨٥، الجزء الأول (١٢) بتصرف.

(٢) فتح الباري (٦/٨١-١١/٢٥٣).

(٣) فتح الباري (٦/٣٢)، مسلم (٣/١٤٩٨).

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله -هو ابن مسعود- عن هذه الآية: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ [1]. قال: أما إنا سألنا عن ذلك فقال: (أرواحهم في جوف طير خُضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: تشتهونَ شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحنُ نسرحُ من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريدُ أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[2].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (**انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا الإيمان بي وتصديق برسلي، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدتُ خلف سرية، ولوددتُ أني أقتلُ في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**)[3].

ودم الشهيد رائحته المسك، وهذه الكرامة يبعث بها الشهيد يوم القيامة فتدل على مكانته. فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ، قال: (**كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها، إذا طعنت تفجر دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**)[4].

وتظلل ملائكة الرحمن الشهيد بأجنحتها، فعن جابر قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهونني، والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: (**لا تبكه ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفع**)[5].

والشهداء في أفضل دور الجنة وأحسنها، فعن سمرة قال: قال النبي ﷺ: (**رأيت**

---

(١) آل عمران ١٦٩.

(٢) صحيح مسلم (١٥٠٢/٣).

(٣) فتح الباري (٩٢/١)، مسلم (١٤٩٧/٣).

(٤) فتح الباري (٣٤٤/١)، مسلم (١٤٩٦/٣)، الدارمي (١٢٥/٢)، ابن ماجه (٩٣٤/٢).

(٥) فتح الباري (٣٧٤/٧).

الليلة رجلين أتياني، فصعدا بي الشجرة وأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قال: أما هذه الدار فدار الشهداء)[١].

والأحاديث الدالة على تعظيم أمر الجهاد وتسهيل أمر الدنيا كثيرة، فمنها حديث رسول الله ﷺ: (**ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**)[٢]. ومنها قوله ﷺ: (**لا يجمع الله في جوف رجل غبارًا في سبيل الله ودخان جهنم، ومن اغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار**)[٣].

وقوله ﷺ: (**من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**)[٤].

وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها**)[٥]. وفي رواية: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)[٦].

وفي قوله ﷺ: (**خير من الدنيا وما فيها**) قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: (يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من باب تتريل المغيب مترلة المحسوس تحقيقًا له في النفس لكون الدنيا محسوسة في النفس، مستعظمة في الطباع، فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة.

الثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها، لأنفقها في طاعة الله تعالى)[٧].

---

(١) فتح الباري (٦/١١).

(٢) فتح الباري (٦/٢٩).

(٣) مسند الإمام أحمد (٦/٤٤٣-٤٤٤).

(٤) مسند الإمام أحمد (٥/٢٣٥)، أبو داود (٢/٢٠)، الترمذي (٤/١٨١)، ابن ماجه (٢/٩٣)، النسائي (٦/٢٢).

(٥) فتح الباري (٦/٨٥).

(٦) فتح الباري (٦/١٤).

(٧) فتح الباري (٦/١٤).

وفي غزوة أحد أصيب المسلمون بما أدمى النفوس وأجرى مدامع العيون حزنًا على من فقد، وكل نفس تجزع في الملمات، وكان بينهم رسول الله ﷺ يرصد قلق النفوس، ويلتمس الدواء للقلوب الوجلة، وما أسرع شفاء صدورهم، وتلقفهم لكلام محدثهم الكريم، لما تنطوي عليه هذه الجوانح من إيمان عميق وتصديق بليغ.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (**لما أصيبَ إخوانكم بأحد جعل الله -عز وجل- أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل، هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء﴾**[1])[2].

إن منـــزلة الشهيد يوم القيامة منزلة رفيعة يستشرف لها الناس في الجنة فيغبطونهم على ما نالوا من درجة، ويتطلع إليها المخلصونَ في الدنيا لعلهم يدركونَ شرف الشهادة الموصلة إلى هذا المقام الكبير عند رب العرش العظيم، ويتضح -بعد ذلك- هدف الجهاد العام الذي شرع من أجله بما فضل به، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجلُ يقاتل للمغنم، والرجلُ يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: (**من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله**)[3].

- التزام الأركان:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: (**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**) قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولى، قال النبي ﷺ: (**من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى**

---

(١) آل عمران ١٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد (١٢٣/٤) (ش).

(٣) فتح الباري (٢٧/٦)، ومسلم (١٥١٢/٣).

هذا)[١].

وعن المعرور بن سويد، قال: سمعتُ أبا ذر يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: (**أتاني جبريل -عليه السلام-، فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق**)[٢].

وعن أبي سعيد الخدري قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: (**يا أبا سعيد: ثلاثة من قالهن دخل الجنة، قلت: ما هن يا رسول الله؟ قال: من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**) ثم قال: (**يا أبا سعيد، والرابعة لها من الفضل كما بين السماء إلى الأرض، وهي الجهاد في سبيل الله**)[٣].

- الصدق:

والصدق فضيلة أشاد الإسلام بها، وحث على التمسك بها لما ينبني عليها من دعائم الحق، وما يهدي إلى وضوح القصد، والبعد عن الضلال، والجور، والسفه. ورسول الله ﷺ يصوغ هذا المعنى في كلمات ذات مغزى عظيم فيقول: (**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزالُ الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا..**)[٤].

وفي حديث آخر أن رجلاً جاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: (**الصدق، وإذا صدق العبد بَرَّ، وإذا بَرَّ آمن، وإذا آمن دخل الجنة**)[٥].

- إفشاء السلام:

من أساليب تأليف القلوب وزيادة روابط المودة، ما أفصح عنه رسول الله ﷺ بأسلوب إفشاء السلام بين الناس في قوله ﷺ: (**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام**

---

(١) فتح الباري (٣/٢٦١)، مسلم (١/٤٣، ٤٤).
(٢) صحيح مسلم (١/٩٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٣/١٤).
(٤) صحيح مسلم (٤/٢٠١٣).
(٥) مسند الإمام أحمد (١٠/١٦) (ش).

بينكم)[١].

وعن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة استشرفه الناس، فقالوا: قدم رسول الله ﷺ، قال: فخرجتُ فيمن خرج، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: (**يا أيها الناس: أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**)[٢].

- الصبر على البلاء:

وغاية البلاء على نفس ابن آدم أن يفقد فلذة كبده، فكيف به إذا جاء البلاء بثلاثة من أعزائه أو أربعة، عند ذاك تعظم مصيبته، ويشتد حزنه وألمه ولوعته، والصبر والاحتساب مما يهون على المؤمن مصابه. والحق تبارك وتعالى وما أخذ من الإنسان شيئًا وهبه إياه إلا زاده في رده، وعوضه ما هو خير منه، قال رسول الله ﷺ: (**ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد أدخلهما الله الجنة**)، قالوا: يا رسول الله، وثلاثة؟ قال: (**وثلاثة**) قالوا: يا رسول الله، واثنان؟ قال: (**واثنان**)[٣].

وفي رواية: (**ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وأباهما بفضل رحمته الجنة**) وقال: (يقال لهم: ادخلوا الجنة)، قال: (فيقولون متى يجيء أبونا)، قال: (ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)[٤].

وفي رواية: (من أثكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله عز وجل) فقال أبو عشانة مرة في سبيل الله ولم يقلها مرة أخرى- (وجبت له الجنة)[٥].

- البراءة من الكِبْرِ والغُلُول والدَّيْن:

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (**من فارق الروح**

(١) صحيح مسلم (٧٤/١).
(٢) سنن الدارمي (٢٨٠/١)، الترمذي (٦٧٣/٤)، ابن ماجه (١٠٨٣/٢).
(٣) مسند الإمام أحمد (٣١٢/٥، ٣١٣).
(٤) مسند الإمام أحمد (٥١٠/٢).
(٥) مسند الإمام أحمد (١٤٤/٤).

الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: من الكبر، والغلول، والدين)[١].

وفي حديث أنس بن مالك، عن الرجل الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **(يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة)**، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه.. أن الرجل سئل عما بلغ به هذه المرتبة التي بلغها فقال.. لا أجدُ في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه... فقال عبد الله -يعني عبد الله بن عمرو- هذه التي بلغت بك وهي التي نطيق[٢].

- **متفرقات:**

حياة المسلم خير كلها، لا يدري المرء ما يعقب السراء أو يرزق بعد الضراء، ولكن حياته تمتد وتمتد ويصحب امتدادها أثقال الأوزان إما إلى خير فجنة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار لا تخمد جذوتها ولا يخفف من عذابها.

وتتمثل هذه الأعمال الصالحة فيما تسجله السنة الشريفة من أفعال الصحابة. وإقرار الرسول لهم عليها أو توجيههم إلى الأعمال هي للأمة نبراس يضيء مدى القرون، فبلال -رضي الله عنه- يسمع رسول الله ﷺ خشف نعليه في الجنة فيسأله عن أرجى عمل عمله في الإسلام فيجيبه أنه ما تطهر طهورًا إلا صلى بذلك الطهور ما كتب له أن يصلي[٣]، وربيعة الأسلمي يسأل رسول الله ﷺ مرافقته في الجنة فيقول له ﷺ: **(فأعني على نفسك بكثرة السجود)**[٤]، ومن فقد بصره فصبر واحتسب أثابه الله على ذلك بالجنة[٥]، ورجل يخبر رسول الله ﷺ أنه يحب قراءة سورة (الإخلاص) فيقول له رسول الله ﷺ: **(حبك إياها أدخلك الجنة)**[٦]، ورجل

---

(١) سنن الدارمي (٢/١٧٧)، مسند الإمام أحمد (٥/٢٧٦)، الترمذي (٤/١٣٨) ابن ماجه (٢/٨٠٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/١٦٦).

(٣) مسند الإمام أحمد (١٨/١٩٩) (ش).

(٤) صحيح مسلم (١/٣٥٣).

(٥) مسند الإمام أحمد (٤/٢٩)، (ش).

(٦) مسند الإمام أحمد (٣/١٥٠).

عزل شجرة عن الطريق كانت تؤذي الناس فيقول عنه المصطفى ﷺ: (**فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة**)[١]. وللجار حقوق على جاره قد توصل من يؤذي الآخر إلى غضب الجبار فلا يدخل الجنة، وخلافه صحيح[٢]، وكذلك قاطع الرحم[٣].

والمسلم يعود المسلم يسعى في مخرفة الجنة وينطلق في أرجائها[٤]. وفي مكارم الأخلاق والحض عليها قال رسول الله ﷺ: (**ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟**) فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قال القوم: نعم يا رسول الله، قال: (**أحسنكم خلقًا**)[٥].

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول ﷺ: (**من يتقبل لي بواحدة أتقبل له الجنة**). قال: قلتُ: أنا يا رسول الله، قال: (**لا تسأل الناس شيئًا**)[٦]. قال: (يعني عبد الرحمن بن معاوية، راوي الحديث): فربما سقط سوط ثوبان وهو على بعيره فما يسأل أحدًا أن يناوله حتى ينزل إليه فيأخذه[٧]. ومداومة ذكر الله عز وجل يجعلُ قلب العبد معلقًا بخالقه فيكون منه قريبًا، وفي الحديث ما يقرب ذلك في قوله ﷺ: (**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر**)[٨].

وأعمال البر طالما حرص الرسول ﷺ على توجيه أصحابه إلى الإكثار منها وها هو ذا يسأل: (**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، قال: (**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا. قال: (**فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه- أنا، قال: (**فمن عاد**

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٤/٣).
(٢) صحيح مسلم (٦٨/١).
(٣) صحيح مسلم (١٩٨١/٤).
(٤) مسند الإمام أحمد (٢٧٦/٥).
(٥) مسند الإمام أحمد (٢٧/١١) (ش).
(٦) مسند الإمام أحمد (٢٨١/٥).
(٧) مسند الإمام أحمد (٢٨١/٥).
(٨) مسند الإمام أحمد (٢٤٤/١٣) (ش).

قال: (**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا. قال: (**فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه- أنا، قال: (**فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟**) قال أبو بكر -رضي الله عنه-: أنا، فقال رسول الله ﷺ: (**ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة**)(١).

ويقول ﷺ: (**أدخل الله عز وجل الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا**)(٢).

والرجل يضطجع ويلتزم بآداب الإسلام كهيئة النوم وقراءة الدعاء المأثور فهو في الجنة(٣).

والرجل يموت مرابطًا في سبيل الله يراح عليه برزقه من الجنة ويكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة(٤).

والظلمُ من أشد الأسباب التي تباعد بين العبد وبين الجنة، وتقربه من النار، والعدل يسعى به إلى دار السلام، فما من عبد يسترعيه الله رعية ويموت يوم يموت وهو غاش لها، إلا حرَّم الله عليه الجنة(٥)، ومن رمى بسهم في سبيل الله كانت له درجة في الجنة، ومن أعتق رجلاً مسلمًا كان له وقاية من النار(٦).

وتجمع بعض الأحاديث طائفة من التوجيهات الكريمة، ومؤدى العمل بها تجلية شخصية المسلم الحق، وعليها يترتب سمته الخاص فيكون قدوة ومثلاً، ويدخل في عداد من عناهم رسول الله ﷺ في قوله: (**اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**)(٧).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: (**أيها الناس، ثنتان من وقاه الله شرهما دخل**

---

(١) صحيح مسلم (٢/٧١٣).
(٢) مسند الإمام أحمد (١/٣٣٥) (ش).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤/٢٩٦).
(٤) مسند الإمام أحمد (١٨/٣٧) (ش).
(٥) صحيح مسلم (٢/١٦٥).
(٦) مسند الإمام أحمد (٤/٣٨٤).
(٧) مسند الإمام أحمد (٥/٣٢٣) انظر الأحاديث الصحيحة للألباني (٣/٤٥٤).

الجنة) قال: فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، لا تخبرنا ما هما، ثم قال: اثنان من وقاه الله شرهما دخل الجنة، حتى إذا كانت الثالثة أجلسه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: ترى رسول الله ﷺ يريدُ يبشرنا فتمنعه، فقال: إن أخاف أن يتكل الناس، فقال: **(ثنتان من وقاه الله شرهما دخل الجنة، ما بين لحييه وما بين رجليه)**(١).

ورحمة الله الواسعة وعطاؤه المغدق يزيد في تفاؤل المسلم وهو يتوجه إليه، ويرغب فيما عنده، ويزدد يقين المؤمن حين يتلو كتاب الله العزيز فيرى آياته تفيضُ بالبشريات، ويقرأ حديث رسوله ﷺ فيرى عفو الله ومغفرته التي لا تترك لعبد أن يسيء الظن في أمر من أمور الآخرة مهما دق، وظنه المرء خافيًا لا يؤبه له، فإذا هو عند الله عظيم.

ومما يتبادر إلى ذهن البشر وهم يشهدونَ ما يجري أمام أعينهم فيحكمونَ للوهلة الأولى بما يقدرونَ مما يرون، وحكمه عند الله غير ما يحكمون ويقدرون.

فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: **(يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة**، فقالوا: كيف يا رسول الله؟ **قال: (يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل فيستشهد، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم، فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد)** (٢).

وعن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(يعجبُ ربك عز وجل من راعي غنم في رأس الشظية للجبل يؤذنُ بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم يخاف شيئًا، قد غفرتُ له وأدخلته الجنة)** (٣).

وفي رواية أخرى: **(قال: ويخاف مني قد غفرت له فأدخلته الجنة)** (٤).

ويبقى فضل الله سبحانه وتعالى لا يحيط به ولا يحده حد، ولا تبلغه عقول القاصرين، وحسب المرء إحسان الظن بعمله والصدق فيه، والسعي نحو مرضاة خالق الخلق، حتى يكون مع من أنعم الله عليه فشملهم برحمته وأدخلهم جناته.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/٣٦٢).
(٢) صحيح مسلم (٣/١٥٠٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤/١٥٧).
(٤) نفس المرجع السابق.

الفهرس